

السيرة النبوية لابن هشام

في تفسير السيرة النبوية لابن هشام

للإمام أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن

أختفى السهيلي

المتوفى سنة ٥٨١ هـ

ومعه
السيرة النبوية

للإمام أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري

المتوفى سنة ٢١٣ هـ

عاش عليه روض عمرائه

بحر به نصوص به سيرة الشري

تنبيه

وضعنا نص السيرة النبوية لابن هشام في أعلى الصفحات

ووضعنا أسفل منها نص الروض الأنف

وفصلنا بينهما بخط

الجزء الثاني

منشورات

مخرج إلى بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مبادأة رسول الله ﷺ قومه

قال ابن إسحاق: ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به. ثم إن الله - عز وجل - أمر رسوله ﷺ - أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادي الناس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ - أمره، واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين - فيما بلغني - من مبعثه، ثم قال الله تعالى له: ﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]. وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾^(١) [الشعراء: ٢١٥ - ٢١٧].

قال ابن هشام: فاصدع: افرق بين الحق والباطل. قال أبو ذؤيب الهذلي، واسمه: خويلد بن خالد، يصف أتن وخش وفحلها:

وكانهن ربابة، وكأنه يسر يفيض على القداح ويضدع

مبادأة رسول الله ﷺ قومه

أصل الصلاة لغة:

ذكر في الحديث: أن أبا طالب حدى على رسول الله ﷺ - وقام دونه: أصل الحدى: انحناء في الظهر، ثم استعير فيمن عطف على غيره، ورق له كما قال النابغة: حديت علي بطون ضبة كلها إن ظالمًا فيهم، وإن مظلوما

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/١٩٩) والوفا (٢٤٠) والمنظم لابن الجوزي (١/٣٦٤).

أي: يُفَرِّق على القِداح وَيَبَيِّن أنصباها. وهذا البيت في قصيدة له. وقال رؤبة بن العجاج:

أنتَ الحَلِيمُ، والَأَمِيرُ الْمُنتَقِمُ تَصَدَّعُ بِالْحَقِّ، وَتَنْفِي مَن ظَلَمَ
وهذان البيتان في أرجوزة له.

صلاة الرسول وأصحابه في الشعاب:

قال ابن إسحاق: وكان أصحابُ رسول الله ﷺ إذا صَلَّوا، ذهبوا في الشعاب، فاستَخَفُّوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سَعَدُ بن أبي وقَّاص في نَفَرٍ من أصحاب رسول الله - ﷺ - في شِعْبٍ من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفرٌ من المشركين - وهم يصلُّون - فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعدُ بن أبي وقَّاص يومئذ رجلاً من المشركين بِلُخْيٍ بغير، فشجَّه، فكان أَوَّلَ دم هُرِيق في الإسلام^(١).

عداوة الشرك للرسول ومساومته لعمِّه:

قال ابن إسحاق: فلما بادى رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلَّم قومه بالإسلام وصَدَعَ به كما أمره الله، لم يبعد منه قَوْمُهُ، ولم يردُّوا عليه - فيما بلغني - حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خِلَافَهُ وعداوتَهُ، إلا مَنْ عَصَمَ الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مُسْتَخَفُّون، وَحَدِّبَ على رسول الله ﷺ عمُّه أبو طالب، ومنعه وقام دونه، ومضى رسولُ الله - ﷺ - على أمر الله، مُظْهِراً لأمره، لا يردُّه

ومثل ذلك الصلاة، أصلها: انحناء وانعطاف من الصَّلَوَيْنِ وهما: عرقان في الظهر إلى الفخذين، ثم قالوا: صَلَّى عليه، أي: انحنى عليه، ثم سَمُّوا الرحمة حُنُوًّا وصلاة، إذا أرادوا المبالغة فيها، فقولك: صَلَّى الله على محمد، هو أَرْقُ وأَبْلَغُ من قولك: رحم الله محمدًا في الحنوِّ والعطف. والصلاة أصلها في المحسوسات غَبَّرَ بها عن هذا المعنى مبالغة وتأكيدًا كما قال الشاعر:

فما زِلْتُ في لَيْبِنِي [له] وتَعَطُّفِي عليه، كما تحنو على الولد الأمُّ

ومنه قيل: صَلَّيتُ على الميت أي: دعوت له دعاء مَنْ يحنو عليه ويتعطف عليه. ولذلك لا تكون الصلاة بمعنى الدعاء على الإطلاق: لا تقول: صَلَّيْتُ على العدو، أي: دعوت عليه. إنما يقال: صَلَّيْتُ عليه في معنى الحُنُوِّ والرحمة والعطف؛ لأنها في الأصل

(١) أخرجه ابن الجوزي في الوفا (٢٦٣) وذكره ابن الجوزي في المنتظم (٣٦٧/١) ونسبه لابن برير.

عنه شيء. فلما رأت قريش، أن رسول الله ﷺ لا يُغْتَبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ، أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ، مِنْ فِرَاقِهِمْ وَعَيْبِ آلِهِمْ، وَرَأَوْا أَنْ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ قَدْ حَدَّبَ عَلَيْهِ، وَقَامَ دُونَهُ، فَلَمْ يُسَلِّمْهُ لَهُمْ، مَشَى رَجَالٌ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ إِلَى أَبِي طَالِبٍ، عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَاةٍ بْنِ قُصَيٍّ بْنِ كِلَابٍ بْنِ مُرَّةٍ بْنِ كَعْبٍ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ. وَأَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَاةٍ بْنِ قُصَيٍّ بْنِ كِلَابٍ بْنِ مُرَّةٍ بْنِ كَعْبٍ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ بْنِ فِهْرٍ.

قال ابن هشام: واسم أبي سفيان: صخر.

قال ابن إسحاق: وأبو البخترى، واسمه: العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قُصَيٍّ بْنِ كِلَابٍ بْنِ مُرَّةٍ بْنِ كَعْبٍ بْنِ لُؤَيٍّ.

انعطاف، ومن أجل ذلك عُذِّيت في اللفظ بعلى، فتقول: صَلَّيت عليه، أي: حَنَوْتُ عليه، ولا تقول في الدعاء إلا: دعوتُ له، فَتَعَدِّي الفعل باللام، إِلَّا أَنْ تَرِيدَ الشَّرَّ والدعاء على العدو، فهذا فرق ما بين الصلاة والدعاء، وَأَهْلُ اللُّغَةِ لم يفرقوا، ولكن قالوا: الصلاة بمعنى الدعاء إطلاقاً، ولم يفرقوا بين حالٍ وحالٍ، ولا ذكروا التعدي باللام، ولا بعلى، ولا بدَّ من تقييد العبارة، لما ذكرناه، وقد يكون الْحَدَّبُ أيضًا مستعملاً في معنى المخالفة إذا قُرِنَ بِالْقَعَسِ كقول الشاعر:

وإن حذبوا، فأقعس^(١) وإن هم تقاعسوا لينتزعوا ما خَلَفَ ظهرك فاخذب
وكقول الآخر:

ولن يُنْهِنَهُ^(٢) قوماً أنت خائِفُهُم كمثل وَفِيكَ^(٣) جُهَالاً بِجُهَالٍ
فأقعس إذا حذبوا، واخذب إذا قعسوا ووازن الشرَّ مثقالاً بمشقال
أنشده الجاحظ في كتاب الحيوان له.

أبو البخترى:

فصل: وذكر مجيء النفر من قريش إلى أبي طالب في أمر النبي ﷺ، وذكر أنسابهم،

(١) القعس: دخول الظهر وخروج الظهر. والقصيدة في كتاب الحيوان للجاحظ (١٧٤/٥) منسوبة لأبي الأسود الدؤلي. والقاف والعين والسين أصل صحيح يدل على ثبات وقوة، والأقعسان: جبلان طويلان، وليل أقعس: أي طويل ثابت. انظر مقاييس اللغة (١٠٩/٥).

(٢) نهته: زجر.

(٣) وقم الرجل: أكرهه وأذله.

قال ابن هشام: أبو البَحْتَرِيّ: العاص بن هاشم.

قال ابن إسحاق: والأسود بن المطّلب بن أسد بن عبد العزّى بن قُصَيّ بن كلاب بن مُرّة بن كَعْب بن لُؤَيّ. وأبو جهل - واسمه عمرو، وكان يُكنى أبا الحَكَم - ابن هشام بن المُغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم بن يَظْظَةَ بن مُرّة بن كَعْب بن لُؤَيّ. والوليد بن المُغيرة بن عبد الله بن عمر بن مَخْزوم بن يَظْظَةَ بن مُرّة بن كعب بن لؤي، ونُبيه ومُنَبّه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سَهْم بن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لُؤَيّ. والعاص بن وائل.

قال ابن هشام: العاص بن وائل بن هاشم بن سَعِيد بن سهم بن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لُؤَيّ.

قال ابن إسحاق: أو مَنْ مشى منهم. فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلَهِتَنَا، وعاب ديننا، وسَفَهُ أعلامنا، وضلّل آبائنا، فإِذَا أَنْ تُكْفَهُ عَنَّا، وإِذَا أَنْ تُخْلِي بَيْنَنَا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً، وردّهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا عنه.

ومضى رسولُ الله ﷺ على ما هو عليه، يُظهِر دينَ الله، ويدعو إليه، ثم شَرِيّ الأمرُ بينه وبينهم حتى تباعد الرجال، وتضاغنوا، وأكثرَت قُرَيْشُ ذِكْرَ رسول الله - ﷺ - بينها، فتذامروا فيه، وحضَّ بعضهم بعضاً عليه، ثم إنهم مَشَوْا إلى أبي طالب مرّة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سِتّاً وشرقاً ومنزلةً فينا، وإِنَّا قد استثنيناك من ابن أخيك فلم تَنْهه عَنَّا، وإِنَّا والله لا نَصْبِر على هذا مِنْ شَتَمِ آبائنا، وتَسْفِيهِ أعلامنا، وعَيْبِ آلَهِتَنَا، حتى تُكْفَهُ عَنَّا، أو تُنْازِله وإِيَّاكَ في ذلك، حتى يَهْلِكَ أَحَدُ الفريقين، أو كما قالوا له. ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتهم، ولم يَطْبُ نفساً بإسلام رسول الله - ﷺ - لهم ولا خِذْلَانَهُ^(١).

وذكر فيهم أبا البَحْتَرِيّ بن هشام، قال: واسمُه: العاصي بن هشام، وقال ابن هشام: هو العاصي بن هاشم، والذي قاله ابن إسحاق هو قول ابن الكلبي، والذي قاله ابن هشام هو قول الزبير بن أبي بكر وقول مُضْعَبٍ^(٢) وهكذا وجدت في حاشية كتاب الشيخ أبي بحر: سفيان بن العاصي.

(١) البيهقي في الدلائل (١٨٧/٢) وابن الجوزي المنتظم (٣٦٨/١) الكامل لابن الأثير (٥٨٥/١).

(٢) انظره في نسب قريش (٢٠٩).

مناصرة أبي طالب للرسول ﷺ

قال ابن إسحاق: وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث: أن قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله - ﷺ - فقال له: يا بن أخي، إن قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا، والذي كانوا قالوا له، فأبقي عليّ، وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق: فظنّ رسول الله - ﷺ - أنه قد بدأ لعمه فيه أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. قال: رسول الله - ﷺ -: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر

لو وضعوا الشمس في يميني

فصل: وذكر قول النبي - ﷺ - «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أدع هذا الذي جئت به ما تركته»، أو كما قال^(١). خصّ الشمس باليمين؛ لأنها الآية المُنْصِرة، وخصّ القمر بالشمال لأنها الآية المَمْحُوة، وقد قال عمر - رحمه الله - لرجل، قال له: إني رأيت في المنام كأن الشمس والقمر يقتتلان، ومع كل واحد منهما نُجُومٌ، فقال عمر: مع أيهما كنت؟ فقال: مع القمر، قال: كنت مع الآية المَمْحُوة، اذهب، فلا تعمل لي عملاً، وكان عاملاً له، فعزّله، فقتل الرجل في صِفَيْنِ مع معاوية، واسمه: حابس بن سعد، وخصّ رسول الله - ﷺ - الثَّيْرَيْنِ^(٢) حين ضُرب المثل بهما؛ لأن نورهما محسوسٌ، والنور الذي جاء به من عند الله - وهو الذي أرادوه على تركه - هو لا مَحَالَةَ أشرف من النور المخلوق، قال الله سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة: ٣٣]. فاقتضت بلاغة النبوة - لما أرادوه على ترك النور الأعلى - أن يقابله بالنور الأدنى، وأن يخصّ أعلى الثَّيْرَيْنِ، وهي الآية المْبَصِرة بأشرف اليدين، وهي اليمنى بلاغة لا مثلها، وحكمة لا يجهل اللبيب فضلها^(٣).

البداء:

وقول ابن إسحاق: ظنّ رسول الله - ﷺ - أن قد بدأ لعمه بداء، أي: ظهر له رأي،

(١) «ضعيف». أخرجه الطبري في تاريخه (١/٥٤٥) والبيهقي في الدلائل (٢/١٨٧) وابن إسحاق في المغازي (١/٢٨٤). وهو معضل.

(٢) الثيرين: الشمس والقمر.

(٣) تقدم تخريج الحديث وبيان ضعفه وبين السهلي على بعض الأحاديث الضعاف كلام كثير وإن كان حسناً وتأويل وتفسير مقبول، ولكنه يزداد حسناً إذا كان الحديث صحيح. فرحمه الله تعالى رحمة واسعة وجزاه الله عتاً كل خير.

حتى يُظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته». قال: ثم استغبر رسول الله - ﷺ - فبكى ثم قام، فلما ولّى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخي، قال: فأقبل عليه رسول الله - ﷺ - فقال: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحبيت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

قال ابن إسحق: ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله - ﷺ - وإسلامه وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مشّوا إليه بعمارة بن

فسمّى الرأي بداء، لأنه شيء يبدو بعد ما خفي، والمصدر البدء والبُدُو والاسم: البداء، ولا يقال في المصدر: بدا له بُدُو، كما لا يقال: ظهر له ظهورٌ بالرفع؛ لأن الذي يظهر، ويبدو هاهنا هو الاسم: نحو البداء وأنشد أبو علي:

لعلك والموعودُ حقٌّ وفأؤه بدا لك في تلك القُلُوصِ^(١) بداء

ومن أجل أن البُدُو هو الظهور، كان البداء في وصف الباري - سبحانه - مُحالاً؛ لأنه لا يبدو له شيء كان غائباً عنه، والنسخ للحكم ليس ببداء كما توهمت الجهلة من الرافضة واليهود، إنما هو تبديل حكم بحكم بقدر قدره، وعلم علمه، وقد يجوز أن يقال: بدا له أن يفعل كذا، ويكون معناه: أراد. وهذا من المجاز الذي لا سبيل إلى إطلاقه إلا بإذن من صاحب الشرع، وقد صحّ في ذلك ما خرّجه البخاري في حديث الثلاثة: الأعمى والأقرع والأبرص، وأنه عليه السلام قال: بدا لله أن يبتليهم^(٢)، فبدا هنا بمعنى: أراد، وذكرنا الرافضة، لأن ابن أعين، ومن اتبعه منهم، يُجيزون البداء على الله تعالى، ويجعلونه والنسخ شيئاً واحداً، واليهود لا تُجيز النسخ يحسبونه بداءً، ومنهم من أجاز البداء كالرافضة، ويروى أن علياً - رحمه الله - صلى يوماً، ثم ضحك فسئل عن ضحكك فقال: تذكرت أبا طالب حين فرضت الصلاة، ورأيتني أصلي مع رسول الله - ﷺ - بنخلة فقال: «ما هذا الفعل الذي أرى؟» فلما أخبرناه، قال: «هذا حسن، ولكن لا أفعله أبداً، لا أحب أن تعلوني استي» فتذكرت الآن قوله، فضحكت^(٣).

عرض قريش على أبي طالب:

فصل: وذكر قول المَلَأ من قريش لأبي طالب: هذا عمارة بن الوليد أنه قد فتى في قريش، وأجمله، فخذّه مكان ابن أخيك. أنه قد. أي: أقوى وأجلد، ويقال: فرسٌ نهْدٌ للذي يتقدّم الخيل، وأصل هذه الكلمة: التقدم، ومنه يقال: نهْدٌ ثديّ الجارية، أي: برز قُدْمُه.

(٢) «صحيح». أخرجه البخاري (٣/١٣٧).

(١) القلوص من الإبل: الشابة.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في المنتظم (١/٣٥٩).

الوليد بن المُغيرة، فقالوا له - فيما بلغني - : يا أبا طالب، هذا عُمارةُ بن الوليد، أنهدُ قَتَى في قريش وأجمله، فخذَه فلك عَقْلَه ونَصْرَه، واتخذَه ولدًا فهو لك، وأسلمَ إلينا ابنُ أخيك هذا، الذي قد خالف دينَكَ ودينَ آبائك، وفرَّق جماعة قومك، وسفَّه أحلامهم، فنقتله فإنما هو رجل برجل، فقال: والله لبئس ما تسوموني! أتُعطونني ابنكم أغدوه لكم، وأعطيكُم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبدًا. قال: فقال المُطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قُصَيٍّ: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا، فقال أبو طالب للمُطعم: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعتَ خذلاني ومُظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك، أو كما قال. قال: فحَقَبَ الأمر، وحميت الحرب، وتناذب القوم، وبأدى بعضهم بعضًا.

فقال أبو طالب عند ذلك - يُعرِّض بالمُطعم بن عدي - وَيَعُمُّ مَن خذَلَه من بني عبد مناف، وَمَن عاداه من قبائل قُريش، ويذكر ما سألوه، وما تباعد من أمرهم:

وعُمارة بن الوليد هذا المذكور هو: الذي أرسلته قريش مع عمرو بن العاص إلى أرض الحبشة فسُحر هناك، وجُنَّ، وسنزید في خبره شيئًا بعد هذا إن شاء الله.

وذكروا أن أبا طالب قال لهم حين سألوه أن يأخذ عُمارة بدلًا من محمد ﷺ: أرايتم ناقة تحنّ إلى غير فصيلها وترأّمه^(١) لا أعطيكُم ابني تقتلونه أبدًا، وأخذ ابنكم أكفله، وأغدوه، ولهو معنى ما ذكر ابن إسحق قال ابن إسحق فحَقَبَ الأمرُ عند ذلك، يريد: اشتد، وهو من قولك: حَقَبَ البعير إذا راغ عنه الحَقَب من شدة الجهد والنصب، وإذا عسر عليه البول أيضًا لشدّ الحَقَب^(٢) على ذلك الموضع، فيقال منه: حَقَبَ البعير، ثم يستعمل في الأمر إذا عَسِرَ، وكذلك قوله: فشَرِي الأمر عند ذلك، أي: انتشر الشرّ، ومنه الشَّرَى، وهي قُروح تنتشر على البدن^(٣)، يقال منه: شَرِي جلدُ الرجل، يَشْرَى شَرَى^(٤).

شعر أبي طالب:

فصل: وذكر شعر أبي طالب:

(١) ترأّمه: تحبه وتحنو عليه.

(٢) الحَقَب: الحزام يلي حقو البعير.

(٣) كالبثور الصغار.

(٤) انظر مزيد إيضاح للقصة في تاريخ الطبري (١/٥٤٥) ط. دار الكتب العلمية. وكذا المنتظم لابن الجوزي (١/٣٦٧).

أَلَا قُلْ لَعَمْرُو وَالْوَلِيدِ وَمُطْعِمٍ
 مِنْ الْخُورِ حَبْحَابَ كَثِيرَ رُغَاوَهُ
 تَخَلَّفَ خَلْفَ الْوَرْدِ لَيْسَ بِلَا حَقِّ
 أَرَى أَخَوَيْنَا مِنْ أَيْبِنَا وَأَمْنَا
 بَلَى لَهُمَا أَمْرٌ، وَلَكِنْ تَجَرُّجَمَا
 أَلَا لَيْتَ حَظِّي مِنْ حَيَاطَتِكُمْ بَكَرُ
 يُرَشَّ عَلَى السَّاقِينِ مِنْ بَوْلِهِ قَطْرُ
 إِذَا مَا عَلَا الْفَيْفَاءُ قِيلَ لَهُ: وَبَرُ
 إِذَا سُئِلَا قَالَا: إِلَى غَيْرِنَا الْأَمْرُ
 كَمَا جَزَجَمْتُ مِنْ رَأْسِ ذِي عَلَقٍ صَخْرُ

أَلَا قُلْ لَعَمْرُو وَالْوَلِيدِ. إِلَى آخِرِ الشَّعْرِ.

وفيه:

أَلَا لَيْتَ حَظِّي مِنْ حَيَاطَتِكُمْ بَكَرُ

أي: إن بكراً من الإبل أنفع لي منكم، فليته لي بدلاً من حياطتكم كما قال طرفة في عمرو بن هند:

قَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَلِكِ عَمْرُو رَعُوثًا^(١) حَوْلَ قُبَّتِنَا تَخُورُ

وقوله: مِنَ الْخُورِ حَبْحَابُ. الْخُورُ: الضَّعَافُ، وَالْحَبْحَابُ بِالْحَاءِ: الصَّغِيرُ. وَفِي حَاشِيَةِ كِتَابِ الشَّيْخِ أَبِي بَحْرٍ: جَبْجَابُ بِالْجِيمِ، وَفَسَّرَهُ فَقَالَ: هُوَ الْكَثِيرُ الْهَذَرُ، وَفِي الشَّعْرِ:

إِذَا مَا عَلَا الْفَيْفَاءُ قِيلَ لَهُ: وَبَرُ

أَي يُشَبَّهَ بِالْوَبْرِ لَصَفَرِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ: يَضَعُرُ فِي الْعَيْنِ لَعَلُّو الْمَكَانِ وَبَعْدَهُ، وَالْفَيْفَاءُ فَعْلَاءُ، وَلَوْلَا قَوْلُهُمْ: الْفَيْفُ، لَكَانَ حَمَلُهُ عَلَى بَابِ الْقَضْقَاضِ^(٢) وَالْجَزْجَارِ^(٣) أَوْلَى، وَلَكِنْ سُمِعَ الْفَيْفُ، فَعَلِمَ أَنَّ الْأَلْفِينَ زَائِدَتَانِ، وَأَنَّهُ مِنْ بَابِ قَلَقَ وَسَلَسَ الَّذِي ضَوَعَتْ فِيهِ فَاءُ الْفَعْلِ دُونَ عَيْنِهِ، وَهِيَ الْفَاظُ يَسِيرَةُ نَحْوِ قَلَقَ وَسَلَسَ وَتُلُثُ وَسُدُسَ، وَقَدْ اعْتَنَيْنَا بِجَمْعِهَا مِنَ الْكَلَامِ، وَلَعَلَّ لَهَا مَوْضِعًا تَذَكَّرَ فِيهِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا تَكُونُ أَلْفُ فَيْفَاءَ لِلإِلْحَاقِ فَيَصْرَفُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْكَلَامِ: فَعْلَالُ، فَإِنْ قِيلَ: يَكُونُ مَلْحَقًا بِقَضْقَاضٍ وَبَابِهِ، قُلْنَا: قَضْقَاضٌ ثَنَائِي مُضَاعَفٌ، فَلَا يُلْحَقُ بِهِ الثَّلَاثِي، كَمَا لَا يُلْحَقُ الرَّبَاعِي بِالثَّلَاثِي، وَلَا الْأَكْبَرُ بِالْأَقْلِ، وَقَدْ حَكِيَ فَيْفَاءُ بِالْقَصْرِ وَلَيْسَتْ أَلْفُهَا لِلتَّأْنِيثِ، إِذْ لَا يَجْمَعُ بَيْنَ عَلَامَتِي تَأْنِيثٍ، فَهِيَ إِذَا مِنْ بَابِ أَرْطَاةٍ وَنَحْوِهَا، كَأَنَّهَا مَلْحَقَةٌ بِسَلْهَبَةٍ^(٤). وَفِي الشَّعْرِ:

كَمَا جَزَجَمْتُ مِنْ رَأْسِ ذِي عَلَقٍ صَخْرُ

(٢) القَضْقَاضُ: شَجَرٌ مِنَ الْحَمَضِ.

(٤) السَّلْهَبَةُ: الْجَسِيمَةُ مِنَ النَّسَاءِ.

(١) الرُّغُوثُ: هِيَ كُلُّ مَرْضُوعَةٍ.

(٣) الْجَزْجَارُ: ضَرْبٌ مِنَ النَّبَاتِ.

أُخْصَ خُصُوصًا عَبْدَ شَمْسٍ وَتَوَفَّلَا هُمَا نَبَذَانَا مِثْلَ مَا يُنْبَذُ الْجَمْرُ
هُمَا أَعْمَزَا لِلْقَوْمِ فِي أَخَوَيْهِمَا فَقَدْ أَضْبَحَا مِنْهُمْ أَكْفُهُمَا صِفْرُ
وَتَنِيمَ وَمَخْزُومَ وَزُهْرَةَ مِنْهُمْ وَكَانُوا لَنَا مَوْلَى إِذَا بُغِيَ النَّصْرُ
فَوَاللهِ لَا تَنْفِكَ مَنَا عَدَاوَةً لَا مِنْهُمْ مَا كَانَ مِنْ نَسْلِنَا شَفْرُ
فَقَدْ سَفُهِتْ أَحْلَامُهُمْ وَعُقُولُهُمْ وَكَانُوا كَجَفْرِ بئسَ مَا صَنَعْتَ جَفْرُ
قال ابن هشام: تركنا منها بيتين أقذع فيهما.

قال ابن إسحق: ثم إن قريشًا تذاَمروا بينهم على مَنْ في القبائل منهم من أصحاب رسول الله - ﷺ - الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على مَنْ فيهم من المسلمين يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله - ﷺ - منهم بعنه أبي طالب، وقد قام أبو طالب، حين رأى قريشًا يصنعون ما يصنعون في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه، مِنْ مَنْع رسول الله - ﷺ - والقيام دونه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب، عدو الله الملعون.

وترك صَرْفَ عَلَقٍ، إما لأنه جعله اسم بقعة، وإما لأنه اسم علم، وترك صرف الاسم العلم سائق في الشعر، وإن لم يكن مؤنثًا ولا عجميًا نحو قول عباس بن مرداس:

وما كان جِصْنٌ ولا حَابِسٌ يفوقان مِرْدَاسَ فِي الْمَجْمَعِ
ونحو قول الآخر:

يَا مَنْ جَفَّانِي وَمَلَأَ نَسِيتَ أَهْلًا وَسَهْلًا
وَمَاتَ مَرْحَبُ لِمَا رَأَيْتَ مَا لِي قَلَأَ

فلم يصرف مَرْحَبًا، وسيأتي في هذا الكتاب شواهد كثيرة على هذا، ونشرح العِلَّةَ فيه إن شاء الله تعالى^(١)، ولو رُوِيَ: من رأس ذي عَلَقٍ الصخر بحذف التنوين لالتقاء الساكنين، لكان حَسَنًا، كما قُرِئ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدُ اللهُ الصَّمَدُ﴾ بحذف التنوين من أحد، وهي رواية ابن أبي عمرو بن العلاء، وقال الشاعر:

حميد الذي أمج داره

(١) انظر ألفية الإمام مالك (٣/ ٢٢٤ - ٢٢٨).

فلما رأى أبو طالب من قومه ما سرّه في جهدهم معه، وحَدَبهم عليه، جعل يمدحهم ويذكر قديمهم، ويذكر فضلَ رسول الله - ﷺ - فيهم ومكانه منهم، ليشُدّ لهم رأيهم، وليخَدبوا معه على أمره، فقال:

إذا اجتمعَت يوماً قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍ	فَعَبْدُ مَنْافٍ سِرُّهَا وَصَمِيمُهَا
فإن حُصِلَتْ أَشْرَافُ عِبْدِ مَنْافِهَا	فَفِي هَاشِمٍ أَشْرَافُهَا وَقَدِيمُهَا
تَدَاعَتْ قُرَيْشٌ غَثُّهَا وَسَمِيمُهَا	عَلَيْنَا فَلَمْ تَظْفَرْ وَطَاشَتْ حُلُومُهَا
وَكُنَّا قَدِيمًا لَا نُقِرُّ ظِلَامَةً	إِذَا مَا ثَنُوا صُغَرَ الْخُدُودِ تُقِيمُهَا
ونحْمِي جِماها كُلَّ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ	وَنَضْرِبُ عَنْ أَجْحَارِهَا مَنْ يَرُومُهَا
بنا انتَعَشَ العودُ الدَّوَاءُ، وإنما	بَأَكْنَفَانَا تَنْدِي وَتَنْمِي أَرْوَمُهَا

موقف الوليد بن المغيرة من القرآن^(١)

ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفرٌ من قُرَيْشٍ - وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضر

وقال آخر:

ولا ذاكر الله إلا قليلاً

وأُشْد قول أبي طالب:

إذا اجتمعَت يوماً قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍ فَعَبْدُ مَنْافٍ سِرُّهَا وَصَمِيمُهَا

قوله: سرّها، أي: وَسَطُهَا، وَسَرُّ الوادي وَسِرَّارَتُهُ: وَسَعْلُهُ، وقد تقدّم متى يكون الوسط مدحاً، وأن ذلك في موضعين: في وصف الشهود، وفي النسب، وبيئنا السرّ في ذلك.

وقال في القصيدة: ونضرب عن أحجارها مَنْ يَرُومُهَا. أي ندفع عن حصونها ومعقلها، وإن كانت الرواية: أحجارها بتقديم الجيم، فهو جمع جُحْرٍ والجُحْر هنا مُسْتَعَارٌ، وإنما يريد عن بيوتها ومساكنها.

موقف الوليد بن المغيرة من القرآن

وذكر خبر الوليد بن المغيرة وقوله: فيما جاء به النبي - ﷺ - من الوحي والقرآن: قد سمعنا الشعر فما هو بهزَجِه، ولا رَجَزَه. والهَزَجُ من أَعَارِضِ الشَّعْرِ معروفٌ عند

(١) انظر الكامل (١/٥٩٢).

الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل، وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم، فقولوا أسمع، قالوا: نقول: كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهّان، فما هو بزَمْزَمَة الكاهن ولا سَجْعَه، قالوا: فنقول: معجون، قال: ما هو بمعجون، لقد رأينا الجُنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تَخَالِجُه، ولا وَسْوسَتِه، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله: رجزه وهَزْجه وقَرْيَضُه ومَقْبُوضُه ومَبْسُوطُه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحَّارَ وسِخْرَهُم، فما هو بِنَفْثِهِم ولا عَقْدِهِم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لِقَوْلِه لحلاوة، وإن أصله لَعَذْق، وإن فَرْعُه لَجَنَاة - قال ابن هشام: ويقال لَعَذَق - وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِفَ أنه باطل، وإن أقرب القول

العروضيين، ولا أعرف له اشتقاقاً إلا أن يكون من قولهم في وصف الذباب: هَزَج، أي: مُتَرَمِّمٌ^(١)، وأما الرِّجْزُ^(٢) فيحتمل أن يكون من رجزت الحمل إذا عدلته بالرجازة، وهو شيء يعدل به الحمل، وكذلك الرِّجْزُ في الشعر أَسْطَارٌ مُعَدَّلَةٌ، ويجوز أن يكون من رَجَزَتْ الناقة إذا أصابها رَغْدَةٌ عند قيامها، كما قال الشاعر: حتى تقوم تكلف الرِّجْزَاءُ فالْمُرْتَجِزُ كأنه مُرْتَعِدٌ عند إنشاده لِقَصْرِ الأبيات.

وقوله: قد سمعنا الكهّان، فما هو بزَمْزَمَة الكاهن ولا سَجْعَه: الزَمْزَمَة صوت ضعيف كنعو ما كانت الفُرْسُ تفعله عند شربها الماء، ويقال أيضاً: زَمْزَم الرُّعْد، وهو صوت له قبل الهَدْر، وكذلك الكهّان، كانت لهم زَمْزَمَة الله أعلم بكيفيّتها، وأما زَمْزَمَة الفُرْس، فكانت من أُنُوفِهِم.

وقول الوليد: إن أصله لَعَذَق، وإن فَرْعُه لَجَنَاة. استعارة من النَّخْلَة التي ثَبَتَ أصلُها،

(١) هزج: الهاء والزاء والجيم: أصل صحيح يدل على صوت. يقولون الهزج: صوت الرعد، وبه شبه الهَزَج من الأغاني. قال: كأنها جارية تهزج. انظر مقاييس اللغة (٦/٥٢). وفي اللسان (٢/٣٩٠). الهزج: صوت مطرب، والهزج: نوع من أعاريض الشعر، وهو مفاعيلن مفاعيلن، على هذا البناء كله أربعة أجزاء سُمِّيَ بذلك لتقارب أجزائه.

(٢) رجز: الراء والجيم والزاء أصل يدل على اضطراب، من ذلك الرجز داء يصيب الإبل في أعجازها، فإذا ثارت الناقة ارتعشت فحذاها، ومن هذا اشتقاق الرجز من الشعر؛ لأنه مقطوع مضطرب. مقاييس اللغة (٢/٤٨٩). وفي اللسان (٥/٣٥٠): قال ابن سيدة: «الرجز شعر ابتداء أجزائه سيان ثم وتد، وهو وزن يسهل من السمع ويقع في النفس...».

فيه لأن تقولوا: ساحر، جاء بقول هو سحر يُفَرَّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. ففترقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون يسُبِّل الناس حين قَدِموا الموسِمَ، لا يمرّ بهم أحدٌ إلا حذَّروه إياه، وذكروا لهم أمره.

ما نزل في حق الوليد من القرآن

فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة، وفي ذلك من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهَدَاءَ وَمَهَذْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١١ - ١٦] أي خصيما.

قال ابن هشام: عنيدًا: معاند مخالف. قال رؤية بن العجاج:

ونحن ضرائبون رأس العنيد

وقوي وطاب فرعها إذا جنى^(١)، والنخلة هي: العَذْقُ بفتح العين، ورواية ابن إسحق أفصح من رواية ابن هشام؛ لأنها استعارة تامة يشبه آخر الكلام أوله، ورواية ابن هشام: إن أصله لَعْدَقُ، وهو الماء الكثير، ومنه يقال: عَنَدَقَ الرجل إذا كثُر بصافه، وأحد أعمام النبي - ﷺ - كان يُسَمَّى: العَنِدَاقُ لكثرة عطائه، والعَنِدَقُ أيضًا ولد الضَّبِّ، وهو أكبر من الحَسَلِ قاله قُطْرُبٌ في كتاب الأفعال والأسماء له^(٢).

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾

فصل: وذكر ابن إسحق قول الله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ الآيات التي نزلت في الوليد، وفيها له تهديد ووعد شديد، لأن مَعْنَى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ أي دَعْنِي وإياه، فسترى ما أصنع به، كما قال: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤] وهي كلمة يقولها المغتاظ إذا اشتد غيظه وغضبه، وكره أن يُشْفَعَ لِمَنْ اغتَاطَ عليه، فمعنى الكلام: أي: لا شفاعة تنفع لهذا الكافر، ولا استغفار يا محمد منك، ولا من غيرك^(٣) وقوله: ﴿وبنِينَ شُهَدَاءَ﴾ أي: مقيمين معه غير محتاجين إلى الأسفار والغيبة عنه، لأن ماله ممدود والمال الممدود عندهم: اثنا عشر ألف دينار، فصاعدًا ﴿وَمَهَذْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ أي: هَيَّأْتُ لَهُ، وقَدِّمْتُ لَهُ مقدمات استِزْجَاجًا لَهُ، وقوله تعالى: ﴿سَأُزْهِقُهُ صَعُودًا﴾ هي عَقَبَةٌ في جهنم، يقال لها: الصُّعُودُ مسيرُها سبعين سنةً، يكلّفُ الكافر أن يَصْعَدَهَا، فإذا صعدَهَا بعد

(١) جنى: أي طاب.

(٢) انظر نواد أبي زيد (ص ٩٢).

(٣) قوله: «وهي كلمة يقولها المغتاظ إذا اشتد غيظه وغضبه» لا تليق وصفًا لغضب الله تعالى وتفسيرًا لقوله.

وهذا البيت في أرجوزة له :

﴿سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا إِنَّهُ فَكَرَّرَ وَقَدَّرَ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ [المدثر: ١٧ - ٢٢].

قال ابن هشام: بسر: كره وجهه. قال العجاج:

مُضَبَّر اللَّحْيَيْنِ بَسْرًا مِنْهَا

يصف كراهية وجهه. وهذا البيت في أرجوزة له:

﴿ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٣ - ٢٥].

قال ابن إسحق: وأنزل الله تعالى: في رسوله - ﷺ - وفيما جاء به من الله تعالى، وفي النفر الذين كانوا معه يُصَنِّفُونَ الْقَوْلَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وفيما جاء به من الله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ فَوَرَّكُوا لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٠ - ٩٣].

قال ابن هشام: واحدة العِضِينَ: عِضَّة، يقول: عَضُّوه: فرقوه^(١). قال رؤية بن العجاج:

وَلَيْسَ دِينَ اللَّهِ بِالْمُعَضَّى

عذاب طويل صَبٌّ من أعلاها، ولا يتنفس، ثم لا يزال كذلك أبدًا، كذلك جاء في التفسير^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي: لَمِنَ كيفما كان تقديره فكيف هاهنا من حروف الشرط، وقيل معنى قتل: أي هو: أهل أن يُدْعَى عليه بالقتل، وقد فسر ابن هشام: بَسَرَ وَالْبَسْرُ أَيضًا: القهر، وَالْبَسْرُ حَمْلُ الْفَحْلِ عَلَى النَّاقَةِ قَبْلَ وَقْتِ الضَّرَابِ. وفسر عِضِينَ،

(١) وقد وقع في هذا بعض الرعاة الذين جعلوا القرآن مناسبات ومواسم، فإذا جاء الحج أخذوا بعضه وإذا جاء رمضان أخذوا بعضه وإذا جاء الإسراء أخذوا بعضه وهكذا...، ثم لا تجدوا أكثرهم يأخذ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فلا تكاد تسمعها أو تسمع لها تفسيرًا وكأنها ليست من كتاب الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، فأظهروا وبينوا بعض الكتاب وأضعفوا البعض الآخر، فلا مناسبة لذكره!!!.

(٢) «ضعيف الإسناد». أخرجه الترمذي (٣٣٢٦). وفيه ابن لهيعة: ضعيف. ودراج: ضعيف الرواية عن أبي الهيثم.

وهذا البيت في أرجوزة له.

قال ابن إسحاق: فجعل أولئك النفر يقولون ذلك في رسول الله - ﷺ - لِمَنْ لَقُوا من الناس، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله - ﷺ - فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها.

أبو طالب يفخر بنسبه وابن أخيه

فلما خشي أبو طالب دَهْماء العرب أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التي تَعَوَّدَ فيها بحَرَم مكة وبمكانه منها، وتودَّد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يُخبرهم وغيرهم في ذلك من شعره أنه غير مُسَلِّمٍ رسول الله - ﷺ - ولا تاركه لشيء أبدًا حتى يهلك دونه، فقال:

ولمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ لَا وَدَّ فِيهِمْ	وقد قطعوا كلَّ العُرَى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى	وقد طاورعوا أمرَ العدوِّ المُزاييل
وقد حالفوا قومًا عَلَيْنَا أَظُنَّةٌ	يَعَضُّونَ غَيْظًا خَلَفْنَا بِالْأَنَامِلِ
صَبَرْتُ لَهُمْ نَفْسِي بِسَمَرَاءِ سَمْحَةٍ	وأبيضَ عَضْبٍ مِنْ ثَرَاثِ الْمَقَاوِلِ

وجعله من عَضْبٍ أَي فَرَّقَتْ، وفي الحديث: «لَا تَعْضِيَّةُ فِي مِيرَاثٍ إِلَّا مَا احْتَمَلَهُ الْقَسَمُ»^(١) ومعنى هذا الحديث موافقٌ لمذهب ابن القاسم ورأيه في كل ما لا ينتفع به إذا قسم أو كان فيه ضرر على الشريكين ألا يقسم، وهو خلاف رأي مالك، وحجة مالك قول الله تعالى: ﴿وَمِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَضِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧]. وقد قيل في عَضْبَيْنِ إنه جمع عَضْة، وهي السُّحْر وأنشدوا:

أعوذُ بربي من النافثا ت في العقد العاضيه المُغَضيه
ومنه قولهم:

يَا لِلْعَضِيَّةِ وَيَا لِلْأَفِيكَةِ [ويا لِلْبَهِيَّةِ]

شرح لامية أبي طالب

فصل: وذكر قصيدة أبي طالب إلى آخرها، وفيها: وأبيض عَضْبٍ مِنْ ثَرَاثِ الْمَقَاوِلِ.

(١) «ضعيف». أخرجه البيهقي في الكبرى (١/١٣٣) والدارقطني (٤/٢١٩) بتحقيقي. فيه صديق بن موسى بن عبد الله: ليس بحجة.

وأحضرتُ عند البيت رَهْطِي وإخوتي
 قِيَامًا مَعًا مُسْتَقْبِلِينَ رِتَاجَهُ
 وحيثُ يُنِيخُ الأشْعَرُونَ رِكَابَهُمْ
 مُوسِمَةَ الْأَعْضَادِ، أَوْ قَصْرَاتِهَا
 وأمسكتُ من أثوابِهِ بالوَصَائِلِ
 لديّ حيثُ يُقْضَى حَلْفُهُ كُلُّ نَافِلِ
 بِمُفْضَى السَّيُولِ من إِسَافٍ ونائلِ
 مُخَيَّسَةً بَيْنَ السَّدِيسِ وبازلِ

قد شرحنا الأقيال والمقاول، فيما تقدم، وتراث أصله: وُراث من وَرَثت، ولكن لا تبدل هذه الواو تاء إلا في مواضع محفوظة، وعلتها كثرة وجود التاء في تصاريف الكلمة، فالتراث مال قد تُورث. وتوارثه قوم عن قوم، فالتاء مستعملة في التوريث والتوارث، وكذلك تجاه البيت، التاء مستعملة في التَوَجُّهِ والتَّوجِيهِ ونحوه، فلما أَلْفُوها في تصاريف الكلمة لم ينكروا قلب الواو إليها، كما فعلوا في ريحان وهو من الرُّوح لكثرة الياء في تصاريف الكلمة، كما قدّمنا قبل، وهي في تراث وبابه أبعد؛ لأن الياء المألوفة في مادة الكلمة زائدة، وياء ريحان ليست كذلك، وكذلك الثَّكَاء من توكأت وتَثَرَى من التواتر، والتَّوَلَّج من التَّوَلَّج والمُتَلَّج، لأنهم يقولون: اتَّلَجَ بالتشديد، فتصير الواو تاء للإدغام، حتى يقولوا: مُتَلَّج فيجعلونها تاء دون الإدغام، وهذا أشبه بقياس رَيحان وبابه؛ فإن التاء الأولى من مُتَلَّج أصلية وهي في مُتَلَّج إذا ضُعِفَتْ أصلية أيضًا، فهي هي، فقف على هذا الأصل؛ فإنه سرّ الباب^(١). وأراد بالمقاول: آباءه، شبههم بالملوك، ولم يكونوا ملوكًا، ولا كان فيهم من ملكٍ بدليل حديث أبي سفيان حين قال له هرقل: هل كان في آبائه من ملك؟ فقال: لا. ويحتمل أن يكون هذا السيف الذي ذكر أبو طالب من هِبَات الملوك لأبيه، فقد وهب ابنُ ذي يزن لعبد المطلب هِبَاتٍ جَزَلَةً حين وفد عليه مع قريش، يهنئونه بظفره بالحبشة، وذلك بعد مولد رسول الله - ﷺ - بعامين.

وقوله:

مُوسِمَةَ الْأَعْضَادِ أَوْ قَصْرَاتِهَا

يعني [مُعَلِّمَةً] بسمة في أعضادها، ويقال لذلك الوسم السُّطَاعَ والجَبَاطَ في الفخذ والرُّقْمَةَ أيضًا في العُضُد، ويقال للوسم في الكَشْح: الكِشَاح ولما في قَصْرِهِ العُنُق: العِلَاط، والعُلُطَتَانِ والشَّعْبَ أيضًا في العنق، وهو كالمِخْجَن، وفي العُنُقِ وسم آخر أيضًا يقال له قَيْدُ الفَرَس. قال الراجز:

كُومٌ عَلَى أَعْنَاقِهَا قَيْدُ الْفَرَسِ تنجو إذا الليل تدانى، والتَّبَس

(١) انظر شرح الشافية للرضي (٨٠/٣).

ولوسوم الإبل أسماء كثيرة وباب طويل، ذكر أبو عبيد أكثره في كتاب الإبل، فمنها الْمُشَيْطَنَةُ وَالْمُقَعَاةُ وَالْقُرْمَةُ وهي في الأنف، وكذلك الْجُرْفُ وَالْخُطَافُ وهي في العنق، والدَّلْوُ وَالْمُشْطُ وَالْفِرْتَاجُ وَالثُّؤُورُ والدَّمَاعُ في موضع الدمع، والصَّدَاغُ في موضع الصَّدْغِ واللَّجَامُ من الخدِّ إلى العين، يقال منه: بعير مَلْجُوم، والهلال والخِرَاشُ وهو من الصَّدْغِ إلى الذقن.

وقوله: أو قَصْرَاتِهَا جمع قَصْرَةٍ، وهي أصل العنق، وخفضها بالعطف على الأعضاء، ولا يجوز أن تكون في موضع نصب كما تقول: هو ضارب الرجل وزيدًا في باب اسم الفاعل؛ لأن قوله: موسمة الأعضاء من باب الصفة المشبهة، وهي لا تعمل إلا مُضْمَرَة، واسم الفاعل يُضْمَر إذا عطف على المخفوض، وذلك أن الصفة لا تعمل بالمعنى، وإنما تعمل بشبه لفظي بينها، وبين اسم الفاعل، فإذا زال اللفظ، ورجع إلى الإضمار لم تعمل، وتخالف اسم الفاعل أيضًا؛ لأن معمولها لا يتقدم عليها، كما يتقدم المفعول على اسم الفاعل، وذلك أن منصوبها فاعل في المعنى، والفاعل لا يتقدم، والصفة لا يفصل بينها وبين منصوبها بالظرف، ويجوز ذلك في اسم الفاعل، والصفة لا تعمل إلا بمعنى الحال، واسم الفاعل يعمل بمعنى الحال والاستقبال، نعم ويعمل بمعنى الماضي إذا دخلت عليه الألف واللام، ولو رُوِيَ: موسمة الأعضاء بنصب الدال على معنى: موسمة الأعضاء بالتنوين، وحذفه لالتقاء الساكنين، لجاز كما رُوِيَ في شعر خُنْدَج:

كَبِيرُ مَقَانَةِ الْبَيَاضِ

بالنصب وبالرفع أيضًا، أي: البياض منهم على نية التنوين في مقاناة، وحذفه لالتقاء الساكنين، وأما الخفض فلا خفاء به. وإذا كانت الْقَصْرَاتُ مخفوضةً بالعطف على الأعضاء، ففيه شاهد لمن قال: هو حسن وجهه كما روى سيبويه حين أنشد:

كَمَيْتَا^(١) الْأَعَالِي^(٢) جَوْنَتَا^(٣) مُضْطَلَاهُمَا^(٤)

وفي حديث أم زرع: صَفَرُ رَدَائِهَا، ومِلءُ كَسَائِهَا^(٥) مثل حسنة وجهها، وفي الأمالي

(١) كميًا: مثني كميته وهي الحمرة الشديدة المائلة إلى السواد.

(٢) أعالي: الجارتين.

(٣) الجونة: السوداء.

(٤) مضطلي: أي محترق بالنار.

(٥) «صحيح». أخرجه البخاري (٣٥/٧) ومسلم في فضائل الصحابة (٩٢) وابن أبي عاصم (١٧١/٩).

تَرَى الْوَدْعَ فِيهَا، وَالرُّخَامَ وَزِينَةً
أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِنْ كُلِّ طَاعِنٍ
بِأَغْناقِهَا مَغْقُودَةً كَالْعَشَاكِلِ
عَلَيْنَا بِسُوءٍ، أَوْ مُلِحٍّ بِبَاطِلِ
وَمِنْ كَاشِحٍ يَسْعَى لَنَا بِمَعِيبَةٍ
وَمِنْ مُلْحِقٍ فِي الدِّينِ مَا لَمْ نُحَاوِلْ

من صفة النبي ﷺ: شَتْنُ الْكَفَّيْنِ طَوِيلُ أَصَابِعِهِ^(١)، أعني: مثل صِفَرِ رَدَائِهَا.

وقوله: ترى الودع فيه. الودع، والودع بالسكون والفتح: خرزات تنظم، ويتحلى بها النساء والصبيان كما قال:

[السُّنُّ مِنْ جَلْتَزِيرٍ^(٢) عَوَزِمٍ^(٣) خَلَقِي] وَالْجِلْمُ حِلْمٌ صَبِي يَمْرُسُ^(٤) الْوَدْعَهُ
وقال الشاعر:

إِنَّ الرُّوَاةَ بَلَا فَهْمٍ لَمَّا حَفَظُوا مِثْلَ الْجَمَالِ عَلَيْهَا يُخْمَلُ الْوَدْعُ
لَا الْوَدْعُ يَنْفَعُهُ حَمْلُ الْجَمَالِ لَهُ وَلَا الْجَمَالُ بِحَمْلِ الْوَدْعِ تَنْتَفِعُ

ويقال: إن هذه الخرزات يقذفها البحر، وأنها حيوان في جوف البحر، فإذا قذفها ماتت، ولها بريق ولون حسن، وتصلب صلابة الحجر، فتشقب، ويتخذ منها القلائد، واسمها مشتق من ودعته أي: تركته، لأن البحر ينضب عنها ويدعها، فهي ودع مثل قبض^(٥) ونفض^(٦)، وإذا قلت الودع بالسكون فهي من باب ما سُمِّيَ بالمصدر.

وقوله: والرُّخَامُ أي: ما قطع من الرُّخَامِ، فنظم وهو حجر أبيض ناصع: والعشاكيل: أراد العشاكيل^(٧)، فحذف الباء ضرورة كما قال ابن مضاء: وفيها العصافير، أراد: العصافير، وفي أول القصيدة: وقد حالقوا قومًا علينا أظنَّه [جمع ظنين] أي متهم، ولو كان بالضاد مع قوله، علينا، لعاد معناه مذحًا لهم، كأنه قال: أشحَّة علينا، كما أنشد عمرو بن بحر [الجاحظ]^(٨):

لو كنت في قوم عليك أشحَّة عليك ألا إن من طاح^(٩) طائح

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (١٣٣/٧). (٢) الجلنز: الغليظ الشديد.

(٣) العزوم: الناقة السمينة وفيها بقية شباب، كتى بها عن النساء كما كتى عنهن بالقوارير.

(٤) المرساة: الجبل لتمرس الأيدي به. (٥) قبض: بمعنى مقبوض.

(٦) نفّض. مصدر نفّضت الثوب.

(٧) العشاكيل: جمع عشاكيل وهو: العذق. اللسان (٤٢٥/١١).

(٨) انظر (٥٠/١). مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٩) الطح: البسط. اللسان (٥٢٨/٢).

وَتَوْرٍ، وَمَنْ أَرْسَى ثَبِيرًا مَكَائِهِ
وبالبيت، حَقَّ البيت، من بطن مكة
وبالحجر المُسَوَّدَ إذ يَمَسُّحُونَهُ
وراقٍ لِيَرْقَى فِي حِرَاءٍ وَنَازِلٍ
وباللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِغَافِلٍ
إِذَا اكْتَنَفُوهُ بِالضُّحَى وَالْأَصَائِلِ^(١)

يودون لو خاطوا عليك جلودهم
وهل يدفع الموت النفوس الشحائح
وفيها:

وَتَوْرٍ وَمَنْ أَرْسَى ثَبِيرًا مَكَائِهِ
وراقٍ لِيَرْقَى فِي حِرَاءٍ وَنَازِلٍ
ثور: جبل بمكة، وَثَبِير: جبل من جبالها ذكروا أن ثَبِيرًا كان رجلاً من هُذَيْل مات في
ذلك الجبل، فعرف الجبل به، كما عرف أبو قبيس^(٢) بِقُبَيْس بن شالح رجل من جُزهم، كان
قد وشى بين عمرو بن مُضاض، وبين ابنة عمه مَيَّة، فنذرت ألا تكلمه، وكان شديد الكَلَف
بها، فحلف لِيَقْتَلَنَّ قُبَيْسًا، فهرب منه في الجبل المعروف به، وانقطع خبره فإِذَا مات، وإِذَا
تردَّى منه، فسمى الجبل: أبا قبيس وهو خبر طويل ذكره ابن هشام في غير هذا الكتاب.

وقوله: وراق ليرقى قد تقدم القول فيه، وأصح الروايتين فيه: وراق ليرقى حراء
ونازل. قال التبرقي: هكذا رواه ابن إسحق وغيره، وهو الصواب. قال المؤلف: فالوهم فيه
إِذَا من ابن هشام، أو من البكائي، والله أعلم.

وقوله: وبالحجر الأسود، فيه زحاف يسمى: الكَفَف، وهو حذف النون من مفاعيلن
وهو بعد الواو من الأسود ونحوه قول خُنْدَج:

أَلَا رُبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُمْ صَالِحٌ

وموضع الزحاف بعد اللام من ذلك.

وقوله:

إِذَا اكْتَنَفُوهُ بِالضُّحَى وَالْأَصَائِلِ

الأصائل: جمع أصيلة، والأصل جمع أصيل، وذلك أن فاعل جمع فعيلة، والأصيلة:
لغة معروفة في الأصيل، وظن بعضهم أن أصائل: جمع آصال على وزن أفعال، وآصال:
جمع أصل نحو أطناب وطُئِب، وأصل: جمع أصيل مثل رُغِف: جمع رغيف، فأصائل على
قولهم: جَمْعُ جَمْعِ الْجَمْعِ، وهذا خطأ بَيَّن من وجوه منها: أن جَمْعُ جَمْعِ الْجَمْعِ لم يوجد

(١) الأصائل: جمع أصيلة، والأصل: جمع أصيل.

(٢) جبل مشرف على مكة. وفي التهذيب: جبل مشرف على مسجد مكة.

قطّ في الكلام، فيكون هذا نظيره، وعن جهة القياس إذ كانوا لا يجمعون الجمع الذي ليس لأدنى العدد، فأخزى ألا يجمعوا جمع الجمع، وأبين خطأ في هذا القول غفلتهم عن الهمزة التي هي فاء الفعل التي في أصيل وأصل، وكذلك هي فاء الفعل في أصائل، لأنها فعائل، وتوهموها زائدة كالتي في أقاويل، ولو كانت كذلك كانت الصاد فاء الفعل، وإنما هي عينه، كما هي في أصيل وأصل، فلو كانت أصائل جمع أصل، مثل أقوال وأقاويل لاجتمعت همزة الجمع مع همزة الأصل ولقالوا فيه: أواصيل بتسهيل الهمزة الثانية، ووجه آخر من الخطأ بين أيضاً، وهو أن أفاعيل جمع أفعال، لا بُدَّ من ياءٍ قبل آخره، كما قالوا في أقاويل، فكان يكون أواصيل، وليس في أصائل حرف مدٍّ ولينٍ قبل آخره إنما هي همزة فعائل، ومن الخطأ في قولهم أيضاً: أن جعلوا أصلاً جمعاً كثيراً مثل رُغِف، ثم زعموا أن أصلاً جمعٌ له، فهم بمنزلة من قال في رُغِف جمع أرغاف، فإن قيل: فجمع أي شيء هي أصل؟ قلنا: جمع أصل الذي هو اسم مفرد في معنى الأصائل لا جمع أصل الذي هو جمع، فإن قيل: فهل يقال أصل واحد، كما يقال أصيل واحد؟ قلنا: قد قال بعضُ أرباب اللغة ذلك، واستشهدوا بقول الأعشى:

يومًا بأطيب منها نَشَرَ رائحةً ولا بأحسن منها إذ دَنَا الأَصْلُ

أي: دنا الأصيل، فإن صحَّ أن الأصلُ بمعنى الأصيل، وإلا فآصال جمع أصيل على حذف الياء الزائدة مثل طَوِيٍّ^(١) وأطواء، ولا أعرف أحداً قال هذا القول، أعني: جَمَعَ جَمْعِ الجَمْعِ غير الرَّجَاجِيِّ وابن عزيز.

وقوله:

وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة

يعني موضع قدميه حين غسلت كَتَّه^(٢) رأسه، وهو راكب، فاعتمد بقدمه على الصخرة حين أمال رأسه ليُغسل، وكانت سارة قد أخذت عليه عهداً حين استأذنها في أن يطالع تَرَكَّتْه^(٣) بمكة، فحلف لها أنه لا ينزل عن دابَّته، ولا يزيد على السلام، واستطلاع الحال غَيْرَةٌ من سارة عليه من هاجر، فحين اعتمد على الصخرة أبقي الله فيها أثر قدمه آيةً. قال الله سبحانه: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧] أي: منها مقام إبراهيم، ومن

(١) طوي: بثر.

(٢) كَتَّه: أي امرأة ابنه إسماعيل عليها الصلاة والسلام، وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأزكى السلام.

(٣) أي من تركتهما بمكة وهما: إسماعيل وأمه هاجر عليها السلام.

وأشواط بين المَروَتين إلى الصِّفا
وَمَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ رَاكِبٍ
وبالْمَشْعَرِ الْأَقْصَى إِذَا عَمَدُوا لَهُ
وَتَوَقَّافِهِمْ فَوْقَ الْجِبَالِ عَشِيَّةً
وليلةِ جَمْعٍ والمنازلِ مِنْ مَنَى
وَجَمْعٍ إِذَا مَا الْمُقَرَّبَاتِ أَجَزَّه

وما فيهما من صُورةٍ وَتَمَائِلٍ
وَمِنْ كُلِّ ذِي نَذْرٍ وَمِنْ كُلِّ رَاكِبٍ
إِلَّا إِلَى مُفْضَى الشُّرَاجِ الْقَوَابِلِ
يُقِيمُونَ بِالْأَيْدِي صُدُورَ الرِّوَاكِلِ
وهَلْ فَوْقَهَا مِنْ حُرْمةٍ وَمَنَازِلِ
سِرَاعًا كَمَا يَخْرُجْنَ مِنْ وَقْعٍ وَإِبِلِ

جعل مَقَامًا بدلًا من آيَاتٍ، قال: المَقَامُ جمع مقامة، وقيل: بل هو أثر قدمه حين رفع القواعد من البيت وهو قائم عليه.

وقوله: بين المَروَتَيْنِ: هو كنحو ما تقدم في بطن المَكْتَنِ والْحَمَّتَيْنِ وَعُنَيَرَتَيْنِ، مما ورد مُثْنًى من أسماء المواضع، وهو واحد في الحقيقة، وذكرنا العلة في مجيئه مثنى ومجموعًا في الشعر. وفيها قوله:

وبالْمَشْعَرِ الْأَقْصَى إِذَا قَصَدُوا لَهُ الْأَلَا

البيت. فالمشعر الأقصى: عَرَفَةُ، والألَا: جبل عَرَفَةُ. قال النابغة:

يَزُرُّنَ الْأَلَا سَيْرُهُنَّ التَّدَائِفُ

وسُمِّي: أَلَاً لأن الحجاج إذا رآه أُلُوا في السير أي: اجتهدوا فيه؛ ليدركوا الموقف قال الراجز:

مُهَرَّ أَبِي الْحَبَابِ لَا تَسْلِي بَارِكْ فَيْكَ اللَّهُ مِنْ ذِي أَلٍ^(١)

والشُّراج: جمع شَرَج، وهو مسيل الماء، والقوابِلُ: المتقابلة. وفيها قوله: وَحَطِمْهُمْ سُمَرَ الصَّفَاحِ: جمع صَفْح، وهو سَطْحُ الجبل، والسُّمَرُ يجوز أن يكون أراد به السُّمَرُ، يقال فيه: سُمَرٌ وَسُمَرٌ بسكون الميم، ويجوز نقل ضمة الميم إلى ما قبلها إلى السين، كما قالوا في حَسَنٍ: حُسْنٌ، وكذا وقع في الأصل بضم السين، غير أن هذا النُّقل إنما يقع غالبًا فيما يُراد به المدح أو الذمُّ نحو حَسَنٌ وَقُبْحٌ، كما قال: وَحُسْنٌ ذَا أَدْبَا. أي حَسَنٌ ذَا أَدْبَا، وجائز أن يراد بالسُّمَرُ ههنا جمع: أَسْمَرٌ وَسَمَرَاءٌ ويكون وصفًا للنبات، والشجر كما يوصف بالذُّهْمَةِ إذا كان مُخَضَّرًا، وفي التنزيل: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤] أي: خضراوان إلى السواد.

(١) انظر إصلاح المنطق لابن السكيت (ص ٢٣).

يُؤْمُونَ قَذْفًا رَأْسَهَا بِالْجَنَادِلِ
تُجِيزُ بِهِمْ حُجَّاجُ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ
وَرَدًّا عَلَيْهِ عَاطِفَاتُ الْوَسَائِلِ
وَشِبْرَقُهُ وَخَذَ النَّعَامِ الْحَوَامِلِ
وَهَلْ مِنْ مُعِيذٍ يَتَّقِي اللَّهَ عَازِلٍ
تُسَدُّ بِنَا أَبْوَابُ تُرْكٍ وَكَابِلٍ
وَنَظْعَنْ إِلَّا أَمْرُكُمْ فِي بَلَابِلٍ
وَلَمَّا نُطَاعِنْ دُونَهُ وَنُتَاضِلِ
وَنَذْهَلْ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَاتِلِ
نُهَوِّضَ الرُّوَايَا تَحْتَ ذَاتِ الصَّلَاصِلِ
مِنَ الطُّغَيْنِ فِعْلُ الْأَنْكَبِ^(٢) الْمُتَحَامِلِ

وَبِالْجَمْرَةِ الْكُبْرَى إِذَا صَمَدُوا^(١) لَهَا
وَكَئِنَّةً إِذْ هُمْ بِالْحِصَابِ عَشِيَّةً
حَلِيفَانِ شَدًّا عَقْدَ مَا اخْتَلَفَا لَهُ
وَحَطْمِهِمْ سَمَزَ الرِّمَاحِ وَشَرْحَهُ
فَهَلْ بَعْدَ هَذَا مِنْ مَعَاذٍ لِعَائِدِ
يُطَاعُ بِنَا أَمْرُ الْعِدَا وَذَ أَئِنَّا
كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ نَتْرُكُ مَكَّةَ
كَذَبْتُمْ - وَبَيْتَ اللَّهِ - تُبْزَى مُحَمَّدًا
وَتُسَلِّمُهُ حَتَّى تُصْرِعَ حَوْلَهُ
وَيَنْهَضَ قَوْمٌ فِي الْحَدِيدِ إِلَيْكُمْ
وَحَتَّى تَرَى ذَا الضُّعْنِ يَرْكَبُ رَذْعَهُ

وقوله: وَشِبْرَقُهُ. وهو نبات يقال لياسته: الْحَلِيَّ، والرطوبة: الشَّبْرَقُ.

وقوله: نَبْذِي مُحَمَّدًا أَي نَسْلِبُهُ وَتُغْلِبُ عَلَيْهِ.

وقوله: نُهَوِّضُ الرُّوَايَا. هي الإبل تحمل الماء واحدها: راوية، والأسْقِيَّةُ أَيضًا يقال لها: روايا، وأصل هذا الجمع: رَوَاوِي ثم يصير في القياس: رَوَائِي مثل حوائل جمع: حول، ولكنهم قلبوا الكسرة فتحة بعدما قَدَمُوا الياء قبلها، وصار وزنه: فوالع، وإنما قلبوه كراهية اجتماع واوين، واو فواعل، الواو التي هي عين الفعل، ووجه آخر، وهو أن الواو الثانية قياسها أن تنقلب همزة في الجمع لوقوع الألف بين واوين، فلما انقلبت همزة قلبوها ياء، كما فعلوا في خطايا وبابه، مما الهمزة فيه معترضة في الجمع، والصَّلَاصِلُ. المزدادات لها صَلَاصِلَةٌ بِالماء^(٣).

(١) صمدوا لها: أي توجهوا لها. و«الصمد» اسم من أسماء الله تعالى كما ورد في القرآن في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾. والصمد: قيل هو الذي لا جوف له، وقيل: أي السيد، وقيل: الذي توجه إليه في قضاء الحوائج، وقيل الصمد: هو الذي «لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد». ويطلب الاسم غير معرّف على الله وعلى خلقه، ولا يطلق معرفاً إلا على الله تعالى، ولذا جاء في التزليل بالتعريف، بخلاف اسمه تعالى الأحد. وانظر للمحقق «القول الأسنى في تفسير الأسماء الحسنى».

(٢) الْأَنْكَبُ مِنَ الْإِبِلِ: كَأَنَّمَا يَمْشِي فِي شِقْوٍ.

(٣) وقيل الصلصلة: بقية الماء.

لَتَلْتَبِسْنَ أَسيَافُنَا بِالْأَمْثَالِ
أَخِي ثَقَّةَ حَامِي الْحَقِيقَةِ بِاسِلِ
عَلَيْنَا وَتَأْتِي حِجَّةٌ بَعْدَ قَابِلِ
يَحُوطُ الذُّمَارَ غَيْرَ ذَرْبٍ مُوَائِلِ
ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ
فَهُمْ عِنْدَهُ فِي رَحْمَةٍ وَقَوَائِلِ
إِلَى بُغْضِنَا وَجَزَانَا لَأَكْلِ
وَلَكِنْ أَطَاعَا أَمْرَ تِلْكَ الْقَبَائِلِ
وَلَمْ يَزُقْبَا فِينَا مَقَالَةً قَائِلِ
وَكُلُّ تَوَلَّى مُغْرِضًا لَمْ يُجَاوِلِ
تَكِلْ لِهَمَا صَاعًا بِصَاعِ الْمُكَائِلِ
لِيُظْعِنَنَا فِي أَهْلِ شَاءٍ وَجَامِلِ
فَنَاجِ أَبَا عَمْرٍ بِنَا ثُمَّ خَاتِلِ
بَلَى قَدْ تَرَاهُ جَهْرَةً غَيْرَ حَائِلِ

وَأَنَا - لَعَمْرُ اللَّهِ - إِنْ جَدَّ مَا أَرَى
بَكَفِّي فَتَى مِثْلِ الشَّهَابِ سَمِيدَعِ
شُهُورًا وَأَيَّامًا وَحَوْلًا مُجَرَّمًا
وَمَا تَزُكُّ قَوْمٍ - لَا أَبَا لَكَ - سِيدَا
وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْعَمَامُ بِوَجْهِهِ
يَلُودُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمِ
لَعَمْرِي لَقَدْ أَجْرَى أَسِيدٌ وَيَكْرَهُ
وَعَثْمَانُ لَمْ يَزْبَعْ عَلَيْنَا وَقُنْفُذُ
أَطَاعَا أَبْيَا، وَابْنَ عَبْدِ يَغُوثِهِمْ
كَمَا قَدْ لَقِينَا مِنْ سُبَيْعٍ وَنُوفَلِ
فَإِنْ يُلْقِيَا، أَوْ يُمَكِّنِ اللَّهُ مِنْهُمَا
وَذَاكَ أَبُو عَمْرٍو أَبِي غَيْرِ بُغْضِنَا
يُنَاجِي بِنَا فِي كُلِّ مُنْمَسَى وَمُضْبَحِ
وَيُؤَلِّي لَنَا بِاللَّهِ مَا إِنْ يَغُشِّنَا

وفيهما قوله: غير ذَرْبٍ مواكل. وهو مخفف من ذَرْبٍ والذَرْبُ: اللسان الفاحش المنطق، والمواكل الذي لا جِدَّ عنده فهو يَكِلْ أموره إلى غيره.

وفيهما قوله: ثِمَالُ الْيَتَامَى، أي: يَتَمَلُّهُمْ، ويقوم بهم، يقال: هو ثِمَالُ مَالٍ أي يقوم به. وفيها قوله:

لِيُظْعِنَنَا فِي أَهْلِ شَاءٍ وَجَامِلِ

الشَّاءُ وَالشُّوْيُ: اسم للجمع مثل الباقر والبقيع، ولا واحد لشاء، والشُّوْيُ من لفظه، وإذا قالوا في الواحد: شاة، فليس من هذا؛ لأن لام الفعل في شاة هاء بدليل قولهم في التصغير: شُوَيْهَةٌ، وفي الجمع شياء، والجامل اسم جمع بمنزلة الباقر.

وقوله: وكنتم زمانًا حَطَبَ قَدَرٍ: حَطَبُ اسم للجمع مثل رَكْبٍ، وليس بجمع، لأنك تقول في تصغيره: حُطِيبٌ وَرُكَيْبٌ.

وقوله: حِطَابُ أَقْدَرٍ: هو جمع حَاطِبٍ فلا يُصَغَّرُ، إلا أن ترده إلى الواحد، فتقول: حَوَيْطِبُونَ، ومعنى البيت: أي: كنتم متفقين لا تَحْطِبُونَ إلا لِقَدَرٍ واحدةٍ، فأنتم الآن بخلاف ذلك.

أضاق عليه بُغْضُنَا كُلَّ تَلْعَةٍ
وسائلُ أبا الوليد ماذا حَبَوْتُنَا
وَكُنْتَ امْرَأً مِمَّنْ يُعَاشِ بَرَأْيَهُ
فَعُتْبَةُ لَا تَسْمَعُ بِنَا قَوْلَ كَاشِحٍ
وَمَرَّ أَبُو سُفْيَانَ عَنِّي مُغْرِضًا
يَفِرُّ إِلَى نَجْدٍ وَبَرَدٍ مِيَاهِهِ
وَيُخْبِرُنَا فَعَلَ الْمُنَاصِحِ أَنَّهُ
أَمْطَعِمُ لَمْ أَخْذُلْكَ فِي يَوْمٍ بَخْدَةٍ
وَلَا يَوْمَ خَضَمٍ إِذْ أَتَوَكَ الْإِدَّةَ
أَمْطَعِمُ إِنَّ الْقَوْمَ سَامُوكَ خُطَّةَ

من الأرض بين أخشبٍ فَمَجَادِلِ
بَسَغِيكَ فِينَا مُغْرِضًا كَالْمُخَاتِلِ
وَرَحْمَتِهِ فِينَا وَلَسْتَ بِجَاهِلِ
حَسُودٍ كَذُوبٍ مُبْغِضِ ذِي دَعَاوِلِ
كَمَا مَرَّ قَيْلٌ مِنْ عِظَامِ الْمَقَاوِلِ
وَيَزْعُمُ أَنِّي لَسْتُ عَنْكُمْ بِغَافِلِ
شَفِيقٌ، وَيَخْفَى عَارِمَاتِ الدَّوَاحِلِ
وَلَا مُعْظِمٌ عِنْدَ الْأُمُورِ الْجَلَائِلِ
أُولِي جَدَلٍ مِنَ الْخُصُومِ الْمَسَاجِلِ
وَإِنِّي مَتَى أَوْكَلْتُ فَلَسْتُ بِوَائِلِ

وفيها قوله:

من الأرض بين أخشبٍ فَمَجَادِلِ
أراد الأخشاب، وهي جبال مكة^(١)، وجاء به على أخشب، لأنه في معنى أجبل، مع
أن الاسم قد يجمع على حذف الزوائد كما يصغرونه كذلك، والمجادل: جمع مجدل وهو:
القصر، كأنه يريد ما بين جبال مكة، فقصور الشام أو العراق، والفاء من قوله: فمجادل
تعطي الاتصال بخلاف الواو، كقوله بين الدخول فحومل، وتقول: مُطَرْنَا بين مكة فالمدينة
إذا اتصل المطر من هذا إلى هذه، ولو كانت الواو لم تعط هذا المعنى.

وقوله:

أُولِي جَدَلٍ مِنَ الْخُصُومِ الْمَسَاجِلِ
يُروى بالجيم وبالحاء فمن رواه بالجيم فهو من المُسَاجِلَةِ في القول، وأصله في استقاء
الماء بالسَّجْل، وصبه فكأنه جمع مساجل على تقدير حذف الألف الزائدة من مفاعل، أو
جمع مسجل بكسر الميم، وهو من نعت الخصوم، ومن رواه المساجل بالحاء، فهو جمع
مسجل وهو اللسان، وليس بصفة للخصوم، إنما هو مخفوض بالإضافة، أي: خصماء
الأسنة، وقال ابن أحمر:

مَنْ خَطِيبٌ إِذَا مَا انْحَلَّ مِسْخَلُهُ
أي: لسانه وهو أيضًا من السَّخْل وهو الصَّب، ومنه حديث أيوب حين فرج عنه،
فجاءت سحابة فَسَخَلَتْ فِي يَدَيْهِ ذَهَبًا، وجاءت أخرى فَسَخَلَتْ فِي الْبَيْدِرِ^(٢) الآخر فضة.

(٢) البيدر: الجرن.

(١) أخشاب مكة: جبالها.

جَزَى اللَّهُ عَنَّا عَبْدَ شمس وَنَزَلَا
بِمِيزَانٍ قِسْطٍ لَا يُخْسُ شَعِيرَةً
لَقَدْ سَفَهَتْ أَحْلَامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا
وَنَحْنُ الصُّمَمِيُّمُ مِنْ دُؤَابَةِ هَاشِمٍ
وَسَهْمٌ وَمَخْزُومٌ تَمَالَّوْا وَالْبُؤَا
عُقُوبَةُ شَرٍّ عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ
لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرَ عَائِلٍ
بَنِي خَلَفٍ قَيْنِضًا بَنَا وَالْغَيَاطِلُ
وَأَلِ قُصَيٍّ فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ
عَلَيْنَا الْعِدَا مِنْ كُلِّ طِمْلٍ وَخَامِلٍ

فصل: وفيها:

لَقَدْ سَفَهَتْ أَحْلَامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا
بَنِي خَلَفٍ قَيْنِضًا بَنَا وَالْغَيَاطِلُ
قَيْنِضًا أَي: معاوضة، ومنه قول النبي عليه السلام لذي الْجَوْشَنِ^(١): إِنْ شِئْتَ قَايَضْتُكَ
بِهِ الْمَخْتَارَ مِنْ دُرُوعٍ بِذَرٍّ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَقِيضَهُ الْيَوْمَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ^(٢) يَعْنِي: فَرَسًا لَهُ، يُقَالُ
لَهُ: ابْنُ الْفَرَحَاءِ. وَقَالَ أَبُو الشَّيْصِ:

لَا تَنْكَرِي صَدِّي وَلَا إِعْرَاضِي لَيْسَ الْمُقِيلُ عَنِ الزَّمَانِ بِرَاضٍ
بُدِّلْتُ مِنْ بُرْدِ الشَّبَابِ مُلَاءَةً خَلَقًا، وَبِنَسِ مَثُوبَةِ الْمُفْتَنَاضِ

والغياطل: بنو سهم، لأن أهمهم الْغَيْطَلَةُ، وقد تقدم نسبها، وقيل: إن بني سهم سُمُّوا
بِالْغَيَاطِلِ، لأن رجلاً منهم قتل جَانًا طَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ فَقَتَلَهُ، فَأَظْلَمَتْ
مَكَّةُ، حَتَّى فَرَعُوا مِنْ شِدَّةِ الظُّلْمَةِ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ، وَالْغَيْطَلَةُ: الظُّلْمَةُ الشَّدِيدَةُ، وَالْغَيْطَلَةُ أَيْضًا:
الشَّجَرُ الْمَلْتَفُ، وَالْغَيْطَلَةُ: اختلاط الأصوات، والغيطلة: البقرة الوحشية، والغيطلة: غَلَبَةُ
النَّعَاسِ، وَقَوْلُهُ: يُخْسُ شَعِيرَةً، أَي: يَنْقُصُ، وَالْخَسِيسُ: الناقص من كل شيء، وَيُرْوَى فِي
غَيْرِ السَّيْرِ: يَخْصُصُ بِالْصَادِ وَالْحَاءِ مَهْمَلَةً مِنْ خَصَّ الشَّعْرَ: إِذَا أَذْهَبَهُ.

وقوله: مِنْ كُلِّ طِمْلٍ وَخَامِلٍ: الطِّمْلُ: اللص، كَذَا وَجَدْتُهُ فِي كِتَابِ أَبِي بَحْرٍ، وَفِي
الْعَيْنِ: الطِّمْلُ الرَّجُلُ الْفَاحِشُ، وَالطِّمْلُ وَالطِّمْلَالُ: الْفَقِيرُ، وَالطِّمْلُ: الذُّبُّ^(٣). وَقَوْلُهُ:
لِفَحْجَةٍ غَيْرِ بَاهِلٍ: الْبَاهِلُ: النَّاقَةُ الَّتِي لَا صِرَارَ عَلَى أَخْلَافِهَا، فَهِيَ مَبَاحَةُ الْحَلْبِ يُقَالُ: نَاقَةٌ
مَضْرُورَةٌ، إِذَا كَانَ عَلَى خَلْفِهَا صِرَارٌ يَمْنَعُ الْفَصِيلَ مِنْ أَنْ يَرْضَعَ، وَلَيْسَتْ الْمَضْرَأَةُ مِنْ هَذَا
الْمَعْنَى، إِنَّمَا هِيَ الَّتِي جُمِعَ لَبَنُهَا فِي ضَرْعِهَا، فَهُوَ مِنَ الْمَاءِ الصَّرَى^(٤)، وَقَدْ غَلَطَ أَبُو عَلِيٍّ

(١) هو: أرس بن الأعور، وقيل شرحبيل. وهو أشهر.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٧٣٩). (٣) انظر اللسان (٤٠٨/١١).

(٤) الصرى: أي الذي طال مكثه.

فَلَا تُشْرِكُوا فِي أَمْرِكُمْ كُلِّ وَاعِلٍ
وَجِئْتُمْ بِأَمْرِ مُخْطِئٍ لِّلْمَفَاصِلِ
أَلَا نَحْطَابُ أَقْدَرُ وَمَرَا جِل
وَجِذْلَانَا، وَتَرْكُنَا فِي الْمَعَاقِلِ
وَتَحْتَلِبُوهَا لِفَحْةٍ غَيْرَ بَاهِلٍ
نَفَاهِمُ إِلَيْنَا كُلِّ صَفَرٍ حُلَا جِل^(١)
وَالْأَمُّ حَافٍ مِنْ مَعَدٍّ وَنَاعِلٍ
وَيَسُرُّ قُصِيًّا بَعْدَنَا بِالتَّخَاذِلِ
إِذَا مَا لَجَأْنَا دُونَهُمْ فِي الْمَدَاخِلِ
لَكُنَّا أَسَى عِنْدَ النِّسَاءِ الْمَطَا فِلِ^(٢)
لَعَمْرِي - وَجَدْنَا غِبَّهُ غَيْرَ طَائِلِ
بِرَاءٍ إِلَيْنَا مِنْ مَعَقَّةٍ خَا ذِلِ

فَعَبَدَ مَنَافَ أَنْتُمْ خَيْرُ قَوْمِكُمْ
لَعَمْرِي لَقَدْ وَهَنْتُمْ وَعَجَزْتُمْ
وَكُنْتُمْ حَدِيثًا حَطَبَ قِدْرٍ وَأَنْتُمْ
لِيَهْنِيءِ بَنِي عَبْدِ مَنَافَ عَقُوقُنَا
فَإِنْ نَكُ قَوْمًا نَتَّئِزُ مَا صَنَعْتُمْ
وَسَائِطُ كَانَتْ فِي لَوْيِّ بْنِ غَالِبٍ
وَرَهْطُ ثَقِيلٍ شَرٌّ مِنْ وَطِيءِ الْحَصَى
فَأَبْلِغْ قُصِيًّا أَنْ سَيُنْشَرُ أَمْرُنَا
وَلَوْ طَرَقَتْ لَيْلًا قُصِيًّا عَظِيمَةً
وَلَوْ صَدَقُوا ضَرْبًا خِلَالَ بُيُوتِهِمْ
فَكُلُّ صَدِيقٍ وَابْنٍ أُخْتٍ نَعُدُّهُ
سِوَى أَنْ رَهْطًا مِنْ كِلَابِ بْنِ مُرَّةٍ

في البارع، فجعل المَصْرَاءَ بمعنى المَضْرُورَةِ، وله وجه بعيد، وذلك أن يُخْتَجَّ له بقلب إحدى الراءين ياءً مثل: قَصَيْتُ أَظْفَارِي، غير أنه بعيد في المعنى، وقالت امرأة المغيرة تعاتب زوجها، وتذكر أنها جاءت كالكافّة الباهلة التي لا صِرَارَ على أخلافها: أَطْعَمْتُكَ مَأْدُومِي وَأَبْقَيْتُكَ مَكْتُومِي، وجئتُك باهلاً غير ذاتِ صِرَارٍ، وفي الحديث: لا تورد الإبل بُهلاً [أو بُهلاً]، فإن الشياطينَ تَرْضَعُهَا^(٣)، أي: لا أصرّةَ عليها.

وفيهما قوله:

بُرَاءٍ إِلَيْنَا مِنْ مَعَقَّةٍ خَا ذِلِ

يقال: قومٌ بُرَاءٌ [بالضّم] وبُرَاءٌ بالفتح، وبِرَاءٌ بالكسر، فأما براء بالكسر، فجمع بريء، مثل كريم وكرام، وأما براء فمصدر، مثل سَلَامٌ والهمزة فيه، وفي الذي قبله لام الفعل، ويقال: رجلٌ بَرَاءٌ ورجلان بَرَاءٌ، وإذا كسرتها أو ضممتها لم يجز إلا في الجمع، وأما براء بضم الباء، فالأصل فيه بُرَاءٌ مثل كُرَمَاءٍ فاستثقلوا اجتماع الهمزتين، فحذفوا الأولى، وكان وزنه فُعَلَاءً، فلما حذفوا التي هي لام الفعل صار وزنه فُعَاءٌ، وانصرف لأنه أشبه فُعَلَاءً،

(١) حلاج: موضع، والجيم أعلى اللسان (١١/١٧٤).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٧/٣٠).

(٣) أي أصحاب الأطفال.

وَهَئِذَا لَهُمْ حَتَّى تَبَدَّدَ جَمْعُهُمْ
 وَكَانَ لَنَا حَوْضُ السُّقَايَةِ فِيهِمْ
 شَبَابٌ مِنَ الْمُطَطِّبِينَ وَهَاشِمٍ
 فَمَا أَدْرَكُوا دَخَلَ وَلَا سَفَكُوا دَمًا
 بِضَرْبِ تَرَى الْفِثْيَانِ فِيهِ، كَأَنَّهُمْ
 بَنِي أُمَةٍ مَخْبُوبَةٍ هِنْدِكِيَّةٍ
 وَلَكِنَّا نَسْلُ كِرَامًا لِسَادَةٍ
 وَنَعَمُ ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ غَيْرِ مُكَذِّبٍ
 أَشْمٌ مِنَ الشَّمِّ الْبَهَالِيلِ يَنْتَمِي
 لِعَمْرِي لَقَدْ كَلِفْتُ وَجَدًا بِأَحْمَدَ
 فَلَا زَالٌ فِي الدُّنْيَا جَمَالًا لِأَهْلِهَا
 فَمَنْ مِثْلُهُ فِي النَّاسِ أَيُّ مُؤَمِّلٍ
 حَلِيمٍ رَشِيدٍ عَادِلٍ غَيْرِ طَائِشٍ
 فَوَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ أَجِيءَ بِسُبَّةٍ
 لَكُنَّا اتَّبَعْنَاهُ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ
 لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذِّبَ
 فَأَصْبَحَ فِينَا أَحْمَدٌ فِي أَرْوَمَةٍ
 حَدِيثُ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحَمِيَّتُهُ
 فَأَيَّدَهُ رَبُّ الْعِبَادِ بِنَضْرِهِ
 رَجَالٌ كِرَامٌ غَيْرُ مِيلٍ نَمَاهُمْ

وَيَخْسُرَ عَنَّا كُلُّ بَاغٍ وَجَاهِلٍ
 وَنَحْنُ الْكُدَى مِنْ غَالِبٍ وَالْكَوَاهِلُ
 كَبِيضُ السُّيُوفِ بَيْنَ أَيْدِي الصَّيَاقِلِ^(١)
 وَلَا حَالَفُوا إِلَّا شِرَّ الْقَبَائِلِ
 ضَوَّارِي أُسُودَ فَوْقَ لَحْمٍ خَرَادِلِ
 بَنِي جُمَحٍ عُبَيْدِ قَيْسِ بْنِ عَاقِلِ
 بِهِمْ نُعِي الْأَقْوَامِ عِنْدَ الْبَوَاطِلِ
 زَهَيْرٌ حُسَامًا مُفَرَّدًا مِنْ حَمَائِلِ
 إِلَى حَسْبٍ فِي حَوْمَةِ الْمَجْدِ فَاضِلِ
 وَإِخْوَتِهِ ذَابَ الْمَحِبِّ الْمَوَاصِلِ
 وَزَيْنًا لَمَنْ وَالَاهُ رَبُّ الْمَشَاكِلِ
 إِذَا قَاسَهُ الْحُكَّامُ عِنْدَ التَّفَاضِلِ
 يُوَالِي إِلَهًا لَيْسَ عَنْهُ بِغَافِلِ
 تُجَرُّ عَلَى أَشْيَاخِنَا فِي الْمَحَافِلِ
 مِنَ الدَّهْرِ جَدًّا غَيْرِ قَوْلِ التَّهَازِلِ
 لَدَيْنَا، وَلَا يُغْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ
 تُقْصِرُ عَنْهُ سَوْرَةُ الْمُتَطَاوِلِ
 وَدَافَعْتُ عَنْهُ بِالذُّرَا وَالْكَلاكِ^(٢)
 وَأَظْهَرَ دِينًا حَقُّهُ غَيْرُ بَاطِلِ
 إِلَى الْخَيْرِ آبَاءُ كِرَامِ الْمَحَاصِلِ

والنسب إليه إذا سميت به: بُراوى، والنسب إلى الآخرين بُرائي وبُرائي، وزعم بعضهم إلى أن بُراء بضم أوله من الجمع الذي جاء على فُعَال، وهي ثمانية ألفاظ: فَرِير وفُرَار وعَزَن وعُزَّان، ولم يصنع شيئاً، وقال النحاس: بُراء بضم الباء.

(١) الصيقل: شحاذُ السيوف وجلاؤها. والجمع صياقل وصياقلة. اللسان (١١/٣٨٠).

(٢) الكلاكل: الكلكل والكلكال: الصدر من كل شيء، والكلكل من الفرس ما بين محزمه إلى ما من الأرض منه إذا ربح. اللسان (١١/٥٩٧).

فإن تك كعبٌ من لؤي صُقَيْبَةٌ فلا بدَّ يوماً مَرَّةً مِنْ تَزَايِلُ
قال ابن هشام: هذا ما صحَّ لي من هذه القصيدة، وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها.

قال ابن هشام: وحَدَّثَنِي مَنْ أَثَقَ بِهِ، قال: أَقْحَطُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَشَكَّوْا ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَصَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَنْبِرَ فَاسْتَسْقَى، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ مِنَ الْمَطَرِ مَا أَتَاهُ أَهْلُ الضَّوْاحِي يَشْكُونَ مِنَ الْعَرَقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ حَوَّالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا»، فَانْجَابَ السَّحَابُ عَنِ الْمَدِينَةِ، فَصَارَ حَوَّالِيهَا كَالْإَكْلِيلِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ أَدْرَكَ أَبُو طَالِبٍ هَذَا الْيَوْمَ لَسَرَّهُ»، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: كَأَنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَدْتَ قَوْلَهُ:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالَ الْيَتَامَى عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ
قال: أجل^(١).

الاستسقاء:

فصل: وذكر حديث استسقاء رسول الله - ﷺ - بالمدينة، وهو حديث مَرْوِيٍّ مِنْ طَرُقٍ كَثِيرَةٍ، وبِأَلْفَاظٍ مُخْتَلِفَةٍ.

وقوله: حتى أتاه أهل الضواحي يشكون العرق. الضواحي: جمع ضاحية، وهي الأرض البراءة التي ليس فيها ما يُكِنُّ مِنَ الْمَطَرِ، وَلَا مَنَاجَاةَ مِنَ السَّيُولِ، وَقِيلَ: ضَاحِيَةٌ كُلُّ بَلَدٍ خَارِجَةٍ. وقوله عليه السلام: «اللَّهُمَّ حَوَّالَيْنَا، وَلَا عَلَيْنَا»، كَقَوْلِهِ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: «اللَّهُمَّ مَنَابِتَ الشَّجَرِ، وَبَطُونَ الْأَوْدِيَةِ، وَظُهُورَ الْآكَامِ»، فَلَمْ يَقُلْ: اللَّهُمَّ ارْفَعْنَا عَنْهُ - هُوَ مِنْ حُسْنِ الْأَدَبِ فِي الدُّعَاءِ؛ لِأَنَّهَا رَحْمَةُ اللَّهِ، وَنِعْمَتُهُ الْمَطْلُوبَةُ مِنْهُ، فَكَيْفَ يُطَلَّبُ مِنْهُ رَفْعُ نِعْمَتِهِ، وَكَشْفُ رَحْمَتِهِ، وَإِنَّمَا يُسْأَلُ سَبْحَانَهُ كَشْفَ الْبَلَاءِ، وَالْمَزِيدَ مِنَ النِّعْمَاءِ، فَفِيهِ تَعْلِيمٌ كَيْفِيَّةٌ الْإِسْتِسْقَاءَ. وَقَالَ: اللَّهُمَّ مَنَابِتَ الشَّجَرِ، وَلَمْ يَقُلْ: اضْرِفْهَا إِلَى مَنَابِتِ الشَّجَرِ؛ لِأَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى أَعْلَمُ بِوَجْهِ اللَّطْفِ، وَطَرِيقِ الْمَصْلَحَةِ كَمَا كَانَ ذَلِكَ بِمَطَرٍ أَوْ بِنَدَى أَوْ طُلٍّ، أَوْ كَيْفَ شَاءَ، وَكَذَلِكَ بَطُونَ الْأَوْدِيَةِ، وَالْقَدَرُ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَائِهَا.

فصل: فإن قيل: كيف قال أبو طالب:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (١٥/٢) ومسلم في الاستسقاء (٩/٨) والنسائي (١٦٠/٣) دون «لو أدرك أبو طالب هذا اليوم...».

قال ابن هشام: وقوله «وَشِبْرَقَةُ» عن غير ابن إسحاق.

قال ابن إسحاق: والغياطل: من بني سهم بن عمرو بن هُصَيص، وأبو سفيان بن حرب بن أُمَيَّة. ومُطْعِمُ بن عدي بن نُوْفَل بن عبد مناف. وزُهَيْر بن أَبِي أُمَيَّة بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم، وأمه: عاتكة بنت عبد المطلب. قال ابن إسحاق: وأَسِيدٌ، وبِكْرُهُ: عَثَابُ بن أسيد بن أَبِي العيص بن أُمَيَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي. وعثمان بن عُبَيْد الله: أخو طلحة بن عُبَيْد الله التَّيْمِي. وقُتْنَفذ بن عمير بن جُدعان بن عمرو بن كَعْب بن سعد بن تَيْم بن مُرَّة. وأبو الوليد عُثْبَةُ بن ربيعة. وأَبِي: الأخنس بن شَرِيق الثقفي، حليف بني زُهرة بن كلاب.

قال ابن هشام: وإنما سُمِّي الأخنس؛ لأنه خنس بالقوم يوم بدر، وإنما اسمه: أَيْي، وهو من بني علاج، وهو علاج بن أَبِي سَلَمَةَ بن عَوْف بن عُقْبَةَ. والأسود بن عبد يَعُوث بن وَهَب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب. وسُبَيْع بن خالد، أبو بَلْحَارث بن فِهْر. ونوفل بن خُوَيْلِد بن أسد بن عبد العزى بن قُصَي، وهو ابن العَدَوِيَّة. وكان من

ولم يَرَهُ قَطَّ استسقى، وإنما كانت استسقاءاته عليه السلام بالمدينة في سفر وحَضَر، وفيها شوهد ما كان من سرعة إجابة الله له.

فالجواب: أن أبا طالب قد شاهد من ذلك أيضًا في حياة عبد المطلب ما دلَّه على ما قال، روى أبو سَلَمَانَ حَمَد بن محمد بن إبراهيم [ابن الخطاب الخطابي] البُسْتِي النيسابوري^(١)، أن رُقَيْقَةَ بنت أَبِي صَنَفِي بن هاشم قالت: تابعت على قريش سنو جَذِبٍ قد أَفْحَلَتْ الظِّلْفَ، وأَزَقَّتْ العظم، فبينما أنا راقدة اللَّهْم، أو مُهْدَمَةٌ، ومعِي صِنَوِي إذ أنا بهاتفٍ صَيِّتٍ يصرخ بصوتٍ صَجَلٍ يقول: يا معشر قريش إن هذا النبي المبعوث منكم، هذا إِبْرَاهِيمُ نُجُومِهِ، فَحَيَّ هَلَا بِالْحَيَا والخصب، ألا فانظروا منكم رجلاً طَوَّالاً عَظَامًا أبيضَ قَظًا، أَشَمُّ العِزْنَيْنِ، له فخر يَكْظُمُ عليه^(٢). ألا فَلْيَخْلُصْ هو وولده، وَلْيُذَلِّفْ إليه من كل بَطْنٍ رَجُلٌ، ألا فَلْيَشْثُوا من الماء، وَلْيَمْسُوا من الطيب، وَلْيَطُوفُوا بالبيت سَبْعًا، ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته، ألا فَلْيَذُغِ الرجل، وَلْيُؤَمِّنِ القوم، ألا فَعَثْثُم أَبَدًا ما عَشْتُم. قالت: فأصِبحْتُ مذعورة قَدْ قَفَّ جِلْدِي، وَوَلَّه عَقْلِي، فَأَقْتَضَضْتُ رُؤْيَاي، فوالْحَرَمِ إِنْ بَقِيَ أَبْطَحِيَّ إِلَّا قَالَ: هذا شَيْئَةُ الْحَمْدِ، وَتَنَامَتْ عنده قريش، وَانْفَضَّ إليه الناس من كُلِّ بَطْنٍ رَجُلٌ، فَسْثُوا وَمَسُوا وَاسْتَلَمُوا وَاطَّوَّفُوا، ثم ازْتَقَوْا أبا قُبَيْسٍ، وَطَفِقَ القوم يَدْفُون

(١) هو الإمام الخطابي صاحب شرح سنن أبي داود «معالم السنن» توفي سنة ٣٨٨هـ.

(٢) يكظم عليه: أي لا يظهره.

شياطين قُريش، وهو الذي قَرَن بين أبي بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما في حبل حين أسلما، فبذلك كانا يُسمَّيان: القَريَين، فقتله عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام يوم بدر. وأبو عمرو: قُرْطَة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف. «وقوم علينا أظنة»: بنو بكر بن عبد مئة بنت كنانة، فهؤلاء الذين عدَّد أبو طالب في شعره من العرب.

ذكر الرسول ﷺ^(١) ينتشر:

فلما انتشر أمرُ رسولِ الله - ﷺ - في العرب، وبلغَ البُلدانَ، دُكرَ بالمدينة، ولم يكن حيٌّ من العرب أعلمَ بأمرِ رسولِ الله - ﷺ - حين ذكر، وقبل أن يُذكر من هذا الحي من الأوس والخزرج، وذلك لِمَا كانوا يسمعون من أخبار اليهود، وكانوا لهم حلفاء، ومعهم في بلادهم. فلما وقع ذِكره بالمدينة، وتحذثوا بما بين قريش فيه من الاختلاف. قال أبو قيس بن الأسلت، أخو بني واقف.

حوَلَه، ما إن يدركَ سعيهم مُهلَة، حتى قَرُوا بذروة الجبل، واستَكفُوا جَنَابِيه، فقام عبدُ المطلب، فاغتَضد ابنَ ابنه محمداً - ﷺ - فرفعه على عاتقه، وهو يومئذ غلام قد أَيْفَع، أو قد كَرَب، ثم قال: اللَّهُمَّ سادَّ الحَلَّة، وكاشفَ الكُزْبَة أنت عالم غير مُعلَّم، ومسؤول غير مُبْخَل، وهذه عِداؤُكَ، وإماؤُكَ بِعَذِراتِ حَرَمِكَ يشكون إليك سَنَتَهُم، فاسْمَعَنَّ اللَّهُمَّ، وأمطرُنْ علينا غَيْثاً مَرِيحاً مُغْدِقاً، فما راموا والبيت، حتى انفجرت السماء بمائها، وكَطَّ الوادي بِجِيجِهِ^(٢). رواه أبو سليمان عن ابن الأعرابي. قال: حدَّثنا محمد بن علي بن البُخْتَرِي، نا يعقوب بن محمد بن عيسى بن عبد الملك بن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، نا عبد العزيز بن عِمْران، عن ابن حُوَيْصَة، قال يحدث مَخْرَمَة بن نُفَيْل عن أمه رُفَيْقَة بنت أبي صَيْفِي.

وذكر الحديث، ورواه بإسناد آخر إلى رُفَيْقَة، وفيه: ألا فانظروا منكم رجلاً وسيطاً عَظَماً جَسَماً أَوْطَف الأهداب، وأن عبد المطلب قام ومعه رسول الله - ﷺ - قد أَيْفَع أو كَرَب، وذكر القصة.

(١) بالمطبوع «ص» بدلاً من ﷺ. وقد تقدم التنبيه على مثلها.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير وفيه زهير بن حصن قال الذهبي: لا يُعرف. قاله الهيثمي في المجمع (٢/٢١٥). وأخرجه البخاري في الاستسقاء (١٠٠٨) عن ابن عمر يتمثل بشعر أبي طالب:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

أبو قيس بن الأسلت ونسبه وشعره في الرسول ﷺ

قال ابن هشام: نَسَبَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَبَا قَيْسٍ هَذَا هَلْهَذَا إِلَى بَنِي وَاقِفٍ، وَنَسَبَهُ فِي حَدِيثِ الْفِيلِ إِلَى حَظْمَةٍ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ قَدْ تَنَسَبَ الرَّجُلَ إِلَى أَخِي جَدِّهِ الَّذِي هُوَ أَشْهَرُ مِنْهُ.

قال ابن هشام: حَدَّثَنِي أَبُو عُبَيْدَةَ أَنَّ الْحَكَمَ بْنَ عَمْرِو الْغِفَارِيِّ مِنْ وَلَدِ نُعَيْلَةَ أَخِي غِفَارٍ، وَهُوَ غِفَارُ بْنُ مُلَيْلٍ، وَنُعَيْلَةُ بِنْتُ مُلَيْلِ بْنِ ضَمْرَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ، وَقَدْ قَالُوا: عُتْبَةُ بْنُ عَزْوَانَ السُّلَمِيُّ، وَهُوَ مِنْ وَلَدِ مَازَنَ بْنِ مَنْصُورٍ وَسُلَيْمِ بْنِ مَنْصُورٍ.

قال ابن هشام: فَأَبُو قَيْسِ بْنِ الْأَسْلَتِ: مِنْ بَنِي وَائِلٍ، وَوَائِلٌ، وَوَاقِفٌ وَحَظْمَةُ إِخْوَةٌ مِنَ الْأَوْسِ.

قال ابن إسحاق: فَقَالَ أَبُو قَيْسِ بْنِ الْأَسْلَتِ - وَكَانَ يُحِبُّ قُرَيْشًا، وَكَانَ لَهُمْ صِهْرًا، كَانَتْ عِنْدَهُ أَزْنَبُ بِنْتُ أَسَدَ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ، وَكَانَ يُقِيمُ عِنْدَهُمُ السَّنِينَ بِأَمْرَاتِهِ - قَصِيدَةً يَعْظُمُ فِيهَا الْحُزْمَةُ، وَيُنْهِي قُرَيْشًا فِيهَا عَنِ الْحَرْبِ، وَيَأْمُرُهُمُ بِالْكَفِّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَيَذْكُرُ فَضْلَهُمْ وَأَحْلَامَهُمْ، وَيَأْمُرُهُمُ بِالْكَفِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيَذْكُرُهُمْ بِبَلَاءِ اللَّهِ عَنْهُمْ، وَدَفَعَهُ عَنْهُمْ الْفِيلَ وَكَيْدَهُ عَنْهُمْ، فَقَالَ:

ابن الأسلت وقصيدته

فصل: وذكر ابن هشام كلَّ مَنْ سَمَّاهُ أَبُو طَالِبٍ فِي قَصِيدَتِهِ، أَوْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَعَرَفَ بِهِمْ تَعْرِيفًا مُسْتَغْنِيًا عَنِ الزَّيْدِ. وَذَكَرَ قَصِيدَةَ أَبِي قَيْسِ صَيْفِيِّ بْنِ الْأَسْلَتِ، وَاسْمُ الْأَسْلَتِ: عَامِرٌ، وَالْأَسْلَتُ: هُوَ الشَّدِيدُ الْفَطَسُ يُقَالُ: سَلَّتِ اللَّهُ أَنْفَهُ، وَمَنْ سَلَّتِ حَدِيثَ بَشَرٍ بَنِ عَاصِمٍ حِينَ أَرَادَ عَمْرٌ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ، فَلَمَّا كَتَبَ لَهُ عَهْدَهُ أَبِي أَنْ يَقْبَلَهُ، وَقَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِهِ. إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «إِنَّ الْوَلَاةَ يُجَاءُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقْفُونَ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ، فَمَنْ كَانَ مُطَاوِعًا لِلَّهِ تَنَاوَلَهُ يَمِينُهُ حَتَّى يَنْجِيَهُ، وَمَنْ كَانَ عَاصِيًا لِلَّهِ انْخَرَقَ بِهِ الْجِسْرُ إِلَى وَادٍ مِنْ نَارٍ تَلْتَهِبُ التَّهَابًا»، قَالَ: فَأَرْسَلَ عَمْرٌ إِلَى أَبِي ذَرٍّ، وَإِلَى سَلْمَانَ، فَقَالَ لِأَبِي ذَرٍّ: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: نَعَمْ وَاللَّهِ، وَبَعْدَ الْوَادِي وَادٍ آخَرُ مِنْ نَارٍ. قَالَ: وَسَأَلَ سَلْمَانَ، فَكَرِهَ أَنْ يُخْبِرَهُ بِشَيْءٍ، فَقَالَ عَمْرٌ: مَنْ يَأْخُذُهَا بِمَا فِيهَا؟ فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: مَنْ سَلَّتِ اللَّهُ أَنْفَهُ وَعَيْنِيهِ، وَأَضْرَعَ خَدَّهُ إِلَى الْأَرْضِ ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ^(١).

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٢١٧/١٢). وَذَكَرَهُ الْحَافِظُ فِي الْمَطَالِبِ (٢٠٤٧).

يا راكبًا إمّا عَرَضْتَ قَبْلَغْنِ مُغْلَغَلَةً عَنِّي لَوْيَّيْ بِنِ غَالِبِ
رسول امرئٍ قد راعه ذاتُ بَيْنِكُم على النَّأْيِ مَخْزُونٍ بِذَلِكَ نَاصِبِ
وقد كَانَ عِنْدِي لِلْهُمُومِ مُعَرَّسٌ^(١) فَلَمْ أَقْضِ مِنْهَا حَاجَتِي وَمَآرِبِي
نُبَيْتُكُمْ شَرْجَيْنِ كُلِّ قَبِيلَةٍ لَهَا أَزْمَلٌ مِنْ بَيْنِ مُذْكِ وَحَاطِبِ
أَعِيذُكُمْ بِاللّهِ مِنْ شَرِّ صُنْعِكُم وَشَرِّ تَبَاغِيكُم وَدَسِّ الْعَقَارِبِ
وَإِظْهَارِ أَخْلَاقِي، وَنَجْوَى سَقِيمَةٍ كَوَخَزِ الْأَشَافِي وَقَعُهَا حَقُّ صَائِبِ
فَذَكَّرْهُمْ بِاللّهِ أَوَّلَ وَهْلَةٍ وَإِحْلَالِ أَحْرَامِ الطُّبَاءِ الشُّوَاظِ
وَقُلْ لَهُمُ وَاللّهِ يَحْكُمُ حُكْمَهُ ذَرُوا الْحَرْبَ تَذْهَبْ عَنْكُم فِي الْمَرَاظِ
مَتَى تَبْعَثُوهَا، تَبْعَثُوهَا دَمِيمَةً هِيَ الْغُولُ لِلْأَقْصَيْنِ أَوْ لِلْأَقَارِبِ

وأول القصيدة:

يا راكبًا إمّا عَرَضْتَ قَبْلَغْنِ

البيت. الْمُغْلَغَلَةُ: الداخلة إلى أقصى ما يراد بُلُوغُهُ مِنْهَا، ومنه تغلغل في البلاد: إذا بالغ في الدخول فيها، وأصله: تَغَلَّلَ وَمُغْلَلَةٌ، وَلَكِنْ قَبِلُوا إِحْدَى اللَّامَيْنِ غَيْنًا، كَمَا فَعَلُوا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَضَاعِفِ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْعَلَلِ وَالْغِلَالَةِ، فَأَمَّا الْعَلَلُ فَمَاءٌ يَسْتَرُهُ النَّبَاتُ وَالشَّجَرُ، وَأَمَّا الْغِلَالَةُ فَسَاتِرَةٌ لَهَا تَحْتَهَا.

وفيهما. نُبَيْتُكُمْ شَرْجَيْنِ. أي: فَرِيقَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، وَنُبَيْتُكُمْ لَفْظٌ مُشْكَلٌ وَفِي حَاشِيَةِ الشَّيْخِ: نَبَيْتُكُمْ شَرْجَيْنِ، وَهُوَ بَيِّنٌ فِي الْمَعْنَى، وَفِيهِ زِحَافٌ خَزَمٌ، وَلَكِنْ لَا يِعَابَ الْمَعْنَى بِذَلِكَ، وَأَمَّا لَفْظُ التَّنْبِيْثِ فِي هَذَا الْبَيْتِ، فَبَعِيدٌ مِنْ مَعْنَاهُ، وَالْأَزْمَلُ: الصَّوْتُ، وَالْمُذْكِ: الَّذِي يوقِدُ النَّارَ، وَالْحَاطِبُ: الَّذِي يَخْطُبُ لَهَا، ضَرِبَ هَذَا مِثْلًا لِنَارِ الْحَرْبِ، كَمَا قَالَ الْآخَرُ:

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِیْضَ جَمْرِ وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهَا ضِرَامُ
فَإِنْ النَّارَ بِالْعُودَيْنِ تُذَكِّي وَإِنْ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا الْكَلَامُ^(٢)

وقوله: وَهِيَ الْغُولُ لِلْأَدْنَى، أي: هِيَ الْهَلَاكُ، يُقَالُ: الْغَضَبُ: غُولُ الْجَلْمِ، أَيْ يَهْلِكُهُ، وَالْعَوْلُ بَفَتْحِ الْغَيْنِ: وَجَعُ الْبَطْنِ، قَالَهُ الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿لَا فِيهَا عَوْلٌ﴾. وقوله: وَإِحْلَالُ إِحْرَامِ الطُّبَاءِ الشُّوَاظِ^(٣). أي: إِنْ بَلَدَكُمْ بِلَدٍّ حَرَامٍ تَأْمَنُ فِيهِ الطُّبَاءُ الشُّوَاظُ

(١) الْمُعَرَّسُ: الَّذِي يَسِيرُ نَهَارَهُ وَيُعَرِّسُ أَيْ يَنْزِلُ أَوَّلَ اللَّيْلِ.

(٢) انْظُرْ مَرْجُوحَ الذَّهَبِ (٣/٢٥٦). (٣) الَّتِي يَحْرُمُ صَيْدُهَا فِي الْحَرَمِ.

تُقَطَّعُ أَزْحَامًا، وَتُهْلِكُ أُمَّةٌ
وَتُسْتَبَدَّلُوا بِالْأَتْحَمِيَّةِ بَعْدَهَا
وَبِالْمِنْكَ وَالْكَافُورِ غُبْرًا سَوَابِغًا
فِيَاكُمْ وَالْحَرْبَ لَا تَغْلِقُكُمْ
تَزْيِنٌ لِلْأَقْوَامِ، ثُمَّ يَرْوْنَهَا
تُحَرِّقُ، لَا تُشْوِي ضَعِيفًا، وَتَنْتَحِي
أَلَمْ تَعْلَمُوا مَا كَانَ فِي حَرْبِ دَاخِسٍ
وَتَبْرِي السَّدِيفِ^(١) مِنْ سَنَامٍ وَغَارِبٍ
شَلِيلًا وَأَصْدَاءَ ثِيَابِ الْمُحَارِبِ
كَأَنَّ قَتِيرِنَهَا عِيُونُ الْجَنَادِ
وَحَوْضًا وَخِيمَ الْمَاءِ مُرَّ الْمَشَارِبِ
بِعَاقِبَةٍ إِذْ بَيَّنْتَ، أُمُّ صَاحِبِ
ذَوِي الْعِزِّ مِنْكُمْ بِالْحُثُوفِ الصَّوَائِبِ
فَتَغْتَبِرُوا أَوْ كَانَ فِي حَزْبِ حَاطِبِ

التي تأتيه من بُغْدٍ، لِتَأْمَنَ فِيهِ، فَهِيَ شَاذِيَةٌ أَي: ضَامِرَةٌ مِنْ بَعْدِ الْمَسَافَةِ، وَإِذَا لَمْ تَجْلُوا
بِالْظَبَاءِ فِيهِ، فَأُخْرَى أَلَّا تَجْلُوا بِدِمَائِكُمْ، وَإِحْرَامُ الظَّبَاءِ: كَوْنُهَا فِي الْحَرَمِ، يُقَالُ لِمَنْ دَخَلَ فِي
الشَّهْرِ الْحَرَامِ، أَوْ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ: مُخْرِمٌ. وَالْأَتْحَمِيَّةُ: ثِيَابٌ رِقَاقٌ تَصْنَعُ بِالْيَمَنِ، وَالشَّلِيلُ:
دِرْعٌ قَصِيرَةٌ، وَالْأَصْدَاءُ: جَمْعُ صَدَأَ الْحَدِيدُ، وَالْقَتِيرُ: خَلَقَ الدَّرْعُ شَبْهَهَا بِعِيُونِ الْجَرَادِ،
وَأَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى التَّوَخُّيُّ فَقَالَ:

كَأَثْوَابِ الْأَرَاقِمِ مَزَقَّتْهَا فحَاطَتْهَا بِأَعْيُنِهَا الْجَرَادُ
وَقَوْلُهُ فِي وَصْفِ الْحَرْبِ:

تَزْيِنٌ لِلْأَقْوَامِ، ثُمَّ يَرْوْنَهَا بِعَاقِبَةٍ إِذْ بَيَّنْتَ أُمُّ صَاحِبِ
هُوَ كَقَوْلِ عَمْرٍو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ:

الْحَرْبُ أَوَّلُ مَا تَكُونُ قَتِيَّةٌ تَسْعَى بِبَزَّتِهَا لِكُلِّ جَهُولٍ
حَتَّى إِذَا اشْتَعَلَتْ وَشَبَّ ضِرَامُهَا وَلَّتْ عَجُوزًا غَيْرَ ذَاتِ خَلِيلٍ
شَمَطَاءَ جَزَّتْ رَأْسَهَا، فَتَنَكَّرَتْ مَكْرُوهَةً لِلشَّمِّ وَالتَّقْبِيلِ

فَقَوْلُهُ: أُمُّ صَاحِبِ، أَي: عَجُوزًا كَأُمِّ صَاحِبِ لَكَ، إِذْ لَا يَصْحَبُ الرَّجُلَ إِلَّا رَجُلٌ فِي
سَنَةِ، وَفِي جَامِعِ الْبَخَارِيِّ: كَانُوا إِذَا وَقَعَتِ الْحَرْبُ يَأْمُرُونَ بِحِفْظِ هَذِهِ الْآيَاتِ، يَعْنِي: آيَاتِ
عَمْرٍو الْمَتَقَدِّمَةِ.

وَقَوْلُهُ:

أَلَمْ تَعْلَمُوا مَا كَانَ فِي حَرْبِ دَاخِسٍ

(١) السديف: لحم السنّام.

وكم قد أصابث من شريف مُسوّد
عظيم رَمادِ النَّارِ يُخَمِّدُ أمرُه
وماءٌ هُرِيقٌ في الضَّلَالِ كأنما
يخْبِرُكُمْ عنها امرؤٌ حقٌّ عالمٍ
فَيُعُوّ الحِرَابَ مِلْمُحَارِبٍ، واذْكُرُوا
وَلِيَّ امرئٍ، فاختار دينًا، فلا يَكُنْ
أَقِيمُوا لَنَا دينًا حَنِيفًا فَأَنْتُمْ
وَأَنْتُمْ لَهَذَا النَّاسِ نورٌ وَعِصْمَةٌ
وَأَنْتُمْ - إِذَا مَا حُصِّلَ النَّاسُ - جَوْهَرٌ
تَصُونُونَ أَجْسَادًا كِرَامًا عَتِيقَةً
طويلِ العِمَادِ، ضَيْفُهُ غَيْرُ خَائِبٍ
وَذِي شَيْمَةٍ مَخْضٍ كَرِيمِ الْمَضَارِبِ
أَذَاعَتْ بِهِ رِيحَ الصَّبَا وَالْجَنَائِبِ
بِأَيَّامِهَا وَالْعِلْمُ عِلْمُ التَّجَارِبِ
حِسَابُكُمْ، وَاللَّهُ خَيْرُ مُحَاسِبٍ
عَلَيْكُمْ رَقِيبًا غَيْرَ رَبِّ الثَّوَابِ
لَنَا غَايَةٌ قَدْ يُهْتَدَى بِالدَّوَائِبِ
تُؤْمِنُونَ، وَالْأَحْلَامُ غَيْرَ عَوَازِبِ
لَكُمْ سُرَّةُ الْبَطْحَاءِ شُمُّ الْأَرَانِبِ
مُهَذَّبَةُ الْأَنْسَابِ غَيْرَ أَشَائِبِ

يُذَكِّرُ معنى داحسٍ إِذَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ بَعْدَ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وقوله فيها: وَلِيَّ امرئٍ فاختار دينًا فإنما. أي: هو وَلِيَّ امرئٍ اختار دينًا، والفاء زائدة على أصلِ أَبِي الحسن، قال في قولهم: زَيْدًا فَاضْرِبْ: الفاءُ مُعَلِّقَةٌ أي: زائدة، وَمَنْ لَا يَقُولُ بِهَذَا الْقَوْلِ يجعلُ الفاءَ عاطفةً على فعلٍ مضمر، كأنه قال: وَلِيَّ امرئٍ تَدِينُ، فاختار دينًا، أو نحو هذا، وقد تقدّم شرح باقي القصيدة في آخر قصة الحبشة.

وقال فيها: كريم المضارب، وفي حاشية كتاب الشيخ: لعله الضرائب، يريد: جمع ضريبة، ولا يبعد أيضًا أن يكون قال: المضارب. يريد أن مضارب سيوفه غير مذمومة، ولا راجعة عليه إلا بالثناء والحمد والوصف بالكمال.

وفيها قوله: وماء هُرِيقٌ في الضلال. ويُروى: في الصَّلَالِ جمع صَلَّةٍ، وهي الأرض التي لا تمسك الماء، أي رُبَّ ماءٍ هُرِيقٌ في الضلال من أجل السراب، لأنه لا يُهْرِيقُ ماءً من أجل السَّرَابِ إِلَّا ضَالًّا غير مميز بمواضع الماء، وأذاعت به، أي: بدّدته، فلم ينتفع به، وهذا مثل ضربه للنظر في عواقب الأمور، ويُروى: وما اهْرِيقَ في أمر، ومعناه: والذي أَهْرِيقَ في أمر الضلال، فوصل ألف القطع ضرورة، ويقال: أَرِيقُ الماء، وَأَهْرِيقُ بالجمع بين الهمزة والهاء، وهي أقلها، ولتعليها موضع غير هذا.

يرى طالبُ الحاجات نحو بُيوتكم
لقد علم الأقوام أن سَرَاتكم
وأفضله رأيا، وأعلاه سُنة
فقوموا، فصلُّوا رَبَّكم، وتمسَّحوا
فعندكم منه بلاؤٌ ومُضدق
كتيبته بالسَّهل تُمسي، ورَجُلُه
فلما أتاكم نَصْرُ ذي العَرْش، ردَّهم
فولُّوا سِرَاعًا هارِبين، ولم يُؤب
فإن تهلِّكوا، تهلِّك وتهلِّك مواسم

عصائب هلكى تهتدي بعصائب
على كلِّ حال خيرُ أهل الجَبَاجِب
وأقولُه للحقِّ وسَط المَوَاقِب
بأركان هذا البيت بين الأخاشب
غَدَاة أبى يَكْسُوم هادي الكَتَائِب
على القاذفات في رُؤوس المناقب
جُنودُ المليك بين سافٍ وحاصِب
إلى أهله م الحُبش غيرُ عَصَائِب
يُعاش بها، قولُ امرئٍ غيرِ كاذب

قال ابن هشام: أنشدني بيته: «وماءٌ هُرِيق»، وبيته: «فبيعوا الحراب»، وقوله: «وليُّ امرئٍ فاختر»، وقوله:

على القاذفات في رُؤوس المناقب

أبو زيد الأنصاري وغيره.

حرب داحس

قال ابن هشام: وأما قوله:

ألم تعلموا ما كان في حرب داحس .

وقوله فيها: بين سافٍ وحاصب: السافي: الذي يَرْمِي بالتراب، والحاصب الذي يَفْذِف بالحصباء .

وفيهما ذكر الجَبَاجِب، وهي منازل منى. كذا قال ابن إسحق، وقال البرقي: هي حُفَر بمني، يجمع فيها دم البُذْن، والهدايا، والعرب تعظمها وتفخر بها، وقيل: الجبابب: الكُروش. يقال للكَرْش: جَبَجَبَ بفتح الجيم، والذي تقدّم واحده: جُبَجَبَ بالضم^(١).

حرب داحس^(٢)

فصل: وذكر حديث حرب داحس مختصرًا، وداحس: اسم فرس كان لقيس بن أبي

(١) في الراصد: الجبجة: ماء معروف بنواهي اليمامة.

(٢) انظر الكامل (٤٤٩/١) النقاظ بين جرير والفرزدق لأبي عبيدة (٧٦/١).

فحدَّثني أبو عُبَيْدة النحوي: أن داحسًا فرَس كان لَقَيْس بن زُهَيْر بن جَدِيمة بن رَوَاحة بن رَبيعة بن الحارث بن مازن بن قُطَيْعة بن عَبَس بن بَغِيض بن رَيْث بن عَطْفان، أجراه مع فرس لَحْدَيْفة بن بَذَر بن عَمْرُو بن زِيد بن جُوَيْة بن لَوْذَان بن ثُعَلْبَة بن عدي بن فزارة بن ذُبْيَان بن بَغِيض بن رَيْث بن عَطْفان، يقال لها: الغبراء. فدرس حُدَيْفة قَوْمًا وأمرهم أن يضربوا وَجْه داحس، إن رأوه قد جاء سابقًا، فجاء داحس سابقًا، فضربوا وجهه، وجاءت الغبراء. فلما جاء فارس داحس أخبر قيسًا الخبر، فوثب أخوه مالك بن زُهَيْر، فلطم وجه الغبراء، فقام حَمَلُ بن بدر، فلطم مالكا. ثم إن أبا الجُنَيْدِ العَبْسِي لقي عوفَ بن حُدَيْفة فقتله، ثم لقي رجلًا من بني فزارة مالكا فقتله فقال حَمَلُ بن بَذَر أخو حُدَيْفة بن بَذَر:

قَتَلْنَا بَعُوفَ مَالِكًا وَهُوَ تَأْرَنَّا فَإِنْ تَطَلَبُوا مِنَّا سَوَى الْحَقِّ تَنَدَّمُوا

زهير، ومعنى داحس: مدحوس كما قيل: ماء دافق، أي: مدفوق، والدَّخْسُ: إدخال اليد بقوة في ضيق، كما رُوِيَ أن رسول الله - ﷺ - مرَّ بغلام يسلك شاة، فأمره أن ينتحي لئريه، ثم دَحَس عليه السلام بيده بين الجلد واللحم، حتى بلغ الإبطَ ثم صَلَّى، ولم يتوضأ^(١). فَدَا حَسَّ سُمِّيَ بهذا الاسم؛ لأن أمه كانت لرجل من بني تميم، ثم من بني يَرْبُوع اسمه: قِزْوَاش بن عَوْف، وكان اسم الفرس: جَلَوَى، وكان ذو العُقَالِ فرسًا عتيقًا لِحَوْطِ بن جابر، فخرجت به فتاتان له، لتسقياه، فبصر بجَلَوَى، فأذلى حين رآها، فضحك غِلْمَةٌ كانوا هنالك، فاستحيت الفتاتان، ونكستا رأسيهما، فأفلت ذو العُقَالِ حتى نَزَا على جَلَوَى، وقيل ذلك لِحَوْطِ فأقبل مغضبًا، وهو يسعى حتى ضرب بيده في التراب، ثم دَحَسَهَا فِي رَحِمِ الْفَرَسِ، فسطا عليها، فأخرج ماء الفحل منها، واشتملت الرحمُ على بقية الماء، وحملت بمهر فسمَّوه: داحسًا، وأظهر ما فيه أن يكون مثل: لَابِنٍ وتامِرٍ، وأن لا يكون فاعلاً بمعنى مفعول، فهو داحس بن ذي العُقَالِ بن أعوج الذي تُنسب إليه الخيل الأَعُوجِيَّةُ^(٢) في قول بعضهم، وقد تقدم غير هذا القول - ابن سَبَلٍ^(٣)، وكان لغني بن يَعْصُرٍ، وفيه يقال:

إِنْ الْجَوَادُ بَنَ الْجَوَادِ بَنَ سَبَلٍ إِنْ دَايَمُوا جَادَ، وَإِنْ جَادَ وَبَلَّ
وفي ذي العُقَالِ يقول جرير:

تَمْسِي جِيَادُ الْخَيْلِ حَوْلَ بَيْوتِنَا مِنْ آلِ أَعُوجَ، أَوْ لَذِي الْعُقَالِ

(١) «حسن». أخرجه أبو داود (١٨٥) بتحقيقي. وابن ماجة في الذبائح (٣١٧٩).

(٢) أعوج: فرس لبني هلال تنسب إليه الأعوجيات.

(٣) سبل: هي أم أعوج سالف الذكر.

وهذا البيت في أبيات له . وقال الربيع بن زياد العبسي :

أَقْبَعَدَ مَقْتَلِ مَالِكِ بْنِ زُهَيْرٍ تَرَجُّو النِّسَاءَ عَوَاقِبَ الْأَطْهَارِ
وهذا البيت في قصيدة له .

فوقعت الحرب بين عَبْسٍ وَفَزَارَةٍ ، فَقُتِلَ حُذَيْفَةُ بْنُ بَدْرٍ وَأَخُوهُ حَمَلُ بْنُ بَدْرٍ ، فَقَالَ
قَيْسُ بْنُ زُهَيْرٍ بْنُ جَذِيمَةَ يَرِثِي حُذَيْفَةَ ، وَجَزَعُ عَلَيْهِ :

كَمْ فَارِسٍ يُدْعَى وَلَيْسَ بِفَارِسٍ وَعَلَى الْهَبَاءِ فَارِسٌ ذُو مَضْدَقٍ
فَابْكُوا حُذَيْفَةَ لَنْ تُرْثَوْا مِثْلَهُ حَتَّى تَبِيدَ قِبَائِلُ لَمْ تُخْلَقِ
وهذان البيتان في أبيات له . وقال قيس بن زهير :

عَلَى أَنَّ الْفَتَى حَمَلَ بْنَ بَذْرِ بَغَى ، وَالظُّلُمُ مَزْتَعُهُ وَخِيمُ
وهذا البيت في أبيات له : وقال الحارث بن زهير أخو قيس بن زهير :
تَرَكْتُ عَلَى الْهَبَاءِ غَيْرَ فَخْرٍ حُذَيْفَةَ عِنْدَهُ قِصْدُ الْعَوَالِي

وَأَنشَد :

أَقْبَعَدَ مَقْتَلِ مَالِكِ بْنِ زُهَيْرٍ تَرَجُّو النِّسَاءَ عَوَاقِبَ الْأَطْهَارِ
وفيه إقواء ، وهو حذف نصف سبب من القسم الأول ، وقد تكلمنا على معنى الإقواء
قبل ، وأما اختلاف القوافي فيسمى : اكتفاء ، وإقواء أيضًا لأنه من الكُفَاء ، فكأنه جعل الرفع
كفًا للخفض ، فسوى بينهما ، وفيها قوله :

تَرَجُّو النِّسَاءَ عَوَاقِبَ الْأَطْهَارِ . كَقَوْلِ الْأَخْطَلِ :

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا شَدُّوا مَآزِرَهُمْ دُونَ النِّسَاءِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارِ
فيقال : إن حرب داحس دامت أربعين سنة ، لم تحمل فيها أنثى ، لأنهم كانوا لا يقربون
النساء ما داموا محاربين ، وذكر الأصبهاني أن حرب داحس كانت بعد يوم جَبَلَةَ بأربعين
سنة ، وقد تقدّم يوم جَبَلَةَ ، وأن رسول الله ﷺ ولد في تلك الأيام ، وقال لبيد :

وَعَنَيْتُ حَزْسًا قَبْلَ مَجْرَى دَاحِسٍ لَوْ كَانَ لِلنَّفْسِ اللَّجُوجِ خُلُودُ
وكان لبيد في حربِ جَبَلَةَ ابْنَ عَشْرِ سِنِينَ ، وقوله : حَزْسًا أَي : وَقْتًا مِنَ الدَّهْرِ ، وَيُرْوَى
سَبْتًا وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ ، وَكَانَ إِجْرَاءُ دَاحِسٍ وَالْغُبَرَاءِ عَلَى ذَاتِ الْإِصَادِ مَوْضِعٌ فِي بِلَادِ فَزَارَةَ ،

وهذا البيت في أبيات له.

قال ابن هشام: ويقال: أرسل قيسٌ داحساً والغبراء، وأرسل حذيفة الخطارَ والحنفاء، والأول أصح الحديثين. وهو حديث طويل منيعني من استقصائه قَطَعَهُ حديث سيرة رسول الله ﷺ.

حرب حاطب:

قال ابن هشام: وأما قوله: «حرب حاطب». فيعني حاطب بن الحارث بن قيس بن هَيْشَةَ بن الحارث بن أمية بن معاوية بن مالك بن عَوْف بن عمرو بن عَوْف بن مالك بن الأوس، كان قتل يهوديًا جازًا للخزرج، فخرج إليه يزيد بن الحارث بن قيس بن مالك بن أحمر بن حارثة بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج - وهو الذي يقال له: ابن فُسْحَم، وفُسْحَم: أمه، وهي امرأة من القَيْن بن جَسْر - ليلاً في نفر من بني الحارث بن الخزرج فقتلوه، فوقعت الحرب بين الأوس والخزرج فاقتتلوا قتالاً شديداً، فكان الظفر للخزرج على الأوس، وقُتل يومئذٍ سُوَيْد بن صامت بن خالد بن عطية بن حَوْط بن حبيب بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، قُتل المَجْدَر بن ذِيَاد البلوي، واسمه عبد الله، حليف بني عَوْف بن الخزرج. فلما كان يوم أُحُد خرج المَجْدَر بن ذِيَاد مع رسول الله - ﷺ - وخرج معه الحارث بن سُوَيْد بن صامت، فوجد الحارث بن سُوَيْد غِرَّةً من المَجْدَر فقتله بأبيه. وسأذكر حديثه في موضعه - إن شاء الله تعالى - ثم كانت بينهم حروب منيعني من ذكرها واستقصاء هذا الحديث ما ذكرت في حديث حرب داحس.

وكان آخر أيام حرب داحس بقله من أرض قيس، وهناك اصطلحت عبس ومثولة: وهي أم بني فزارة: شَمْخ وَعَدِي وَمَازَن، فيقال لهذا الموضع: قَلْهَى، وأما قَلْهَى فموضع بالحجاز، وفيه اعتزل سعد بن أبي وقاص حين قُتل عثمان، وأمر ألا يُحَدَّث بشيء من أخبار الناس، وألا يسمع منها شيئاً، حتى يصطلحوا، ويقال: إن الحنفاء كانت فرس حذيفة، وأنها أُجريت مع الغبراء ذلك اليوم، قال الشاعر:

إذا كان غيرُ الله للمرءِ عُدَّةً أتته الرزايا من وجوه الفوائد
فقد جرَّت الحنفاء حَتَفَ حذيفةً وكان يراها عُدَّةً للشدائدِ

وأما حرب حاطب الذي ذكرها، فهي حربٌ كانت على يد حاطب بن الحارث بن قيس بن هَيْشَةَ بن الأوس، فُسِبَتْ إليه، وكانت بين الأوس والخزرج.

حكيم بن أمية ينهي قومه عن عداوة الرسول :

قال ابن إسحق: وقال حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمي، حليف بني أمية وقد أسلم، يورع قومه عما أجمعوا عليه من عداوة رسول الله ﷺ، وكان فيهم شريفًا مطاعًا:

هل قائلٌ قولاً من الحق قاعدٌ عليه، وهل غضبانٌ للرشد سامعٌ
وهل سيدٌ ترجو العشيرة نفعه لأقصى الموالي والأقارب جامعٌ
تبرأتُ إلا وجهَ مَنْ يملك الصبا وأنجركم ما دام مُذِلٌ ونازعٌ
وأسلمَ وخيبي للإله ومنطقي ولو راعني مِنَ الصديق روائعٌ

ذكرى ما لقيه رسول الله ﷺ من قومه

مفتريات قريش وإيذاؤهم للرسول ﷺ:

قال ابن إسحق: ثم إن قريشاً اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ، ومن أسلم معه منهم، فأغروا برسول الله ﷺ: سفهاءهم، فكذبوه، وأذوه، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ورسول الله ﷺ مظهرٌ لأمر الله لا يُستخفى به، مُبادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه إيّاهم على كفرهم.

ما لقي رسول الله ﷺ من قومه

فصل: فيما لقي رسول الله ﷺ من قومه، ذكر ابن إسحق والواقدي والتيمي، وابن عقبة وغيرهم في هذا الباب أموراً كثيرة تتقارب ألفاظها ومعانيها، وبعضهم يزيد على بعض، فمنها حثو سفهائهم التراب على رأسه، ومنها أنهم كانوا ينضدّون. الْفَرْتُ وَالْأَفْحَاتُ^(١) والدماء على بابه، ويطرحون رحم الشاة في بُرْمَتِهِ، ومنها: بَضُقُ أُمَيَّةَ بن خلف في وجهه، ومنها: وطء عقبة بن أبي مُعَيْطٍ على رقبته، وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان، ومنها أخذهم بِمُخْتَقِهِ حين اجتمعوا له عند الجِجْر، وقد ذكره ابن إسحق، وزاد غيره الخبر أنهم خنقوه خنقاً شديداً وقام أبو بكر دونه فَجَبَدُوا رَأْسَهُ ولحيته حتى سقط أكثر شعره، وأما السُّبُّ والهُجْر والتلقيب وتعذيب أصحابه وأحبائه، وهو ينظر، فقد ذكر من ذلك ابن إسحق ما في الكتاب، وقد قال أبو جهل لُسْمِيَّةُ أُمَ عَمَّار بن ياسر: ما آمَنْتِ بِمُحَمَّدٍ إِلَّا لِأَنَّكَ عَشِيقَتِهِ لجمالِهِ، ثم طعنها بالحربة في قُبْلِهَا حتى قتلها، والأخبار في هذا المعنى كثيرة.

(١) الأفحات: جمع فحث: بعض ما في الكرش.

قال ابن إسحاق: فحدثني يَحْيَى بنُ عروة بن الزبير، عن أبيه عُرْوَةُ بن الزبير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله - ﷺ - فيما كانوا يُظهرون من عداوته؟ قال: حضرتُهم، وقد اجتمع أشرفهم يوماً في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صَبَرْنَا عليه من أمر هذا الرجل قط: سَفَهُ أَحْلَامِنَا، وَشَتَمَ آبَاءَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَسَبَّ آلِهَتَنَا، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، أَوْ كَمَا قَالُوا، فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله - ﷺ - فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرَّ بهم طائفاً بالبيت، فلما مرَّ بهم غَمَزُوهُ، ببعض القول، قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ. قال: ثم مضى، فلما مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله - ﷺ - ثم مرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف، ثم قال: «أتسمعون يا معشر قُريش؟! أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذَّبْحِ». قال: فأخذت القومَ كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائرٌ واقع، حتى إن أشدهم فيه وَصَاةً قَبْلَ ذَلِكَ لَيَزِفُوهُ بأحسن ما يجدُ من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنتُ جهولاً. قال فانصرف رسولُ الله ﷺ، حتى إذا كان الغدُ اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتُم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه. فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسولُ الله - ﷺ - فوثبوا إليه وثبةً رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا، لِمَا كان يقول من عَيِبِ آلِهَتِهِمْ ودينهم؟! فيقول رسولُ الله ﷺ: «نعم أنا الذي أقول ذلك»، قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع رداءه. قال: فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه، وهو يبكي ويقول: أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟! ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشدَّ ما رأيت قريشاً نالوا منه قط.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض آل أُمِّ كُلثوم ابنة أبي بكر، أنها قالت: رجع أبو بكر يومئذٍ وقد صَدَعُوا فَرْقَ رأسه، ممَّا جَبَذُوهُ بِلِخِيته، وكان رجلاً كثيرَ الشعر.

قال ابن هشام: حدثني بعض أهل العلم: إن أشدَّ ما لقي رسولُ الله ﷺ من قريش أنه خرج يوماً فلم يَلْقَهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا حَذَّيْبَهُ وَأَذَاهُ، لَا حُرَّ وَلَا عَبْدَ، فَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَتَدَثَّرَ مِنْ شِدَّةِ مَا أَصَابَهُ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ١ - ٢].

السبب في تلقيه بالمدثر والنذير العريان:

وذكر ابن إسحاق قول رسول الله - ﷺ -: «دَثَرُونِي دَثَرُونِي» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ قال بعض أهل العلم: في تسميته إياه بالمدثر في هذا المقام

مُلَاطَفَةً وتَأْنِيسٌ، ومن عادة العرب إذا قصدت الملاطفة أن تسمي المخاطب باسم مُشْتَقٍّ من الحالة التي هو فيها، كقوله عليه السلام لحذيفة: **قَم يَا تَوْمان**^(١)، وقوله لعلي بن أبي طالب - وقد تَرَبَّ جنبُه: **قَم أبا تُرَابٍ**^(٢) فلو ناداه سبحانه، وهو في تلك الحال من الكرب باسمه، أو بالأمر المجرد من هذه الملاطفة لَهَالَهُ ذلك، ولكن لما بُدِيَ، بيأيتها المدثر أُنْسَ، وعلم أن ربه راضٍ عنه، ألا تراه كيف قال عندما لَقِيَ من أهل الطائف من شدة البلاء والكرب ما لقي: **رَبِّ إِن لَّمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي**^(٣) إلى آخر الدعاء، فكان مطلوبه رضا ربه، وبه كانت تهوّن عليه الشدائد. فإن قيل: كيف ينتظم يَأَيُّهَا المدثر مع قوله: **قَم فَأُنْذِرُ**، وما الرابط بين المعنيين، حتى يلتصقا في قانون البلاغة، ويتشاكلا في حكم الفصاحة؟ قلنا: من صفته عليه السلام ما وَصَفَ به نفسه حين قال: **أنا النذير العُزَيَّان**^(٤)، وهو مَثَلٌ معروف عند العرب، يقال لَمَنْ أُنْذِرَ بِقُرْبِ العدو، وبالعِزِّ في الإنذار، وهو النذير العُزَيَّان، وذلك أن النذير الجادَّ يُجَرِّدُ ثوبه، ويُشِيرُ به إذا خاف أن يسبق العدوَّ صوته، وقد قيل: **إِنْ أَصَلَ المثل لرجل من خَنَعَمَ سَلْبُهُ العدوَّ ثوبه**، وقطعوا يده، فانطلق إلى قومه نذيرًا على تلك الحال، فقوله عليه السلام: **«أنا النذير العريان»** أي: مثلي مثل ذلك، والتدثر بالثياب مُضَادٌّ لِلتَّعَرِّي، فكان في قوله: **«يَأَيُّهَا المدثر»** مع قوله: **«قَم فَأُنْذِرُ»** والنذيرُ الجادُّ يسمى: العُزَيَّان: تشاكل بَيِّنٌ، والتثام بديعٌ وَسَمَاقَةٌ في المعنى، وَجَزَالَةٌ في اللفظ.

تقديم المفعول على الفعل:

وقوله بعد هذا: **«وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ»** أي: رَبِّكَ كَبِّرْ، لا غيره لا يَكْبُرُ عليك شيء من أمر الخلق، وفي تقديم المفعول على فعل الأمر إخلاصٌ، ومثله قوله: **«إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»** أي: لا نعبد غيرك [ولا نستعين إلا بك]، ولم يَقُلْ: نعبدك ونستعينك، وفي الحديث: إذا قال العبد: **إِيَّاكَ نعبد، وإِيَّاكَ نستعين**، يقول الله تعالى: **أَخْلَصَ لِي عِبْدِي العبادَةَ، واستعانني عليها، فهذه بيني وبين عبيدي.**

- (١) «صحيح». أخرجه مسلم في الجهاد (٩٩) والبيهقي (١١٩/٩) وفي الدلائل له (٤٥٠/٣).
- (٢) «صحيح». أخرجه البخاري (١٢٠/١) ومسلم في فضائل الصحابة (٣٨) والبيهقي (٤٤٦/٢).
- (٣) انظر القرطبي في تفسيره (٢١١/١٦) والبقوي (١٦٧/٦).
- (٤) «صحيح». أخرجه البخاري (١١٥/٩).

عتبة بن ربيعة والرئي:

فصل: وذكر قول عتبة: إن كان هذا رئيًا تراه. ولغة بني تميم: رئي بكسر الراء، وكذلك يقولون في كل فعيل عين الفعل منه همزة، أو غيرها من حروف الخلق، يكسرون أوله، مثل: رحيم وشهيد والرئي: فعيل بمعنى مفعول، ولا يكون إلا من الجن، ولا يكون فعيل بمعنى مفعول في غير الجن. إلا أن يؤثر فيه الفعل نحو: جريح وقتيل وذبيح وطحين، ولا يقال من الشكر: شكير، ولا ذكرته فهو ذكير، ولا فيمن لطم: لطم إلا أن تغير منه اللطمة، كما قالوا: لطم الشيطان. قال ابن الزبير حين قُتل عمرو بن سعيد الأشدق [بن العاص]: ألا إن أبا ذئبان قتل لطم الشيطان: ﴿كذلك نُؤلي بعض الظالمين بغضا بما كانوا يكسبون﴾ [الأنعام: ٢٩]. وقالوا من الحمد: حميد، ذهبوا به مذهب كريم، وكذلك قالوا في الجن: رئي، وإن كانت الرؤيا لا تؤثر في المرئي؛ لأنهم ذهبوا به مذهب قرين ونجي.

إسلام حمزة رضي الله عنه^(١)

قال ابن إسحاق: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ أَسْلَمَ، كَانَ وَاعِيَةً: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ مَرَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ الصُّفَا فَأَذَاهُ وَشْتَمَهُ، وَنَالَ مِنْهُ بَعْضَ مَا يَكْرَهُ مِنَ الْغَيْبِ لَدِينِهِ، وَالتَّضْعِيفِ لِأَمْرِهِ، فَلَمْ يَكْلُمْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -، وَمَوْلَاةٌ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ كَعْبٍ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمٍ بِنِ مُرَّةٍ فِي مَسْكَنٍ لَهَا تَسْمَعُ ذَلِكَ، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ، فَعَمِدَ إِلَى نَادٍ مِنْ قُرَيْشٍ عِنْدَ الْكَعْبَةِ، فَجَلَسَ مَعَهُمْ، فَلَمْ يَلْبِثْ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ أَقْبَلَ مُتَوَشِّحًا قَوْسَهُ، رَاجِعًا مِنْ قَنْصٍ لَهُ، وَكَانَ صَاحِبَ قَنْصٍ يَزِمِيهِ، وَيُخْرِجُ لَهُ، وَكَانَ إِذَا رَجَعَ مِنْ قَنْصِهِ لَمْ يَصِلْ إِلَى أَهْلِهِ، حَتَّى يَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ، وَكَانَ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَمْرَ عَلَى نَادٍ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا وَقَفَ، وَسَلَّمْ، وَتَحَدَّثَ مَعَهُمْ، وَكَانَ أَعَزَّ فَتًى فِي قُرَيْشٍ، وَأَشَدَّ شَكِيمَةً، فَلَمَّا مَرَّ بِالمَوْلَاةِ، وَقَدْ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَيْتِهِ قَالَتْ لَهُ: يَا أَبَا عُمَارَةَ، لَوْ رَأَيْتَ مَا لَقِيَ ابْنُ أَخِيكَ مُحَمَّدٌ أَنْفًا مِنْ أَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ: وَجَدَهُ هَاهُنَا جَالِسًا، فَأَذَاهُ وَسَبَّهُ وَبَلَّغَ مِنْهُ مَا يَكْرَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ، وَلَمْ يَكْلُمْهُ مُحَمَّدٌ ﷺ.

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى، ولم يقف على

إسلام حمزة

فصل: وذكر إسلام حمزة، وأمه: هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة، وأهيب: عم أمية بنت وهب تزوجها عبد المطلب، وتزوج ابنه عبد الله أمية في ساعة واحدة، فولدت هالة لعبد المطلب حمزة. وولدت أمية لعبد الله رسول الله ﷺ - ثم أرضعتها ثويبة كما تقدم، وزاد غير ابن إسحاق في إسلام حمزة أنه قال: لما احتملني الغضب، وقلت: أنا على

(١) انظر الكامل (٦٠١/١) والمتنظم لابن الجوزي (٣٨٤/٢) والطبري في تاريخه (٥٤٩/١).

أحد، مُعِدًّا لأبي جهل إذا لَقِيَهُ أن يُوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا في القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه، رفع القوس، فضربه بها، فشجّه شَجَّةً مُنْكَرَةً، ثم قال: أَتَشْتَمُهُ، فأنا على دينه أقول ما يقول؟! فَرَدُّ ذلك عليّ إن استطعت. فقامت رجال من بني مخزوم إلى حَمْزَةَ، لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دَعُوا أبا عُمَارَةَ، فإنني والله قد سَبَبْتُ ابن أخيه سَبًّا قَبِيحًا، وَتَمَّ حَمْزَةُ رضي الله عنه على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قومه. فلما أسلم حَمْزَةُ عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عَزَّ وَاُمْتَنَعَ، وأن حَمْزَةَ سَيَمْنَعُهُ، فكَفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

عتبة بن ربيعة يذهب إلى الرسول (ﷺ) (١):

قال ابن إسحاق: وَحَدَّثَنِي يَزِيدُ بن زِيَادٍ، عن مُحَمَّدِ بن كَعْبِ القُرْظِيِّ، قال: حَدَّثْتُ أَنَّ عُتْبَةَ بن ربيعة - وَكَانَ سَيِّدًا - قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ وَرَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمَهُ،

قوله، أَدْرَكَنِي النَّدَمُ عَلَى فِرَاقِ دِينِ آبَائِي وَقَوْمِي، وَبِتَّ مِنَ الشُّكِّ فِي أَمْرِ عَظِيمٍ لَا أَكْتَحِلُ بِنُومٍ، ثُمَّ أَتَيْتُ الْكَعْبَةَ، وَتَضَرَّعْتُ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ أَنْ يَشْرَحَ صَدْرِي لِلْحَقِّ، وَيُذْهِبَ عَنِّي الرَّيْبَ فَمَا اسْتَمْتَمْتُ دَعَائِي حَتَّى زَاخَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَامْتَلَأَ قَلْبِي يَقِينًا - أَوْ كَمَا قَالَ - فَغَدَوْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِي، فَدَعَا لِي بِأَنْ يُثَبِّتَنِي اللَّهُ، وَقَالَ حَمْزَةُ بن عَبْدِ الْمَطْلُبِ حِينَ أَسْلَمَ:

حَمِدْتُ اللَّهَ حِينَ هَدَى قُرْوَادِي	إِلَى الْإِسْلَامِ وَالِدِينَ الْخَنِيفِ
الِدِينَ جَاءَ مِنْ رَبِّ عَزِيزِ	خَبِيرٍ بِالْعِبَادِ بِهِمْ لَطِيفِ
إِذَا تُلِيَتْ رَسَائِلُهُ عَلَيْنَا	تَحَدَّرَ دَمْعُ ذِي اللَّبِّ الْخَصِيفِ
رَسَائِلُ جَاءَ أَحْمَدُ مِنْ هَدَاهَا	بِآيَاتٍ مُبَيَّنَّةٍ الْخُرُوفِ
وَأَحْمَدُ مُضْطَفَّى فِينَا مَطَاعُ	فَلَا تَغْشَوْهُ بِالْقَوْلِ الْعَنِيفِ
فَلَا وَاللَّهِ تُسَلِّمُهُ لِقَوْمِ	وَلَمَّا نَقَضَ فِيهِمُ بِالسَّيْفِ
وَنَتْرَكَ مِنْهُمْ قَتْلَى بِقَاعِ	عَلَيْهَا الطَّيْرُ كَالْوَرْدِ الْعَكُوفِ
وَقَدْ خُبِّرْتَ مَا صَنَعْتَ ثَقِيفِ	بِهِ، فَجَزَى الْقَبَائِلَ مِنْ ثَقِيفِ
إِنَّهُ النَّاسَ شَرَّ جَزَاءِ قَوْمِ	وَلَا أَسْقَاهُمْ صَوْبَ الْخَرِيفِ

(١) بالمطبوع «ص» وقد تقدم الكلام عليه غير مرة.

وأغرض عليه أموراً لعله يقبل بغضها، فنعطيه أيها شاء، وكيف عثا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله - ﷺ - يزيدون ويكثرُونَ؛ فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قُم إليه، فكلّمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله - ﷺ - فقال: يا بن أخي، إنك ممّا حيث قد علمت من السّطة في العشيرة، والمكان في النّسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال له رسول الله - ﷺ -: «قل يا أبا الوليد، أسمع»، قال: يا بن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً^(١) تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تُبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه، أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله - ﷺ - يستمع منه، قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاسمع مني»، قال: أفعل، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمْ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ١ - ٥]. ثم مضى رسول الله - ﷺ - فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله - ﷺ - إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فانت وذاك».

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة. يا معشر قريش! أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل، وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تُصِبه العرب فقد كَفَيْتُمُوهُ بغيركم، وإن يَظْهَرْ على العرب، فملكه مَلِكُكُمْ، وعزّه عزُّكُمْ، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

(١) أي من الجن.

بين النبي (ﷺ) وبين قريش

قال ابن إسحاق: ثم إن الإسلام جعل يَفْشُو بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء، وقُريش تخس من قَدَرَت على حَبْسِه، وتَفْتَن مَنْ استطاعت فِتْنَتَه من المسلمين، ثم إن أشراف قُريش من كل قَبيلة - كما حَدَّثني بعض أهل العلم عن سَعِيد بن جبير، وعن عِكْرِمَة مولى ابن عَبَّاس، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال:

اجتمع عُثْبَة بن ربيعة، وشَيْبَة بن ربيعة، وأبو سُفْيَان بن حَزْب، والنُّضْر بن الحارث، أخو بني عبد الدَّار، وأبو الْبَخْرِي بن هشام، والأسود بن الْمُطَلِّب بن أسد، وزَمْعَة بن الأسود، والوليد بن الْمُغِيرَة، وأبو جهل بن هشام - لعنه الله - وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونُبَيْهة ومُنْبَه ابنا الْحَجَّاج السَّهْمِيَّان، وأمّية بن خلف، أو مَنْ اجتمع منهم. قال: اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظَهَر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تُعْذِرُوا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك، فأتهم، فجاءهم رسول الله - ﷺ - سريعاً، وهو يظن أن قد بَدَأ لهم فيما كلّمهم فيه بَدَاء، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم، ويعزّ عليه عَثَّتْهم، حتى جلس إليهم، فقالوا له يا محمد، إنّا قد بعثنا إليك؛ لنكلّمك، وإنّا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعِبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفّهت الأحلام، وفَرّقت الجماعة، فما بقي أمرٌ قَبِيحٌ إلا قد جِئْتَه فيما بيننا وبينك - أو كما قالوا له - فإن كنت إنما جِئْتَ بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشَّرَفَ فينا، فنحن نُسَوِّدك علينا، وإن كنت تريد به مُلْكاً مَلَكْنَاك علينا، وإن كان هذا الذي يَأْتِيكَ رِئْياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمّون التابع من الجَنِّ رِئْياً - فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا في طَلَبِ الطَّبِّ لك حتى نُبْرِثَكَ منه، أو نُعْذِرَ فِيك، فقال لهم رسولُ الله - ﷺ -: «ما بي ما تقولون، ما جِئْتُ بما جِئْتُمْ به أَطْلُبُ أموالكم، ولا الشَّرَفَ فيكم، ولا المُلْكَ عليكم. ولكنّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً،

طلب الآيات

فصل: وذكر ما سأله قومه من الآيات وإزالة الجبال عنهم، وإنزال الملائكة عليه،

(١) بالمطبوع: «ص». تقدم الكلام عليه مرازا. واكتفى هنا بما تقدم من تعليق، وما يأتي بعد فهو كما سبق.

وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»، أو كما قال - ﷺ - قالوا: يا محمد، فإن كنت غيرَ قابلٍ منّا شيئًا مما عَرَضناه عليك، فإنك قد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أضيّقُ بلدًا، ولا أقلّ ماءً، ولا أشدّ عيشًا منّا، فسَلْ لنا ربّك الذي بعثك بما بعثك به، فليُسيّرَ لنا هذه الجبالَ التي قد ضيّقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من ماضى من آبائنا، وليكن فيمن يُبعث لنا منهم: قُصَيّ بن كلاب، فإن كان شيخٌ صدق، فنسألهم عمّا تقول: أحقُّ هو أم باطل، فإن صدّقوك، وصنعت ما سألناك، صدّقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولاً - كما تقول - فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: «ما بهذا بُعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أُرسلت به إليكم، فإن تقبلوه، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبِرْ لأمر الله تعالى، حتى يحكم الله بيني وبينكم»، قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا، فخذ لنفسك، سَلْ ربّك أن يبعث معك مَلَكًا يصدّقك بما تقول، ويراجعنا عنك وسلّه، فليجعل لك جناتًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضّة يُعْطيك بها عمّا نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما تقوم، وتلتمس المعاش كما تلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربّك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا

وغير ذلك، جهلاً منهم بحكمة الله تعالى في امتحانه الخلق، وتعبّدهم بتصديق الرسل، وأن يكون إيمانهم عن نظر وفكر في الأدلة، فيقع الثواب على حسب ذلك، ولو كشف الغطاء، وحصل لهم العلم الضروري، بطلت الحكمة التي من أجلها يكون الثواب والعقاب، إذ لا يُؤجَر الإنسان على ما ليس من كسبه، كما لا يؤجر على ما خلق فيه من لون وشعر ونحو ذلك، وإنما أعطاهم من الدليل ما يقتضي النظر فيه العلم الكسبي، وذلك لا يحصل إلا بفعل من أفعال القلب، وهو النظر في الدليل، وفي وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول، وإلا فقد كان قادرًا سبحانه أن يأمرهم بكلام يسمعون، ويغنيهم عن إرسال الرسل إليهم، ولكنه سبحانه قسم الأمر بين الدارين، فجعل الأمر يُعَلَّم في الدنيا بنظرٍ واستدلال وتفكّر واعتبار؛ لأنها دار تعبّد واختبار، وجعل الأمر يُعَلَّم في الآخرة بمعاينة واضطرار، لا يُستحقّ به ثواب ولا جزاء، وإنما يكون الجزاء فيها على ما سبق في الدار الأولى، حكمة دبرها، وقضية أحكمها، وقد قال الله تعالى: ﴿وما منعنا أن نُرسل بالآيات إلا أن كَذَّبَ بها الأولون﴾ [الإسراء: ٥٩]. يريد - فيما قال أهل التأويل - إن التكذيب بالآيات نحو ما سأله من إزالة الجبال عنهم وإنزال الملائكة يوجب في حكم الله، ألا

بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربّه هذا، وما بُعِثت إليكم بهذا، ولكنّ الله بعثني بشيرًا ونذيرًا - أو كما قال -: «فإن تقبلوا ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبِرْ لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم»، قالوا: فأسقط السماء علينا كِسْفًا كما زعمت أن ربّك لو شاء فعل، فإنّا لا نؤمن لك إلا أن تفعل، قال: فقال رسولُ الله - ﷺ -: «ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل»، قالوا: يا محمد، أمّا عَلم ربّك أنّا سنجلس معك، ونسألك عمّا سألتك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدّم إليك فيُعلمك ما تُراجعنا به، ويخبرك ما هو صانعٌ في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به! إنه قد بلغنا أنك إنما تعلمك هذا رجلٌ باليمامة يقال له: الرَّحْمَنُ، وإنّا والله لا نؤمن بالرَّحْمَنِ أبدًا، فقد أغدّنا إليك يا محمد، وإنّا والله لا نتركك وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله وبالملائكة قبيلاً.

فلما قالوا ذلك لرسول الله - ﷺ -، قام عنهم، وقام معه عبدُ الله بن أبي أميّة بن

يُلبّث الكافرين بها، وأن يعاجلهم بالنقمة، كما فعل بقوم صالح وبآل فرعون، فلو أعطيت قريش ما سألوهم من الآيات، وجاءهم بما اقترحوا ثم كذبوا لم يَلْبَثُوا، ولكن الله أكرم محمدًا في الأمة التي أرسله إليهم؛ إذ قد سبق في علمه أن يكذب به مَنْ يكذب، ويصدق به مَنْ يصدق، وابتعته رحمة للعالمين برّ وفاجر، أما البرّ فرحمته إياهم في الدنيا والآخرة، وأما الفاجر، فإنهم آمنوا من الخسف والغرق وإرسال حاصب عليهم من السماء. كذلك قال بعض أهل التفسير في قوله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] مع أنهم لم يسألوا ما سألوهم من الآيات إلا تَعَثُّوا واستهزاء، لا على جهة الاسترشاد، ودفع الشك، فقد كانوا رأوا من دلائل النبوة ما فيه شفاء لمن أنصف، قال الله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٥١] الآية، وفي هذا المعنى قيل:

لو لم تكن فيه آيات مبيّنة كانت بداهته تُشبيك بالخبر

وقد ذكر ابن إسحق في غير هذه الرواية أنهم سألوهم أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، فهِمَّ رسولُ الله - ﷺ - أن يدعو الله لهم، فنزل جبريل، فقال لهم: ما شئتم إن شئتم فعلت ما سألتهم، ثم لا تُلبّثكم إن كذبتم بعد معاينة الآية، فقالوا: لا حاجة لنا بها^(١).

عبد الله بن أبي أمية:

فصل: وذكر قول عبد الله بن أبي أمية له، واسم أبي أمية: حُذَيْفَةُ: والله لا أؤمن بك

(١) أخرجه أحمد (٣/٣١٦) بنحوه.

المُغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم - وهو ابن عمته فهو لعاتكة بنت عبد المطلب - فقال له: يا محمد، عَرَضَ عليك قومك ما عَرَضُوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا، ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم، ومنزلتك من الله، فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب، فلم تفعل - أو كما قال له - فوالله لا أومن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سُلَّمًا، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وأئيم الله أن لو فعلت ذلك ما ظننتُ أنني أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله - ﷺ - وانصرف رسول الله - ﷺ - إلى أهله حزينًا أسفًا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دَعَوْه، ولَمَّا رأى من مُباعدتهم إياه.

فلما قام عنهم رسول الله - ﷺ - قال أبو جهل: يا معشر قريش، إن محمدًا قد أبى إلا ما تَرَوْنَ من عَيْب ديننا، وشتم آبائنا، وتُسْفِيه أعلامنا، وشتم آلِهتنا، وإنني أعاهد الله لأجلَسَنَّ له غداً بحَجَرٍ ما أطيع حَمْلَه - أو كما قال - فإذا سجد في صلاته، فَضَخْتُ به رأسه، فأسلموني عند ذلك، أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف، ما بَدَأ لهم، قالوا: والله لا نُسلمك لشيء أبدًا، فافض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله - ﷺ - ينتظره، وغدا رسول الله - ﷺ - كما كان يغدو، وكان رسول الله - ﷺ - بمكة وقبلته إلى الشام، فكان إذا صَلَّى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين

حتى تتخذ سُلَّمًا إلى آخر الكلام، وقد أسلم عبد الله بن أبي أمية قبل فتح مكة، وسيأتي ذكر إسلامه.

هم أبي جهل بإلقاء الحجر:

وذكر خبر أبي جهل، وما هم به من إلقاء الحجر على رسول الله - ﷺ - وهو ساجد، وقد رواه التَّسَوِّيُّ بإسناد إلى أبي هُرَيْرَةَ قال: قال أبو جهل، وذكر الحديث إلى قوله: فنكص أبو جهل على عَقْبَيْهِ، فقالوا: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لَخُنْدَقًا من نار، وهولاً وأجِنَّحةً، فقال رسول الله - ﷺ -: «لو دنا لاختطفته الملائكة عُضْوًا عُضْوًا»، وخَرَّجَه أيضًا مسلم^(١)

(١) «صحيح». أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٣٨) والبيهقي في الدلائل (١٨٩/٢٤) والطبري في تفسيره (٦٥/٣٠).

الشام. فقام رسول الله - ﷺ - يُصَلِّي وقد عَدَّتْ قُرَيْشٌ، فجلسوا في أُنْدَيْتِهِمْ يَنْتَظِرُونَ ما أبو جهل فاعل. فلما سَجَدَ رسولُ الله - ﷺ - احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رَجَعَ منهزماً. مُتَنَقِّعاً لَوْنُهُ مَرُوعِبًا. قد يَسْتِ يداه على حَجَرِهِ. حتى قَذَفَ الحَجَرَ من يده. وقامت إليه رجال قُرَيْشٍ. فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمتُ إليه لأفعلَ به ما قلتُ لكم البارحة، فلما دنوتُ منه عَرَضَ لي دونه فَخَلَ من الإبل، لا والله ما رأيتُ مثلَ هامتيه، ولا مثلَ قَصْرته، ولا أنيابه لَفْخَلٍ قَطُّ. فَهَمَّ بي أن يأكلني.

قال ابن إسحاق: فذكر لي أن رسول الله - ﷺ - قال: «ذلك جبريلُ عليه السلام، لو دنا لأخذه».

فلما قال لهم ذلك أبو جهل. قام النضرُ بن الحارث بن كَلْدَةَ بن عَلَقْمَةَ بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصَيٍّ.

قال ابن هشام: ويقال النضرُ بنُ الحارث بن علقمة بن كلدَةَ بن عبد مناف.

قال ابن إسحاق: فقال: يا معشر قريش. إنه والله قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتُم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلامًا حَدَثًا، أَرْضَاكُمْ فيكم. وأصدقكم حديثًا. وأعظمكم أمانة. حتى إذا رأيتم في صُدْغِيهِ الشَّيْبَ، وجاءكم بما جاءكم به. قلتُم: ساحرٌ، لا والله ما هو بساحر. لقد رأينا السحرة ونَفَثَهُمْ وَعَقْدَهُمْ، وقلتم: كاهن. لا والله ما هو بكاهن؛

وذكر النَّسَوِيُّ أيضًا بإسناده إلى ابن عباس أن أبا جهل قال له: ألم أُنْهَكَ؟ فوالله ما بمكة نادٍ أعزَّ من نَادِيٍّ، فأنزل الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا﴾ إلى قوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَّةَ﴾ [العلق: ١٧ - ١٨].

تفسير أرايت:

قال محمد بن يزيد: في الكلام حذف، تقديره: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾، أَمْصِيبٌ هو أو مُخْطِئٌ؟ وكذلك في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ [العلق: ١١] كأنه قال: أليس مَنْ ينهَاهُ بضالٌّ؟ وقوله: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥] أي لَنَأْخُذَنَّ بِهَا إِلَى النَّارِ، وقيل معنى السَّفْعُ هُلْنًا: إِذْلَالُهُ وَقَهْرُهُ، والنادي والتَّدْيُّ والمُتَنَدِّي بمعنى واحد، وهو: مجلسُ القوم الذين يَتَنَادَوْنَ إليه، وقال أهل التفسير فيه أقوالاً متقاربة، قال بعضهم: فَلْيَدْعُ حَيَّه، وقال بعضهم: عَشِيرَتَه، وقال بعضهم: مجلسه، وفي أرايت معنى: أَخْبِرْنِي، ولذلك قال سيبويه: لم يجز إلغاؤها، كما تُلغى: علمتُ إذا قلتُ: علمتُ أَرَيْدُ عندك أم عَمَرُو، ولا يجوز هذا في: أرايت، ولا بُدَّ من التَّضْبِ إذا قلتُ: أرايت زَيْدًا، أَبُو مَنْ هو؟ قال سيبويه: لأن دخولَ معنى أَخْبِرْنِي فيها لا يجعلها بمنزلة: أَخْبِرْنِي في جميع أحوالها، قال

قد رأينا الكهنة، وتخالجهم وسَمِعْنَا سَجْعَهُمْ، وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر؛ قد رأينا الشعَرَ، وسَمِعْنَا أصْنَافَهُ كُلَّهَا: هَزَجَهُ وَرَجَزَهُ، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنونَ، فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمرٌ عظيم.

وكان النَّضْرُ بن الحارث من شياطين قُريش، وممن كان يؤذي رسول الله - ﷺ - وينصب له العداوة، وكان قد قَدِمَ الحِيرةَ، وتعلَّم بها أحاديثَ ملوك الفرس، وأحاديث رُسُتَم وإِسْفندياذ، فكان إذا جلس رسولُ الله - ﷺ - مجلساً فذكر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم من نقمة الله، خَلَفَه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قُريش، أحسنُ حديثاً منه، فهَلُمَّ إِلَيَّ، فأنا أحدثكم أحسنَ من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورُسَتم وإِسْفندياذ. ثم يقول: بماذا محمدٌ أحسنُ حديثاً مني؟

قال ابن هشام: وهو الذي قال فيما بلغني: سأُنزل مثلَ ما أنزل الله.

قال ابن إسحاق: وكان ابن عَبَّاس رضي الله عنهما يقول - فيما بلغني: نزل فيه

المؤلف: وظاهر القرآن يقضي بخلاف ما قال سيبويه إلا بعد البيان، وذلك أنها في القرآن مُلغاة؛ لأن الاستفهام هو مطلوبها، وعليه وقعت في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَظَلْمْ﴾ [العلق: ١٣]. فقوله: أَلَمْ يعلم: استفهام، وعليه وقعت: أَرَأَيْتَ، وكذلك: أَرَأَيْتُمْ، وَأَرَأَيْتُكُمْ في الأنعام، فإن الاستفهام واقع بعدها نحو: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧]. وهذا هو الذي منع سيبويه في: أَرَأَيْتَ وَأَرَأَيْتُكَ أَبُو مَنْ أَنْتَ؟ وأما البيان فالذي قاله سيبويه صحيح، ولكن إذا وُلِيَ الاستفهام: أَرَأَيْتَ، ولم يكن لها مَفْعُولٌ سوى الجملة، وأما في هذه المواضع التي في التنزيل، فليست الجملة المستفهم عنها هي مَفْعُول: أَرَأَيْتَ، إنما مَفْعُولُهَا محذوفٌ يدلُّ عليه الشرط، ولا بد من الشرط بعدها في هذه الصور؛ لأن المعنى: أَرَأَيْتُمْ صَنِيعَكُمْ إِنْ كَانَ كَذَا، وكذا، كما يقول القائل: أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتَ العدو أَتَقَاتَلَهُ أَمْ لَا؟ تقدير الكلام: أَرَأَيْتَ رَأَيْكَ أَوْ صَنِيعَكَ إِنْ لَقِيتَ العدو فحرف الشرط، وهو: إِنْ، دالٌّ على ذلك المحذوف، ومُرْتَبِطُ بِهِ، والجملة المستفهم عنها كلامٌ مُسْتَأْنَفٌ منقطع، إلا أن فيه زيادةً بيانٍ لما يستفهم عنه، ولو زال الشرط، وولَّيها الاستفهام لَقُبِحَ كما قال سيبويه، ويحسنُ في: علمت، وهل علمت وهل رأيت، وإنما قُبِحَ مع أَرَأَيْتَ خاصة، وهي التي دخلها معنى: أخبرني فتدبره.

الأساطير وشيء عن الفرس:

فصل: وذكر حديث النَّضْر بن الحارث، وما نزل فيه من قول الله تعالى: ﴿قَالُوا

ثمان آيات من القرآن: قول الله عز وجل: ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥] وكل ما ذكر فيه من الأساطير من القرآن.

فلما قال لهم ذلك النضر بن الحارث بعثوه، وبعثوا معه عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ إِلَى أَحْبَارِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، وَقَالُوا لَهُمَا: سَلَاهُمَ عَنْ مُحَمَّدٍ، وَصِفَا لَهُمْ صِفَتَهُ، وَأَخْبِرَاهُم بِقَوْلِهِ، فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ، وَعِنْدَهُمْ عِلْمٌ لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ، فَخَرَجَا حَتَّى قَدِمَا الْمَدِينَةَ، فَسَأَلَا أَحْبَارَ يَهُودٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَوَصَفَا لَهُمْ أَمْرَهُ. وَأَخْبِرَاهُم بِبَعْضِ قَوْلِهِ. وَقَالَا لَهُمَ: إِنَّكُمْ أَهْلُ التَّوْرَةِ. وَقَدْ جِئْنَاكُمْ لَتُخْبِرُونَا عَنْ صَاحِبِنَا هَذَا. فَقَالَتْ لَهُمَا أَحْبَارُ يَهُودٍ: سَلُوهُ عَنْ ثَلَاثِ تَأْمُرِكُمْ بِهِنَ. فَإِنْ أَخْبَرَكُم بِهِنَ، فَهُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ. وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالرَّجُلُ مُتَقَوْلٌ. فَرَوَا فِيهِ رَأْيَكُمْ. سَلُوهُ عَنْ فِتْنَةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ واحد الأساطير: أَسْطُورَةٌ كَأُخْدُوثة وأحاديث، وهو ما سَطَّرَهُ الْأَوَّلُونَ، وَقِيلَ: أَسَاطِيرُ: جَمْعُ أَسْطَارٍ، وَأَسْطَارٌ جَمْعُ: سَطَرٍ بَفَتْحِ الطَّاءِ، وَأَمَّا سَطَرٌ بِسُكُونِ الطَّاءِ، فَجَمْعُهُ: أَسْطُرٌ، وَجَمْعُ الْجَمْعِ: أَسَاطِيرُ بِغَيْرِ يَاءٍ، وَذَكَرَ أَنَّ النَّضَرَ بْنَ الْحَارِثِ كَانَ يُحَدِّثُ قَرِيبًا بِأَحَادِيثِ رُسْتَمَ وَإِسْفَنْدِيَاذَ، وَمَا تَعَلَّمَ فِي بِلَادِ الْفَرَسِ مِنْ أَخْبَارِهِمْ، وَذَكَرَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ، وَقَدْ قِيلَ فِيهِ نَزَلَتْ: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وَأَمَّا أَحَادِيثُ رَسْتَمَ، فَفِي تَارِيخِ الطَّبْرِيِّ^(١) أَنَّ رُسْتَمَ بْنَ رِيسَانَ كَانَ يُحَارِبُ كِيَّيَسْتَأَسِبَ بْنَ كِيَّ لِهَرَأَسَبَ، بَعْدَمَا قَتَلَ أَبَاهُ لَطْرَأَسَبَ ابْنَ كِيَّ أَجْو. وَكِيَّ فِي أَوَائِلِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ عِبَارَةٌ عَنِ الْبُهَاءِ، وَيُقَالُ: عِبَارَةٌ عَنْ إِدْرَاكِ الثَّأْرِ، وَيُقَالُ لَهُؤُلَاءِ الْمُلُوكُ: الْكِنِيَّةُ مِنْ أَجْلِ هَذَا، وَكَانَ رُسْتَمُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: رُسْتَمُ سَيِّدُ بَنِي رِيسَانَ مِنْ مُلُوكِ التُّرْكِ، وَكَانَ كِيَّ يَسْتَأَسِبُ قَدْ غَضِبَ عَلَى ابْنِهِ، فَسَجَنَهُ حَسَدًا لَهُ عَلَى مَا ظَهَرَ مِنْ وَقَائِعِهِ فِي التُّرْكِ، حَتَّى صَارَ الذِّكْرُ لَهُ، فَعِنْدَهَا ظَهَرَتِ التُّرْكُ عَلَى بِلَادِ فَارَسَ، وَسَبَّوْا بَنَتَيْنِ: لِيَسْتَأَسِبَ، اسْمُ إِحْدَاهُمَا: خَمَانَةٌ، أَوْ نَحْوُ هَذَا، فَلَمَّا رَأَى يَسْتَأَسِبُ الْأَيِّدِينَ لَهُ بِقِتَالِهِمْ أَطْلَقَ ابْنَهُ مِنَ السَّجَنِ، وَهُوَ إِسْفَنْدِيَاذُ، وَرَضِيَ عَنْهُ وَوَلَّاهُ أَمْرَ الْجِيُوشِ، فَنَهَدَ إِلَى رَسْتَمَ، وَكَانَتْ بَيْنَهُمَا مَلَا حِمٌّ يَطُولُ ذِكْرَهَا، لَكِنَّهُ قَتَلَ رَسْتَمَ، وَاسْتَبَاحَ عَسَاكِرَهُ، وَدَوَّخَ فِي بِلَادِ التُّرْكِ، وَاسْتَخْرَجَ أَخِيَّتَهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، ثُمَّ مَاتَ إِسْفَنْدِيَاذُ قَبْلَ أَبِيهِ، وَكَانَ مُلْكُ أَبِيهِ نَحْوًا مِنْ مِائَةِ عَامٍ، ثُمَّ عَهْدَ إِلَى بَهْمَنْ بْنِ إِسْفَنْدِيَاذَ، فَوَلَّاهُ الْأَمْرَ بَعْدَ مَوْتِهِ وَبَهْمَنْ بَلَّغَتْهُمْ: الْحَسَنُ النَّيَّةَ، وَدَامَ مُلْكُهُ نَيْفًا عَلَى مِائَةِ عَامٍ، وَكَانَ لَهُ ابْنَانِ: سَاسَانُ وَدَارَا، وَقَدْ أَمْلَيْنَا فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ طَرَفًا مِنْ حَدِيثِ سَاسَانَ وَبَنِيهِ، وَهُمْ السَّاسَانِيَّةُ الَّذِينَ قَامَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامُ، وَرُسْتَمُ آخِرُ مَذْكُورٍ أَيْضًا قَبْلَ هَذَا

(١) الطبري في تاريخه (١/٢٩٧/٢٩٨/٢٩٩/٣٢٩).

الأول ما كان أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طَواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نَبُوءُهُ، وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبي. وإن لم يفعل، فهو رجلٌ متقوّل. فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي حتى قدما مكة على قريش. فقالوا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفضل ما بينكم وبين محمد. قد أخبرنا أخبارُ يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل. فَرَوَا فيه رأيكم.

فجاؤوا رسول الله - ﷺ - فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عَجَبٌ، وعن رجل كان طَوافًا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟ فقال لهم رسول الله - ﷺ -: «أخبركم بما سألتكم عنه غداً»، ولم يستثن، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله - ﷺ - فيما يذكرون - خمسَ عشرةَ ليلة لا يُحدث الله إليه في ذلك وخياً، ولا يأتيه جبريل، حتى أزعج أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة ليلة. قد أصبحنا منها لا نخبرنا بشيء ممّا سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله - ﷺ - مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلّم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حُزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطَواف، والروح.

في أحاديث كي قباد، وكان قبل عهد سليمان، ثم كان رستم وزيراً بعد كي قباد لابنه كي قاووس، وكانت الجن قد سُخِّرَت له. يقال إن سليمان أمرهم بذلك، فبلغ ملكه من العجائب ما لا يكاد أن يصدق ذو العقول لخروجها عن المعتاد لكن محمد بن جرير الطبري ذكر منها أخباراً عجيبه^(١).

وذكر أنه همّ بما همّ به نمرود من الصعود إلى السماء، فطرحته الريح، وضغضعت أركانه، وهدمت بنيانه، ثم تاب إليه بعض جنوده، فصار كسائر الملوك يغلب تارة، ويُغلب بخلاف ما كان قبل ذلك، وسار بجنوده إلى اليمن فنَهَد إليه عمرو ذو الأذعار، فهزمه عمرو، وأخذَه أسيراً، وحبسه في مخبئ حتى جاء رُستم، وكان صاحب أمره، فاستنقذه من عمرو، إمّا بطُوع، وإمّا بإكراه، وردّه إلى بلاد فارس. ولابنه شاوخش مع قراسيات ملك الترك خبر عجيب، وكان رستم هو القيم على شاوخش والكافل له في

(١) انظر التخريج السابق. وفيه بعض الاختلاف عما هنا. وفي تسخير سليمان الجن لرستم - نظر ومقال.

قال ابن إسحق: فذكر لي أن رسول الله - ﷺ - قال لجبريل حين جاءه: لقد احتبست عني يا جبريل حتى شئت ظناً، فقال له جبريل: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]. فافتتح السورة - تبارك وتعالى - بحمده وذكر نبوة رسوله، لما أنكروه عليه من ذلك، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١ - ٢٦] يعني: محمداً ﷺ، إنك رسول مني: أي تحقيق لما سأله عنه من نبوتك. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيَمًا﴾: أي معتدلاً، لا اختلاف فيه. ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ﴾: أي عاجل عقوبته في الدنيا، وعذاباً آليماً في الآخرة من عند ربك الذي بعثك رسولاً. ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَبَدًا﴾: أي دار الخلد لا يموتون فيها الذين صدقوك بما جئت به مما كذبتك به غيرهم، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال. ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ يعني: قريشاً في قولهم: إنا نعبد الملائكة، وهي بنات الله. ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ الذين أعظموا فراقهم وغيب دينهم. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: لقولهم: إن الملائكة بنات الله. ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾: أي لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجو منهم، أي: لا نفعل.

قال ابن هشام: باخع نفسك، أي: مهلك نفسك، فيما حدثني أبو عبيدة قال ذو الرمة:

أَلَا أَيُّهَا الْبَاخِعُ الْوَجْدُ نَفْسَهُ لَشَيْءٍ نَحْتَهُ عَنْ يَدَيْهِ الْمَقَادِرُ

صغره، وكان آخر أمر شاوخش بعد عجائب أن قتله قراسيات، وقام ابنه كي خسرو يطلب بثاره، فدارت بينه وبين الترك وقائع لم يسمع بمثلها، وكان الظفر له، فلما ظفروا رأى أمله في أعدائه ما ملأ عينه قرّة، وقلبه سروراً زهد في الدنيا، وأراد السباحة في الأرض، فتتأت به أبناء فارس، وحذرته من شتات الشمل بعده، وشماتة العدو، فاستخلف عليهم: كي لهراسب، بن كي اجو، بن كي كينة، بن كي قاووس المتقدم ذكره، ولا أدري: هل رستم الذي قتله إسفندياز هو رستم صاحب كي قاووس، أم غيره، والظاهر أنه ليس به، لأن مدة ما بين كي قاووس وكي يستاسب بعيدة جداً، وأحسبه كما قدّمنا أنه كان من الترك، وهذا كله كان في مدة الكينية، وعند اشتغالهم بقتال الترك استعملوا بُخْتَ نَصَرَ البابلي على العراق، فكان من أموره مع بني إسرائيل وإخثانه فيهم، وهدمه لبيت المقدس وإحراقه للتوراة وقلته لأولاد الأنبياء، واسترقاقه لنساء

وجمعه: باخعون وَبَخَعَة. وهذا البيت في قصيدة له. وتقول العرب: قد بَخَعْتُ له نُضْحِي ونَفْسِي، أي جَهَذْتُ له. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

قال ابن إسحاق: أي: أتيتهم أتبع لأمرِي، واعمل بطاعتي. ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾: أي الأرض، وإنَّ ما عليها لفانٍ وزائل، وإن المرجع إليَّ، فأجزِي كُلًّا بعمله، فلا تَأْسَ، ولا يَخْزَنك ما تسمع وترى فيها.

قال ابن هشام: الصعيد: الأرض، وجمعه: صُعد. قال ذو الرُّمَّة يصف ظبيًا صغيرًا:

كَأَنَّهُ بِالضُّحَى تَزْمِي الصَّعِيدَ بِهِ دَبَابَةٌ فِي عِظَامِ الرَّأْسِ خُرْطُومٌ

وهذا البيت في قصيدة له. والصعيد أيضًا: الطريق. وقد جاء في الحديث: «إياكم والقعود على الصُّعَدَات» يريد الطرق. والجُرز: الأرض التي لا تُنبِت شيئًا، وجموعها: أَجْرَاز. ويقال: سَنَة جُرْز، وسنون أَجْرَاز، وهي التي لا يكون فيها مطر، وتكون فيها جُدُوبَة وَيُبْس وشَدَّة. قال ذو الرُّمَّة يصف إبلاً:

طَوَى النَّخْزُ وَالْأَجْرَازُ مَا فِي بَطُونِهَا فَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضَّلُوعُ الْجَرَّاشُعُ

وهذا البيت في قصيدة له.

ملوكهم ولذرائعهم مع عيشه في بلاد العرب حين جاس خلال ديارهم، ما هو مشهور في كتب التفاسير، ومعلوم عند أصحاب التواريخ.

فهذه جملة مختصرة تشرح لك ما وقع في كتاب ابن إسحاق من ذكر رستم وإسفندياذ، وكانت الكينية قبل مدة عيسى ابن مريم، أولهم في عهد أفرِيدُون قبل موسى عليه السلام بمئتين من السنين، وآخرهم في مدة الإسكندر بن قليس والإسكندر هو الذي سلب ملكهم، وقتل دارا بن دارا، وهو آخرهم، ثم كانت الأشغانية مع ملوك الطوائف أربعمئة وثمانين عامًا، وقيل: أقل من ذلك في قول الطبري، وقول المسعودي: خمسمئة وعشر سنين في خلال أمرهم بُعِثَ عيسى ابن مريم، ثم كانت الساسانية نحوًا من ثلاثين ملكًا حتى قام الإسلام، ففُضَّ خَدَمَتُهُمْ. وَخَصَّدَ شوكتهم، وهدم هياكلهم، وأطفأ نيرانهم التي كانوا يعبدون، وذلك كله في خلافة عمر.

حول سورة الكهف

قال ابن إسحاق: ثم استقبل قصة الخبر فيما سألوه عنه من شأن الفتيّة، فقال: ﴿أم

عن سورتي الكهف والفرقان - سبب نزول الكهف

فصل: وذكر ابن إسحاق إرسال قُرَيْشِ النضر بن الحارث وعُقْبَةَ بن أبي مُعَيْطٍ إلى يهود، وما رجعا به من عندهم من الفصل بينهم وبين النبي ﷺ، فسألوه عن الأمور الثلاثة التي قالت اليهود: إن أخبركم بها فهو نبي وإلا فهو مُتَقَوِّل، فقال لهم: سأخبركم غداً، ولم يقل: إن شاء الله، فأبطأ عنه الوحي في قول ابن إسحاق خمسة عشر يوماً، وفي سَيْرِ التَّيْمِي وموسى بن عُقْبَةَ أن الوحي إنما أبطأ عنه ثلاثة أيام، ثم جاء جبريل بسورة الكهف.

لَمْ يَقْدَمْ الْحَمْدُ عَلَى الْكِتَابِ^(١) !:

وذكر افتتاحَ الرَّبِّ سبحانه بحمد نفسه، وذكر نبوة نبيه حمده لنفسه تعالى خبراً باطنه الأمرُ والتعليمُ لعبده كيف يحمده، إذ لولا ذلك لاقتضت الحال الوقوف عن تسميته، والعبارات من جلاله، لقصور كلِّ عبارة عما هنالك من الجلال، وأوصاف الكمال، ولما كان الحمد واجباً على العبد قُدِّم في هذه الآية ليقترن في اللفظ بالحمد الذي هو واجب عليه، وليس تشعّر العبد وجوب الحمد عليه، وفي سورة الفرقان قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ وبدأ بذكر الفرقان الذي هو الكتاب المبارك. قال الله سبحانه: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ فلما افتتح السورة بتبارك الذي، بدأ بذكر الفرقان، وهو الكتاب المبارك، ثم قال: على عبده، فانظر إلى تقديم ذكر عبده على الكتاب، وتقديم ذكر الكتاب عليه في سورة الفرقان، وما في ذلك من تشاكل اللفظ والتثام الكلام نرى الإعجازَ ظاهراً، والحكمة باهرة، والبرهان واضحاً، وأنشد لذي الرُّمَّةِ.

(١) وقيل في تفسير فاتحة الكتاب: أن التسبيح مقدّم على التحميد، وأن الرجل بعد الصلاة يستحب الله ثلاثة وثلاثون ويحمد الله ثلاثة وثلاثون... فكيف بدأ القرآن كله بالحمد ولم يبدأ بالتسبيح؟ قالوا: إن الحمد يتضمن في طياته التسبيح، إذا التسبيح من: سبح، أي بعد، فالتسبيح هو المبادأة بين الله وبين كل نقص وعيب، ولما كان ذلك كذلك فهو مستحق للحمد إذ هو المنزه عن النقص والعيوب، وقالوا: إن أول كلمة قالها آدم حين نفخت فيه الروح. قال: الحمد لله، فكانت هذه أول كلمة يقولها أبو البشر آدم عليه السلام، وآخر كلمة يقولها المؤمنون يوم القيامة ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾. «وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين» فكان أول كلمة قيلت هي: الحمد لله، وآخر ما يقال: الحمد لله، فلا حرم أن يكون أول الكلام المنزّل على آخر الرسل: الحمد لله. والحمد لله رب العالمين. وانظر للمحقق «اللباب في تفسير فاتحة الكتاب».

حَسِبْتُ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا: أي قد كان من آياتي فيما وضعت على العباد من حُجَجِي ما هو أعجب من ذلك.

قال ابن هشام: والرقيم: الكتاب الذي رُقِم فيه بخبرهم، وجمعه: رُقْم. قال العجاج:

وَمُسْتَقَرُّ الْمُضْحَفِ الْمُرْقَمِ

وهذا البيت في أرجوزة له.

شرح شواهد شعرية:

كانه بالضحى ترمي الصعيد به دَبَابَةٌ في عظام الرأس خُرْطُومُ
يصف ولدَ الظبية: وَالْخُرْطُومُ: من أسماء الخمر، أي: كأنه من نشاطه دَبَبَتِ الخمرُ في رأسه. وأنشد له أيضًا:

طوى التَّخْرُ والأَجْرَا. البيت. والتَّخْرُ: التَّخْسُ، والتَّحَارُ: داء يأخذ الإبلَ والنحيزة: الْغَرِيزَةُ، والنحيزة: نسيجة كالحزام: والضلوعُ الْجَرَّاشِعُ. هو جمع جُرْشُع. قال صاحب العين. الْجُرْشُعُ: العظيم الصدر، فمعناه إِذَا في البيت على هذا: الضلوعُ من الهزال قد تَنَاثَتْ، وبرزت كالصدر البارز.

الرقيم وأهل الكهف:

فصل: وذكر الرَّقِيمَ وفيه سوى ما قاله أقوال. رُوِيَ عن أنس أنه قال: الرقيم: الكلب، وعن كعب أنه قال: هو اسم القرية التي خرجوا منها، وقيل: هو اسم الوادي وقيل: هو صخرة، ويقال: لوح كتب فيه أسماءهم وديتهم وقصتهم، وقال ابن عباس: كل القرآن أعلم إلا الرقيم والغسلين وحنانًا والأوَّاه^(١)، وقد ذكرت أسماءهم على الاختلاف في بعض ألفاظها وهي: مليخا، كسليما، مرطوش بن أنس، أريطانس، أيونس، شاطيطوش^(٢). وقيل في اسم مدينتهم: أفوس، واختلف في بقائهم إلى الآن، فَرُوِيَ عن ابن عباس أنه أنكر أن يكون بقي شيء منهم، بل صاروا ترابًا قبل مبعث النبي ﷺ، وقال بعض أصحاب الأخبار غير هذا، وأن الأرض لم تأكلهم، ولم تغيرهم، وأنهم على مَقَرَّةٍ من الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، فالله أعلم. رُوِيَ

(١) فيه نظر.

(٢) معرفة أسمائهم «علم لا ينفع وجهل لا يضر». وإن كان في معرف أسمائهم خير لعرفهم الله تعالى في كتابه أو على لسان رسول الله ﷺ. فلا حاجة بنا إلى البحث عن أسمائهم وطولهم وغير هذا.

قال ابن إسحاق: ثم قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرْبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْجِزْيَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾. ثم قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾: أي بصدق الخبر عنهم. ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾: أي لم يُشركوا بي كما أشركتم بي ما ليس لكم به علم.

قال ابن هشام: والشطط: الغلو ومجاوزة الحق. قال أعشى بني قيس بن ثعلبة:

لا يَنْتَهَوْنَ، ولا يَنْتَهَى ذَوِي شَطَط كالطُّغْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَيْتُ وَالْقُتْلُ
وهذا البيت في قصيدة له.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾.

قال ابن إسحاق: أي بحجة بالغة.

أنهم سيحجرون البيت إذا نزل عيسى ابن مريم. ألفيت هذا الخبر في كتاب البدء لابن أبي خنيفة^(١).

إعراب أحصى:

وذكر قول الله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْجِزْيَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢] قد أُملينا في إعراب هذه الآية نحوًا من كراسة، وذكرنا ما وهم فيه الزُّجاجُ من إعرابها؛ حيث جعل أحصى اسمًا في موضع رفع على خبر المبتدأ، وأمدًا: تمييز وهذا لا يصح؛ لأن التمييز هو الناعل في المعنى، فإذا قلت: أيهم أعلم أبا، فالأب هو العالم، وكذلك إذا قلت: أيهم أفقر عبداً، فالعبد هو الفارء، فيلزم على قوله إذا أن يكون الأمد فاعلاً بالإحصاء، وهذا محال، بل هو مفعول، وأحصى: فعل ماضٍ، وهو الناصب له، وذكرنا في ذلك الإملاء أن أيهم، قد يعوز فيه النصب بما قبله إذا جعلته خبراً، وذلك على شروط بيتها هنالك لمن أراد الوقوف على حقيقتها، أي: ومواضعها، وكشفنا أسرارها.

عن الضرب وتزاور الشمس وفائدة القصة:

وقوله سبحانه: ﴿فَضَرْبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ أي: أُنْمِئْنَاهُمْ، وإنما قيل في النائم: ضُرب على

(١) ترى كم يكون عمرهم آنذاك؟! وكيف يبقى هؤلاء أحياء إلى زمن ليس عليه السلام، أي إلى قيام الساعة وقد مات سيد ولد آدم - محمد ﷺ!!!.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَإِذْ اغْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُغْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِزْقًا وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾.

أذنه؛ لأن النائم ينتبه من جهة السَّمْع، والضرب هنا مُستعار من ضربت القُفْلَ على الباب، وذكر قوله تعالى: ﴿تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ الآية. وقيل في تَقْرِضُهُمْ: تحاذيهم، وقيل: تتجاوزهم شيئًا فشيئًا من القَرْضِ، وهو القطع، أي: تقطع ما هنالك من الأرض، وهذا كله شرح اللفظ، وأما فائدة المعنى، فإنه بيّن أنهم في مَقْنُونَةٍ من الأرض، لا تدخل عليهم الشمس، فتحرقهم، وتبلي ثيابهم، ويقلبون ذات اليمين وذات الشمال. لئلا تأكلهم الأرض، والفائدة العظمى في هذه الصفة بيان كيفية حالهم في الكهف، وحال كلبهم، وأين هو من الكهف، وأنه بالوَصِيد منه، وأن باب الكهف إلى جهة الشمال للحكمة التي تقدمت، وأن هذا البيان لا يكاد يعرفه مَنْ رَأَاهُمْ، فإن المَطْلَع عليهم يُملأ منهم رُعبًا، فلا يمكنه تأمل هذه الدقائق من أحوالهم، والنبي عليه السلام لم يَرَهُمْ قط، ولا سمع بهم، ولا قرأ كتابًا فيه صفتهم؛ لأنه أُمِّيٌّ في أمة أُمِّيَّة، وقد جاءكم ببيان لا يأتي به مَنْ وصل إليهم حتى إن كلبهم قد ذكر، وذكر موضعه وبسطه ذراعيه بالوَصِيد، وهم في الفجوة، وفي هذا كله برهانٌ عظيم على نبوته، ودليل واضح على صدقه، وأنه غير مُتَقَوِّلٍ، كما زعموا، فقف بقلبك على مضمون هذه الأوصاف، والمراد بها تُغَصِّمُ إن شاء الله مما وقعت فيه المُلْجِدَةُ من الاستخفاف بهذه الآية من كتاب الله، وقولهم: أي فائدة في أن تكون الشمس تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ، وهكذا هو كل بيت يكون في مَقْنُونَةٍ، أي: بابه لجهة الشمال، فنبه أهل المعاني على الفائدة الأولى المُنبِئَة عن لطف الله بهم، حيث جعلهم في مَقْنُونَةٍ تزاور عنهم الشمس فلا تؤذيهم^(١)، فقال: لِمَنْ اقتصر من أهل التأويل على هذا: فما في ذكر الكلب وبسط ذراعيه من الفائدة، وما فيه من معنى اللطف بهم؟ فالجواب: ما قدّمناه من أن الله سبحانه لم يترك من بيان حالهم شيئًا، حتى ذكر حال كلبهم مع أن تأملهم متعذر على مَنْ أطلع عليهم من أجل الرعب، فكيف مَنْ لم يَرَهُمْ، ولا سمع بهم، لولا الوحي الذي جاءه من الله سبحانه بالبيان الواضح الشافي، والبرهان الكافي، والرعب الذي كان يلحق المَطْلَع عليهم، قيل: كان مما طالت شعورهم وأظفارهم^(٢). ومن الآيات في هذه القصة قوله سبحانه: ﴿فِي فَجْوَةٍ

(١) وقيل: حتى لا تتغير أجسامهم وملابسهم فيصيبها العفن.

(٢) لو صَحَّ هذا وغيره من الكلام الذي طفحت به بعض كتب التفسير من وصف شكلهم وحياتهم ما تعجبوا عند استيقاظهم من نومهم إذا شاهد بعضهم بعضًا وقد تغير حاله، بل بقي شكلهم وسمتهم =

قال ابن هشام: تزاور: تميل، وهو من الزَّور: وقال امرؤ القيس بن حُجر:
 وإنِّي رَعِيمٌ إن رجعتُ مُملَكًا بسِيرٍ ترى منه الفُرانيقُ أزورا
 وهذا البيت في قصيدة له. وقال أبو الزحف الكلبي يصف بلداً:
 جَابُ المُنْدَى عن هوانا أزورُ يُنْضِي المَطَايا خِمْسُهُ العَشَنَزُرُ
 وهذان البيتان في أرجوزة له. و﴿تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ﴾: تجاوزهم وتركهم عن
 شمالها. قل ذو الرمة:

إلى ظُعْنٍ يَقْرِضُنْ أَفْوَازَ مُشْرِفٍ شِمَالاً وعن إيمانهم الفوارسُ
 وهذا البيت في قصيدة له. والفجوة: السَّعة، وجمعها: الفِجاء قال الشاعر:
 أَلْبَسَتْ قَوْمَكَ مَخْرَآةً وَمَنْقَصَةً حتى أبيحوا، وَخَلَّوْا فجوة الدارِ
 ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي في الحجة على مَنْ عَرَفَ ذلك من أمورهم من أهل
 الكتاب، وَمَنْ أَمَرَ هؤلاء بمسألتك عنهم في صِدْقِ نَبِيِّكَ بِتَحْقِيقِ الخبر عنهم. ﴿مَنْ يَهْدِ
 اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا وَتَحْسِبُهُمْ أَنْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ
 ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾.

قال ابن هشام: الوصيد: الباب. قال العنسي، واسمه: عُبَيْدُ بْنُ وَهَبٍ:
 بَارِضٍ فَلَاةٍ لَا يُسَدُّ وَصِيدُهَا عَلِيٍّ، وَمَعْرُوفِي بِهَا غَيْرُ مُنْكَرٍ

منه ﴿أي: في فضاء، ومع أنهم في فضاء منه، فلا تصيبهم الشمس. قال ابن سلام: فهذه
 آية. قال: وكانوا يَقْلُبُونَ في السنة مرتين^(١)، ومن فوائد الآية: أنه أخرج الكلب عن
 التقلب، فنال: باسط ذراعيه، ومع أنه كان لا يُقَلَّبُ لم تأكله الأرض؛ لأن التقلب كان من
 فعل الملائكة بهم، والملائكة أولياء المؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والكلب خارج
 من هذه الآية. ألا تراه كيف قال: بالوصيد، أي: بفناء الغار لا داخلًا معهم؛ لأن الملائكة
 لا تدخل بيئًا فيه كلب^(٢) فهذه فوائد جملة قد اشتمل عليها هذا الكلام. قال ابن سلام: وإنما
 كانوا يَقْلُبُونَ في الرقدة الأولى قبل أن يبعثوا.

= كما هر كحال مَنْ لبث في نومه يوم أو بعض يوم.

(١) لا دليل صحيح على هذا.

(٢) انظر البخاري (٢١٦/٧) ومسلم في اللباس (٨٥) والنسائي (٢١٣/٨) وأبو داود (٤١٥٥) بتحقيقي.
 والترمذي (٢٨٠٥) وأحمد (٣٠/٤) وابن ماجه (٣٦٥٠) والطبراني (٣٤٤/٨).

وهذا البيت في أبيات له. والوصيد أيضًا: الفناء، وجمعه: وصائد، ووُصِد، ووُضدان، وأُصِد، وأُضدان.

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾... إلى قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ أهل السلطان والملك منهم: ﴿لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا سَيَقُولُونَ﴾ يعني: أحبار يهود الذين أمروهم بالمسألة عنهم: ﴿ثَلَاثَةَ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةَ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾: أي لا علم لهم ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةَ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾: أي لا

المتنازعون في أمرهم:

فصل: وذكر قول الله سبحانه: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١] وقال: يعني أصحاب السلطان، فاستدل بعض أهل العلم على أنهم كانوا مسلمين بقوله: لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا^(١). وذكر الطبري أن أهل تلك المدينة تنازعوا قبل مبعثهم في الأجساد والأرواح. كيف تكون إعادتها يوم القيامة فقال قوم: تُعاد الأجساد كما كانت بأرواحها، كما يقوله أهل الإسلام، وخالفهم آخرون، وقالوا: تُبْعَث الأرواح دون الأجساد، كما يقوله النصاري، وشرَّي بينهم الشرُّ، واشتد الخلاف، واشتد على ملكهم ما نزل بقومه من ذلك، فلبس المُسُوح، وافترش الرماد، وأقبل على البكاء والتضرع إلى الله أن يُريه الفضل فيما اختلفوا فيه، فأحيا الله أصحاب الكهف عند ذلك، فكان من حديثهم ما عُرف وشهر، فقال الملك لقومه: هذه آية أظهرها الله لكم لتتفقوا، وتعلموا أن الله عز وجل كما أحيا هؤلاء، وأعاد أرواحهم إلى أجسادهم، فكذاك يُعيد الخلق يوم القيامة كما بدأهم، فرجع الكل إلى ما قاله الملك، وعلموا أنه الحق.

عن واو الثمانية^(٢):

فصل: وذكر قول الله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةَ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قد أفردنا للكلام على هذه الواو التي يسميها بعض الناس: واو الثمانية بابًا طويلًا، والذي يليق بهذا الموضع أن تعلم: أن هذه الواو تدل على تصديق القائلين لأنها عاطفة على كلام مُضْمَر، تقديره: نعم،

(١) استدل بعضهم بهذه الآية على جواز اتخاذ المساجد على القبور، وقد ورد أربعة عشر حديثًا صحيحًا في النهي عن الصلاة في المساجد المُقَامَة على القبور، وانظر الأمر باستفاضة الرد على هذه الشبهة وغيرها في كتاب فضيلة الشيخ العلامة ناصر الدين الألباني - حفظه الله ونفع به - أمين. فانظره لزامًا.

(٢) أي التي تأتي بعد سبعة أشياء، ثم تذكر قبل الثامن، كما في الآية. وكما جاء في سورة التوبة (١١٢) والتحريم (٥) وانظر بدائع الفوائد للعلامة القيم ابن القيم (١٧٤/٢) (٥٢/٣).

تكابرهم. ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فإنهم لا علم لهم بهم. ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِسَيِّئِ إِنْجِي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْخُلْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾: أي ولا تقولن لشيء سألوكم عنه كما قلت في هذا: إني مخبركم غدا.

وثامنهم كليهم، وذلك أن قائلًا لو قال: إن زيدًا شاعرٌ، فقلت له: وفقهه، كنت قد صدقته، كأنك قلت: نعم هو كذلك، وفقهه أيضًا، وفي الحديث: سئل رسول الله ﷺ: أيتوضأ بما أفضلت الخمر، فقال: «وبما أفضلت السباع». يريد: نعم، وبما أفضلت السباع. خرجه الدارقطني^(١). وفي التنزيل: ﴿وَأَزْرُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ١٢٦] هو من هذا الباب. فكذا ما أخبره عنهم من قولهم: ﴿ويقولون سبعة﴾، فقال سبحانه: ﴿وثامنهم كليهم﴾ وليس كذلك: سادسهم كليهم، ورابعهم كليهم؛ لأنه في موضع النعت لما قبله، فهو داخل تحت قوله سبحانه: ﴿رَجَمًا بِالْغَيْبِ﴾ ولم يقل ذلك في آخر القصة.

آية الاستثناء:

فصل: وذكر قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِسَيِّئِ﴾ وفسره، فقال: أي استثنى شيئة الله. الشَّيْئَةُ: مصدر شاء يشاء، كما أن الخِيفَةَ مصدر خاف يخاف، ولكن هذا التفسير، وإن كان صحيح المعنى، فلفظ الآية مُشْكِلٌ جِدًّا؛ لأن قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِسَيِّئِ﴾ إني فاعل ذلك غداً [الكهف: ٢٢٣] نهى عن أن يقول هذا الكلام، ولم ينهه عن أن يصله بإلا أن يشاء الله، فيكون العبد المنهي عن هذا القول منهياً أيضاً عن أن يصله بقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. هذا مُحَالٌ: فقوله إِذَا: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء من الله، راجعٌ إلى أول الكلام، وهذا أيضاً إذا تأملته تَقَضُّ لِعَزِيْمَةِ النِّهْيِ، وإبطالاً لِحُكْمِهِ، فإن السيد إذا قال لعبده: لا تقم إلا أن يشاء الله أن تقوم، فقد حلَّ عقدة النهي؛ لأن مشيئة الله للفاعل لا تُعْلَمُ إلا بالفعل، فللعبد إذا أن يقوم، ويقول: قد شاء الله أن تقوم، فلا يكون للنهي معنى على هذا، فإذا لم يكن ردَّ حرف الاستثناء إلى النهي، ولا هو من الكلام الذي نهى العبد عنه، فقد تبين إشكاله، والجواب: أن في الكلام حذفًا وإضمارًا تقديره: ولا تقولن: إني فاعل ذلك غداً إلا ذاكراً إلا أن يشاء الله، أو ناطقاً بأن يشاء الله، ومعناه: إلا ذاكراً شيئة الله، كما قال ابن إسحاق؛ لأن الشَّيْئَةَ مصدر، وأن مع الفعل، في تأويل المصدر، وإعراب ذلك المصدر مفعول بالقول المضمر، والعرب تحذف القول، وتكتفي بالمقول ففي التنزيل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦] أي: يقال لهم: أكفرتم، فحذف القول، وبقي الكلام المقول، وكذلك

(١) «ضعيف الإسناد». أخرجه الدارقطني (٦٢/١) بتحقيقي. وفيه إبراهيم بن أبي حبيبة: ضعيف.

وَاسْتَشْنِ مَشِيئَةَ اللَّهِ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ، وَقُلْ: عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لْخَيْرِ مِمَّا سَأَلْتُمُونِي عَنْهُ رَشَدًا، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَنَا صَانِعٌ فِي ذَلِكَ. ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾: أَي سَيَقُولُونَ ذَلِكَ. ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

قوله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٤] أَي يَقُولُونَ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، وَهُوَ كَثِيرٌ، وَكَذَلِكَ إِذَا قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ هِيَ مِنْ كَلَامِ النَّاهِي لَهُ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ أَضْمَرَ الْقَوْلَ، وَهُوَ الذِّكْرُ الَّذِي قَدَمْنَاهُ، وَبَقِيَ الْمَقُولُ، وَهُوَ: أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، وَهَذَا الْقَدْرُ يَكْفِي فِي هَذَا الْمَقَامِ، وَإِنْ كَانَ فِي الْآيَةِ مِنَ الْبَسْطِ وَالتَّفْطِيشِ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا.

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ:

فصل: وقد فسر قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ فقال: معناه أَي: سَيَقُولُونَ ذَلِكَ، وَهُوَ أَحَدُ التَّأْوِيلَاتِ فِيهَا. وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ قَرَأَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ: وَقَالُوا: لَبِثُوا، بِزِيَادَةِ قَالُوا. ثُمَّ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: قُلْ: رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا، وَهُوَ وَهْمٌ مِنَ الْمُؤَلِّفِ أَوْ غَيْرِهِ، وَإِنَّمَا التَّلَاوَةُ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ مِقْدَارِ لُبْثِهِمْ، وَلَكِنْ لَمَّا عَلِمَ اسْتِعْبَادَ قَرِيشَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ لِهَذَا الْمِقْدَارِ، وَعُلِمَ أَنَّ فِيهِ تَنَازُعًا بَيْنَ النَّاسِ، فَمِنْ ثَمَّ قَالَ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ثَلَاثُمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أَي: إِنَّهَا ثَلَاثُمِائَةٌ بِحَسَابِ الْعَجَمِ، وَإِنْ حَسِبْتَ الْأَهْلَةَ، فَقَدْ زَادَ الْعِدَدُ تِسْعًا، لِأَنَّ ثَلَاثُمِائَةَ سَنَةٍ بِحَسَابِ الشَّمْسِ تَزِيدُ تِسْعَ سِنِينَ بِحَسَابِ الْقَمَرِ^(١) فَإِنْ قِيلَ: فَكَيْفَ قَالَ ثَلَاثُمِائَةَ سِنِينَ، وَلَمْ يَقُلْ: سَنَةً، وَهُوَ قِيَاسُ الْعِدَدِ فِي الْعَرَبِيَّةِ، لِأَنَّ الْمِائَةَ تَضَافُ إِلَى لَفْظِ الْوَاحِدِ، فَالْجَوَابُ أَنَّ سِنِينَ فِي الْآيَةِ بَدَلَ مَا قَبْلَهُ، لَيْسَ عَلَى حَذِّ الْإِضَافَةِ وَلَا التَّمْيِيزِ، وَلِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ عُذِلَ بِاللَّفْظِ عَنِ الْإِضَافَةِ إِلَى الْبَدَلِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ قَالَ: ثَلَاثُمِائَةَ سَنَةٍ، لَكَانَ الْكَلَامُ كَأَنَّهُ جَوَابٌ لَطَائِفَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ فِيهِمْ طَائِفَتَانِ: طَائِفَةٌ عَرَفُوا طُولَ لُبْثِهِمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا كَمِيَّةَ السِّنِينَ، فَعَرَفَهُمْ أَنَّهَا ثَلَاثُمِائَةٌ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يَعْرِفُوا طُولَ لُبْثِهِمْ، وَلَا شَيْئًا مِنْ خَبَرِهِمْ، فَلَمَّا قَالَ: ثَلَاثُمِائَةَ مَعْرِفًا لِلأَوَّلِينَ بِالْكَمِيَّةِ الَّتِي شَكُّوا فِيهَا، مَبِينًا لِلآخَرِينَ أَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثُمِائَةَ سَنُونَ، وَلَيْسَتْ أَيَّامًا وَلَا شَهْرًا، فَانْتَضَمَ الْبَيَانُ لِلطَّائِفَتَيْنِ مِنْ ذِكْرِ الْعِدَدِ، وَجَمْعِ الْمَعْدُودِ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ بَدَلٌ؛ إِذِ الْبَدَلُ يَرَادُ بِهِ: تَبْيِينُ مَا قَبْلَهُ: أَلَا تَرَى أَنَّ الْيَهُودَ قَدْ كَانُوا عَرَفُوا أَنَّ لِأَصْحَابِ الْكَهْفِ نَبَأً عَجَبِيًّا، وَلَمْ يَكُنِ الْعَجَبُ إِلَّا مِنْ طُولِ لُبْثِهِمْ غَيْرِ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّهَا ثَلَاثُمِائَةُ أَوْ أَقَلُّ، فَأَخْبَرَ أَنَّ تِلْكَ السِّنِينَ ثَلَاثُمِائَةٌ، ثُمَّ لَوْ وَقَفَ الْكَلَامُ هَهُنَا لَقَالَتِ الْعَرَبُ، وَمَنْ لَمْ يَسْمَعْ بِخَبَرِهِمْ: مَا هَذِهِ الثَّلَاثُمِائَةُ؟ فَقَالَ كَالْمَبِينِ لَهُمْ: سِنِينَ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ هَذَا التَّفْسِيرِ عَنْ الضَّحَّاكِ، ذَكَرَهُ النَّحَّاسُ.

(١) بل تزيد عن هذا كثيرًا.

أُبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا: أي لم يخف عليه شيء مما سألك عنه.

السنة والعام:

فصل: وقال: سنين، ولم يقل أعوامًا، والسنة والعام، وإن اتسعت العرب فيهما، واستعملت كُلُّ واحد منهما مكان الآخر اتساعًا، ولكنَّ بينهما في حكم البلاغة والعلم بتنزيل الكلام فَرْقًا، نَحْذُهُ أَوَّلًا من الاشتقاق، فإن السنة من سَنَا يَسْنُو إذا دار حول البئر، والدابة: هي السَّائِيَّةُ، فكَذَلِكَ السنة دَوْرَةٌ من دورات الشمس، وقد تسمى السنة: دارًا، ففي الخبر: إن بين آدم ونوح ألفَ دارٍ، أي: ألف سنة، هذا أصل الاسم، ومن ثَمَّ قالوا: أكلتهم السَّنَةُ، فَسَمَوْا شِدَّةَ القحط سَنَةً، قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسُّنَيْنِ﴾ [الأعراف: ١٣] ومن ثم قيل: أَسَنَّتِ القومُ إذا أقحطوا، وكان وزنه أَفَعَتُوا، لا أَفَعَلُوا، كذلك قال بعضهم، وجعل سبويه التاء بدلًا من الواو، فهي عنده: أفعلوا، لأن الجُدوبة والخُضْبُ مُعْتَبَرٌ بالشتاء والصيف، وحساب العَجَمِ إنما هو بالسنين الشمسية بها يُؤرَّخون، وأصحاب الكهف من أُمَّةٍ عجمية، والنصارى يعرفون حديثهم، ويؤرَّخون به، فجاء اللفظ في القرآن بذكر السنين الموافقة لحسابهم، وتتم الفائدة بقوله: وازدادوا تسعًا ليوافق حساب العرب، فإن حسابهم بالشهور القمرية كالمحرم وصفر ونحوهما وانظر بعد هذا إلى قوله: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا﴾ [يوسف: ٤٧] الآية، ولم يقل أعوامًا، ففيه شاهد لما تقدم، غير أنه قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ﴾، ولم يقل: سنة عدولاً عن اللفظ المشترك، فإن السنة قد يُعْبَرُ بها عن الشدة والأزمة كما تندم، فلو قال: سنة لذهب الوهم إليها؛ لأن العام أقل أيامًا من السنة، وإنما دلَّت الرؤيا على سَبْعِ سنين شدادٍ، وإذا انقضى العدد، فليس بعد الشدة إلا رخاء، وليس في الرؤيا ما يدل على مدة ذلك الرخاء، ولا يمكن أن يكون أقل من عام، والزيادة على العام مشكوكٌ فيها، لا تقتضيها الرؤيا، فحكم بالأقل، وترك ما يقع فيه الشك من الزيادة على العام، فهاتان فائدتان في اللفظ بالعام في هذا الموطن، وأما قوله: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فإنما ذكر السنين، وهي أطول من الأعوام، لأنه مُخْبِرٌ عن أَكْثِهَالِ الإنسان، وتمام قوته واستوائه، فلفظ السنين أولى بهذا الموطن؛ لأنها أكمل من الأعوام، وفائدة أخرى: أنه خبر عن السنِّ، والسنِّ معتبر بالسنين، لأن أصلَ السنِّ في الحيوان لا يعتبر إلا بالسنة الشمسية، لأن الثَّأَجَ، والحمل يكون بالربيع والصيف، حتى قيل رَبْعِيٌّ لِلْبَكْبِكِ وَصَيْفِيٌّ لِلْمُؤَخَّرِ، قال الراجز^(١):

إِنْ بَسِيَّ صَيْفِيَّةً صَيْفِيُّونَ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رِبْعِيُّونَ

(١) هو: سعد بن مالك بن ضبيعة. وقيل: أكرم بن صيفي.

وقال فيما سألوه عنه من أمر الرجل الطواف: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَاتَّبَعِ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٣] حتى انتهى إلى آخر قصة خبره.

فاستعمله في الآدميين، فلما قيل في الفصيل ونحوه: ابن سنة وابن ستين، قيل ذلك في الآدميين، وإن كان أصله في الماشية لما قدمنا، وأما قوله: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ فلأنه قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِئُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] فالرضاع من الأحكام الشرعية، وقد قصرنا فيها على الحساب بالأهله، وكذلك قوله: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ ولم يقل: سنة؛ لأنه يعني شهر المحرم وربيع إلى آخر العام، ولم يكونوا يحسبون بأيلول ولا بتشرين ولا ببنير، وهي الشهور الشمسية وقوله سبحانه: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ إخباراً منه لمحمد - ﷺ - وأمه وحسابهم بالأعوام والأهله كما وقَّت لهم سبحانه، وقوله سبحانه في قصة نوح: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤٠] قيل: إنما ذكر أولاً السنين؛ لأنه كان في شدائد مدته كلها إلا خمسين عاماً منذ جاءه الفرج، وأتاه الغوث، ويجوز أن يكون الله - سبحانه - علم أن عمره كان ألفاً، إلا أن الخمسين منها، كانت أعواماً، فيكون عمره ألف سنة، تنقص منها ما بين السنين الشمسية والقمرية في الخمسين خاصة؛ لأن خمسين عاماً بحساب الأهله أقل من خمسين سنة شمسية بنحو عام ونصف، فإن كان الله سبحانه قد علم هذا من عمره، فاللفظ موافق لهذا المعنى، وإلا ففي القول الأول مقنع، والله أعلم بما أراد، فتأمل هذا، فإن العلم بتنزيل الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها اللاتقة بها يفتح لك باباً من العلم بإعجاز القرآن، وابن هذا الأصل تعرف المعنى في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعْدُونَ﴾ [الحجر: ٤٧] وأنه كلام ورد في معرض التكثير والتفخيم، لطول ذلك اليوم والسنة أطول من العام، كما تقدم، فلفظها أليق بهذا المقام.

ذكر قصة الرجل الطواف ذي القرنين:

فصل: وذكر قصة الرجل الطواف، والحديث الذي جاء فيه عن رسول الله - ﷺ - أنه كان مَلِكًا مسح الأرض بالأسباب، ولم يشرح معنى الأسباب. ولأهل التفسير فيه أقوال متقاربة، قالوا في قوله تعالى: ﴿وَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤] أي: علماً يتبعه، وفي قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعِ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥] أي: طريقاً موصلة، وقال ابن هشام في غير هذا الكتاب السبب: حبل من نور، كان ملكٌ يمشي به بين يديه،

وكان من خبر ذي القرنين أنه أُوتِيَ ما لم يُؤْتِ أحدٌ غيره فمُذَّتْ له الأسبابُ، حتى انتهى من البلاد إلى مشارق الأرض ومغاربها، لا يَطأُ أرضاً إلا سُلطَ على أهلها، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراء شيء من الخلق.

قال ابن إسحاق: حَدَّثَنِي مَنْ يَسُوقُ الْأَحَادِيثَ عَنِ الْأَعَاجِمِ، فِيمَا تَوَارَثُوا مِنْ عِلْمِهِ: أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ كَانَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، اسْمُهُ: مَرْزُبَانُ بْنُ مَرْذَبَةَ الْيُونَانِي، مِنْ وَلَدِ يُونَانَ بْنِ يَافَثَ، بْنِ نُوحَ.

قال ابن هشام: واسمه: الإسكندر، وهو الذي بنى الإسكندرية، فنسبت إليه.

قال ابن إسحاق: وقد حَدَّثَنِي ثَوْرُ بْنُ يَزِيدَ عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ الْكَلَّاعِيِّ وَكَانَ رَجُلًا قَدْ أَذْرَكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - سُئِلَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ، فَقَالَ: مَلِكٌ مَسَحَ الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِهَا بِالْأَسْبَابِ.

فيتبعه^(١)، وقد قيل في اسم ذلك الملك: زياقيل، وهذا يقرب من قول مَنْ قال: سبباً أي: طريقاً، ويقرب أن يكون تفسيراً لقول النبي ﷺ: «مسح الأرض بالأسباب»، واختلف في تسميته بذِي الْقَرْنَيْنِ، كما اختلف في اسمه، واسم أبيه، فأصح ما جاء في ذلك ما رُوِيَ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ قَالَ: سَأَلَ ابْنَ الْكَوَّاءِ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ ذَا الْقَرْنَيْنِ، أَنْبِيَا كَانَ أَمْ مَلَكًا؟ لَا نَبِيًّا كَانَ، وَلَا مَلَكًا، وَلَكِنْ كَانَ عَبْدًا ضَالِحًا دَعَا قَوْمَهُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، فَضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنَيْ رَأْسِهِ ضَرْبَتَيْنِ، وَفِيكُم مِثْلُهُ. يعني: نفسه، وقيل: كانت له ضفيريّتان من شعر، والعربُ تسمي الخُضْلَةَ من الشعر: قرنًا، وقيل: إنه رأى في المنام رؤيا طويلة أنه أخذ بِقَرْنَيْ الشَّمْسِ، فَكَانَ التَّأْوِيلُ أَنَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ، وَذَكَرَ هَذَا الْخَبْرَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الْفَيْزِيَّ الْعَابِدُ فِي كِتَابِ الْبِسْتَانِ لَهُ، قَالَ: وَبِهَذَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ^(٢)، وَأَمَّا اسْمُهُ، فَقَالَ ابْنُ هِشَامٍ فِي هَذَا الْكِتَابِ: اسْمُهُ مَرْزُبَى بْنُ مَرْذَبَةَ بِذَلِكَ مَفْتُوحَةٌ فِي اسْمِ أَبِيهِ، وَزَايَ فِي اسْمِهِ، وَقِيلَ لِيهِ: هَرْمَسٌ، وَقِيلَ: هَرْدِيسٌ. وَقَالَ ابْنُ هِشَامٍ فِي غَيْرِ هَذَا الْكِتَابِ^(٣) اسْمُهُ الصُّنْبُ بْنُ ذِي مَرَّائِدَ، وَهُوَ أَوَّلُ الثَّبَّابَةِ، وَهُوَ الَّذِي حَكَمَ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي بَثْرِ السَّبْعِ حِينَ حَاكَمَ إِلَيْهِ فِيهَا، وَقِيلَ: إِنَّهُ أَفْرِيدُونُ بْنُ أَثْفِيَانَ الَّذِي قَتَلَ الضَّحَّاكَ^(٤)، وَيُرْوَى فِي

(١) وقيل: منازل الأرض وأعلامها، وقيل العلم. وهو أقرب.

(٢) وقيل لأنه بلغ مطلع الشمس ومغربها، والشمس في شروقها وغروبها إنما تشرق وتغرب بين قرني شيطان كما صحَّ الحديث عن رسول الله ﷺ، وقد نُهيَ المسلم عن الصلاة في هذين الوقتين، فلما بلغ ذو القرنين مطلع الشمس ومغربها سُمِّيَ بذِي الْقَرْنَيْنِ.

(٣) في كتاب «التيجان».

(٤) انظر تاريخ الطبري (١/١٣٠/٢٢٠) ط. دار الكتب العلمية.

وقال خالد: سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقول: يا ذا القرنين، فقال عمر: اللَّهُمَّ غَفِّراً، أما رَضِيتُمْ أن تَسْمُوا بالأنبياء حتى تَسْمَيْتُمْ بالملائكة؟! .

خطبة قيس بن ساعدة التي خطبها بسوق عكاظ، أنه قال فيها: يا معشر إبادا! أين الصعب ذو القرنين، مَلِكُ الْخَافِقِينَ، وأَذَلُّ الثَّقَلِينَ، وَعَمَّرُ الْفِينِ، ثم كان ذلك كلحظة عين، وأنشد ابن هشام للأعشى:

والصعبُ ذو القرنين أَضْبَحَ ثَاوِيًا بِالْحِثْوِ فِي جَدَثِ أَمِيمٍ مُقِيمٍ

وقوله بِالْحِثْوِ يريد: حِثْوُ قُرَاقِرِ الذي مات فيه ذو القرنين بالعراق، وقول ابن هشام في السيرة: إنه من أهل مِصْرَ، وإنه الإسكندر الذي بنى الإسكندرية، فعرفت به: قولٌ بعيد مما تقدم، ويحتمل أن يكون الإسكندر سُمِّيَ ذا القرنين أيضاً تشبيهاً له بالأول، لأنه ملك ما بين المشرق والمغرب فيما ذكروا أيضاً، وأَذَلُّ ملوك فارس، وقتل دارا بن دارا، وأَذَلُّ ملوك الروم وغيرهم، وقال الطبري في الإسكندر: وهو إسكندروس بن قليقوس، ويقال فيه: ابن قليس، وكانت أمه زَنْجِيَّةً، وكانت أُهْدِيَتْ لدارا الأكبر أو سبأها، فوجد منها نَكْهَةً استقلها، فعولجت ببقلة، يقال لها: أندروس، فحملت منه بدارا الأصغر، فلما وضعته رَدَّها، فتزَوَّجها والد الإسكندر، فحملت منه بالإسكندروس، فاسمه عندهم مُشْتَقٌّ من تلك الْبَقْلَةِ التي طَهَّرَتْ أمه بها فيما ذكروا، وذكر عن الزبير: أنه قال: ذو القرنين هو: عبد الله بن الضحاك بن مَعْدُ [وقال ابن حبيب في] الْمُحَبَّرِ في ذكر ملوك الحيرة، قال: الصُّعْبُ بن قرين [بن الهمال]: هو ذُو القرنين، ويحتمل أن يكونوا ملوكاً في أوقاتٍ شَتَّى، يسمى كلُّ واحد منهم: ذا القرنين والله أعلم. والأول كان على عهد إبراهيم عليه السلام، وهو صاحب الْخِضْرُ حين طلب عينَ الْحَيَاةِ^(١) فَوَجَدَهَا الْخِضْرُ، ولم يجدها ذُو القرنين، حالت بينه وبينها الظلمات التي وقع فيها هو وإجناده في خبر طويل مذكور في بعض التفاسير مشهور عند الأخباريين.

حكم التسمي بأسماء النبيين:

وأما قول عمر لرجل سمعه يقول: يا ذا القرنين: لم يكفكم أن تَسْمُوا بالأنبياء حتى تَسْمَيْتُمْ بالملائكة، إن كان عمر قاله بتوقيف من الرسول عليه السلام، فهو مَلِكٌ، لا يقول رسول الله - ﷺ - إلا الحق، وإن كان قاله بتأويل تأوله [فقد] خالفه علي في الخبر المتقدم، والله أعلم أيُّ الْخَبَرَيْنِ أَصَحُّ نقلاً، غير أن الرواية المتقدمة عن علي يَقْوِيهَا ما نقله أهل الأخبار عن ذي القرنين، والله أعلم. وكان من مذهب عُمَرَ رحمه الله كراهية التسمي بأسماء

(١) قصة عثور الخضر على ما يسمى بعين الحياة تحتاج إلى دليل «صحيح» يقويها.

قال ابن إسحاق: والله أعلم أي ذلك كان، أقال ذلك رسول الله - ﷺ -، أم لا؟
فإن كان قاه، فالحق ما قال.

الأنبياء، فقد أنكر على المغيرة تَكْنِيَتَهُ بأبي عيسى، وأنكر على ضَهَبٍ تَكْنِيَتَهُ بأبي يحيى، فأخبر كل واحد منهما أن رسول الله - ﷺ - كَنَاهُ بذلك، فسكت، وكان عمر إنما كره من ذلك الإكثار، وأن يظن أن للمسلمين شَرَفًا في الاسم إذا سُمِّيَ باسم نبي، أو أنه ينفعه ذلك في الآخرة، فكانه استشعر من رعيته هذا الغرض أو نحوه، هو أعلم بما كره من ذلك. وإلا فقد سَمِيَ بمحمد طائفةً من الصحابة منهم: أبو بكر وعليّ وطلحة وأبو حذيفة وأبو جهنم بن حذيفة، و-ناطِبٌ وخطاب ابنا الحارث، كل هؤلاء المحمدين كانوا يُكْتَنُونَ بأبي القاسم إلا محمد بن -خطاب، وسَمِيَ أبو موسى ابنًا له بموسى، فكان يُكْتَنَى به، وأَسِيدُ بن حُضَيْرٍ سَمِيَ ابنه بِيَحْيَى، وعلم به النبي عليه السلام فلم يُنْكِرْ عليه، وكان لطلحة عشرةً من الولد، كُلُّهُمْ يُسَمَّى باسم نبيٍّ، منهم: موسى بن طلحة عيسى، وإسحاق ويعقوب وإبراهيم، ومحمد، وكان للزبير عشرةً، كُلُّهُمْ يسمي باسم شهيد، فقال له طلحة: أنا أَسْمِيَهُم بأسماء الأنبياء، وأنت تسميهم بأسماء الشهداء، فقال له الزبير: فإني أطمع أن يكون بني شهداء، ولا تطمع أنت أن يكون بنوك أنبياء، ذكره ابن أبي حَيْثَمَةَ، وسَمِيَ رسول الله - ﷺ - ابنه إبراهيم، والآثار في هذا المعنى كثيرة، وفي السنن لأبي داود أن رسول الله - ﷺ - قال: سَمُّوا بأسماء الأنبياء^(١)، وهذا محمول على الإباحة، لا على الوجوب، وأما التَّسْمِي بمحمد، ففي مُسْنَد الحارث عن رسول الله - ﷺ - قال: «ما كان له ثلاثة من الولد، ولم يُسَمَّ أحدهم بمحمد، فقد جَهِلَ»^(٢)، وفي الْمُعْطِطِي عن مالك أنه سُئِلَ عَمَّنْ اسْمُهُ محمد، ويكنى أبا القاسم، فلم يَرَّ به بأسًا، فقليل له: أَكْثِيَتْ ابنك أبا القاسم، واسمه محمد؟ فقال: ما كُنِيْتُ بها ولكن أهله يُكْتَنُون بها، ولم أسمع في ذلك نَهْيًا، ولا أرى بذلك بأسًا، وهذا يدل على أن مالكًا لم يبلغه، أو لم يصحَّ عنده حديث النهي عن ذلك، وقد رواه أهل الصحيح - فالله أعلم - ولعله بلغه حديث عائشة أنه عليه السلام - قال: «ما الذي أَحَلَّ اسمي وَحَرَّمَ كُنْيَتِي»^(٣)؟ وهذا هو الناسخ لحديث النهي، والله أعلم، وكان ابن سيرين يكره لكل أحد أن يَتَكْنَى بأبي القاسم، كان اسمه محمدًا، أو لم يكن. وطائفة إنما يكرهونه لَمَنْ اسْمُهُ محمد، وفي الْمُعْطِطِي أيضًا

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥٠) بتحقيقي. والنسائي (٢١٨/٦) وأحمد (٣٤٥/٤) والبيهقي في الأدب (٥٠٥) بتحقيقي - ط. دار الكتب العلمية.

(٢) «ضعيف». يبدو هذا بيانًا لَمَنْ تَذَوَّق حديث رسول الله ﷺ.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٦٨) بتحقيقي. والبيهقي (٣١٠/٩) والطبراني في الصغير (١٤/١) والبيهقي في الأدب (٥١٧) بتحقيقي. وابن عساكر (٢٧٧/١).

أسباب نزول بعض الآيات وعن الروح

وقال تعالى فيما سألوه عنه من أمر الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

أنه سُئِلَ عن التسمية بِمَهْدِي فكرهه، وقال: وما علمه بأنه مَهْدِي، وأباح التسمية بالهادي، وقال: لأن الهادي هو الذي يهدي إلى الطريق، وقد قَدَمْنَا كراهية مالك التسمي بجبريل. وقد ذكر ابن إسحق كراهية عَمَرَ للتسمي بأسماء الملائكة، وكره مالك التسمي بيانين^(١).

الروح والنفس

فصل: وذكر سؤالهم عن الروح، وما أنزل الله فيه من قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية وَرُوِيَ عن ابن إسحق من غير طريق الْبُكَائِي أنه قال في هذا الخبر: فناداهم رسول الله - ﷺ -: «هو جبريل»، وهذه الرواية عن ابن إسحق تدل على خلاف ما روى غيره أن يهود قالت لقريش: اسألوه عن الروح، فإن أخبركم به فليس بنبي، وإن لم يخبركم فهو نبي، وقال ابن إسحق فيما تقدم من الحديث: اسألوه عن الرجل الطَّوَّافِ، وعن الْفَثِيَّةِ، وعن الروح، فإن أخبركم وإلا فالرجل مُتَقَوِّلُ فسوى في الخبر بين الروح وغيره، واختلف أهل التأويل في الروح المسؤول عنه، فقال بعضهم: هو جبريل؛ لأنه الروح الأمين، وروح القدس، وعلى هذا رواية ابن إسحق أن رسول الله - ﷺ - قال لقريش حين سألوه: «هو جبريل»، وقالت طائفة: الروح خُلِقَ من الملائكة على صُورِ بني آدم، وقالت طائفة: الروح خُلِقَ يرون الملائكة، ولا تراهم، فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم، وَرُوِيَ عن علي أنه قال: الرُّوحُ مَلَكٌ له مائة ألف رأس، لكل رأس مائة ألف وجه، في كل وجه مائة ألف فم، في كل فم مائة ألف لسان، يُسَبِّحُ الله بلغات مختلفة^(٢)، وقالت طائفة: الروح الذي سألت عنه يهود هو: روح الإنسان، ثم اختلف أصحاب هذا القول، فمنهم من قال: لم يجبهم رسول الله - ﷺ - عن سؤالهم، لأنهم سألوه تَعَثُّتًا واستهزاءً، فقال الله له: قُل: الروح من

(١) ياسين: ليس اسمًا من أسمائه ﷺ، وكذا طه، إنما حروف مقطعة كبقية الحروف المقطعة التي بدأت بها بعض سور القرآن، وكذا اسم «مصطفى» ليس من أسمائه إنما هو وصف له ﷺ أن «مصطفى» من الخلق بالنبوة والرسالة - صلى الله عليه وآله وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا.

(٢) لا يصح مثل هذا عن علي رضي الله عنه، وهذا يجب هنا التنبيه على مثل هذه الأقوال التي تشبه مثل خير الباب من أن من قال كذا فله مائة ألف كذا لكل كذا مائة ألف كذا، كمن اتوضأ ولم يمسح وضوءه فكل قطرة تسقط منه يخلق الله منها كذا ألف ملك لكل ملك ألف ألف رأس لكل رأس ألف ألف لسان... الخ. فمثل هذا الكلام إن لم يعتضده دليل «صحيح» فارم به.

قال ابن إسحاق: وَحَدَّثَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - الْمَدِينَةَ، نَالَتْ أَحْبَارُ يَهُودٍ: يَا مُحَمَّدُ، أَرَأَيْتَ قَوْلَكَ: ﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

أمر ربي، ولم يأمره أن يُبينه لهم، وقالت طائفة: بل قد أخبرهم الله به، وأجابهم عما سألوا؛ لأنه قال لَنَبِيِّهِ: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وأمرُ الرَّبِّ هو الشرع، والكتابُ الذي جاء به، فَمَنْ دَخَلَ فِي الشَّرْعِ وَتَفَقَّهَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَرَفَ الرُّوحَ، فكأن معنى الكلام: ادخلوا في الدين تعرفوا ما سألتهم، فإنه من أمر ربي، أي: من الأمر الذي جئت به مُبَلِّغًا عن ربي، وذلك أن الروح لا سبيل إلى معرفته من جهة الطبيعة، ولا من جهة الفلسفة، ولا من جهة الرأي والقياس، وإنما يُعرف من جهة الشرع، فإذا نظرت إلى ما في الكتاب والسنة من ذكره نحو قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ [السجدة: ٩] أي من روح الحياة، والحياة من صفات الله سبحانه، والنفخ في الحقيقة مضاف إلى مَلَكٍ ينفخ فيه بأمر رَبِّهِ، وتنظر إلى ما أخبر به الرسول عليه السلام أن الأرواحَ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، وأنها تتعارف^(١) وَتَتَشَامُ فِي الْهَوَاءِ. وأنها تُقَبِّضُ من الأجساد بعد الموت، وأنها تُسأل في القبر، فتفهم السؤال وتسمع وترى، وتُنْعَمُ وَتُعَذَّبُ وَتَلْتَذِ وَتَأَلَمُ، وهذه كلها من صفات الأجسام، فتعرف أنها أجسام بهذه الدلائل، لكنها ليست كالأجساد في كثافتها وثقلها وإظلامها، إذ الأجساد خُلِقَتْ مِنْ مَاءٍ وَطِينٍ وَحَمَلٍ مَسْنُونٍ، فهو أصلها، والأرواحُ خُلِقَتْ مِمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى، وَهُوَ النَفْخُ الْمَتَقَدِّمُ الْمُضَافُ إِلَى الْمَلِكِ. والملائكة خلقت من نور كما جاء في الصحيح^(٢)، وإن كان قد أضاف النفخ إلى نفسه، فكذلك أضاف قَبْضَ الأرواح إلى نفسه فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] وأضاف ذلك إلى الملك أيضًا فقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] والفعل مضاف إلى الملك مجازًا، وإلى الرب حقيقة، فهو أيضًا جِسْمٌ، ولكنه من جنس الريح، ولذلك سُمِّيَ رُوحًا من لفظ الريح، ونفخُ الملك في معنى الريح غير أنه ضَمَّ أوله؛ لأنه نُورَانِي، والريح هواء متحرك، وإذا كان الشرع قد عرَّفنا من معاني الروح وصفاته بهذا القدر، فقد عُرِفَ من جهة أمره كما قال سبحانه: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وقوله: من أمر رَبِّي أيضًا، ولم يقل من أمر الله، ولا من أمر رَبِّكُمْ يدل على خصوص، وعلى ما قَدَّمناه من أنه لا يعلمه إلا من أخذ معناه من قول الله سبحانه، وقول رسوله بعد الإيمان بالله ورسوله واليقين الصادق والفقہ في الدين، فإن كان لم يخبر اليهود حين سألوه عنه، فقد أجالهم على موضع العلم به.

(١) انظر البخاري (١٦٢/٤) ومسلم في البر والصلة (١٥٩/١٦٠) وأبو داود (٤٨٣٤) بتحقيقي. وغيرهم.

(٢) انظر صحيح مسلم في الزهد (٦٠) وأحمد (١٥٣/٦) والبيهقي في الصفات (٣٨٦/٣٤٣) بتحقيقي.

إِنَّا نريد، أم قومك؟ قال: «كَلَّا»، قالوا: فَإِنَّكَ تَتَلَوُ فِيهَا جَاءَكَ: ﴿أَنَا قَدْ أُوتِينَا التَّوْرَةَ فِيهَا بَيَانُ كُلِّ شَيْءٍ﴾. فقال رسول الله - ﷺ -: «إِنَّهَا فِي عِلْمِ اللَّهِ قَلِيلٌ،

الفرق بين الروح والنفس:

فصل: ومما يتصل بمعنى الروح وحقيقته أن تعرف: هل هي النفس أو غيرها، وقد كثرت في ذلك الأقوال، واضطربت المذاهب، فتعلق قومٌ بظواهر من الأحاديث لا توجب القطع، لأنها نقل آحاد^(١)، وأيضاً فإن ألفاظها محتملة للتأويل، ومجازات العرف واتساعاتها في الكلام كثيرة، فمما تعلقوا به في أن الروح هي النفس قول بلال: «أَخَذَ بِنَفْسِي الَّذِي أَخَذَ بِنَفْسِكَ»^(٢) مع قول النبي عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ قَبِضُ أَرْوَاحِنَا»، وقوله - عز وجل -: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾ والمقبوضة هي الأرواح، ولم يفرقوا بين القبض والتوفي، ولا بين الأخذ في قول بلال: «أَخَذَ بِنَفْسِي الَّذِي أَخَذَ بِنَفْسِكَ» وبين قول النبي عليه السلام: «قَبِضُ أَرْوَاحِنَا»، وتقيح الأقوال وترجيحها يطول.

وقد روى أبو عَمَرَ^(٣) في التمهيد حديثاً يدل على خلاف مذهبه في أن النفس هي الروح، لكن علَّله فيه أن الله خلق آدم، وجعل فيه نفساً وروحاً، فمن الروح: عفافه، وفهمه وحلمه وسخاؤه، ووفاءه، ومن النفس: شهوته وطيشه وسفَهه وغضبه، ونحو هذا، وهذا الحديث معناه صحيح إذا تَوَاضَعَتْ نَفْسُهُ نَفْسَهُ أو لم يصح، وسبيلك أن تنظر في كتاب الله أولاً، لا إلى الأحاديث التي تُنْقَلُ مرة على اللفظ، ومرة على المعنى، وتختلف فيها ألفاظ المحدثين، فنقول قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(٤) ولم يقل: من نفسي وكذلك قال: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [السجدة: ٩] ولم يقل من نفسه، ولا يجوز أيضاً أن يقال هذا، ولا خفاء فيما بينهما من الفرق في الكلام، وذلك يدل على أن بينهما فرقاً في المعنى، وبعبارة هذا قوله سبحانه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ولم يقل: تعلم ما في روحي، ولا أعلم ما في روحي، ولا يحسن هذا القول أيضاً أن يقوله غير عيسى^(٥)، ولو كانت النفس والروح اسمين لمعنى واحد، كالليث والأسد لصح وقوع كل واحد منهما مكان صاحبه، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ولا يحسن في الكلام: يقولون في أرواحهم، وقال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ ولم يقل: أن تقول روح،

(١) من أحاديث الآحاد الكثير والكثير «صحيح». وانظر حديث «إنما الأعمال بالنيات» وقد خصص البخاري خبر الآحاد بكتاب خاص ضمَّنه صحيحه فانظره.

(٢) «صحيح» أخرجه البخاري ومسلم. (٣) ابن عبد البر.

(٤) سورة الحجر آية رقم (٢٩).

(٥) مَنْ دُونَهُ فِي النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ.

وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه». قال: فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه

ولا يقوله أعرابي، فأين إذاً كون النفس والروح بمعنى واحد لولا الغفلة عن تدبر كلام الله تعالى؟! ولكن بقيت دقيقة يُعرف منها السرّ والحقيقة، ولا يكون بين القولين اختلاف متباين إن شاء الله، فنقول وبالله التوفيق: الروح مشتق من الريح، وهو جسم هوائي لطيف، به تكون حياة الجسد عادة، أجراها الله تعالى؛ لأن العقل يوجب ألا يكون للجسم حياة، حتى ينفخ فيه ذلك الروح الذي هو في تجاويف الجسد، كما قال ابن فورك وأبو المعالي وأبو بكر المرادي، وسبقهم إلى نحو منه أبو الحسن الأشعري، ومعنى كلامهم واحد أو مقارب.

الروح سبب الحياة:

فصل: فإذا ثبت أن الروح سبب الحياة عادة، أجراها الله تعالى، فهو كالماء الجاري في عروق الشجرة صُغداً، حتى تحيا به عادة، فنسميه ماء باعتبار أوليته، ونسمي أيضاً هذا روحاً باعتبار أوليته، واعتبار النفخة التي هي ريح، فما دام الجنين في بطن أمه حياً، فهو ذو روح، فإذا نشأ واكتسب ذلك الروح أخلاقاً وأوصافاً لم تكن فيه، وأقبل على مصالح الجسم كلّفها به، وعشق مصالح الجسد ولذّاته، ودفع المضار عنه سمي: نفساً، كما يكتسب الماء الصاعد في الشجرة من الشجرة أوصافاً لم تكن فيه، فالماء في العنبة مثلاً هو: ماء باعتبار الأصل والبدأة، ففيه من الماء الميوعة والرطوبة، وفيه من العنبة الحلاوة، وأوصاف أخرى، فتسميه مُضطّاراً إن شئت، أو خمراً إن شئت، أو غير ذلك مما أوجبه الاكتساب لهذه الأوصاف، فمن قال: إن النفس هي الروح على الإطلاق من غير تقييد، فلم يُخسِن العبارة، وإنما فيها من الروح الأوصاف التي تقتضيها نفخة الملك، والمَلَكُ موصوف بكلّ خلق كريم؛ ولذلك قال في الحديث: فمن الروح عفافه وحلمه ووفاءه وفهمه، ومن النفس شهوته وغضبه وطيشه، وذلك أن الروح كما قدّمنا مازج الجسد الذي فيه الدم، ويسمى الدم: نفساً، وهو مجرى الشيطان، وقد حكمت الشريعة بنجاسة الدم لسرّ لعله أن يفهم مما نحن بسبيله، فمن يعرف جوهر الكلام، وينزل الألفاظ منازلها، لا يُسمى روحاً إلا ما وقع به الفرق بين الجماد والحي، والذي كان سبباً للحياة، كما في الكتاب العزيز عند ذكر إحياء النطفة، ونفخ الروح فيها، ولا يُقال: نفخ النفس فيها إلا عند الاتساع في الكلام، وتسمية الشيء بما يؤول إليه، ومن ههنا سُمي جبريل عليه السلام: روحاً، والوحي: روحاً، لأن به تكون حياة القلوب، قال الله سبحانه: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَقَلُّهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقال في الكفار: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١] وقال في

من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] أي: إن التوراة في هذا من علم الله قليل.

النفس ما تقدم، وقال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣] ولم يقل إن الروحَ لَأَمَّارَةٌ؛ لأن الروح الذي هو سبب الحياة لا يأمر بسوء، ولا يسمَّى أيضًا نفسًا، كما قدّمنا حتى يكتسب من الجسد الأوصاف المذكورة، وما كان نحوها، والماء النازل من السماء جنس واحد، فإذا مازج أجساد الشجر كالتفاح والفَرْسِيك^(١) والحَنْظَلِ والعُشْرِ، وغير ذلك اختلفت أنواعه، كذلك الروح الباطنة التي هي من عند الله، هي جنس واحد، وقد أضافها إلى نفسه تشريفًا لها حين قال: وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، ثم يخالط الأجساد التي خُلقت من طين، وقد كان في ذلك الطين طيب وخبِيث، فينزع كلُّ فرع إلى أصله، وينزع ذلك الأصل إلى ما سبق في أم الكتاب، وإلى ما دَبَّرَهُ وأحكمه الحكيمُ الخبير، فعند ذلك تتناثر النفوس، أو تتقارب، وتتحابُّ أو تتباغض على حسب التشاكل في أصل الخلقة، وهي معنى قول النبي - ﷺ -: «فما تَعَارَفَ منها ائْتَلَفَ، وما تناكر منها اختلف». وقد كتب بعض الحكماء إلى صديق له: «إن نفسي غير مشكورة على الانقياد إليك بغير زمام؛ فإنها صادفت عندك بعض جواهرها، والشئ يتبع بعضه بعضًا».

الإنسان روح وجسد:

فصل: وقد يُعَبَّرُ بالنفس عن جملة الإنسان روحه وجسده، فتقول: عندي ثلاثة أنفس، ولا تقول: عندي ثلاثة أرواح، لا يعبر بالروح إلا عن المعنى المتقدّم ذكره، وإنما اتسع في النفس، وعبر بها عن الجملة لغلبة أوصاف الجسد على الروح، حتى صار يسمى نفسًا، وطراً هذا الاسم بسبب الجسد، كما يطرأ على الماء في الشجر أسماء على حسب اختلاف أنواع الشجر من حلو وحامض ومُرٌّ وجَرِيفٍ، وغير ذلك فتحصّل من مضمون ما ذكرنا ألا يقال في النفس: هي الروح على الإطلاق، حتى تُقيد بما تقدم، ولا يقال في الروح: هو النفس إلا كما يقال في المَنِيِّ هو الإنسان، أو كما يقال للماء المغذّي لِلْكُرْمَةِ هو: الخمر، أو الخل، على معنى أنه ستضاف إليه أوصاف يسمى بها خمرًا أو خلًا، فتقييد الألفاظ هو: معنى الكلام، وتنزيل كل لفظ في موضعه، هو معنى البلاغة فافهمه.

(١) الفرسك: الخوج.

عن تسيير الجبال وبعث الموتى :

قال : وأنزل الله تعالى عليه فيما سأله قومُه لأنفسهم من تسيير الجبال ، وتقطيع الأرض ، وبعث مَنْ مَضَى من آبائهم من الموتى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرَآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلُّهُ بِهَ الْمَوْتَى لَوْلَا أَنَّ الْأَمْرَ لَجَمِيعًا ﴾ أي : لا أصنع من ذلك إلا ما شئت .

وأنزل عليه في قولهم : خُذْ لِنَفْسِكَ ، ما سأله أن يأخذ لنفسه ، أن يجعل له جناتًا وقصورًا وكنوزًا ، وبيعث معه ملكًا يصدقه بما يقول ، ويرد عنه : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَاصْلَوْا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ﴾ : أي من أن تمشي في الأسواق وتلتمس المعاش ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ﴾ [الفرقان : ٧ - ١٠] .

وأنزل عليه في ذلك من قولهم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَضْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢٠] أي جعلت بعضكم لبعض بلاء ، لتصبروا ، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رُسلي فلا يُخَالَفُوا لفعلت .

النفس :

فصل : وإذا ثبت هذا فلم يبق إلا قول بلال : أَخَذَ بِنَفْسِي الَّذِي أَخَذَ بِنَفْسِكَ ، فذكر النفس ؛ لأنه معتذر من ترك عمل أمر به ، والأعمال مضافة إلى النفس ؛ لأن الأعمال جَسَدَانِيَّةٌ ، وقول النبي - ﷺ - : « إِنْ اللَّهُ قَبَضَ أَرْوَاحَنَا ، فذكر الروح الذي هو الأصل ، لأنه أُنْسُهُمْ مِنْ فِرْعَهُمْ ، فأعلمهم أن خالق الأرواح يقبضها إذا شاء ، فلا تنبسط انبساطها في اليقظة وروح النائم وإن وُصِفَ بالقبض ، فلا يدل لفظ الْقَبْضِ على انتزاعه بالكلية ^(١) . كما لا يدل قوله سبحانه في الظل : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٤٦] على إعدام الظل بالكلية ، وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ ﴾ فلم يقل : الأرواح ، لأنه وعظ العباد الغافلين عنه ، فأخبر أنه يتوفى أنفسهم ، ثم يعيدها حتى يتوقاها ، فلا يُعِيدُهَا إِلَى الْحَشْرِ لَتَزْدَجِرَ النَّفُوسُ بِهَذِهِ الْعِظَةِ عَنْ سُوءِ أَعْمَالِهَا ؛ إِذِ الْآيَةُ مَكِيَّةٌ ، والخطاب للكفار ، وقد تنزلت الألفاظ منازلها في الحديث والقرآن ، وذلك معنى الفصاحة وسر البلاغة .

(١) وانظر تفسير الرازي «مفاتيح الغيب» في تفسير آية الباب .

وأنزل الله عليه فيما قال عبد الله بن أبي أمية: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٥].

قال ابن هشام: النبيون: ما نبع من الماء من الأرض وغيرها. وجمعه ينبوع. قال ابن هرمة. واسمه: إبراهيم بن عبد الله الفهري.

وَإِذَا هَرَقْتَ بِكُلِّ دَارٍ عَبْرَةً نُزِفَ الشُّؤُونُ. وَدَمَعُكَ الْيَنْبُوعُ
وهذا البيت في قصيدة له. وَالْكَسْفُ الْقَطْعُ مِنَ الْعَذَابِ. وواحدته: كِسْفَةٌ. مثل سِدْرَةٍ وَسِدْرٍ. وهي أيضًا: واحدة الْكَسْفِ. وَالْقَبِيلُ: يكون مقابلة ومعاينة. وهو كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾: أي عيانًا. وأنشدني أبو عبيدة لأعشى بني قيس بني ثعلبة:

أَصَالِحُكُمْ، حَتَّى اتَّبَوْوْا بِمِثْلِهَا كَصَرْخَةِ حُبْلَى يَسْرَتِهَا قَبِيلُهَا

ابن هرمة:

فصل: واستشهد ابن هشام بقول ابن هرمة ونسبه فقال: فهري: وإنما هو خُلْجِي، وَالْخُلْجُ اسمه: قيس بن الحارث بن فهر، واختلف في تسمية بني قيس بن الحارث الْخُلْجِ، فَقِيلَ: لَأَنَّهُمْ اخْتَلَجُوا مِنْ قَرِيشٍ وَسَكَانِ مَكَّةَ، وَقِيلَ: لَأَنَّهُمْ نَزَلُوا بِمَوْضِعٍ فِيهِ خُلْجٌ مِنْ مَاءٍ، وَنَسَبُوا إِلَيْهِ، وَابْنُ هَرَمَةَ واسمه: إبراهيم بن علي بن هرمة، وهو شاعر من شعراء الدولة العباسية، وبنيته:

وَإِذَا هَرَقْتَ بِكُلِّ دَارٍ عَبْرَةً نُزِفَ الشُّؤُونُ وَدَمَعُكَ الْيَنْبُوعُ
والشُّؤُونُ: مجاري الدمع، وهي أطباق الرأس، وهي أربعة للرجل، وثلاثة للمرأة، كذلك ذكروا عن أهل التشريح، وكذلك ذكر قاسم بن ثابت في الدلائل، فالله أعلم.

من شرح الآيات:

وكل ما شرح ابن هشام من الآيات التي تلاها ابن إسحاق، فقد تقدّم ما يحتاج بيانه منه، وفي قوله سبحانه: ﴿بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ﴾ دليل على أن البيت يراد به: القصر والمنزل، وإن كان عظيمًا، فإنه يسمى بيتًا كما قدّمنا في شرح بيت القصب في حديث خديجة.

يعني: القابلة؛ لأنها تُقابلها، وتقبل ولدها. وهذا البيت في قصيدة له. ويقال للقبيل: جمعه قُبُل، وهي الجماعات، وفي كتاب الله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ [الأنعام: ١١١]. فقُبُل: جمع قَبِيل، مثل سُبُل: جمع سَبِيل وسُرُر: جمع سرير، وقُمص: جمع قميص. والقَبِيل أيضًا: في مَثَل من الأمثال وهو قولهم: ما يعرف قَبِيلًا من دَبِير: أي: لا يعرف ما أقبل مما أدبر، قال الكُميت بن زيد:

تَفَرَّاتِ الْأُمُورُ بِوَجْهَتَيْنِهِم فَمَا عَرَفُوا الدَّبِيرَ مِنَ الْقَبِيلِ

وهذا البيت في قصيدة له، ويقال: إنما أريد بهذا: القتل، فما قُتِل إلى الذراع فهو القَبِيل، وما قُتِل إلى أطراف الأصابع فهو الدَّبِير، وهو من الإقبال والإدبار الذي ذكرته. ويقال: قَتَلَ الْمِغْزَلَ. فإذا قُتِل إلى الركبة فهو القَبِيل، وإذا قُتِل إلى الورك فهو الدَّبِير. والقَبِيل أيضًا: قوم الرجل. والزخرف: الذهب. والمزخرف: المزين بالذهب. قال العجاج:

مِنْ طَلَلِ أُمْسَى تَخَالَ الْمُضْحَفَا رُسُومَهُ وَالْمُذْهَبِ الْمُزْخَرَفَا

وهذان البيتان في أرجوزة له، ويقال أيضًا لكل مُزَيَّن: مُزْخَرَف.

قال ابن إسحاق: وأنزل عليه في قولهم: إنا قد بَلَّغْنَا أنك إنما يُعَلِّمُكَ رَجُلٌ باليَمَامَةِ. يقال له: الرَّحْمَنُ. ولن نؤمن به أبدًا: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَلْتَؤُلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ [الرعد: ٣٠].

وأنزل عليه فيما قال أبو جهل بن هشام - لعنه الله - وما هم به: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلَنَبَدِّعَ نَادِيَهُ سَنَدُغَ الزَّبَانِيَةِ كَلَّا لَا تَطْغُوهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ سورة العلق.

قال ابن هشام: لَنَسْفَعًا: لنجذب، ولناخذن. قال الشاعر:

قَوْمٌ إِذَا سَمِعُوا الصُّرَاخَ رَأَيْتَهُم مِنْ بَيْنِ مُلْجِمٍ مُهْرِهِ أَوْ سَافِعٍ

والنادي: المجلس الذي يجتمع فيه القوم، ويقصُّون فيه أمورهم، وفي كتاب الله

تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] وهو النَّدِيّ. قال عبيد بن الأبرص:

أذهب إليك فإني من بني أسد أهل النَّدِيّ، وأهل الجُرْدِ والنادي
وفي كتاب الله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]. وجمعه: أندية. يقول:
فَلْيَدْعُ أَهْلَ نَادِيهِ. كما قال تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] يريد أهل القرية. قال
سلامة بن جندل، أحد بني سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ تَمِيمٍ:

يَوْمَانِ: يَوْمُ مَقَامَاتٍ، وَأَنْدِيَةٍ وَيَوْمُ سَيْرٍ إِلَى الْأَعْدَاءِ تَأْوِيْبِ
وهذا البيت في قصيدة له. وقال الكُمَيْتُ بْنُ زَيْدٍ:

لَا مَهَازِيرَ فِي النَّدِيِّ مَكَائِ يَرِ وَلَا مُضْمِتِينَ بِالْإِفْحَامِ
وهذا البيت في قصيدة له. ويقال: النادي: المجلساء. والزبانية: الغلاظ الشداد،
وهم في هذا الموضع: خَزَنَةُ النَّارِ. والزبانية أيضًا في الدنيا: أعوانُ الرجل الذين يخدمونه
ويُعِينُونَهُ، والواحد: زَبْنِيَّةٌ. قال ابن الزُّبَيْرِ في ذلك:

مَطَاعِيمُ فِي الْمَقَرَى، مَطَاعِينَ فِي الْوَعَى زَبَانِيَّةٌ غُلَبٌ، عِظَامٌ حُلُومُهَا
يقول: شِدَادٌ. وهذا البيت في أبيات له. وقال صَخْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْهَذَلِيُّ، وهو
صَخْرُ الْغَيِّ:

وَمِنْ كَبِيرٍ نَفَرُ زَبَانِيَّةٍ

وهذا البيت في أبيات له.

قال ابن إسحق: وأنزل الله تعالى عليه فيما عَرَضُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ: ﴿قُلْ
مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾
[سبا: ٤٧].

فلما جاءهم رسول الله - ﷺ - بما عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ، وَعَرَفُوا صِدْقَهُ فِيمَا حَدَّثَ،
وَمَوْقِعَ ثُبُوتِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمِ الْغُيُوبِ حِينَ سَأَلُوهُ عَمَّا سَأَلُوا عَنْهُ، حَالَ الْحَسَدِ
مِنْهُمْ لَهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَتْبَاعِهِ وَتَصْدِيقِهِ فَعَتُوا عَلَى اللَّهِ وَتَرَكُوا أَمْرَهُ عِيَانًا، وَلَجُّوا فِيمَا هُمْ عَلَيْهِ
مِنَ الْكُفْرِ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ: لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ. أي: اجعلوه

لغوا وباطلاً، واتخذوه هُزُورًا لعلكم تغلبونه بذلك، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يومًا غلبكم.

فقال أبو جهل يومًا - وهو يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق: يا معشر قريش، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار، ويخبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عددًا، وكثرة، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم؟ فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣١] إلى آخر القصة، فلما قال ذلك بعضهم لبعض، جعلوا إذا جهر رسول الله ﷺ - بالقرآن وهو يصلي، ينفرون عنه، ويأبون أن يسمعوا له، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو من القرآن، وهو يصلي، استرق السمع دونهم فرقًا منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يسمع منه ذهب خشية أذاهم، فلم يسمع، وإن خفض رسول الله ﷺ - صوته، فظن الذي يسمع أنهم لا يسمعون شيئًا من قراءته، وسمع هو شيئًا دونهم أصاخ له يسمع منه^(١).

خزنة جهنم وأبو الأشدين:

فصل: وذكر ابن إسحق قول أبي جهل مستهزئًا: يزعم محمد أن جنود ربه التي يخوفكم بها تسعة عشر، وأنتم الناس، إلى آخر القصة. وأهل التفسير يعزون هذه المقالة إلى أبي الأشدين الجُمَحِي، واسمه: كَلْدَة بن أُسَيْد بن خلف، وأبو دَهْبَل الشاعر هو ابن أخيه، واسمه: وهب بن زَمْعَة بن أُسَيْد بن خلف بن وهب بن خُذَافَة بن جُمَح، وكانت عند أبي دَهْبَل التَّوَامَة التي يعرف بها صالح مولى التَّوَامَة، وهي أخت عبد الله بن مَفْوَان بن أمية، ولدت له عبد الرحمن قتل يوم الجمل، وأنه قال: اكفوني منهم اثنين، وأنا أكفيكم سبعة عشر إعجابًا منه بنفسه، وكان بلغ من شدته - فيما زعموا - أنه كان يقف على جلد البقرة، ويجاذبه عشرة، لينتزعه من تحت قدمه، فيتمزق الجلد، ولا يتزحزح عنه، وقد دعا النبي - ﷺ - إلى المصارعة، وقال: إن صرعتني آمنت بك، فصرعه رسول الله ﷺ - مرارًا، فلم يؤمن، وقد نسب ابن إسحق خبر المصارعة إلى زُكَّانَة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، وسيأتي في الكتاب والله أعلم، وأما ما قال أهل التأويل في خَزَنَة جهنم التسعة عشر، فروي عن كعب أنه قال: بيد كل واحد منهم عمود له شُعْبَتَان، وإنه ليدفع بالشعبة تسعين ألفًا

(١) انظر تفسير الطبري (٩٣/٢٦) الدر المنثور (٦/٢٨٢).

قال ابن إسحاق: حدثني داود بن الحُصَيْن، مولى عمرو بن عثمان، أن عكرمة مولى ابن عباس حدثهم أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حدثهم: إنما أنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]. من أجل أولئك التفر. يقول: لا تجهر بصلاتك فيتفرقوا عنك، ولا تخافت بها، فلا يسمعها من يحب أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم، لعلّه يزغوي إلى بعض ما يسمع، فينتفع به^(١).

أول صحابي جهر بالقرآن:

قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عروة بن الزبير، عن أبيه، قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله - ﷺ - بمكة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله - ﷺ - فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دَعُونِي فَإِنَّ اللَّهَ سَيَمْنَعُنِي. قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها حتى قام عند المقام ثم قرأ: ﴿يَسْمِ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ رافعاً بها صوته ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ قال: ثم استقبلها يقرؤها. قال: فتأملوه فجعلوا يقولون. ماذا قال ابن أم عبد؟ قال: ثم قالوا: ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ. ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثروا في وجهه، فقالوا له:

إلى النار^(٢)، وقد أملينا في معنى أبواب الجنة وأبواب النار فائدة عددها وتسميتها، وذكر الرَبَائِيَّة، والحكمة في كونهم عدداً قليلاً مسألة في قريب من جزء، فلتنظر هناك.

بهت الرسول ﷺ أن بشراً يعلمه:

فصل: وذكر قول قريش: إنما يعلمه رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإننا لا نؤمن بالرحمن، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ كان مُسَيْلِمَةُ بن حبيب الحنفي، ثم أحد بني الدؤل قد تسمى: الرحمن في الجاهلية، وكان من المعمرين، ذكر وثيمة بن موسى أن مسيلمة تسمى بالرحمن قبل أن يولد عبد الله أو رسول الله - ﷺ -.

(١) انظر الطبري في تفسيره (١٢٥/١٥) وابن كثير في تفسيره (١٢٨/٥) والسيوطي في الدر (٢٠٧/٤) وابن حجر في الفتح (٢٥٨/٨).

(٢) كعب الأخبار من مسلمي أهل الكتاب - كثير النقل عنهم.

هذا الذي حَشِينَا عَلَيْكَ فَقَالَ: مَا كَانَ أَعْدَاءُ اللَّهِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْهُمْ الْآنَ، وَلَئِنْ شِئْتُمْ لِأَغَادِيئِهِمْ بِمِثْلِهَا غَدًا، قَالُوا: لَا، حَسْبُكَ، قَدْ أَسْمَعْتَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ^(١).

الذين استمعوا إلى قراءة النبي (ﷺ)

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث: أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زُهرة، خرجوا ليلة؛ ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق، فتلاؤموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع

كبير:

وأُشْد في تفسير الزبانية:

ومن كَبِيرٍ نَفَرٌ زَبَانِيَّة

وجدت في حاشية كتاب الشيخ على هذا البيت: كبير: حَيٍّ من هُذَيْل قال المؤلف: وفي أسد أيضًا: كبير بن عَنَم بن دُوْدَان بن أسد، ومن ذريته: بنو جَحْش بن زَيَّان بن يَغَمَر بن سَبَوَة بن مُرَّة بن كبير ولعل الراجز أن يكون أراد هؤلاء، فإنهم أشهر، والله أعلم، وبنو كبير أيضًا: بطن من بني غامد، وهم من الأزد، والذي تقدم ذكره من هذيل هو: كبير بن طابخة بن لُحَيان بن سعد بن هُذَيْل.

حول آيات من القرآن

فصل: وذكر استماع أبي جهل وأبي سفيان والأخنس إلى قول أبي جهل: فلما تَجَادَيْنَا عَلَى الرُّكْب. وقع في الجمهرة: الجاذي: الْمُقْعِي على قدميه قال: وربما جعلوا الجاذي والجاثي سواء.

(١) هذا هو أول مَنْ جهر بالقرآن - عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - الذي شاهده الناس في أحد الأفلام [الإسلامية] فإنا لله وإنا إليه راجعون.

الفجرُ تفرّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرحُ حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرّقوا.

فلما أصبح الأخنسُ بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يُراد بها، قال الأخنسُ: وأنا والذي حلفت به.

قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعتُ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكُنَّا كَقَرَسَيْنِ رِهان، قالوا: مَنَّا نبيّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى نُذرك مثل هذه، والله لا نُؤمن به أبدًا، ولا نصدّقه. قال: فقام عنه الأخنسُ وتركه.

قال ابن إسحق: وكان رسولُ الله - ﷺ - إذا تلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، قالوا يهزؤون به: ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ لا نفقه ما تقول: ﴿وفي آذاننا وقر﴾ لا نسمع ما تقول: ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ قد حال بيننا وبينك ﴿فاعمل﴾ بما أنت عليه ﴿إننا عاملون﴾ بما نحن عليه، إنّا لا نفقه عنك شيئًا، فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قولهم: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥ - ٤٦] أي: كيف فهموا توحيدك ربك إن كنتُ جعلتُ على قلوبهم أكنة، وفي آذانهم وقرًا، وبينك وبينهم حجابًا بزعمهم؛ أي: إني لم أفعل ذلك. ﴿نحنُ أَعْلَمُ بما يَسْتَمْعُونَ به إذ يَسْتَمْعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧] أي: ذلك ما تواصوا به من ترك ما بعثتُك به إليهم. ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨] أي: أخطؤوا المثل الذي ضَرَبُوا لك، فلا يُصِيبون به هُدى، ولا يَغتَدِل لهم فيه قول ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: قد جئتُ تُخبرنا: أأنا سنبعث بعد موتنا إذا كنا عظامًا ورُفَاتًا، وذلك ما لا يكون. ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُبرُ فِي

وذكر قول الله سبحانه خبرًا عنهم: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] قال بعضهم: مستور بمعنى: سائر كما قال: «وكان وعده مأتيا» أي: آتيا، والصحيح أن مستورًا هنا على بابهِ؛ لأنه حِجَابٌ على القلب، فهو لا يرى.

صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿[الإسراء: ٤٩ - ٥١]﴾. أي: الذي خلقكم مما تعرفون، فليس خَلْقُكُمْ من تراب بأعزَّ من ذلك عليه.

قال ابن إسحاق: حَدَّثَنِي عبد الله بن أبي نَجِيح، عن مُجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: سألته عن قول الله تعالى: ﴿أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ ما الذي أراد الله به؟ فقال: الموت^(١).

ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة

قال، ابن إسحاق: ثم إنهم عَدَوْا على مَنْ أسلم، وأتبع رسول الله - ﷺ - من

وذكر حديث ابن عباس حين سُئِلَ عن قوله: ﴿أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ فقال: الموت، «هو تفسير يحتاج إلى تفسير، ورأيت لبعض المتأخرين فيه، قال: أراد ابن عباس أن الموت سَيَفْنِي كما يفنى كل شيء، كما جاء أنه يُذْبَح على الصُّرَاط، فكان المعنى أن لو كنتم حجارة أو حديدًا لأدرككم الفناء والموت، ولو كنتم الموت الذي هو كبير في صدوركم، فلا بُدَّ لكم من الفناء - والله أعلم - بتأويل ذلك، وقد بقي في نفسي من تأويل هذه الآية شيء، حتى يكمل الله نعمته بفهمها إن شاء الله تعالى - وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْأَ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ يجوز أن يكون: نفورًا: جمع نافر، فيكون نصبًا على الحال، ويجوز أن يكون مصدرًا مؤكدًا لَوَلَّوْا. ومما أنزل الله في استماعهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ [يونس: ٤٢] ألا ترى كيف جمع يستمعون، والحمل على اللفظ إذا قُرِبَ منه أحسن، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ فأفرد، حملاً على لفظ مَنْ، وقال في آخر الآية: ولا خَوْفٌ عليهم، فجمع حملاً على المعنى، لما بعد عن اللفظ، وهكذا كان القياس في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ﴾، ولكن لما كانوا جماعة، ونزلت الآية فيهم بأعيانهم، صار المعنى: ومنهم نفر يستمعون، يعني أولئك النفر، وهم أبو جهل وأبو سفيان والأخنس بن شريق، ألا ترى كيف قال بعد: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ فأفرد حملاً على اللفظ لارتفاع السبب المتقدم، والله أعلم.

المُكَرَّه على الكفر والمعصية

فصل: وذكر تعذيب مَنْ أسلم وطرحهم في الرُمَضَاء، وكانوا يُلبسونهم أَدْرَاعَ الحديد،

(١) انظر الطبري في تفسيره (١٨/١٥) الدر المنثور للسيوطي (٤/١٨٧).

أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يخسبونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يضلب لهم، ويغصمه الله منهم.

تعذيب بلال وعته^(١):

وكان بلال مولى أبي بكر رضي الله عنهما، لبعض بني جُمَح، مؤلداً من مولديهم، وهو بلال بن رباح، وكان اسم أمه: حَمَامَة، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أمية بن خلف بن وهب بن خذافة بن جُمَح يخرج به إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى؛ فيقول وهو في ذلك البلاء: أَحَدٌ أَحَدٌ.

قال ابن إسحق: وحدثني هشام بن عروة عن أبيه، قال: كان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب بذلك، وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ، فيقول: أَحَدٌ، أَحَدٌ والله يا بلال، ثم يُقْبِل على أمية بن خلف، ومن يضع ذلك به من بني جُمَح، فيقول: أحلف بالله لئن قتلتهم على هذا لأتخذنه حَتَانًا^(٢)، حتى مر به أبو بكر الصديق بن أبي قُحافة - رضي الله عنه - يوماً، وهم يضعون ذلك به، وكانت دار أبي بكر في بني جُمَح، فقال لأمية بن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟! حتى متى؟ قال: أنت الذي أفسدته، فألقه مما ترى، فقال أبو بكر: أفعل عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك، أعطيكه به، قال:

حتى أعطوهم بالسَّتهم ما سألوا من كلمة الكفر إلا بلالاً - رحمه الله - وأنزل الله فيهم: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ ونزل في عَمَارٍ وأبيه: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا مِنْهُمْ نَقَاةٌ﴾^(٣) ولما كان الإيمان أصله في القلب، رخص للمؤمن في حال الإكراه أن يقول بلسانه إذا خاف على نفسه

(١) انظر ترجمته في أسد الغابة (٢٤٣/١) الإصابة (١٧٠/١) الاستيعاب (١٧٨/١) صفة الصفوة (٤٣٤/١) سير أعلام النبلاء (٣٤٧/١) حلية الأولياء (١٤٧/١) شذرات الذهب (٣١/١) الإكمال (١١/٤).

(٢) الحنان: الرحمة والعطف والرزق. وقال صاحب النهاية: أراد لأجعل قبره موضع حنان أي مظنة من رحمة الله تعالى فاتمسح به تبركاً فيرجع ذلك عازاً عليكم.

(٣) الأشهر أن الآية الأولى نزلت في حق عمار بن ياسر رضي الله عنهما، والثانية لا مناسبة بينها وبين حديث الباب.

قد قبلتُ فتال: هو لك. فأعطاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه غلامه ذلك وأخذه فأعتقه^(١).

من عتقاء أبي بكر:

ثم أغتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب، بلال سابعهم: عامر بن فُفيرة، شَهِد بدراً وأُحُدًا، وقُتِل يوم بئر مَعُونَة شهيدًا، وأُمُّ شُمَيْس وَزَيْبَة، وأُصِيب بصرُها حين أعتقها، فقالت قُرَيْش: ما أذهب بصرُها إلا اللات والعزى؛ فقالت: كذبوا - وبیت الله - ما تضر اللات والعزى، وما تنفعان، فردَّ الله بصرها^(٢).

وأعتق التَّهْدِيَة وبنَّتْها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار، فمَرَّ بهما وقد بعثتهما سَيِّدُتُهُما بَصَحِين لَهَا، وهي تقول: والله لا أُغْتَقِمَا أَبَدًا، فقال أبو بكر رضي الله عنه: حِلًّا يَا أُمُّ فُلَان، فقالت: حِلٌّ، أنت أفسدتُهُما فأغْتَقِمَا؟ قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا، قال: قد أخذتُهُما وهما حُرَّتَان، أَرَجَعَا إِلَيْهَا طَحِينَهَا، قالتا: أَوْ نَفْرُغْ مِنْهُ يَا أَبَا بَكْرٍ، ثم نَرَاهُ إِلَيْهَا؟! قال: وذلك إِنْ شِئْتُمَا.

حتى يأمن. قال ابن مسعود: ما من كلمة تدفع عني سَوَاطِين إِلَّا قُلْتُهَا هذا في القول، فأما الفعل، فتنقسم فيه الحال: فمنه ما لا خلاف في جوازه كشرب الخمر، إذا خاف على نفسه القتل، وإن لم يخف إلا ما دون القتل، فالصبر له أفضل، وإن لم يخف في ذلك إلا كسجن يوم، أو طرف من الهَوَان خفيف، فلا تحل له المعصية من أجل ذلك، وأما الإكراه على القتل، فلا خلاف في حظره؛ لأنه إنما رخص له فيما دون القتل، ليدفع بذلك قتل نفس مؤمنة، وهي نفسه، فأما إذا دَفَعَ عن نفسه بنفسٍ أخرى، فلا رُخْصَة، واختلف في الإكراه على الزنى، فذكر عن ابن الماجشُون أنه قال: لا رُخْصَة فيه؛ لأنه لا ينتشر له إلا عن إرادة في القلب أو شهوة، وأفعال القلب لا تُبَاح مع الإكراه، وقال غيره: بل يرخص في ذلك لَمَنْ خاف القتل. لأن انبعاث الشهوة عند المُمَاسَة بمنزلة انبعاث اللعاب عند مَضْغ الطعام، وقد يجوز أكل الحرام إذا أُكْرِه عليه.

فصل: واختلف الأصوليون في مسألة من الإكراه، وهي: هل المُكْرَه على الفعل مخاطَبٌ بالفعل، أم لا؟ فقالت المعتزلة: لا يصح الأمر بالفعل مع الإكراه عليه، وقالت الأشعرية: ذلك جائز؛ لأن العزم إنما هو فعل القلب، وقد يتصور منه في ذلك الحين

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٥٨٩/١) المتظلم لابن الجوزي (٣٧٣/٢).

(٢) الكامل (٥٩١/١).

ومرّ بجارية بني مُؤمّل، حيّ من بني عدّي بن كعب، وكانت مسلمة، وعمرُ بن الخطاب يُعذّ بها لتترك الإسلام، وهو يومئذ مشركٌ وهو يضربها، حتى إذا ملّ قال: إني أعتذر إليك، إني لم أتركك إلا مَلالةً، فتقول: كذلك فعل الله بك، فابتاعها أبو بكر، فأعتقها.

بين أبي بكر وأبيه:

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن عبد الله بن أبي عتيق، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن بعض أهله^(١)، قال:

قال أبو قحافة لأبي بكر: يا بُنَيَّ، إني أراك تُغَيِّق رِقَابًا ضِعَافًا، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جُلْدًا يَمْنَعُونَكَ، ويقومون دونك؟ قال: فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبت، إني إنما أريد ما أريد، الله عزّ وجل، قال: فيُتَحَدَّثُ أنه ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيه، وفيما قال له أبوه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل: ٥، ٦]... إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ١٩ - ٢١].

العزم والنية، وهي القصد إلى امتثال أمر الله تعالى، وإن كان ظاهره أنه يفعله خوفاً من الناس، وذلك إذا أكره على فرض كالصلاة مثلاً، إذا قيل: صَلِّ وإلا قُتِلْتَ، وأما إذا قيل له: إن صَلَّيْتَ قُتِلْتَ، فظن القاضي أن الخلاف بيننا، وبين المعتزلة في ذلك، وغلطه بعض أصحابه، وقالوا: لا خلاف في هذه المسألة أنه مخاطب بالصلاة مأمور بها، وإن رخص له في تركها، فليس الترخيص مما يُخرجه عن حكم الخطاب، وإنما يرفع عنه الإكراه المأثم، ولا يخرجه عن أن يكون مخاطباً بها، وهذا الغلط المنسوب إلى القاضي في هذه المسألة ليس بقول له، وإنما حكاه في كتاب التقريب والإرشاد عن طائفة من الفقهاء. قالوا: لا يتصور القصد والإرادة للفعل مع الإكراه عليه. قال القاضي: وهذا باطل؛ لأنه يتصور انكفاه عنه مع الإكراه، فكذلك يتصور منه القصد إلى الامتثال له، وبه يتعلق التكليف، وإنما غلط من نسب إليه من الأصوليين هذا القول الذي أبطله، وبين بطلانه، وإنما ذكرت ما قالوه قبل أن أرى كلامه في المسألة، وأقف على حقيقة مذهبه، وهو بريء من الغلط فيها.

(١) مجاهيل.

تعذيب عمار بن ياسر

قال ابن إسحاق: وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر، وبأبيه وأمه - وكانوا أهل بيت إسلام - إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمزم بهم رسول الله - ﷺ - يقول، فيما بلغني: صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة. فأما أمه فقتلوا، وهي تآبى إلا الإسلام^(١).

وكان أبو جهل الفاسق الذي يُغري بهم في رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومَنعة أتبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك: لَنَسْفَهَن جَلْمَكَ وَلَنَقِيَنَّ^(٢) رَأْيِكَ، ولنضعن شرقك، وإن كان تاجرًا، قال: والله لَنَكْسِدَنَّ تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به.

فتنة المعذبين:

قال ابن إسحاق: وحذثني حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير، قال: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما

آل ياسر

فصل: وذكر فيمن عذب في الله: سُمَيَّةُ أُمُّ عمار، وقد ذكرنا قتل أبي جهل لها، وهي أول شهيد في الإسلام، ورؤي أن عمارًا قال لرسول الله ﷺ: لقد بلغ منا العذاب كل مبلغ، فقال له النبي - ﷺ -: «صبراً أبا اليقظان»، ثم قال: «اللهم لا تعذب أحدًا من آل عمار بالنار»، وسُمَيَّةُ أمه، وهي بنت خياط، كانت مولاة لأبي حذيفة بن المغيرة، واسمه مُهْشَمٌ، وهو عم أبي جهل، وغلط ابن قتيبة فيها، فزعم أن الأزرق مولى الحارث بن كلدة خلف عليها بعد ياسر، فولدت له سلمة بن الأزرق، وقال أهل العلم بالنساء: إنما سُمَيَّةُ أُم سلمة بن الأرق سُمَيَّةُ أخرى، وهي أُم زياد بن أبي سفيان، لا أُم عمار، وعمارٌ والحُوَيْرِثُ وعبود بنو ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس بن الحُصَيْنِ بن لؤذين، ويقال لؤذيم بن ثَنَلَبَةَ بن عوف بن عامر بن حارثة بن زيام بن عَنَس بن مالك بن أَدَدَ بن زيد العَنَسِيِّ الْمَذَجِجِيِّ حليف لبني مخزوم، ومن ولد عمار: عبد الله بن سعد بن الحسن بن عثمان بن الحسن بن عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر، وهو المقتول بالأندلس، قتله عبد الرحمن بن معاوية.

(١) أخرجه الحاكم (٣/٣٨٣) وأبو نعيم في الحلية (١/١٤٠) وغيرها. وانظر الكامل (١/٥٨٩).

(٢) أي نخط من رأيك.

يُعَذِّرون به في تَرْك دينهم؟ قال: نعم، والله، إن كانوا لَيَضْرِبُونَ أحدهم، وَيُجِيعُونَهُ، وَيُعْطِشُونَهُ حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شِدَّة الضَّرِّ الذي نزل به، حتى يُعْطِيتَهُمْ ما سألوه من الفِتْنَةِ، حتى يقولوا له: آَلَأَنتُ وَالْعَزَى إِلَهُكَ من دون الله؟ فيقول: نعم، حتى إن الجَعَلَ^(١) ليمرَّ بهم، فيقولون له: أهذا الجَعَلَ إِلَهُكَ من دون الله؟ فيقول: نعم، افتدَاءً منهم ممَّا يبلغون من جَهْدِهِ.

رفض تسليم الوليد لتقتله قريش:

قال ابن إسحاق: وحدثني الزبير بن عَكاشة بن عبد الله بن أبي أحمد أنه حَدَّثَ أن رجلاً من بني مَخْزُوم مَشَوْا إلى هشام بن الوليد، حين أسلم أخوه الوليد بن الوليد، وكانوا قد أجمعوا على أن يأخذوا فِتْيَةً منهم كانوا قد أسلموا، منهم: سَلَمَةُ بن هشام، وعِيَّاش بن أبي ربيعة. قال: فقالوا له - وخشوا شَرَّهُمْ: إنا قد أردنا أن نُعَاتِبَ هؤلاء الفِتْيَةَ على هذا الدين الذي أحدثوا، فإنَّا نأمن بذلك في غيرهم. قال: هذا، فعليكم به. فعاتبوه وإياكم ونفسه. وأنشأ يقول:

ألا لا يُقْتَلَنَّ أَخِي عُيَيْشٌ فيبقى بيننا أبداً تَلاحي

زئيرة وغيرها:

فصل: وذكر زئيرة التي أعتقها أبو بكر، وأول اسمها: زاي مكسورة بعدها نون مكسورة مشددة على وزن فَعِيلَةٍ، هكذا صَحَّت الرواية في الكتاب، والزئيرة: واحدة الزناير، وهي الحصا الصغار، قاله أبو عبيدة، وبعضهم يقول فيها: زئيرة بفتح الزاي وسكون النون وباء بعدها، ولا تُعرف زئيرة في النساء، وأما في الرجال فزئيرة بن زبير بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر، وابنه: خالد بن زئيرة، وهو العَرِقُ قاله الدارقطني.

أم عميس:

فصل: وذكر أم عَمَيْس^(٢)، وكانت لبني تميم بن مرة أعتقها أبو بكر، وذكر غير ابن إسحاق هؤلاء الذين عَذَّبوا في الله لما أعطوا بالستهم ما سئلوا من الكفر، جاءت قبيلة كل رجل منهم بأنطاع الأدم فيها الماء، فوضعوهم فيها، وأخذوهم بأطراف الأنطاع، واحتملوهم إلاً بلالاً.

(٢) وقيل: عيس.

(١) الجعل: الخنفساء.

احذروا على نفسه، فأقسم بالله لئن قتلتموه، لأقتلن أشرفكم رجلاً. قال: فقالوا: اللهم العنه. من يغرز بهذا الخبيث، فوالله لو أصيب في أيدينا لقتل أشرفنا رجلاً. قال: فتركوه ونزعوا عنه. قال: وكان ذلك مما دفع الله به عنهم.

عن بلال:

وقول وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ: لئن قَتَلْتُمُوهُ يعني: بلالاً، وهو على هذا الحال لَا تُخِذْنَهُ حَنَانًا أي: لَا تُخِذْ قَبْرَهُ مَنَسَكًا وَمُسْتَرْحَمًا. والحنان: الرحمة، وكان بلال رحمه الله يكتئ: أبا عبد الكريم، وقيل: أبا عبد الله، وأخته غُفْرَة، وقد تقدم في أول الكتاب ذكر عمر مولى غُفْرَة، وهي هذه. والغُفْرَة: الأُنثى من أولادِ الْأَرَاوِي، والذكر: غُفْر.

ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة^(١)

قال ابن إسحاق: فلما رأى رسول الله - ﷺ - ما يُصيب أصحابه من البلاء. وما هو فيه من العافية. بمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء. قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد. وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله - ﷺ - إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم. فكانت أول هجرة كانت في الإسلام.

أصحاب الهجرة الأولى إلى الحبشة:

وكان أول من خرج من المسلمين من بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن

باب الهجرة إلى أرض الحبشة

وقد ذكرنا نسب الحبشة في أول الكتاب، وأما النجاشي فاسم لكل ملك يلي الحبشة، كما أن كسرى اسم لمن ملك الفرس، وخاقان اسم لملك الترك كائنًا من كان، وبَطْلَيْمُوسُ: اسم لمن ملك يُونَانَ، وقد ذكرنا هذا المعنى قبل، واسم هذا النجاشي: أضحمة بن أبجر، وتفسيره: عطية.

وذكر في أول من خرج إلى الحبشة: عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله - ﷺ - وكان حين تزوجها يعنىها النساء:

أحسنُ شخصين رأى إنسان رُقِيَّةُ وبَغْلُها عُثْمَانُ

(١) انظر الكامل (٥٩٦/١) المتظم (٣٧٤/٢).

قُصَيِّ بن كلاب بن مُرَّة بن كَعْب بن لُؤَيِّ بن غالب بن فَهْر: عثمانُ بن عفَّان بن أبي العاص بن أمية، معه امرأته: رُقِيَّة بنتُ رسول الله - ﷺ - ومن بني عبد شمس بن عبد مناف: أبو حذيفة بن عُثْبَة بن رَبِيعَة بن عَبْدِ شَمْس، معه امرأته: سَهْلَة بنت سُهَيْل بن عمرو، أحد بني عامر بن لُؤَيِّ، ولدت له بأرض الحبشة محمد بن أبي حذيفة. ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي: الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد. ومن بني عبد الدار بن قُصَيِّ: مُضْعَب بن عُمَيْر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار. ومن بني زُهرة بن كلاب: عبد الرحمن بن عَوْف بن عَبْدِ عَوْف بن عبد بن الحارث بن زُهرة. ومن بني مَخْزُوم بن يَقْظَة بن مُرَّة: أبو سَلَمَة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عُمَر بن مَخْزُوم، معه امرأته أُم سَلَمَة بنت أبي أمية بن المُغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مَخْزُوم. ومن بني جُمَح بن عمرو بن هُصَيص بن كعب: عثمانُ بن مَطْعُون بن حَبِيب بن وَهَب بن حُذافة بن جُمَح. ومن بني عدي بن كعب: عامرُ بن رَبِيعَة، حليف آل الخطَّاب، من عَنَز بن وائل معه امرأته: لَيْلى بنت أبي حَثْمَة بن حُذَيْفَة بن غانم بن

ولدت رقية لعثمان ابنة عبد الله، وبه كان يكتى، ومات عبد الله وهو ابن ست سنين، وكان سبب موته أن ديكاً نقره في عينه، فتورم وجهه فمرض، فمات. وذلك في جمادى الأولى سنة أربع من الهجرة، ثم كُتِيَ بعد ذلك أبا عمرو، وهذا هو عبد الله الأصغر. وعبد الله الأكبر هو ابنه من فاختة بنت غَزَوَان، وأكبر بنيه بعد هذين: عمرو، ومن بنيه عُمَر وخالد وسعيد والوليد والمغيرة وعبد الملك وأبان، وفي السيرة من غير هذه الرواية أن رقية كانت من أحسن البشر، وأن رجالاً من الحبشة رأوها بأرضهم، فكانوا يُدْزِكُلُون^(١) إذا رأوها إعجاباً منهم بحسنها، فكانت تتأذى بذلك، وكانوا لا يستطيعون لغربتهم أن يقولوا لهم شيئاً، حتى خرج أولئك النفر مع النَّجَاشِي إلى عدوه الذي كان ثار عليه، فقتلوا جميعاً، فاستراحت منهم، وظهر لنجاشي على عدوه، وروى الزبير في حديث أسنده أن رسول الله - ﷺ - بعث رجلاً يَلْطُفُ إلى عثمان ورقية، فاحبس عليه الرسول، فقال له عليه السلام: «إن شئت أخبرتك ما حبسك»، قال: نعم، قال: وقفت تنظر إلى عثمان ورقية تعجب من حسنهما».

وذكر ابن إسحق تسمية المهاجرين إلى أرض الحبشة، وقد تقدم التعريف ببعضهم، وذكرنا سبب إسلام عمرو بن سعيد بن العاصي، وأنه رأى نوراً خرج من زمزم أضاءت له منه نخل المدينة، حتى رأوا البشر فيها، فقصر رؤياه، فقليل له: هذه بشر بني عبد المطلب، وهذا النور فيوم يكون، فكان سبباً لبداره للإسلام.

(١) يدركلون: أي يرقصون.

عامر بن عبد الله بن عَوْف بن عبيد بن عُويج بن عدي بن كعب. ومن بني عامر بن لُؤَيّ أبو سَبْرَة بن أبي رُهم بن عبد العُزَيّ بن أبي قَيْس بن عبد وُدّ بن نَضْر بن مالك بن حِسل بن عامر، ويقال: بل أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وُدّ بن نصر بن مالك بن حِسل بن عامر.

ويقال: هو أول مَنْ قَدِمَهَا. ومن بني الحارث بن فهر: سهيل ابن بيضاء، وهو: سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أَهْيَب بن ضَبّة بن الحارث. فكان هؤلاء العشرة أول مَنْ أخرج من المسلمين إلى أرض الحبشة، فيما بلغني.

قال ابن هشام: وكان عليهم عثمان بن مظعون، فيما ذكر لي بعض أهل العلم. قال ابن إسحاق: ثم خرج جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وتتابع المسلمون، حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، فكانوا بها، منهم مَنْ خرج بأهله معه، ومنهم مَنْ خرج بنفسه لا أهل له معه.

المهاجرون من بني هاشم وبني أمية:

ومن بني هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب بن فهر: جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، معه امرأته: أسماء بنت عُمَيْس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خُثَعم، ولدت له بأرض الحبشة عبد الله بن جعفر، رجل.

ومن بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، معه امرأته: رقية ابنة رسول الله ﷺ، وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية، معه امرأته: فاطمة بنت صَفْوَان بن أمية بن مُحَرَّر بن حَمَل بن شَيْق بن

رؤيا سعد وخالد ولدي العاص:

وقد ذكرنا فيما تقدم أن هذه الرؤيا إنما كانت لأخيه، وأن عَمْرًا هو الذي عَبرها له، وهذا هو الصحيح فيها، والله أعلم، وأما أخوه خالد بن سعيد، فكان يرى - قبل أن يسلم - نفسه قد أَشْفَى على نار تَأَجَّجُ، وكان رسول الله ﷺ - قد أخذ بِخُجْرَتِهِ^(١)، يصرفه عنها، فلما استيقظ علم أن نجاته من النار على يدي رسول الله ﷺ - فلما أظهر إيمانه ضربه أبوه بِمِغْرَعَةٍ، حتى كسرهما على رأسه، وحلف ألاّ ينفق عليه، وأغرى به إخوته، فطردوه وآذوه،

(١) أي بمقدار إزاره.

رَقَبَةُ بن مُخْدِجِ الكِنَانِي، وأخوه خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، معه امرأته: أُمَيْنَةُ بنت خلف بن سعد بن عامر بن يَياضَة بن سُبَيْع بن جُعْثَمَة بن سعد بن مُلَيْح بن عمرو، من خزاعة.

قال ابن هشام: ويقال: هُمَيْنَة بنت خلف.

قال ابن إسحاق: ولدت له بأرض الحبشة سَعِيد بن خالد، وأمة بنت خالد، فتزوج أمة بعد ذلك الزبير بن العوام، فولدت له عمرو بن الزبير، وخالد بن الزبير.

المهاجرون من بني أسد وبني عبد شمس:

ومن حلفائهم، من بني أسد بن خزيمة: عبد الله بن جَحْش بن رِثَاب بن يَغْمَر بن صَبْرَة بن أنزة بن كَبِير بن عَنَم بن دُودَان بن أسد؛ وأخوه عُبيد الله بن جَحْش، معه امرأته: أُم حَبِيبَة بنتُ أَبِي سُفْيَان بن حَزْب بن أُمَيَّة، وقيس بن عبد الله، رجل من بني أسد بن خزيمة، معه امرأته بَرَكَة بنت يَسَار، مولاة أَبِي سُفْيَان بن حَزْب بن أُمَيَّة، ومُعَيِّقِب بن أَبِي فاطمة، وهؤلاء آل سَعِيد بن العاص، سبعة نفر.

قال ابن هشام: مُعَيِّقِب من دُوس.

قال ابن إسحاق: ومن بني عَبْدِ شَمْس بن عَبْدِ مناف، أَبُو حُذَيْفَة بن عُثْبَة بن رَبِيعَة بن عبد شمس، وأبو موسى الأشعري، واسمه: عبدُ الله بن قَيْس حليف آل عتبة بن ربيعة، رجلاً.

المهاجرون من بني نوفل وبني أسد:

ومن بني نُوْفَل بن عَبْدِ مناف: عُثْبَة بن عَزْوَان بن جَابِر بن وَهَب بن نَسِيب بن مالِك بن الحارث بن مازن بن مَنْصُور بن عِكْرَمَة بن خَصَفَة بن قَيْس بن عَيْلَان، حليف لهم، رجل.

ومن بني أسد بن عبد العزى بن قُصَيّ: الزبير بن العوام بن خُوَيْلِد بن أسد، والأسود بن نُوْفَل بن خُوَيْلِد بن أسد، ويزيد بن زَمْعَة بن الأسود بن المطلب بن أسد. وعمرو بن أُمَيَّة بن الحارث بن أسد، أربعة نفر.

فانقطع إلى رسول الله - ﷺ - حتى هاجر إلى أرض الحبشة - كما ذكر ابن إسحاق - وأبوه سعيد بن الناصبي أبو أَحْنَحَة الذي يقول فيه القائل:

أبو أَحْنَحَة:

أبو أَحْنَحَة مَنْ يَغْتَمُّ عَمَّتَه يُضْرَبُ وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَذَا عَدَدٍ

المهاجرون من بني عبد بن قصي وعبد الدار ولدي قصي :

ومن بني عبد بن قصي : طليب بن عمير بن وهب بن أبي كثير بن عبد [بن قصي] رجل .

ومن بني عبد الدار بن قصي : مضعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وسويط بن سعد بن خزلة بن مالك بن عَمَيْلة بن السَّبَّاق بن عبد الدار، وجهم بن قيس بن عبد شَرْخَبِيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار معه امرأته أم خزلة بنت عبد الأسود بن جذيمة بن أَقَيْش بن عامر بن بِيَاضة بن سُبَيْع بن جُعْثَمَة بن سعد بن مُلَيْح بن عمرو، من خزاعة، وابناه: عمرو بن جهم وخزيمة بن جهم، وأبو الروم بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وفيراس بن الثَّضَر بن الحارث بن كَلْدَة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار، خمسة نفر .

المهاجرون من بني زهرة وبني هذيل وبهراء :

ومن بني زهرة بن كلاب: عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة، وعامر بن أبي وقاص، وأبو وقاص: مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة، والمطلب بن أزهر بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة، معه امرأته: رَمْلَة بنت أبي عوف بن ضُبيرة بن سُعيد بن سعد بن سَهْم، ولدت له بأرض الحبشة عبد الله بن المطلب .

ومن خلفائهم من هذيل: عبد الله بن مسعود بن الحارث بن شَمخ بن مَخْزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل، وأخوه: عَثْبَة بن مسعود .

وكان إذا اغْتَمَّ لم يعتَم قرشي إعظامًا له، وقد قيل في عِمَّتِهِ أيضًا ما أنشده عمرو بن بحر الجاحظ^(١) :

وكان أبو أحيحة قد علمتم	بمكة غير مُهْتَظَمٍ ذميم
إذا شَدَّ العَصَابَةَ ذاتِ يَوْمٍ	وقام إلى المجالس والخصوم
لقد حرمت على من كان يمشي	بمكة غير مُخْتَقِرٍ لثيم

مات أحيحة الذي كان يُكْنَى به في حرب الفَجَار، وأسلم من بنيه أربعة أَبَانٌ وخالدٌ

(١) في «البيان والتبيين» له الأبيات لأبي قيس بن الأسلت .

ومن بَهْرَاء: المِقْدَادُ بن عمرو بن ثَعْلَبَة بن مالك بن رَبِيعَة بن ثُمَامَة بن مَطْرُود بن عمرو بن سعد بن زُهَيْر بن لُؤي بن ثَعْلَبَة بن مالك بن الشَّرِيد بن أَبِي أَهْوَز بن أَبِي فَاثَش بن دُرَيْم بن الْقَيْن بن أَهْوَد بن بَهْرَاء بن عمرو بن الحاف بن قُضَاعَة.

قال ابن هشام: ويقال هَزَل بن فاس بن ذَر، وَدَهِير بن ثور.

قال ابن إسحاق: وكان يقال له: المِقْدَاد بن الأسود بن عَبْدِ يَعْقُوث بن وهب بن عَبْدِ مناف بن زُهْرَة، وذلك أنه تَبَّأه في الجاهلية، وحالفه، ستة نفر.

المهاجرون من بني تميم وبني مخزوم:

ومن بني تَيْم بن مَرَّة: الحارث بن خالد بن صَخْر بن عامر بن عمرو بن كَعْب بن سَعْد بن تَيْم، معه امرأته رَيْطَة بنت الحارث بن جَبَلَة بن عامر بن كَعْب بن سَعْد بن تَيْم، وَلَدَتْ له بأَرْض الحَبْشَة موسى بن الحارث، وعائشة بنت الحارث، وزينب بنت الحارث، وفاطمة بنت الحارث، وعمرُو بن عثمان بن عمرو بن كَعْب بن سَعْد بن تَيْم، رجُلان.

ومن بني مَخْزُوم بن يَقْظَة بن مَرَّة: أبو سَلَمَة بن عبد الأسد بن هِلَال بن عبد الله بن عمر بن مَخْزُوم، ومعه امرأته: أُم سَلَمَة بنت أَبِي أُمَيَّة بن المُنْغِيرَة بن عبد الله بن عُمَر بن مَخْزُوم، وَلَدَتْ له بأَرْض الحَبْشَة زينب بنت أَبِي سَلَمَة، واسم أَبِي سَلَمَة: عبد الله واسم أُم سَلَمَة: هند. وَشَمَّاس بن عثمان بن الشَّرِيد بن سُويد بن هَزْمِي بن عامر بن مَخْزُوم.

من سيرة الشماس:

قال ابن هشام: واسم شماس: عثمان، وإنما سُمِّي شَمَّاسًا؛ لأن شماسًا من الشماسَة، قَدِمَ مَكَّة في الجاهلية، وكان جميلًا فعجب النَّاس من جماله، فقال عَتْبَة بنُ رَبِيعَة - وكان خَالَ شماس: أنا آتَيْكُمْ بشماس أَحْسَن منه، فجاء بابن أخته عثمانَ بن عثمان، فسُمِّي: شَمَّاسًا. فَيَا ذَكَر ابْنُ شَهَاب وغيره.

قال ابن إسحاق: وَهَبَّار بن سفيان بن عبد الأسد بن هِلَال بن عبد الله بن عمر بن مَخْزُوم، وأخوه عبد الله بن سفيان، وهشام بن أَبِي حُذَيْفَة بن المُنْغِيرَة بن عبد الله بن

وعمرُو والحَكَم الذي سَمَّاه رسول الله - ﷺ - عبد الله، ومات أَحْنَعَة بن سعيد، والعاصي بن سعيد وغيرهما من بنيهِ على الكفر، قتل العاصي منهم يوم بدر كافرًا.

عُمَرُ بْنُ مَخْزُومٍ، وَسَلَمَةُ بْنُ هِشَامٍ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ، وَعِيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ.

المهاجرون من حلفاء بني مخزوم ومن بني جمح:

ومن حلفائهم: مُعْتَبٌ بْنُ عَوْفٍ بْنِ عَامِرٍ بْنِ الْفَضْلِ بْنِ عَفِيفٍ بْنِ كُليبٍ بْنِ حَبْشِيَةَ ابْنِ سُلُولٍ بْنِ كَعْبٍ بْنِ عَمْرِو، مِنْ خُزَاعَةٍ، وَهُوَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: عَيْهَامَةُ، ثَمَانِيَةُ نَفَرٍ.

قال ابن هشام: ويقال: حُبْشِيَةُ ابْنِ سُلُولٍ، وَهُوَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ مُعْتَبٌ بْنُ حَمْرَاءَ.

ومن بني جُمَحٍ بْنِ عَمْرِو بْنِ هُصَيْيَصٍ بْنِ كَعْبٍ: عِثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ بْنِ حَبِيبٍ بْنِ وَهَبٍ بْنِ خُذَافَةَ بْنِ جُمَحٍ، وَابْنُهُ: السَّائِبُ بْنُ عِثْمَانَ، وَأَخُوهُ: قُدَّامَةُ بْنُ مَظْعُونٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَظْعُونٍ، وَحَاطِبُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ مَعْمَرٍ بْنِ حَبِيبٍ بْنِ وَهَبٍ بْنِ خُذَافَةَ بْنِ جُمَحٍ، مَعَهُ امْرَأَتُهُ: فَاطِمَةُ بِنْتُ الْمُجَلَّلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَيْسٍ بْنِ عَبْدِ وَدٍّ بْنِ نَضَرَ بْنِ مَالِكٍ بْنِ جِشَلٍ بْنِ عَامِرٍ، وَابْنَاهُ: مُحَمَّدُ بْنُ حَاطِبٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ حَاطِبٍ، وَهُمَا لِبِنْتِ الْمُجَلَّلِ، وَأَخُوهُ: حَاطِبُ بْنُ الْحَارِثِ، مَعَهُ امْرَأَتُهُ فُكَيْهَةُ بِنْتُ يَسَارٍ، وَسُفْيَانُ بْنُ مَعْمَرٍ بْنِ حَبِيبٍ بْنِ وَهَبٍ بْنِ خُذَافَةَ بْنِ جُمَحٍ، مَعَهُ ابْنَاهُ جَابِرُ بْنُ سُفْيَانَ، وَجُنَادَةُ بْنُ سُفْيَانَ، وَمَعَهُ امْرَأَتُهُ حَسَنَةُ، وَهِيَ أُمُّهُمَا، وَأَخُوهُمَا مِنْ أُمِّهِمَا: شُرَحْبِيلُ ابْنُ حَسَنَةَ، أَحَدُ الْغَوْثِ.

قال ابن هشام: شُرَحْبِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَحَدُ الْغَوْثِ بْنِ مُرٍّ، أَخِي تَمِيمٍ بْنِ مُرٍّ.

المهاجرون من بني سهم وبني عدي وبني عامر:

قال ابن إسحاق: وَعِثْمَانُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ أَهْبَانَ بْنِ وَهَبٍ بْنِ خُذَافَةَ بْنِ جُمَحٍ، أَحَدُ عَشَرَ رَجُلًا.

أمة بنت خالد وأبوها:

وذكر أمة بنت خالد بن سعيد التي ولدت بأرض الحبشة، قال: وتزوجها الزبير بن العوام، وهي التي كساها رسول الله - ﷺ - وهي صغيرة، وجعل يقول: سَنَاءُ، سَنَاءُ يَا أُمَّ خَالِدٍ!! أَي: حَسَنٌ حَسَنٌ^(١) بلغة الحبشة، وكانت قد تعلمت لسان الحبشة؛ لأنها ولدت بأرضهم، وولدت للزبير عمرًا وخالدًا، يقال: إن أباهما خالد بن سعيد أول من كتب: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مات بأجنادين شهيدًا، وكان رسول الله - ﷺ - قد استعمله على صَنْعَاءَ

(١) أخرجه البخاري (٩٠/٤) وأبو داود والحاكم (٩٢٤/٢) وأحمد (٣٦٥/٦).

ومن بني سَهْم بن عمرو بن هُصَيص بن كَعْب: خَنيس بن حُذافة بن قَيْس بن عدي بن سعد بن سَهْم، وعبد الله بن الحارث بن قَيْس بن عدي بن سعد بن سهل، وهشام بن العاص بن وائل بن سعد بن سَهْم.

قال ابن هشام: العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سَهْم.

قال ابن إسحاق: وقَيْس بن حُذافة بن قَيْس بن عدي بن سعد بن سَهْم، وأبو قيس بن الحارث بن قَيْس بن حُذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سَهْم، وعبد الله بن حُذافة بن قَيْس بن عدي بن سعد بن سَهْم، والحارث بن الحارث بن قَيْس بن عدي بن سعد بن سَهْم، ومَعمر بن الحارث بن قَيْس بن عدي بن سعد بن سَهْم، وبِشْر بن الحارث بن قَيْس بن عدي بن سعد بن سَهْم، وأخ له من أمه من بني تميم، يقال له: سعيد بن عمرو، وسعيد بن الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سَهْم، والسائب بن الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سَهْم، وعُمير بن رِثاب بن حُذيفة بن مُهْشَم بن سعد بن سَهْم، ومَحْمِية بن الجزاء، حليف لهم، من بني زُبَيْد، أربعة عشر رجلاً.

ومن بني عدي بن كعب: مَعْمَر بن عبد الله بن نُضلة بن عبد العزى بن حُرثان بن عوف بن عُبيد بن عُويج بن عدي، وعروة بن عبد العزى بن حُرثان بن عوف بن عبيد بن عُويج بن عدي، وعدي بن نُضلة بن عبد العزى بن حُرثان بن عوف بن عُبيد بن عُويج بن عدي، وابنه النعمان بن عدي، وعامر بن ربيعة، حليف لآل الخطّاب، من عَثْر بن وائل، معه امرأته: ليلي بنت أبي حَثْمَة بن غانم. خمسة نفر.

ومن بني عامر بن لُؤَيٍّ: أبو سَبْرَة بن أبي رُهم بن عبد العزى بن أبي قَيْس بن عبد وُد بن نُضر بن مالك بن حِجْل بن عامر، معه امرأته: أم كلثوم بنت سُهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وُد بن نصر بن مالك بن حِجْل بن عامر، وعبد الله بن مَخْرمة بن عبد العزى بن أبي قَيْس بن عبد وُد بن نصر بن مالك بن حِجْل بن عامر، وعبد الله بن سُهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وُد بن نُضر بن مالك بن حِجْل بن عامر، وسَلِيط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وُد بن نُضر بن مالك بن حِجْل بن عامر، وأخوه: السَّكران بن عمرو، معه امرأته: سَوْدَة بنت رَمْعَة بن قَيْس بن

واليمن، فلما توفي رسول الله - ﷺ - أراد أبو بكر أن يستعمله، فقال: لا أعمل لأحدٍ بعد رسول الله - ﷺ - أبداً، ويُرَوَّى أن أباه سعيد بن العاصي مرض، فقال: إن رفعني الله من مرضي لا يعبد إله ابن أبي كَبْشَة بمكة أبداً، فقال ابنه خالد: اللَّهُمَّ لا ترفعه فهلك مكانه، فهؤلاء بنو سعيد بن العاصي بن أمية:

عبد شمس بن عبد ود بن نضر بن مالك بن حنسل بن عامر، ومالك بن زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نضر بن مالك بن حنسل بن عامر، معه امرأته: عمرة بنت السعدية بن وقدان بن عبد شمس بن عبد ود بن نضر بن مالك بن حنسل بن عامر، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حنسل بن عامر، وسعد بن خولة، حليف لهم. ثمانية نفر.

قال ابن هشام: سعد بن خولة من اليمن.

المهاجرون من بني الحارث:

قال ابن إسحق: ومن بني الحارث بن فهر: أبو عبيدة بن الجراح، وهو: عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر، وسهيل ابن بيضاء، وهو: سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث، ولكن أمه غلبت على نسبه، فهو ينسب إليها، وهي: دعد بنت جحدم بن أمية بن ظرب بن الحارث بن فهر، وكانت تدعى: بيضاء، وعمرو بن أبي سرح بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث، وعياض بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث، ويقال: بل ربيعة بن هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث، وعمرو بن الحارث بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث، وعثمان بن عبد غنم بن زهير بن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث، وسعد بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن ظرب بن الحارث بن فهر، والحارث بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن ظرب بن الحارث بن فهر. ثمانية نفر.

عبد شمس:

وعثمان: هو ابن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، ولا يختلف في عبد شمس أنه بالدال، وأما عب شمس بن سعيد بن زيد مناة بن تميم، فقال فيه أبو عبيد والفتبي: عبد شمس كما في الأول. وقال أكثر الناس فيه: عب شمس، ثم اختلفوا في معناه، فقليل، معناه: عبد شمس، لكن أدغمت الدال، وقيل: بل [عب شمس و] عب الشمس هو ضوؤها أو صفاؤها، وقيل في المثل: هو أبرد من عبقر أي: البرد، وبعضهم يقول: وهو المبرد: من عب قر أي: بياض قر، ومن حب قر أيضًا. وفيه قول ثالث: أعني: عب شمس. وهو مروى عن ابن عمر. وقال معناه: عب شمس بالهمز. ثم حذفت الهمزة تسهيلًا. وعب شمس. وعبوها مثله.

عدد الذين هاجروا إلى الحبشة

فكان جميع مَنْ لحق بأرض الحبشة، وهاجر إليها من المسلمين، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغارًا وولدوا بها، ثلاثة وثمانين رجلاً، إن كان عَمَّار بن ياسر فيهم، وهو يُشكّ فيه.

من شعر الهجرة الحبشية

وكان مما قيل من الشعر في الحبشة، أن عبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سَهْم، حين أمنوا بأرض الحبشة، وحمدوا جِوار النجاشي، وعبدوا الله، لا يخافون على ذلك أحدًا، وقد أحسن النجاشي جوارهم حين نزلوا به، قال:

يا راكبًا بَلَعَن عَنِّي مُغْلَغَلَةً مَن كَانَ يَرْجُو بِلَاغَ اللَّهِ وَالِدِينَ

عَمَّار لم يهاجر إلى الحبشة

وشك ابن إسحق في عَمَّار بن ياسر: هل هاجر إلى أرض الحبشة، أم لا. والأصح عند أهل السِّيَر كالواقدي وابن عُقْبَةَ. وغيرهما أنه لم يكن فيهم.

حول بني الحارث بن قيس:

وذكر ابن إسحق من بني الحارث بن قيس مَنْ هاجر إلى أرض الحبشة، ولم يذكر فيهم تميم بن الحارث. وذكره الواقدي وغيره. والحارث بن قيس كان أبوه من المستهزئين الذي أنزل الله فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

حول بني زهرة وطليب بن عبد:

وذكر من بني زُهْرَةَ مَنْ هاجر إلى أرض الحبشة، وهم ستة نفر، ولم يذكر السابع، وهو: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَهَابٍ جَدُّ مُحَمَّدٍ بْنِ مُسْلِمٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَهَابِ الزَّهْرِيِّ، وكان اسمه: عبد الجان، فسماه رسول الله ﷺ: عبد الله مات بمكة بعد الفتح وأخوه: عبد الله الأصغر شهد أخذًا مع المشركين، ثم أسلم.

وذكر المطلب بن عبد عوف ولم يذكر أخاه طليبا، وكلاهما هاجر إلى أرض الحبشة، ومات فيها، وهما أخوا أزهْرَ بْنَ عَبْدِ عَوْفٍ.

من شعر الهجرة الحبشية ومسائله النحوية

فصل: وأنشد لعبد الله بن الحارث ما قاله في أرض الحبشة، وفيه قوله:

كل امرئ من عباد الله مضطهد
أنا وجَدنا بلادَ الله واسِعةً
فلا تُقيموا على ذلِّ الحياة، وجرَّ
إنَّا تَبِعنا رسولَ الله، وأطرحوا
فاجعل عذابك بالقوم الذين بَعَوْا
ببَطْنِ مَكَّةَ مَفْهُورٍ وَمَفْتُونٍ
تُنْجِي من الذلِّ وَالْمَخْزَاةِ وَالْهُونِ
ي في الَمَمَاتِ، وَعَيْبٍ غيرِ مأمونٍ
قول النَّبِيِّ، وعَالُوا في الْمَوَازِينِ
وعائِذَا بك أَن يَغْلُوا فَيُطْغُونِي

أَلْحَقْ عَذَابَكَ^(١) بِالْقَوْمِ الَّذِينَ طَغَوْا وَعَائِذَا بك أَن يَغْلُوا فَيُطْغُونِي

أنشده سيبويه فيما ينتصب على الفعل المتروك إظهاره، وذلك لحكمة، وهي أن الفعل لو ظهر لم يخل أن يكون ماضيًا أو مستقبلًا، فالماضي يوهم الانقطاع، والمتكلم إنما يريد أنه في مقام العائد، وفي حال عود، والفعل المستقبل أيضًا يؤذن بالانتظار، وفعل الحال مشترك مع المستقبل في لفظ واحد، وذلك يوهم أنه غير عائد، فكان مجيئه بلفظ الاسم المنسوب على الحال أدل على ما يريد، فإن عائِذَا كقائم وقاعد، وهو الذي يسمى عند الكوفيين: الدائم، فالقائل: عائِذَا بك يا رب، إنما يريد: أنا في حال عِيَاذ بك، والعامل في هذه الحال: تكلمه وندائه، أي: أقول قولي هذا عائِذَا، وليس تقديره: عدت ولا أعود، إنما يريد أن يسمعه ربه، أو يراه عائِذَا به.

وقوله: أن يعلو يجوز أن تكون أن مع ما بعدها في موضع نصب، وفي موضع خفض عند النحويين، أما النصب فعلى إضمار الفعل، لأنه قال: عائِذَا، فأعلم أنه خائف، فكأنه قال: أخاف أن يعلو فيطغوني، وأما خفض فعلى إضمار حرف الجر، فكأنه قال: من أن يعلو، وهو مذهب الخليل وسيبويه في أن المخففة وأن المشددة نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذِهِ أُمُتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢] تقديره: لأن هذه، وجاز إضمار حرف الجر في هذين الموضعين، وإن كانت حروف الجر لا تضم، لأنهما موصولتان بما بعدهما، فطال الاسم بالصلة، فجاز حذف الجر تخفيفًا.

ولقائل أن يقول: هذه دعوى ادعيتم أن أن وما بعدها اسم مخفوض، وهو لا يظهر فيه الخفض، ثم ينتمى التعليل على غير أصل؛ لأن الخفض لم يثبت بعد، فنقول: إنما علمنا أنه في موضع خفض لوقوعه في موضع لا يقع فيه إلا المخفوض بحرف الجر نحو قوله سبحانه: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٩٧] ونحو قوله تعالى: ﴿أَحَقُّ أَنْ

(١) تقدم أنها: فاجعل عذابك.

وقال عبد الله بن الحارث أيضًا، يذكر نفي قريش إياهم من بلادهم، ويعاتب بعض قومه في ذلك :

أبث كَبِدِي لا أَكْذِبُنْكَ قَتَالَهُمْ عَلِيَّ، وتَأْبَاه عَلِيَّ أَنَامِلِي

تقوم فيه ﴿[التوبة: ١٠٨] ونحو قوله: ﴿أَنْ تَصِلَ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨]. فقوله تعالى: ﴿أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا﴾، معناه: بأن لا يعلموا، فلو كان قبل أَنْ فِعْلٌ لقلنا: حذف حرف الجر، فتعدى الفعل، فنصب، ولكن أجدر وأحق اسمان لا يعملان، فمن ههنا عرف النحويون أنه في موضع خفض؛ إذ لا ناصب له، وأما ما اعتلوا به من طول الاسم بالصلة، وأن ذلك هو الذي سَوَّغَ لهم إضمار حرف الجر، فتعليل مدخول، ينتقض عليهم بالأسماء الموصولة كالذي ومن وما، فإنها قد طالت بالصلة، ومع ذلك لا يجوز إضمار حرف الجر فيها، لا تقول: خرجت ما عندك، ولا هربت الذي عندك أي: من الذي عندك، وتقول: خرجت أن يراني زيد، وفررت أن يراني عمرو، أي: من أن يراني، ولأن يراني بدل، على أن العلة غير ما قالوا، وهي أنْ أَنْ مع الفعل ليس باسم محض، وإنما هو في تأويل اسم، والاسم المحض ما دلَّ عليه حرف الجر، فلا بدَّ إِذَا من إظهار حرف الجر إذا جئت به؛ لأنه اسم قابل لدخول الخوافض عليه، وأما أَنْ فحرف محض لا يصحَّ دخول حرف جرٍّ عليه، ولا على الفعل المتصل به فلا تقول: هو اسم مخفوض، إنما هو في تأويل اسم مخفوض، فمن ههنا فرقت العرب بينه، وبين غيره من الأسماء، فإذا أدخلت عليه حرف الجر مظهرًا جاز، لأنه في تأويل اسم، وإذا أضمرت حرف الجر جاز أيضًا التفاتًا إلى أن الحرف الجر لا يدخل على الحرف، ولا على الفعل فحسن إسقاطه مراعاة للفظ أَنْ، وللفعل الفعل، وقلنا: هو في موضع خفض على معنى أن الكلام يؤوّل إلى الاسم المخفوض، لا أنه يظهر فيه خفض، أو يقدّر تقدير المبني الذي منعه البناء من ظهور الخفض فيه، حتى يشبه أَنْ فنقول: هو اسم مبني على السكون، لا بل نقول: هي حرف، والحرف لا يدخل عليه حرف الجر، لا مضمراً ولا مظهرًا، وإنما هو تقدير في المعنى، لا في اللفظ، فافهمه.

لا يضاف اسم إلى أن المصدرية:

فصل: واعلم أنَّ [أَنْ] التي في تأويل المصدر لا يضاف إليها اسم. تقول: هذا موضع أن تقعد ويوم خروجك، ولا تقول: يوم أن تخرج؛ لأنها ليست باسم كما قدّمنا، وإنما تضاف إلى الأسماء المحضة، لا إلى التأويل، ولا يضاف إليها أيضًا اسم الفاعل، لا بمعنى المُضِيّ، ولا بمعنى الاستقبال، ولا المصدر إلا على وجه واحد نحو: مخافة أن تقوم، وذلك إذا أردت معنى المفعول بأن وما بعدها، وأما على نحو إضافة المصدر إلى الفاعل، فلا يجوز ذلك.

وَكَيْفَ قِتَالِي مَغْشَرًا أَذْبُوكُمْ على الحق أن لا تأشبهه بباطل
نَقْتَهُمْ عِبَادُ الْجَنِّ مِنْ حَزْرٍ أَرْضِهِمْ فأضحوا على أمر شديد البلبال
فإن تك كانت في عدي أمانة عدي بن سعد عن ثقي، أو تواصل

وإنما تكون فاعلة مع الفعل إذا ذكرته قبلها نحو: يسرني أن تقوم، وأما مع المصدر مضافاً إليها فلا، وتكون مفعولة مع المصدر ومع الفعل معاً، وكل هذا الأسرار بديعة موضعها غير هذا، لكنني أقول ههنا قولاً لائقاً بهذا الموضع، فإني لم أذكر الخفض بإضمار حرف الجر، في أن وإن إلا مساعدة لمن تقدم، فعليه بنيت التعليل والتأصيل، وإذا آيت من التقليد فلا إضمار لحروف الجر فيها، إنما هو النصب بفعل مضمر أو مظهر، أما قوله تعالى: ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ فإنما لما قال أحق علم أنه يوجب عليه أن يقوم فيه، وكذلك أجدر ألا يعلموا، ومعنى أجدر: أخلق وأقرب، ولما ثبتت لهم هذه الصفة اقتضى ذلك ألا يعلموا؛ فصار منصوباً في المعنى، ولو جئت بالمصدر الذي هو اسم محض نحو: القيام والعلم لم يصح إضمار هذا الفعل؛ لأن أجدر وأحق ونحوهما اسمان يضافان إلى ما بعدهما، فلو جئت بالقيام بعد قولك أحق، فقلت: أحق قيامك، لانقلب المعنى.

ولو نصبته بإضمار الفعل الذي أضمرت مع أن لم يكن دليل عليه؛ لأن الاسم يطلب الإضافة، فيمنع من الإضمار والنصب، وإذا وقعت بعده لم يطلب الإضافة؛ لما قدّمناه من امتناع إضافة الأسماء إليها، وإنما اخترنا هذا المذهب، وأثرناه على ما تقدم من إضمار الخافض؛ لأننا قد نجدّها في مواضع مجرورة، ولا يجوز إضمار حرف الجر، كقولك: سر إلى أن تطلع الشمس، ولا يجوز إضمار إلى ههنا، وكذلك تقول: هذا خير من أن تفعل كذا، ولا يجوز أيضاً إضمار من، ولو كان حرف الجر معها للعلتين المتقدمتين لا طرد جواز ذلك فيها على الإطلاق، وإنما هي أبداً إذا لم يكن معها حرف الجر ظاهراً مفعولة بفعل مضمر، وقد تكون فاعلة، ولكن بفعل ظاهر نحو: يعجبني أن تقوم، وأما خرجت أن أرى زيداً فعلى إضمار الإرادة والقصد، كأنك أردت: أن أراه، أو أن لا أراه؛ لأن كلّ من فعل فعلاً، فقد أراد به أمراً ما، لكنك إن جعلت مكانها المصدر لم يجز الإضمار أو قبح؛ لأن المصدر تعمل فيه الأفعال الظاهرة إذا كانت متعدية، وتصل إليه بحرف جر إذا لم تكن متعدية، وأن مع الفعل لا تعمل فيها الحواس ولا أفعال الجوارح الظاهرة، تقول: رأيت قيام زيد، ولا تقول: أن يقوم، وسمعت كلامك، ولا تقول: سمعت أن تتكلم، وإنما يتعلق بها، وتعمل فيها الأفعال الباطنة نحو: خفت واشتبهت وكرهت، وما كان في معنى هذا أو قريباً منه، فإذا سمع المخاطب أن مع الفعل لم يذهب وَهْمُهُ بحكم العادة إلا إلى هذه المعاني، فإن كانت ظاهرة فذاك، وإلا اعتقدنا أنها مضمرة، وأن الفعل الظاهر دالٌّ عليها،

فقد كنتُ أرجو أن ذلك فيكم
وبُذلت شِبلاً شِبلاً كل خبيثة
بحمد الذي لا يُطبى بالجَعائل
بذي قَجَرٍ مأوى الضعاف الأرامل
وقال عبد الله بن الحارث أيضاً:

وتلك قُرَيْشٌ تَجَحَّدُ الله حقّه
فإن أنا لم أبرق فلا يَسَعُنِي
كما جَحَدت عادٌ ومدينٌ والحِجْرُ
من الأرض برّ ذو فضاء ولا بحر

وغيرها من الأسماء ليس كذلك، إذا وقع قبلها فعل من أفعال الجوارح الظاهرة، وقع عليها إن كان متعدياً أو وُصل بحرف، إن كان غير متعدٍّ، ومنع من الإضمار أنه لفظي، والإضمار معنوي إلا في باب للمفعول من أجله، وقد قدّمنا فيه سرّاً بديعاً فيما سبق من هذا الكتاب.

فصل: وأنشد لعبد الله بن الحارث شعراً فيه:

كما جَحَدت عادٌ ومدينٌ والحِجْرُ

أما عاد فقد تقدم نسبها، وأما الحِجْرُ فليست بأمة، ولكنها ديار ثمود. أراد: أهل الحجر، وأما مَدِينٌ فأمة شعيب، وهم بنو مديان بن إبراهيم عليه السلام، وأمهم: قطورا بنت يَظْطَان الكنعانية، ولدت له ثمانية من الولد تناسلت منهم أمم، وقد سَمِيناهم في كتاب التعريف والإعلام، وفي أول هذا الكتاب.

وفيه أيضاً قوله: فإن أنا لم أبرق فلا يَسَعُنِي. البيت، قال: وبه سمي المُبْرَق، قال المؤلف: وفي هذا حجة على الأَضْمَعِي حين منع أن يقال: أرعد وأبرق، وذكر له قول الكُمَيْت:

أزْعَد وأبرق يا يزيد

فلم يره حجة، [وقال: الكميت جُزْمَقَانِي من أهل الموصل] ليس بحجة، وألحقه بالمحدثين لتأخر زمانه، كما فعل بذي الرُّمّة حين احتجّ عليه بقوله:

ذو زَوْجَةٍ بالمِضَرِّ أم ذو خُصُومَةٍ

فأبى أن يقول: زوجة بهاء التأنيث، وقال: طالما أكل ذو الرُّمّة الزيت في حوانيت البقالين، وبيت المُبْرَق في هذا حجة بلا خلاف، وقد وجد أزْعَد وأبرق في غير هذا البيت، مما تقوم به الحجة أيضاً، وبيت المُبْرَق هذا يحتمل وجهاً آخر، وهو أن يكون من أبرق في الأرض إذا ذهب بها لا من أرعد وأبرق، وكذلك وجدته في حاشية كتاب الشيخ على هذا البيت منسوباً للمُضْعَب، قال: الإبراق: الذهاب، وفي العين: أبرقت الناقة بذنبها إذا ضربت

بأَرْضٍ بِهَا عَبْدُ الْإِلَهِ مُحَمَّدٌ أَبَتَيْنِ مَا فِي النَّفْسِ إِذْ بَلَغَ الثَّقُرُ
فَسَمِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - لَبِيْتَهُ الَّذِي قَالَ: الْمُبْرَقُ.

وقال عثمان بن مظعون يُعَاتِبُ أُمَيَّةَ بْنَ خَلْفِ بْنِ وَهْبِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ جُمَحٍ، وَهُوَ
ابْنُ عَمِّهِ، وَكَانَ يُؤْذِيهِ فِي إِسْلَامِهِ، وَكَانَ أُمَيَّةَ شَرِيفًا فِي قَوْمِهِ فِي زَمَانِهِ ذَلِكَ:
أَتَيْمَ بْنَ عَمْرِو بْنِ لَيْلَى جَاءَ بِغَضَةٍ وَمِنْ دُونِهِ الشُّرَمَانِ وَالْبَرْكَ أَكْتَعُ

بِهِ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَهُوَ فِي مَعْنَى الذَّهَابِ فِي الْأَرْضِ، لِأَنَّهُ جَوْلَانٌ فِيهَا، وَهِيَ الْبَرْقُ، قَالَ
نَهْشَلُ بْنُ دَارِمٍ لِأَخِيهِ سَلِيطٍ - وَقَدْ لَامَهُ عَلَى تَرْكِ الْكَلَامِ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ: لَا أَحْسَنَ
تَأَنَّمَكُ، وَلَا تَكْذَابَكَ، تَشُولُ بِلِسَانِكَ شَوْلَانُ الْبَرْقُ. وَذَكَرَ فِي الشَّعْرِ:

يَلِينُ مَا فِي النَّفْسِ إِذْ بَلَغَ الثَّقُرُ

وَيُرَوَّى: يُلَيْنُ مَا فِي الصَّدْرِ. وَالثَّقُرُ: الْبَحْثُ عَنِ الشَّيْءِ، وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ فِيهِ: التَّنْقِيرُ،
وَاسْتَشْهَدَ عَبْدُ اللَّهِ الْمُبْرَقُ فِي غَزْوَةِ الطَّائِفِ، وَكَانَ أَبُوهُ الْحَارِثُ مِنَ الْمُسْتَهْزِئِينَ، وَكَانَ جَدُّهُ
قَيْسُ أَعَزُّ قَرِيشٍ فِي زَمَانِهِ، يُرَوَّى أَنَّ عَبْدَ الْمَطْلَبِ كَانَ يُنْقِزُ ابْنَهُ عَبْدَ اللَّهِ، وَالِدَ رَسُولِ
اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ طِفْلٌ، فَيَقُولُ:

كَأَنَّهُ فِي الْعِزِّ قَيْسُ بْنُ عَدِيٍّ فِي دَارِ قَيْسِ التُّدِيِّ يَنْتَدِي
قَالَ الزَّبِيرُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ.

حول لام التعجب:

فصل: وذكر شعر عثمان بن مظعون:

أَتَيْمَ بْنَ عَمْرِو بْنِ لَيْلَى جَاءَ بِغَضَةٍ

أَرَاهُ: عَجَبًا لِلَّذِي جَاءَ، وَالْعَرَبُ تَكْتَفِي بِهَذِهِ اللَّامِ فِي التَّعَجُّبِ، كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ:
لِهَذَا الْعَبْدِ الْحَبَشِيِّ جَاءَ مِنْ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا، قَالَ فِي عَبْدٍ حَبَشِيٍّ
دُفِنَ بِالْمَدِينَةِ، وَقَالَ فِي جَنَازَةِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَهُوَ وَقَفَ عَلَى قَبْرِهِ، وَتَقَهَّقَ ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَ
اللَّهِ لِهَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ ضُمَّ عَلَيْهِ الْقَبْرُ ثُمَّ فُرِجَ عَنْهُ، وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾
أَقْوَالُ مِنْهَا: أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِمَعْنَى التَّعَجُّبِ، كَأَنَّهُ قَالَ: اعْجَبُوا لِإِلَافِ قُرَيْشٍ، وَبِغَضَةٍ نُصِبَ
عَلَى التَّمْيِيزِ كَأَنَّهُ قَالَ: يَا عَجَبًا لَمَّا جَاءَ بِهِ مِنْ بَغْضَةٍ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا مِنْ أَجْلِهِ،
وَرَوَى الزَّبِيرُ هَذَا الْبَيْتَ:

أَتَيْمَ بْنَ عَمْرِو بْنِ لَيْلَى فَارِضُغُتُهُ

أَخْرَجْتَنِي مِنْ بَطْنِ مَكَّةَ آمِنًا وَأَسْكَنْتَنِي فِي صَرْحٍ بِيضَاءَ تَقْدَعُ
تَرِيشَ نِبَالًا لَا يُوَاتِيكَ رِيشُهَا وَتُبْرِي نِبَالًا رِيشُهَا لَكَ أَجْمَعُ

من معاني شعر ابن مظعون:

وكذلك رُوِيَ في هذا الشعر: في صرح بَيْطَاءَ تُقْدَعُ بالطاء وفتح الباء وكسرهما، وقال بَيْطَاءُ: اسم سفينة، وتُقْدَعُ بالبدال، أي: تدفع، وزعم أن تَيْمَ بن عمرو وهو جُمَحَ سُمَيَّ جُمَحًا؛ لأن أخاه سهم بن عمرو - وكان اسمه زيدًا - سابقه إلى غاية، فَجَمَحَ عَنْهَا تَيْمَ، فَسُمَيَّ جُمَحًا، ووقف عليها زيد، فقليل: قد سَهَمَ^(١) زَيْدٌ فَسُمَيَّ: سَهَمًا.

وقوله: ومن دوننا الشَّرْمَان. الشَّرْم: البحر، وقال الشَّرْمَان بالتثنية؛ لأنه أراد البحر المِلْحَ، والبحر العَذْبَ، وفي التَّنْزِيل: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ والشَّرْمُ من: شَرَمْتُ الشيء إذا خَرَقْتُهُ، وكذلك البحر من بَحَزْتُ الأرض إذا خرقتها، ومنه سُمِيَتِ الْبَحِيرَةُ لَخَرَقِ أَذُنُهَا وَالْبَرْكُ: ما اطمأن من الأرض واتسع، ولم يكن متصبًا كالجبال.

وقوله: في صرح بيضاء. يريد: مدينة الحبشة، وأصل الصُّرْح: القصر، يريد: أنه ساكن عند صَرْحِ النَّجَاشِيِّ.

وقوله: تُقْدَعُ أي: تُكْرَهُ، كأنه من أقذعت الشيء، إذا صادفته قَذَعًا ويقال أيضًا: قَذَعْتُ الرجلَ إذا رميته بالفحش، يريد أن أرض الحبشة مقذوعة، وأحسب هذه الرواية تصحيحًا، والصحيح: ما قدمناه من قول الزبير وروايته، وأنه بَيْطَاءُ بالطاء، وتُقْدَعُ بالبدال.

وقوله: وأسلمك الأوباش يريد أخلاطًا من النحاس، يقال: أوشاب وأوباش، والأوباش أيضًا شجر متفرق، والوَبْشُ بياض في أظفار الأحداث.

أنساب:

وذكر فيمن هاجر إلى أرض الحبشة من بني عدي: مَعْمَر بن عبد الله بن نَضْلَةَ، وقال فيه عليُّ بن المَدِينِي: إنما هو: مَعْمَر بن عبد الله بن نافع بن نَضْلَةَ.

وقال ابن إسحاق: نَضْلَةُ بن عبد العزى بن حُرْثَانَ بن عَوْف بن عُبَيْد وفي حاشية كتاب الشيخ قال: إنما هو نَضْلَةُ بن عوف بن عُبَيْد بن عُوَيْج، وذكر أنه قولٌ مضعَّب في كتاب

(١) سهم: السين والهاء والميم أصلان. أحدهما يدل على تغير في اللون، والآخر على حظ ونصيب وشيء من الأشياء. فالسهمَةُ النصيب. ويقال: أسهم الرجلان: إذا اقترعا، وذلك من السهمَة، والنصيب والفوز. مقياس اللغة (١١١/٣).

وحَارَبْتَ أَقْوَامًا كِرَامًا أَعِزَّةَ وأَهْلَكَتْ أَقْوَامًا بِهِمْ كُنْتَ تَفْزَعُ
سَتَعْلَمُ إِنَّ نَابِثَكَ يَوْمًا مُلِمَّةَ وَأَسْلَمَكَ الْأَوْيَاشَ مَا كُنْتَ تَصْنَعُ

النسب^(١). وذكر في بني عَدِيٍّ: عُرْوَةُ بن عَبْدِ الْعُزَّى بن حُرْثَانَ، كذا في كتاب المصعب إلا أنه قال: عمرو بن أَبِي أَثَاثَةَ أو عُرْوَةُ بن أَبِي أَثَاثَةَ على الشُّكِّ وذكره أَبُو عُمَرَ في كتاب الاستيعاب فقال فيه: عروة بن أَبِي أَثَاثَةَ ويقال ابن أَثَاثَةَ بن عبد العزى بن حُرْثَانَ، قال: وأمه، أم عمرو بن العاصي، فهو أخوه لأم^(٢).

قال المؤلف: وأمهما اسمها: ليلى، وتلقب بالنابغة، وهي من بني ربيعة ثم من بني جَلَاءَنَ قال أبو عمر: ويقال فيه: ابن أَبِي أَثَاثَةَ، قال المؤلف: وقد قَدَّمْنَا أن المصعب الزبيري شك فيه، فقال: عروة، أو عَمْرُو، وأما الزبيري: فقال عمرو بن أَبِي أَثَاثَةَ، ولم يشك، ثم قال أبو عمر: لم يذكره ابن إسحق فيمن هاجر إلى أرض الحبشة، وذكره الواقدي، وأبو معشر وموسى بن عقبة، قال المؤلف: وهذا وهم من أَبِي عمر - رحمه الله - فإن ابن إسحق ذكره فيهم، غير أنه نسبته إلى جده عبد الْعُزَّى، وأسقط اسم أبيه أَبِي أَثَاثَةَ، وقال حين ذكر من هاجر من بني عدي بعد ما عَدَّهم خمسة، قال: أربعة نفر، وهو وهم من ابن إسحق، وذكر فيهم مع الخمسة: ليلى بنت أَبِي حَثْمَةَ امرأة عامر بن ربيعة، فهم على هذا ستة، غير أنه يحتمل أنه يريد أربعة نفر دون حليفهم عامر، وما أظنه قصد هذا؛ لأن من عادته أن يعدّ الحلفاء مع الصميم؛ لأن الدعوة تجمعهم.

أم سلمة:

وذكر أم سَلَمَةَ وبعولها أبا سلمة، توفي عنها بالمدينة، وخلف عليها رسول الله - ﷺ - وذكر اسمها هذا، وقيل في اسمها: رملة^(٣)، وأبوها أبو أمية اسمه: حُذَيْفَةُ يُعْرَفُ بَزَادِ الرَّاكِبِ.

وذكر أنها ولدت بأرض الحبشة زينب بنت أبي سلمة، وكان اسم زينب بَرَّةَ، فسماها رسول الله - ﷺ - زينب، كانت زينب هذه عند عبد الله بن زُمَعَةَ، وكانت قد دخلت على رسول الله - ﷺ - وهو يغتسل، وهي إذ ذاك طفلة، فَتَضَخَّ في وجهها من الماء، فلم يزل ماء الشباب في وجهها، حتى عجزت وقاربت المائة، وكانت من أفقه أهل زمانها، وأدركت

(١) انظر نسب قريش للزبيري (٣٨٢/٣٨٦) والجمهرة لابن حزم (١٤٧).

(٢) انظر نسب قريش (٤٠٩/٣٨١).

(٣) وفي الإصابة: هند.

وتيم بن عمرو، الذي يدعو عثمان، جمع، كان اسمه: تَيْمًا.

وقعة الحرّة بالمدينة^(١)، وقتل لها في ذلك اليوم ولدان، اسم أحدهما: كبير، والآخر: يزيد بن عبد الله بن زَمْعَة، فكانت تبكي على أحدهما: ولا تبكي على الآخر، فسُئِلَتْ عن ذلك، فقالت: أبكيه لأنه جَرَد سيفه وقاتل، والآخر لا أبكيه لأنه لزم بيته، وكَفَّ يده حتى قُتِل، وَرُوِيَ أن رسول الله - ﷺ - حين ابتنى بأُم سلمة دخل عليها بيتها في ظلمة، فوطئ على زينب، فبكت، فما كان من الليلة الأخرى دخل في ظلمة أيضًا، فقال: «أَنْظَرُوا زُنَابَكُم أن لا أطا عليها»، أو قال: «أَخْرُوا» ذكره الزبير، وفي هذا الحديث تَوْهين لرواية مَنْ روى أنه كان يرى بالليل، كما يرى بالنهار.

النور الذي كان على قبر النجاشي:

فصل: وذكر حديث عائشة: «كُنَّا نتحدَّث أنه لا يزال يُرى على قبر النجاشي نور»^(٢)، وقد خرَّجه أبو داود من طريق سَلَمَة بن القُضَل، وعن ابن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عائشة، وأورده في باب: النور يُرى عند الشهيد، وليس في هذا الحديث ولا غيره ما يدل على أن النجاشي مات شهيدًا، وأحسبه أراد: أن يشهد بهذا الحديث ما وقع في كتب التاريخ من أن عبد الرحمن بن ربيعة أخا سلمان بن ربيعة الذي يقال له: ذو النور، وكان على باب الأبواب فقتله الترك زمان عمر، فهو لا يزال يُرى على قبره نور، وبعض هذا حديث النجاشي، يقول: فإذا كان النجاشي - وليس بشهيد - يُرى عنده نور، فالشهيد أخرى بذلك لقول الله سبحانه: ﴿وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾^(٣) [الحديد: ١٩].

(٢) «ضعيف». أخرجه أبو داود (٢٥٢٣) موقوفًا.

(١) عام ٦٣ هـ.
(٣) الأوجه لربط هذا بذاك.

إرسال قريش إلى الحبشة في طلب المهاجرين إليها^(١)

قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله - ﷺ - قد أمنوا، واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارًا وقرارًا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جُلدين إلى النجاشي، فيردّهم عليهم؛ ليُفْتَنُوهم في دينهم، ويُخْرِجُوهم من دارهم، التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقتة، ثم بعثوهما إليه فيهم.

فقال أبو طالب - حين رأى ذلك من رأيهم وما بعثوهما فيه - آياتًا للنجاشي يحضّهُ على حُسن جوارهم، والدَّفْع عنهم:

ألا ليت شعري كيف في الثأني جعفرُ وعمرو وأعداء العدو الأقاربُ
وهل نالت أفعال النجاشي جعفرًا وأصحابه أو عاق ذلك شاغب

إرسال قريش إلى النجاشي في أمر أصحاب النبي ﷺ

ذكر ابن إسحاق أنهم أرسلوا عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة، وأهدوا معهما هدايا إلى النجاشي. وعبد الله بن أبي ربيعة هذا كان اسمه بجيرا، فسماه رسول الله - ﷺ - حين أسلم: عبد الله، وأبوه: أبو ربيعة ذو الرمحين، وفيه يقول ابن الزُبَيْر:

بحيرا بن ذي الرمحين قُرب مجلسي وراح علينا فضلُه وهو عاتم

(١) انظر المتظم (٣٨٠/٢) الكامل (٥٩٨/١) سير أعلام النبلاء (١٥١/١) فتح الباري (١٤٨/٧).

تعلّم - أبيت اللعن - أنّك ماجدٌ كريمٌ فلا يشقى لديك المُجانب
تعلّم بأنّ اللّة زادك بسطةً وأسبابٌ خيرٌ كلّها بك لازب
وأنتك فيضٌ ذو سجال غزيرة ينال الأعادي نفعها والأقارب

قال ابن إسحق: حدّثني محمد بن مُسلم الزُّهري عن أبي بَكْر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المُغيرة زوج رسول الله ﷺ، قالت: لما نزلنا أرض الحبشة، جاؤنا بها خير جارٍ: النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤذِي، ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جَلَدَيْن، وأن يُهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارفته بطريقًا إلا أهدوا له هديّة، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة، وعُمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يُسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم. قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار،

واسم أبي ربيعة: عُمرو، وقيل: حُذَيْفَةُ، وأم عبد الله بن أبي ربيعة: أسماء بنت مُخَرَّبَةَ التميمية، وهي أم أبي جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي ربيعة هذا هو والد عُمرو بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر، ووالد الحارث أمير البصرة المعروف بالقُبّاع، وكان في أيام عمر واليًا على الجند، وفي أيام عثمان، فلما سمع بحصر عثمان، جاء لينصره، فسقط عن دابته فمات.

عمارة بن الوليد بن المغيرة:

فصل: وكان معهما في ذلك السفر عمارة بن الوليد بن المغيرة الذي تقدم ذكره حين قالت قريش لأبي طالب: خذ عمارة بدلاً من محمد، وادفع إلينا محمدًا نقتله، وكان عمارة من أجمل الناس، فذكر أصحاب الأخبار أنهم أرسلوه مع عمرو بن العاصي إلى النجاشي، ولم يذكره ابن إسحق في رواية ابن هشام، وذكر حديثه مع عمرو في رواية يونس، ولكن في غير هذه القصة المذكورة ههنا، ولعل إرسالهم إياه مع عمرو، كان في المرة الأخرى التي سيأتي ذكرها في السيرة عند حديث إسلام عمرو، ومِمَّن ذكر قصة عمارة بطولها أبو الفرج الأصبهاني، وذكر أن عُمروًا سافر بامرأته، فلما ركبوا البحر، وكان عمارة قد هَوِيَ امرأة عُمرو وهَوَيْته، فعزما على دفع عمرو، أو كان ذلك من عمارة على غير قصد فدفع عُمروًا، فسقط في البحر، فسبح عمرو، ونادى أصحاب السفينة فأخذوه، ورفعوه إلى السفينة،

فلم يبق من بطارقتِه بِطريقٍ إلا دَفَعَا إليه هديته قبل أن يُكَلِّمَا النجاشي، وقالَا لكلِّ بِطريقٍ منهم: إنه قد صَوَى إلى بَلَدِ الملك مَثَا غُلْمَانُ سفهاء، فارقوا دينَ قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مُبتَدَع، لا نَعْرِفه نحن ولا أنتم، وقد بَعَثْنَا إلى الملك فيهم أَشْرَافُ قومهم، ليرُدَّهم إليهم، فإذا كَلَّمْنَا الملك فيهم، فَأَشِيرُوا عليه بأن يُسَلِّمَهُم إلينا، ولا يَكَلِّمَهُم، فإن قومَهُم أَعْلَى بهم عَيْنًا، وأَعْلَم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قَدَّمَا هداياهما إلى النجاشي فَقَبِلَهَا منهما، ثم كَلَّمَاهُ، فقالا له: أيها الملك، إنه قد صَوَى إلى بلدك مَثَا غُلْمَانُ سفهاء، فارقوا دينَ قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدينٍ ابتدعوه، لا نَعْرِفه نحن، ولا أنت، وقد بَعَثْنَا إليك فيهم أَشْرَافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم: لترُدَّهم إليهم، فهم أَعْلَى بهم عَيْنًا، وأَعْلَم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه. قالت: ولم يكن شيء أبغضَ إلى عبد الله بن أبي رَبيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامَهُم النجاشي. قالت: فقالت بطارقتُه حوله: صَدَقَا أيها الملك، قومهم أَعْلَى بهم عَيْنًا، وأَعْلَم بما عابوا عليهم، فأسلِمَهُم إليهما، فليرُدَّهم إلى بلادهم وقومهم. قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لا هَا الله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يُكَاد قومُ جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على مَنْ سِوَاي، حتى أدعوه، فأسألهم عما يقول

فأضمرها عمرو في نفسه، ولم يُبْدِهَا لعمارة، بل قال لامرأته - فيما ذكر أبو الفرج - قَبْلِي ابن عمك عُمَارَةُ لتطيبَ بذلك نفسه، فلما أتيا أرض الحبشة مكر به عمرو، وقال: إني قد كتبت إلى بني سهم ليبرؤوا من دمي لك، فاكذب أنت لبني مخزوم ليبرؤوا من دمك لي، حتى تعلم قريش أننا قد تصافينا، فلما كتب عُمَارَةُ، إلى بني مخزوم، وتبرؤوا من دمه لبني سهم، قال شيخ من قريش: قُتِلَ عُمَارَةُ - والله - وعلم أنه مكر من عمرو، ثم أخذ عمرو يحرضُ عُمَارَةَ على التعرض لامرأة النجاشي، وقال له: أنت امرؤ جميل، وهن النساء يُخَيِّبْنَ الجمال من الرجال، فلعلها أن تشفع لنا عند الملك في قضاء حاجتنا؛ ففعل عُمَارَةُ فلما رأى عمرو ذلك، وتكرر عُمَارَةُ على امرأة الملك، ورأى إنابتها إليه، أتى الملك مُتَّصِحًا، وجاءه بأمرأة عرفها الملك، قد كان عُمَارَةُ أطلع عَمْرًا عليها، فأذركته غَيْرَةَ الملك، وقال: لولا أنه جاري لقتلته، ولكن سأفعل به ما هو شَرُّ من القتل، فدعا بالسَّوَّاحِر، فأمرهن أن يَسْحَرْنَ، فنَفَخْنَ في إحلِيلِه^(١) نَفْحَةً، طار منها هائِمًا على وجهه، حتى لحق بالوُحُوشِ في الجبال، وكان يرى آدميًا فيفرّ منه، وكان ذلك آخر العهد به إلى زمن عمر بن الخطاب، فجاء ابنُ عمه عبدُ الله بن أبي ربيعة إلى عمر، واستأذنه، في المسير إليه لعله يجده، فأذِنَ له عمر فسار

(١) إحليله: أي ذكره.

هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان، أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسن جوارهم ما جاوروني .

حوار بين النجاشي وبين المهاجرين

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله - ﷺ - فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول: والله ما عَلِمْنَا، وما أَمَرْنَا به نبيُّنا ﷺ كائنًا في ذلك ما هو كائن، فلما جاؤوا، وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله سألهم، فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل! قالت: فكان الذي كلّمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كُنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله؛ لنوحّدَه ونعبّدَه، ونخلع ما كُنا نعبد نحنُ وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن

عبد الله إلى أرض الحبشة، فأكثر النشدة عنه، والفحص عن أمره، حتى أخبر أنه - بِحِيلٍ^(١) يرد مع الوحوش، إذا وردت، ويصدر معها إذا صدرت، فسار إليه حتى كمن له في الطريق إلى الماء، فإذا هو قد غطاه شعره، وطالت أظفاره، وتمزقت عليه ثيابه، حتى كأنه شيطان، فقبض عليه عبد الله، وجعل يذكره بالرحم ويستعطفه، وهو يتنفض منه، ويقول: أرسلني يا بَحِيرُ، أرسلني يا بُحَيْرُ، وأبى عبد الله أن يرسله، حتى مات بين يديه، وهو خبر مشهور اختصره بعض من ألف في السير، وطوله أبو الفرج، وأوردته على معنى كلامه، متحرّياً لبعض ألفاظه^(٢).

عن حديث أصحاب الهجرة مع النجاشي

فصل: وذكر حديث أصحاب الهجرة مع النجاشي، وما قال له جعفر إلى آخر القصة، وليس فيها إشكال، وفيه من الفقه: الخروج عن الوطن، وإن كان الوطن مكّة على فضلها، إذا كان الخروج فراّاً بالدين، وإن لم يكن إلى إسلام، فإن الحبشة كانوا نصارى يعبدون

(١) بحيل: موضع.

(٢) انظر نسب قريش (٣٢٢). والقصة يبدو عليها أثر الوضع، فهي في حاجة إلى دليل «صحيح» يعتضدها.

المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المَخَصَّنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده - لا نُشْرِكُ به شيئاً - وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قالت: فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وأمنا به، وأتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى، وأن نستحلّ ما كنّا نستحلّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا،

المسيح، ولا يقولون: هو عبد الله، وقد تبين ذلك في هذا الحديث، وسُئِلوا بهذه مهاجرين، وهم أصحاب الهجرتين الذين أثنى الله عليهم بالسبق، فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ وجاء في التفسير: أنهم الذين صلّوا القبليتين، وهاجروا الهجرتين، وقد قيل أيضاً: هم الذين شهدوا بيعة الرضوان، فانظر كيف أثنى الله عليهم بهذه الهجرة، وهم قد خرجوا من بيت الله الحرام إلى دار كفر، لما كان فعلهم ذلك احتياطاً على دينهم، ورجاء أن يخلّى بينهم وبين عبادة ربهم، يذكرونه آمنين مطمئنين، وهذا حكم مستمر متى غلب المنكر في بلد، وأوذي على الحق مؤمن، ورأى الباطل قاصراً للحق، ورجا أن يكون في بلد آخر - أي بلد كان - يخلّى بينه وبين دينه، ويظهر فيه عبادة ربه، فإن الخروج على هذا الوجه حَثٌّ على المؤمن، وهذه الهجرة التي لا تنقطع إلى يوم القيامة: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

فصل: وليس في باقي حديثهم شيء يُشْرَح، قد شرح ابن هشام الشُّيُوم، وهم الآمنون، فيحتمل أن تكون لفظة حبشية غير مشتقة، ويحتمل أن يكون لها أصل في العربية، وأن تكون من شُفِت السيف إذا أغمدته، لأن الآمن مغمّد عنه السيف، أو لأنه مضمون في ضوَانٍ وجِز كالسيف في غمده.

وقوله: ضَوَى إِلَيْكَ فِتْيَةُ أَي: أَوْوا إِلَيْكَ، ولاذوا بك، وأما ضَوَى بكسر الواو، فهو من الضَّوَى مقصور، وهو الهزال، وقال الشاعر:

فَتَى لَمْ تَلْذَه بِنْتُ عَمِّ قَرِيبَةٍ فَيَضَوَى، وَقَدْ يَضَوَى رَدِيدُ الْغَرَائِبِ

ومنه الحديث: اغتربوا لا تَضَوُوا، يقول: إن تزويج القرائب يورث الضَّوَى في الولد^(١)، والضعف في القلب، قال الراجز:

إِنَّ بِلَالاً لَمْ تَشْنُهُ أُمُّهُ لَمْ يَتَنَاسَبْ خَالُهُ وَعَمُّهُ

(١) كلام مردود بصريح القرآن وصحيح الحديث.

وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عندك أيها الملك. قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال النجاشي: فاقراه عليّ، قالت: فقرأ عليه صدرًا من: ﴿كهيعص﴾. قالت: فبكى والله النجاشي، حتى اخضلت لحيتَه، وبكت أساقفته، حتى اخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون.

قالت: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتيته غداً عنهم بما استأصل به خُصَرَاءَهم. قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة - وكان اتقى الرجلين فينا: لا نفعل؛ فإنَّ لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا. قال: والله لأخبرته أنهم يزعمون أن عيسى ابنَ مريم عبْدٌ، قالت: ثم غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون

إضافة العين إلى الله:

وفيه: قومهم أعلى بهم عيَّنًا، أي: أبصر بهم، أي: عينهم وإبصارهم فوق عين غيرهم في أمرهم، فالعين هاهنا بمعنى الرؤية والإبصار، لا بمعنى العين التي هي الجارحة، وما سُميت الجارحة عيَّنًا إلا مجازًا؛ لأنها موضع العيان، وقد قالوا: عَانَهُ يَعِينُهُ عَيْنًا إذا رآه، وإن كان الأشهر في هذا أن يقال: عاينه معاينة، والأشهر في عِنت أن يكون بمعنى الإصابة بالعين، وإنما أوردنا هذا الكلام، لتعلم أن العينَ في أصل وضع اللغة صفة لا جارحة، وأنها إذا أُضيفت إلى البارئ سبحانه، فإنها حقيقة نحو قول أم سلمة لعائشة: بعين الله مَهْوَكَ، وعلى رسول الله تَرُدُّين؟ وفي التنزيل: ﴿وَلِتَضَعْ عَلَى عَيْنِي﴾ وقد أملينا في المسائل المفردات: مسألة في هذا المعنى، وفيها الرد على مَنْ أجاز التثنية في العين مع إضافتها إلى الله تعالى، وقاسها على اليدين، وفيها الرد على مَنْ احتج بقول النبي عليه السلام: إن ربكم ليس بأعور^(١)، وأوردنا في ذلك ما فيه شفاء، وأتبعناه بمعانٍ بديعة في معنى عَوْرِ الدُّجَالِ، فليُنظر هنالك.

معنى أن عيسى كلمة الله وروحه:

وقول جعفر في عيسى: هو رُوح الله وكلمته، ومعنى: كلمته أي: قال له، كما قال لآدم حين خلقه من تراب، ثم قال له: كن فيكون، ولم يقل: فكان، لثلا يتوهم وقوع

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٢٢٣/٥) وأحمد (٢٤٠/١) والبيهقي في الصفات (٣١١) بتحقيقي.

في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسألهم عما يقولون فيه. قالت: فأرسل إليهم، ليسألهم عنه. قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط. فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول - والله - [فيه] ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائناً في ذلك ما هو كائن. قالت: فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ قالت: فقال [له] جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت بطارفته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخزئتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي - والشيوم: الآمنون - من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم ما أحب أن لي ذبراً من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم - قال ابن هشام: ويقال: ذبري من ذهب. ويقال فأنتم سيوم، والدبر بلسان الحبشة: الجبل - ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي، فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فإطيعهم فيه. قالت: فخرجنا من عنده مقبوحين، مزودوا عليهما ما جاء به، وأقمنا عنده بخير دار، مع خير جار.

الفعل بعد القول بيسير، وإنما هو واقع للحال، فقوله: فيكون مُشعرٌ بوقوع الفعل في حال القول، وتوجه الفعل بيسير على القول، لا يمكن مستقداً ولا مستأخراً، فهذا معنى الكلمة، وأما روح الله؛ فلأنه نفخة روح القدس في جنب الطاهرة المقدسة، والقدس: الطهارة من كل ما يشين، أو يعيب، أو تَفَدَّرُهُ نفس، أو يكرهه شرع، وجبريل: روح القدس، لأنه روح لم يُخلق من مَنِيٍّ، ولا صدر عن شهوة، فهو مُضاف إلى الله سبحانه إضافة تشريف وتكريم؛ لأنه صادر عن الحضرة المقدسة^(١)، وعيسى عليه السلام صادر عنه، فهو: روح الله على هذا المعنى؛ إذ النفخ قد يسمى: روحاً أيضاً، كما قال غِيْلَانُ [بن عقبة ذو الرمة] يصف النار:

فقلت له: ارفعها إليك، وأخيها برُوحك، واقدرها لها قِيَتَةً بدرا

وأضف هذا الكلام في روح القدس، وفي تسمية النفخ روحاً إلى ما ذكرناه قبل في حقيقة الروح، وشرح معناه فإنه تكملة له.

(١) لا تجوز مثل هذه الكلمة أن تطلق وتنسب إلى الله تعالى.

المهاجرون وانتصار النجاشي:

قالت: فوالله إننا لعلی ذلك، إذ نزل به رجلٌ من الحبشة ينازعه في مُلكه. قالت: فوالله ما علمتُنا حَزَنًا حَزَنًا قطُ كانت أشدُّ علينا من حُزْنِ حَزَنَاهُ عند ذلك، تَحَوُّفاً أَنْ يَظْهَرَ ذلك الرجلُ على النجاشي، فيأتي رجلٌ لا يعرف مِنْ حَقِّنا ما كان النجاشي يَعْرِفُ منه، قالت: وسار إليه النجاشي، وبينهما عرضُ النيل، قالت: فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مَنْ رجلٌ يخرج حتى يحضُرَ وَقِيعَةَ القوم، ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوام: أنا، قالوا: فأنت - وكان مِنْ أحدث القوم سناً - قالت: فنفعخوا له قِرْبَةً، فجعلها في صدره، ثم سَبَحَ عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها مُلتَقَى القوم، ثم انطلق حتى حَضَرَهُمْ، قالت: فدعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوّه، والثَّمَكِينَ له في بلاده، قالت: فوالله إننا لعلی ذلك مُتَوَقِّعون لِمَا هو كائن، إذ طلع الزُّبَيْر وهو يسعى، فلمع بثَّوْبه وهو يقول: ألا أبشروا، فقد ظفر النجاشي، وأهلك الله عدوّه، ومكَّن له في بلاده. قالت: فوالله ما علمتُنا فَرِحْنَا فرحةً قطُ مثلها. قالت: ورجع النجاشي، وقد أهلك الله عدوّه، ومكَّن له في بلاده، واستوثق عليه أمر الحبشة، فكنا عنده في خير منزل، حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة.

قصة تملك النجاشي على الحبشة:

قال ابن إسحاق: قال الزهري: فحدثت عروة بن الزبير حديث أبي بكر بن عبد الرحمن، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ، فقال: هل تدري ما قوله: ما أخذ الله مني الرُّشوة حين ردَّ عليّ مُلكي، فأخذ الرُّشوة فيه، وما أطاع النَّاسَ فيّ، فأطيع النَّاسَ فيه؟ قال: قلت: لا، قال: فإن عائشة أم المؤمنين حدثتني أن أباه كان ملك قوم، ولم يكن له ولدٌ إلا النجاشي، وكان للنجاشي عم، له من صلبه اثنا عشر رجلاً، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة، فقالت الحبشة بينها: لو أننا قتلنا أبا النجاشي، وملكنا أخاه فإنه لا ولد له غير هذا الغلام، وإن لأخيه من صلبه اثني عشر رجلاً، فتوارثوا مُلكه من بعده، بقيت الحبشة بعده دهرًا، فَعَدَّوا على أبي النجاشي فقتلوه، وملكوا أخاه، فمكثوا على ذلك حينًا.

النجاشي أصحمة:

فصل: وذكر حديث عائشة عن النجاشي حين ردَّ الله عليه ملكه، وأن قومه كانوا باعوه، فلما مَرَجَ أمرُ الحبشة، أخذه من سيده واستردَّوه. وظاهر الحديث يدل على أنهم أخذه منه قبل أن يأتي به بلاده لقوله: خرجوا في طلبه، فأدركوه، وقد بين في حديث آخر

ونشأ النجاشي مع عمّه - وكان لبيبا حازما من الرجال - فغلب على أمر عمّه، ونزل منه بكل منزلة، فلما رأت الحبشة مكانه منه، قالت بينها: والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمّه، وإنّا لنتخوّف أن يملكه علينا، وإن ملكه علينا ليقتلنا أجمعين، لقد عرّف أنّا نحن قتلنا أباه. فَمَشَوْا إلى عمّه، فقالوا: إمّا أن تقتل هذا الفتى، وإما أن تخرجه من بين أظهرنا، فإنّا قد خِفْنَاهُ على أنفسنا، قال: ويلكم! قتلْتُ أباه بالأمس، وأقتله اليوم! بل أخرجوه من بلادكم. قالت: فخرجوا به إلى السوق، فباعوه إلى رجل من التجّار بستمائة درهم، فقذفه في سفينة فانطلق به، حتى إذا كان العَشيّ من ذلك اليوم، هاجت سَحَابَةٌ من سحائب الخريف، فخرج عمّه يَسْتَمِطِر تحتها، فأصابته صاعقة، فقتلته. قالت: ففزعَت الحبشة إلى وَلَدِهِ، فإذا هو مُخْمِق، ليس في ولده خير، فمرج على الحبشة أمرهم.

فلما ضاق عليهم ما هُم فيه من ذلك، قال بعضهم لبعض: تعلّموا والله أن مَلِككم الذي لا يُقيم أمركم غيره لِلَّذِي يَغْتَم غَدَوَةٌ، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة، فأدركوه الآن. قالت: فخرجوا في طلبه، وطلّب الرجل الذي باعوه منه حتى أدركوه، فأخذوه منه، ثم جاؤوا به، فعقدوا عليه التاج، وأقعدوه على سرير المُلك، فملكوه.

فجاءهم التاجر الذي كانوا باعوه منه، فقال: إمّا أن تُعطوني مالي، وإمّا أن أُكَلِّمَ في ذلك؟ قالوا: لا تُعطيك شيئا، قال: إذن والله أُكَلِّمَ، قالوا: فدونك وإياه. قالت: فجاءه فجلس بين يديه، فقال: أيها الملك، ابتعتُ غلامًا من قوم بالسوق بستمائة درهم، فأسلّموا إليّ غلامي، وأخذوا دراهمي، حتى إذا سرت بغلامي، أذكروني، فأخذوا

أن سيده كان من العرب وأنه استعبده طويلاً، وهو الذي يقتضيه قوله: فلما مَرَجَ على الحبشة أمرهم، وضاق عليهم ما هم فيه، وهذا يدلّ على طول المدة في مغيبه عنهم، وقد رُوِيَ أن وقعة بدر حين انتهى خبرها إلى النجاشي علم بها قبل مَن عنده من المسلمين، فأرسل إليهم، فلما دخلوا عليه إذا هو قد لبس مِسْحًا، وقعد على التراب والرماد، فقالوا له: ما هذا أيها الملك؟! فقال: إنّنا نجد في الإنجيل أن الله سبحانه إذا أحدث بعبده، وجب على العبد أن يحدث لله تواضعًا، وإن الله قد أحدث إلينا وإليكم نعمة عظيمة، وهي أن النبي محمداً - ﷺ - بلغني أنه التقى هو وأعداؤه بوادٍ يقال له: بدر كثير الأراك، كنت أرعى فيه الغنم على سيدي، وهو من بني ضَمْرَةَ، وأن الله قد هزم أعداءه فيه، ونصر دينه، فدلّ هذا الخبر على طول مكثه في بلاد العرب، فمن هنا - والله أعلم - تعلم من لسان العرب ما فهم به سورة مريم حين ثلّيت عليه، حتى بكى، وأخضَل لحيته، ورُوِيَ عنه أنه قال: إنّنا نجد في الإنجيل أن اللعنة تقع في الأرض إذا كانت إمارة الصبيان.

غلامي، ومنعوني دَراهمي. قالت: فقال لهم النجاشي: لَتُعْطَنَّهُ دَراهمه، أو ليضعنَّ غلامه يده في يده، فليذهبنَّ به حيث شاء، قالوا: بل نُعطيه دَراهمه. قالت: فلذلك يقول: ما أخذ الله مني رِشوةً حين ردَّ عليّ مُلْكِي، فأخذ الرِّشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ، فأطيع الناس فيه. قلت: وكان ذلك أوّل ما خُيِّرَ من صِلاَبته في دينه، وعَذَله في حكمه.

قال ابن إسحق: وحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: لما مات النجاشي، كان يُتحدَّث أنه لا يزال يُرى على قَبْرِه نورٌ^(١).

إسلام النجاشي والصلاة عليه

قال ابن إسحق: وحدثني جَعْفَر بن محمد، عن أبيه، قال: اجتمعت الحبشة، فقالوا للنجاشي: إنك قد فارقت ديننا، وخرجوا عليه قال: فأرسل إلى جعفر وأصحابه،

من فقه حديث الهجرة إلى الحبشة:

فصل: ومما في حديث الهجرة إلى الحبشة من الفقه أن جَعْفَر بن أبي طالب قال لرسول الله - ﷺ -: كيف نصلي في السفينة إذا ركبنا في البحر؟ فقال ﷺ: «صَلُّ قائمًا إلا أن تخاف الغرق»^(٢) خرَّجه الدَّارِقُطْنِي، ولكن في إسناده مقال، وفي مُسْنَد ابن أبي شيبة: وصلى أنس في السفينة جالسًا. وذكر البخاري عن الحسن: يصلي قائمًا إلا أن يَضُرَّ بأهلها.

حول كتاب النجاشي والصلاة عليه

فصل: وذكر الكتاب الذي كتبه النجاشي، وجعله بين صدره وقَبَائِهِ، وقال للقوم: أشهد أن عيسى لم يزد على هذا، وفيه من الفقه أنه لا ينبغي للمؤمن أن يَكْذِبَ كَذْبًا ضَرَّاحًا، ولا أن يعطي بلسانه الكفر، وإن أَكْرَه ما أمكنه الحيلة، وفي الْمَعَارِضِ مَنْدُوحَةٌ عن الكذب^(٣)، وكذلك قال أهل العلم في قول النبي عليه السلام: «ليس بالكاذب مَنْ أصلح بين اثنين، فقال خيرًا»^(٤). روته أم كلثوم بنت عُقْبَةَ. قالوا: معناه أن يُعَرِّضَ، ولا

(١) تقدم تخريجه والتعليق عليه.

(٢) «ضعيف الإسناد» الدارقطني (٢٩٤/١) بتحقيقي والحاكم (٢٧٥/١) والبيهقي (١٥٥/٣) وابن الجوزي في العلل (٤١٥/١).

(٣) أخرجه البيهقي في الآداب (٣٩٢) بتحقيقي. والبيهقي (١٩٩/١٠) وابن عدي (٩٦٣/٣). ومندوحة: أي سعة.

(٤) «صحيح». أخرجه البخاري (٢٤٠/٣) ومسلم في البر والصلة (١٠١) بنحوه والبيهقي في الآداب (١٣١) وأبو داود (٤٩٢٠) وكلاهما بتحقيقي.

فَهَيَّأْ لَهُمْ سَفَنًا، وَقَالَ: اركبوا فيها، وَكُونُوا كَمَا أَنْتُمْ، فَإِنْ هُزِمْتُ فامضوا حتى تلتحقوا
 بحيث شئتم، وَإِنْ ظَفَرْتُ فَانْبَثُوا. ثُمَّ عَمِدَ إِلَى كِتَابٍ فَكَتَبَ فِيهِ: هُوَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا
 اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَيَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَرُوحَهُ،
 وَكَلِمَتَهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، ثُمَّ جَعَلَهُ فِي قَبَائِهِ عِنْدَ الْمُنَكِّبِ الْأَيْمَنِ، وَخَرَجَ إِلَى الْحَبْشَةِ،
 وَصَفَّوْا لَهُ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْحَبْشَةِ، أَلَسْتُ أَحَقَّ النَّاسِ بِكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَكَيْفَ
 رَأَيْتُمْ سِيرَتِي فِيكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ سِيرَةٍ، قَالَ: فَمَا لَكُمْ؟ قَالُوا: فَارَقْتَ دِينَنَا، وَزَعَمْتَ أَنَّ
 عِيسَى عَبْدٌ، قَالَ: فَمَا تَقُولُونَ أَنْتُمْ فِي عِيسَى؟ قَالُوا: نَقُولُ: هُوَ ابْنُ اللَّهِ، فَقَالَ النِّجَاشِيُّ،
 وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ عَلَى قَبَائِهِ: هُوَ يَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا شَيْئًا،

يُفَصِّحُ بِالْكَذِبِ، مِثْلَ أَنْ يَقُولَ: سَمِعْتُهُ يَسْتَغْفِرُ لَكَ، وَيَدْعُو لَكَ، وَهُوَ يَعْنِي أَنَّهُ سَمِعَهُ
 يَسْتَغْفِرُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَيَدْعُو لَهُمْ؛ لِأَنَّ الْآخَرَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَحْتَالُ فِي التَّعْرِيزِ مَا
 اسْتَطَاعَ، وَلَا يَخْتَلِقُ الْكَذِبَ اخْتِلَاقًا، وَكَذَلِكَ فِي خُدْعَةِ الْحَرْبِ يُورِي، وَيَكْنِي، وَلَا يَخْتَلِقُ
 الْكَذِبَ يَسْتَحْلُهُ بِمَا جَاءَ مِنْ إِبَاحَةِ الْكَذِبِ فِي خُدْعِ الْحَرْبِ، هَذَا كُلُّهُ مَا وَجَدَ إِلَى الْكُنَايَةِ
 سَبِيلًا.

وَذَكَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - صَلَّى عَلَى النَّجَاشِيِّ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ^(١)، وَكَانَ مَوْتُ النَّجَاشِيِّ
 فِي رَجَبٍ مِنْ سَنَةِ تِسْعٍ، وَنَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى النَّاسِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، وَصَلَّى
 عَلَيْهِ بِالْبَقِيعِ، رُفِعَ إِلَيْهِ سَرِيرُهُ بِأَرْضِ الْحَبْشَةِ حَتَّى رَأَاهُ، وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ فَصَلَّى عَلَيْهِ، وَتَكَلَّمَ
 الْمَنَافِقُونَ، فَقَالُوا: أَيْصَلِّي عَلَى هَذَا الْعُلُجِّ؟! فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾^(٢)
 [آل عمران: ١٩٩]. وَمِنْ رَوَايَةِ يُونُسَ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ أَنَّ أَبَا نِيزَرٍ مَوْلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ،
 كَانَ ابْنًا لِلنِّجَاشِيِّ نَفْسَهُ، وَأَنَّ عَلِيًّا وَجَدَهُ عِنْدَ تَاجِرٍ بِمَكَّةَ، فَاشْتَرَاهُ مِنْهُ، وَأَعْتَقَهُ مَكَافَأَةً لِمَا
 صَنَعَ أَبُوهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ^(٣).

وَذَكَرَ أَنَّ الْحَبْشَةَ مَرَجَ عَلَيْهَا أَمْرَهَا بَعْدَ النَّجَاشِيِّ، وَأَنَّهُمْ أَرْسَلُوا وَفَدَا مِنْهُمْ إِلَى أَبِي
 نِيزَرٍ، وَهُوَ مَعَ عَلِيٍّ لِيَمْلِكُوهُ وَيَتَوَجَّوْهُ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَلَيْهِ فَأَبَى وَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُطْلَبَ
 الْمَلِكُ بَعْدَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيَّ بِالْإِسْلَامِ، قَالَ: وَكَانَ أَبُو نِيزَرٍ مِنْ أَطْوَلِ النَّاسِ قَامَةً،

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (١٤٧/٣) ومسلم وغيرهما.

(٢) لا صحة لقصة رفع سرير النجاشي وسبب نزول الآية.

(٣) انظر الإصابة (١٣٣/٣).

ولإنما يعني ما كَتَبَ، فرضوا وانصرفوا، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فلما مات النجاشي صَلَّى عليه واستغفر له.

وأحسنهم وجهًا، قال: ولم يكن لونه كألوان الحبشة، ولكن إذا رأيته قلت: هذا رجل من العرب.

ذكر إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(١)

قال ابن إسحاق: ولما قَدِمَ عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة على قُريش، ولم يُدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله - ﷺ - وردَّهما النجاشي بما يكرهونه، وأسلم عمرُ بن الخطاب - وكان رجلاً ذا شَكِمة لا يُرام ما وراء ظهره - امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ، وبَحْمزة حتى عازَّوا قُريشاً، وكان عبدُ الله بن مسعود يقول: ما كُنَّا نقدر على أن نصليَ عند الكعبة، حتى أسلم عمر بن الخطاب، فلما أسلم قاتل قريشاً، حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه، وكان إسلام عمر بعد خروج مَنْ خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

قال البكائي: قال: حدَّثني مِسْعَرُ بن كِدَام، عن سَعْدِ بن إبراهيم، قال: قال عبد الله بن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كُنَّا ما نصليَ عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم، قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه.

قال ابن إسحاق: حدَّثني عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عَيَّاش بن أبي

إسلام عمر وحديث خباب

فصل: في حديث إسلام عمر. ذكره إلى آخره، وليس فيه إشكال، وكان إسلام عمر والمسلمون إذ ذاك بضعة وأربعون رجلاً، وإحدى عشرة امرأة.

(١) انظر أسد الغابة (١٤٥/٤) الاستيعاب (١٤٤/٣) صفة الصفوة (٢٦٨/١) الطبقات الكبرى (١٤١/٩) حلية الأولياء (٣٨/١) الكاشف (٣٠٩/٢) الإصابة (٢٧٩/٤) غاية النهاية (١٩١/١) المنتظم (٣٨٤/٢) الطبري (٥٤٩/١).

ربيعه، عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أمه أم عبد الله بنت أبي حثمة، قالت:

والله إنا لنترحلُ إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامرٌ في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب، حتى وقف عليّ، وهو على شركه - قالت: وكنا نلقى منه البلاءَ أذى لنا، وشدة علينا - قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله. قالت: فقلت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله، آذيتُمونا وقَهَرْتُمونا، حتى يجعل الله مخرجًا. قالت: فقال: صَحِبْكُمْ الله، ورأيت له رِقَّة، لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أخزنه - فيما أرى - خُروجنا. قالت: فجاء عامر بحاجته تلك، فقالت له: يا أبا عبد الله، لو رأيت عمرَ آنفًا ورقته وخزنه علينا! قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: فلا يُسلم الذي رأيت، حتى يُسلم حمار الخطاب؛ قالت: يأسًا منه، لما كان يُرى من غِلظته وقسوته عن الإسلام.

قال ابن إسحاق: وكان إسلام عمرَ فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وكانت قد أسلمت وأسلم بعُلمها سعيدُ بن زيد، وهما مُستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نُعيم بن عبد الله النخام من مكة، رجل من قومه، من بني عدي بن كعب قد أسلم، وكان أيضًا يستخفي بإسلامه قَرَقًا من قومه، وكان خَبَاب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القرآن، فخرج عمرُ يومًا متوشحًا سيفه يريد رسول الله - ﷺ - ورهطًا من أصحابه، قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيتٍ عند الصفا، وهم قريبٌ من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله - ﷺ - عمه حمزة بن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبي قُحافة الصديق، وعلي بن أبي طالب، في رجال من المسلمين رضي الله عنهم، ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقيه نُعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمدًا هذا الصابئ، الذي فرَّق أمر قريش، وسفَّه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله، فقال له نُعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأيّ أهل بيتي؟ قال: حَتُّكَ وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك: فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمدًا على دينه، فعليك بهما، قال: فرجع عمرُ عامدًا إلى أخته وخنته، وعندهما خَبَاب بن الأرت معه صحيفة، فيها: «طه» يقرئهما إيَّاهما، فلما سمعوا حسَّ عمر تغيبَ خَبَاب في مُخدع لهم - أو في بعض البيت -

وفيه: أن خَبَابًا وهو ابن الأرت كان يقرئ فاطمة بنت الخطاب القرآن، وخَبَاب تميمي

وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة، فجعلتها تحت فخذها، وقد سَمِعَ عمرُ حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهَيْنَمَةُ التي سمعتُ. قالوا له: ما سمعتُ شيئاً، قال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفّه عن زوجها، فضربها فشجّها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنته: نعم قد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك: فلما رأى عمر ما بأخته من الدم نَدِمَ على ما صنع، فازعَوَى، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سَمِعْتُكُمْ تَقْرَؤُونَ أَنفَا أَنْظِرْ ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إِنَّا نَخْشَاكَ عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردّنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسه إلا الطاهر، فقام عمرُ، فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها: «طه» فقرأها، فلما قرأ منها صدرًا، قال: ما أحسن هذا الكلام

بالنسب، وهو خُزاعي بالولاء لأم أنمار بنت سباع الخزاعي، وكان قد وقع عليه سِبَاءٌ، فاشترته وأعتقته، فولأؤه لها، وكان أبوها لعوف بن عَبْدِ عَوْف بن عبد بن الحارث بن زهرة، فهو زُهْرِيّ بالحلف، وهو ابن الأرت بن جَنْدَلَة بن سَعْد بن خُزَيْمَة بن كعب بن سعد بن زَيْد مَنَة بن تميم، كان قَيْتًا يعمل السيوف في الجاهلية، وقد قيل: إن أمّه كانت أم سِبَاعِ الْخُزَاعِيَّةِ، ولم يلحقه سِبَاءٌ، ولكنه انتمى إلى حلفاء أمه بني زهرة، يكنى: أبا عبد الله، وقيل: أبا يحيى، وقيل أبا محمد مات بالكوفة سنة تسع وثلاثين بعدما شهد مع عَلِيٍّ صَفِينِ وَالْثَّهْرَوَانِ، وقيل: بل مات سنة سَبْعٍ وثلاثين. ذكر أن عمر بن الخطاب سأله عما لقي في ذات الله، فكشف ظهره، فقال عمر: ما رأيت كالיום، فقال: يا أمير المؤمنين، لقد أوقَدت لي نار، فما أطفأها إلا شَحِيمِي.

تطهير عمر ليمس القرآن:

فصل: وفيه ذكر تطهير عمر ليمس القرآن، وقول أخته: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ والمطهرون في هذه الآية هم الملائكة، وهو قول مالك في الموطأ، واحتج بالآية الأخرى التي في سورة عبس، ولكنهم وإن كانوا الملائكة، ففي وصفهم بالطهارة مقرونًا بذكر الْمَسِّ ما يقتضي ألا يمسّه إلا طاهر اقتداءً بالملائكة المطهرين، فقد تعلق الحكم بصفة التطهير، ولكنه حكم مندوب إليه؛ وليس محمولاً على الفرض، وكذلك ما كتب به رسول الله - ﷺ - لعُمَرُو بن حزم: «وَأَلَّا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ»^(١) ليس على الفرض، وإن كان الفرض فيه

(١) «مرسل». أخرجه مالك في الموطأ (١/١٣٧) وأبو داود في مراسيله (١٣٧).

وأكرمَه! فلما سمع ذلك خَبَّاب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إنني لأرجو أن يكون الله قد خَصَّكَ بِدَعْوَةِ نَبِيٍّ، فإني سَمِعْتَهُ أَمْسَ، وهو يقول: اللَّهُمَّ أَيْدِ الْإِسْلَامَ بِأَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ، أو بَعْمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ^(١)، فאלله الله يا عمر: فقال له عند ذلك عمر: فدلّني يا خَبَّابُ على محمّد حتى آتيه، فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصُّفا، معه فيه نَفَرٌ من أصحابه، فأخذ عمرُ سيفه فتوشَّحه، ثم عمد إلى رسول الله - ﷺ - وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجلٌ من أصحاب رسول الله - ﷺ - فنظر من خلل الباب، فرآه متوشَّحاً بالسيف، فرجع إلى رسول الله - ﷺ -

أبين منه في الآية؛ لأنه جاء بلفظ النهي عن مسّه على غير طهارة، ولكن في كتابه إلى هرقل بهذه الآية: ﴿يَأْخُلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ﴾ [آل عمران: ٦٤] دليل على ما قلناه، وقد ذهب داود وأبو ثور وطائفة ممن سلف، منهم الحكم بن عتيبة وحماد بن أبي سليمان إلى إباحة مسّ المصحف على غير طهارة، واحتجوا بما ذكرنا من كتابه إلى هرقل، وقالوا: حديث عمرو بن حزم مُرْسَلٌ، فلم يروه حجة، والدارقطني قد أسنده من طرق حسان، أفواها: رواية أبي داود الطيالسي عن الزهري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه عن جده، ومما يقوِّي أن المُطَهَّرِينَ في الآية هم الملائكة، أنه لم يقل: المتطهرون، وإنما قال المُطَهَّرُونَ، وفرق ما بين المتطهّر والمطهّر: أن المتطهّر مَنْ فعل الطُّهُور^(٢)، وأدخل نفسه فيه كالمُتَّفِقِ مَنْ يدخل نفسه في الفقه، وكذلك الْمُتَّفَعِّلُ في أكثر الكلام، وأنشد سيبويه:

وَقَيْسُ عَيْلَانَ وَمَنْ تَقَيَّسَا

فالآدميون مُتَطَهَّرُونَ إذا تطهروا، والملائكة مُطَهَّرُونَ خِلْقَةً، والآدميات إذا تطهرن: مُتَطَهَّرَاتٌ، وفي التنزيل: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] والحوَرُ العين مُطَهَّرَاتٌ، وفي التنزيل: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: ٥٧] وهذا فرق بين وقوة لتأويل مالك رحمه الله، والقول عندي في الرسول عليه السلام أنه مُتَطَهَّرٌ ومُطَهَّرٌ، أما مطهّر؛ فلأنه بشر آدمي يغتسل من الجنابة، ويتوضأ من الحدث، وأما مطهّر؛ فلأنه قد غُسل باطنه، وشقّ عن قلبه، ومُلِيَ حكمة وإيماناً فهو مُطَهَّرٌ ومُتَطَهَّرٌ، واضمم هذا الفصل إلى ما تقدم في ذكر مولده من هذا المعنى، فإنه تكملة والحمد لله.

(١) «حسن». أخرجه الترمذي وأحمد (٤٥٦/١) والطبراني (٢٥٥/١١) وابن سعد (١٩٢/١/٣) والحاكم (٨٣/٣) وابن ماجه (١٠٥).

(٢) الطُّهُور: أي التطهّر، والطُّهُور: هو الماء.

وهو فَزَع، فقال: يا رسول الله، هذا عمرُ بنُ الخطَّابِ مُتَوَشِّحًا السيف، فقال حمزةُ بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خَيْرًا بَدَلْنَاهُ له، وإن كان جاء يريد شَرًّا قَتَلْنَاهُ بسيفه، فقال رسول الله - ﷺ -: «إِذْنٌ لَهُ»، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسولُ الله - ﷺ - حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حُجْرَتَهُ، أو بمجمع رداءه، ثم جَبَذَهُ به جبذةً شديدةً، وقال: «ما جاء بك يا بن الخطَّابِ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعةً»، فقال عمرُ: يا رسول الله، جِئْتُكَ لأُؤْمِنَ بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فكَبَّرَ رسول الله ﷺ تكبيرةً عَرَفَ أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم.

فتفرَّق أصحاب رسول الله - ﷺ - من مكانهم، وقد عَزَّوْا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سَيَمْنَعَانِ رسول الله - ﷺ - وَيَتَنَصَّفُونِ بهما من عدوِّهم. فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطَّابِ حين أسلم.

قال ابن إسحق: وحدثني عبدُ الله بن أبي نجيح المكي، عن أصحابه: عطاء، ومجاهد، أو عَمَّنْ رُوِيَ ذلك: أن إسلام عمر فيما تحدَّثوا به عنه، أنه كان يقول: كنت للإسلام مُبَاعِداً، وكنت صاحبَ خَمَرٍ في الجاهليَّة، أحبُّها وأَسْرَبُها، وكان لنا مجلسٌ

وفي تطهر عمر قبل أن يُظْهَر الإسلام قوَّةً لقول ابن القاسم: إن الكافر إذا تطهر قبل أن يُظْهَر إسلامه، ويشهد الشهادتين أنه مُجْزِيٌّ له، وقد عاب قول ابن القاسم هذا كثيرٌ من الفقهاء، وكذلك في خبر إسلام سعد بن مُعَاذٍ على يدي مُضْعَبِ بن عُمَيْرٍ، وقد سأله: كيف يصنع مَنْ يريد الدخول في هذا الدين، فقال: يتطهر، ثم يشهد بشهادة الحق، ففعل ذلك هو وأُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ، وحديث إسلام عمر، وإن كان من أحاديث السِّيَرِ، فقد خَرَّجَه الدارقُطني في سنَّته، غير أنه خَرَّجَ أيضاً من طريق أنس أن أخت عمر قالت له: إنك رَجَسٌ، ولا يَمْسُهُ إلا المَطْهَرُونَ، فقم فاغتسل أو توضأ، فقام فتوضأ، ثم أخذ الصحيفة وفيها سورة طه^(١)، ففي هذه الرواية أنه كان وضوءاً، ولم يكن اغتسالاً، وفي رواية يونس: أن عمر حين قرأ في الصحيفة سورة طه انتهى منها إلى قوله: ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: ١٥] فقال: ما أَطْيَبَ هذا الكلام وأخسَنَه، وذكر هذا الحديث بطوله، وفيه أن الصحيفة كان فيها مع سورة طه: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وأن عمر انتهى في قراءتها إلى قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾.

(١) «ضعيف الإسناد». أخرجه الدارقُطني (١٢٣/١) بتحقيقي. وفيه القاسم بن عثمان - تفرد به. قال البخاري: له أحاديث لا يتابع عليها.

يجتمع فيه رجال من قُرَيْشٍ بِالْحَزْوَرةِ، عند دُور آلِ عمر بن عَبْد بنِ عِمْرانِ المخزومي، قال: فخرجت ليلة أُريدُ جُلُسائي أولئك في مَجْلِسهم ذلك، قال: فجئتهم فلم أجدُ فيه منهم أحدًا. قال: فقلت: لو أُنِي جئْتُ فلائِنَا الخُمَار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلِّي أجدُ عنده خمرًا فأشرب منها. قال: فخرجتُ فجِئته فلم أجدُه. قال: فقلت: فلو أُنِي جئْتُ الكعبةَ، فطُفْتُ بها سبْعًا أو سبعين. قال: فجئْتُ المسجد أُريدُ أن أطوفَ بالكعبة، فإذا رسولُ الله - ﷺ - قائمٌ يصلي، وكان إذا صَلَّى استقبل الشامَ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مُصلاه بين الرُّكنين: الركن الأسود، والركن اليماني. قال: فقلت حين رأيته: والله لو أُنِي استمعت لمحمدٍ الليلةَ حتى أسمعَ ما يقول! قال: فقلت: لئن دنوتُ منه أستمع منه لأزُو عنه، فجئْتُ من قِبَلِ الحِجْرِ، فدخلت تحت ثيابها، فجعلتُ أمشي رَوِيْدًا، ورسولُ الله - ﷺ - قائمٌ يصلي يقرأ القرآنَ، حتى قمت في قِبَلته مستقبلة، ما بيني وبينه إلا ثيابُ الكعبة. قال: فلما سمعتُ القرآنَ رَقَّ له قلبي، فبكيت ودخلني الإسلامُ،

زيادة في إسلام عمر:

فصل: وذكر ابن سُنْجَرٍ زيادة في إسلام عمر، قال: حَدَّثَنَا أَبُو المَغيرة قال: نا صفوان بن عمرو، قال: حَدَّثَنِي شُرَيْحُ بن عبيد، قال: قال عمر بن الخطاب: خرجت أتعرض رسول الله - ﷺ - قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقامت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن قال: قلت: هذا والله شاعر، كما قالت قريش، فقرأ: ﴿إِنَّه لَقَوْلُ رسولٍ كريمٍ وما هو بقول شاعرٍ قليلًا ما تُؤْمِنُونَ﴾ قال: قُلْتُ: كاهنٌ عَلم ما في نفسي، فقال: ﴿وَلَا يَقُولُ كاهِنٌ قليلًا ما تَذْكُرُونَ﴾ إلى آخر السورة قال: فوقع الإسلامُ في قلبي كل موقع، وقال عمر حين أسلم:

الحمدُ لله ذي المَنِّ الذي وَجَبَتْ	له علينا أيادٍ ما لها غير
وقد بدأنا فكذبنا، فقال لنا	صدقَ الحديثِ نبيٌّ عنده الخبر
وقد ظلمتُ ابنةَ الخطابِ ثم هدى	ربي عَشِيَّةً قالوا: قد صَبَا عُمر
وقد نَدِمْتُ على ما كان من زَلَلٍ	بظلمها حين تُثْلِي عندها السُور
لما دعت ربَّها ذا العرشِ جاهدة	والدمعُ من عينها عَجَلانَ يَبْتَدِرُ
أيقنْتُ أن الذي تدعوه خالقُها	فكاد تسبقني من عِبْرَةِ دِرْزُ
فقلت: أشهد أن الله خالقنا	وأن أحمدَ فينا اليومَ مشتهر
نبيٌّ صِدْقٍ أتى بالحقِّ مِن ثِقَةٍ	وافى الأمانةَ ما في عُوده خَوْرُ

فلم أزل قائماً في مكاني ذلك، حتى قضى رسول الله - ﷺ - صلاته، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبي حسين، وكانت طريقه، حتى يَجْزَعَ الْمَسْعَى، ثُمَّ يَسْلُكُ بَيْنَ دَارِ عَبَّاسِ بْنِ الْمُطَّلِبِ، وَبَيْنَ دَارِ ابْنِ أَزْهَرَ بْنِ عَبْدِ عَوْفِ الزُّهْرِيِّ، ثُمَّ عَلَى دَارِ الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيقٍ، حَتَّى يَدْخُلَ بَيْتَهُ، وَكَانَ مَسْكَنُهُ - ﷺ - فِي الدَّارِ الرَّقْطَاءِ، الَّتِي كَانَتْ بِيَدِي مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ. قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَتَبِعْتُهُ حَتَّى إِذَا دَخَلَ بَيْنَ دَارِ عَبَّاسٍ، وَدَارِ ابْنِ أَزْهَرَ، أَدْرَكْتُهُ، فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - حَسْبِي عَرَفَنِي، فَظَنَّ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَنِّي إِنَّمَا تَبِعْتُهُ لِأَوْذِيهِ، فَتَنَهَمَنِي، ثُمَّ قَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ يَا بَنَ الْخَطَّابِ هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قَالَ: قُلْتُ: جِئْتُ لِأَوْمِنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَبِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - ثُمَّ قَالَ: «قَدْ هَدَاكَ اللَّهُ يَا عُمَرُ»، ثُمَّ مَسَحَ صَدْرِي، وَدَعَا لِي بِالثَّبَاتِ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَهُ.

قال ابن إسحاق: والله أعلم أي ذلك كان.

رواه يونس عن ابن إسحاق. وذكر البَرَّازُ فِي إِسْلَامِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: فَلَمَّا أَخَذْتُ الصَّحِيفَةَ، فَإِذَا فِيهَا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَجَعَلْتُ أَفْكَرُ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ اشْتَقَّ، ثُمَّ قَرَأْتُ فِيهَا: «سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ [وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ]» أَوَّلَ الْحَدِيدِ. وَجَعَلْتُ أَقْرَأُ وَأَفْكَرُ حَتَّى بَلَغْتُ: «آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» [الْحَدِيدِ: ٧]. فَقُلْتُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ^(١).

من تفسير حديث إسلام عمر:

فصل: وفي حديث إسلام عمر: قال: ما هذه الْهَيْئَةُ، وَالْهَيْئَةُ: كَلَامٌ لَا يَفْهَمُ، وَاسْمُ الْفَاعِلِ مِنْهُ مُهَيِّنٌ، كَأَنَّهُ تَصْغِيرٌ، وَلَيْسَ بِتَصْغِيرٍ، وَمِثْلُهُ الْمُبَيِّطُ، وَالْمُهَيِّنُ، وَالْمُبَيِّطُ بِالْقَافِ، وَهُوَ الْمُهَاجِرُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَالْمُسَيِّطُ، وَلَوْ صَغُرَتْ وَاحِدًا مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ لَحُذِفَتِ الْيَاءُ الزَّائِدَةُ، كَمَا تَحُذَفُ الْأَلْفُ مِنْ مَفَاعِلٍ، وَتَلْحَقُ يَاءُ التَّصْغِيرِ فِي مَوْضِعِهَا، فَيَعُودُ اللَّفْظُ إِلَى مَا كَانَ، فَيُقَالُ فِي تَصْغِيرِ مُهَيِّنٍ وَمُبَيِّطٍ: مُهَيِّنٌ وَمُبَيِّطٌ، فَإِنْ قِيلَ: فَهَلَّا قُلْتُ: إِنَّهُ لَا يُصَغَّرُ؟ إِذْ لَا يُعْقَلُ تَصْغِيرٌ عَلَى لَفْظِ التَّكْبِيرِ، وَإِلَّا فَمَا الْفَرْقُ؟ فَالْجَوَابُ أَنَّهُ قَدْ يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا فِي مَوَاضِعَ، مِنْهَا: الْجَمْعُ، فَإِنَّكَ تَجْمَعُ مُبَيِّطًا: مَبَاطِرَ بِحَذْفِ الْيَاءِ، وَإِذَا كَانَ مُصَغَّرًا لَا يَجْمَعُ إِلَّا بِالْوَاوِ وَالنُّونِ، فَتَقُولُ: مُبَيِّطُونَ، وَذَلِكَ أَنَّ التَّصْغِيرَ لَا يَكْسِرُ؛ لِأَنَّهُ تَكْسِيرُهُ يُوْدِّي إِلَى حَذْفِ الْيَاءِ فِي الْخَمَاسِيِّ؛ لِأَنَّهَا زَائِدَةٌ كَالْأَلْفِ، فَيَذْهَبُ مَعْنَى التَّصْغِيرِ، وَأَمَّا الثَّلَاثِيُّ الْمَصْغَرُ

(١) أخرجه البزار (١٣/١) (٤٥/٣).

قال ابن إسحاق: وحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر، عن ابن عمر، قال: لما أسلم أبي عمر، قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقليل له: جميل بن معمر الجمحي. قال: فغدا عليه، قال عبد الله بن عمر: فعدوت أتبع أثره، وأنظر ما يفعل، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت، حتى جاءه، فقال له: أعلمت يا جميل أنني قد أسلمت: ودخلت في دين محمد؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجرّ ردائه وأتبعه عمر، واتبعني أبي، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، وهم في أنديتهم حول باب

فيؤدي تكسيه إلى تحريك ياء التصغير أو همزها، وذلك أن يقال في فُلَيْس فلائس، فيذهب أيضًا معنى التصغير لتصغير لفظ الياء التي هي دالة عليه، ولو بَيَّنْتُ اسم فاعل من: بيأس لقلت فيه مُبَيَّنْس، ولو سهلت الهمزة حركت الياء فقلت فيه: مُبَيَّنْس، وتقول في تصغيره إذا صغرت: مُبَيَّنْس بالإدغام، كما تقول [في] أبوس: أبيس، ولا تنقل حركة الهمزة إلى الياء إذا سهلت، كما تنقلها في اسم الفاعل من بيأس ونحوه، إذا سهلت الهمزة، وهذه مسألة من التصغير بديدة يقوم على تصحيحها البرهان.

حول النهيم وهكذا:

فصل: وفي حديث إسلام عمر: فَتَنَّهُمَ رسول الله - ﷺ - أي: زجره، والنَّهِيمُ؛ زَجْر الأسد، والنَّهَامِيُّ: الحَذَاد والثَّهَام: طائر، وفيه قول العاصي بن وائل قال: هكذا [خلوا] عن الرجل، وهي كلمة معناها: الأمر بالتنحي، فليس يعمل فيها ما قبلها، كما يعمل إذا قلت: اجلس هكذا، أي: على هذه الحال، وإن كان لا بد من عامل فيها إذا جعلتها للأمر، لأنها كاف التشبيه دخلت على ذا، وها: تَنبِيءٌ، فيقدر العامل إذا مُضْمَرًا، كأنك قلت: ارجعوا هكذا، وتأخروا هكذا، واستغني بقولك: هكذا عن الفعل، كما استغني برؤيذا عن ارفق.

جميل بن معمر:

فصل: وذكر قول عمر لجميل بن مَعْمَر الجُمَحِي: إني قد أسلمت، وبايعت محمدًا، فصرخ جميل بأعلى صوته: ألا إن عمر قد صبأ. جميل هذا هو الذي كان يقال له: ذو القلبين^(١)، وفيه نزلت في أحد الأقوال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وفيه قيل:

وكيف ثَوَّاثِي بالمدينة بعدما قَضَى وَطَرًا منها جميلُ بن مَعْمَر

(١) قيل: لحفظه، وقيل لعقله ونباهته.

الكعبة، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ، قال: يقول عمرُ من خلفه: كَذَب، ولكني قد أسلمتُ، وشهدتُ أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويُقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم. قال: وطلَّح، ففُقد وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كُتِّا ثلثمائة رجل لتركناها لكم، أو لتركتموها لنا، قال: فبينما هم على ذلك، إذ أقبل شيخٌ من قريش، عليه حُلَّة جَبَرَة، وقميصٌ مُوشَّى، حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر، فقال: فَمَه، رجلٌ اختار لنفسه أمراً، فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يُسلمون لكم صاحبهم هكذا؟! خلُّوا عن الرجل. قال: فوالله لكأنما كانوا ثوباً كُشِط عنه. قال: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت، من الرجلُ الذي زجر القومَ عنك بمكة يوم أسلمت، وهم يُقاتلونك؟ فقال: ذلك، أي بُني، العاصُ بن وائل السهمي.

قال ابن هشام: حدَّثني بعضُ أهل العلم، أنه قال: يا أبت، من الرجلُ الذي زَجَرَ القومَ عنك يوم أسلمت، وهم يقاتلونك، جزاه الله خيراً؟ قال: يا بني ذاك العاصُ بنُ وائل، لا جزاه الله خيراً.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الرحمن بن الحارث عن بعض آل عُمر، أو بعض أهله، قال: قال عمر: لما أسلمتُ تلك الليلة، تذكَّرتُ أيَّ أهل مكة أشدُّ لرسول الله ﷺ عداوة حتى آتته، فأخبره أنني قد أسلمت، قال: قلت: أبو جهل - وكان عُمر لَخْثَمَة بنت هشام بن المُغيرة - قال: فأقبلت حين أصبحتُ، حتى ضربتُ عليه بابَه. قال: فخرج إليَّ أبو جهل، فقال: مرحباً وأهلاً يا بن أُختي، ما جاء بك؟ جئتُ لأخبرك أنني قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به، قال: فضرب البابَ في وجهي، وقال: قَبَّحَكَ الله، وَقَبَّحَ مَا جِئْتَ بِهِ.

وهو البيت الذي تغنَّى به عبد الرحمن بن عوف في منزله، واستأذن عمر فسمعه، وهو يتغنَّى، وينشد بالركبانية، وهو غِنَاء يُحدَى به الرُّكَّابُ، فلما دخل عمرُ قال له عبد الرحمن: إنَّا إذا خلونا، قلنا ما يقول الناس في بيوتهم، وقلب المبرد هذا الحديث، وجعل المنشد عُمرَ، والمستأذن عبدَ الرحمن، ورواه الزبير^(١) كما تقدم، وهو أعلم بهذا الشأن.

(١) انظر نسب قريش (ص ٤٤٨).

خبر الصحيفة^(١)

قال ابن إسحاق: فلما رأت قُريشُ أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدًا أصابوا به أمانًا وقرارًا، وأن النجاشي قد منع مَنْ لجأ إليه منهم، وأنَّ عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ - وأصحابه، وجعل الإسلام يُفشو في القبائل، اجتمعوا واثمروا أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم، وبني المطلب، على أن لا يُنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا، ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتوثقوا على ذلك، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي - قال ابن هشام: ويقال: النضر بن الحارث - فدعا عليه رسول الله ﷺ، فسلَّ بعض أصابعه.

قال ابن إسحاق: فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب، فدخلوا معه في شِغْبه واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم: أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب، إلى قريش، فظاھرهم.

موقف أبي لهب من رسول الله ﷺ:

قال ابن إسحاق: وحدثني حسين بن عبد الله: أنَّ أبا لهب لقي هند بنت عتبة بن

حديث الصحيفة التي كتبتها قريش

ذكر فيه قول أبي لهب ليديه: تَبَّا لكما، لا أرى فيكما شيئًا مما يقول محمد، فأنزل الله

(١) انظر البداية (٩٣/٣) طبقات ابن سعد (٢١٠/١) تاريخ الطبري (٣٤١/٢) الكامل (٦٠٤/١) المنتظم (٣/٣).

رَبِيعَة، حين فارق قَوْمَهُ، وظاهر عليهم قريشًا، فقال: يا بنت عتبة؛ هل نصرتِ اللات والعُزَّى، وفارقتِ مَنْ فارقهما وظاهر عليهما؟ قالت: نعم: فجزاك الله خيرًا يا أبا عُثْبَةَ.

قال ابن إسحاق: وحدثت أنه كان يقول في بعض ما يقول: يَعدني محمدٌ أشياء لا أراها، يزعم أنها كائنةٌ بعد الموت، فماذا وضع في يديّ بعد ذلك، ثم ينفخ في يديّ ويقول: تَبًّا لكما، ما أرى فيكما شيئًا مما يقول محمد، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

قال ابن هشام: تَبَّتْ: خسرت. والتباب: الخسران. قال حبيب بن خُدْرة الخارجي: أخذ بني هلال بن عامر بن صَفْصعة:

يا طيب إنا في مَغْشَرٍ ذهبْت مَسْعاتهم في التَّبارِ والتَّبيبِ
وهذا البيت في قصيدة له.

تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، هذا الذي ذكره ابن إسحاق يشبه أن يكون سببًا لذكر الله سبحانه يديه، حيث يقول: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ وأما قوله: وَتَبَّ، فتفسيره ما جاء في الصحيح من رواية مجاهد وسعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس، قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] خرج رسول الله - ﷺ - حتى أتى الصفا، فصعد عليه، فهتف: «يَا صَبَاحَا»، فلما اجتمعوا إليه، قال: «أَرَأَيْتُمْ لو أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟» قالوا: ما جَرَيْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا. قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يديّ عَذَابٍ شَدِيدٍ. فقال أبو لهب: تَبًّا لك ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾، وقد تَبَّ^(١). هكذا قرأ مجاهد والأعمش، وهي - والله أعلم - قراءة مأخوذة عن ابن مسعود، لأن في قراءة ابن مسعود ألفاظًا كثيرة تُعين على التفسير قال مجاهد: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود قبل أن أسأل ابن عباس، ما احتجت أن أسأله عن كثير مما سألته، وكذلك زيادة قد في هذه الآية، فَسُرْتُ أنه خير من الله تعالى، وأن الكلام ليس على جهة الدعاء، كما قال تعالى: ﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَتَى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، أي: إنهم أهلٌ أن يقال لهم هذا، فَتَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ، ليس من باب: قَاتِلْهُمْ اللَّهُ، ولكنه خَبَرٌ مَخْضٌ بأن قد خسر أهله وماله، والبدان: آلة الكسب، وأهله وماله مما كسب فقله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾، تفسيره قوله: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ وولّد الرجل من كسبه، كما جاء في الحديث، أي خسرت يدا هذا الذي كسبت، وقوله: وَتَبَّ، تفسيره. ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي: قد خسر

(١) أخرجه البخاري (٢٢١/٢) ومسلم وأحمد (٣٠٧/١) والبيهقي في الدلائل (١٨١/٢) والبخاري في شرح السنة (٣٢٦/١٣).

شعر أبي طالب

قال ابن إسحق: فلما اجتمعت على ذلك قُرَيْش، وصنعوا فيه الذي صنعوا، قال أبو طالب:

ألا أبلغا عني على ذاتِ بيننا لؤيًّا وخُصًّا من لؤيِّ بني كُعبِ
ألم تَعلِّمُوا أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا نبيا كموسى خُطَّ في أولِ الكُتُبِ

نفسه بدخوله النار، وقولُ أبي لهب: تَبَّا لكما، ما أرى فيكما شيئا، يعني: يديه: سببُ
النزول تَبَّت يدا كما تقدم.

وقوله في الحديث الآخر: تَبَّا لك يا محمد، سببُ لَنزُولِ قوله سبحانه: ﴿وَتَبَّ﴾
فالكلمتان في التنزيل مبنيتان على السبيين، والآيتان بعدهما تفسير للتبيين. تَبَّابٌ يديه، وتَبَّاهُ
هو في نفسه، والتَّبَبُ على وزن التَّلَفْ لأنه في معناه، والتَّبَابُ كالهلاك والخَسَارِ وَزْنَا
ومعنى، ولذلك قيل فيه: تَبَّبَ وتَبَّابٌ.

من تفسير شعر أبي طالب

فصل: ذكر شعر أبي طالب:

ألا أبلغا عني على ذاتِ بيننا

قال قاسم بن ثابت: ذات بيننا، وذات يده، وما كان نحوه: صفةٌ لمحذوفٍ مؤنث،
كأنه يريد الحال التي هي ذات بينهم كما قال الله سبحانه: ﴿وَأَضْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾
[الأنفال: ١] فكذلك إذا قلت: ذات يده. يريد أمواله، أو مَكْتَسباته، كما قال عليه السلام:
«أزعه على رَؤُج في ذات يده»^(١)، وكذلك إذا قلت: لقيته ذات يوم، أي: لقاءً أو مرَّةً ذات
يوم، فما حُذِفَ الموصوف، وبقيت الصفة صارت كالحال لا تتمكن، ولا تُرفع في باب ما
لم يُسَمَّ فاعله، كما ترفع الظروف المُتَمَكِّنَة، وإنما هو كقولك: سير عليه شديداً وطويلاً،
وقول الخُثْعَمِي - واسمه: أنس بن مالك [مدرك]: عزمت على إقامة ذات صباح، ليس هو
عندي من هذا الباب، وإن كان سيئويه قد جعلها لغة لختعم، ولكنه على معنى إقامة يوم،
وكل يوم هو ذو صباح، كما تقول، ما كلمني ذو شَفَّة، أي: متكلم، وما مررت بذِي نفس،

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٧/٧) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٠٢/٢٠٠) وأحمد
(٤٤٩/٢٧٥) والبيهقي (٢٩٣/٧) والحميدي (١٠٤٧) وعبد الرزاق (٢٠٦٠٣) والبيهقي في
الآداب (٢١) بتحقيق. وانظر الفتح (٥١١/٩).

فلا يكون من باب: ذَاتَ مَرَّةٍ الذي لا يتمكن في الكلام، وقد وجدت في حديث قَيْلَةَ بنت مَخْرَمَةَ، وهو حديث طويل وقع في مسند ابن أبي شَيْبَةَ: أَنَّ أُخْتَهَا قَالَتْ لِبَعْلَهَا: إِنَّ أُخْتِي تَرِيدُ الْمَسِيرَ مَعَ زَوْجِهَا حُرَيْثِ بْنِ حَسَّانَ ذَا صَبَاحٍ بَيْنَ سَمْعِ الْأَرْضِ وَبَصَرِهَا، فَهَذَا يَكُونُ مِنْ بَابٍ: ذَاتَ مَرَّةٍ، وَذَاتَ يَوْمٍ، غَيْرَ أَنَّهُ وَرَدَ مَذْكُورًا؛ لِأَنَّهُ تَشْتَغِلُ تَاءُ التَّأْنِيثِ مَعَ الصَّادِ، وَتَوَالِي الْحَرَكَاتِ، فَحَذَفُوهَا، فَقَالُوا: لَقِيْتَهُ ذَا صَبَاحٍ، وَهَذَا لَا يَتِمُّ كَمَا لَا يَتِمُّ: ذَاتَ يَوْمٍ وَذَاتَ حِينَ، وَلَا يُضَافُ إِلَيْهِ مَصْدَرٌ، وَلَا غَيْرُهُ. وَقَوْلُ الْخُثْعَمِيِّ: عَزَمْتُ عَلَى إِقَامَةِ ذِي صَبَاحٍ قَدْ أَضَافَ إِلَيْهِ، فَكَيْفَ يُضِيفُ إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْصِبُهُ، أَوْ كَيْفَ يَضَارِعُ الْحَالَ مَعَ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَيْهِ؟ فَكَذَلِكَ خَفَضَهُ، وَأَخْرَجَهُ عَنْ نِظَائِرِهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ سَبِيوِيهِ سَمِعَ خُثْعَمٍ يَقُولُونَ: سَرْتُ فِي ذَاتِ يَوْمٍ، أَوْ سَبَّرَ عَلَيْهِ ذَاتُ يَوْمٍ بَرَفَعَ التَّاءَ، فَحِينَئِذٍ يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَقُولَ: لُغَةً خُثْعَمٍ، وَأَمَّا الْبَيْتُ الَّذِي تَقْدِمُ فَالْشَّاهِدُ لَهُ فِيهِ، وَمَا أَظُنُّ خُثْعَمَ، وَلَا أَحَدًا مِنَ الْعَرَبِ يُجِيزُ التَّمَكُّنَ فِي نَحْوِ هَذَا، وَإِخْرَاجَهُ عَنِ النَّصْبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

لا التي للتبرئة:

فصل: وفيه:

ولا خير مِمَّنْ خَصَّهُ الله بالحب

وهو مشكل جدًا لأن لا في باب التبرئة لا تنصب مثل هذا إلا مُتَوَاتِرًا تقول: لا خَيْرًا مِنْ زَيْدٍ فِي الدَّارِ، وَلَا شَرًّا مِنْ فُلَانٍ، وَإِنَّمَا تَنْصَبُ بِغَيْرِ تَنْوِينٍ إِذَا كَانَ الْأِسْمُ غَيْرَ مُوصُولٍ بِمَا بَعْدَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُثْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]. لِأَنَّ عَلَيْكُمْ لَيْسَ مِنْ صِلَةِ التَّثْرِبِ، لِأَنَّهُ فِي مَوْضِعِ الْخَبَرِ، وَأَشْبَهَ مَا يَقَالُ فِي بَيْتِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّ خَيْرًا مُخَفَّفٌ، مِنْ خَيْرٍ كَهَيْئَتَيْنِ وَمَيَّتٍ [مَنْ هَيَّئَ وَمَيَّتَ] وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠] هُوَ مُخَفَّفٌ مِنْ خَيْرَاتٍ.

عود إلى شرح شعر أبي طالب:

وقوله: مِمَّنْ. مَنْ، مُتَعَلِّقَةٌ بِمُحَذَّوْفٍ، كَمَا أَنَّهُ قَالَ: لَا خَيْرَ أَحْيَرٍ مِمَّنْ خَصَّهُ اللَّهُ، وَخَيْرٍ وَأَخْيَرٍ: لَفْظَانِ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ، فَحُسْنُ الْحَذْفِ اسْتِثْقَالًا لِتَكَرُّارِ اللَّفْظِ، كَمَا حَسُنَ: ﴿وَلَكِنْ الْبِرُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وَ﴿الْحَيُّ أَشْهُرُ مَعْلُومَاتٍ﴾ [البقرة: ١٩٧] لَمَّا فِي تَكَرُّارِ الْكَلِمَةِ مَرَّتَيْنِ مِنَ الثَّقَلِ عَلَى اللِّسَانِ، وَأَغْرَبَ مِنْ هَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ [يونس: ١١] أَيْ: لَوْ عَجَّلَهُ لَهُمْ إِذَا اسْتَعْجَلُوا بِهِ اسْتِعْجَالًا مِثْلَ اسْتِعْجَالِهِمْ بِالْخَيْرِ، فَحَسَنَ هَذَا الْكَلَامُ لَمَّا فِي الْكَلَامِ مِنْ ثِقَلِ التَّكَرُّارِ، وَإِذَا حَذَفُوا حَرْفًا وَاحِدًا لِهَذِهِ الْعِلَّةِ كَقَوْلِهِمْ: بَلَّغَتْ بَنُونَ فُلَانٍ، وَظَلَلْتُ وَأَحْشَتُ فَأَحْرَى أَنْ يَحْذَفُوا كَلِمَةً مِنْ

وَأَنْ الَّذِي أَلْصَقْتُمْ مِنْ كِتَابِكُمْ
أَفِيقُوا أَفِيقُوا، قَبْلَ أَنْ يُحْفَرَ الثَّرَى
وَلَا تَتَّبِعُوا أَمْرَ الْوُشَاةِ، وَتَقْطَعُوا
وَتَسْتَجْلِبُوا حَزْبًا عَوَاتًا، وَرَبَّمَا
فَلَسْنَا - وَرَبَّ الْبَيْتِ - نُسَلِّمُ أَحْمَدًا
وَلَمَّا تَبَيَّنَ مَنَّا، وَمِنْكُمْ سَوَالِفُ
بِمَغْتَرِكِ ضَيْقٍ تَرَى كِسْرَ الْقَنَا

لَكُمْ كَائِنَ نَحْسًا كَرَاغِيَةَ السَّقْبِ
وَيُصْبِحُ مَنْ لَمْ يَجْنِ ذَنْبًا كَذِي الذَّنْبِ
أَوَاصَرْنَا بَعْدَ الْمَوَدَّةِ وَالْقُرْبِ
أَمَرَ عَلَى مَنْ ذَاقَهُ جَلْبُ الْحَزْبِ
لَعَزَاءٍ مِنْ عَضِّ الزَّمَانِ وَلَا كَرْبِ
وَأَيْدٍ أُتْرَتْ بِالْقُسَاسِيَّةِ الشُّهْبِ
بِهِ وَالنَّسُورَ الطُّخْمِ، يَغْكُفْنَ كَالشَّرْبِ

حروف، فهذا أصل مُطَرَّد، ويجوز فيه وجه آخر، وهو أن يكون حذف التنوين مراعاة لأصل الكلمة؛ لأن خَيْرًا من زيد إنما معناه: أخير من زيد، وكذلك: شَرُّ من فلان، إنما أصله: أَشَرُّ على وزن أَفْعَل، وحذفت الهمزة تخفيفًا، وأفعل لا ينصرف، فإذا انحدفت الهمزة انصرف وتوون، فإذا توهمتها غير ساقطة التفاتًا إلى أصل الكلمة، لم يبعد حذف التنوين على هذا الوجه مع ما يقويه من ضرورة الشعر.

وقوله: بِالْقُسَاسِيَّةِ الشُّهْبِ، يعني: السيوف، نسبها إلى قُساس، وهو معدن حديد لبني أسد، وقيل اسم للجبل الذي فيه المعدن: قال الراجز يصف فأسًا:

أَحْضَرَ مِنْ مَعْدِنٍ ذِي قُساس^(١) كَأَنَّهُ فِي الْحَيْدِ ذِي الْأَضْرَاسِ
يُزْمَى بِهِ فِي الْبِلَدِ الدَّهَاسِ

وقال أبو عبيد في القُساسِيَّةِ: لا أدري إلى أي شيء نُسِبَ، والذي ذكرناه قاله المُبَرِّدُ، وقوله: ذِي قُساس كما حكى، ذو زيد، أي: صاحب هذا الاسم، وفي أقيال جُمَيْر: ذُو كَلَّاحٍ، وذُو عَمْرُو، أَضِيفَ الْمَسْمَى إِلَى اسْمِهِ، كما قالوا: زَيْدٌ بَطَّةٌ، أَضَافُوهُ إِلَى لِقْبِهِ.

وذكر فيه النسور الطخمة، قيل: هي السود الرؤوس، قاله صاحب العين، وقال أيضًا: الطُّخْمَةُ سَوَادٌ فِي مَقْدَمِ الْأَنْفِ.

وقوله: كَرَاغِيَةَ السَّقْبِ يَرِيدُ وَلَدَ النَّاقَةِ الَّتِي عَقَرَهَا قُدَارٌ، فَرَاغًا وَلَدَهَا، فَصَاحَ بِرُغَائِهِ كُلِّ شَيْءٍ لَهُ صَوْتٌ، فَهَلَكْتَ ثَمُودٌ عِنْدَ ذَلِكَ، فَضَرِبْتَ الْعَرَبَ ذَلِكَ مَثَلًا فِي كُلِّ هَلَكَةٍ. كما قال علقمة [بن عَبْدَةَ]:

رَغَا فَوْقَهُمْ سَقْبُ السَّمَاءِ فَدَاحِصٌ بِشَكَّتِهِ لَمْ يُسْتَلَبْ وَسَلِيْبٌ

(١) قساس: اسم بلد تنسب إليه السيوف القاسية، وقيل اسم جبل لبني نعيم.

كَأَنَّ مُجَالَ الْخَيْلِ فِي حَجَرَاتِهِ وَمَغْمَعَةُ الْأَبْطَالِ مَفْرَكَةُ الْحَرْبِ
 أَلَيْسَ أَبُونَا هَاشِمٌ شَدَّ أَزْرَهُ وَأَوْصَى بَنِيهِ بِالطَّعَانِ وَبِالضَّرْبِ
 وَلَسْنَا نَمْلُ الْحَرْبَ، حَتَّى تَمْلُنَا وَلَا نَشْتَكِي مَا قَدْ يَنْوِبُ مِنَ التُّكْبِ
 وَلَكُنَّا أَهْلُ الْحَفَائِظِ وَالنُّهْيِ إِذَا طَارَ أَرْوَاحُ الْكُفَاةِ مِنَ الرُّغْبِ
 فَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّى جُهِدُوا لَا يَصِلَ إِلَيْهِمْ شَيْءٌ، إِلَّا سُرًّا
 مُسْتَخْفِيًّا بِهِ مَنْ أَرَادَ صِلَتَهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ.

من جهالة أبي جهل:

وقد كان أبو جهل بن هشام - فيما يذكرون - لقي حَكِيم بن حِزَام بن خُوَيْلِد بن
 أَسَد، معه غلام يَحْمِلُ قَمَحًا يُرِيدُ بِهِ عَمَتَهُ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِد، وَهِيَ عِنْدَ رَسُولِ
 اللَّهِ - ﷺ - وَمَعَهُ فِي الشَّعْبِ، فَتَعَلَّقَ بِهِ، وَقَالَ: أَتَذْهَبُ بِالطَّعَامِ إِلَى بَنِي هَاشِمٍ؟! وَاللَّهِ لَا
 تَبْرَحُ أَنْتَ وَطَعَامُكَ، حَتَّى أَفْضَحَكَ بِمَكَّةَ. فَجَاءَهُ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ بْنُ هَاشِمٍ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ
 أَسَدٍ [بْنِ عَبْدِ الْعِزَى]، فَقَالَ: مَا لَكَ وَلَهُ؟ فَقَالَ: يَحْمِلُ الطَّعَامَ إِلَى بَنِي هَاشِمٍ، فَقَالَ أَبُو
 الْبَخْتَرِيِّ: طَعَامٌ كَانَ لِعَمَّتِهِ عِنْدَهُ بَعَثَتْ إِلَيْهِ [فِيهِ]، أَفْتَمْنَعُهُ أَنْ يَأْتِيَهَا بِطَّعَامِهَا؟! خَلَّ سَبِيلَ
 الرَّجُلِ، فَأَبَى أَبُو جَهْلٍ، حَتَّى نَالَ أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ، فَأَخَذَ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ لَخِي بَعِيرٍ،
 فَضْرِبَهُ بِهِ فَشَجَّهُ، وَوُطِئَهُ وَطْأً شَدِيدًا، وَحَمَزُهُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ قَرِيبٌ يَرَى ذَلِكَ، وَهُمْ
 يَكْرَهُونَ أَنْ يَبْلُغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - وَأَصْحَابَهُ، فَيَشْتَمُوا بِهِمْ، وَرَسُولَ اللَّهِ - ﷺ -
 عَلَى ذَلِكَ يَدْعُو قَوْمَهُ لَيْلًا وَنَهَارًا وَسُرًّا وَجَهَارًا، مُنَادِيًا بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَتَّقِي فِيهِ أَحَدًا مِنَ
 النَّاسِ.

ما لقي رسول الله ﷺ من قومه:

فَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ حِينَ مَنَعَهُ اللَّهُ مِنْهَا، وَقَامَ عَمُّهُ وَقَوْمُهُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمَطْلَبِ
 دُونَهُ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ، وَبَيَّنَّ مَا أَرَادُوا مِنَ الْبَطْشِ بِهِ، يَهْمِزُونَهُ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ،
 وَيَخَاصِمُونَهُ، وَجَعَلَ الْقُرْآنُ يَنْزِلُ فِي قُرَيْشٍ بِأَحْدَاثِهِمْ، وَفِي مَنْ نَصَبَ لِعِدَاوَتِهِ مِنْهُمْ، وَمِنْهُمْ
 مَنْ سُمِّيَ لَنَا.

وقال آخر:

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاقَتْ سُلَيْمٌ وَعَامِرٌ عَلَى جَانِبِ الثُّرَّارِ^(١) رَاغِيَةَ الْبِكْرِ

(١) الثُّرَّار: وادٍ بِالْجَزِيرَةِ.

أبو لهب وامراته

ومنهم مَنْ نزل فيه القرآن في عَامَّة مَنْ ذكر الله من الكفار، فكان مَمَّن سُمِّي لنا من فُرِش مَمَّن نزل فيه القرآن: عمه أبو لهب بن عبد المطلب وامراته أُم جَمِيل بنت حَرْب بن أُمَيَّة، حَمَّالَة الحطب، وإنما سَمَّاهَا الله تعالى حَمَّالَة الحطب؛ لأنها كانت - فيما بلغني - تَحْمِل الشوك، فتطرحه على طريق رسول الله - ﷺ - حيث يمرّ، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾^(١).

قال ابن هشام: الجيد: العنق. قال أعشى بني قيس بن ثعلبة:

يَوْمَ تُبْدِي لَنَا قَتِيلَةً عَنْ جِيـِـدٍ أَسِيلٍ تَزِيئُهُ الْأَطْوَاقُ

وهذا البيت في قصيدة له. وجمعه: أجياد. والمسد: شجرٌ يَدِقُّ كما يَدِقُّ الكَتَّان، فتقتل منه حبال. قال النابغة الذبياني - واسمه: زياد بن عمرو بن معاوية:

مَقْدُوفَةٌ بِدَخِيسِ النَّخْصِ بَارِلُهَا لَهُ صَرِيفٌ صَرِيفَ الْقَعْوِ بِالْمَسَدِ

وهذا البيت في قصيدة له، وواحدته: مَسَدَة.

ذكر أم جميل والمسد وعذابها

فصل: وذكر أم جميل بنت حرب عَمَّة معاوية، وذكر أنها كانت تحمل الشوك، وتطرحه في طريق رسول الله - ﷺ - فأنزل الله فيها: ﴿وامراته حَمَّالَة الْحَطَبِ﴾ قال المؤلف: فلما كَتَّى عن ذلك الشوك بالحطب، والحطب لا يكون إلا في جبل، مِنْ ثَمَّ جعل الجبل في عنقها، ليقابل الجزاء الفعل.

وقوله: من مَسَد، هو من مَسَدَتِ الجبل إذا أَحْكَمَتْ قَتْلَهُ، إلا أنه قال: من مَسَدٍ، ولم يقل: جبلٌ مَسَدٌ ولا مَمْسُودٌ لمعنى لطيف، ذكره بعض أهل التفسير، قال: المسد يُعَبَّرُ به في العُزْفِ عن جبل الدُّلُو، وقد رُوِيَ أنه يُصْنَعُ بها في النَّارِ ما يُصْنَعُ بالدُّلُو، تُزْفَعُ بالمسد في عنقها إلى شَفِيرِ جهنم، ثم يُرمى بها إلى قعرها هكذا أبداً، وقولهم: إن المسد هو جبل الدلو في العُزْفِ صحيحٌ فإننا لم نجد في كلام العرب إلا كذلك، كقول [النابغة] الذبياني:

لَهُ صَرِيفٌ صَرِيفَ الْقَعْوِ بِالْمَسَدِ

(١) سورة المسد.

وقال الآخر وهو يستقي على إبله :

يَا مَسَدَ الْخُوصِ تَعَوَّذْ مِنِّي إِنَّ تَكَ لَدُنَّا لَيِّنًا فِلَائِي
مَا شئتَ مِنْ أَشْمَطَ مُقْسَيْنِ^(١)

وقال آخر :

يَا رَبِّ عَبَسَ لَا تُبَارِكْ فِي أَحَدٍ فِي قَائِمٍ مِنْهُمْ ، وَلَا فِي مَنْ قَعَدَ
غَيْرِ الْأُولَى شَدُّوا بِأَطْرَافِ الْمَسَدِ
أَي : استقوا ، وقال آخر^(٢) ، وهو يستقي :

وَمَسَدٍ أَمِرٌّ مِنْ أَيَانِي لَيْسَ بِأَنْيَابٍ^(٣) وَلَا حَقَائِقِي^(٤)

يريد : جمع أَيْتُقْ ، وَأَيْتُقْ : جمع ناقة مقلوب ، وأصله : أُنُوق ، فقلب ، وأبدلت الواو ياء ؛ لأنها قد أبدلت ياء للكسرة ، إذا قالوا : نياق ، وقلوبه فرازا من اجتماع همزتين لو قالوا : أُنُوق على الأصل ، يريد أن المسد من جلودها . وفي الحديث أن رسول الله - ﷺ - قال في المدينة : « قد حرمتها إلا لِعُضْفُورٍ قَتَبَ ، أَوْ مَسَدٍ مَحَالَّةً ، وَالْمَحَالَّةُ : الْبَكْرَةُ . وفي حديث آخر : أنه حرّمها بريذاً في بريد إلا الْمُنْجَذَةَ أَوْ مَسَد ، وَالْمُنْجَذَةُ : عصا الراعي . وقال أبو حنيفة في النبات : كُلُّ مَسَدٍ رِشَاءٌ ، وأنشد :

وَبَكْرَةٌ وَمِخْوَرًا صَرَّارًا وَمَسَدًا مِنْ أَبْقِي مُغَارَا
وَالْأَبْقِي : الْقَيْبُ ، وَالزُّبُرُ : الْكَثَائِلُ ، وأنشد أيضاً :

أَنْزَعُهَا تَمْطِيًّا وَمِئًا بِالْمَسَدِ الْمَثْلُوثِ أَوْ يَزِمِثَا

فقد بَانَ لك بهذا أن الْمَسَدَ جبل البئر ، وقد جاء في صفة جهنم - أعاذنا الله منها - أنها كَطَيِّ البئر لها قَرْنَانِ ، وَالْقَرْنَانِ مِنَ البئر : كَالِدُعَامَتَيْنِ لِلْبَكْرَةِ ، فقد بَانَ لك بهذا كله ، ما ذكره أهل التفسير من صفة عذابها أعاذنا الله من عذابه وأليم عقابه ، وبهذا تناسب الكلام ، وكثرت معانيه ، وتنزه عن أن يكون فيه حَشَوٌ أو لغو - تعالى الله منزله ؛ فإنه كتاب عزيز .

(١) أي الشيخ الكبير .

(٢) هو : عمارة بن طارق . وقيل البيت لعقبة الهجيمي .

(٣) أنياب : جمع ناب . وهي الناقة الكبيرة السن .

(٤) حقائق : جمع حقة . وهي الناقة في السنة الرابعة .

وقول مجاهد: إنها السلسلة التي دَزَعَهَا سبعون ذراعًا لا ينفي ما تقدم، إذ يجوز أن يَرْبِقَ في تلك السلسلة أُمٌ جميلٌ وغيرها، فقد قال أبو الدرداء لامرأته: يا أُمُّ الدرداء إن لله سلسلة تغلي بها مَراجِلُ جهنم منذ خلق الله النار إلى يوم القيامة، وقد نَجَاكَ من نصفها بالإيمان بالله، فاجتهد في النجاة من النصف الآخر بالحض على طعام المسكين، وكذلك قول مجاهد: إنها كانت تمشي بالنمائم لا ينفي حملها للشوك، وهو في كلام العرب سائغ أيضًا، فقد قال ابن الأَسلت لقريش حين اختلفوا:

وَنُبِّشْتُكُمْ شَرْجَيْنِ^(١) كل قبيلة لها زُمْل من بين مُذْكَ وحاطب

فالمُذْكَ الذي يذكر نار العداوة، والحاطب الذي يَنْمُ ويغري كالمحتطب للنار، ومن هذا المعنى، وكأنه مُنْتَرَعٌ منه قول النبي - ﷺ -: «لا يدخل الجنة قَتَاتٌ»^(٢) والقَتَات هو الذي يجمع القَتَّ، وهو ما يوقد به النار من حشيش وحطب صغار.

عن الجيد والعنق:

وقوله: في جيدها، ولم يقل: في عنقها، والمعروف أن يُذكر العنق إذا ذُكر العُلُ، أو الصَّفْع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ [يس: ٨] ويذكر الجيد إذا ذُكر الحُلِيِّ أو الحسن، وإنما حَسُنَ ههنا ذكر الجيد في حُكم البلاغة؛ لأنها امرأة، والنساء تحلِّي أجبادهن، وأُم جميل لا حُلِيَّ لها في الآخرة إلا الحبل المَجْعول في عنقها، فلما أُقيم لها ذلك مقام الحلي ذكر الجيد معه، فتأمل؛ فإنه معنى لطيف، ألا ترى إلى قول الأعشى:

يَوْمَ تُبْدي لَنَا قَتْنِيلَةً عن جيد

ولم يقل: عن عنق، وقول الآخر:

وأحسن من عقد المليحة جيدها

ولم يقل: عنقها، ولو قاله لكان غثًا من الكلام، وإنما يحسن ذكر الجيد حيث قلنا،

(١) الشرح: الضرب.

(٢) «صحيح». أخرجه البخاري (٢١/٨) ومسلم في الإيمان (١٦٩) وأبو داود (٤٨٧١) بتحقيقي. والترمذي (٢٠٢٦) والنسائي (٣١٨/٨) وابن خزيمة في التوحيد (٣٥٨) والبيهقي في الآداب (١٣٧) بتحقيقي.

وينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] أي لا بُشْرى لهم إلا ذلك، وقول الشاعر [عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرَبَ]:

[وَحَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بِحَيْلٍ] تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ كَرْبٌ وَجِيْعٌ

أي: لا تحية لهم. كذلك قوله: في جيدها حبل من مسد، أي: ليس ثمَّ جيد يُحَلَّى، إنما هو حبل المسد، وانظر كيف قال: وامرأته، ولم يقل: وزوجه؛ لأنها ليست بزوجة له في الآخرة، ولأن التزويج جلية شَرْعية، وهو من أمر الدين يجزّدها من هذه الصفة، كما جرّد منها امرأة نوح وامرأة لوط، فلم يقل: زوج نوح، وقد قال لآدم: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ [البقرة: ٣٥] وقال لنبيه عليه السلام: ﴿قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ﴾، وقال: ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾، إلا أن يكون مساق الكلام في ذكر الولادة والحمل، ونحو ذلك، فيكون حينئذ لفظ المرأة لاثنًا بذلك الموطن، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥ - ٨] ﴿فَاقْبَلْتُ امْرَأَتَهُ فِي صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩] لأن الصفة التي هي الأنوثة هي المقتضية للحمل والوضع لا من حيث كان زوجًا^(١).

غُلُوٌّ فِي الْوَصْفِ بِالْحُسْنِ:

فصل: وأنشد شاهدًا على الجيد قول الأعشى:

يَوْمَ تُبْدِي لَنَا قُتَيْلَةً عَنْ جِيدٍ أَسِيلٍ تَزِيئُهُ الْأَطْوَاقُ

وقوله: تزيئه أي: تزيده حُسْنًا، وهذا من القصد في الكلام، وقد أبى الْمُؤَلِّدُونَ إلا الغُلُوَّ في هذا المعنى، وأن يغلبوه فقال في الحماسة حسين بن مُطَيْر [الأسدي]:

مُبَلَّلَةُ الْأَطْرَافِ زَانَتْ عَقْوَدَهَا بِأَخْسَنَ مِمَّا زَيَّنَتْهَا عَقْوَدُهَا

وقال خالد القسري لعمر بن عبد العزيز: مَنْ تَكُنَ الْخِلَافَةُ زَيْنَتَهُ، فَأَنْتَ زَيْنَتُهَا، وَمَنْ تَكُنَ شَرْفَتُهُ، فَأَنْتَ شَرْفَتُهَا، وَأَنْتَ كَمَا قَالَ [مَالِكُ بْنُ أَسْمَاءَ]:

وَتَزِيدِينَ أَطِيبَ الطَّيِّبِ طَيِّبًا إِنْ تَمَسَّيْهِ، أَيْنَ مِثْلُكَ أَيْنَا

وَإِذَا الدُّرُّ زَانَ حُسْنًا وَجْوهِ كَانَ لِلدُّرِّ حُسْنٌ وَجْهَكَ زَيْنَا

(١) وانظر مزيد إيضاح: «جلاء الأفهام» ص (١٥٠) للعلامة ابن القيم رحمه الله تعالى. وكما فرّق القرآن بين الزوجة والمرأة فرّق بين الأب والوالد، والغيث والمطر، والحركة والميد، والخوف والخشية، والريح والرياح، والسماء والسموات، والدعاء والدعاء... الخ.

فقال عمر: إن صاحبكم أعطى مَقُولاً، ولم يُعْطِ مَعْقُولاً، قال المؤلف: وإنما لم يخسّن هذا من خالد لما قصد به التملّق. وإلا فقد صدر مثل هذا المعنى عن الصّدّيق، فحسّن لما عَضَّده من التحقيق والتحزّي للحق، والبعد عن الملق والخلابة، وذلك حين عهد إلى عُمَرَ بالخلافة، ودفع إليه عهده مختوماً، وهو لا يعرف ما فيه، فلما عرف ما فيه رجع إليه حزينا كهيئة الثكلى: يقول: حملتني عُبّاً ألا أضطلع به، وأوردتني مورداً لا أدري: كيف الصّدْر عنه، فقال له الصديق: ما أثرتك بها، ولكني أثرتها بك، وما قصبت مَسَاءتكَ، ولكن رجوت إدخال السرور على المؤمنين بك، ومن ههنا أخذ الخطيئة قوله:

ما أثروك بها إذ قَدُموك لها لكن لأنفسهم كانت بها الإثْرُ
وقد سَبَّكَ هذا المعنى في النسب عبدُ الله بن عباس الرومي، فقال:

وأحسن من عِقْدِ المليحةِ جيدها وأحسن من سِرْبِالها المُتَجَرِّدُ
ومما هو دون الغلو، وفوق التقصير قول الرّضي:

حَلِيّه جيده، لا ما يُقَلِّده وكُحِّلَه ما بعينيه من الكَحَلِ
ونحو منه ما أنشده الثعالبي:

وما الحَلِيّ إلا جيلةٌ من نَقِيصَةٍ يُتَمَّمُ من حُسْنٍ إذا الحسنُ قَصُرا
فأما إذا كان الجمال موفرا فحسبُك لم يحتج إلى أن يُزَوِّرا

وسمعت القاضي أبا بكر محمد بن العربي يقول: حجّ أبو الفضل الجوهري الزاهد ذات مرة، فلما أشرف على الكعبة، ورأى ما عليها من الديباج تمثّل، وقال:

ما عُلِّقَ الحَلِيّ على صدرها إلا لما يُخَشَى من العَيْنِ
تقول والدُّرُّ على نَحْرِها مَنْ عُلِّقَ الشَّيْنُ على الزَّيْنِ
وبيت الأعشى المتقدم بعده:

وشَتَّيتِ كالأثْحَوَانِ جَلاه الطَّلُ فيه عُذْوِيَّةٌ وأَساقُ
وأثيبتِ جَنَلِ النِّبَاتِ تُزَوِّد ه لَعُوبٌ غَرِيرَةٌ مِفْتَاقُ
حُرَّةٌ طَفَلَةٌ الأَنَامِلِ كالدُّم يةٌ لا عَانِسٌ ولا مِهْرَاقُ

قال ابن إسحاق: فذكر لي: أن أم جميل: حمالة الحطب، حين سمعت ما نزل فيها، وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ، وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فُهر من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك، فقد بلغني أنه يهجوني؟ والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إنني لشاعرة، ثم قالت:

مُذَمَّمَا عَصَيْنَا وَأَمْرَهُ أَبَيْنَا
وَدِينَهُ قَلَيْنَا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تُراها رأتك؟ فقال: «ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني».

قال ابن هشام: قولها: «ودينه قلينا» عن غير ابن إسحاق.

قال ابن إسحاق: وكانت قريش إنما تسمي رسول الله ﷺ - مُذَمَّمَا، ثم يسبونه، فكان رسول الله ﷺ يقول: «ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أذى قريش، يسبون ويهجون مُذَمَّمَا، وأنا محمد!».

الفهر:

وذكر قول أم جميل لأبي بكر: لو وجدت صاحبك لشدخت رأسه بهذا الفهر. المعروف في الفهر: التأنيث، وتصغيره فُهيرة، ووقع ههنا مذكراً.

حول قولهم: مذمم وحديث خباب:

وذكر قول النبي ﷺ: «ألا ترون إلى ما يدفع الله عني من أذى قريش، يشتمون ويهجون مُذَمَّمَا وأنا محمد»^(١)؟! وأدخل النسوي هذا الحديث في كتاب الطلاق في باب: «من طلق بكلام لا يشبه الطلاق، فإنه غير لازم» وهو فقه حسن لقول النبي ﷺ -: «ألا ترون إلى ما يدفع الله عني»، فجعل أذاهم مصروقاً عنه، لما سبوا مُذَمَّمَا، ومُذَمَّمَا لا يشبه أن يكون اسماً له، فكذلك إذا قال لها: كلي واشربي، وأراد به الطلاق لم يلزمه، وكان مصروقاً عنه؛ لأن مثل هذا الكلام لا يشبه أن يكون عبارة عن الطلاق.

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٢٢٥/٤) وأحمد (٢٤٤/٢) والبيهقي (٢٥٢/٨) والحميدي (١١٣٦).

إيذاء أمية بن خلف للرسول ﷺ:

وأمية بن خلف بن وهب بن جُذافة بن جُمَح، كان إذا رأى رسول الله ﷺ هَمَزَهُ وَلَمَزَهُ، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَقْنَدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّةٌ فِي عَمَدٍ مُّمدَّدةٍ﴾.

قال ابن هشام: الهمزة: الذي يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه عليه، ويغمز به.
قال حسان بن ثابت:

هَمَزْتُكَ فَاخْتَضَعْتُ لَذُلِّ نَفْسٍ بِقَافِيَةٍ تَأْجِجُ كَالشُّوَاطِ

وهذا البيت في قصيدة له. وجمعه: همزات. واللمزة: الذي يعيب الناس سرًا ويؤذيهم. قال رؤبة بن العجاج:

فِي ظِلِّ عَضْرِي بَاطِلِي وَلَمْزِي

وهذا البيت في أرجوزة له، وجمعه: لمزات.

إيذاء العاص للرسول ﷺ:

قال ابن إسحاق: والعاص بن وائل السهمي، كان خَبَّابُ بن الأرت، صاحب رسول الله - ﷺ - قَيْنًا بمكة يعمل السيوف، وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفًا عملها له، حتى كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه، فقال له: يَا خَبَّابُ أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب، أو فضة، أو ثياب، أو خدم؟! قال خَبَّابُ: بلى. قال: فأنظرني إلى يوم القيامة يا خباب، حتى أزجع إلى تلك الدار، فأقضيك هنالك حقك، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خَبَّابُ آثَرٌ عند الله مني، ولا أعظم حظًا في ذلك، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾... إلى قوله تعالى: ﴿وَوَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [هي وما قبلها من سورة مريم: ٧٧ - ٨٠].

فصل: وذكر حديث خَبَّابِ مع العاصي بن وائل، وما أنزل الله فيه من قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ وقد تقدم الكلام على: أَرَأَيْتَ، وأنه لا يجوز أن يليها الاستفهام، كما يلي: علمت ونحوها، وهي ههنا: عاملة في الذي كفر، وقد قدمنا من القول فيها ما يغني عن إعادته ههنا، فليُنظر في سورة: اقرأ، وحديث نزولها.

إيذاء أبي جهل لرسول الله ﷺ

ولقي أبو جهل بن هشام رسول الله ﷺ - فيما بلغني - فقال له: والله يا محمد، لتتركن سب آلهمنا، أو لنسبن إلهك الذي تعبد. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] فذكر لي أن رسول الله ﷺ كف عن سب آلهم، وجعل يدعوهم إلى الله.

إيذاء النضر لرسول الله ﷺ

والنضر بن الحارث بن علقمة بن كَلْدَةَ بن عَبْد مناف بن عَبْد الدار بن قُصَيّ،

سدّ الذرائع

فصل: وذكر قول أبي جهل لتكفن عن سب آلهمنا أو لنسبن إلهك، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] الآية. وهذه الآية أصل عند المالكية في إثبات الذرائع ومراعاتها في البيوع وكثير من الأحكام، وذلك أن سب آلهم كان من الدين، فلما كان سبباً إلى سبهم الباري - سبحانه - نهى عن سب آلهم، فكذلك ما يخاف منه الذريعة إلى الربا، ينبغي الزجر عنه، ومن الذرائع ما يقرب من الحرام، ومنها ما يبعد فتقح الرخصة والتشديد على حسب ذلك، ولم يجعل الشافعي الذريعة إلى الحرام أصلاً، ولا كره شيئاً من البيوع التي تنقضي فيها الذريعة إلى الربا، وقال: تهمة المسلم وسوء الظن به حرام، ومن حجتهم: قول عمر بن الخطاب: إنما الربا على من قصد الربا، وقول النبي عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١) فيه أيضاً متعلق لهم، وقالوا: ونهيه تعالى عن سب آلهم، لئلا يسب الله تعالى ليس من هذا الباب؛ لأنه لا تهمة فيه لمؤمن ولا تضيق عليه، وكما تنقضي الذريعة إلى تحليل ما حرّم الله، فكذلك ينبغي أن يُنقضي تحريم ما أحلّ الله، فكلا الطرفين ذميم، وأحلّ الله البيع وحرّم الربا، والربا معلوم، فما ليس من الربا فهو من البيع، والكلام في هذه المسألة للطائفتين، والاحتجاج للفريقين يتسع مجاله ويصّدنا عن مقصودنا من الكتاب^(٢).

عن النضر بن الحارث ورستم

فصل: حديث النضر بن الحارث، وقال في نسبه: كَلْدَةَ بن علقمة وغيره من النُسَاب

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٢/١) ومسلم في الإمامة (١٥٥) وأبو داود (٢٢٠١) بتحقيقي والترمذي

(١٦٤٧) وابن ماجه (٤٢٢٧) وغيرهم في غيرهم.

(٢) انظر «إقامة الدليل على إبطال التحليل» للعلامة شيخ الإسلام ابن تيمية.

كان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً، فدعا فيه إلى الله تعالى، وتلا فيه القرآن، وحذر قريشاً ما أصاب الأمم الخالية، خلفه في مجلسه إذا قام، فحدثهم عن رستم السديد، وعن إسفنديار، وملوك فارس، ثم يقول: والله يا محمد بأحسن حديثاً مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين، اكتتبها كما اكتتبها. فأنزل الله فيه: ﴿وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦]. ونزل فيه: ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. ونزل فيه: ﴿وَنَزَلَ لِكُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٌ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابِ إِلِيمٍ﴾ [الجن: ٧، ٨].

قال ابن هشام: الأفاك: الكذاب. وفي كتاب الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفَكِهِمْ يَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الصفات: ١٥١، ١٥٢]. وقال رؤية:

لَا مِرْيَءَ أَفَكَ قَوْلًا إَفَكًا

وهذا البيت في أرجوزة له.

قال ابن إسحاق: وجلس رسول الله ﷺ يوماً - فيما بلغني - مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث، حتى جلس معهم في المجلس، وفي المجلس غير واحد من قريش، فتكلم رسول الله ﷺ. فعرض له النضر بن الحارث، فكلّمه رسول الله ﷺ - حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ١٠٠].

يقول: علقمة بن كلد، وكذلك ألفيته في حاشية كتاب الشيخ أبي بحر عن أبي الوليد، وحديث النضر: أنه تعلّم أخبار رستم وإسفندياز، وكان يقول: اكتتبها كما اكتتبها محمد، ووقع في الأصل: اكتتبها كما اكتتبها محمد، وفي الرواية الأخرى عن أبي الوليد: اكتتبها كما اكتتبها، ورستم الشيد بالفارسية معناه: ذو الضياء، والياء في الشيد والألف سواء، ومنه «أرفخشاذ» وقد تقدم شرحه، ومنه «جم شاذ»، وهو من أول ملوك «الأرض» وهو الذي قتله الضحّاك «بيوراسب»، ثم عاش إلى مدة «أفريزون وأبيه جم»، وبين «أفريزون» وبين «جم» تسعة آباء، وقال له حين قتله: ما قتلتك بجم، وما أنت له بكفاء، ولكن قتلتك بشور كان في داره، وقد تقدّم طرف من أخبار رستم وإسفندياز في الجزء قبل هذا.

قال ابن هشام: حصب جهنم: كل ما أوقدت به. قال أبو ذؤيب الهذلي واسمه: خويلد بن خالد:

فأطفئ، ولا تُوقد، ولا تَكُ مُخَصِّبًا لنارِ العُدَّةِ أن تَطِيرَ شَكَاثُهَا
وهذا البيت في أبيات له. ويروى: ﴿وَلَا تَكُ مِخْضًا﴾. قال الشاعر:
حَضَّأْتُ لَهُ نَارِي فَأَبْصَرَ ضَوْءَهَا وما كان لولا حَضَّاءُ النارِ يَهْتَدِي

ابن الزبيري والأخنس وما قيل فيهما

قال ابن إسحاق: ثم قام رسول الله - ﷺ - وأقبل عبد الله بن الزبيري السهمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبيري: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبيري: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمدا: أكل ما يُعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد غزيرا والنصارى تعبد عيسى ابن مريم عليهما السلام، فعجب الوليد، ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبيري، ورأوا أنه قد احتج وخاصم. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ من قول ابن الزبيري فقال رسول الله ﷺ: «كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين، ومن أمرتهم بعبادته»، فأنزل الله تعالى عليه في ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢]: أي عيسى ابن مريم، وغزيرا، ومن عبدوا من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله.

حديث ابن الزبيري وعزير

وذكر حديث ابن الزبيري، وقوله: إنا نعبد الملائكة، وأن النصارى تعبد المسيح إلى آخر كلامه، وما أنزل الله في ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ الآية قال المؤلف: ولو تأمل ابن الزبيري وغيره من كفار قريش الآية لرأى اعتراضه غير لازم من وجهين:

أحدهما: أنه خطاب متوجه على الخصوص لقريش وعبدة الأصنام، وقوله إنا نعبد الملائكة حيدة، وإنما وقع الكلام والمُحاجة في اللات والعزى وهبل، وغير ذلك من أصنامهم.

ونَزَّلَ فيما يذكرون، أنهم يعبدون الملائكة، وأنها بنات الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]. إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَقَدْ لَكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

ونزل فيما ذكر من أمر عيسى ابن مريم أنه يُعبد من دون الله، وعَجِبَ الوليد، وَمَن حَضَرَهُ من حُجَّتِهِ وخصومته: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧]. أي: يصدون عن أمرك بذلك من قولهم.

ثم ذكر عيسى ابن مريم فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهِا

والثاني: أن لفظ التلاوة: ﴿إنكم وما تعبدون﴾ ولم يقل: وَمَن تعبدون، فكيف يلزم اعتراضه بالمسيح وعزير والملائكة وهم يعقلون، والأصنام لا تعقل، ومن ثَمَّ جاءت الآية بلفظ: ما الواقعة على ما لا يعقل، وإنما تقع ما على ما يعقل^(١)، وتعلم بقرينة من التعظيم والإبهام، ولعلنا نشرحها ونبينها فيما بعد إن قُدِّرَ لنا ذلك، وسبب عبادة النصارى للمسيح معروف، وأما عبادة اليهود عزيرًا، وقولهم فيه: إنه ابن الله سبحانه وتعالى عن قولهم، وسببه فيما ذكر عبد بن حميد الكشي، أن التوراة لما اخْتَرَقَتْ أَيَّامَ بُحْتِ نَصْرٍ، وذهب بذهابها دين اليهود، فلما تاب إليهم أمرهم وجدوا لفقدها أعظم الكرب، فبينما عزير يبكي لفقد التوراة، إذ مرَّ بامرأة جاثمة على قبر قد نشرت شجرها، فقال لها عزير: مَنْ أنت؟ قالت: أنا إيليا أم القرى أبكي على ولدي، وأنت تبكي على كتابك، وقالت له: إذا كان غداً، فأب هذا المكان، فلما أن جاء من الغد للساعة التي وعدته، إذا هو بإنسان خارج من الأرض في يده كهيئة القارورة، فيها نور، فقال له: افتح فاك، فألقاها في جوفه، فكتب عزيرُ التوراة - كما أنزلها الله، ثم قدر على التوراة بعدما كانت دفنت أن ظهرت، فعرضت التوراة، وما كان عزيرُ كَتَبَ، فوجدوه سواء، فمنها قالوا: إنه ولدُ الله تعالى عن ذلك^(٢).

(١) إن «ما» تطلق على ما لا يعلم وعلى صفات مَنْ يعلم، قال تعالى: ﴿فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ انظر الجزء السادس عشر من مجموع الفتاوى لابن تيمية رحمه الله تعالى وجزاه الله عنا كل خير - في تفسير سورة «الكافرون». والكتاب القيم لتلميذه ابن القيم: «بدائع القواعد» (١/١٣٦) وستحدث السهيلي بعد قليل من لفظة «ما» فانظر.

(٢) قصة تقتصر إلى الدليل «الصحيح» الذي يعتضدها.

وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ ﴿[الزخرف: ٥٩ - ٦١] أَيْ: مَا وَضَعْتُ عَلَى يَدِيهِ مِنَ
الآيَاتِ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَإِبْرَاءِ الْأَسْقَامِ، فَكَفَى بِهِ دَلِيلًا عَلَى عِلْمِ السَّاعَةِ، يَقُولُ: ﴿فَلَا
تَمْتَرُوا بِهَا وَاتَّبِعُوا هَذَا صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وَالْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ وَهَبٍ الثَّقَفِيُّ، حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ، وَكَانَ مِنْ
أَشْرَافِ الْقَوْمِ، وَمِمَّنْ يُسْتَمْعَى مِنْهُ، فَكَانَ يُصِيبُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيَرِدُ عَلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ
تَعَالَى فِيهِ: ﴿وَلَا تُطِغْ كُلُّ خِلَافٍ مَهِينٍ هَمَازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠، ١١]... إِلَى
قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زَنِيمٌ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: زَنِيمٌ لَعِيبٍ فِي نَسَبِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَعْيبُ أَحَدًا بِنَسَبٍ،
وَلَكِنَّهُ حَقَّقَ بِذَلِكَ نَعْتَهُ لِيُعْرَفَ. وَالزَّنِيمُ: الْعَدِيدُ لِلْقَوْمِ، وَقَدْ قَالَ الْخَطِيمُ التَّمِيمِيُّ فِي
الْجَاهِلِيَّةِ:

زَنِيمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً كَمَا زِيدَ فِي عَرَضِ الْأَدِيمِ الْأَكَارُغُ

حَصَبُ جَهَنَّمَ:

وَقَوْلُهُ حَصَبُ جَهَنَّمَ، هُوَ مِنْ بَابِ الْقَبْضِ وَالنَّقْضِ وَالْحَصْبُ بِسُكُونِ الصَّادِ كَالْقَبْضِ
وَالنَّقْضِ، وَمِنْهُ الْحَاصِبُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وَيُرْوَى: حَصْبُ
جَهَنَّمَ بِضَادٍ مَعْجَمَةٍ فِي شَوَازِ الْقِرَاءَاتِ، وَهُوَ مِنْ حَضَبَتِ النَّارِ بِمَنْزِلَةِ حَضَاتِهَا، يَقَالُ: أَرُتْهَا
وَأَثْقَبْتُهَا وَحَشَشْتُهَا وَأَذْكَيْتَهَا وَفَسَّرَ ابْنُ إِسْحَاقَ قَوْلَهُ: يَصْدُونَ، وَمَنْ قَرَأَ: يَصْدُونَ فَمَعْنَاهُ:
يَعْجِبُونَ.

مَا نَزَلَ فِي الْأَخْنَسِ:

فَصَلِّ: وَذَكَرَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيقٍ - وَاسْمُهُ: أَبِي مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿عَتَلُ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ وَقَدْ قِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ، وَقَدْ قِيلَ: فِي الْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ
يَغُوثِ الزَّهْرِيِّ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ لَهُ زَنَمَتَانِ كَزَنَمَتِي الشَّاةِ. رَوَاهُ
الْبُخَارِيُّ بِإِسْنَادِهِ عَنْهُ^(١). وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ قَالَ: الزَّنِيمُ الَّذِي زَنَمَتَانِ مِنَ الْبَشَرِ يُعْرَفُ بِهَا،
كَمَا تُعْرَفُ الشَّاةُ بِزَنَمَتِهَا، وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا مِثْلَ مَا قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ الزَّنِيمَ
الْمَلْصَقُ بِالْقَوْمِ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ، قَالَ ذَلِكَ ابْنُ الْأَزْرَقِ الْحَرُورِيُّ، وَقَالَ: أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ
حَسَّانَ: زَنِيمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ الْبَيْتَ، وَقَدْ أَنْشَدَ ابْنُ هِشَامٍ هَذَا الْبَيْتَ مُسْتَشْهِدًا بِهِ وَنَسَبَهُ لِلْخَطِيمِ
التَّمِيمِيِّ، وَالْأَعْرَفُ أَنَّهُ لِحَسَّانَ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٢)، وَأَمَّا الْعَتَلُ فَهُوَ الْغَلِيظُ الْجَافِيُّ مِنَ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٣٥/٥).

(٢) انْظُرْ تَفْسِيرَ الطَّبْرِيِّ (٢٩/١٤/١٧/١٨) الدَّرُ الْمَثُورَ (٦/٢٥١) فَتَحَ الْبَارِي (٨/٥٣٠).

ما قيل في الوليد بن المغيرة وأبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط:

والوليد بن المغيرة، قال: أُنْزِلَ على محمد، وأترك وأنا كبير فُريش وسيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عُمير الثقفي سيّد ثقيف، ونحن عظيم القريتين؟! فأنزل الله تعالى فيه، فيما بلغني: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣٠]... إلى قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

وأبي بن خلف بن وهب بن خُذافة بن جُمَح، وعُقبة بن أبي مُعيط، وكانا مُتصافيين، حَسَنًا ما بينهما. فكان عُقبة قد جلس إلى رسول الله - ﷺ - وسمع منه، فبلغ ذلك أبيًا، فاتى عُقبة، فقال: ألم يبلُغني أنك جالست محمدًا، وسمعت منه! ثم قال: وجهي من وجهك حَرَام أن أكلُك - واستغلظ من اليمين - إن أنت جلست إليه، أو سمعت منه، أو لم تأت، فتتفل في وجهه. ففعل من ذلك عدو الله عُقبة بن أبي مُعيط لعنه الله. فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾... إلى قوله تعالى: ﴿لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

ومشى أبي بن خلف إلى رسول الله - ﷺ - بعظم بالٍ قد ازفّت، فقال: يا محمد، أنت تزعم أن يبعث هذا بعد ما أرم، ثم فتّه بيده، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله - ﷺ - فقال رسول الله - ﷺ -: «نعم، أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار». فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُخَيِّ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُخَيِّهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس: ٧٩، ٨٠].

ما قيل في حق الذين اعترضوا الرسول في الطواف

واعترض رسول الله ﷺ، وهو يطوف بالكعبة - فيما بلغني - الأسود بن

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾ [إلى سَوَاءِ الْجَحِيمِ] [الدخان: ٤٧]. وقال عليه السلام: «أنا أنبتكم بأهل النار: كُلُّ عَتَلٍ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ جَمَاعٍ مِّنَّا»^(١).

﴿قل يا أيها الكافرون﴾

فصل: وذكر قولهم الذي أنزل الله فيه: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ إلى آخرها فقال: ﴿لا

(١) «صحيح». أخرجه ابن ماجة (٤١١٩) وأحمد (٣٠٦/٤) وابن الجوزي في زاد المسير (٨/٣٣٢) وأصله في الصحيحين.

المطلب بن أسد بن عبد العزى، والوليد بن المغيرة، وأمّية بن خلف، والعاص بن وائل السهمي، وكانوا ذوي أسنان في قومهم، فقالوا: يا محمد، هلّم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد، كنّا قد أخذنا

أعبد ما تعبدون؟ أي: في الحال ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ أي: في المستقبل، وكذلك: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ فإن قيل: كيف يقول لهم: ولا أنتم عابدون ما أعبد، وهم قد قالوا: هلّم فلنعبد ربك، وتعبد ربنا، كيف نفى عنهم ما أرادوا وعزموا عليه؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أنه علم أنهم لا يفعلون، فأخبر بما علم. الثاني: أنهم لو عبدوه على الوجه الذي قالوه ما كانت عبادة، ولا يسمى عابدًا لله من عبده سنّة، وعبد غيره أخرى، فإن قيل: كيف قال: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ ولم يقل: من أعبد، وقد قال أهل العربية: إن ما تقع على ما لا يعقل، فكيف عبّر بها عن الباري تعالى؟ فالجواب: أنا قد ذكرنا فيما قبل أن ما قد تقع على من يعقل بقرينة، فهذا أوان ذكرها، وتلك القرينة: الإبهام والمبالغة في التعظيم والتفخيم، وهي في معنى الإبهام لأن من جلّت عظمته، حتى خرجت عن الحصر، وعجزت الأفهام عن كنه ذاته، وجب أن يقال فيه: هو ما هو كقول العرب: سُبْحَان ما سُبِّح الرعدُ بحمده، ومنه قوله: ﴿والسما وما بناها﴾ فليس كونه عالمًا مما يوجب له من التعظيم ما يوجب له أنه بنى السموات، ودحا الأرض، فكان المعنى: إن شيئًا بناها لَعَظِيم، أو ما أعظمه من شيء! فلفظ ما في هذا الموضع يؤذن بالتعجب من عظمته كائنًا ما كان هذا الفاعل لهذا، فما أعظمه، وكذلك قوله تعالى في قصة آدم: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ ولم يقل: لِمَنْ خَلَقْتَ، وهو يَعْقِل، لأن السجود لم يجب له من حيث كان يعقل، ولا من حيث كان لا يعقل، ولكن من حيث أمروا بالسجود له، فكائنًا ما كان ذلك المخلوق، فقد وجب عليهم ما أمروا به، فمن هاهنا حَسُنَتْ ما في هذا الموضع، لا من جهة التعظيم له، ولكن من جهة ما يقتضيه الأمر من السجود له، فكائنًا من كان، وأما قوله تعالى: ﴿لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فوَاقِعَةٌ على ما لا يعقل؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام، وقوله: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ اقتضاها الإبهام، وتعظيم المعبود مع أن الحسّ منهم مانع لهم أن يعبدوا معبوده كائنًا ما كان، فحسنت ما في هذا الموضع لهذه الوجوه، فبهذه القرائن يحسن وقوع ما على أولي العلم وبقيت نكتة بديعة يتعين التنبيه عليها، وهو قوله تعالى: ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ بلفظ الماضي، ثم قال: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ بلفظ المضارع في الآيتين جميعًا، إذا أخبر عن نفسه قال: ما أعبد، ولم يقل: ما عبدت، والنكتة في ذلك أن ما لما فيها من الإبهام - وإن كانت خبرية - تعطي معنى الشرط، فكأنه قال: مهما عبدتم شيئًا، فإني لا أعبد، والشرط يحول المستقبل إلى لفظ الماضي، تقول: إذا قام زيد غدًا فعلت كذا،

بحفظنا منه، وإن كان ما نعبد خير مما تعبد، كنت قد أخذت بحفظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ﴾ [الكافرون: ١ - ٦]. أي: إن كنتم لا تعبدون إلا الله، إلا أن أعبد ما تعبدون، فلا حاجة لي بذلك منكم، لكم دينكم جميعاً، ولي ديني.

ما قيل في حق أبي جهل

وأبو جهل بن هشام - لما ذكر الله عز وجل شجرة الزقوم تخويفاً بها لهم، قال: يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يثرب بالزبد، والله لئن استمكنا منها لَنَتَرَقَّمَنَّهَا تَرَقُّمًا. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ

وإن خرج زيد غداً خرجت، فما: فيها رائحة الشرط من أجل إبهامها؛ فلذلك جاء الفعل بعدها بلفظ الماضي، ولا يدخل الشرط على فعل الحال، ولذلك قال في أول السورة: ما تعبدون؛ لأنه حال لأن رائحة الشرط معدومة فيها مع الحال، وكذلك رائحة الشرط معدومة في قوله: عابدون ما أعبد؛ لأنه - عليه السلام - يستحيل أن يتحول عن عبادة ربه؛ لأنه معصوم، فلم يستقم تقديره بمهما، كما استقام ذلك في حقهم؛ لأنهم في قبضة الشيطان يقودهم بأهوائهم؛ فجائز أن يعبدوا اليوم شيئاً، ويعبدوا غداً غيره، ولكن مهما عبدوا شيئاً، فالرسول عليه السلام لا يعبد؛ فلذلك قال: ولا أنتم عابدون ما أعبد في الحال وفي المال، لما علم من عصمة الله له، ولما علم الله من ثباته على توحيده، فلا مدخل لمعنى الشرط في حقه عليه السلام، وإذا لم يدخل الشرط في الكلام بقي الفعل المستقبل على لفظه، كما تراه، ونظير هذه المسألة قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُنَكِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ اضطربوا في إعرابها وتقديرها لما كانت من بمعنى الذي، وجاء بكان على لفظ الماضي، وفهمها الزجاج، فأشار إلى أن من فيها طرف من معنى الشرط؛ ولذلك جاءت كان بلفظ الماضي بعده، فصار معنى الكلام: من يكن صبيّاً، فكيف يكلم؟! لما أشارت إلى الصبي: أن كَلِّمُوهُ، ولو قالوا: كيف نكلم من هو في المهد الآن لكان الإنكار والتعجب مخصوصاً به، فلما قالوا: كيف نكلم من كان، صار الكلام أبلغ في الاحتجاج للعموم الداخل فيه. إلى هذا الغرض أشار أبو إسحق، وهو الذي أراد، وإن لم يكن هذا لفظه، فليس المقصود العبارات، وإنما المقصود تصحيح المعاني المتلقاة من الألفاظ والإشارات.

الزقوم

فصل: وذكر حديث أبي جهل حين ذكر شجرة الزقوم يقال: إن هذه الكلمة لم تكن من لغة قريش، وأن رجلاً أخبره أن أهل يثرب: يقولون تَرَقَّمْتُ: إذا أكلت التمر بالزبد،

شَجَرَةُ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَيْمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿[الجاثية: ٤٤ - ٤٦].
أي: ليس كما يقول.

قال ابن هشام: المهمل: كل شيء أذبت، من نحاس أو رصاص، أو ما أشبه ذلك
فيما أخبرني أبو عبيدة.

وبلغنا عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال: كان عبد الله بن مسعود والياً لعمر بن
الخطاب على بيت مال الكوفة، وأنه أمر يوماً بفضة، فأذيت، فجعلت تلوؤ الوائاً،
فقال: هل بالباب من أحد؟ قالوا: نعم، قال: فأدخلوهم، فأدخلوا فقال: إن أدنى ما
أنتم راؤون شبيهاً بالمُهْل لهذا، وقال الشاعر:

يَسْقِيهِ رَبِّي حَمِيمَ الْمُهْلِ يَجْرَعُهُ يَشْوِي الْوَجُوهَ فَهُوَ فِي بَطْنِهِ صَهْرُ

وقال عبد الله بن الزبير الأسدي:

فَمَنْ عَاشَ مِنْهُمْ عَاشَ عَبْدًا وَإِنْ يَمُتْ فِي النَّارِ يُسْقَى مُهْلَهَا وَصَدِيدَهَا

وهذا البيت في قصيدة له.

ويقال: إن المهمل: صديد الجسد.

بلغنا أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - لما حُضِرَ، أَمَرَ بِثَوْبَيْنِ لَيْسَيْنِ يُغْسَلَانِ،
فِيَكْفَنُ فِيهِمَا، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: قَدْ أَغْنَاكَ اللَّهُ يَا أَبْتَ عَنْهُمَا، فَاشْتَرِ كَفَنًا، فَقَالَ: إِنَّمَا هِيَ
سَاعَةٌ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى الْمُهْلِ. قال الشاعر:

شَابَ بِالْمَاءِ مِنْهُ مُهْلًا كَرِيهًا ثُمَّ عَلَّ الْمَنُونُ بَعْدَ النَّهَالِ

قال ابن إسحق: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ فَمَا
يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

فجعل بجعله اسم الزقوم من ذلك استهزاء، وقيل: إن هذا الاسم أصلاً في لغة اليمن، وأن
الزقوم عندهم كل ما يُتَقَيُّأ منه. وذكر أبو حنيفة في النبات: أن شجرة باليمن يقال لها:
الزقوم، لا ورق لها وفروعها أشبه شيء برؤوس الحيات، فهي كريهة المنظر، وفي تفسير
ابن سلام والمازدي أن شجرة الزقوم في الباب السادس من جهنم أعادنا الله منها، وأن أهل
النار ينحدرون إليها. قال ابن سلام: وهي تحيا باللهب كما تحيا شجرة الدنيا بالمطر.

وقوله: الملعونة في القرآن، أي: الملعون أكلها، وقيل: بل هو وصف لها كما يقال:
يوم ملعون أي مشؤوم.

قصة ابن أم مكتوم

ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يكلمه، وقد طمع في إسلامه، فبينما هو في ذلك، إذ مرَّ به ابنُ أمِّ مكتوم الأعمى، فكلم رسول الله ﷺ، وجعل يستقرئه القرآن، فشقَّ ذلك منه على رسول الله ﷺ - حتى أضجره، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد، وما طمع فيه من إسلامه، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابسًا، وتركه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿عَسَىٰ وَتَوَلَّىٰ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾... إلى قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ أي: إنما بعثتك بشيرًا ونذيرًا، لم أخص بك أحدًا دون أحد، فلا تمنعه مِمَّن ابتغاه، ولا تتصدَّين به لمن لا يريده.

حديث ابن أم مكتوم

فصل: وذكر حديث ابن أمِّ مكتوم، وذكر اسمه ونسبه. وأمِّ مكتوم: اسمها: عاتكة بنت عبد الله بن عَنَكَّة بن عامر بن مخزوم.

وذكر الرجل الذي كان شغل رسول الله ﷺ، وأنه الوليد بن المغيرة، وقد قيل: كان أمية بن خلف، وفي حديث الموطأ: عظيم من عظماء المشركين، ولم يسمه^(١)، وفي قوله سبحانه: ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ من الفقه أن لا غيبة في ذكر الإنسان بما ظهر في خلقته من عمى أو عرج، إلا أن يقصد به الازدراء، فيلحق المائم به؛ لأنه من أفعال الجاهلين، قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذْنَا هُزُوءًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]. وفي ذكره إياه بالعمى من الحكمة والإشارة اللطيفة التنبيه على موضع العتب؛ لأنه قال: ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ فذكر المجيء مع العمى، وذلك ينبئ عن تَجَسُّم كُفْلَةٍ وَمَنْ تَجَسَّم القصد إليك على ضعفه، فحقَّق الإقبال عليه، لا الإعراض عنه، فإذا كان النبي - ﷺ - مَغْتُوبًا على توليه عن الأعمى، فغيره أحقَّ بالعتب، مع أنه لم يكن آمن بعد، ألا تراه يقول: ﴿وما يُذْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكِي﴾ الآية ولو كان قد صحَّ إيمانه، وعلم ذلك منه لم يعرض عنه رسول الله - ﷺ - ولو أعرض لكان العتب أشد، والله أعلم، وكذلك لم يكن ليخبر عنه، ويسميه بالاسم المشتق من العمى، دون الاسم المشتق من الإيمان والإسلام، لو كان دخل في الإيمان قبل ذلك والله أعلم، وإنما دخل فيه بعد نزول الآية، ويدل على ذلك قوله للنبي - ﷺ -: استذنيني يا محمد ولم يقل: استذنيني يا رسول الله، مع أن ظاهر الكلام يدل على أن الهاء في لعله يزكي عائدة على الأعمى، لا على الكافر؛ لأنه لم يتقدم له

(١) أخرجه مالك (١/١٧٢).

قال ابن هشام: ابن أم مكتوم، أحد بني عامر بن لؤي، واسمه: عبد الله، ويقال: عمرو.

ذكر بعد، ولعل تعطي التَّرجِي والانتظار، ولو كان إيمانه قد تقدم قبل هذا لخرج عن حدِّ التَّرجِي والانتظار للتَّزَكِّي، والله أعلم.

العائدون من أرض الحبشة

قال ابن إسحاق: وبلغ أصحاب رسول الله ﷺ، الذين خرجوا إلى أرض الحبشة، إسلام أهل مكة، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك، حتى إذا دَنَوْا من مكة، بلغهم أنَّ ما كانوا تحدَّثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحدٌ إلا بجوارٍ أو مستخفياً.

فكان ممَّن قَدِمَ عليه مكة منهم، فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة، فشهد معه بدرًا، وممَّن حُيس عنه، حتى فاته بدرٌ وغيره، وممَّن مات بمكة. منهم من بني عبد شمس بن عبد مناف بن قصي: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، معه امرأته: رُقَيَّة بنت رسول الله - ﷺ -. وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، امرأته سهلة بنت سهيل.

ومن حلفائهم: عبد الله بن جحش بن رثاب.

قصة الغرائق^(١) وإسلام مكة

وذكر ما بلغ أهل الحبشة من إسلام أهل مكة، وكان باطلاً، وسببه أن رسول الله - ﷺ - قرأ سورة النجم، فألقى الشيطانُ في أُمْنِيَّتِهِ، أي: في تلاوته عند ذِكْرِ اللَّاتِ وَالْعُزَّى، وإِنَّهُمْ لَهُمُ الْعُرَائِقَةُ الْعُلَى، وإن شَفَاعَتَهُمْ لَتُزَجَّى، فطار ذلك بمكة، فسَرَ المشركون، وقالوا: قد ذكر آلهتنا بخير فسجد رسولُ الله - ﷺ - في آخرها، وسجد المشركون والمسلمون، ثم أنزل الله تعالى: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ الآية، فمن ههنا

(١) الغرائق: جمع غرنوق: الذكور من الطير. وقصة الغرائق ضعيفة، بل هي موضوعة فيه عليها أهل العلم سلفاً وخلفاً وقد جمع العلامة الألباني حفظه الله وأمتع به الكثيرين كلامهم في كتاب دحض قصة الغرائق، وفيه على ما فيها من غث وعبث.

ومن بني نُوَفل بن عبد مناف: عُثْبَةُ بن عَزْوان، حليفٌ لهم، من قَيْس عيلان.

ومن بني أَسَد بن عبد العُزَّى بن قُصَيٍّ: الزُّبَيْر بن العَوَّام بن خُوَيْلد بن أَسَد.

ومن بني عبد الدار بن قُصَيٍّ: مُضْعَب بن عُمَيْر بن هَاشِم بن عبد مناف وسُوَيْبَط بن سعد بن خَزَمَةَ.

ومن بني عَبد بن قُصَيٍّ: طَلَيْب بن عُمَيْر بن وَهَب بن أَبِي كَبِير بن عَبد.

ومن بني زُهْرَةَ بن كِلَاب: عَبدُ الرحمن بن عَوْف بن عبد عَوْف بن عبد بن الحارث بن زُهْرَةَ، والمِقْدَادُ بن عمرو، حليف لهم، وعَبدُ الله بن مسعود، حليف لهم.

ومن بني مخزوم بن يَقْظَةَ: أَبُو سَلَمَةَ بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، معه امرأته: أُمُّ سَلَمَةَ بنت أبي أُمَيَّة بن المَغيرة، وشُمَّاس بن عثمان بن الشَّرِيد بن سُويد بن هَزْمِيٍّ بن عامر بن مخزوم. وسَلَمَةُ بن هشام بن المَغيرة، حبسه عَمّه بمكة، فلم يقدم إلا بعد بدر وأُحُد والخندق، وعياش بن أبي ربيعة بن المَغيرة هاجر معه إلى المدينة، ولحق به أخواه لأُمّه: أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام، فرجعا به إلى مكة، فحبساه بها حتى مضى بدرٌ وأُحُد والخندق.

ومن حلفائهم: عَمَّار بن ياسر، يُشَكُّ فيه، أكان خرج إلى الحبشة أم لا؟ ومُعْتَب بن عَوْف بن عامر من خزاعة.

ومن بني جُمَح بن عمرو بن هُصَيص بن كعب: عثمانُ بنُ مَظْعُون بن حَبِيب بن وَهَب بن خُذَافَةَ بن جُمَح، وابنه: السائب بن عثمان، وقُدَامة بن مَظْعُون، وعبد الله بن مَظْعُون.

اتصل بهم في أرض الحبشة أن قريشًا قد أسلموا، ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق من غير رواية البُكَائِي، وأهل الأصول يدفعون هذا الحديث بالحجة، وَمَنْ صَحَّحَهُ قال فيه أقوالاً، منها: أن الشيطان قال ذلك وأشاعه. والرسول - عليه السلام - لم ينطق به، وهذا جيد لولا أن في حديثهم أن جبريل قال لمحمد: ما أتيتك بهذا، ومنها: أن النبي - ﷺ - قالها من قبل نفسه، وعنى بها الملائكة: إن شفاعتهم لَتُرْتَجَى. ومنها: أن النبي - عليه السلام - قاله حاكياً عن الكُفَرَة، وأنهم يقولون ذلك، فقالها متعجباً من كفرهم، والحديث على ما خيلت غير مقطوع بصحته، والله أعلم.

ومن بني سَهْم بن عمرو بن هُصَيص بن كَعْب: حُنَيْس بن حُذَافَة بن قَيْس بن عَدِيٍّ، وهشام بن العاص بن وائل، حُبس بمكة بعد هجرة رسول الله - ﷺ - إلى المدينة، حتى قَدِمَ بعد بَذْرِ وأُحْدِ والخندق.

ومن بني عَدِيٍّ بن كَعْب: عامر بن رَبِيعَة، حليف لهم، معه امرأته: ليلَى بنت أبي حَثْمَة بن حذافة بن غانم.

ومن بني عامر بن لُؤَيٍّ: عبدُ الله بن مَخْرَمَة بن عبد العُزَّى بن أبي قَيْس: وعبد الله بن سُهَيْل بن عمرو، وكان حبس عن رسول الله - ﷺ - حين هاجر إلى المدينة، حتى كان يوم بَذْرِ، فانحاز من المشركين إلى رسول الله ﷺ، فشهد معه بدرًا، وأبو سَبْرَة بن أبي رُهم بن عبد العُزَّى، معه امرأته: أُم كلثوم بنت سُهَيْل بن عمرو، والسكران بن عمرو بن عبد شَمْس، معه امرأته: سَوْدَة بنت زَمْعَة بن قيس، مات بمكة قبل هجرة رسول الله - ﷺ - إلى المدينة، فخلف رسول الله ﷺ على امرأته سَوْدَة بنت زَمْعَة.

ومن حلفائهم سعد بن خَوْلَة.

ومن بني الحارث بن فِهْر: أبو عُبَيْدَة بن الجُرَاح، وهو عامر بن عبد الله بن الجُرَاح، وعمرو بن الحارث بن زُهَيْر بن أبي شَدَاد، وسُهَيْل ابن بَيْضَاء؛ وهو سهيل بن وهب بن ربِيعَة بن هلال، وعمرو بن أبي سَرْح بن ربِيعَة بن هلال «كنيته: أبو سعد كما في الإصابة».

فجميع مَنْ قَدِمَ عليه مَكَة من أصحابه من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلًا، فكان مَنْ دخل منهم بجوارٍ، فيمن سُمِّي لنا: عثمانُ بن مَظْعُون بن حبيب الجُمحي، دخل بجوارٍ من الوليد بن المُغيرة، وأبو سَلَمَة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عُمر بن مَخْزُوم، دخل بجوارٍ من أبي طالب بن عبد المطلب، وكان خاله. وأُمُّ أَبِي سَلَمَة: بَرَّة بنت عبد المطلب.

وسمى الذين قَدِمُوا منهم من أجل ذلك الخبر، وذكر فيهم طُلَيْيًّا، وقال في نسبه: ابن أبي كبير بن عبد بن قصي، وزيادة أبي كبير في هذا الموضع لا يوافق عليه وكذلك وجدت في حاشية كتاب الشيخ التنبيه على هذا وذكره أبو عمر ونسبه كما نسبه ابن إسحق بزيادة: أبي كبير، وكان بدرِيًّا في إحدى الروايتين عن ابن إسحق، وكذلك قال الواقدي وابن عقبة، ومات بأجنادَيْن شهيدًا لا عقب له.

قصة ابن مظعون مع الوليد:

قال ابن إسحاق: فأما عثمان بن مظعون، فإن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف حدثني عن حدثه عن عثمان، قال: لما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله - ﷺ - من البلاء، وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة، قال: والله إن غدوي ورواحي آمنًا بجوار رجلٍ من أهل الشرك - وأصحابي، وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني - لنقص كبير في نفسي، فمشى إلى الوليد بن المغيرة، فقال له: يا أبا عبد شمس، وفث ذمتك، قد رددت إليك جوارك، فقال له: لِمَ يا بن أخي؟ لعله آذاك أحدٌ من قومي، قال: لا، ولكنني أَرْضَى بجوار الله، ولا أريد أن أستجيرَ بغيره؟ قال: فانطلق إلى المسجد، فارددْ عليَّ جوارِي علانيةً، كما أجزتكَ علانيةً. قال: فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجدَ، فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يرذ عليَّ جوارِي، قال: صدق، قد وجدته وفيا كريم الجوار، ولكنني قد أحببتُ أن لا أستجير بغير الله، فقد رددتُ عليه جواره، انصرف عثمان، ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب في مجلس من قُرَيش يُشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

تأويل: كل شيء ما خلا الله باطل:

فصل: وذكر قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وقصة ابن مظعون إلى آخرها، وليس فيها ما يشكل غير سؤال واحد، وهو قول رسول الله - ﷺ -: «أصدق كلمة قالها الشاعر» قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل^(١)

فصدقه في هذا القول وهو - عليه السلام - يقول في مناجاته: «أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، والجنة حق، والنار حق، ولقاؤك حق»^(٢). فكيف يجتمع هذا مع قوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (١٢٧/٨) ومسلم في الشعر. مقدمة (٥٢٤) وأحمد (٢٤٨/٢) والترمذي (٢٨٤٩) وفي الشماثل له (١٢٦).

(٢) «صحيح». أخرجه البخاري (١٣٢/١) وغيره.

وكل نعيم لا محالة زائل

قال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول. قال لبيد بن ربيعة: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى شري أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل، فلطم عينه، فحضرها، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا بن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغنيّة، لقد كنت في ذمة منيعة. قال: يقول عثمان: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس، فقال له الوليد: هلّم يا بن أخي، إن شئت فعُد إلى جوارك، فقال: لا.

فالجواب من وجهين أحدهما: أن يريد بقوله: ما خلا الله: ما عداه، وعدا رحمته التي وعد بها من رحمه، والنار وما توعّد به من عقابه، وما سوى هذا فباطل أي: مضمحل والجواب الثاني: أن الجنة والنار وإن كانتا حقًا، فإن الزوال عليهما جائز لذاتهما، وإنما يبقيان بإبقاء الله لهما، وأنه يخلق الدوام لأهلها على قول من جعل الدوام والبقاء معنى زائداً على الذات، وهو قول الأشعري، وإنما الحق على الحقيقة من لا يجوز عليه الزوال، وهو القديم^(١) الذي انعدامه مُحال؛ ولذلك قال عليه السلام: أنت الحق بالآلف واللام، أي المستحق لهذا الاسم على الحقيقة، وقولك الحق؛ لأن قوله قديم، وليس بمخلوق فيبيد، ووعدك الحق كذلك، لأن وعده كلامه، هذا مقتضى الآلف واللام، ثم قال: والجنة حق، والنار حق بغير آلف ولام، ولقاؤك حق كذلك؛ لأن هذه أمور مُحَدَّثات والمحدث لا يجب له البقاء من جهة ذاته، وإنما علمنا بقاءها من جهة الخبر الصادق الذي لا يجوز عليه الخلف، لا من جهة استحالة البقاء عليها، كما يستحيل على القديم - سبحانه - الذي هو الحق، وما خلاه باطل، فإما جوهر وإما عرض، وليس في الأعراض إلا ما يجب له الفناء، ولا في الجوهر إلا ما يجوز عليه الفناء والبطول، وإن بقي ولم يبطل فجائز أن يبطل. وأما الحق - سبحانه - فليس من الجواهر والأعراض، فاستحال عليه ما يجب لهما، أو يجوز عليهما.

(١) القديم: ليس اسماً من أسمائه تعالى، وقد تقدم الكلام عليه في أول الكتاب، وانظر القواعد المثلى لفضيلة الشيخ محمد بن صالح، والقول الأسنى في تفسير الأسماء الحسنى للمحقق.

أبو سلمة في جوار أبي طالب:

قال ابن إسحاق: وأما أبو سلمة بن عبد الأسد، فحدثني أبي إسحاق بن يسار عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة أنه حدثه: أن أبا سلمة لما استجار بأبي طالب، مشى إليه رجال من بني مخزوم، فقالوا: يا أبا طالب، لقد منعت منا ابن أخيك محمدًا، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا؟ قال: إنه استجار بي، وهو ابن أختي، وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي، فقام أبو لهب، فقال: يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ، ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه، والله لتنتهن عنه، أو لنقومن معه في كل ما قام فيه، حتى يبلغ ما أراد. قال: فقالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة، وكان لهم وليًا وناصرًا على رسول الله - ﷺ - فأبقوا على ذلك، فطمع فيه أبو طالب حين سمعه يقول ما يقول، ورجا أن يقوم معه في شأن رسول الله - ﷺ - فقال أبو طالب يحرض أبا لهب على نصرته ونصرة رسول الله ﷺ:

وإن امرءًا أبو عتبة عمه	لفي روضة ما إن يسأم المظالم
أقول له - وأين منه نصيحتي	أبا مغتب ثبث سوادك قائم
فلا تقبلن الدهر ما عشت خطة	نسب بها، إما هبطت المواسم
وول سبيل العجز غيرك منهم	فإنك لم تخلق على العجز لازم
وحارب، فإن الحرب نضف وما ترى	أخا الحرب، يعطى الخسف حتى يسالم
وكيف ولم يجنوا عليك عزيمة	ولم يخذلوك غانمًا، أو مغارم
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً	وتيمًا ومخزومًا عقوقًا ومائمًا
بتفريقهم من بعد ود وألفة	جماعتنا، كيما ينالوا المحارم
كذبتهم وبيت الله نبري محمدًا	ولما تروا يومًا لدى الشعب قائمًا

قال ابن هشام: نبري: نسلب. قال ابن هشام: وبقي منها بيت تركناه.

أبو بكر يرد جوار ابن الدغنة

قال ابن إسحاق: وقد كان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - كما حدثني:

ذكر حديث أبي بكر مع ابن الدغنة

وذكر حديث أبي بكر حين لقي ابن الدغنة، واسمه: مالك، وهو سيد الأحابيش، وقد سماهم ابن إسحاق، وهم: بنو الحارث وبنو الهون من كنانة، وبنو المضطليق من خزاعة

محمد بن مُسلم الزُّهري، عن عُرْوَة، عن عائشة رضي الله عنهما، حين ضاقت عليه مكة، وأصابه فيها الأذى، ورأى مِنْ تَظَاهِر قُرَيْش على رسول الله - ﷺ - وأصحابه ما رأى، استأذن رسول الله - ﷺ - في الهجرة، فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجراً، حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين، لَقِيَهِ ابْنُ الدُّغْنَةِ، أخو بني الحارث بن عَبْدِ مَنَاة بن كِنَانَةَ، وهو يومئذ سيد الأحابيش.

قال ابن إسحاق: والأحابيش: بنو الحارث بن عبد مَنَاة بن كِنَانَةَ، والهُون بن خُزَيْمَةَ بن مُدْرِكَةَ، وبنو المُضْطَلَق من خِزَاعَةٍ.

قال ابن هشام: تحالفوا جميعاً، فسموا الأحابيش للحلف. ويقال: ابن الدُّغْنَةِ.

قال ابن إسحاق: حدثني الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: فقال ابن الدُّغْنَةِ: أين يا أبا بكر؟ قال: أَخْرَجَنِي قَوْمِي وَأَذَوْنِي، وَضَيَّقُوا عَلَيَّ، قال: وَلِمَ؟ فوالله إنك لَتَرِينَ العَشِيرَةَ، وَتُعِين على النوائب، وتفعل المعروف وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، ارجع، وأنت في جوارِي، فرجع معه، حتى إذا دخل مكة، قام ابْنُ الدُّغْنَةِ فقال: يا معشر قُرَيْش، إني قد أَجَرْتُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةٍ، فلا يعرضنَّ له أَحَدٌ إِلَّا بخير. قالت: فكفوا عنه.

قالت: وكان لأبي بكر مَسْجِدٌ عند باب داره في بني جُمَح، فكان يصلي فيه، وكان رجلاً رقيقاً، إذا قرأ القرآن استبكى. قالت: فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء، يعجبون لما يَرَوْنَ من هَيْئَتِهِ. قالت: فمشى رجلاً من قريش إلى ابن الدُّغْنَةِ، فقالوا له: يا بن الدُّغْنَةِ، إنك لم تُجْزِ هذا الرجل، لِيُؤْذِنَا! إنه رجل إذا صلى، وقرأ ما جاء به محمدٌ يرق ويبكي، وكانت له هيئة ونحو، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وَضَعْفَتِنَا أَنْ يَفْتِنَنَّهُمْ، فَأَتَاهُ فَمَرَّه أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَهُ، فَلْيَضَعْ فِيهِ مَا شَاءَ. قالت: فمشى ابْنُ الدُّغْنَةِ إِلَيْهِ، فقال له: يا أبا بكر، إني لم أَجْرِكَ لَتُؤْذِي قَوْمَكَ، إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت فيه، وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك، فاصنع فيه ما أحببت، قال: أَوْ أَرَدَ عَلَيْكَ جِوَارِكَ وَأَرْضِي بِجِوَارِ

تَحَبَّشُوا، أي: تجموا، فسموا الأحابيش. قيل: إنهم تحالفوا عند جُبَيْل، يقال له حُبْشِي، فاشتق لهم منه هذا الاسم.

وقوله لأبي بكر: إنك لَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، يقال: كَسَبْتَ الرجل مَالاً، فتعديه إلى مفعولين. هذا قول الأَصْمَعِيِّ، وحكى غيره: أكسبته مَالاً، فمعنى تَكْسِبُ المَعْدُومَ، أي: تَكْسِبُ غَيْرَكَ ما هو معدوم عنده، والدُّغْنَةُ: اسم امرأة عُرِفَ بها الرجل، والدُّغْنُ: الغنم يبقى بعد المطر.

الله؟ قال: فارد عليّ جوارى، قال: قد رددته عليك. قالت فقام ابنُ الدُّعْنَةِ، فقال: يا معشر قريش، إنّ ابنَ أبي قحافة قد ردّ عليّ جوارى، فشانكم بصاحبكم.

قال ابن إسحق: وحَدَّثني عبدُ الرحمن بن القاسم، عن أبيه القاسم بن محمد قال: لَقِيه بَنيهِ من سُفهاء قريش، وهو عامد إلى الكعبة، فَحَثَا على رأسه ترابًا. قال: فَمَرَّ بأبي بكر الوليد بن المُغيرة، أو العاص بن وائل. قال: فقال أبو بكر: ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفية؟ قال: أنت فعلتَ ذلكَ بنفسك. قال: وهو يقول: أي رب، ما أحلمك! أي رب، ما أحلمك! أي رب، ما أحلمك!.

حديث نقض الصحيفة

قال ابن إسحق: وبنو هاشم، وبنو المطلب الذي تعاقدت فيه قُريش عليهم في الصحيفة التي كتبوها، ثم إنه قام في نقض تلك الصحيفة التي تكاتبت فيها قريش على بني هاشم وبنو المطلب نفر من قريش، ولم يُبَلِّ فيها أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن نضر بن مالك بن جسل بن عامر بن لؤي، وذلك أنه كان ابن أخى نُضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، فكان هشام لبني هاشم واصلًا، وكان ذا شرف في قومه فكان - فيما بلغني - يأتي بالبعير، وبنو هاشم وبنو

عن الشعب ونقض الصحيفة

فصل: وذكر نقض الصحيفة، وقيام هشام فيها ونسبه، فقال: هشام بن الحارث، بن حبيب، وفي الحاشية عن أبي الوليد: إنما هو هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث، وهكذا وقع نسبه في رواية يونس عن ابن إسحق، وكان أبوه عمرو أخا نُضلة بن هاشم لأمه^(١).

وذكر أنه كان يأتي بالبعير قد أوقره بَرًا بالزاي المعجمة، وفي غير نسخة الشيخ أبي بحر: بَرًا، وفي رواية يونس: بَرًا أو بَرًا على الشك من الراوي.

وذكر أن منصور بن عكرمة كان كاتب الصحيفة، فشَلَّت يده، وللشَّاب من قريش في كاتب الصحيفة قولان، أحدهما: أن كاتب الصحيفة هو: بَغِيضُ بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، والقول الثاني: أنه مَنصور بن عبد شَرَحِيل بن هاشم من بني عبد الدار أيضًا، وهو خلاف قول ابن إسحق، ولم يذكر الزُّبَيْرُ في كاتب الصحيفة غير هذين القولين، والزُّبَيْرُيون أعلم بأنساب قومهم^(٢).

(١) انظر نسب قريش للزبيرى (٤١٢/٤٣١). (٢) انظر نسب قريش لمصعب الزبيرى (٢٢٢).

المُطْلَب في الشَّعْب لَيْلًا، قَدْ أَوْقَرَهُ طَعَامًا، حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ بِهِ قَمَّ الشَّعْب، خَلَعَ خِطَامَهُ مِنْ رَأْسِهِ، ثُمَّ ضَرَبَ عَلَى جَنْبِهِ، فَيَدْخُلُ الشَّعْبَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ يَأْتِي بِهِ قَدْ أَوْقَرَهُ بَزًّا، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ إِنَّهُ مَشَى إِلَى زُهَيْرِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ - وَكَانَتْ أُمُّهُ: عَاتِكَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ - فَقَالَ: يَا زُهَيْرُ، أَقَدْ رَضِيتَ أَنْ تَأْكُلَ الطَّعَامَ، وَتَلْبَسَ الثِّيَابَ، وَتَنْكَحَ النِّسَاءَ، وَأَخْوَالُكَ حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ، لَا يُبَاعُونَ، وَلَا يُبْتَاعُ مِنْهُمْ، وَلَا يَنْكَحُونَ، وَلَا يُنْكَحُ إِلَيْهِمْ؟ أَمَا إِنِّي أَخْلِفُ بِاللَّهِ أَنْ لَوْ كَانُوا أَخْوَالُ أَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ، ثُمَّ دَعَوْتَهُ إِلَى مَا دَعَاكَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ، مَا أَجَابَكَ إِلَيْهِ أَبَدًا، قَالَ: وَيْحَكَ يَا هِشَامُ! فَمَاذَا أَصْنَعُ؟ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مَعِيَ رَجُلٌ آخَرُ، لَقُمْتُ فِي نَقْضِهَا حَتَّى أَنْقَضُهَا، قَالَ: قَدْ وَجَدْتُ رَجُلًا قَالَ: فَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: أَنَا، قَالَ لَهُ زُهَيْرُ: أَبْغِنَا رَجُلًا ثَالِثًا.

فَذَهَبَ إِلَى الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ، فَقَالَ لَهُ: يَا مُطْعِمُ أَقَدْ رَضِيتَ أَنْ يَهْلِكَ بَطْنَانُ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ، وَأَنْتَ شَاهِدٌ عَلَى ذَلِكَ، مُوَافِقٌ لِقَرِيشٍ فِيهِ! أَمَا وَاللَّهِ لئن أُمَكِّنْتُمُوهُمْ مِنْ هَذِهِ لَتَجْذُبُنَّهُمْ إِلَيْهَا مِنْكُمْ سَرَاعًا، قَالَ: وَيْحَكَ! فَمَاذَا أَصْنَعُ؟ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، قَالَ: قَدْ وَجَدْتُ ثَانِيًا، قَالَ: مَنْ هُوَ؟ قَالَ: أَنَا، قَالَ: أَبْغِنَا ثَالِثًا، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، قَالَ: مَنْ هُوَ؟ قَالَ: زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، قَالَ: أَبْغِنَا رَابِعًا.

وَذَكَرَ مَا أَصَابَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فِي الشَّعْبِ مِنْ ضَيْقِ الْحَصَارِ لَا يَبِيعُونَ وَلَا يَنْكَحُونَ، وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّهُمْ جُهِدُوا حَتَّى كَانُوا يَأْكُلُونَ الْخَبْطَ وَوَرَقَ السَّمُرِ، حَتَّى إِنْ أَحْدَهُمْ لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ، وَكَانَ فِيهِمْ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ. رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: لَقَدْ جُمِعْتُ، حَتَّى إِنِّي وَطِئْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَلَى شَيْءٍ رَطْبٍ، فَوَضَعْتُهُ فِي فَمِي وَبَلَعْتُهُ، وَمَا أَدْرِي مَا هُوَ إِلَى الْآنَ، وَفِي رِوَايَةِ يُونُسَ: أَنَّ سَعْدًا قَالَ: خَرَجْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ لِأَبُولٍ، فَسَمِعْتُ قَعْقَعَةً تَحْتَ الْبُولِ، فَإِذَا قِطْعَةٌ مِنْ جِلْدٍ بَعِيرٍ يَابِسَةٍ، فَأَخَذْتُهَا وَغَسَلْتُهَا، ثُمَّ أَحْرَقْتُهَا ثُمَّ رَضَضْتُهَا، وَسَفَفْتُهَا بِالْمَاءِ، فَقَوَّيْتُ بِهَا ثَلَاثًا، وَكَانُوا إِذَا قَلِمَتِ الْعَيْرُ مَكَّةَ يَأْتِي أَحْدَهُمُ السُّوقَ لِيَشْتَرِيَ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ لِعِيَالِهِ، فَيَقُومُ أَبُو لَهَبٍ عَدُوُّ اللَّهِ، فَيَقُولُ: يَا مَعْشَرَ التَّجَارِ: غَالُوا عَلَى أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، حَتَّى لَا يُدْرِكُوا مَعَكُمْ شَيْئًا، فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لِي وَوَفَاءَ ذِمَّتِي، فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا خَسَارَ عَلَيْكُمْ، فَيَزِيدُونَ عَلَيْهِمْ فِي السَّلْعَةِ، قِيمَتَهَا أَضْعَافًا، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى أَطْفَالِهِ، وَهُمْ يَتَضَاغَوْنَ مِنَ الْجُوعِ، وَلَيْسَ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ يُطْعِمُهُمْ بِهِ، وَيَغْدُو التَّجَارُ عَلَى أَبِي لَهَبٍ، فَيَرْبِحُهُمْ فِيمَا اشْتَرَوْا مِنَ الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ، حَتَّى جُهِدَ الْمُؤْمِنُونَ، وَمَنْ مَعَهُمْ جَوْعًا وَعُزْيًا، وَهَذِهِ إِحْدَى الشَّدَائِدِ الثَّلَاثِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا تَأْوِيلُ الْعَطَّاتِ الثَّلَاثِ الَّتِي غَطَّهَ جَبْرِيلُ حِينَ قَالَ

فذهب إلى أبي البَخْتَرِيِّ بن هشام، فقال له نحوًا مما قال لمطعم بن عدي، فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم، قال: مَنْ هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال: أبغنا خامسًا.

فذهب إلى زَمْعَةَ بن الأسود بن المطَّلِب بن أسد، فكلمه، وذكر له قرابتهم وحَقُّهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سَمَى له القوم.

فاتَّعدوا خَطْمَ الحَجُون ليلًا بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك، فأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام في الصَّحيفة، حتى يَنْقَضَوْها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أولَ مَنْ يتكلم. فلما أصبحوا غَدَوْا إلى أُنْدِيَتِهِمْ، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حُلَّة، فطاف بالبيت سَبْعًا، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة، أناكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلْكي لا يباع ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظَّالمة.

قال أبو جهل - وكان في ناحية المسجد: كذبت والله لا تُشَقَّ، قال زَمْعَةُ بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رَضِينَا كتابها حيث كُتِبَتْ، قال أبو البَخْتَرِيُّ، صدَّق زَمْعَةُ، لا نرضى ما كُتِبَ فيها، ولا نُقرُّ به، قال المطعم بن عدي: صدقْتُمَا، وكذب مَنْ قال غير ذلك، نَبَرَا إلى الله منها، ومما كُتِبَ فيها، قال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك. فقال أبو جهل: هذا أمر قُضِيَ بليلى، تُشَوِّرُ فيه بغير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقَّها، فوجد الأرضة قد أكلتها، إلَّا: «باسمك اللهم».

وكان كاتب الصحيفة مَنصور بن عِكرمة. فشَلَّتْ يَدُهُ فيما يزعمون.

قال ابن هشام: وذكر بعض أهل العلم: أن رسول الله - ﷺ - قال لأبي طالب: «يا عم، إن رَبِّي الله قد سَلَطَ الأرضة على صحيفة قريش، فلم تَدَعْ فيها اسمًا هو الله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبُهتان»، فقال: أربُّك أخبرك بهذا؟ قال: «نعم»، قال:

له: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، وإن كان ذلك كان في اليَقَظَةِ، ولكن مع ذلك له في مقتضى الحكمة تأويل وإيماء، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا قبل، وإلى آخر حديث الصحيفة ليس فيها ما يشكل^(١).

(١) انظر طبقات ابن سعد (٢١/١) وتاريخ الطبري (٣٤١/٢) والمتنظم (٣/٣) والبداية والنهاية (٩٥/٣) والكمال (٦٠٤/١).

فوالله ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلمَّ صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخي، فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عمًا فيها، وإن يكن كاذبًا دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا، فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شراً. فعند ذلك صنع الرُّهْط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا.

قال ابن إسحق: فلما مزقت الصحيفة وبطل ما فيها. قال أبو طالب، فيما كان من أمر أولئك الثَّقَر الذين قاموا في نقضها يمدحهم:

أَلَا هَلْ أَتَى بِخَرِينَا صُنْعَ رَبِّنَا عَلَى نَأْيِهِم وَاللَّهِ بِالنَّاسِ أَرْوَدُ

شرح دالية أبي طالب:

وقول أبي طالب: أَلَا قَدْ أَتَى بِخَرِينَا، يعني الذين بأرض الحبشة، نسبهم إلى الْبَحْر لركوبهم إياه، وهكذا وجه التَّسَبُّب إليه، وقد قال عليه السلام: إِذَا نَشَأَتْ بَخْرِيَّةٌ، وزعم ابن سيدة في كتاب المحكم له أَنَّ الْعَرَبَ تَنْسِبُ إِلَى الْبَحْرِ: بَخْرَانِيَّ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ، وَأَنَّهُ مِنْ شَوَازِ النَّسَبِ، وَنَسَبَ هَذَا الْقَوْلَ إِلَى سَيبُوهِ وَالْخَلِيلِ، وَلَمْ يَقُلْهُ سَيبُوهِ قَطً، وَإِنَّمَا قَالَ فِي شَوَازِ النَّسَبِ: تَقُولُ فِي بَهْرَاءَ: بَهْرَانِيَّ، وَفِي صَنْعَاءَ: صَنْعَانِيَّ، كَمَا تَقُولُ: بَخْرَانِيَّ فِي النَّسَبِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ الَّتِي هِيَ مَدِينَةٌ، وَعَلَى هَذَا تَلَقَّاهُ جَمِيعُ الثُّعَاةِ، وَتَأَوَّلُوهُ مِنْ كَلَامِ سَيبُوهِ، وَإِنَّمَا شَبَّهَ عَلَى ابْنِ سِيدَةَ لِقَوْلِ الْخَلِيلِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، أَعْنِي مَسْأَلَةَ النَّسَبِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ، كَأَنَّهُمْ بَنَوْا الْبَحْرَ عَلَى بَخْرَانَ، وَإِنَّمَا أَرَادَ لَفْظَ الْبَحْرَيْنِ أَلَّا تَرَاهُ يَقُولُ فِي كِتَابِ الْعَيْنِ: تَقُولُ بَخْرَانِيَّ فِي النَّسَبِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ، وَلَمْ يَذْكُرِ النَّسَبَ إِلَى الْبَحْرِ أَصْلًا لِلْعِلْمِ بِهِ، وَأَنَّهُ عَلَى الْقِيَاسِ جَارٍ، وَفِي الْغَرِيبِ الْمَصْنُفِ عَنِ الْيَزِيدِيِّ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا قَالُوا: بَخْرَانِيَّ فِي النَّسَبِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ، وَلَمْ يَقُولُوا: بَخْرِيَّ لِيَفَرَّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّسَبِ إِلَى الْبَحْرِ، وَمَا زَالَ ابْنُ سِيدَةَ يَعْثُرُ فِي هَذَا الْكِتَابِ وَغَيْرِهِ [عَثَرَاتٍ] يَذْمِي مِنْهَا الْأُظْلُ^(١)، وَيَذْخُضُ ذَخَضَاتٍ تُخْرِجُهُ إِلَى سَبِيلِ مَنْ ضَلَّ أَلَّا تَرَاهُ قَالَ فِي هَذَا الْبَابِ: وَذَكَرَ بَحِيرَةَ طَبْرِيَّةَ، فَقَالَ: هِيَ مِنْ أَعْلَامِ خُرُوجِ الدِّجَالِ، وَأَنَّ مَاءَهَا يَنْبَسُّ عِنْدَ خُرُوجِهِ، وَالْحَدِيثُ: إِنَّمَا جَاءَ فِي غَيْرِ زُعْرٍ، وَإِنَّمَا ذَكَرْتَ بَحِيرَةَ طَبْرِيَّةَ فِي حَدِيثٍ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجَ، وَأَنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مَاءَهَا، وَقَالَ فِي الْجَمَارِ فِي غَيْرِ هَذَا الْكِتَابِ: [إِنَّمَا] هِيَ الَّتِي تُرْمَى بِعَرَفَةِ، وَهَذِهِ هَفْوَةٌ لَا تُقَالُ، وَعَثْرَةٌ [لَا] لَعَا^(٢) لَهَا وَكَمْ لَهُ مِنْ هَذَا إِذَا تَكَلَّمَ فِي النَّسَبِ وَغَيْرِهِ، وَمِنْ النَّسَبِ إِلَى الْبَحْرِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَسْمَاءَ بِنْتِ غُمَيْسٍ

(١) الأظْل: باطن الأصبع.

(٢) لَعَا: صوت: معناه الدعاء للعائر بأن يرتفع من عثرته.

فِيخْبِرُهُمْ أَنَّ الصَّحِيفَةَ مُزَقَّتْ وَأَنْ كُلُّ مَا لَمْ يَرْضَهُ اللَّهُ مُفْسَدٌ وَلَمْ يُلَفَّ سِخْرَ آخِرِ الدَّهْرِ يَضْعُدُ قَطَائِرُهَا فِي رَأْسِهَا يَتَرَدَّدُ لِيُقْطَعَ مِنْهَا سَاعِدٌ وَمُقَلَّدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ خَشْيَةِ الشَّرِّ تُرْعَدُ أَيُّهُمْ فِيهِمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَيُنَجِّدُ لَهَا حُدُجَ سَهْمٍ وَقَوْسٍ وَمِزْهَدٍ

فِيخْبِرُهُمْ أَنَّ الصَّحِيفَةَ مُزَقَّتْ تَرَاوَحَهَا إِفْكَ، وَسِخْرَ مُجْمَعٍ تَدَاعَى لَهَا مَنْ لَيْسَ فِيهَا بِقَرْقَرٍ وَكَابَتْ كِفَاءً رَفْعَةً بِأَثِيمَةٍ وَيَظْعَنُ أَهْلُ الْمَكْتَنِينَ، فِيَهْرُبُوا وَيُثْرَكَ حَرَاثٌ يَقْلَبُ أَمْرَهُ وَتَضْعُدُ بَيْنَ الْأَخْشَبِينَ كَتِيبَةٌ

حِينَ قَدِمَتْ مِنْ أَرْضِ الْحَبْشَةِ: الْبَحْرِيَّةُ الْحَبَشِيَّةُ، فَهَذَا مِثْلُ قَوْلِ أَبِي طَالِبٍ: أَلَا هَلْ أَتَى بَحْرِيًّا.

وقوله: وَاللَّهُ بِالنَّاسِ أَرْوَدُ: أَي: أَرْقَى، وَمِنْهُ: رُوَيْدَكَ، أَي: رَفَقًا جَاءَ بِلَفْظِ التَّصْغِيرِ؛ لِأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ بِهِ تَقْلِيلًا أَي: أَرْقَى قَلِيلًا، وَلَيْسَ لَهُ مَكْبَرٌ مِنْ لَفْظِهِ؛ لِأَنَّ الْمَصْدَرَ: إِرْوَادًا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ تَصْغِيرِ التَّرْخِيمِ، وَهُوَ أَنْ تَصَغَّرَ الْأِسْمَ الَّذِي فِيهِ الزَّوَادُ، فَتَحْدِفُهَا فِي التَّصْغِيرِ، فَتَقُولُ فِي أَسْوَدَ: سُوَيْدٌ، وَفِي مِثْلِ إِرْوَادَ: رُوَيْدٌ.

وقوله: مَنْ لَيْسَ فِيهَا بِقَرْقَرٍ: أَي: لَيْسَ بِذَلِيلٍ، لِأَنَّ الْقَرْقَرَ: الْأَرْضَ الْمُوْطُوءَةَ الَّتِي لَا تَمْنَعُ سَالِكِهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ: لَيْسَ بِذِي هَزَلٍ، لِأَنَّ الْقَرْقَرَةَ: الضَّحْكَ.

وقوله: وَطَائِرُهَا فِي رَأْسِهَا يَتَرَدَّدُ. أَي: حَظَّهَا مِنَ الشُّؤْمِ وَالشَّرِّ، وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿الزَّمَنَاءُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإِسْرَاءُ: ١٣]، وَقَوْلُهُ: لَهَا حُدُجُ سَهْمٍ وَقَوْسٍ وَمِزْهَدٍ، وَجَدْتَ فِي حَاشِيَةِ كِتَابِ الشَّيْخِ مِمَّا كَتَبَهُ عَنْ أَبِي الْوَلِيدِ الْكِنَانِيِّ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ: لَعَلَّه حُدُجٌ بَضُمَ الْحَاءُ وَالذَّالُ جَمَعَ حِجْجٌ عَلَى مَا حَكَى الْفَارَسِيُّ، وَأَنْشَدَ شَاهِدًا عَلَيْهِ عَنْ ثَعْلَبٍ:

قَمْنَا فَانْتَسْنَا الْحُمُولَ وَالْحُدُجَ

وَنظِيرُهُ: سِثْرٌ وَسُثْرٌ، ذَكَرَ ذَلِكَ عَنْهُ ابْنُ سَيِّدَةٍ فِي مُحْكَمِهِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: إِنْ الَّذِي يَقُومُ لَهَا مَقَامُ الْحُدُجِ سَهْمٌ وَقَوْسٌ وَمِزْهَدٌ. إِلَى هُنَا انْتَهَى مَا فِي حَاشِيَةِ كِتَابِ الشَّيْخِ. قَالَ الْمُؤَلَّفُ: وَفِي الْعَيْنِ: الْحُدُجُ: حَسَكُ الْقُطْبِ^(١) [مَا دَامَ رَطْبًا] فَيَكُونُ الْحُدُجُ فِي الْبَيْتِ مُسْتَعَارًا مِنْ هَذَا، أَي: لَهَا حَسَكٌ، ثُمَّ فَسَّرَهُ فَقَالَ: سَهْمٌ وَقَوْسٌ وَمِزْهَدٌ^(٢)، هَكَذَا فِي الْأَصْلِ بِالرَّاءِ وَكَسَرَ الْجِيمِ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَقْلُوبًا مِنْ مَرْهَدٍ: مَفْعَلٌ مِنْ رَهَدَ الثَّوبَ إِذَا مَزَقَهُ، وَيَعْنِي

(٢) مرهَد: أي لين.

(١) القطب: ضروب من النبات.

فَعِزَّتْنَا فِي بَطْنِ مَكَّةَ أَثْلَدَ
فَلَمْ نَنْفَكِكَ نَزْدَادُ خَيْرًا وَنَحْمَدُ
إِذَا جَعَلْتَ أَيْدِي الْمُفِيزِينَ تُرْعَدُ
عَلَى مَلَأَ يَهْدِي لِحَزْمٍ وَيُزْشِدُ
مَقَاوِلَهُ، بَلْ هُمْ أَعَزُّ وَأَمَجْدُ
إِذَا مَا مَشَى فِي رَفْرِفِ الدَّرْعِ أُخْرَدُ
شَهَابٌ بَكْفُفِي قَابَسٍ يَتَوَقَّدُ
إِذَا سِيمَ خَسْفًا وَجْهَهُ يَتَرَبَّدُ
عَلَى وَجْهِهِ يُسْقَى الْعِمَامُ وَيُسْعَدُ
يُخَضُّ عَلَى مَقَرَى الضِّيُوفِ، وَيَخْشِدُ
إِذَا نَحْنُ طُفْنَا فِي الْبِلَادِ، وَيَمْهَدُ
عَظِيمَ اللِّوَاءِ أَمْرَهُ ثُمَّ يُحْمَدُ
عَلَى مَهْلٍ، وَسَائِرِ النَّاسِ رُقْدُ

فَمَنْ يَنْشَ مِنْ حَضَارِ مَكَّةَ عِزُّهُ
نَشَانَا بِهَا، وَالنَّاسُ فِيهَا قَلَاتِلُ
وَنُطْعَمُ حَتَّى يَتْرَكَ النَّاسُ فَضْلَهُمْ
جَزَى اللَّهِ رَهْطًا بِالْحَجُّونِ تَبَايَعُوا
قُعُودًا لَدَى خَطَمِ الْحَجُّونِ كَأَنَّهُمْ
أَعَانٌ عَلَيْهَا كُلُّ صَفَرٍ كَأَنَّهُ
جَرِيٌّ عَلَى جُلَى الْخُطُوبِ، كَأَنَّهُ
مِنَ الْأَكْرَمِينَ مِنْ لَوْيِّ بْنِ غَالِبٍ
طَوِيلِ النَّجَادِ خَارِجِ نَصْفِ سَاقِهِ
عَظِيمِ الرَّمَادِ، سَيِّدِ وَابْنِ سَيِّدِ
وَيَبْنِي لِأَبْنَاءِ الْعَشِيرَةِ صَالِحًا
أَلْطُ بِهَذَا الصُّلْحِ كُلِّ مُبَرِّأٍ
قَضَوْا مَا قَضَوْا فِي لَيْلِهِمْ، ثُمَّ أَصْبَحُوا

به رُمَحًا أو سَيْفًا، ويحتمل أن يكون غير مقلوب، ويكون من الرِّهْدِ، وهو الناعم أي: ينعم
صاحبه بالظَّفَرِ، أو ينعم هو بالرَّيِّ من الدَّمِ، وفي بعض النسخ: مَزْهَدُ بَفَتْحِ الميم والزاي،
فإن صَحَّتِ الرواية به، فمعناه: مَزْهَدُ فِي الْحَيَاةِ، وَجِزْصُ عَلَى الْمَمَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وقوله
فيها: إِذَا جَعَلْتَ أَيْدِي الْمُفِيزِينَ تُرْعَدُ. يعني: أَيْدِي الْمُفِيزِينَ بِالْقِدَاحِ فِي الْمَيْسِرِ، وَكَانَ لَا
يَفِيزُ مَعَهُمْ فِي الْمَيْسِرِ إِلَّا سَخِي، وَيَسْمُونَ مَنْ لَا يَدْخُلُ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ: الْبَرَمَ. وقالت
امرأة لبعولها - وكان برما بخيلاً، ورأته يقرن بضعتين في الأكل: أَبْرَمًا قَرُونًا وَيَسْمُونَهُ أَيْضًا:
الْحَصُورُ: يَرِيدُ أَبُو طَالِبٍ: إِنَّهُمْ يَطْعَمُونَ إِذَا بَخَلَ النَّاسُ. والميسر: هِيَ الْجَزُورُ الَّتِي تُقَسَّمُ،
يَقَالُ: يَسَزْتُ إِذَا قَسَمْتُ، هَكَذَا فَسَّرَهُ الْقُتَيْبِيُّ وَأَنشَدَ:

أَقُولُ لَهُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ يَنْسِرُونَنِي أَلَمْ يَيَّاسُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسٍ زَهْدَمِ

قال: يَنْسِرُونَنِي أَي: يَقْتَسِمُونَ مَالِي، وَيُرَوَّى: يَاسِرُونَنِي مِنَ الْأَشْرِ.

وقوله: رَفْرِفِ الدَّرْعِ أُخْرَدُ. رَفْرِفُ الدَّرْعِ: فَضُولُهَا، وَقِيلَ فِي مَعْنَى: رَفْرِفِ خُضْرٍ:
فَضُولُ الْفُرْشِ وَالْبُسْطِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَنْ عَلِيٍّ أَنَّهَا: الْمَرَاقِقُ، وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ
جُبَيْرٍ: الرِّفَارِفُ: رِيَاضُ الْجَنَّةِ، وَالْأُخْرَدُ الَّذِي فِي مِثْلِهِ تَنَاقُلٌ، وَهُوَ مِنَ الْحَرْدِ، وَهُوَ: غَيْبُ
فِي الرَّجْلِ.

هُمْ رَجَعُوا سَهْلَ ابْنِ بَيْضَاءَ رَاضِيَا وَسُرَّ أَبُو بَكْرٍ بِهَا وَمَحْمَدُ
 مَتَى شُرِكَ الْأَقْوَامُ فِي جُلِّ أَمْرِنَا وَكُنَّا قَدِيمًا قَبْلَهَا نُتَوَدَّدُ
 وَكُنَّا قَدِيمًا لَا تُقَرَّ ظِلَامَةٌ وَتُذَرِّكَ مَا شِئْنَا، وَلَا نَتَشَدَّدُ
 فَيَا لِقُصَيِّ هَلْ لَكُمْ فِي نُفُوسِكُمْ وَهَلْ لَكُمْ فِيمَا يَجِيءُ بِهِ غَدُ
 فَإِنِّي وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ قَائِلٌ لَدَيْكَ الْبَيَانُ لَوْ تَكَلَّمْتُ أَسْوَدُ

وقال حسان بن ثابت يبكي المُطعم بن عدي حين مات، ويذكر قيامه في نَقْضِ
 الصحيفة:

أَيَا عَيْنِ فَا بَكِي سَيِّدَ الْقَوْمِ وَاسْفَحِي بَدْمَحٍ، وَإِنْ أَنْزَفْتَهُ فَاسْكَبِي الدَّمَا
 وَبَكِّي عَظِيمَ الْمَشْعَرَيْنِ كِلَيْهِمَا عَلَى النَّاسِ مَعْرُوفًا لَهُ مَا تَكَلَّمَا
 فَلَوْ كَانَ مَجْدٌ يُخْلِدُ الدَّهْرَ وَاحِدًا مِنْ النَّاسِ أَبْقَى مَجْدُهُ الْيَوْمَ مُطْعِمَا

وفيه:

هُمْ رَجَعُوا سَهْلَ ابْنِ بَيْضَاءَ رَاضِيَا

سهل هذا هو: ابن وَهَب بن رَبِيعَةَ بن هِلَال بن ضَبَّةَ بن الحارث بن فهر، يعرف:
 بابن الْبَيْضَاء، وهي أمه، واسمها: دَعْد بنت جَحْدَم بن أُمَيَّة بن ضَرِب بن الحارث بن فهر،
 وهم ثلاثة إخوة: سَهْلٌ وسُهَيْلٌ وصَفْوَان بنو الْبَيْضَاء^(١). وقوله:

وَإِنِّي وَإِيَاهُمْ كَمَا قَالَ قَائِلٌ لَدَيْكَ الْبَيَانُ لَوْ تَكَلَّمْتُ أَسْوَدُ

أسود: اسم جبل كان قد قتل فيه قتيل، فلم يعرف قاتله، فقال أولياء المقتول هذه
 المقالة، فذهبت مثلاً.

قول حسان في مطعم وهشام بن عمرو:

فصل: وذكر قول حسان في مُطْعِم بن عَدِيٍّ، ويذكر جواره للنبي - عليه السلام -
 وذلك حين رجع من الطائف، وقيامه في أمر الصحيفة:

فَلَوْ كَانَ مَجْدٌ يُخْلِدُ الدَّهْرَ وَاحِدًا مِنْ النَّاسِ أَبْقَى مَجْدُهُ الْيَوْمَ مُطْعِمَا

(١) انظر نسب قريش (٤٤٦).

أَجَزَتْ رَسُولَ اللَّهِ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا عَيْدَكَ، مَا لَبَّى مُهْلٍ وَأَحْرَمًا
 فَلَوْ سُئِلَتْ عَنْهُ مَعَدًّا بِأَسْرِهَا وَقَحْطَانِ، أَوْ بَاقِي بَقِيَّةِ جُزْهُمَا
 لَقَالُوا: هُوَ الْمُوفَى بِخُفْرَةِ جَارِهِ وَذَمَّتْهُ يَوْمًا إِذَا مَا تَذَمُّمَا
 فَمَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ فَوْقَهُمْ عَلَى مِثْلِهِ فِيهِمْ أَعَزَّ وَأَعْظَمًا
 وَأَبَى إِذَا يَأْبَى وَالْيَنَ شَيْمَةً وَأَنُومَ عَنْ جَارٍ إِذَا اللَّيْلُ أَظْلَمًا
 قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: قَوْلُهُ «كِلَيْهِمَا» عَنْ غَيْرِ ابْنِ إِسْحَاقَ.

قال ابن هشام: وأما قوله: «جرت رسول الله منهم»، فإن رسول الله - ﷺ - لما انصرف عن أهل الطائف، ولم يُجيبوه إلى ما دعاهم إليه، من تصديقه ونصرته، صار إلى

وهذا عند النحويين من أقبح الضرورة، لأنه قدّم الفاعل، وهو مضاف إلى ضمير المفعول، فصار في الضرورة؛ مثل قوله:

جَزَى رَبُّهُ عَنِّي عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ^(١)

غير أنه في هذا البيت أشبه قليلاً لتقدم ذكر مُطْعِمٍ، فكأنه قال: أبقَى مجدُ هذا المذكور المتقدم ذِكْرُهُ مُطْعِمًا. ووضع الظاهر موضع المضمَر، كما لو قلت: إن زيدًا ضَرَبَتْ جَارِيَتُهُ زيدًا، أي: ضَرَبَتْ جَارِيَتُهُ إِيَّاهُ، ولا بأس بمثل هذا، ولا سِيِّئًا إِذَا قَصَدْتَ قَصْدَ التَّعْظِيمِ وتَفْخِيمِ ذِكْرِ الْمَدْحِ، كما قال الشاعر:

وَمَا لِي أَنْ أَكُونَ أَعْيَبَ يَحْيَى وَيَخْيَى طَاهِرِ الْأَنْوَابِ بَرٍّ

ويجوز نصبُه عِنْدِي عَلَى الْبَدَلِ مِنْ قَوْلِهِ: وَبَكِّي عَظِيمَ الْمَشْعَرِينَ، ويكون المفعولُ مِنْ قَوْلِهِ: أبقَى مجدُه محذوفًا، فكأنه قال: أبقاه مجدُه أَبَدًا، والمفعول لَا قُبْحَ فِي حَذْفِهِ، إِذَا دُلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ كَمَا فِي هَذَا الْبَيْتِ.

وذكر قول حسان في هشام بن عمرو، وقال فيه: لِلْحَارِثِ بْنِ حُبَيْبٍ بْنِ سُحَّامٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ نَسَبُهُ، وَهُوَ حُبَيْبٌ بِالتَّخْفِيفِ تَصْغِيرُ حَبٍّ، وَجَعَلَهُ حَسَانٌ تَصْغِيرُ حَيْبٍ، فَشَدَّدَهُ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الضَّرُورَةِ؛ إِذْ لَا يَسُوغُ أَنْ يُقَالَ فِي فُلَيْسٍ: فُلَيْسٌ، وَلَا فِي كُتَيْبٍ: كُتَيْبٌ فِي شِعْرٍ وَلَا غَيْرِهِ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ الْجَبُّ وَالْحَبِيبُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ جَعَلَ أَحَدَهُمَا مَكَانَ الْآخَرِ، وَهُوَ حَسَنٌ فِي الشَّعْرِ، وَسَائِغٌ فِي الْكَلَامِ، وَهَشَامُ بْنُ عَمْرِو هَذَا أَسْلَمَ، وَهُوَ مَغْدُودٌ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَكَانُوا أَرْبَعِينَ رَجُلًا فِيمَا ذَكَرُوا.

(١) القائل هو: أبو الأسود الدؤلي. انظر خزانة الأدب (١/١٩٠).

جِرَاء، ثم بعث إلى الأخنس بن شَرِيق، لِيُجِيرَهُ، فقال: أنا حليفٌ، والحليف لا يُجِيرُ، فبعث إلى سُهَيْل بن عمرو، فقال: إن بني عامر لا تُجِيرُ على بني كَعْب. فبعث إلى الْمُطْعِم بن عديّ، فأجابه إلى ذلك، ثم تسلح المُطْعِم وأهل بيته، وخرجوا حتى أتوا المسجد، ثم بعث إلى رسول الله - ﷺ - أن أدخل، فدخل رسول الله - ﷺ - فطاف بالبيت، وصلى عنده، ثم انصرف إلى منزله، فذلك الذي يعني حسان بن ثابت.

قال ابن إسحاق: وقال حسان بن ثابت أيضًا: يمدح هشام بن عمرو لقيامه في الصحيفة:

هل يُوفِينْ بنو أميَّة ذمَّة عَقْدًا كما أوفى جَوَارُ هِشَامِ
مِنْ مَغْشَرٍ لا يَغْدِرُونَ بجارِهِم للحارث بن حُبَيْب بن سُخَامِ
وَإِذَا بنو جِسْلٍ أَجَارُوا ذِمَّةً أَوْفَوْا وَأَدَّوْا جَارَهُم بِسَلَامِ
وكان هشام أخا سُخَامِ: قال ابن هشام: ويقال: سُخَامِ.

إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله - ﷺ - على ما يَرى من قومه، يبذل لهم النَّصِيحَةَ، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه. وجعلت قريش، حين منعه الله منهم، يحذرونه النَّاسَ، وَمَنْ قَدِمَ عليهم من العرب.

وقوله: ابن سُخَامِ، هو: اسم أمه، وأكثر أهل النسب يقولون فيه: سُخَامِ بشين معجمة، وأُلفت في حاشية كتاب الشيخ أن أبا عبيدة النَّسَّابَةِ وَعَوَانَةَ يقولون فيه: سُخَامِ بسين وحاء مهملتين، والذي في الأصل من قول ابن هشام: سُخَامِ بسين مهملة، وحاء معجمة ولفظ سُخَامِ من شَخَمِ الطعام، وَخَشِمَ إذا تغيرت رائحته، قاله أبو حنيفة.

حول حديث طفيل الدوسي وذو الكفَّين^(١)

فصل: وذكر حديث طُفَيْل بن عمرو الدَّوْسِيِّ، وهو طُفَيْل بن عَمْرٍو بن طَرِيف بن العاصي بن ثعلبة بن سُلَيْم بن جَهْم بن دَوْس إلى آخره وليس فيه إشكال إلا قوله: حِنَّا ذِي

(١) انظر البخاري (٥٤/٤) (٢٥٠/٥) (١٠٥/٨) ومسلم في فضائل الصحابة (١٩٨) وأحمد (٥٠٢/٤٤٨/٢٤٣/٢) وابن عساكر (٦٦/٦٥/٧) والفتح (١٠١/٨) (١١/١٤٢/١٩٦) وابن سعيد في الطبقات الكبرى (١٧٦/١/٤) والبداية (١٠٠/٣) (٦٨/٥) (٢١٤/٦) والبيهقي في الدلائل (٣٥٩/٥).

وكان الطفيل بن عمرو الدؤسي يحدث: أنه قَدِمَ مكة - ورسول الله ﷺ بها - فمشى إليه رجالٌ من قُريش - وكان الطفيل رجلاً شريعاً شاعراً لبيباً - فقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أغضل بنا، وقد فَرَقَ جماعتنا، وشئت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تُكلمته ولا تسمعن منه شيئاً.

قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعتُ أن لا أسمع منه شيئاً، ولا أكلّمه، حتى حشوتُ في أُذني حين غدوتُ إلى المسجد كُزُفًا فَرَقًا من أن يبلغني شيءٌ من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعَه. قال: فغدوتُ إلى المسجد، فإذا رسولُ الله - ﷺ - قائمٌ يصلي عند الكعبة. قال: ففُتِمَ منه قريباً، فأبى الله إلا أن يُسمعني بعضَ قوله. قال: فسمعتُ كلاماً حسناً. قال: فقلتُ في نفسي: وأتكللُ أُمِّي!! والله إني لرجُلٌ لبيبٌ شاعرٌ ما يخفى عليّ الحسنُ من القبيح، فما يَمْنَعُني أن أسمعَ من هذا الرجل ما يقول! فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلتهُ، وإن كان قبيحاً تركتهُ.

قال: فمكثتُ حتى انصرف رسولُ الله - ﷺ - إلى بيته فأتبعتهُ، حتى إذا دخل بيته دخلتُ عليه، فقلت: يا محمد، إن قومك قالوا لي كذا وكذا - للذي قالوا - فوالله ما برحوا يُخَوِّفونني أمرَكَ حتى سددت أُذني بكُزُفٍ لثلاً أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يُسمعني قولك، فسمعتُه قولاً حسناً، فاعرض عليّ أمرَكَ. قال: فعرض عليّ رسول الله - ﷺ - الإسلام، وتلا عليّ القرآن، فلا والله ما سمعتُ قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، قال: فأسلمت، وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله إني امرؤٌ مُطاعٌ في قومي، وأنا راجعٌ إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادعُ الله أن يجعل لي آيةً تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوههم إليه فقال: «اللهم اجعل له آية».

قال: فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بِثَنِيَّةٍ تُطلُعُني على الحاضر وقع نورٌ بين عيني مثلُ المصباح، فقلت: اللهم في غير وجهي، إني أخشى، أن يظنوا أنها مُثْلَةٌ وقعت في وجهي لفراق دينهم. قال: فتحولَ فوقَ في رأس سَوطي. قال: فجعل الحاضرُ يترأؤن ذلك النور في سَوطي كالقنديل المعلق، وأنا أهبط إليهم من الثَّنيَّة، قال: حتى جثتهم فأصبحتُ فيهم.

الشَّري، وقد قال ابن هشام: هو جَمِي، وهو موضعُ حَمَوُه لصنمهم ذي الشَّري، فإن صحَّت رواية ابن إسحق، فالنون قد تبدل من الميم، كما قالوا: حُلانٌ وحُلَامٌ للجدي، ويجوز أن يكون من حَنَوَتِ العود، ومن مَحَنِيَّةِ الوادي، وهو ما انحنى منه.

إسلام والد الطفيل وزوجته:

قال: فلما نزلت أتانِي أبي، وكان شيخًا كبيرًا، قال: فقلت: إليك عني يا أبت، فلستُ منك، ولستَ مني، قال: ولمَ يا بني؟ قال: قلت: أسلمتُ، وتابعت دينَ محمد - ﷺ - قال: أي بني، فديني دينك، قال: فقلت: فاذهب، فاغتسل، وطَهَّر ثيابك، ثم تعالَ حتى أُعَلِّمَكَ ما عُلِّمْتُ. قال: فذهب فاغتسل، وطَهَّر ثيابه. قال: ثم جاء فعرضتُ عليه الإسلام، فأسلم.

قال: ثم أتتني صاحبتِي، فقلت: إليك عني، فلستُ منك ولستَ مني، قالت: لِمَ؟ بأبي أنت وأمي، قال: قلت: قد فرَّق بيني وبينك الإسلام، وتابعتُ دين محمد - ﷺ - قالت: فديني دينك، قال: قلت: فاذهبي إلى جِنا ذي الشرى - قال ابن هشام: ويقال: جِمَى ذي الشرى - فَتَطَهَّرِي منه.

ذو الشرى صنمًا لِدَوْس، وكان الحمى جِمَى حَمَوَه له، به وشَلٌ من ماءٍ يَهْبِطُ من جبل.

قال: قالت: بأبي أنت وأمي، أتخشى على الصبيَّة من ذي الشرى شيئًا، قال: قلت: لا، أنا ضامنٌ لذلك، فذهبت فاغتسلت، ثم جاءت فعرضتُ عليها الإسلام، فأسلمت.

ثم دعوت دَوْسًا إلى الإسلام، فأبطؤوا عليّ، ثم جئتُ رسول الله - ﷺ - بمَكَّة، فقلت له: يا نبيَّ الله، إنه قد غلبني على دَوْس الزَّنا، فاذعُ الله عليهم، فقال: اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم، قال: فلم أزل بأرض دَوْس أدعوهم إلى الإسلام، حتى هاجر رسول الله - ﷺ - إلى المدينة، ومضى بَدْرٌ وأحدٌ والخندق، ثم قَدِمْتُ على رسول الله - ﷺ - بَمَنْ أَسْلَمَ معي مِنْ قومي، ورسولُ الله - ﷺ - بِخَيْبَرَ، حتى نزلتُ المدينةَ بسبعين أو ثمانين بيتًا من دَوْس، ثم لَحِقْنَا برسول الله - ﷺ - بِخَيْبَرَ، فَأَسْهَمَ لَنَا مع المسلمين.

وقوله: يا ذا الْكَفَيْنِ لست من عبَّادكا. أراد: الْكَفَيْنِ بالتشديد، فخفف للضرورة، غير أن في نسخة الشيخ أن الصنم كان يسمى: ذا الْكَفَيْنِ، وخفف الفاء بخطه بعد أن كانت مشددة، فدلَّ أنه عنده مخفف في غير الشعر، فإن صحَّ هذا فهو محذوف اللام، كأنه تشبيه كَفءٍ، من كفأتُ الإناء، أو إذا كفء بمعنى كفاء؟! ثم سَهَّلَتِ الهمزة، وألْقِيت حركتها على الفاء، كما يقال: الْحَبُّ وَالْحَبُّ، وفي الحديث: أن أهل الحاضر من دَوْس كانوا يترءونه في الثَّيِّبَةِ، وفي سوطه كَالْفَنْدِيلِ المعلق، وذكره المبرِّد فقال في لفظ الحديث: جعلوا ينظرون

ثم لم أزل مع رسول الله - ﷺ - حتى إذا فتح الله عليه مكة، قال: قلت: يا رسول الله، ابعتني إلى ذي الكفئين، صنم عمرو بن حُمَمة حتى أخرقه.

قال ابن إسحاق: فخرج إليه، فجعل طفيل يوقد عليه النار، ويقول:

يا ذا الكَفَيْنِ لَسْتُ مِنْ عُبَادِكَ ميلادنا أَقْدَمُ مِنْ مِيلادِكَ
إني حَشَوْتُ النَّارَ فِي فَوَادِكَ

قال: ثم رجع إلى رسول الله - ﷺ - فكان، معه بالمدينة، حتى قَبِضَ اللَّهُ رَسولَهُ - ﷺ - فلما ارتدَّت العرب، خرج مع المسلمين، فسار معهم، حتى فرَغُوا مِنْ طُلُيْحَةَ، وَمِنْ أَرْضِ نَجْدٍ كُلِّهَا. ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة - ومعه ابنُهُ عَمْرُو بْنُ الطُّفَيْلِ - فرأى رؤيا وهو متوجَّه إلى اليمامة، فقال لأصحابه: إني قد رأيت رؤيا، فأعْبُرُوها لي، رأيتُ أن رأسي حُلِقَ، وأنه خرج من فمي طائرٌ، وأنه لَقِيْتَنِي امْرَأَةً، فأدخلتني في فَرْجِهَا، وأرى ابني يَطْلُبُنِي طَلَبًا حَثِيئًا، ثم رأيتُه حُبَسَ عَنِي، قالوا: خيرًا. قال: أُمَّا أَنَا وَاللَّهِ، فَقَدْ أَوْلَتْهَا، قالوا: ماذا؟ قال: أُمَّا حُلِقَ رَأْسِي فَوَضَعَهُ، وَأُمَّا الطَّائِرُ الَّذِي خَرَجَ مِنْ فَمِي فَرَوَّحِي، وَأُمَّا الْمَرْأَةَ الَّتِي أَدْخَلْتَنِي فَرْجَهَا، فَالْأَرْضُ تُخْفَرُ لِي، فَأَغْيَبُ فِيهَا، أُمَّا طَلَبَ ابْنِي إِيَّايَ ثُمَّ حَبَسَهُ عَنِي، فَإِنِّي أَرَاهُ سَيَجْهَدُ أَنْ يَصِيبَهُ مَا أَصَابَنِي، فَقُتِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ شَهِيدًا بِالْيَمَامَةِ، وَجُرِحَ ابْنُهُ جَرَا حَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ اسْتَبَلَّ مِنْهَا، ثُمَّ قُتِلَ عَامَ الْبِزْمُوكِ فِي زَمَنِ عَمْرِ بْنِ رَضِيٍّ عَنْهُ شَهِيدًا.

من قصة أعشى بن قيس بن ثعلبة

قال ابن هشام: حدَّثني خَلَادُ بْنُ قُرَّةَ بْنِ خَالِدِ السَّدُوسِيِّ وَغَيْرُهُ مِنْ مَشَائِخِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَنَّ أَعْشَى بْنَ قَيْسٍ بْنَ ثَعْلَبَةَ بْنَ عُكَّابَةَ بْنَ صَعْبٍ بْنَ عَلِيٍّ بْنَ

إِلَى الْجَبَلِ، وَهُوَ يَهْتَفُ مِنْ شِدَّةِ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ، وَرَوَى، أَبُو الزِّنَادِ عَنِ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا قَالَ طَفِيلُ النَّبِيِّ - ﷺ - إِنَّ دَوْسًا غَلَبَ عَلَيْهَا الزُّنَى وَالرِّبَا، فَادَّعَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ، قُلْنَا: هَلَكْتَ دَوْسٌ، حَتَّى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا^(١).

الأعشى وداليته وحمزة والشرف

فصل: وذكر ابن هشام حديث الأعشى وقصيدته إلى آخرها، فلما كان قريبًا من مكة لقيه بعض المشركين، فقال: إلى أين يا أبا بصير؟ الحديث، وذكر تحريمه الخمر، وتحريمه

(١) انظر التخريج السابق.

بكر بن وائل، ابن قاسط بن هنب بن أفصى بن دُعيمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار] خرج إلى رسول الله - ﷺ - يريد الإسلام فقال يمدح رسول الله ﷺ:

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَبِتَ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدَا
وَمَا ذَاكَ مِنْ عَشْقِ النِّسَاءِ، وَإِنَّمَا تَنَاسَيْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ خُلَّةَ مَهْدَدَا

الزنى، وقول الأعشى: أما الخمر ففي الناس منها علالات وقال غير ابن هشام: كان القائل للأعشى هذه المقالة أبو جهل. قالها في دار عُتْبَةَ بن ربيعة، وكان نازلاً عنده، قال المؤلف: وهذه غَفْلَةٌ من ابن هشام، وَمَنْ قال بقوله، فإن الناس مُجْمِعُونَ على أن الخمر لم ينزل تحريمها إلا بالمدينة بعد أن مضت بدر وأُحُد، وحرمت في سورة المائدة، وهي من آخر ما نزل، وفي الصحيحين من ذلك قصة حمزة حين شربها وغتته القيتان: ألا يا حمز، للشُّرْفِ الثَّوَاءِ، فَبَقَرِ خَوَاصِرَ الشَّارِفِينَ، واجتنب أسنمتها.

وقوله للنبي عليه السلام: هل أنتم إلا عبيدٌ لآبائي، وهو يُعْمَل. الحديث بطوله. فإن صحَّ خبر الأعشى، وما ذكر له في الخمر، فلم يكن هذا بمكة، وإنما كان بالمدينة، ويكون القائل له: أما علمت أنه يحرم الخمر، من المنافقين، أو من اليهود، فالله أعلم. وفي القصيدة ما يدل على هذا قوله: فإن لها في أهل يثرب موعدًا، وقد ألفت للقالبي رواية عن أبي حاتم عن أبي عبيدة قال: لقي الأعشى عامر بن الطُّفَيْل في بلاد قيس، وهو مقبل إلى رسول الله - ﷺ - فذكر له أنه يحرم الخمر، فرجع، فهذا أولى بالصواب، وقول الأعشى: أترؤى منها هذا العام، ثم أعود فأسلم لا يخرجني عن الكفر بإجماع، قال الإسفراييني في عقيدته: إذا قال المؤمن سأكفر: غداً أو بعد غد، فهو كافر لحينه بإجماع، وإذا قال الكافر: سأؤمن غداً، أو بعد فهو على كفره، لا يخرجني عن حكم الكفر إلا إيمانه إذا آمن، ولا خلاف في هذا والله المستعان.

وقوله:

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا

لم ينصب ليلة على الظرف؛ لأن ذلك يفسد معنى البيت، ولكن أراد المصدر فحذفه، والمعنى: اغتماض ليلة أرمَد، فحذف المضاف إلى الليلة، وأقامها مقامه، فصار إعرابها كإعرابه، وقد رُوِيَ هذا البيت: ليلك بالكاف، ومعناه: غَمَضُ أَرْمَد، وقيل: بل أرمَد على هذه الرواية من صفة الليل، أي حال منه على المجاز، كما تقول: ليلك ساهر.

وقوله:

تَنَاسَيْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ خُلَّةَ مَهْدَدَا

ولكن أَرَى الدَّهْرَ الذي هو خَائِنٌ
كُهِولاً وَشُبَّاناً فَقَدْتُ وَتَرْوَةً
وما زِلْتُ أَبْغِي المَالَ مُذْ أَنَا يَافِعٌ
وَأَبْتَذِلُ العِيسَ المَرَاقِيلَ تَغْتَلِي
أَلَا أَيُّ هَذَا السَّائِلِي أَيْنَ يَمُوتُ
فإن تَسْأَلِي عَنِّي، فَيَا رَبِّ سَائِلِ
أَجَدْتُ بِرِجْلَيْهَا التَّجْءَ، وَرَاجَعْتُ
وَفِيهَا - إِذَا مَا هَجَّرْتُ - عَجْرَفِيَّةٌ
إِذَا أَصْلَحْتُ كُفَّاي عَادَ، فَأَفْسَدَا
فَلَيْلَهُ هَذَا الدَّهْرُ كَيْدَ تَرَدَّدَا!!
وَلِيدَا وَكُهْلَا حِينَ شُبْتُ وَأَمْرَدَا
مَسَافَةً مَا بَيْنَ التَّجِيرِ فَصَرَّخَدَا
فإن لَهَا فِي أَهْلِ يَثْرِبَ مَوْعِدَا
خَفِيَّ عَنِ الأَعْشَى بِهِ حَيْثُ أَضْعَدَا
يَدَاهَا خِنَافًا لَيْتَنَا غَيْرَ أُخْرَدَا
إِذَا خَلْتُ حِزْبَاءَ الظَّهِيرَةِ أَضِيدَا

مَهْدَدٌ: فَعَّلَ مِنَ المَهْدِ، وَلَوْلَا قِيَامُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ المِيمَ أَصْلِيَّةٌ لِحُكْمِنَا بِأَنَّهُ مَفْعَلٌ؛
لأنَّ الكَلِمَةَ الرَّابِعَةَ إِذَا كَانَ أَوَّلُهَا مِيمًا أَوْ هَمْزَةً، فَحُمِلَ عَلَى الزِّيَادَةِ، إِلَّا أَنَّ يَقُومُ دَلِيلٌ عَلَى
أَنَّهَا أَصْلِيَّةٌ، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الكَلِمَةِ ظُهُورُ التَّضْعِيفِ فِي الدَّالِ؛ إِذْ لَوْ كَانَتِ المِيمُ زَائِدَةً لَمَا
ظَهَرَ التَّضْعِيفُ، وَلَقُلْتُ فِيهِ: مَهْدَدٌ كَمَا تَقُولُ: مَرَدٌ وَمَكْرٌ وَمَفَرٌ فِي كُلِّ مَا وَزَنَهُ مَفْعَلٌ مِنَ
المَضَاعِفِ، وَإِنَّمَا الدَّالُ فِي مَهْدَدَ ضَوْعَفَتْ لِيَلْحَقَ بِنَاءِ جَعْفَرٍ.

وقوله:

إِذَا خَلْتُ حِزْبَاءَ الظَّهِيرَةِ أَضِيدَا

وَالأَصِيدُ: المَائِلُ العِنَقُ، وَلَمَّا كَانَتِ الحِزْبَاءُ تَدُورُ بِوَجْهَهَا مَعَ الشَّمْسِ كَيْفَمَا دَارَتْ،
كَانَتْ فِي وَسْطِ السَّمَاءِ فِي أَوَّلِ الزَّوَالِ، كَالأَصِيدِ، وَذَلِكَ أَحَرُّ مَا تَكُونُ الرُّمَضَاءُ. يَصِفُ نَاقَتَهُ
بِالنَّشَاطِ، وَقُوَّةِ المَشْيِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ.

وقوله: خِنَافًا إِلَيْنَا. فِي العَيْنِ: خَنَفَتِ النَّاقَةُ تَخْنِفُ بِيَدَيْهَا فِي السَّيْرِ، إِذَا مَالَتْ بِهِمَا
نَشَاطًا، وَنَاقَةٌ خَنُوفٌ قَالَ الرَّاجِزُ^(١):

إِن الشَّوَاءَ^(٢) وَالنَّسِيلَ^(٣) وَالرُّعْفَ وَالْقَيْنَةَ^(٤) الْحَسَنَاءُ، وَالكَاسَ الْأَثْفَ

لِلظَّاعِنِينَ الخَيْلَ، وَالخَيْلُ خُلْفٌ

وقوله: لَيْتَنَا غَيْرَ أُخْرَدَا، أَيُّ: تَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ حَرَدٍ فِي يَدَيْهَا، أَيُّ اعْوِجَاجٍ، وَالتَّجِيرُ
وَصَرَّخَدُ بِلَدَانٍ، وَأَهْلُ النَّجِيرِ أَوَّلُ مَنْ ارْتَدَّ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ بَعْدَ أَهْلِ دُبَا وَكَانَ أَهْلُ دُبَا قَدْ

(٢) الشَّوَاءُ: اللَّحْمُ المَشْوِيُّ.

(٤) الْقَيْنَةُ: المَغْنِيَّةُ.

(١) هُوَ: لَقِيطُ بَنِ زُرَّارَةَ.

(٣) النَّسِيلُ: اللَّحْمُ المَطْبُوخُ بِلا تَوَابِلٍ.

وَأَلَيْتُ لَا آوِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ حَقَى حَتَّى تَلَاقِي مُحَمَّدًا
مَتَى مَا تُتَاخَى عِنْدَ بَابِ ابْنِ هَاشِمٍ تُرَاجِي، وَتَلْقَى مِنْ قَوَاضِلِهِ نَدَى
نَبِيًّا يَرَى مَا لَا تَرُونَ وَذَكَرُهُ أَغَارَ لَعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأُنْجِدَا
لَهُ صَدَقَاتٌ مَا تُغِبُّ وَنَائِلٌ وَلَيْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ مَانَعَهُ غَدَا
أَجِدْكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الْإِلَهِ حَيْثُ أَوْصَى، وَأَشْهَدَا
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ الثَّقَى وَلَا قِيتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا

حاصرهم حَذِيقَةُ بْنُ أَسِيدٍ، وَحَاصِرُ أَهْلِ النَّجِيرِ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ بِأَمْرِ أَبِي بَكْرٍ، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَكَمِهِ. وَأَمَّا صَرْخُكَ فَبَلَدُ طَيْبِ الْأَعْنَابِ، وَإِلَيْهِ تَنْسَبُ الْخَمْرُ الصَّرْخُودِيَّةُ. وَفِي الْأَمَالِيِّ: وَلَدُ كَطْعَمِ الصَّرْخُودِيِّ تَرْكْتَهُ.

وقوله:

وَأَلَيْتُ لَا آوِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ

وَلَا مِنْ وَجَى، أَي: لَا أَرْقُ لَهَا، يَقَالُ: آوَيْتَ لِلضَّعِيفِ إِيَّةً وَمَأْوِيَةً إِذَا رَقَّتْ لَهُ كِبْدُكَ.

وقوله:

أَغَارَ لَعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأُنْجِدَا

المعروف في اللغة: غَارَ وَأُنْجِدَ، وَقَدْ أُنْشِدُوا هَذَا الْبَيْتَ: لَعَمْرِي غَارَ فِي الْبِلَادِ وَأُنْجِدَا. وَالْغَوْرُ: مَا انْخَفَضَ مِنَ الْأَرْضِ، وَالنَّجْدُ: مَا ارْتَفَعَ مِنْهَا، وَإِنَّمَا تَرَكَوا الْقِيَاسَ فِي الْغَوْرِ، وَلَمْ يَأْتِ عَلَى أَفْعَلٍ إِلَّا قَلِيلًا، وَكَانَ قِيَاسُهُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ أَنْجَدَ، وَأَتَمُّ؛ لِأَنَّهُ مَنْ أَمَّ الْغَوْرَ، فَقَدْ هَبَطَ وَنَزَلَ، فَصَارَ مِنْ بَابِ غَارِ الْمَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنْ أَرَدْتَ: أَشْرَفَ عَلَى الْغَوْرِ، قُلْتَ: أَغَارَ، وَلَا يَكُونُ خَارِجًا عَنِ الْقِيَاسِ.

وقوله:

وَلَيْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ مَانَعَهُ غَدَا

معناه على رفع العطاء ونصب مانع، أَي: لَيْسَ الْعَطَاءُ الَّذِي يُعْطِيهِ الْيَوْمَ مَانَعًا لَهُ غَدَا مِنْ أَنْ يُعْطِيَهُ، فَالْهَاءُ عَائِدَةٌ عَلَى الْمَمْدُوحِ، فَلَوْ كَانَتْ عَائِدَةً عَلَى الْعَطَاءِ لَقَالَ: وَلَيْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ مَانَعُهُ، بِإِبْرَازِ الضَّمِيرِ الْفَاعِلِ، لِأَنَّ الصِّفَةَ إِذَا جَرَتْ عَلَى غَيْرِ مَنْ هِيَ لَهُ بَرَزَ الضَّمِيرُ الْمُسْتَتِرُ بِخِلَافِ الْفِعْلِ، وَذَلِكَ لِإِسْرَافِ بَيِّنَاتِهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ لَمْ يَذْكُرْهُ النَّاسُ، وَلَوْ نَصَبَ الْعَطَاءَ لَجَازَ عَلَى إِضْمَارِ الْفِعْلِ الْمَتْرُوكِ إِظْهَارَهُ، لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ اشْتَغَالِ الْفِعْلِ عَنِ الْمَفْعُولِ بِضَمِيرِهِ، وَيَكُونُ اسْمُ لَيْسَ عَلَى هَذَا مَضْمُرًا فِيهَا عَائِدًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

ندمت على أن لا تكون كمثله فترصد للأمر الذي كان أُرصد
فإياك والميتات لا تقربئها ولا تأخذن سهمًا حديدًا، لتفصدا
وذا الثُصب المنصوب لا تنسكته ولا تعبد الأوثان، والله فاعبدا
ولا تقربن حُرّة كان سيرها عليك حرامًا فانكحن أو تأبدا
وذا الرّجم القُربى فلا تَقطَعنه لعاقبة ولا الأسير المُقيدا
وسبح على حين العشيات والضحي ولا تحمد الشيطانَ والله فاحمدا
ولا تسخرن من بائس ذي ضرارة ولا تحسبن المال للمزء مُخلدا

وقوله: فانكحن أو تأبدا. يريد: أو ترهب؛ لأن الراهب أبدا عَزَبَ فقيل له: متأبدا اشتق من لفظ الأبد.

وقوله: فالله فاعبدا، وقف على النون الخفيفة بالألف، وكذلك فانكحن أو تأبدا، ولذلك كتبت في الخط بألف، لأن الوقف عليها بالألف، وقد قيل في مثل هذا: إنه لم يُرد النون الخفيفة، وإنما خاطب الواحد بخطاب الاثنين، وزعموا أنه معروف في كلام العرب، وأنشدوا في ذلك^(١):

فإن تزجراني يا ابن عفان أزدجر وإن تدعاني أحم عرضا ممنا
وأنشدوا أيضًا في هذا المعنى^(٢):

وقلت لصاحبي: لا تخيسانا بنزع أصولها واجئت شيخا

ولا يمكن إرادة النون الخفيفة في هذين البيتين، لأنها لا تكون ألفًا، إلا في الوقف، وهذا الفعل قد اتصل به الضمير، فلا يصح اعتقاد الوقف عليه دون الضمير، وحكي أن الحجاج قال: يا حرسى اضربا عنقه، وقد يمكن فيه حمل الوصل على الوقف، ويحتمل أن يريد: اضرب أنت وصاحبك: وقد قيل في قوله سبحانه: ﴿ألقيا في جهنم﴾ إن الخطاب لمالك وحده حملا على هذا الباب، وقيل: بل هو راجع إلى قوله تعالى: ﴿سائق وشهيد﴾ وفي القصيدة زيادة لم تقع في رواية ابن هشام وهي قوله في وصف الناقة:

فأما إذا ما أذلجت، فترى لها رقيبين نجما لا يغيب وفردا

(١) صاحب البيت هو: سويد بن كراع العكلي.

(٢) صاحب البيت هو: المضرس بن ربعي الأسدي، وقيل يزيد بن الظثرية.

مصير الأعشى :

فلما كان بمكة أو قريباً منها، اعترضه بعضُ المشركين من قريش، فسأله عن أمره، فأخبره أنه جاء يريد رسولَ الله - ﷺ -؛ لئُسلم، فقال له: يا أبا بصير، إنه يُحرّم الزّنا، فقال الأعشى: والله إن ذلك لأمرٌ ما لي فيه من أَرَب، فقال له: يا أبا بصير، فإنه يحرم الخمر، فقال الأعشى: أمّا هذه فوالله إنّ في النفس منها لَعُلالات، ولكنني منصرفٌ فأتروني منها عامي هذا، ثم آتيه فأسلم. فانصرف فمات في عامه ذلك، ولم يُعد إلى رسول الله ﷺ.

ذلة أبي جهل:

قال ابن إسحاق: وقد كان عدوّ الله أبو جهل بن هشام مع عداوته لرسول الله - ﷺ - وبغضه إياه، وشدّته عليه، يُذله الله له إذا رآه.

أبو جهل والإراشي

قال ابن إسحاق: حدّثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان الثقفي، وكان واعية، قال: قَدِمَ رجلٌ من إراش - قال ابن هشام: ويقال: إراشة - بإبل له مكة، فابتاعها منه أبو جهل، فمَطَله بأثمانها. فأقبل الإراشي حتى وقف على نادٍ من قريش، ورسولُ الله - ﷺ - في ناحية المسجد جالسٌ، فقال: يا معشر قريش، مَنْ رجلٌ يؤذيني على أبي الحَكَم بن هشام، فأني رجلٌ غريب، ابنُ سَبِيل، وقد غَلَبني على حقي؟ فقال له أهلُ ذلك المجلس: أترى ذلك الرجلَ الجالس - لرسول الله - ﷺ - وهم يهزؤون به؛ لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة - أَذْهَبَ إليه، فإنه يُؤذيك عليه.

وقع هذا البيت بعد قوله: لينا غير أحردا.

وقوله في صفة النبي ﷺ:

أغار لعمري في البلاد وأنجدا

وبعده:

به أنقذ الله الأنام من العمى وما كان فيهم من يريغ إلى هدى

حديث الإراشي

فصل: وذكر حديث الإراشي الذي قَدِمَ مكة، واستعدى على أبي جهل.

قال ابن إسحاق: هو من إراش، وهو ابن الغوث أو ابن عمرو، بن الغوث بن نبت بن

فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله - ﷺ - فقال: يا عبد الله إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حق لي قبله، وأنا غريب ابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤذيني عليه، يأخذ لي حقي منه، فأشاروا لي إليك، فخذ لي حقي منه، يرحمك الله، قال: انطلق إليه، وقام معه رسول الله - ﷺ - فلما رأوه قام معه، قالوا لرجل ممن معهم: اتبعه، فانظر ماذا يصنع.

قال: وخرج رسول الله - ﷺ - حتى جاءه، فضرب عليه بابَه، فقال: مَنْ هذا؟ قال: محمد، فأخرج إليّ، فخرج إليه، وما في وجهه من رائحة، قد انتقع لونه، فقال: أعطِ هذا الرجل حقه، قال: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له، قال: فدخل، فخرج إليه بحقه، فدفعه إليه. قال: ثم انصرف رسول الله - ﷺ - وقال للإراشي: الحق بشأنك، فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس، فقال: جزاه الله خيرًا، فقد والله أخذ لي حقي.

قال: وجاء الرجل الذي بعثوا معه، فقالوا: ويحك! ماذا رأيت؟ قال: عجبًا من العجب، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابَه، فخرج إليه وما معه رُوْحُه، فقال له: أعطِ هذا حقه، فقال: نعم، لا تبرح حتى أخرج إليه حقه فدخل فخرج إليه بحقه، فأعطاه إياه. قال: ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء، فقالوا له: وَيْلَكَ! ما لك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط! قال: ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب عليّ بابي، وسمعت صوته، فمُلْتُ رعبًا، ثم خرجتُ إليه، وإن فوق رأسه لفَخْلٌ من الإبل، ما رأيت مثل هامته، ولا قَصْرَتَه، ولا أثْيابه لفَخْلٍ قط، والله لو أبيت لأكلني.

مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ، وهو والد أنمار الذي ولد، بحيلة وخُتَم. وإراشة الذي ذكر ابن هشام: بَطْنٌ من خُتَم، وإراشة مذكورة في العماليق في نسب فِرْعَوْن صاحب مصر، وفي بِلْيٍّ أيضًا بنو إراشة، وقوله: مَنْ [رجل] يؤذيني على أبي الحكم أي: يعينني على أخذ حقي منه، وهو من الأداة التي توصل الإنسان إلى ما يريد، كأداة الحرب، وأداة الصانع، فالحاكم يؤدي الخصم، أي يوصله إلى مطلبه، وقد قيل: إن الهمزة بدل من عين، ويؤذي ويعدي بمعنى واحد، أي: يزيل العُدُوْنَ، والعُدَاء وهو: الظلم، كما تقول: هو يُشْكِيكَ أي: يُزيل شُكُوكَ، وفي حديث خباب: شكونا إلى رسول الله - ﷺ - حَرُّ الرَّمْضَاءِ، فلم يُشْكنا معناه على أحد القولين: لم يرفع شُكُونا ولم يُزِلْها.

وقوله: فخرج إليه، وما في وجهه رائحة، أي: بقية روح، فكان معناه: روح باقية، فلذلك جاء به على وزن فاعِلِه، والدليل على أنه أراد معنى الرُّوح وإن جاء به على بناء فاعلة قول الإراشي في آخر الحديث: خرج إليّ، وما عنده رُوْحُه.

ركانة ومصارعة

قال ابن إسحاق: وحدثني أبي إسحاق بن يسار، قال: كان رُكَّانَةُ بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف أشدَّ قُرَيْش، فخلا يوماً برسولِ الله - ﷺ - في بعض شعاب مكة، فقال له رسولُ الله ﷺ: «يا رُكَّانَةُ، ألا تتقي الله، وتقبل ما أدعوك إليه؟» قال: إني لو أعلم أن الذي تقول حق لا تبعثك، فقال رسولُ الله - ﷺ -: «أفأريت إن صرعتك، أتعلم أن ما أقول حق؟» قال: نعم، قال: «فقم حتى أصارعك». قال: فقام إليه رُكَّانَةُ يصارعه، فلما بطش به رسولُ الله - ﷺ - أضجعه، وهو لا يملك من نفسه شيئاً، ثم قال: عُدْ يا محمد، فعاد فصرعه، فقال يا محمد: والله إن هذا لَلْعَجَب، أنصرعني! فقال رسولُ الله ﷺ: «وأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه، إن اتقيت الله واتبعت أمري»، قال: ما هو؟ قال: «أدعوك لك هذه الشجرة التي ترى فتأتينني»، قال: ادعها، فدعاها، فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسولِ الله - ﷺ - قال: فقال لها: «ارجعي إلى مكانك». قال: فرجعت إلى مكانها!.

مصارعة رُكَّانَةَ^(١)

فصل: وذكر حديث رُكَّانَةَ ومصارعته للنبي - ﷺ - وقد تقدم مثل هذا الحديث عن أبي الأشدين الجُمَحِيِّ، ولعلمهما أن يكونا جميعاً صارعا رسول الله - ﷺ - وقد تقدم التعريف بأبي الأشدين، وباسمه ونسبه؛ ورُكَّانَةُ هذا هو: ابن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب من مَسْلَمَةِ الفتح، وتوفي في خلافة معاوية، وهو الذي طلق امرأته ألبثة، فسأله رسول الله - ﷺ - عن نيتة، فقال: إنما أردت واحدة، فردّها عليه^(٢)، ومن حديثه عن النبي ﷺ: أنه قال: «إن لكل دين خُلُقاً، وخلق هذا الدين الحياء»^(٣)، ولابنه يزيد بن رُكَّانَةَ صحبةً أيضاً، ويروى عن يزيد بن رُكَّانَةَ ابنه علي، وكان علي قد أعطى من الأيْد والقوة ما لم يُعْطَ أحد، نَزَعَ في ذلك إلى جد رُكَّانَةَ، وله في ذلك أخبار ذكرها الفاكهي، منها: خبره مع يزيد بن معاوية، وكان يزيد بن معاوية من أشد العرب، فصارعه يوماً، فصرعه عليّ صرعة لم يسمع بمثلها، ثم حمّله بعد ذلك على فرس جَمُوح لا يطلق، فعلم عليّ ما يراد به، فلما جَمَحَ به الفرس ضَمَّ عليه فخذيه ضَمَّةً نَفَقَ منها الفرس، وذكر عنه أيضاً أنه تأبَّطَ رجلين أيديْن، ثم جرى بهما، وهما تحت إبطيه حتى صاحا: الموت الموت، فأطلقهما.

(١) انظر البداية (١٠٣/٣).

(٢) «حسن». أخرجه أبو داود (٢٣٧٣) بتحقيقي.

(٣) «حسن». أخرجه ابن ماجه (٤١٨١) والطبراني في الصغير (١٢/١) وأبو نعيم في الحلية (٣٦٣/٥).

وابن عبد البر في التمهيد (٢٥٧/٩).

قال: فذهب رُكَّانة إلى قومه، فقال: يا بني عبد مناف، ساجِرُوا بصاحبكم أهل الأرض، فوالله ما رأيت أسحرَ منه قط، ثم أخبرهم بالذي رأى، والذي صنع.

قدوم وفد النصارى من الحبشة

قال ابن إسحاق: ثم قَدِمَ على رسول الله - ﷺ - وهو بمكة - عشرون رجلاً، أو قريب من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكَلَّمُوهُ وسألوه، ورجال من قُرَيْش في أُنْدِيَتِهِمْ حَوْلَ الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله - ﷺ - عَمَّا أَرَادُوا، دعاهم رسول الله - ﷺ - إلى الله - عز وجل - وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أَعْيُنُهُمْ من الدمع، ثم استجابوا لله، وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يُوصف لهم في كتابهم من أمره. فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نَقَرٍ من قُرَيْش، فقالوا لهم: خَيْبَكُمْ الله مِنْ رَكْبٍ! بعثكم مَنْ وراءكم مِنْ أَهْلِ دينكم تَزْتَادُونَ لهم؛ لتأتوهم بِخَبَرِ الرجل، فلم تَطْمِئِنَّ مجالِسُكُمْ عنده، حتى فارقتم دينكم، وصدَّقتموه بمال، ما نعلم ركباً أَحْمَقَ منكم، أو كما قالوا، فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نَجَاهِلُكُمْ، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نَأَلْ أَنْفُسَنَا خَيْرًا.

ويقال: إن الثَّفر من النصارى من أهل نَجْران، فالله أعلم أي ذلك كان. فيقال - والله أعلم - فيهم نزلت هؤلاء الآيات: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾... إلى قوله: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٥].

قال ابن إسحاق: وقد سألت ابن شهاب الزهري عن هؤلاء الآيات فيمن أنزلن، فقال لي: ما سمعن علمائنا أنهن أنزلن في النجاشي وأصحابه، والآية من سورة المائدة

وفد نصارى الحبشة

فصل: وذكر قدوم وفد النصارى من الحبشة وإيمانهم، وما أنزل الله فيهم من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ ولم يقل: من النصارى، ولا سَمَّاهُمْ هو سبحانه بهذا الاسم، وإنما حكى قولهم الذي قالوه حين عَرَفُوا بأنفسهم، ثم شهد لهم بالإيمان، وذكر أنه أثابهم الجنة، وإذا كانوا هكذا فليسوا بنصارى، هم من أمة محمد - عليه السلام - وإنما عُرِفَ النصارى بهذا الاسم، لأن مبدأ دينهم كان من ناصِرة قرية بالشام، فاشتُقَّ اسمُهم منهم، كما اشتُقَّ اسم اليهود من يهود بن يعقوب، ثم لا يقال لِمَنْ أسلم منهم: يهودي اسم الإسلام أولى بهم جميعًا من ذلك النسب.

من قوله: ﴿ذَلِكَ بَأْسٌ مِنْهُمْ قَسِيصٌ وَرُهْبَانًا وَأَنْهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾... إلى قوله: ﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله - ﷺ - إذا جلس في المسجد، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خباب، وعمار، وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرز، وصهيب، وأشباههم من المسلمين، هزئت بهم قريش، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق! لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به دوننا. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٢ - ٥٤].

وكان رسول الله - ﷺ - فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المزة إلى مبيعة غلام نصراني، يقال له: جبر، عبد لبني الحضرمي، فكانوا يقولون: والله ما يعلم محمدًا كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني، غلام بني الحضرمي، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

قال ابن هشام: يلحدون إليه: يميلون، والإلحاد: الميل عن الحق.

عن غلام المبيعة وصهيب وأبي فكيهة:

فصل: ذكر أن رسول الله - ﷺ - كان يجلس إلى مبيعة غلام. المبيعة: مفعلة مثل المعيشة، وقد يجوز أن يكون مفعلة بضم العين - وهو قول الأخفش، وأما قولهم: سلعة مبيعة فمفعولة، حذفت الواو منها في قول سيويه حين سكنوا الياء استقلالاً للضمة، وفي قول أبي الحسن الأخفش إن الياء بدل من الواو الزائدة في مبيوعة، ووزنها عنده: مقولة بحذف العين، وللکلام على هذين المذهبين موضع غير هذا.

وذكر صهيباً وأبا فكيهة، وسنذكر اسم أبي فكيهة، والتعريف به فيما بعد لأنه بذري، وكذلك صهيب بن سنان، ونقتصر في هذا الموضع على ذكر اسمه وهو: يسار مولى عبد الدار.

قال رؤية بن العجاج:

إِذَا تَبَعَ الضُّحَاكَ كُلُّ مُلْجِدٍ [ونحن ضَرَّابُونَ هَامَ الْعُنْدِ]

ابن هشام: يعني الضُّحَاكَ الخارجيّ، وهذا البيت في أرجوزة له.

سبب نزول سورة الكوثر

قال ابن إسحق: وكان العاص بن وائل السهمي - فيما بلغني - إذا ذُكر رسول الله - ﷺ - قال: دعوه، فإنما هو رجلٌ أبتَر، لا عَقَبَ له، لو مات لانقطع ذُكره، واسترحتم منه، فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ما هو خير لك من الدنيا وما فيها. والكوثر: العظيم.

الأبتر والكوثر^(١)

فصل: وذكر قول العاصي بن وائل: إن محمداً أبتَرُ إذا مات انقطع ذكره، وأنزل الله تعالى فيه قوله من سورة الكوثر على قول ابن إسحق، وأكثر المفسرين. وقيل: إن أبا جهل هو الذي قال ذلك. وقد قيل: كعب بن الأشرف، ويلزم على هذا القول الأخير أن تكون سورة الكوثر مدنية، وقد روى يونس عن أبي عبد الله الجعفي عن جابر الجعفي عن محمد بن علي، قال: كان القاسم ابن رسول الله - ﷺ - قد بلغ أن يركب الدابة، ويسير على النجبية، فلما قبضه الله، قال العاصي: أصبح محمد أبتَر من ابنه، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ عوضاً يا محمد من مصيبتك بالقاسم: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ إن شأنتك هو الأبتَرُ ولم يقل: إن شأنتك أبتَر يتضمن اختصاصه بهذا الوصف، لأن هو في مثل هذا الموضع تعطي الاختصاص، مثل أن يقول قائل: إن زيداً فاسق، فلا يكون مخصوصاً بهذا الوصف دون غيره، فإذا قلت: إن زيداً هو الفاسق، فمعناه: هو الفاسق الذي زعمت، فدلّ على أن بالحضرة من يزعم غير ذلك، وهكذا قال الجرجاني وغيره في تفسير هذه الآية أن هو تعطي الاختصاص، وكذلك قالوا في قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ لما كان العباد يتوهمون أن غير الله قد يغني، قال: هو أغنى وأقنى، أي: لا غيره، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا﴾ إذ كانوا قد يتوهمون في الإحياء والإماتة ما توهما النمرود حين قال: أنا أخبي وأميت، أي: أنا أقتل من شئت، وأستحيي من شئت، فقال عز وجل: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا﴾ أي: لا غيره، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ رَبِّ﴾

(١) انظر الطبري (٢١١/٣٠) وابن كثير (٣٥٥/٨) والبيهقي (٢٥٩/٩) الإتيان للسيوطي (٥٧/٢) والدرّ المشور له (٤٠٤/٦).

الشُّغْرَى^(١) أي: هو الرُّبُّ لا غيره، إذ كانوا قد اتخذوا أرباباً من دونه، منها: الشُّغْرَى، فلما قال: وإنه خلق الزوجين، وأنه أهلك عاذاً استغنى الكلام عن هو التي تعطي معنى الاختصاص، لأنه فعلٌ لم يدَّعه أحدٌ، وإذا ثبت هذا، فكذلك قوله: ﴿إِنْ شِئْنَاكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي: لا أنت. والأبتر: الذي لا عَقِبَ له يتبعه، فعدمه كالبتر الذي هو عَدَمُ الذَّنْبِ، فإذا ما قلت هذا، ونظرت إلى العاصي، وكان ذا ولد وعقب، وولده عَمْرُو وهشام ابنا العاصي بن وائل، فكيف يثبت له البتر، وانقطاع الولد، وهو ذو ولد ونسل، ونفيه عن نبيه، وهو يقول: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠] الآية. فالجواب: أن العاصي - وإن كان ذا ولد - فقد انقطعت العِصْمَةُ بينه وبينهم، فليسوا بأتباع له، لأن الإسلام قد حجزهم عنه، فلا يرثهم ولا يرثونه، وهم من أتباع محمد عليه السلام، وأزواجه أمهاتهم، وهو أبٌ لهم. كما قرأ: أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: «أزواجه أمهاتهم، وهو أبٌ لهم»^(٢)، والنبي أولى بهم» كما قال الله سبحانه، فهم وجميع المؤمنين أتباع النبي في الدنيا، وأتباعه في الآخرة إلى حوضه، وهذا معنى الكُوثر، وهو موجود في الدنيا لكثرة أتباعه فيها، ليغذي أرواحهم بما فيه حياتهم من العلم، وكثرة أتباعه في الآخرة ليسقيهم من حوضه ما فيه الحياة الباقية، وعدوُّ الله العاصي على هذا هو الأبتر على الحقيقة، إذ قد انقطع ذنبه وأتباعه، وصاروا تبعاً لمحمد - ﷺ - ولذلك قبل تغييره للنبي - ﷺ - بالبتر بما هو ضده من الكُوثر؛ فإن الكثرة تضاد معنى القِلَّةِ، ولو قال في جواب اللعين: إنا أعطيناك الحَوْضَ الذي من صِفته كذا وكذا لم يكن رداً عليه، ولا مُشاكلاً لجوابه، ولكن جاء باسم يتضمن الخير الكثير؛ والعددُ النَجْمُ الغفيرُ المُضَادُّ لمعنى البتر، وأن ذلك في الدنيا والآخرة بسبب الحوض المورود الذي أعطاه، فلا يختص لفظ الكوثر بالحوض، بل يجمع هذا المعنى كله، ويشتمل عليه، ولذلك كانت آنيته كعدد النجوم، ويقال: هذه الصفة في الدنيا: علماء الأمة من أصحابه ومن بعدهم، فقد قال: أصحابي كالنجوم^(٣)، وهو يزؤون العلم عنه، ويؤدونه إلي من بعدهم، كما تزتري الآنية في الحوض، وتسقي الواردة عليه: تقول: رَوَيْتُ الماءَ، أي: استقيته كما تقول: رَوَيْتُ العلمَ، وكلاهما فيه حياة، ومنه قيل لمن روى علماً أو شعراً: راوية تشبيهاً بالمزادة أو الدابة

(١) سورة النجم آية رقم (٤٤ - ٤٩).

(٢) هذه اللفظة «وهو أب لهم» ليست آية من كتاب الله تعالى. وما ليس في القرآن من قرآن يُراد وإن قرأه أفضل الصحابة.

(٣) «ضعيف». أخرجه عبد بن حميد المنتخب (٣٧٣). وانظر الميزان (٢٢٩٩/١٥١١) وفي لسانه (٤٨٨/٢) (٥٩٤/٢) وتلخيص الحبير (١٩٠/٤) بتحقيقي وابن عساكر (٢٨٥/٦).

التي يُحْمَلُ عليها الماء وليس من باب عَلاَمَةٍ وَنَسَابَةٍ، وفي حديث أَبِي بَرزَةَ في صفة الحوض أنها تَنْزُرُ في أَكْفُ الْمُؤْمِنِينَ، يعني الآثِيَّةَ، وَحَصْبَاءُ الحوض: اللؤلؤ والياقوت، ويقابلهما في الدنيا الْحِكْمُ الماثورة عنه، ألا ترى أن اللؤلؤ في علم التعبير حِكْمٌ وفوائد علم، وفي صفة الحوض له المسك، أي: حَمَأَتُهُ^(١) ويقابله في الدنيا: طيبُ الثناء على العلماء، وأتباع النبي الأتقياء، كما أن المسك في علم التعبير ثناء حَسَنٌ، وعلم التعبير من علم الثبوة مُقْتَبَسٌ. وذكر في صفة الحوض الطيرُ التي ترده كاعناق البُخْتِ^(٢)، ويقابله من صفة العلم في الدنيا وَرُودُ الطالِبِينَ من كل صُقْعٍ^(٣) وَقَطْرٌ على حضرة العلم واتباعهم إِيَّاهَا في زمن النبي - ﷺ - وبعده، فتأمل صفة الكوثر معقولة في الدنيا، مَحْسُوسَةٌ في الآخرة مُدْرَكَةٌ بِالْعِيَانِ - هُنَاكَ يبين لك إعجازُ التنزيل ومطابقة السورة - لسبب - نزولها، ولذلك قال فَضِيلُ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أي: تواضع لِمَنْ أعطاك الكوثر بالصلاة له، فإن الكثرة في الدنيا تقتضي في أكثر الخلق الكِبَرُ: وتُخَدُّ إلى الفخر والمحيرية، فلذلك كان عليه السلام طأطأ رأسه عامَ الفتح حين رأى كثرة أتباعه، وهو على الراحلة حتى ألصق عُثْنُونُهُ^(٤) بِالرَّحْلِ امْتِثَالًا لِأَمْرِ رَبِّهِ، وكذلك أمره بالنحر شُكْرًا له، ورفع اليدين إلى التَّخَرُّجِ في الصلاة عند استقبال القبلة التي عندها ينحر، وإليها يهدي معناه: الجمع بين الفعلين. النحر المأمور به يوم الأضحى، والإشارة إليه في الصلاة برفع اليدين إلى التَّخَرُّجِ، كما أن القبلة مَحْجُوجَةٌ مُصَلًى إِلَيْهَا، فَكَذَلِكَ يَنْحَرُ عندها، ويُشار إلى النحر عند استقبالها، وإلى هذا التفت عليه السلام حين قال: مَنْ صَلَّى صَلَاتِنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبَلَتَنَا، وَنَسَكَ نُسُكَنَا فهو مسلم وقد قال الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] فَفَرَّقَ بين الصلاة إلى الكعبة، والنُّسُكِ إليها، كما قرن بينهما حين قال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ وذكر في صفة الحوض: كما بين صَنْعَاءُ وَأَيْلَةُ^(٥) وقد جاء فيه أيضًا في الصحيح «كما بين جَزْبَاءُ وَأَذْرَجُ»^(٦) وبينهما مسافة بعيدة، وفي الصحيح أيضًا في صفته: كما بين عَدَنَ أَبِينَ إِلَى عَمَّانَ، وقد تقدم ذكر أَبِينَ، وأنه ابن زهير بن أَيْمَنَ بن جَمِيرٍ، وَأَنْ عَدَنَ سُمِّيَتْ برجل من جَمِيرٍ عَدَنَ بها، أي: أقام، وتقدم أيضًا ما قاله الطبري أَنَّ عَدَنَ وَأَبِينَ هما ابنا عَدَنَانَ أَخَوَا مَعْدَ، وَأَمَّا عَمَّانُ بتشديد الميم وفتح العين، فهي بالشام قرب دمشق، سُمِّيَتْ بِعَمَّانَ بن لُوطَ بن هَارَانَ، كَانَ سَكَنَهَا - فيما ذكروا - وَأَمَّا عَمَّانُ

(١) الحمأة: الطين.

(٢) البخت: الإبل طويلة العنق.

(٣) صقع: جهة وناحية.

(٤) العثنون: ما نبت على الذقن.

(٥) متفق عليه.

(٦) أخرجه الطبراني (٣١٣/١١).

الكوثر في الشعر

قال ابن إسحق: قال لبيد بن ربيعة الكلابي:

وصاحبٌ مَلْحُوبٌ فُجِعْنَا بِيَوْمِهِ وعند الرُدَاعِ بيتٌ آخرَ كوثرٍ

بضم العين وتخفيف الميم، فهو باليمن سُمِّيت بَعْمَان بن سَيَّان، وهو من ولد إبراهيم - فيما ذكروا - وفيه نظر؛ إذ لا يُعْرَف في ولد إبراهيم لصلبه من اسمه سَيَّان. وفي صفة الحوض أيضًا كما بين الكوفة ومكة، وكما بين بيت المقدس والكعبة، وهذه كلها روايات متقاربة المعاني، وإن كانت المسافات بعضها أبعدَ من بعض، فكَذلك الحوض أيضًا له طول وعرض وزوايا وأركان، فيكون اختلاف هذه المسافات التي في الحديث على حسب ذلك جعلنا الله من الواردين عليه، ولا أَظْلَمَ أَكْبَادَنَا في الآخرة إليه. ومما جاء في معنى الكوثر ما رواه ابن أبي نَجِيح عن عائشة - قالت: «الكوثر نهر في الجنة، لا يُدْخِلُ أَحَدٌ إِصْبَعِيهِ فِي أَذْنِيهِ إِلَّا سَمِعَ خَرِيرَ ذَلِكَ النَّهْرِ»^(١) وقع هذا الحديث في السيرة من رواية يونس، ورواه الدارقطني من طريق مالك بن مِغْوَلٍ عن الشَّعْبِيِّ عن مَسْرُوقٍ عن عائشة قالت: قال رسول الله - ﷺ -: «إن الله أعطاني نهرًا يقال له الْكَوْثَرُ لا يَشَاءُ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِي أَنْ يَسْمَعَ خَرِيرَ ذَلِكَ الْكَوْثَرِ إِلَّا سَمِعَهُ»، فقلت: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: «أَدْخِلِي أَصْبَعِيكَ فِي أُذُنِكَ وَشُدِّي، فَالَّذِي تَسْمَعِينَ فِيهِمَا مِنْ خَرِيرِ الْكَوْثَرِ»^(٢). وروى الدارقطني من طريق جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - قال لعلي: «والذي نفسي بيده إنك لذائدٌ عن حَوْضِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَذُوذُ عَنْهُ كُفَّارُ الْأَمَمِ، كَمَا تُذَادُ الْإِبِلُ الضَّالَّةُ عَنْ الْمَاءِ بَعْضًا مِنْ عَوْسَجٍ»^(٣) إلا أن هذا الحديث يرويه حَرَامُ بن عُثْمَانَ عن ابْنَيْ جَابِرٍ، وقد سُئِلَ مَالِكُ عَنْهُ، فقال: ليس بثقة، وأغلظ فيه الشافعي القول، وأما قوله - عليه السلام -: «وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي»، فقد قيل في معناه أقوالٌ، ويفسره عندي الحديث الآخر، وهو قوله عليه السلام، وهو عَلَى المنبر: «إني لأنظر إلى حَوْضِي الْآنَ مِنْ مَقَامِي هَذَا» فتأمله.

استشهاد ابن هشام على معنى الكوثر

وذكر ابن هشام في الاستشهاد على معنى الكوثر قول لبيد بن ربيعة:

وصاحبٌ مَلْحُوبٌ فُجِعْنَا بِيَوْمِهِ وعند الرُدَاعِ بيتٌ آخرَ كوثرٍ

(١) ضعيف. أخرجه الحاكم (١٧١/٣) وفيه انقطاع بين ابن أبي نجيح وعائشة رضي الله عنها.

(٢) «ضعيف جدًا» أخرجه الدارقطني (١٣٧/١).

(٣) العوسج: ضرب من الشجر له شوك. والحديث ضعيف كما سيقول السهيلي رحمه الله تعالى.

يقول: عظيم.

قال ابن هشام: وهذا البيت في قصيدة له. وصاحب مَلْحُوب: عَوْف بن الأَخْوص بن جَعْفَر بن كِلَاب، مات بِمَلْحُوب. وقوله: عند الرِّدَاع بيت آخر كَوَثَر: يعني شريح بن الأَخْوص بن جَعْفَر بن كِلَاب، مات بالرِّدَاع. وكَوَثَر: أراد الكثير، ولفظه مشتق من لفظ الكثير. قال الكُميت بن زَيْد يمدح هِشام بن عبد الملك بن مروان:

وأنت كَثِيرٌ يا بن مَرْوان طَيِّب وكان أبوك ابنُ العقائل كَوَثَر

وهذا البيت في قصيدة له. وقال أُمَيَّة بن أَبِي عائذ الهذلي يصف حمار وحش:

يُحامي الحَقِيق إذا ما احتدمن وَحَمَحَمَنَ في كَوَثَر كالجِلال

يعني بالكوثر: الغبار الكثير، شبهه لكثرتة عليه بالجِلال. وهذا البيت في قصيدة له.

قال ابن إسحاق: حدَّثني جعفر بن عمرو - قال ابن هشام: هو جعفر بن عمرو بن أُمَيَّة الضُّمري - عن عبد الله بن مُسْلِم أخي محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، عن أنس بن مالك، قال: سمعت رسولَ الله ﷺ، وقيل له: يا رسول الله، ما الكوثر الذي أعطاك الله؟ قال: «نهر كما بين صنعاء إلى أيلة، آتيته كعدد نجوم السماء، تَرده طيورُ لها كأعناق الإبل». قال: يقول عمر بن الخطاب: إنها يا رسول الله لناعمة، قال: «آكلها أنعم منها»^(١).

قال ابن إسحاق: وقد سمعت في هذا الحديث أو غيره أنه قال - ﷺ -: «مَنْ شَرِبَ منه لا يَظْمَأُ أَبَدًا»^(٢).

وبالفورة الحرَّابِ ذو الفضلِ عامرٌ فنعم ضياء الطارقِ المُتَنَوِّر

يعني عامر بن مالك مُلَاعِبُ الأَسِنَّةِ، وهو عم لَيْبِد، وسنذكر: لِمَ سُمِّي مُلَاعِبُ الأَسِنَّةِ إذا جاء ذكره إن شاء الله تعالى. وصاحب مَلْحُوب: عَوْف بن الأَخْوص، وقد ذكره ابن هشام. والذي عند الرِّدَاع: شَرِيح بن الأَخْوص في قوله، وقال غيره: هو جِبَّان بن عُثْبَةَ بن مالك بن جَعْفَر بن كِلَاب. والرِّدَاع: من أرض اليمامة. وَمَلْحُوب: مَفْعُولٌ من لَحَبْتُ العود، إذا قشرتة، فكان هذا الموضع سُمِّي مَلْحُوبًا، لأنه لا أَكَم فيه ولا شَجَر.

(٢) أخرجه الطبراني (٩٩/١٠).

(١) انظر الدرّ المنثور (٤٠٢/٦).

نزول: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾:

قال ابن إسحاق: ودعا رسول الله ﷺ - قومه إلى الإسلام، وكلمهم، فأبلغ إليهم، فقال له رَمَعَة بن الأسود، والنَّضْر بن الحارث، والأسود بن عَبْدِ يَغُوث، وأُبَي بن خَلَف، والعاص بن وائل: لو جعل معك يا محمد مَلَك يحدث عنك الناس وَيُرَى معك! فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَاً لَفُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

نزول ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾

قال ابن إسحاق: ومَرَّ رسول الله ﷺ - فيما بلغني - بالوليد بن المغيرة، وأمية بن خَلَف، وبأبي جَهْل بن هشام، فغمزوه وهَمْزَوْه، واستهزؤوا به، فغاظه ذلك: فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من أمرهم: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١].

ذكر حديث المستهزين

وذكر حديث المُسْتَهْزِئِينَ برسول الله ﷺ - وما أنزل الله فيهم من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الأنبياء: ٤١] الآية. فقال فيها: اسْتَهْزَىءَ بِرُسُلٍ ثم قال: فحاق بالذين سَخِرُوا منهم، ولم يقل: اسْتَهْزَءُوا، ثم قال: ما كانوا به يستهزئون ولم يقل: يَسْخَرُونَ. ولا بد في حكمة في هذا من جهة البلاغة وتنزيل الكلام منازل، فقوله: اسْتَهْزَىءَ بِرُسُلٍ، أي: أَسْمِعُوا من الكلام الذي يُسَمَّى استهزاء ما ساءهم تأنيساً له، ليتأسى بمن قبله من الرسل، وإنما سُمِّي استهزاء إذا كان مسموعاً، وهو من فعل الجاهلين: قال الله تعالى: ﴿اتَّخِذْنَا هُزُوءًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]. وأما السُّخْرُ والسُّخْرَى، فقد يكون في النفس غير مسموع، ولذلك تقول: سَخِرْتُ منه، كما تقول: عَجِبْتُ منه إلا أن العجب لا يختص بالمعنى المذموم، كما يختص السُّخْرُ، وفي التنزيل خبراً عن نوح: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٢٨] ولم يَقُلْ: نَسْتَهْزَىءَ بكم كما نَسْتَهْزِئُونَ؛ لأن الاستهزاء ليس من فعل الأنبياء، إنما هو من فعل الجاهلين كما قدمنا من قول موسى عليه السلام، فالنبي يَسْخَرُ: أي، يعجب من كُفْرٍ مَنْ يَسْخَرُ به، ومن سَخِرَ عقولهم، فإن قلت: فقد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزَىءُ بِهِمْ﴾، قلنا: العربُ تسمي الأجزاء على الفعل باسم الفعل كما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ وهو مجازٌ حسن^(١) وأما

(١) النسيان هنا حقيقة لا مجاز، والنسان لغة: الترك. وانظر مقاييس اللغة لابن فارس (٤٢١/٥).

ذكر الإسراء والمعراج

قال ابن هشام: حدثنا زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق المطلبي قال: ثم أُسْرِيَ برسول الله - ﷺ - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس من إيلياء، وقد فشا الإسلام بمكة في قريش، وفي القبائل كلها.

قال ابن إسحاق: كان من الحديث فيما بلغني عن مسراه - ﷺ - عن عبد الله بن مسعود، وأبي سعيد الخدري، وعائشة زوج النبي ﷺ، ومعاوية بن أبي سفيان، والحسن بن أبي الحسن البصري، وابن شهاب الزهري، وقَتادة وغيرهم من أهل العلم،

الاستهزاء الذي كُتِبَ بصدده، فهو المسمى استهزاء حقيقة، ولا يرضى به إلا جهول. ثم قال سبحانه: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي حاق بهم من الوعيد المبلغ لهم على السنة لرسول ما كانوا يستهزؤون به بألسنتهم، فنزلت كل كلمة منزلها، ولم يحسن في حكم البلاغة وضع واحدة مكان الأخرى. وذكر أيضًا قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي: لو جعلنا الرسول إليهم من الملائكة لم يكن إلا على صورة رجل، ولَدْخَلَ عليهم من اللبس فيه ما دَخَلَ في أمر مُحَمَّد وقوله: ﴿لَبَسْنَا﴾ يدل على أن الأمر كله منه سبحانه، فهو يُعْمِي مَنْ شاء عن الحق، وَيُفْتَحُ بَصِيرَةً مَنْ شاء، وقوله: ﴿مَا يَلْبَسُونَ﴾، معناه: يَلْبَسُونَ على غيرهم، لأن أكثرهم قد عَرَفُوا أنه الحق، ولكن جَحَدُوا بها، واستَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ، فَجَعَلُوا يَلْبَسُونَ أي يَلْبَسُ، بعضهم على بعض وَيَلْبَسُونَ على أهلهم وأتباعهم، أي: يخلطون عليهم بالباطل، تقول العرب: لَبَسْتُ عليهم الأمر أَلْبَسُهُ، أي: سترته وخلطته، ومن لَبَسَ الثياب: لَبَسْتُ أَلْبَسُ، لأنه في معنى كَسَيْتُ، وفي مُقَابَلَةِ عَرِيتُ، فجاء على وزنه، والآخر في معنى: خَلَطْتُ أو سَتَرْتُ، فجاء على وزنه.

شرح ما في حديث الإسراء من المشكل^(١)

اتفقت الرواة على تسميته إسراء، ولم يُسمَّه أحدٌ منهم: سُرَى، وإن كان أهل اللغة قد قالوا: سَرَى وأسْرَى بمعنى واحد، فدلَّ على أن أهل اللغة لم يُحَقِّقُوا العبارة، وذلك أن القراء لم يختلفوا في العلاوة من قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ ولم يقل: سَرَى،

(١) انظر للمحقق «القول الواجِب في شرح حديث الإسراء والمعراج». وانظر المنتظم (٢٥/٣) البداية (١٠٨/٣) الكامل (٥٧٨/١) الدلائل للبيهقي (٣٥٤/٢) طبقات ابن سعد (٢١٣/١) وانظر البخاري كتاب مناقب الأنصار. حديث رقم (٣٨٨٧) ومسلم في الإيمان (٢٦٤) وفتح الباري (٣٠١/٧) وأحمد (٣٠٩/١) الآية الكبرى للسيوطي/ الشفاء للقاضي عياض (٢٣١/١) وزاد المعاد (٣٤/٣).

وَأُمُّ هَانِئَ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ، مَا اجْتَمَعَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، كُلُّ يَحْدُثُ عَنْهُ بَعْضُ مَا ذَكَرَ مِنْ أَمْرِهِ حِينَ أُسْرِى بِهِ - ﷺ -، وَكَانَ فِي مَسْرَاهِ، وَمَا ذَكَرَ عَنْهُ بِلَاءٌ وَتَمْحِصٌ، وَأَمْرٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ فِي قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، فِيهِ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ، وَهَدَى وَرَحْمَةً وَثَبَاتٌ لِمَنْ آمَنَ وَصَدَّقَ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى يَقِينٍ، فَأُسْرِى بِهِ كَيْفَ شَاءَ، لِتُرى مِنْ آيَاتِهِ مَا أَرَادَ، حَتَّى عَايَنَ مَا عَايَنَ مِنْ أَمْرِهِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ، وَقُدْرَتِهِ الَّتِي يَضْنَعُ بِهَا مَا يُرِيدُ.

راوية ابن مسعود:

فكان عبدُ الله بن مسعود - فيما بلغني عنه - يقول:

أَتَيْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْبُرَاقِ - وَهِيَ الدَّابَّةُ الَّتِي كَانَتْ تُحْمَلُ عَلَيْهَا الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَهُ، تَضَعُ حَافِرَهَا فِي مَنْتَهَى طَرَفِهَا - فَحُمِلَ عَلَيْهَا، ثُمَّ خَرَجَ بِهِ صَاحِبُهُ، يَرَى الْآيَاتَ فِيمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ، فَوَجَدَ فِيهِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ وَمُوسَى وَعِيسَى فِي نَقَرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَدْ جُمِعُوا لَهُ، فَصَلَّى بِهِمْ. ثُمَّ أَتَى بِثَلَاثَةِ آتِيَةٍ، إِنَاءٍ فِيهِ لَبَنٌ،

وَقَالَ: وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ، وَلَمْ يَقُلْ: يُسْرِى، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الشَّرَى مِنْ سَرَيْتَ إِذَا سِرْتَ لَيْلًا، وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ تَقُولُ: طَالَتْ سُرَاكَ اللَّيْلَةُ، وَالْإِسْرَاءُ مُتَعَدٌّ فِي الْمَعْنَى، وَلَكِنْ حُذِفَ مَفْعُولُهُ كَثِيرًا حَتَّى ظَنَّ أَهْلُ اللُّغَةِ أَنَّهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، لَمَّا رَأَوْهُمَا غَيْرَ مُتَعَدِّينَ إِلَى مَفْعُولٍ فِي اللَّفْظِ، وَإِنَّمَا أُسْرِى بَعْدَهُ، أَيُ: جَعَلَ الْبُرَاقَ يُسْرِى، كَمَا تَقُولُ: أَمْضَيْتُهُ، أَيُ: جَعَلْتَهُ يَمْضِي، لَكِنْ كَثُرَ حُذْفُ الْمَفْعُولِ لِقُوَّةِ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ، أَوْ لِلِاسْتِغْنَاءِ عَنْ ذِكْرِهِ، إِذِ الْمَقْصُودُ بِالْخَبَرِ ذِكْرُ مُحَمَّدٍ، لَا ذِكْرَ الدَّابَّةِ الَّتِي سَارَتْ بِهِ، وَجَازَ فِي قِصَّةِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. أَنْ يَقَالَ لَهُ: فَأُسْرِ بِأَهْلِكَ: أَيُ فَاسِرٍ بِهِمْ، وَأَنْ يَقْرَأَ فَأُسِرَ بِأَهْلِكَ بِالْقَطْعِ، أَيُ: فَأُسِرَ بِهِمْ مَا يَتَحَمَّلُونَ عَلَيْهِ مِنْ دَابَّةٍ أَوْ نَحْوِهَا، وَلَمْ يَتَصَوَّرْ ذَلِكَ فِي الشَّرَى بِالنَّبِيِّ ﷺ، إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ سَرَى بَعْدَهُ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ؛ فَلِذَلِكَ لَمْ تَأْتِ التَّلَاوَةُ إِلَّا بِوَجْهِهِ وَاحِدٍ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ فَتَدْبِرُهُ. وَكَذَلِكَ تَسَامَحُ النُّحَوِيُّونَ أَيْضًا فِي الْبَاءِ وَالْهَمْزَةِ، وَجَعَلُوهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ فِي حُكْمِ التَّعْدِيَةِ، وَلَوْ كَانَ مَا قَالُوهُ أَصْلًا لَجَازَ فِي: أَمْرَضْتَهُ أَنْ تَقُولَ: مَرَضْتُ بِهِ، وَفِي أَسْقَمْتُهُ: أَنْ تَقُولَ: سَقَمْتُ بِهِ، وَفِي أَعْمَيْتُهُ أَنْ تَقُولَ: عَمَيْتُ بِهِ قِيَاسًا عَلَى: أَذْهَبْتُهُ وَأَذْهَبْتُ بِهِ، وَيَأْبَى اللَّهُ ذَلِكَ وَالْعَالَمُونَ؛ فَإِنَّمَا الْبَاءُ تُعْطَى مَعَ التَّعْدِيَةِ طَرَفًا مِنَ الْمِشَارَكَةِ فِي الْفِعْلِ وَلَا تَعْطَى الْهَمْزَةُ، فَإِذَا قُلْتَ: أَقْعَدْتَهُ، فَمَعْنَاهُ: جَعَلْتَهُ يَقْعُدُ، وَلَكِنَّكَ شَارَكْتَهُ فِي الْقُعُودِ، فَجَذَبْتَهُ بِيَدِكَ إِلَى الْأَرْضِ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، فَلَا يَدَّ مِنْ طَرَفٍ مِنَ الْمِشَارَكَةِ إِذَا قَعَدْتَ بِهِ، وَدَخَلْتَ بِهِ، وَذَهَبَتْ بِهِ بِخِلَافِ أَدْخَلْتَهُ وَأَذْهَبْتَهُ.

وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء قال. فقال رسول الله ﷺ: «فسمعتُ قائلاً يقول حين عُرضت عليّ: إن أخذ الماء، غرق وعُرِقت أُمته، وإن أخذ الخمر عَوَى، وعَوَتْ أُمته، وإن أخذ اللبن هُدِيّ، وهُدِيَتْ أُمته. قال: فأخذتُ إناء اللبن، فشربتُ منه، فقال لي جبريل عليه السلام: هُدِيَتْ وهُدِيَتْ أُمَتُكَ يا محمد».

حديث الحسن:

قال ابن إسحاق: وحُدِّثت عن الحسن أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا نائم في الحجر، إذ جاءني جبريل، فهُمَزَنِي بقدمه، فجلست فلم أر شيئاً، فعدت إلى مَضْجَعِي، فجاءني الثانية فهُمَزَنِي بقدمه، فجلست فلم أر شيئاً، فعدت إلى مَضْجَعِي، فجاءني الثالثة فهُمَزَنِي بقدمه، فجلست، فأخذ بعَضْدي، فقمت معه فخرج إلى باب المسجد، فإذا دابةٌ أبيض، بين البغل - والحمار - في فَخْذَيْهِ جَنَاحَانِ يَخْفِرُ بهما رجله، يضع يده في مُتْنِهِ طرفه، فحملني عليه، ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته.

حديث قتادة:

قال ابن إسحاق، وحُدِّثت عن قتادة أنه قال: حُدِّثت أن رسول الله ﷺ قال: «لما دنوْتُ منه؛ لأركبه شمس، فوضع جبريلُ يدهُ على مَعْرِفَتِهِ، ثم قال: ألا تَسْتَجِي يا بُرَأَى مما تَصْنَع، فوالله ما ركبك عَبْدٌ لله قبلَ محمدٍ أكرمُ على الله منه. قال: فاستحيا حتى ازْفَضَّ عَرَقًا، ثم قرَّ حتى رَكِبْتَهُ».

من حديث الحسن:

قال الحسنُ في حديثه: فمضى رسولُ الله ﷺ، ومضى جبريلُ عليه السلام معه، حتى انتهى به إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيمَ وموسى وعيسى في نُقَرٍ من الأنبياء

فإن قلت: فقد قال الله سبحانه: ﴿ذهب الله بنورهم وذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ ويتعالى - سبحانه - عن أن يوصف بالذهاب، ويضاف إليه طرف منه، وإنما معناه: أذهب نورهم وسمعهم. قلنا: في الجواب عن هذا: أن النور والسمع والبصر كان بيده سبحانه، وقد قال: بيده الخير، وهذا من الخير الذي بيده، وإذا كان بيده، فجاز أن يقال فَهَبَ به على المعنى الذي يقتضيه قوله سبحانه بيده الخيرُ كائناً ما كان ذلك المعنى، فعليه ينبنى ذلك المعنى الآخر الذي في قوله: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ مجازاً كان أو حقيقةً، ألا ترى أنه لما ذكر الرُّجَسَ كيف قال: ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرُّجَسَ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. ولم يقلْ يَذْهَبُ به، وكذلك قال: ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾

فَأَمَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَصَلَّى بِهِمْ، ثُمَّ أُتِيَ بِإِنَاءَيْنِ، فِي أَحَدِهِمَا: خَمْرٌ، وَفِي الْآخَرِ: لَبَنٌ. قَالَ: فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِنَاءَ اللَّبَنِ، فَشَرِبَ مِنْهُ، وَتَرَكَ إِنَاءَ الْخَمْرِ. قَالَ: فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ: هُدَيْتَ لِلْفِطْرَةِ، وَهُدَيْتَ أُمَّتَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَحُرِّمْتَ عَلَيْكُمُ الْخَمْرَ، ثُمَّ انصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِلَى مَكَّةَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ عَدَا عَلَى قَرِيشٍ، فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبَرَ. فَقَالَ أَكْثَرُ النَّاسِ: هَذَا وَاللَّهِ الْأَمْرُ الْبَيِّنُ، وَاللَّهِ إِنْ الْعِيرُ لَتُطْرَدُ شَهْرًا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الشَّامِ مُدْبِرَةً، وَشَهْرًا مَقْبَلَةً، أَفِيذْهُبُ ذَلِكَ مُحَمَّدٌ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَيَرْجِعُ إِلَى مَكَّةَ! قَالَ: فَارْتَدَّ كَثِيرٌ مِمَّنْ كَانَ أَسْلَمَ، وَذَهَبَ النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالُوا لَهُ: هَلْ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ فِي صَاحِبِكَ، يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَصَلَّى فِيهِ، وَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ. قَالَ: فَقَالَ لَهُمْ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكُمْ تَكْذِبُونَ عَلَيْهِ، فَقَالُوا: بَلَى، هَا هُوَ ذَاكَ فِي الْمَسْجِدِ يَحْدِثُ بِهِ النَّاسَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ لَنْ كَانَ قَالَهُ لَقَدْ صَدَقَ، فَمَا يُعْجِبُكُمْ مِنْ ذَلِكَ؟! فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لِيُخْبِرُنِي أَنَّ الْخَبَرَ لِيَأْتِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ فَأَصْدَقَهُ، فَهَذَا أَبْعَدُ مِمَّا تَعْجَبُونَ مِنْهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ. أَحَدَّثْتَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ أَنَّكَ أَتَيْتَ الْمَقْدِسَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَصَفْهُ لِي، فَإِنِّي قَدْ جِئْتُهِ - قَالَ الْحَسَنُ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «فَرُفِعَ لِي حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ» - فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَصِفُهُ لِأَبِي بَكْرٍ: وَيَقُولُ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ، أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، كُلَّمَا وَصَفَ لَهُ مِنْهُ شَيْئًا، قَالَ: صَدَقْتَ، أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، حَتَّى انْتَهَى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - لِأَبِي بَكْرٍ: وَأَنْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقُ، فَيَوْمَئِذٍ سَمَّاهُ الصَّدِيقَ.

قال الحسن: وأنزل الله تعالى فيمن ارتد عن إسلامه لذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

فهذا حديث الحسن عن مَسْرُي رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -. وما دخل فيه من حديث قتادة.

[الأنفال: ١١] تعليمًا لعباده حُسن الأدب معه، حتى لا يضاف إلى القدوس سبحانه - لفظًا ومعنى شيء من الأرجاس، وإن كانت خَلْقًا لَهُ وَمِلْكًا فَلَا يَقَالُ: هِيَ بِيَدِهِ عَلَى الْخُصُوصِ، تَحْسِينًا لِلْعِبَارَةِ وَتَنْزِيهًا لَهُ، وَفِي مِثْلِ النُّورِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ يَحْسُنُ أَنْ يَقَالَ: هِيَ بِيَدِهِ، فَحَسَّنَ عَلَى هَذَا أَنْ يَقَالَ: ذَهَبَ بِهِ، وَأَمَّا أُسْرَى بَعْدَهُ، فَإِنْ دَخَلَ الْبَاءُ فِيهِ لَيْسَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، فَإِنَّهُ فَعْلٌ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ، وَذَلِكَ الْمَفْعُولُ الْمَسْرُيُّ هُوَ الَّذِي سَرَى بِالْعَبْدِ فَشَارَكَهُ بِالسَّرَى، كَمَا قَدَّمْنَا فِي قَعْدَتِهِ بِهِ أَنَّهُ يُعْطَى الْمِشَارَكَةَ فِي الْفَعْلِ، أَوْ فِي طَرَفٍ مِنْهُ، فَتَأْمَلْهُ.

الإسراء رؤيا

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض آل أبي بكر: أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت تقول: ما فقد جسد رسول الله - ﷺ - ولكن الله أسرى بروحه.

قال ابن إسحاق: وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس: أن معاوية بن أبي سفيان، كان إذا سُئِلَ عن مسرى رسول الله - ﷺ - قال: «كانت رؤيا من الله تعالى صادقة».

فلم يُنكر ذلك من قولهما، لقول الحسن: إن هذه الآية نزلت في ذلك، قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]. ولقول الله

أكان الإسراء يقظة أم منامًا

فصل: وتقدم بين يدي الكلام في هذا الباب: هل كان الإسراء في يقظة بجسده، أو كان في نومه بروحه، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٣] وقد ذكر ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية أنها كانت رؤيا حق، وأن عائشة قالت: لم تفقد بدنه، وإنما عُرج بروحه تلك الليلة، ويحتج قائل هذا القول بقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]. ولم يقل: الرؤية، وإنما يُسمَّى رؤيا ما كان في النوم في عُزف اللغة، ويحتجون أيضًا بحديث البخاري عن أنس بن مالك قال: ليلة أُسريَ برسول الله - ﷺ - من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو هذا، وهو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم فكان تلك الليلة، فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى، فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء عليهم السلام تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم، فلم يُكَلِّمُوهُ، حتى اختَمَلُوهُ فوضَعُوهُ عند بئر زَمْزَمَ، فتولاه منهم جبريل. الحديث بطوله، وقال في آخره: واستيقظ، وهو في المسجد الحرام، وهذا نص لا إشكال فيه أنها كانت رؤيا صادقة، وقال أصحاب القول الثاني: قد تكون الرؤيا بمعنى الرؤية في اليقظة، وأنشدوا للراعي يصف صائداً:

وَكَبَّرَ لِلرُّؤْيَا، وَهَشَّ فَوَّادَهُ وَبَشَّرَ قَلْبًا كَانَ جَمًّا بِلَابِلِهِ^(١)

قالوا: وفي الآية بيان أنها كانت في اليقظة، لأنه قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ ولو كانت رؤيا نوم ما افتتن بها الناس حتى ارتد كثير ممن أسلم، وقال

(١) البلابل: الوسوس والمهموم.

تعالى في الخبر عن إبراهيم عليه السلام إذ قال لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. ثم مضى على ذلك. فعرفت أن الوحي من الله يأتي الأنبياء أيقاظًا ونيامًا.

قال ابن إسحق: وكان رسول الله - ﷺ - فيما بلغني - يقول: «تنام عيناى، وقلبي يقظان». والله أعلم أي ذلك كان قد جاء، وعاین فيه ما عاین، من أمر الله، على أي حالیه كان: نائمًا، أو يقظان، كل ذلك حقٌ وصدق.

الكفار: يزعم محمد أنه أتى بيت المقدس، ورجع إلى مكة ليلته، والبعير تطرد إليها شهرًا مُقْبِلَةً وشهرًا مُذْبِرَةً، ولو كانت رؤيا نوم، لم يستبعد أحدٌ منهم هذا، فمعلومٌ أن النائم قد يرى نفسه في السماء، وفي المشرق والمغرب، فلا يستبعد منه ذلك واحتج هؤلاء أيضًا بشربه الماء من الإناء الذي كان مُعْطًى عند القوم، ووجدوه حين أصبح لا ماء فيه، وبإزاشاده للذين نذَّ بعيرهم حين أنفرهم جس الدابة، وهو البراق حتى دلهم عليه، فأخبر أهل مكة بأمارة ذلك، حتى ذلك الغرارتين السوداء والبزقاء كما في هذا الكتاب، وفي رواية يونس: أنه وعد قريشًا بقُدوم البعير التي أرشدتهم إلى البعير، وشرب إناءهم، وأنهم سَيَقْدُمُونَ ويُخْبِرُونَ بذلك، فقالوا: يا محمد متى يَقْدُمُونَ؟ فقال: «يوم الأربعاء»، فلما كان ذلك اليوم، ولم يَقْدُمُوا، حتى كَرَبَت الشمسُ أن تَغْرُبَ، فدعا الله فحبس الشمس حتى قَدِمُوا كما وصف، قال: ولم يحبس الشمس إلا له ذلك اليوم، ولْيُوشَعَ بن نُونٍ^(١) وهذا كله لا يكون إلا يَقْظَةً، وذهبت طائفةٌ ثالثة، منهم: شيخنا القاضي أبو بكر [بن العربي] رحمه الله إلى تصديق المقاتلين، وتصحيح الحديثين، وأن الإسراء كان مرتين، إحداهما: كان في نومه وتوطئة له وتيسيرًا عليه، كما كان بدء نبوته الرؤيا الصادقة، ليسهل عليه أمر النبوة فإنه عظيم تضعف عنه القوى البشرية، وكذلك الإسراء سهله عليه بالرؤيا؛ لأن هوله عظيم، فجاءه في اليقظة على تَوَظُّعٍ وَتَقَدِّمَةٍ، رفقا من الله بعبده وتسهيلاً عليه، ورأيت المهلب في شرح البخاري قد حكى هذا القول عن طائفة من العلماء، وأنهم قالوا: كان الإسراء مرتين: مرة في نومه، ومرة في يقظته ببدنه - ﷺ -.

قال المؤلف: وهذا القول هو الذي يصح، وبه تتفق معاني الأخبار، ألا ترى أنه قال في حديث أنس الذي قدّمنا ذكره: أتاه ثلاثة نفر قبل أن يُوحى إليه، ومعلوم أن الإسراء كان بعد النبوة، وحين فُرِضَت الصلاة كما قدّمنا في الجزء قبل هذا، وقيل كان قبل الهجرة بعام، ولذلك قال في الحديث: فارتد كثير ممن كان قد أسلم، ورواة الحديثين حفاظ، فلا يستقيم

(١) يوشع بن نون: أحد أنبياء بني إسرائيل، وهو صاحب موسى عليه السلام في رحلته إلى الخضر.

الجمع بين الروایتين إلا أن يكون الإسراء مرتين، وكذلك ذكر في حديث أنس: أنه لقي إبراهيم في السماء السادسة وموسى في السابعة، وفي أكثر الروايات الصحيحة أنه رأى إبراهيم عند البيت المعمور في السماء السابعة، ولقي موسى في السادسة، وفي رواية ابن إسحاق أُتِيَ بثلاثة آتية، أحدها ماء فقال قائل: إن أخذ الماء عَرِقَ، وغرقت أمته، وفي إحدى روايات البخاري في الجامع الصحيح: أنه أُتِيَ بإناء فيه عَسَلٌ، ولم يذكر الماء والرواة أثبات، ولا سبيل إلى تكذيب بعضهم ولا توهينهم، فدلّ على صحة القول بأنه كان مرتين، وعاد الاختلاف إلى أنه كان كله حقاً، ولكن في حالتين ووقتين مع ما يشهد له من ظاهر القرآن، فإن الله سبحانه يقول: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ ثم قال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ٨ - ١١] فهذا نحو ما وقع في حديث أنس من قوله: فيما يراه قلبه، وعينه نائمة والفؤاد: هو القلب، ثم قال: ﴿أَفْتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ ولم يقل: ما قد رأى، فدلّ على أن ثم رؤية أخرى بعد هذه، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ أي: في نزلة نزلها جبريلُ إليه مرة، فرآه في صورته التي هو عليها ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: يغشاها فراشٌ من ذهب، وفي رواية: يَنْتَشِرُ مِنْهَا الْيَاقُوتُ، وثمرها مثل قِلَاقٍ هَجَرٍ^(١) ثم قال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ ولم يقل: الفؤاد، كما قال في التي قبل هذه، فدلّ على أنها رؤية عينٍ وبصرٍ في النزلة الأخرى، ثم قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، وإذا كانت رؤية عينٍ، فهي من الآيات الكُبرى، ومن أعظم البراهين والعبر، وصارت الرؤيا الأولى بالإضافة إلى الأخرى ليست من الكُبرى؛ لأن ما يراه العبدُ في منامه دون ما يراه في يقظته لا محالة، وكذلك قال في أكثر الأحاديث إنه رأى عند سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى نهريْنِ ظاهريْنِ، ونهريْنِ باطنيْنِ، وأخبره جبريلُ أن الظاهريْنِ: النيلُ والفرات، وذكر في حديث أنس أنه رأى هذين النهريْنِ في السماء الدنيا، وقال له الملك: هما النيلُ والفراتُ، أصلهما وعنصرهما، فيحتمل أن يكون رأى في حال اليقظة متبوعهما، ورأى في المرة الأولى النهريْنِ دون أن يرى أصلهما والله أعلم. فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨] أنهما النيل والفرات أنزلا من الجنة من أسفل درجة منها على جناح جبريل، فأودعهما بطون الجبال ثم إن الله سبحانه سيرفعهما، ويذهب بهما عند رفع القرآن وذهاب الإيمان، فلا يبقى على الأرض خير، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ

(١) قرية من قرى المدينة: كانت معروفة ومشهورة بقلالها الكبيرة.

لِقَادَرُونَ^(١) وفي حديث مُسْنِدِ ذكره النحاس في المعاني بأنهم من هذا فاختصره، ووقع في كتاب المعلم للمَازَرِيّ قول رابع في الجمع بين الأقوال قال: كان الإسراء بجسده في اليقظة إلى بيت المقدس، فكانت رؤيا عين، ثم أسرى بروحه إلى فوق سبع سَمَوَاتٍ، ولذلك شَنَعَ الكفارُ قوله: وأَتَيْتُ بَيْتَ المقدس في ليلتي هذه، ولم يَشْتَعُوا قوله فيما سوى ذلك.

شماس البراق:

فصل: ومما يُسأل عنه في هذا الحديث شِمَاسُ البُرَاقِ حين ركبهُ النبي - ﷺ - فقال له جبريل: أما تستحيي يا بُراقُ، فما ركبك عبدُ الله قبل محمد هو أَكْرَمُ عليه منه، فقد قيل: في نفرته ما قاله ابن بَطَّال في شرح الجامع الصحيح، قال: كان ذلك لُبْعَد عهد البُرَاقِ بالأنبياء، وطول الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، وروى غيره في ذلك سبباً آخر قال في روايته في حديث الإسراء: قال جبريل لمحمد عليه السلام حين شَمَسَ به البُرَاقُ: لعلك يا محمد مَسَسْتَ الصُّفْرَاءَ اليوم، فأخبره النبي - ﷺ - أنه ما مَسَّهَا إِلَّا أنه مَرَّ بها، فقال: تَبَّا لِمَن يعبدك من دون الله، وما مَسَّهَا إِلَّا لذلك، وذكر هذه الرواية أبو سعيد التَّيْسَابُورِي في شرف المصطفى، فالله أعلم، وقد جاء ذكر الصُّفْرَاءِ في مُسْنَدِ البَزَّار^(٢)، وأنها كانت صَنَمًا بعضه من ذهب فكسرها رسولُ الله - ﷺ - يوم الفتح، وفي الحديث الذي خَرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ من طريق بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِي أنه - عليه السلام - حين انتهى إلى بيت المقدس، قال جبريل: بإضبعه إلى الصخرة، فخرقها فشدَّ بها البُرَاقَ، وصَلَّى^(٣)، وأُنْ حَذِيقَةً أنكر هذه الرواية، وقال: لم يفرَّ منه وقد سخره له عالمُ الغَيبِ والشَّهادة^(٤)، وفي هذا من الفقه على رواية بُرَيْدَةَ: التنبيه على الأخذ بالحزم مع صحة التوكل، وأن الإيمان بالقدر كما - رُوِيَ عن وَهْب بن مُثَنٍّ - لا يمنع الحازمَ من تَوْفِي المَهالك. قال وهب: وَجَدْتُهُ في سبعين كتابًا من كُتُبِ الله القديمة^(٥)،

(١) تفسير الآية فإن مقصودها والمراد منها النيل والفرات - تفسير وتأويل يعيد. وقد أجاد النووي في شرح مسلم من بيان وتفسير نبع النيل والفرات من الجنة. فانظره هناك.

(٢) أخرجه البزار بسند متصل عن علي رضي الله عنه. قال القاري (٣٩٩/١): فيه زياد بن المنذر: كذاب.

(٣) «ضعيف». أخرجه الترمذي (٣١٣٢). وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٤) أخرجه الترمذي (٣١٤٧). وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) تقدم التنبيه أن وهب بن منبه أحد مسلمي أهل الكتاب وكان رضي الله عنه يكثر من الرواية عنهم، وفيه ما يصادم صريح القرآن وصحيح السنة.

وهذا نحو من قوله ﷺ: «قَبِدْهَا وَتَوَكَّلْ»^(١) فإيمانه ﷺ بأنه قد سُحِرَ له كإيمانه بقدر الله وعلمه بأنه سبق في علم الكتاب ما سبق، ومع ذلك كَانَ يَتَزَوَّدُ في أسفاره وَيُعَدُّ السلاح في خروبه، حتى لقد ظاهر بين دِزَعَيْنِ في غَزْوَةِ أُحُدٍ. وَرَبَطَهُ لِلْبُرَاقِ فِي حَلَقَةِ الْبَابِ مِنْ هَذَا الْفَنِّ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رَوَاهُ غَيْرُ بُرَيْدَةَ وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي أُسَامَةَ مِنْ طَرِيقِ أَنَسٍ، وَمِنْ طَرِيقِ أَبِي سَعِيدٍ، وَغَيْرِهِمَا أَعْنَى رَبَطَهُ لِلْبُرَاقِ فِي الْحَلَقَةِ الَّتِي كَانَتْ تَرْبِطُهُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ، غَيْرَ أَنَّ الْحَدِيثَ يَرْوِيهِ دَاوُدُ بْنُ الْمُحَبَّرِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ.

معنى قول الملائكة: مَنْ مَعَكَ:

معنى قول الملائكة: مَنْ مَعَكَ وَمِمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ قَوْلُ الْمَلَائِكَةِ فِي كُلِّ سَمَاءٍ لَجَبْرِيلَ: مَنْ مَعَكَ، فيقول: محمد، فيقولون: أَوْقَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ فيقول: نعم هكذا لَفِظَ الْحَدِيثُ فِي الصُّحُوحِ، وَمَعْنَى سَوَالِهِمْ عَنِ الْبَعْثِ إِلَيْهِ فِيمَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ، أَي: قَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، كَمَا قَدْ وَجَدُوا فِي الْعِلْمِ أَنَّهُ سَيَعْرِجُ بِهِ، وَلَوْ أَرَادُوا بَعْثَهُ إِلَى الْخَلْقِ، لَقَالُوا: أَوْقَدْ بُعِثَ، وَلَمْ يَقُولُوا إِلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ يَبْعَدُ أَنْ يَخْفَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ بَعْثُهُ إِلَى الْخَلْقِ، فَلَا يَعْلَمُونَ بِهِ إِلَى لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ. وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي تَقْدِمُ فِي هَذَا الْكِتَابِ بَيَانٌ أَيْضًا حِينَ ذَكَرَ تَسْبِيحَ مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، ثُمَّ تَسْبِيحَ مَلَائِكَةِ كُلِّ سَمَاءٍ، ثُمَّ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا: مِمَّ سَبَّحْتُمْ حَتَّى يَنْتَهِيَ السُّؤَالُ إِلَى مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فيقولون: قَضَى رَبُّنَا فِي خَلْفِهِ كَذَا، ثُمَّ يَنْتَهِيَ الْخَبَرُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا - الْحَدِيثِ بِطَوْلِهِ، وَفِي هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ عَلِمَتْ بِنَبْوَةِ مُحَمَّدٍ - ﷺ - حِينَ نُبِّئَ، وَإِنَّمَا قَالَتْ: أَوْقَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ، أَي: قَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ بِالْبُرَاقِ كَمَا تَقْدِّمُ عَلَى أَنَّ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ أَنَّ مَلَائِكَةَ سَمَاءِ الدُّنْيَا قَالَتْ لَجَبْرِيلَ: أَوْقَدْ بَعَثَ، كَمَا وَقَعَ فِي السِّيَرَةِ وَلَيْسَ فِي أَوَّلِ الْحَدِيثِ: إِلَيْهِ، هَذَا إِنَّمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الرَّؤْيَا الَّتِي رَأَاهَا بِقَلْبِهِ، كَمَا قَدَّمْنَا، وَأَنَّ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ بَعِينَهُ، وَفِي هَذَا قُوَّةٌ لِمَا تَقْدِمُ مِنْ أَنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ رُؤْيَا، ثُمَّ كَانَ رُؤْيَا؛ وَلِذَلِكَ لَمْ نَجِدْ فِي رِوَايَةِ مِنَ الرِّوَايَاتِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالُوا: أَوْقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ إِلَّا فِي ذَلِكَ الْحَدِيثِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ عَسَاكِرَ (٤٥٤/٢) وَالرِّوَايَةُ الْمَتَدَاوِلَةُ «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ». أَخْرَجَهَا ابْنُ حَبَانَ (٢٥٩٩) مَوَارِدَ - وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي الْأَدَابِ (٩٩٣) بِتَحْقِيقِي. وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيقَةِ (٣٩٠/٨).

(٢) وَفِي طَرِيقِ جَبْرِيلَ لِأَبِ السَّمَاءِ وَرَدَ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِ، ثُمَّ سَوَالُهُمْ ثُمَّ إِبَابَتُهُ ثُمَّ سَوَالُهُمْ مَرَّةً أُخْرَى ثُمَّ إِبَابَتُهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامَ، يُعْطِي النَّبِيَّ ﷺ فَسْحَةً مِنَ الْوَقْتِ لِيَنْتَظِرَ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ طَرِيقِ السَّمَاءِ الْأُولَى فَيَنْتَظِرُ فِي النُّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْأَرْضِ وَحَرَسَ السَّمَاءَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾، وَيَتَكَرَّرُ نَفْسُ الْمَشْهَدِ عِنْدَ كُلِّ سَمَاءٍ لِيَجُولَ =

باب الحفظه :

وذكر باب الحَفْظَةِ، وأن عليه مَلَكًا يقال له: إسماعيل، وقد جاء ذكره في مُسْنَدِ الحارث، وفيه أن تحت يده سبعون ألف ملك تحت يد كل ملك سبعون ألف ملك، هكذا لفظُ الحديث في رواية الحارث، وفي رواية ابن إسحق: اثنا عشر ألف ملك هكذا لفظ الحديث، وفي مُسْنَدِ الحارث أيضًا.

وذكر سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، فقال: لو غطيَتْ بورقة من ورقها هذه الأُمَّة لَغَطَّتْهُمْ، وفي صفتها من رواية الجميع: فإذا ثمرها كَقِلَاقِ هَجَرٍ، وفي حديثِ الْقَلْتَيْنِ من كتاب الطهارة، من رواية ابن جُرَيْج: إذا كان الماء قُلْتَيْنِ من قِلَاقِ هَجَرٍ لم يحمل الخبث^(١) قالوا: والقُلْتَانِ منها تَسْعَانِ خمسمائة رطل، قال الترمذي: وذلك نحو من خُمْسِ قَرَبٍ، وفي تفسير ابن سلام قال عن بعض السلف: إنها سُمِّيَتْ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، لأن روح المؤمن ينتهي به إليها، فتصلي عليه هنالك الملائكة المقربون. قال ذلك في تفسير عليين^(٢).

آدم في سماء الدنيا والأسودة التي رآها:

فصل: وفيه أنه رأى آدم في سماء الدنيا، وعن يمينه أسودة، وعن شماله أسودة، وأن جبريل أعلمه أن الأسودة التي عن يمينه هم: أصحاب اليمين، وفي رواية ابن إسحق: تعرض عليه أرواحُ دُرَيْتِه، فإذا نظر إلى الذين عن يمينه ضحك، وقد سُئِلَ عن هذا، فقيل: كيف رأى عن يمينه أرواحُ أصحاب اليمين، ولم يكن إذ ذاك من أصحاب اليمين إلا نَفَرٌ قَلِيلٌ، ولعله لم يكن مات تلك الليلة منهم أحد، وظاهرُ الحديث يقضي أنهم كانوا جماعة. فالجوابُ أن يقال: إن كان الإسراء رؤيا بقلبه، فتأويلها أن ذلك سيكون، وإن كانت رؤيا عين، كما قال ابن عباس وغيره بمعناه: أن ذلك أرواحُ المؤمنين رآها هنالك، لأن الله تعالى يتوفى الخلق في منامهم، كما قال في التنزيل: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٣] فصعد بالأرواح إلى هنالك، فرآها ثم أعيدت إلى أجسادها. وجواب آخر: وهو أن أصحاب اليمين الذين ذكرهم الله تعالى في سورة المُدَّثِّرِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا

= ببصره - ﷺ - في أرجاء كل سماء ليطَّلِعَ على آيات الله عز وجل، فيرى عدد من الملائكة لا يحصى إلا الله عز وجل، ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾، كل هذا مقدمة للقاء رب هؤلاء الجند وملئكم، رب كل شيء ومليكه سبحانه وتعالى عز وجل.

(١) ليس من حديث صحيح تقييد القلتين بقالل حجر، والله أعلى وأعلم.

(٢) وقيل: لأن عندها ينتهي علم الملائكة.

الصفات التي وصف بها النبي بعض الرسل

قال ابن إسحاق: وزعم الزهري عن سعيد بن المسيب أن رسول الله - ﷺ - وصف

أصحاب اليممين في جنات يتساءلون عن المجرمين ﴿[٣٩: ٤٠]﴾. قال ابن عباس: هم الأطفال الذين ماتوا صغاراً، ولذلك سألوا المجرمين: ﴿مَا سَلَكُكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ لأنهم ماتوا قبل أن يعلموا بكفر الكافرين، وقد ثبت في الصحيح أن أطفال المؤمنين والكافرين في كفالة إبراهيم عليه السلام، وأن رسول الله - ﷺ - قال لجبريل حين رآهم في الروضة مع إبراهيم: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ فقال: أولاد المؤمنين الذين يموتون صغاراً، فقال له: وأولاد الكافرين، قال: وأولاد الكافرين. خرجه البخاري في الحديث الطويل من كتاب الجنائز، وخرجه في موضع آخر، فقال فيه: أولاد الناس، فهو في الحديث الأول نَصٌّ، وفي الثاني عموم، وقد رَوِيَ في أطفال الكافرين أنهم خدم لأهل الجنة، فعلى هذا لا يبعد أن يكون الذي رآه عن يمين آدم من نَسَمِ ذريته أزواج هؤلاء، وفي هذا ما يدفع تشعيب هذا السؤال والاعتراض منه.

من حكم الماء:

فصل: وفيه شُرْبُهُ من إناء القوم، وهو مُغَطَّى، والماء وإن كان لا يُمْلَكُ والناس شُرَكَاءُ فيه، وفي النار والْكَلَا كما جاء في الحديث، لكن المستقى إذا أحرزه في وعائه، فقد ملكه، فكيف استباح النبي ﷺ شُرْبَهُ وهو مِلْكٌ لغيره، وأملاك الكفار لم تكن أبيحت يومئذ، ولا دماؤهم.

فالجواب أن العرب في الجاهلية كان في عُرْفِ العادة عندهم إباحة الرُّسْلِ لابن السبيل فَضْلاً عن الماء، وكانوا يعهدون بذلك إلى رِعَائِهِمْ، ويشترطونه عليهم عند عقد إجارتهم: ألا يَمْنَعُوا الرُّسْلَ، وهو اللبن من أحدٍ مَرَّ بِهِمْ، وللحكم في العُرْفِ في الشريعة أصولٌ تشهد له، وقد تَرَجَّم البخاري عليه في كتاب البيوع، وخرج حديث هِنْدِ بِنْتِ عُتْبَةَ، وفيه: حُذِيَ مَا يَكْفِيكَ وَلِلَّذِكِّ بِالْمَعْرُوفِ^(١).

عن دخول بيت المقدس وصفة الأنبياء

فصل: وذكر فيه أنه دخل بيت المقدس، ووجد فيه نفرًا من الأنبياء، فصلَّى بهم، وفي

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٨٥/٧) ومسلم في الأفضية (٧) والنسائي (٢٤٧/٨) وابن ماجه (٢٢٩٣) وأحمد (٣٩/٦) وأبو داود (٣٥٣٢) بتحقيقي.

لأصحابه إبراهيم وموسى وعيسى حين رآهم في تلك الليلة، فقال: أما إبراهيم، فلم أر رجلاً أشبه بصاحبكم، ولا صاحبكم أشبه به منه، وأما موسى فرجل آدم طويل ضرب جعد أفنى كأنه من رجال شئوة، وأما عيسى ابن مريم، فرجل أحمر، بين القصير والطويل، سبط الشعر، كثير خيلان الوجه، كأنه خرج من ديماس، تخال رأسه يقطر ماء، وليس به ماء، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفي^(١).

حديث الترمذي الذي قدّمناه عن حذيفة أنه أنكر أن يكون صلى بهم، وقال: ما زال من ظهر البراق، حتى رأى الجنة والنار، وما وعده الله تعالى، ثم عاد إلى الأرض، وزيادة العدل مقبولة، ورواية من أثبت مقدمة على رواية من نفى، وذكر فيه صفة الأنبياء، وقال في عيسى: كأن رأسه يقطر ماء وليس به ماء، وكأنه خرج من ديماس والديماس: الحمام، وأصله: ديماس ويجمع على ديماميس، وقد قيل في جمعه: دياميس، ومثله، قيراط ودينار وديباح، الأصل فيها كلها: التضعيف، ثم قلب الحرف المدغم ياء، فلما جمعوا وصغروا، ردوه إلى أصله، فقالوا: قيراط ودنانير: [وقريريط ودننير]، غير أنهم لم يقولوا: دنانير ولا قيراط، كما قالوا: دياميس، وقالوا: دباج وذباج، وأصل الدمس: التغطية ومنه ليل دامس، وفي هذه الصفة من صفات عيسى عليه السلام إشارة إلى الرّي والخضب الذي يكون في أيامه إذ أهبط إلى الأرض والله أعلم.

وذكر في صفة موسى أنه آدم طوأل، ولوصفه إياه بالأدمة أصل في كتاب الله تعالى، قاله الطبري عند تفسير قوله: ﴿تَخْرُجُ بَيَضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ قال: في خروج يده بيضاء آية في أن خرجت بيضاء مخالفاً لونها لسائر لون جسده، وذلك دليل بين على الأدمة التي هي خلاف البياض.

وذكر إبراهيم فقال: لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه، يعني: نفسه، وفي آخر هذا الكلام إشكال من أجل أن أشبه منصوب في الموضعين، ولكن إذا فهمت معناه، عرفت إعرابه، ومعناه: لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم به منه، ثم كرر أشبه تأكيداً فصارت لغواً كالمفحّم وصاحبكم معطوف على الضمير الذي في أشبه الأول الذي هو نعت لرجل، وحسن العطف عليه، وإن لم يؤكد بهو، كما حسن في قوله تعالى:

(١) هو: عروة بن مسعود الثقفي: أرسلته قريش للنبي ﷺ يوم الحديبية، وقد أسلم على تسع من الهجرة. وهو الذي قالت فيه قريش من رجلين: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: ٣١] والحديث مرسل. وانظر مسلم في الإيمان (١٦٧) والترمذي في المناقب (٣٦٥١) وفي الشمائل له (٢٨).

قال ابن هشام وكانت صفة رسول الله - ﷺ - فيما - ذكر عمر مولى غُفرة عن إبراهيم بن محمد بن علي بن أبي طالب، قال: كان علي بن أبي طالب عليه السلام، إذا نعت رسول الله - ﷺ - قال: لم يكن بالطويل المُمَغَط، ولا القصير المُتَرَدَّد، وكان رُبعة من القوم، ولم يكن بالجعد القَطَط ولا السَّبَط، كان جَعْدًا رَجَلًا، ولم يكن بالمُطَهَّم ولا المُكَلَّم وكان أبيض مُشْرَبًا، أذعج العينين، أهدب الأشفار، جليل المُشَاش الكَتَد، دقيق المُسْرَبَة أجْرَد، شُنن الكُفَين والقدمين، إذا مشى تَقَلَّع، كأنما يمشي في صَبَب، وإذا التفت التفت معًا، بين كتفيه خاتم النبوة، وهو ﷺ خاتم النبیین، أجودُ الناس كَفًا، وأجراً الناس صدرًا، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس دِمَّةً، وألينهم عَرِيكةً، وأكرمهم عِشرةً، مَنْ رآه بديهة هابه، وَمَنْ خالطه أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله، ﷺ^(١).

﴿ما أشركتنا ولا آبأونا﴾ من أجل الفصل بلا النافية، ولو أسقط من الكلام أشبه الثاني، لكان حسنًا جدًّا، ولو أخر صاحبكم فقال: ولا أشبه به صاحبكم منه لجاز، ويكون فاعلاً بأشبه الثانية، ويكون من باب قولهم: ما رأيت رجلاً أحسنَ في عينه الكحلُ من زيد، وهي مسألة عذراء لم تَفْتَرِغْهَا أيدي الثُحَاة، بعد ولم يشف منها مُتَقَدِّمٌ منهم، ولا متأخرٌ مِمَّنْ رأينا كلامه فيها وقد أُمْلِيتُنا في غير هذا الكتاب فيها تحقيقًا شافيًا.

صفة النبي ﷺ:

فصل: وذكر في صفة النبي - ﷺ - مما نعت به علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال: لم يكن بالطويل المُمَغَط بالغبين المعجمة، وفي غير هذه الرواية بالعين المهملة، وذكر الأوصاف إلى آخرها وقد شرحها أبو عُبَيْد، فقال عن الأصمعي، والكسائي وأبي عمرو وغير واحد قوله: ليس بالطويل المُمَغَط أي: ليس بالباطن الطويل، ولا القصير المُتَرَدَّد يعني: الذي تردد خلقه على بغض، وهو مجتمع ليس بسَبَط الخَلْق يقول: فليس هو كذلك، ولكن رُبعة بين الرجلين، وهكذا صِفَتُهُ - ﷺ - وفي حديث آخر: ضَرَبَ اللَّحْمَ بين الرجلين.

وقوله: ليس بالمطهَّم، قال الأصمعي: هو التام كل شيء منه على حدته، فهو بارع الجمال، وقال غير الأصمعي المُكَلَّم المَدُور الوجه، يقول: ليس كذلك، ولكنه مسنُون، وقوله: مشرب يعني الذي أُشْرِب حُمْرَةً، والأدعج العين: الشديد سواد العين قال الأصمعي: الدُّعْجَة هي السواد، والجليل المُشَاش: العظيم العظام مثل الركبتين والمِرْقَينِ والمُنْكَبِينِ، وقوله: الكَتَد هو: الكاهل وما يليه من جسده، وقوله: شُنن الكُفَين والقدمين يعني: أنهما

(١) «ضعيف الإسناد». أخرجه الترمذي في المناقب (٣٦٤٢).

حديث أم هانئ عن الإسراء:

قال محمد بن إسحاق: وكان - فيما بلغني - عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها - واسمها: هند - في مسرى رسول الله ﷺ، أنها كانت تقول: ما أُسْرِي برسول الله - ﷺ - إلا وهو في بيتي، نائم عندي تلك الليلة في بيتي، فصلَّى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أُهْبِنَا رسول الله - ﷺ - فلما صلَّى الصبح، وصلينا معه، قال: «يا أم هانئ، لقد صلَّيت معكم العشاء الآخرة كما رأيْت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصلَّيت فيه، ثم قد صلَّيت صلاة العَدَاة معكم الآن كما تَريْن»، ثم قام ليخرج، فأخذت بطرف رِدائه، فتكشَّف عن بطنه كأنه قُبْطِيَّة مَطْوِيَّة، فقلت له: يا نبي الله، لا تحدِّث بهذا الناس، فيكذبوك ويؤذوك، قال: «والله لأحدِّثُهموه». قالت: فقلت لجارية لي حَبْشِيَّة: ويحك اتبعي رسول الله - ﷺ - حتى تَسْمعي ما يقول للناس، وما يقولون له. فلما خرج رسول الله - ﷺ - إلى الناس أخبرهم، فعَجَبوا وقالوا: ما آيَةُ ذلك يا محمد؟ فإنَّا لم نسمع بمثل هذا قطُّ، قال: «آيَةُ ذلك أَنِّي مَرَزْتُ بَعِيرَ بَنِي فُلَانِ بَوَادِي كَذَا وَكَذَا، فَأَنْفَرَهُمْ حِسَّ الدَّابَّةِ، فَتَدَّ لَهُمْ بَعِيرٌ، فَدَلَّلْتُهُمْ عَلَيْهِ، وَأَنَا مُوَجَّهٌ إِلَى الشَّامِ. ثُمَّ أَقْبَلْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ بَضْجَنَانَ مَرَرْتُ بِبَعِيرِ بَنِي فُلَانِ، فوجدتُ القَوْمَ نِيَامًا، وَلَهُمْ إِنَاءٌ فِيهِ مَاءٌ قَدْ غَطُّوا عَلَيْهِ بَشِيءٌ فَكَشَفْتُ غِطَاءَهُ وَشَرِبْتُ مَا فِيهِ، ثُمَّ غَطَيْتُ عَلَيْهِ كَمَا كَانَ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ عِيْرَهُمُ الْآنَ تَصُوبُ مِنَ الْبَيْضَاءِ، ثَبِيَّةُ التَّنْعِيمِ يَقْدُمُهَا جَمَلٌ أَوْزُقُ، عَلَيْهِ غَرَارَتَانِ، إِحْدَاهُمَا سَوْدَاءُ، وَالْأُخْرَى بَرْقَاءُ». قالت: فابتدر القَوْمُ الثَّيْبَةَ، فَلَمْ يَلْقَهُمْ أَوَّلُ مِنَ الْجَمَلِ كَمَا وَصَفَ لَهُمْ، وَسَلَّوَهُمْ عَنِ الْإِنَاءِ، فَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّهُمْ وَضَعُوهُ مَمْلُوءًا مَاءً ثُمَّ غَطُّوهُ، وَأَنَّهُمْ هَبُّوا فوجدوه مَغْطًى كَمَا غَطُّوهُ، وَلَمْ يَجِدُوا فِيهِ مَاءً. وَسَلَّوُوا الْآخِرِينَ وَهُمْ بِمَكَّةَ، فَقَالُوا: صدق الله، لقد أنْفَرْنَا فِي الْوَادِي الَّذِي ذَكَرَهُ، وَنَدَّ لَنَا بَعِيرٌ، فَسَمِعْنَا صَوْتَ رَجُلٍ يَدْعُونَا إِلَيْهِ، حَتَّى أَخَذْنَاهُ.

فقلت لجبريل: يا جبريل، مُرَّه، فَلْيَرُدَّهَا إِلَيَّ مَكَانَهَا. قال: فأمره، فقال لها: اخْبِي، فَرَجَعْتُ إِلَى مَكَانَهَا الَّذِي خَرَجْتُ مِنْهُ. فَمَا شَبَّهْتُ رُجُوعَهَا إِلَّا وَقُوعَ الظِّلِّ. حَتَّى إِذَا دَخَلْتُ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتُ رَدَّ عَلَيْهَا غِطَاءَهَا.

إِلَى الْغِلَظِ. وَقَوْلُهُ: لَيْسَ بِالسَّبْطِ وَلَا الْجَعْدِ الْقَطَطِ، فَالْقَطَطُ: الشَّدِيدُ الْجُعُودَةِ مِثْلَ شُعُورِ الْحَبَشَةِ، وَوَقَعَ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ لِأَبِي عُبَيْدٍ التَّائِمِ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ عَلَى حِدَّتِهِ. يَقُولُ: لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ بَارِعُ الْجَمَالِ، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ، أَعْنِي: لَيْسَ كَذَلِكَ مَخِلَّةً بِالْشَّرْحِ، وَقَدْ وَجَدْتُهُ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ بِإِسْقَاطِ: يَقُولُ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ عَلَى نَصِّ ذِكْرِنَاهُ أَنْفًا.

قال أبو سعيد الخُدري في حديثه: إن رسول الله - ﷺ - قال: «لما دخلتُ السماء الدنيا، رأيت بها رجلاً جالساً تُعرض عليه أرواح بني آدم، فيقول لبعضها، إذا عُرضت عليه خيراً ويُسرّ به، ويقول: روح طيبة خَرَجْتَ من جَسَد طيب، ويقول لبعضها إذا عُرضت عليه: أُوْف، وَيَعْبِس بوجهه ويقول: روح خبيثة خَرَجْتَ من جَسَد خبيث. قال: قلت: مَنْ هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك آدم، تُعرض عليه أرواح ذريته، فإذا مَرَّت به روح المؤمن منهم سُرّ بها: وقال روح طيبة خَرَجْتَ من جَسَد طيب. وإذا مَرَّت به روح الكافر منهم أُوْف منها، وكَرِهها، وساء ذلك، وقال: روح خبيثة خَرَجْتَ من جَسَد خبيث.

رؤية النبي ربه^(١):

فصل: وقد تكلم العلماء في رؤية النبي ﷺ لربه ليلة الإسراء، فروى مسروق عن عائشة أنها أنكرت أن يكون رآه، وقالت مَنْ زعم أن محمداً رأى ربه، فقد أعظم على الله الفُرية، واحتجت بقوله سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وفي مصنف الترمذي عن ابن عباس وكعب الأحبار أنه رآه، قال كعب: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد، وفي صحيح مسلم عن أبي ذرٍّ قلت: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: رأيت نوراً، وفي حديث آخر من كتاب مسلم أنه قال: نوراً أتى أراه، وليس في هذا الحديث بيان شافٍ أنه رآه، وحكي عن أبي الحسن الأشعري أنه قال: رآه بعيني رأسه، وفي تفسير النقاش عن ابن حنبل أنه سُئِلَ: هل رأى محمد ربه، فقال: رآه رآه رآه حتى انقطع صوته، وفي تفسير عبد الرزاق عن معمر عن الزهري وذكر إنكار عائشة أنه رآه، فقال الزهري: ليست عائشة أعلم عندنا من ابن عباس، وفي تفسير ابن سلام عن عروة أنه كان إذ ذكر إنكار عائشة أن يكون رسولُ الله - ﷺ - رأى ربه يشتد ذلك عليه، وقول أبي هريرة في هذه المسألة كقول ابن عباس أنه رآه؟ روى يونس عن ابن إسحق عن داود بن الحصين قال: سأل مروان أبا هريرة: هل رأى محمد ربه؟ قال: نعم، وفي رواية يونس أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس يسأله: هل رأى محمد ربه؟ فقال: نعم رآه، فقال ابن عمر: وكيف رآه، فقال ابن عباس كلاماً كرهت أن أوردته بلفظه لما يُوهَم من التشبيه، ولو صحَّ لكان له تأويل والله أعلم، والتحصيل من هذه الأقوال - والله أعلم - أنه رآه لا على أكمل ما تكون الرؤية على نحو ما يراه في حظيرة القدس عند الكرامة العظمى والنعيم الأكبر، ولكن دون ذلك، وإلى هذا يومي قوله: رأيت نوراً ونوراً أني أراه في الرؤية الأخرى والله أعلم.

(١). انظر مزيد إيضاح في الشفاء للقاضي عياض (١/ ٢٥٠) والمزاد لابن القيم (٣/ ٣٥).

قال ثم رأيت رجالاً لهم مَشَافِرُ كَمَشَافِرِ الْإِبِلِ، في أيديهم قِطْعٌ من نار كالْأَفْهَارِ، يقذفونها في أفواههم، فتخرج من أدبارهم. فقلت: مَنْ هَؤُلَاءِ يا جبريل؟ قال: هَؤُلَاءِ أَكَلَةُ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا^(١).

وأما الدُّنُو والتَّدَلِّي فهما خبرٌ عن النبي - ﷺ - عن بعض المفسرين، وقيل إن الذي تدلى هو جبريل عليه السلام تدلى إلى محمد حتى دنا منه وهذا قول طائفة أيضًا، وفي الجامع الصحيح في إحدى الروايات منه: فتَدَلَّى الجبار، وهذا مع صحة نقله لا يكاد أحد من المفسرين يذكره لاستحالة ظاهره، أو للغفلة عن موضعه، ولا استحالة فيه؛ لأن حديث الإسراء إن كان رؤيا رآها بقلبه وعينه نائمة - كما في حديث أنس فلا إشكال فيما يراه في نومه عليه السلام فقد رآه في أحسن صورة ووضع كَفَّه بين كتفيه، حتى وجد بَرَدَهَا بين ثديه رواه الترمذي من طريق معاذٍ في حديث طويل^(٢)، ولما كانت هذه رؤيا لم ينكرها أحدٌ من أهل العلم، ولا استبشعها، وقد بيَّنا آنفًا أن حديث الإسراء كان رؤيا ثم كانَ يَقْظَةً فإن كان قوله فتَدَلَّى الجبارُ في المرة التي كان فيها غير نائم، وكان الإسراء بجسده، فيقال فيه من التأويل ما يقال في قوله: ينزل ربُّنا كُلَّ لَيْلَةٍ إلى سماء الدنيا، فليس بأبعد منه في باب التأويل، فلا نكَارَةَ فيه كان في نوم أو يقظة، وقد أشرنا إلى تمام هذا المعنى في شرح ما تضمنه لفظ الْقَوْسَيْنِ من قوله: قَابَ قَوْسَيْنِ في جزءِ أَمَلِينَا في شرح سبحان الله وبحمده، تَضَمَّنَ لطائف من معنى التَّقْدِيسِ والتَّسْبِيحِ، فلينظر هناك وأملينا أيضًا في معنى رؤية الرب سبحانه في المنام، وفي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ مسألة لقناع الحقيقة في ذلك كاشفةً فَمَنْ أراد فهم الرؤية والرؤيا فلينظرها هنالك، ويقوِّي ما ذكرناه من معنى إضافة التَّدَلِّي إلى الرَّبِّ سبحانه كما في حديث البخاري ما رواه ابن سنجر مُسْنَدًا إلى شُرَيْحِ بن عبيد، قال: لما صعد النبي - ﷺ - إلى السماء، فأوحى إلى عبده ما أوحى، فلما أحسَّ جبريل بدُنُو الرَّبِّ خَرَّ ساجدًا، فلم يَزَلْ يُسَبِّحُ سُبْحَانَ رَبِّ الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكَبَرِيَاءِ والعظمة حتى قضى الله إلى عبده ما قضى، قال: ثم رفع رأسه، فرأيته في خَلْقِهِ الذي خُلِقَ عليه مَنظُومًا أجنحته بالزَّبْرِجَدِ واللُّوْلُؤِ والياقوت، فخُيِّلَ إِلَيَّ أن ما بين عينيه قد سدَّ الأفقين، وكنت لا أراه قبل ذلك إلا على صُورٍ مختلفة، وكنت أكثر ما أراه على صورة دِخْيَةِ بن خليفة الكلبي، وكان أحيانًا لا يراه قبل ذلك إلا كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغراب^(٣).

(١) وردت هذه المشاهد في رواية البيهقي كما تقدم تخريجه.

(٢) «حسن». أخرجه الترمذي (٣٢٣٤) وأحمد (٣٧٥/١/٣٩٨) (٦٦/٤) والطبراني (٣٤٩/٨).

(٣) جاءت الأحاديث «الصحيحة» المصَرَّحة برؤيته لجبريل في عدة صور وعلى صورته التي خلقه الله عليه له ستمائة جناح، أما كونه كان - ﷺ - يراه كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغراب في حاجة =

قال: ثم رأيت رجالاً لهم بُطون لم أرَ مثلها قطَّ بسبيل آل فرعون، يَمْزُونَ عليهم كالإبل المَهْيُومة حين يُغَرَّضُونَ على النار، يطؤونهم لا يقدرُونَ على أن يتحولوا من مكانهم ذلك. قال: قلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أَكَلَةُ الربا.

قال: ثم رأيت رجالاً بين أيديهم لحم ثمين طيب، إلى جنبه لحم غثّ منتن، يأكلون من الغثّ المنتن، ويتركون السمين الطيب. قال: قلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يَتَرَكُونَ ما أحلَّ الله لهم من النساء، ويذهبون إلى ما حَرَّمَ الله عليهم. منهنَّ.

قال: ثم رأيت نساءً مُعلَّقات بشديهنَّ، فقلتُ: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال مَنْ ليس من أولادهم.

قال ابن إسحاق: وحدثني جعفر بن عمرو، عن القاسم بن محمد أن رسول الله - ﷺ - قال: «اشتدَّ غضب الله على امرأة أدخلت على قوم مَنْ ليس منهم، فأكل خرائبهم، وأطلع على عوراتهم»^(١).

عود إلى حديث الخدري: ثم رجع إلى حديث أبي سعيد الخدري، قال: «ثم أضعدي إلى السماء الثانية، فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا، قال: ثم أضعدي إلى السماء الثالثة، فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر، قال: قلت: مَنْ هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف بن يعقوب. قال: ثم أضعدي

لِقَاؤُهُ لِلنَّبِيِّينَ:

فصل: ومما سئل عنه من حديث الإسراء، وتكلم فيه لقائه لآدم في السماء الدنيا، ولإبراهيم في السماء السابعة، وغيرهما من الأنبياء الذين لقيهم في غير هاتين السماءين، والحكمة في اختصاص كل واحد منهم بالسماء التي رآه فيها، وسؤال آخر في اختصاص هؤلاء الأنبياء باللقاء دون غيرهم، وإن كان رأى الأنبياء كلهم، فما الحكمة في اختصاص هؤلاء الأنبياء بالذكر؟ وقد تكلم أبو الحسن بن بطال في شرح البخاري على هذا السؤال، فلم يصنع شيئاً، ومغزى كلامه الذي أشار إليه أن الأنبياء لما علموا بقدومه عليهم ابتَدَرُوا إلى لقائه ابتدار أهل الغائب للغائب القادم، فمنهم مَنْ أسرع، ومنهم مَنْ أبطأ. إلى هذا المعنى أشار فلم يزد عليه، والذي أقول في هذا: إن مأخذ فهمه من علم التعبير، فإنه من علم

= إلى دليل «صحيح» يعتضده.

(١) انظر المجمع (٤/٢٢٥) والكتز (١٣٠٠٢).

إلى السماء الرابعة، فإذا فيها رجل فسألته: مَنْ هو؟ قال: هذا إدريس - قال: يقول رسول الله - ﷺ -: ورفعناه مكاناً علياً - قال: ثم أضعديني إلى السماء الخامسة فإذا فيها كَهْلُ أبيضُ الرأس واللحية، عظيم العُثْلُون، لم أرَ كَهْلاً أجْمَلَ منه، قال: قلت: مَنْ هذا يا جبريل؟ قال: هذا الْمُحَبَّبُ في قومه هارون بن عمران، قال: ثم أضعديني إلى السماء السادسة، فإذا فيها رجل آدمٌ طويلٌ أَقْنَى كأنه من رجال شُوءَةٍ؛ فقلت له: مَنْ هذا يا

النبوءة، وأهل التعبير يقولون: مَنْ رأى نبياً بعينه في المنام، فإن رؤياه تُؤْذَنُ بما يُشبهه حال ذلك النبي من شِدَّةٍ أو رَخاءٍ أو غير ذلك من الأمور التي أخبر بها عن الأنبياء في القرآن، والحديث، وحديث الإسراء كان بمكة وهي حَرَمُ الله وأمنه وقُطَّانُها جيرانُ الله، لأن فيها بيته، فأول ما رأى عليه من الأنبياء آدم الذي كان في أَمْنِ الله وجواره، فأخرجه عدوُّه إبليسُ منها، وهذه القصة تشبهها الحالة الأولى من أحوال النبي - ﷺ - حين أخرجه أعداؤه من حَرَمِ الله وجوار بيته، فَكَرَبَهُ ذلك وَغَمَّهُ. وأشبعت قصته في هذا قصة آدم، مع أن آدم تُغَرَّضُ عليه أرواحُ ذريته الأَبَرِّ والفاجر منهم، فكان في السماء الدنيا بحيث يرى الفريقين، لأن أرواحَ أهلِ الشقاء لا تَلِجُ في السماء، ولا تُفْتَحُ لهم أبوابُها كما قال الله تعالى، ثم رأى في الثانية عيسى ويحيى وهما الممتحنان باليهود، أما عيسى فكذبته اليهودُ وأَذَتْه، وهُمُوا بقتله فرفعه الله، وأما يحيى فقتلوه، ورسولُ الله - ﷺ - بعد انتقاله إلى المدينة صار إلى حالة ثانية من الامتحان، وكانت محنته فيها باليهود، أَذَوْه وظَاهَرُوا عليه وهُمُوا بِاللقاءِ الصُّخْرَةِ عليه، ليقتلوه فَتَجَّاهُ الله تعالى كما نَجَّى عيسى منهم، ثم سَمَّوه في الشاة، فلم تزل تلك الأَكْلَةُ تعاوده، حتى قطعت أُنْهَرَةً^(١) كما قال عند الموت، وهكذا فعلوا بابْنِي الخالة: عيسى ويحيى، لأن أُمَّ يحيى أَسْيَاغُ بنت عمران أخت مريم، أمهما: حَتَّةُ، وأما لقاءه ليوسفَ في السماء الثالثة، فإنه يُؤْذَنُ بحالة ثالثة تشبه حال يوسف، وذلك بأن يوسف ظَفِرَ بإخوته بعدما أخرجوه من بين ظَهْرَانِيهِمْ فصفح عنهم، وقال: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، وكذلك نبينا - عليه السلام - أَسَرَ يوم بدرٍ جُفْلَةً من أقاربه الذين أخرجوه فيهم عمه العباسُ، وابن عمه عقيل، فمنهم مَنْ أطلق، ومنهم مَنْ قَبِلَ فداءه، ثم ظهر عليهم بعد ذلك عَامُ الفتح فجمعهم، فقال لهم: أقول ما قال أخي يوسف لا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ اليوم، ثم لقاءه لإدريسَ في السماء الرابعة، وهو المكان الذي سماه الله مكاناً علياً، وإدريس أول مَنْ آتاه الله الخُطَّ بالقلم، فكان ذلك مُؤْذَنًا بحالة رابعة، وهي عُلوُّ شأنه - عليه السلام - حتى أخاف الملوك وكتب إليهم يدعوهم إلى طاعته، حتى قال أبو سفيان، وهو عند ملك الروم، حين جاءه كتابٌ للنبي - عليه السلام -، ورأى

(١) الأبر: عرق في الظهر.

جبريل؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران. ثم أضعديني إلى السماء السابعة، فإذا فيها كَهْل جالس على كرسي إلى باب البيت المعمور، يدخله كل يوم سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَك، لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة. لم أَر رجلاً أشبه بصاحبكم، ولا صاحبكم أشبه به منه،

ما رأى من خَوْف هِرقل: لقد أَمَرَ ابنُ أَبِي كَبْشَةَ^(١)، حتى أصبح يخافه مَلَك بني الأَصْفَر، وكتب عنه بالقلم إلى جميع ملوك الأرض، فمنهم مَنْ اتَّبَعه على دينه كالنَّجَاشِي، ومَلِكُ عَمَانَ، ومنهم مَنْ هَادَنه، وأهدى إليه وأتحفه كَهْرَقْل والمُقَوْقِس، ومنهم مَنْ تَعَصَّى عليه، فأظهره اللُّهُ عليه، فهذا مقام عليّ، وخط بالقلم كَنَحو ما أُوتِيَ إدريس - عليه السلام - ولقاؤه في السماء الخامسة لهارون المُحَبِّب في قومه يؤذَن بحالٍ تشبه حالة موسى حين أمر بعد بُغْضهم فيه، ولقاؤه في السماء السادسة لموسى يؤذَن بحالٍ تشبه حالة موسى حين أمر بغزو الشام فظهر على الجبابرة الذين كانوا فيها، وأدخل بني إسرائيل البلد الذي خرجوا منه بعد إهلاك عدوهم، وكذلك غزا رسولُ الله - ﷺ - تَبُوكَ من أرضِ الشام، وظهر على صاحب دَوْمَةَ حتى صالحه على الجزية بعد أن أتى به أسيرًا، وافتتح مكة، ودخل أصحابه البلد الذي خرجوا منه، ثم لقاؤه في السماء السابعة لإبراهيم - عليه السلام - لحكمتين: إحداهما: أنه رآه عند البيت المعمور مُسْنِدًا ظهره إليه والبيت المعمورُ حِيال مكة، وإليه تحجَّ الملائكة، كما أن إبراهيم هو الذي بنى الكعبة، وأُذِّن في الناس بالحج إليها والحكمة الثانية أن آخر أحوال النبي - ﷺ - حُجَّه إلى البيت الحرام، وحجَّ معه نحو من سبعين أَلْفًا من المسلمين، ورؤية إبراهيم عند أهل التأويل تؤذَن بالحج، لأنه الداعي إليه والرافع لقواعد الكعبة المحجوبة، فقد انتظم في هذا الكلام الجواب عن السؤالين المتقدمين، أحدهما: السؤال عن تخصيص هؤلاء بالذكر، والآخر: السؤال عن تخصيصهم بهذه الأماكن من السماء الدنيا إلى السابعة، وكان الحزمُ تركَ التكلُّف لتأويل ما لم يرد فيه نصٌّ عن السلف، ولكن عارضَ هذا الغرضَ ما يجب من التفكير في حكمة الله، والتدبُّر لآيات الله، وقولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقد رُوِيَ أن «تَفَكَّرَ ساعةٌ خيرٌ من عِبَادَةِ سَنَةٍ»^(٢) ما لم يكن النظر والتفكير مجردًا من ملاحظة الكتاب والسنة، ومقتضى كلام العرب، فعند

(١) أي ارتفع شأنه.

(٢) «ضعيف». أخرجه القرطبي في تفسيره (٣١٤/٤). وانظر التذكرة للفتن (١٨٨) والأسرار المرفوعة للقياري (١٦٢) والفوائد للشوكاني (٢٥١). وذكره ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديشية (٢٨٩) بتحقيقي. وقد بينت هناك نسبة الكتاب لصاحبه وأنه مَدسوس عليه، وأن الكتاب هو مجموعة من المسائل والأسئلة جُمعت من مؤلفات السيوطي ونسبت للهيتمي زورًا. وقد نسب الكتاب للهيتمي صاحب كشف الخفاء/ وغيره، وآخرهم ذكروا له صاحب موسوعة أطراف الحديث. والعلامة الألباني حفظه الله في سلسلته الضعيفة (حديث رقم ٢٥).

قال: قلت: مَنْ هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم. قال: ثم دخل بي الجنة، فرأيت فيها جاريةً لعساء، فسألتها: لِمَنْ أنت؟ وقد أعجبتني حين رأيْتُها، فقالت: لزيد بن حارثة، فبشّر بها رسولُ الله ﷺ زيد بن حارثة».

ذلك يكون القولُ في الكتاب والسنة بغير علم عصمنا الله - تعالى - من ذلك، وجعلنا من الْمُتَمَثِّلِينَ لِأَمْرِهِ حيث يقول: فاعتبروا يا أولي الأبصار وليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب، ولولا إسراع الناس إلى إنكار ما جهلوه، وغلظ الطباع عن فهم كثير من الحكمة لأبدئنا مِنْ سِرِّ هذا السؤال، وكشفنا عن الحكمة في هؤلاء الأنبياء المسلمين في هذه المراتب أكثر مما كشفنا.

البيت المعمور:

فصل: وذكر البيت المعمور، وأنه يَدْخُلُهُ كل يوم سبعون ألف ملكٍ روى ابن سنجر عن علي - رحمه الله - قال: البيت المعمور بيتٌ في السماء السابعة يقال له: الضُّرَّاحُ، واسم السماء السابعة: عَرِيَّاء، روى أبو بكر الخطيب بإسناد صحيح إلى وَهْب بن مُثَنَّب قال: مَنْ قرأ البقرة وآل عمران يوم الجمعة كان له نُورٌ يملأ ما بين عَرِيَّاء وجرياء وجرياء، وهي الأرض السابعة، وذكر عن عبد الله بن أبي الهذيل قال: البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف دُخْيَةٍ عند كل دُخْيَةٍ سبعون ألف ملك رواه عنه أبو التَّيَّاح [يزيد الضُّبَيْعِي] قال أبو سلمة: قلتُ ما الدُّخْيَةُ؟ قال: الرئيس. وروى ابنُ سنجر أيضًا من طريق أبي هريرة عن رسول الله - ﷺ - قال: في السماء السابعة بيتٌ يقال له: الْمَعْمُور بِحِيَالٍ مَكَّةَ، وفي السماء السابعة نهرٌ يقال له الحيوان يدخله جبريل كل يوم فينغمس فيه انغماسًا، ثم يخرج فينتفض انتفاضة، يَخْرُ عنه سبعون ألف قَطْرَةٍ، يخلق الله من كل قطرة ملكًا ويؤمنون أن يأتوا البيت المعمور ويصلوا فيه فيفعلون ثم يخرجون فلا يعودون إليه أبدًا، [و] يولي عليهم أحدهم يؤمر أن يقف بهم من السماء موقفًا يُسَبِّحُونَ الله [فيه] إلى أن تقوم الساعة^(١).

فرض الصلاة:

فصل: وأما فرض الصلاة عليه هنالك، ففيه التنبيه على فضلها، حيث لم تُفرض إلا في الحضرة المُقَدَّسَةِ^(٢)؛ ولذلك كانت الطهارة من شأنها، ومن شرائط أدائها، والتنبيه على أنها مناجاةُ الرب، وأنا الرب تعالى مُقْبِلٌ بوجهه على المصلِّي يناجيهِ يقول: حَمْدَنِي عَبْدِي،

(١) «ضعيف». وقد تقدم التنبيه على مثله.

(٢) تقدم التنبيه أيضًا غير مرة على هذه اللفظة ونسبتها لله تعالى.

قال ابن إسحاق: ومن حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - فيما بلغني: أن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السموات إلا قالوا له حين يستأذن في دخولها: مَنْ هذا يا جبريل؟ فيقول: محمد، فيقولون: أَوْ قَدْ بُعِثَ؟

أُثْنِي عَلَيَّ عَبْدِي إِلَى آخِر السورة، وهذا مُشَاكِلٌ لفرضها عليه في السماء السابعة حيث سمع كلام الرب، وناجاه، ولم يعرج به حتى طَهَّرَ ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ بماء زمزم كما يتطهر المصلِّي للصلاة، وأُخْرِجَ عن الدنيا بجسمه، كما يخرج المصلِّي عن الدنيا بقلبه، ويحْرُمُ عليه كل شيء إلا مُنَاجَاةَ رَبِّهِ وتوجهه إلى قِبَلَتِهِ في ذلك الحين، وهو بيت المقدس، ورفع إلى السماء كما يرفع المصلِّي يديه إلى جهة السماء إشارة إلى القِبلة العليا فهي البيت المعمور، وإلى جهة عرش مَنْ يَنَاجِيهِ وَيُصَلِّيُ لَهُ سبحانه.

فرض الصلوات خمسين:

فصل: وأما فرض الصلوات خمسين ثم حطَّ منها عشرًا بعد عشر إلى خمس صلوات. وقد رُوِيَ أيضًا أنها حطَّت خمسًا بعد خمس، وقد يُمكن الجمع بين الروایتين لدخول الخمس في العشر، فقد تكلم في هذا النقص من الفريضة: أَهْوُ نَسَخَ أم لا؟ على قولين، فقال قوم: هو من باب نَسَخِ العبادَةِ قبل العمل بها، وأنكر أبو جعفر النحاس هذا القول من وجهين، أحدهما البناء على أصلِهِ ومذهبه في أن العبادَةَ لا يجوز نَسَخُهَا قبل العمل بها، لأن ذلك عنده من الْبَدَاءِ، وَالْبَدَاءُ مُحَالٌ على الله سبحانه. الثاني: أن العبادَةَ إِنْ جَازَ نَسَخُهَا قبل العمل بها عند مَنْ يرى ذلك، فليس يجوز عند أَحَدٍ نَسَخُهَا قبل هبوطها إلى الأرض ووصولها إلى المخاطبين: قال: وإنما ادعى النسخ في هذه الصلوات الموضوعية عن محمد وأمه القاشاني، ليصحح بذلك مذهبَه في أن البيان لا يتأخر، ثم قال أبو جعفر: إنما هي شفاعَةٌ شفَعَهَا رسول الله - ﷺ - لأُمَّتِهِ ومَراجَعَةٌ رَاجِعُهَا رَبِّهِ، لِيخَفَّفَ عَنْ أُمَّتِهِ، ولا يسمَّى مثل هذا نَسَخًا.

قال المؤلف: أما مذهبَه في أن العبادَةَ لا تُنسخ قبل العمل بها، وأن ذلك بَدَاءٌ فليس بصحيح، لأن حقيقة الْبَدَاءِ أَنْ يَبْدُوَ لِلأَمْرِ رَأْيٌ يَتَبَيَّنُ لَهُ الصَّوَابُ فِيهِ بعد أن لم يكن تَبَيَّنَ، وهذا مُحَالٌ في حق مَنْ يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ بعِلْمٍ قَدِيمٍ^(١)، وليس النسخ من هذا في شيء إنما النسخ تَبْدِيلُ حُكْمٍ بِحُكْمٍ، وَالْكُلُّ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ وَمَقْتَضَى حُكْمَتِهِ، كَنَسَخِهِ الْمَرَضُ بِالصَّحَّةِ، وَالصَّحَّةُ بِالْمَرَضِ، ونحو ذلك، وأيضًا بَأَن الْعِبَادَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا يَجِبُ عَلَيْهِ عِنْدَ تَوَجُّهِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ

(١) أزلِّي.

فيقول: نعم، فيقولون: حيّاه الله من أخ وصاحب، حتى انتهى به إلى السماء السابعة، ثم انتهى به إلى ربّه، ففرض عليه خمسين صلاة في كلّ يوم.

ثلاث عبادات: الفعل الذي أمر به، والعزم على الامتثال عند سماع الأمر، واعتقاد الوجوب إن كان واجبًا فإن نسخ الحكم قبل الفعل، فقد حصلت فائدتان: العزم واعتقاد الوجوب. وعلم الله ذلك منه، فصحّ امتحانه له واختباره إياه، وأوقع الجزاء على حسب ما علم من نيته، وإنما الذي لا يجوز نسخ الأمر قبل نزوله، وقبل علم المخاطب به، والذي ذكره النحاس من نسخ العبادة بعد العمل بها، فليس هو حقيقة النسخ، لأن العبادة المأمور بها قد مضت، وإنما جاء الخطاب بالنهي عن مثلها لا عنها، وقولنا في الخمس والأربعين صلاة الموضوعّة عن محمد وأُمته أحد وجهين، إما أن يكون نسخ ما وجب على النبي ﷺ من أدائها ورفع عنه استمرار العزم واعتقاد الوجوب، وهذا قد قدّمنا أنه نسخ على الحقيقة، ونسخ عنه ما وجب عليه من التبليغ، فقد كان في كل مرة عازمًا على تبليغ ما أمر به، وقول أبي جعفر: إنما كان شافعًا ومراجعًا ينفي النسخ فإن النسخ قد يكون عن سبب معلوم، فشفاعته عليه السلام لأُمته كانت سببًا للنسخ لا مُبْطِلَةً لحقيقته، ولكن المنسوخ ما ذكرنا من حكم التبليغ الواجب عليه قبل النسخ وحكم الصلوات الخمس في خاصته، وأما أُمته فلم ينسخ عنهم حكم إذ لا يتصور نسخ الحكم قبل بلوغه إلى المأمور، كما قدّمنا، وهذا كله أحد الوجهين في الحديث.

والوجه الثاني أن يكون هذا خبرًا لا تعبّدًا، وإذا كان خبرًا لم يدخله النسخ، ومعنى الخبر أنه عليه السلام أخبره ربّه أن على أُمته خمسين صلاة، ومعناه: أنها خمسون في اللوح المحفوظ، وكذلك قال في آخر الحديث: هي خمسٌ وهي خمسون، والحسنة بعشر أمثالها فتأوله رسول الله - ﷺ - على أنها خمسون بالفعل، فلم يزل يراجع ربّه حتى بيّن له أنها خمسون في الثواب لا بالعمل. فإن قيل: فما معنى نفضها عشرًا بعد عشر؟ قلنا: ليس كل الخلق يحضر قلبه في الصلاة من أولها إلى آخرها، وقد جاء في الحديث أنه يكتب له منها ما حضر قلبه فيها، وأن العبد يصلّي الصلاة، فيكتب له نصفها ربعها حتى انتهى إلى عشرها، ووقف، فهي خمسٌ في حق مَنْ كتب له عشرها، وعشر في حق مَنْ كتب له أكثر من ذلك، وخمسون في حق مَنْ كملت صلاته وأداها بما يلزمه من تمام خشوعها وكمال سجودها وركوعها.

أوصاف من الملائكة:

فصل: وذكر أنه عليه السلام لم يلقه مَلَكٌ من الملائكة إلا ضاحكًا مستبشرًا إلا مالكا خازن جهنم، وذلك أنه لم يضحك لأحد قبله، ولا هو ضاحك لأحد، ويضدق هذا في

قال: قال رسول الله ﷺ: «فأقبلت راجعاً، فلما مررت بموسى بن عمران ونعم صاحب كان لكم، سألتني كم فُرض عليك من الصلاة؟ فقلت خمسين صلاة كل يوم؛ فقال: إن الصلاة ثقيلة، وإن أمتك ضعيفة، فارجع إلى ربك، فاسأله أن يخفف عنك

كتاب الله تعالى، قال الله سبحانه: ﴿عليها ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ﴾ [التحریم: ٦٠] وهم موكلون بغضب الله تعالى فالغضب لا يزيلهم أبداً، وفي هذا الحديث معارضة للحديث الذي في صفة ميكائيل أنه ما ضحك منذ خلق الله جهنم، وكذلك يعارضه ما خرَّج الدارقطني أن رسول الله - ﷺ - تبسم في الصلاة، فلما انصرف سُئِلَ عن ذلك، فقال: «رأيت ميكائيل راجعاً من طلب القوم، على جناحيه الغبارُ فضحك إليّ، فتبسمت إليه»^(١) وإذا صحَّ الحديثان، فوجه الجمع بينهما: أن يكون لم يضحك منذ خلق الله النار إلى هذه المدة التي ضحك فيها لرسول الله - ﷺ - فيكون الحديث عاماً يُراد به الخصوص، أو يكون الحديث الأول حَدَّثَ به رسول الله - ﷺ - قبل هذا الحديث الأخير ثم حَدَّثَ بعدُ بما حَدَّثَ به من ضحكِهِ إليه، والله أعلم ولم يَرِ مالكا على الصورة التي يراه عليها المعذبون في الآخرة، ولو رآه على تلك الصورة ما استطاع أن ينظر إليه.

أكلة الربا في رؤيا المعراج:

وذكر أكلة الربا وأنهم بسبيل آلِ فرعون يمرون عليهم كالإبل المهيومة، وهي العطاش، والهَيَام: شدة العطش، وكان قياس هذا الوصف ألا يقال فيه مَهيومة، كما لا يقال معطوشة، إنما يقال هائم وهيمان، وقد يقال: هَيُومٌ ويجمع على هيم، ووزنه فعل بالضم لكن كثير من أجل الياء كما قال تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ﴾ [الواقعة: ٥٥] ولكن جاء في الحديث مَهيومة، كأنه شيء فعل بها كالمخمومة والمجنونة وكالمنهوم، وهو الذي لا يشبع وكان قياس الياء أن تعتل، فيقال: مَهيمة، كما يقال: مَبيعة في معنى مَبيوعة، ولكن صحت الياء، لأنها في معنى الهيومة كما صحت الواو في عور لأنه في معنى أعور، كما صحت في اجتوروا لأنه في معنى: تَجَاوَزُوا، وإنما رآهم مُتَفَيِّحَةً بطونهم؛ لأن العقوبة مُشَاكِلَةٌ للذنب، فأكل الربا يَزِيو بطنه، كما أراد أن يَزِيو ماله بأكل ما حُرِّم عليه، فَمُحِجَّتْ البركة من ماله، وجعلت نَفْحًا في بطنه، حتى يقوم كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المَسِّ، وإنما جُعِلُوا بطريق آل فرعون يمرون عليهم غَدُوا وَعَشِيًّا لأن آل فرعون هم أشد الناس عذاباً يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. فَخَضُوا بسبيلهم، ليعلم أن الذين هم أشد الناس عذاباً يطئونهم فضلاً عن غيرهم من الكفار، وهم لا يستطيعون القيام،

(١) «إسناده ضعيف». أخرجه الدارقطني (١٧٥/١) بتحقيقي. وفيه الزايع بن نافع: ضعيف.

وعن أمتك. فرجعت فسألت ربي أن يخفف عني، وعن أمتي، فوضع عني عشرًا. ثم انصرفت فمررت على موسى فقال لي مثل ذلك، فرجعت فسألت ربي، فوضع عني عشرًا. ثم انصرفت، فمررت على موسى، فقال لي مثل ذلك، فرجعت فسألته فوضع

ومعنى كونهم في طريق جهنم بحيث يُمرُّ بالكفار عليهم، أن الله سبحانه قد أوقف أمرهم بين أن ينتهوا، فيكون خيرًا لهم، وبين أن يعودوا ويصروا، فيدخلهم النار، وهذه صفة من هو في طريق النار قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. إلى آخر الآية وفي بعض المسندات أنه رأى بطونهم كالبيوت، يعني: آكلة الربا، وفيها حياث ترى خارج البطون. فإن قيل: هذه الأحوال التي وصفها عن آكلة الربا إن كانت عبارة عن حالهم في الآخرة، فالفرعون في الآخرة قد أدخلوا أشد العذاب، وإنما يُعرضون على النار غدوًا وعشيًا في البرزخ، وإن كانت هذه الحال التي رآهم عليها في البرزخ، فأبي بطون لهم، وقد صاروا عظامًا ورفاتًا، ومزقوا كل ممزق فالجواب أنه إنما رآهم في البرزخ، لأنه حديث عما رأى، وهذه الحال هي حال أرواحهم بعد الموت، وفيها تصحيح لمن قال: الأرواح أجساد لطيفة قابلة للنعيم والعذاب، فيخلق الله في تلك الأرواح من الآلام ما يجده من انتفخ بطنه حتى وُطئ بالأقدام، ولا يستطيع من قيام، وليس في هذا الحديث دليل على أنهم أشد عذابًا من آل فرعون، ولكن فيه دليل على أنهم يطؤون آل فرعون وغيرهم من الكفار الذين لم يأكلوا الربا ما داموا في البرزخ إلى إن يقوموا يوم القيامة، كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، ثم ينادي منادي الله ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] وكذلك ما رأى من النساء المعلقات بثديهن يجوز أن يكون رأى أرواحهن، وقد خلق فيها من الآلام ما يجده من هذه حاله، ويحتمل أيضًا أن يكون مثلت له حالهن في الآخرة، وذكر الذين يدعون ما أحل الله من نسائهم، ويأتون ما حرم عليهم، وهذا نص على تحريم إتيان النساء في أعجازهن، وقد قام الدليل على تحريمه من الكتاب والسنة والإجماع، وقد ذكرنا المواضع التي يقوم منها التحريم على هذه المسألة من كتاب الله، ومن حديث رسول الله - ﷺ - وذكرنا ما جاء في ذلك عن ابن عباس من قوله: هو الكفر، وقول ابن عمر: هي اللوطية الصغرى، وأما الإجماع، فإن المرأة تُرَدُّ بداء الفرج، ولو جاز وطؤها في المسلك الآخر ما أجمعوا على ردّها بداء الفرج، وقد مهّدنا الأدلة على هذه المسألة مُفردة في غير هذا الإملاء بما فيه شفاء والحمد لله.

الولد لغير رشدة:

وقوله: فأكل حرايبهم: الحريبة: المال، وهو من الحرب، وهو السلب، يريد أن الولد إذا كان لغير رشدة نُسب إلى الذي وُلد على فراشه، فيأكل من ماله صغيرًا، وينظر إلى بناته

عَنِّي عَشْرًا، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَقُولُ لِي مِثْلَ ذَلِكَ، كُلَّمَا رَجَعْتُ إِلَيْهِ، قَالَ: فَارْجِعْ فَاسْأَلْ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى أَنْ وَضَعَ ذَلِكَ عَنِّي، إِلَّا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى

مِنْ غَيْرِ أُمِّهِ وَإِلَى أَخَوَاتِهِ، وَلَسَنَ بَعَمَّاتٍ لَهُ، وَإِلَى أُمِّهِ وَلَيْسَتْ بِجَدَّةٍ لَهُ، وَهَذَا فَسَادٌ كَبِيرٌ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ ذِكْرَ الْأَكْلِ مِنْ حَرَبِيَّتِهِ وَمَالِهِ قَبْلَ الْإِطْلَاعِ عَلَى عَوْرَاتِهِ، وَإِنْ كَانَ الْإِطْلَاعُ عَلَى الْعَوْرَاتِ أَشْنَعُ، لِأَنَّهُ نَفَقَتُهُ عَلَيْهِ أَوَّلُ مِنْ حَالِ صَغَرِهِ، ثُمَّ قَدْ يَبْلُغُ حَدَّ الْإِطْلَاعِ عَلَى عَوْرَاتِهِ، أَوْ لَا يَبْلُغُ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْأُمَّ أَرْضَعَتْهُ بِلَبَانِهَا، وَلَمْ تَدْفَعْهُ إِلَى مَرْضَعَةٍ كَانَ الزَّوْجُ أَبًا لَهُ مِنَ الرِّضَاعَةِ، وَكَانَ حُكْمُهُ حُكْمَ الْإِبْنِ مِنَ الرِّضَاعَةِ، وَفِي ذَلِكَ نَقْصَانٌ مِنَ الشَّنَاعَةِ، فَإِنْ بَلَغَ الصَّبِيُّ، وَتَابَتِ الْأُمُّ، وَأَعْلَمْتُهُ أَنَّهُ لَغَيْرِ رِشْدَةٍ لِيَسْتَعْفَّ عَنْ مِيرَاثِهِمْ، وَيَكْفَى عَنْ الْإِطْلَاعِ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ، أَوْ عِلْمُهُ ذَلِكَ بِقَرِينَةٍ حَالٍ وَجِبَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ شَرُّ الثَّلَاثَةِ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ فِي ابْنِ الزَّنَا، وَقَدْ تَوَوَّلَ حَدِيثُ شَرِّ الثَّلَاثَةِ عَلَى وُجُوهِ، هَذَا أَقْرَبُهَا إِلَى الصَّوَابِ، لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَكَلَّ حَرَائِثِهِمْ، وَأَطْلَعَ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ، وَمَنْ فَعَلَ هَذَا عَنْ عَمْدٍ وَقَصْدٍ فَهُوَ شَرُّ النَّاسِ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ فَأَكَلُهُ وَإِطْلَاعُهُ شَرٌّ عَمَلٌ، وَأَبَوَاهُ حِينَ زَنَى فَارَقَا ذَلِكَ الْعَمَلَ الْخَبِيثَ لِحَيْنِهِمَا وَالْإِبْنُ فِي عَمَلٍ خَبِيثٍ مِنْ مَنَشِئِهِ إِلَى وَفَاتِهِ، فَعَمَلُهُ شَرٌّ عَمَلٌ.

حُكْمُ الْحَاكِمِ لَا يَحِلُّ الْحَرَامُ:

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفَقْهِ أَيْضًا أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ لَا يُحِلُّ حَرَامًا، وَذَلِكَ أَنَّ الْوَلَدَ فِي حُكْمِ الشَّرِيعَةِ لِلْفِرَاشِ إِلَّا أَنْ يُنْفَى بِاللَّعْنِ، فَإِذَا حُكِمَ الْحَاكِمُ بِهِذَا، وَعِلْمُ الْوَلَدِ عِنْدَ بُلُوغِهِ خِلَافٌ مَا حُكِمَ بِهِ الْحَاكِمُ لَمْ يَحِلَّ لَهُ بِهِذَا الْحُكْمُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ أَكْلِ الْحَرَائِبِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى الْعَوْرَاتِ، وَفِي هَذَا رَدٌّ لِمَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ مِنْ قَوْلِهِ: إِنْ حُكِمَ الْحَاكِمُ قَدْ يَحِلُّ مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ حَرَامٌ مِثْلَ أَنْ يَشْهَدَ شَاهِدَانِ عَلَى رَجُلٍ أَنَّهُ طَلَّقَ، وَهُمَا يَعْلَمَانِ أَنَّهُ لَمْ يَطْلُقْ فَيَقْبَلُ الْقَاضِي شَهَادَتَهُمَا فَيَطْلُقُ الْمَرْأَةَ عَلَى الرَّجُلِ، فَإِذَا بَانَتْ مِنْهُ كَانَ لِأَحَدِ الشَّاهِدَيْنِ أَنْ يَنْكِحَهَا مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ قَدْ شَهِدَ زَوْرًا، لَمْ يَقُلْ أَبُو حَنِيفَةَ بِهِذَا الْقَوْلَ فِي الْأَمْوَالِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْخَنَّ يَحُجِّتُهُ مِنْ صَاحِبِهِ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ، فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»^(١) فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مَعَ الَّذِي تَقَدَّمَ رَدٌّ لِمَذْهَبِهِ، وَلَا حُجَّةَ لَهُ فِي أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ مَخْصُوصٌ بِالْأَمْوَالِ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْقِيَاسَ أَصْلٌ مِنْ أَصُولِهِ، وَقِيَاسُ الْمَسْأَلَتَيْنِ وَاحِدٌ، الثَّانِي: أَنَّهُ قَالَ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ، وَلَمْ يَقُلْ مِنْ مَالِ أَخِيهِ، وَهَذَا لَفْظٌ يَعْتَمِدُ الْحَقُوقَ كُلَّهَا قَالَ الْمُؤَلَّفُ: وَعِنْدِي أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّمَا بَنَى

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٣٢/٩) ومسلم في الأفضية (٥) ومالك (٧١٩).

موسى، فقال لي مثل ذلك، فقلت: قد راجعتُ ربي وسألته، حتى استحييتُ منه، فما أنا بفاعل»، رواه البيهقي في كتاب دلائل النبوة وابن جرير وابن أبي حاتم.

هذه المسألة على أصله في طلاق المُكْرَه، فإنه عنده لازم فإذا أكره الرجلُ على الطلاق، وقتلنا يلزم الطلاق له، فقد حرمت المرأة عليه، وإذا حرمت عليه جاز أن ينكحها مَنْ شاء فالإثم إنما تعلّق في هذا المذهب بالشهادة دون النكاح، وقد خالفه فقهاء الحجاز في طلاق المُكْرَه، وقولهم يعضده الأثر، وقول أبي حنيفة يعضده النظر، والخوض في هذه المسألة يصدّنا عمّا نحن بسبيله.

مكان إدريس:

فصل: وذكره لإدريس في السماء الرابعة مع قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، مع أنه قد رأى موسى وإبراهيم في مكان أعلى من مكان إدريس فذلك والله أعلم لما ذكر عن كعب الأحبار أن إدريس خصّ من جميع الأنبياء أن رفع قبل وفاته إلى السماء الرابعة، ورفع ملكاً كان صديقاً له، وهو الملك الموكّل بالشمس فيما ذكر، وكان إدريس سألَه أن يُريه الجنة، فأذن له الله في ذلك، فلما كان في السماء الرابعة رآه هنالك ملكاً الموت، فعجب، وقال أُمِرْتُ أن أقبض روح إدريس الساعة في السماء الرابعة، فقبضه هنالك، فرفعه حيّاً إلى ذلك المكان العليّ خاصّاً له دون الأنبياء^(١).

قول الأنبياء في كل سماء:

فصل: وذكر من قول الأنبياء له في كل سماء: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ، وقول آدم وإبراهيم: بالابن الصالح وقد ذكرنا في أول هذا الكتاب حُجَّةً لَمَنْ قال: إن إدريس ليس بجُدٍ لثوح، ولا هو من آباء رسول الله - ﷺ - لأنه قال مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ، ولم يقل: بالابن الصالح.

خرافة طلب موسى أن يكون من أمة أحمد:

وأما اعتناء موسى - عليه السلام - بهذه الأُمَّة وإلحاحه على نبيّها أن يشفع لها، ويسأل التخفيف عنها، فلقلّوه - والله أعلم - حين قُضِيَ إليه الأمرُ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ، ورأى صفات أمة محمد عليه السلام في الألواح، وجعل يقول: إني أجد في الألواح أُمَّةً صَفْتُهُمْ كَذَا، اللَّهُمَّ

(١) «ضعيف». وتقدم التنبيه على ما ينقله ابن وهب وكعب الأحبار من كتب أهل الكتاب، وكما ورد في الصحيح أنه إذا حدّثنا أهل الكتاب بشيء فلا نصدقهم ولا نكذبهم، وكله تحت قاعدة «ما وافق القرآن وما خلافه».

فَمَنْ آذَاهَنْ مِنْكُمْ إِيْمَانًا بِهِنَّ، وَاحْتِسَابًا لَهُنَّ، كَانَ لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ صَلَاةً مَكْتُوبَةً.
رواه. وفي الحديث غرابة ونكارة.

اجعلهم أمتي، فيقال له: تلك أمة أحمد، وهو حديث مشهور^(١)، فكان إشفاقه عليهم واعتناؤه بأمرهم كما يعتني بالقوم مَنْ هُوَ مِنْهُمْ، لقوله: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنْهُمْ، والله أعلم.

بعض ما رأى:

ومما جاء في حديث الإسراء مما لم يذكره ابن إسحق في مُسْنَدِ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي أُسَامَةَ أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَام - نَادَاهُ مُنَادٌ، وَهُوَ عَلَى ظَهْرِ الْبُرَاقِ: يَا مُحَمَّد، فَلَمْ يَعْرِجْ عَلَيْهِ، ثُمَّ نَادَاهُ آخَرٌ: يَا مُحَمَّد يَا مُحَمَّد ثَلَاثًا، فَلَمْ يَعْرِجْ عَلَيْهِ، ثُمَّ لَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةٍ نَاشِرَةٌ يَدَيْهَا، تَقُولُ: يَا مُحَمَّد يَا مُحَمَّد، حَتَّى تَغَشَّيْتَهُ، فَلَمْ يَعْرِجْ عَلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلَ جَبْرِيلُ عَمَّا رَأَى، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: أَمَّا الْمُنَادِي الْأَوَّلُ، فَدَاعِي الْيَهُودِ لَوْ أَجَبْتَهُ لَتَهَوَّدَتْ أُمَّتُكَ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَدَاعِي النَّصَارَى، وَلَوْ أَجَبْتَهُ لَتَنَصَّرَتْ أُمَّتُكَ، وَأَمَّا الْمَرْأَةُ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةٍ، فَإِنَّهَا الدُّنْيَا لَوْ أَجَبْتَهَا لَأَثَرَتْ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ^(٢).

(١) حديث باطل لا يصح. وكيف لموسى عليه السلام أن يختار غير ما اختار الله تعالى له.

(٢) تقدم أن هذه المشاهد أخرجها البيهقي في الدلائل، وفيها نكارة، وهي منتشرة بين الناس من الحديث المنسوب إلى ابن عباس في الإسراء، وأخذها الكاتب [لويس عوض] وقال عنها: إنها نص أدبي راقٍ!!! ولكل وجهة.

كفاية الله أمر المستهزين

قال ابن إسحق: فأقام رسول الله - ﷺ - على أمر الله تعالى صابراً محتسباً، مؤدياً إلى قومه النصيحة على ما يلقي منهم من التكذيب والأذى والاستهزاء. وكان عظماء المستهزين - كما حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير خمسة نَقَر من قومهم، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم.

من بني أسد بن عبد العزى بن قُصَيِّ بن كِلاب: الأسود بن المطلب بن أسد أبو رَمعة، وكان رسول الله - ﷺ - فيما بلغني - قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه به، فقال: اللهم أغم بصره وأكبله ولده.

ومن بني زهرة بن كلاب: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة.

ومن بني مخزوم بن يقظة بن مُرة: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

ومن بني سَهْم بن عمرو بن هُصَيص بن كَعْب: العاص بن وائل بن هشام. قال ابن هشام: العاص بن وائل بن هاشم بن سَعِيد بن سَهْم.

عن المستهزين وملكان^(١)

فصل: وذكر حديث المستهزين الذين أنزل الله فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ﴾

(١) انظر الكامل لابن الأثير (١/٥٩٢).

ومن بني خُزاعة: الحارث ابن الطَّلَاطِلَة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن لُؤي بن مِلْكَان.

فلما تَمَادَوْا مِنَ الشَّرِّ، وَآكثَرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - الْإِسْتِهْزَاءَ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: ﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّآ كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٣ - ٩٥].

قال ابن إسحق فحدثني يزيد بن رومان، عن عُرْوة بن الزبير، أو غيره من العلماء أن جبريل أتى رسولَ الله - ﷺ - وهم يطوفون بالبيت، فقام، وقام رسولُ الله - ﷺ - إلى جَنْبِهِ فَمَرَّ بِهِ الْأَسْوَدُ بْنُ الْمَطْلَبِ، فَرَمَى فِي وَجْهِهِ بَوْرَقَةٍ خَضِرَاءَ، فَعَمِيَ، وَمَرَّ بِهِ الْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثٍ، فَأَشَارَ إِلَى بَطْنِهِ، فَاسْتَسْقَى فَمَاتَ مِنْهُ حَبْنًا. وَمَرَّ بِهِ الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ فَأَشَارَ إِلَى أَثَرِ جُرْحٍ بِأَسْفَلِ كَعْبِ رِجْلِهِ، كَانَ أَصَابَهُ قَبْلَ ذَلِكَ بِسَنِينَ، وَهُوَ يَجْرُ سَبْلَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ مَرَّ بِرَجُلٍ مِنْ خُزَاعَةٍ، وَهُوَ يَرِيشُ نَبْلًا لَهُ، فَتَعَلَّقَ سَهْمٌ مِنْ نَبْلِهِ بِإِزَارِهِ، فَخَدَشَ مِنْ رِجْلِهِ ذَلِكَ الْخَدَشَ، وَلَيْسَ بِشَيْءٍ، فَانْتَقَضَ بِهِ، فَقَتَلَهُ. وَمَرَّ بِهِ الْعَاصُ بْنُ

[الحجر: ٩٥] وذكر فيهم الحارث ابن الطَّلَاطِلَة، والطَّلَاطِلَة: أمُّه، قال أبو الوليد الوقشي، والطَّلَاطِلَة في اللغة: الداهية، قال أبو عبيد: كُلُّ دَاءٍ عُضَالٌ فَهُوَ: طَّلَاطِلَة، وذكر في نسبه عبد عمرو بن مِلْكَانَ بالضبطين جميعًا، وفي حاشية كتاب الشيخ الحافظ أبي بحر، قال: قد تقدم من قول ابن حبيب النحوي أن الناس ليس فيهم مِلْكَانُ بفتح الميم إلا مِلْكَانُ بن جَزَمَ بن رَبَّانَ بن حُلُوانِ عمران بن الحَافِ بن قُضَاعَةَ، وَمِلْكَانُ بن عباد بن عِيَاضَ بن عُقْبَةَ بن السَّكُونِ بن أَشْرَسَ، وإخوة عدي هم: تُجِيبُ عرفوا بأهمهم تُجِيبُ بنت دُهم بن ثوبان، وهم من كِنْدَةَ، وكل من في الناس وغيرهما مِلْكَانُ مكسور الميم ساكن اللام، وقال مشايخ خُزَاعَةٍ: في خُزَاعَةٍ مِلْكَانُ بفتح الميم، قال القاضي: يعني ابن حبيب: مِلْكَانُ بن أَفْصَى بن حارثة بن ثَعْلَبَةَ بن عمرو بن عامر، وقال غير ابن حبيب كالذي يخرج من عبارته: إن الذي في خُزَاعَةٍ إنما هو مِلْكَانُ بن أَفْصَى مثل مِلْكَانُ بن عدي بن عبد مناة من الرباب الذين منهم ذو الرُّمَّة الشاعر، ومثل مِلْكَانُ بن عبد مناة من الرباب أيضًا رهط سُفْيَانَ بن سَعِيدِ الثَّوْرِيِّ. وذكر في المستهزين الأسود بن عبد يَغُوثِ الزهري روى أنه لما أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] نزل جبريل عليه السلام فحنا ظهرَ الْأَسْوَدَ، فقال رسولُ الله ﷺ: خَالِي خَالِي، فقال له جبريل: خَلَّ عَنْكَ، ثم حناه حتى قتله، ذكره الدَّارَقُطْنِيُّ^(١).

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٤/١٠٨).

واثل، فأشار إلى أخمص رجله، وخرج على حمارٍ له يريد الطائف، فَرَبَضَ به على شُبارقة، فدخلت في أخمَصَ رجله شوكةٌ، فقتلته ومَرَّ به الحارث ابن الطَّلَاطلة، فأشار إلى رأسه، فامتخَضَ قَيْحًا فقتله^(١).

الوليد وأبو أزيهر

قال ابن إسحق: فلما حضرت الوليدَ الوفاةَ دعا بنيه، وكانوا ثلاثة: هشام بن الوليد، والوليد بن الوليد، وخالد بن الوليد، فقال لهم: أي بَنِي، أوصيكم بثلاث، فلا تُضَيِّعُوا فيهن: دمي في خُزاعة، فلا تَطْلُئْهُ، والله إني لأعلم أنهم منه بُرَاء، ولكني أخشى أن تُسَبِّحُوا به بعد اليوم، ورباي في ثَقِيف، فلا تدعوه حتى تأخذوه، وعُفْرَى عند أبي أزيهر، فلا يفوتكم به. وكان أبو أزيهر قد زوجه بنتًا، ثم أمسكها عنه فلم يدخلها عليه حتى مات.

فلما هلك الوليد بن المغيرة، وثبت بنو مخزوم على خُزاعة يطلبون منهم عقل الوليد، وقالوا: إنما قتله سَهْمٌ صاحبكم - وكان لبني كعب جِلْفٌ من بني عبد المطلب بن هاشم - فأبَت عليهم خُزاعة ذلك، حتى تفاولوا أشعارًا، وعَلَّظَ بينهم

حديث الوليد بن المغيرة

فصل: وذكر وفاة الوليد بن المغيرة، وقوله لبنيه: وعُفْرَى عند أبي أزيهر الدؤسي لا تدعوه العُفْر: دِيَةُ الفَرْجِ المَغْضُوبِ، وأصله في البُكر من أجل التَّدْمِيَةِ، ومنه عَفَر السَّرْجُ الفَرَس: إذا أدماه، وَيَيْضَةُ العُفْرِ منه؛ لأنهم كانوا يقيسون البُكر باليَيْضَةِ، ليعرفوا بكورتها، وقيل: عُفْر بضم العين، لأنه بمعنى بَضْع.

عن مقتل أبي أزيهر وموقف دوس

وذكر قَتْل هشام بن الوليد لأبي أزيهر وخبر أم غَيْلان مع ضِرَار حين أجارته، ومن تمام الخبر: أن دَوْسا لما بلغها مقتل أبي أزيهر الدوسي، وثبت على رجال من قريش كانوا عندهم، فقتلوا منهم بجير بن العَوَّام أخا الزُبَيْر، وأرادوا قتل ضِرَار بن الخطاب، فأجارتَه أم غَيْلان وابئُها عوف، قال ضِرار: لقد أدخلتني بين درعها وبدنها، حتى إني لأجد تَسْيِيدَ رُكْبِها، والتَّسْيِيد: موضع الخَلْق من الشعر، وكان الذي قتل بُجَيْرًا صَبِيحُ بن سعد أو مَلِيح بن سعد جد أبي هُرَيْرَةَ لأمه؛ لأن أمه أَمِيمة بنت مَلِيح أو صَبِيح.

(١) السابق.

الأمر - وكان الذي أصاب الوليدَ سهمه رجلاً من بني كعب بن عمرو من خزاعة - فقال عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم:

إني زعيم أن تسيروا، فتَهْرَبُوا وأن تتركوا الظَّهْرانَ تَغوي ثعالبه
وأن تتركوا ماءً بِجِزْعَةٍ أَطْرِقا وأن تسألوا: أي الأراك أطايبه؟
فإننا أناسٌ لا نُطَلِّ دماؤنا ولا يَتَعَالَى صاعداً مَنْ نحاربه

وكانت الظَّهْران والأراك منازلَ بني كعب، من خزاعة. فأجابه الجَوْنُ بن أبي الجَوْن: أخو بني كعب بن عمرو الخُزاعي، فقال:

والله لا نُؤْتِي الوليدَ ظِلَامةً ولَمَّا قَرَرَا يوماً تَزول كَوَاكِبُهُ
وَيَضْرَعُ منكم مُسَمِّنٌ بعد مُسَمِّنٍ وتُفْتَحُ بعد الموتِ قَسْرًا مَشاربه
إذا ما أَكلتم خُبْزَكم وخَزِيرَكم فكلُّكم باكي الوليدِ ونادبه

ثم إن الناسَ تراذوا وعَرَفُوا أنما يَخْشَى القومُ السُّبَّةَ، فأعطتهم خزاعةً بعضَ العَقْلِ، وانصرفوا عن بعض. فلَمَّا اصطلح القومُ قال الجَوْنُ بن أبي الجَوْن:

عن أطرقا ومن أحكامه أن:

فصل: وذكر شعر عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة وفيه:

وأن تتركوا ماءً بِجِزْعَةٍ أَطْرِقا

والجَزْعَةُ والجَزْعُ بمعنى واحد^(١)، وهو معظم الوادي، وقال ابن الأعرابي: هو ما انثنى منه، وأَطْرِقا اسمُ عَلَمٍ لموضع^(٢) سمي بفعل الأمر للاثنتين، فهو مَخَكِي لا يُغَرَّبُ، وقيل: إن أصلَ تسميته بذلك أن ثلاثة نفر مرّوا بها خائفين، فسمع أحدهم صوتاً، فقال لصاحبيه: أَطْرِقا، أي: أنصتَا، حتى نرى ما هذا الصوت، فسمي المكان بأطرقا، والله أعلم. وذكر شِعْرَ الجَوْنِ بن أبي الجَوْن، وفيه:

(١) جزع: الجيم والزاء والعين أصلان: أحدهما الانقطاع، والآخر: جوهر من الجواهر. فأما الأول فيقولون: جَزَعْتُ الرملة إذا قطعتها؛ رمته: جَزَعُ الوادي، وهو الموضع الذي يقطعه من أحد جانبيه إلى الجانب؛ ويقال: هو منعطفه، والجزع: نقيض الصبر، وأما الآخر فالجزع وهو الخرز المعروف. انظر مقاييس اللغة (١/٤٥٣). اللسان (٨/٤٧).

(٢) اسم موضع بنواص مكة.

وقائلةٍ لَمَّا اصطَلَحْنَا تَعَجُّبًا لِمَا قَدْ حَمَلْنَا لِلْوَلِيدِ وَقَائِلِ
أَلَمْ تُقْسِمُوا تُؤْتُوا الْوَلِيدَ ظُلَامَةً وَلَمَّا تَرَوْا يَوْمًا كَثِيرَ الْبَلَابِلِ
فَنَحْنُ خَلَطْنَا الْحَرْبَ بِالسَّلَامِ فَاسْتَوَتْ فَأَمَّ هَوَاهُ آمَنَّا كُلَّ رَا حِلِ
ثم لم ينثه الجَوْنُ بن أبي الجَوْنِ حتى افتخر بقتل الوليد، وذكر أنهم أصابوه،
وكان ذلك باطلاً. فلحق بالوليد وبولده وقومه من ذلك ما حذره.

فقال الجَوْنُ بن أبي الجَوْنِ:

أَلَا زَعَمَ الْمُغِيرَةُ أَنْ كَغِبَا بِمَكَّةَ مِنْهُمْ قَذَرٌ كَثِيرُ

أَلَمْ تُقْسِمُوا تُؤْتُوا الْوَلِيدَ ظُلَامَةً

أراد: أن تؤتوا، ومعناه: أن لا تؤتوا كما جاء في التنزيل: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾
[النساء: ١٧٦] في قول طائفة، ومعناه عندي: كره لكم أن تضلُّوا، وقد قدمنا في الجزء قبل
هذا كلام على أن، ومقتضاها وشيئا من أسرارها فيه غنية، وإذا كان الكلام محمولاً على
معناه فالنصب جائز، والرفع جائز أيضاً، كما أنشدوا^(١):

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضَرَ الْوَعَى

بنصب: أَحْضَرَ ورفع، وأنشد سيبويه:

وَنَهْنَهْتُ نَفْسِي بَعْدَمَا كِدْتُ أَفْعَلُهُ^(٢)

يريد: أن أفعله، وإذا رفعت في هذا الموضع لم يذهب الرفع معنى أن فقد حكى
سيبويه: مره يحفرها، وقدره تقديرين، أحدهما: أن يريد الحال أي: مره حافراً لها،
والثاني: أن يريد: مره أن يحفرها، وارتفع الفعل لما ذهب أن من اللفظ، ويبيّن ابن جني
الفرق بين التقديرين، وقال: إذا نويت أن فالفعل مستقبل، وإذا لم تنوها فالفعل حاضر،
وههنا مسألة من العرب ذكرها الطبري، قال: العرب تقول لمن توجه في أمر: تصنع ماذا
وتفعل؟ ماذا على تقدير: تريد أن تصنع ماذا، فإذا قالوا: تريد ماذا لم يكن إلا رفعاً، لأن
المعنى الذي يجلب معنى أن الناصبة ليس في قوله: تريد؛ إذ لا يستقيم أن تقول: تريد أن
تريد ماذا، يعني: أن الإرادة لا تتراد.

(١) صاحب البيت هو: طرفة بن العبد: وفيه: ألا أيهذا اللاتمي أحضر الوعى. والوعى أصله الصوت
والجلبة ثم كنى به عن الحرب. انظر القصائد العشر للخطيب التبريزي (١٠٣).

(٢) انظر الكتاب لسيبويه (١٥٥/١).

فلا تَفْخَرُ مُغِيرَةً أَنْ تَرَاهَا بها يَمْشِي الْمُعْلَهَجُ وَالْمَهِيرُ
بِهَا أَبَاؤُنَا، وَبِهَا وَلَدُنَا كما أَرْسَى بِمَثْبَتِهِ ثَبِيرُ
وما قال المُغِيرَةُ ذَلِكَ إِلَّا لِيَعْلَمَ شَأْنُنَا أَوْ يَسْتَثِيرُ
فإِنَّ دَمَ الْوَلِيدِ يُطَلَّ إِنَّا نَطُلُ دِمَاءَ أَنْتَ بِهَا خَبِيرُ
كسَاهُ الْفَاتِكُ الْمَيَمُونُ سَمَهُمَا رُعَافَا وَهُوَ مَمْتَلَىءٌ بِهِيرُ

شعر الجون:

وذكر شعر الجون أيضًا، وفيه:

بها يمشي المُعْلَهَجُ وَالْمَهِيرُ

المهير^(١): ابن المهورة الحرة والمُعْلَهَجُ^(٢): المتردد في الإماء كأنه منحوت من أصلين: من العِلَج لأن الأمة: عِلْجَةٌ، ومن اللَهَج، كأن واطيء الأمة قد لهَجَ بها، فَنُحِتَ لفظُ المُعْلَهَجِ من هذين اللفظين^(٣).

وفيه:

كما أَرْسَى بِمَثْبَتِهِ ثَبِيرُ

كذا صحت الرواية في أرسى بالتخفيف وهو زحاف داخل على زحاف؛ لأن تسكين اللام من مُفَاعَلَتْنِ في الوافر زحاف، ولكنه حَسَنٌ كثير، فلما كثر شَبْهُهُ هَذَا الشاعِرُ بِمُفَاعِيلٍ؛ لأنه على وزنه، وَمُفَاعِيلُنْ يَخْسُنْ حَذْفُ الْيَاءِ مِنْهَا فِي الطَوِيلِ، فيصير فَعُولُنْ مُفَاعِلُنْ فلهذا أَدْخَلَ هَذَا الشاعِرُ الزحافَ على مُفَاعَلَتْنِ لأنه بعد السكون في وزن مُفَاعِيلُنْ التي تحذف ياؤها حَذْفًا مُسْتَحْسَنًا، فتدبره، فإنه مليح في علم العروض.

(١) المهير: الحرة والمهائر الحرائر. اللسان (١٨٦/٥).

(٢) المعلهج: الدَّعِي. والمعلهج: الذي ولد من جنسين مختلفين. وقال ابن سيده: المعلهج: الذي ليس يخالص النسب. اللسان (٣٢٨/٢).

(٣) عِلَج: العين واللام والجيم: أصل صحيح يدل على تحرس ومزاولة في جفاء وغلظ. من ذلك: العِلَج: وهو حمار الوحش، وبه يشبه الرجل الأعجمي. وقال الخليل: سمي عِلْجًا لاستعلاج خَلْفِهِ وهو غِلْظُهُ. والعِلَج: الشديد من الرجال. وحكوا: أرض معتلجة: وهي التي تراكب نيتها وطال ودخل بعضه في بعض. مقياس اللغة (١٢١/٤). والعِلَج: الرجل من كفار العجم، والأثنى عِلْجَة. اللسان (٣٢٦/٢) واللّهيج: قالوا: لهيج الأمر لهجًا ولهوج والهيج كلاهما: أولع به واحتاده. واللّهيج بالشيء: الولوع به. اللسان (٣٥٩/٢).

فَخَرَّ بِبَطْنِ مَكَّةَ مُسْلَجًا كَأَنَّهُ عِنْدَ وَجْبَتِهِ بَعِيرٌ
 سَيِّكُفِينِي مِطَالَ أَبِي هِشَامٍ صَغَارَ جَعْدَةُ الْأُوبَارِ خُورٌ
 قال ابن هشام: تركنا منها بيتًا واحدًا أقذع فيه .

ثورة لمقتل أبي أزيهر:

قال ابن إسحاق: ثم عدا هشام بن الوليد على أبي أزيهر، وهو بسوق ذي المجاز، وكان عند أبي سفيان بن حرب بنت أزيهر، وكان أبو أزيهر رجلًا شريفًا في قومه - فقتله بعقر الوليد الذي كان عنده، لوصيَّة أبيه إياه، وذلك بعد أن هاجر رسول الله - ﷺ - إلى المدينة ومضى بدر، وأصيب به مَنْ أُصيب من أشراف قُرَيْش من المشركين؛ فخرج يزيد بن أبي سفيان، فجمع بني عبد مناف، وأبو سفيان بذِي المجاز، فقال الناس: أخفِرْ أبو سفيان في صهره، فهو ناثر به، فلمَّا سمع أبو سفيان بالذي صنع ابنه يزيد - وكان أبو سفيان رجلًا حليمًا مُنكرًا، يحبُّ قومه حبًّا شديدًا - انحطَّ سريعًا إلى مكة، وخشي أن يكون بين قريش حَدَثٌ في أبي أزيهر، فاتى ابنه وهو في الحديد، في قومه من بني عبد مناف والمطييين، فأخذ الرمح من يده، ثم ضرب به على رأسه ضربةً هذه منها، ثم قال له؛ قَبِّحَكَ الله! أتريد أن تضرب قُرَيْشًا بعضهم ببعض في رجل من دُوس. سَنُؤْتِيهِم العَقْلَ إن قَبَاوه، وأطفأ ذلك الأمر.

فانبعث حسان بن ثابت يُحَرِّضُ في دَمِ أَبِي أزيهر، ويعيرُ أبا سفيان خُفْرَتَهُ وَيُجَبِّنُهُ، فقال:

غدا أهل ضَوْجِي ذِي المجازِ كِلَيْهِمَا	وجارَ ابنِ حَرْبٍ بِالْعَمَّسِ ما يَغْدُو
ولم يمنع العَيْرُ الصُّرُوطُ ذِمَارَهُ	وما منعت مخزاةً وإلدها هِنْدُ
كسَاكَ هِشَامُ بْنُ الْوَلِيدِ ثِيَابَهُ	فأَبْلٍ وَأَخْلِفَ مَثَلَهَا جُدْدًا بَعْدُ
قَضَى وَطَرًا مِنْهُ فَأَصْبَحَ مَا جَدَا	وأصْبَحَتْ رَحْوًا ما تَخْبُ وما تَغْدُو

من أسواق العرب:

فصل: رَأْنَشِدُ لِحْسانِ بنِ ثابت:

غدا أهل ضَوْجِي ذِي المجازِ بِسُخْرَةٍ

ضَوْجُ الوادي: جانبه، وذو المجاز: سوقٌ عند عَرَفَةَ كانت العرب إذا حَجَّتْ أقامت بسوق عكاظِ شهرَ شَوَّالٍ، ثم تنتقل إلى سوقِ مَجَنَّةَ فتقيم فيه عشرين يومًا من ذِي القَعْدَةِ، ثم تنتقل إلى سوقِ ذِي المجازِ فتقيم فيه إلى أيامِ الحج، وكانوا يتفاخرون في سوقِ عكاظِ

فلو أن أشياخاً ببدرٍ تَشاهدوا لَبِلَ نعالَ القومِ مُغْتَبِطٌ وَزَدَ
فلما بلغ أبا سُفْيَانَ قَوْلُ حَسَّانَ قَالَ: يريد حَسَّانُ أن يَضْرِبَ بَعْضُنَا بَعْضَ فِي رَجُلٍ
مِنْ دَوْسٍ! بئسَ والله ما ظَنٌّ!

آية الربا من البقرة

ولما أسلم أهل الطائف كُلَّم رسولَ الله ﷺ خالدُ بن الوليد في ربا الوليد، الذي
كان في ثقيف، لما كان أبوه أوصاه به.

قال ابن إسحاق: فذكر لي بعضُ أهل العلم أن هؤلاء الآيات من تحريم ما بقي من
الربا بأيدي الناس نزلن في ذلك من طلب خالد الربا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] إلى آخر القصة فيها.

شهر شوال إذا اجتمعوا، ويقال: عَكَظَ الرجلُ صاحبه إذا فاخره وغَلَبَهُ بالمفاخرة، فسُميت
عُكَازٌ لذلك^(١).

وذكر:

لَبِلَ نَعَالُ الْقَوْمِ مُغْتَبِطٌ وَزَدَ

يعني: الدَّمُ الْعَبِيطُ^(٢).

ما أنزل الله في الربا

فصل: وذكر ما أنزل الله في الربا الآيات من سورة البقرة، وقد قدمنا في حديث بنيان
الكعبة من قولهم: لا تنفقوا فيها رِبَاً ولا مَهْرَ بَغْيٍ، وأن في ذلك دليلاً على قَدَمِ تحريمه
عليهم في شرح إبراهيم عليه السلام، أو في غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين
وذلك أنه من أقبح الأعمال لما فيه من هَدمِ جانب المروءة، وإيثار الحرص مع بعد الأمل،
ونسيان بَغْتَةِ الأجل، وترك التوسعة وحسن المعاملة، ومن تأمل أبواب الربا لاح له شر
التحريم من جهة الجَشَعِ المانع من حسن المعاشرة والذريعة إلى ترك القَرْضِ، وما فيه، وفي
التوسعة من مكارم الأخلاق، ولذلك قال سبحانه: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ

(١) عكاظ: عكظ دابته يعكظها عكظاً: حبسها، وتعكظ القوم تعكظاً إذا تحيَّسوا لينظروا في أمورهم.
وعكاظ: سوق للعرب كانوا يتعاكظون فيها؛ قال الليث: سميت عكاظاً لأن العرب كانت تجتمع
فيها يتعكظ بعضهم بعضاً بالمفاخرة، اللسان (٤٤٧/٧).

(٢) العبيط: الطري من كل شيء. مقاييس اللغة (٢١١/٤). اللسان (٣٤٧/٧).

الهم بأخذ ثار أبي أزيهر:

ولم يكن في أبي أزيهر ثارٌ نعلمه، حتى حَجَزَ الإسلامُ بين الناس، إلا أن ضِرار بن الخطَّاب بن مِزْداس الفِهْري خَرَجَ في نَفَرٍ من قُرَيْشٍ إلى أرضِ دَوْس، فنزلوا على امرأةٍ يقال لها أُمُ غَيْلان، مولاةٌ لدَوْس، وكانت تَمُشُطُ النِّساء، وتجهِّزُ العرائس، فأرادت دَوْس قتلَهُم بأبي أزيهر، فقامت دونهم أُمُ غيلان ونسوةٌ معهم، حتى منعتهُم، فقال ضِرار بن الخطَّاب في ذلك:

وَنَسَوْتَهَا إِذْ هُنَّ شُغِفَتْ عَوَاطِلُ ^(١)	جَزَى اللهُ عَنَّا أُمُ غَيْلانَ صالِحاً
وَقَدْ بَرَزَتْ لِلثَّائِرِينَ المَقَاتِلُ	فَهِنْ دَفَعْنَ المَوْتَ بَعْدَ اقْتِرَابِهِ
بِعِزٍّ وَأَدَّتْهَا الشَّرَاجُ ^(٢) القَوَابِلُ ^(٣)	دَعَتْ دَعْوَةَ دَوْسٍ فَسَالَتْ شُعَابُهَا
وَمَا بَرَدَتْ مِنْهُ لَدَيْ المَفَاصِلِ	وَعَمَرًا جَزَاهُ اللهُ خَيْرًا فَمَا وَنَى ^(٤)
وَعَنْ أَيْ نَفْسٍ بَعْدَ نَفْسِي أَقَاتِلُ	فَجَزَدْتُ سَيْفِي ثُمَّ قَمْتُ بِنَضْلِهِ

عمل أُم غيلان:

قال ابن هشام: حدثني أبو عبيدة: أن التي قامت دون ضِرار أُمُ جميل، ويقال: أُمُ غَيْلان، قال: ويجوز أن تكونَ أُمُ غَيْلان قامت مع أُمُ جميل فيمن قام دونه.

فلما قام عمرُ بن الخطَّاب أُنْتَه أُمُ جميل، وهي تُرى أنه أخوه: فلما انتسبت له عرف القِصَّة، فقال: إني لستُ بأخيه إلا في الإسلام، وهو غاز، وقد عرفتُ مِثْلَكَ عليه، فأعطاهما على أنها ابنة سَبِيل.

ورسوله ﴿[البقرة: ٢٧٩]. غضباً منه على أهله، ولهذه التُّكْتة قالت عائشة لأنَّ محبة مولاة زيد بن أرقم: أبلغني زيدا تعني زَيْدُ بن أرقم أن قد أَبْطَلَ جهادَه مع رسول الله - ﷺ - حين ذكرت لها عنه مسألة من البيوع تشبه الربا، فقالت: أَبْطَلَ جهادَه، ولم تقل صَلَاتَه ولا صيامه، لأن السيئات لا تُحْبَطُ الحَسَنَاتِ، ولكن خَصَّتْ الجهادَ بالإبطال، لأنه حرب لأعداء الله، وآكلُ الربا قد أذن بحربٍ من الله، فهو ضده، ولا يجتمع الضدان، وهذا معنى ذكره أبو الحسن بن بطال في شرح الجامع، وتلك المسألة مذكورة في المَدُونَةِ، لكن إسنادها إلى عائشة ضعيف.

(١) أي ليس لهن حلي.

(٢) الشراج: جمع شرج: وهو مسيل الماء من الحرة إلى السهل.

(٣) أي المتقابلات. (٤) الونى: الضعف.

قال الراوي: قال ابن هشام: وكان ضِرار لحق عمرَ بن الخطاب يوم أحد، فجعل يَضربه بعَرَضِ الرمح، ويقول: انجُ يا بن الخطاب لا أقتلك، فكان عمر يعرفها له بعد إسلامه.

من المؤذنين لرسول الله:

قال ابن إسحاق: وكان الثَّفَر يُؤذون رسولَ الله ﷺ في بيته أبا لَهَب، والحَكَم بن العاص بن أُمَيَّة، وعُقْبَة بن أبي مُعَيْط، وعدِي بن حَمراء الثَّقَفِي، وابن الأضداء الهَذَلِي، وكانوا جيرانه لم يُسلم منهم أحد إلا الحَكَم بن أبي العاص، فكان أحدهم - فيما ذكر لي - يطرح عليه ﷺ رَحِم الشاة وهو يُصَلِّي، وكان أحدهم يطرحها في بُزْمته إذا نُصبت له. حتى اتخذ رسولُ الله ﷺ - حجراً يستتر به منهم إذا صلى، فكان رسولُ الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى، كما حدثني عمرُ بن عبد الله بن عُرْوَة بن الزبير، عن عُرْوَة بن الزبير، يخرج به رسولُ الله ﷺ على العود، فيقف به على بابهِ، ثم يقول: يا بني عبد مناف، أي جوارٍ هذا! ثم يُلقيه في الطريق.

ما عاناه الرسول ﷺ بعد وفاة أبي طالب وخديجة^(١):

قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة بنت خُوَيْلِد وأبا طالب هَلَكَا في عام واحد، فتتابعت على رسولِ الله ﷺ المصائبُ بهُلك خديجة، وكانت له وَزِيرًا صِدْق على الإسلام، يشكو إليها، وبهُلك عُمّه أبي طالب، وكان له عضدًا وَجَزًا في أمره، وَمَنَعَة وناصرًا على قومه، وذلك قبل مُهاجره إلى المدينة بثلاث سنين. فلما هلك أبو طالب، نالت قريشُ من رسولِ الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تَطْمَع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سَفِيَةٌ من سُفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابًا.

قال ابن إسحاق: فحدثني هشام بن عُرْوَة، عن أبيه عُرْوَة بن الزبير، قال: لما نثر ذئب السفية على رأس رسولِ الله ﷺ - ذلك الترابَ دخل رسولُ الله ﷺ بيته والترابُ على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول

(١) انظر طبقات ابن سعد (١٢٢/١) البداية والنهاية (١٢٢/٣) السيرة الحلبية (٤٦٦/١) المنتظم (٧/٣) الكامل (٦٠٦/١) السيرة الشامية (٥٦٣/٢) الدلائل للبيهقي (٣٥١/٢) النويري (٢٧٧/١٦).

الله ﷺ يقول لها: لا تبكي يا بُنَيَّةُ، فإن الله مانعٌ أباك. قال: ويقول بين ذلك: ما نالت مَتَي قريش شيئًا أكرهه، حتى مات أبو طالب^(١).

ما حدث بين النبي ﷺ وبين أبي طالب والمشرّكين

قال ابن إسحاق: ولما اشتكى أبو طالب، وبلغ قريشًا ثِقْلَهُ، قالت قريش بعضها لبعض: إن حَمْزَةَ وعمر، قد أسلما وقد فشا أمرُ مُحَمَّدٍ في قبائل قُريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذ لنا على ابن أخيه، ولْيُعْطِه مَنًا، والله ما نأمن أن يَنْتَزُونَا أَمْرَنَا.

قال ابن إسحاق: فحدثني العباسُ بن عبد الله بن مَعْبُدٍ عن بعض أهله، عن ابن عباس، قال: مَشَوْا إلى أبي طالب فكلّموه، وهم أشراف قومه: عُتْبَةُ بن ربيعة، وشَيْبَةُ بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمِيَّةُ بن خُلف، وأبو سفيان بن حَرْب، في رجال من أشrafهم، فقالوا: يا أبا طالب، إنك مَنّا حيث قد علمت، وقد حَضَرَكَ ما ترى، وتَخَوَّفْنَا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادْعُهُ، فخذْ له مَنّا، وخُذْ لنا منه، ليكفّ عنا، ونكفّ عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب، فجاءه فقال: يا ابن أخي: هؤلاء أشرافُ قومك، قد اجتمعوا لك، ليُعْطوك، وليأخذوا منك. قال: فقال رسول الله ﷺ: نعم، كلمة واحدة تُعْطُونِها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم. قال: فقال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات، قال: تقولون: لا إله إلا الله، وتُخْلَعون ما تعبدون من دونه. قال: فصَفَّقُوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا مُحَمَّدُ أن تجعل الآلهةَ إِلَهًا واحدًا. إنَّ أَمْرَكَ لَعَجَب: ثم قال بعضهم لبعض: إنَّه والله ما هذا الرجل بِمُعْطِيكُمْ شيئًا ممّا تُريدون فانطلقوا، وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه. قال: ثم تفرّقوا.

الرسول يرجو أن يسلم أبو طالب

فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ: والله يا ابن أخي، ما رأيتُكَ سَأَلْتَهُمْ شَطَطًا؛ فلما قالها أبو طالب طَمِعَ رسولُ الله - ﷺ - في إسلامه، فجعل يقول له: أيّ عَمٍّ، فأنتَ فقلّها، أَسْتَحِلُّ لك بها الشَّفاعةَ يومَ القيامة. قال: فلما رأى حرصَ رسول الله ﷺ، قال:

وفاة أبي طالب ووصيته

ذكر ابن إسحاق وفاة أبي طالب إلى آخر القصة، وفيها قال العباس: والله لقد قال أخي

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٥٥٣/١) من طريق المصنف به.

يا ابن أخي، والله لولا مخافة السُّبَّة عليك، وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظنَّ قُرَيْشُ
إني قتلها جَزَعًا من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأُسْرِكَ بها. قال: فلما تقارب من أبي
طالب الموت، قال: نظر العباسُ إليه يحرك شفثيه، قال: فأصغى إليه بأذنه، قال: فقال
يا ابن أخي، والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها، قال: فقال رسول الله ﷺ:
لم أسمع.

الكلمة التي أمرته بها، فقال رسول الله - ﷺ -: لم أسمع^(١).

قال المؤلف: شهادة العباس لأبي طالب لو أداها بعدما أسلم، لكانت مقبولة، ولم يرد
بقوله لم أسمع، لأن الشاهد العدل إذا قالت: سمعت، وقال من هو أعدل منه: لم أسمع
أخذ بقول من أثبت السماع، لأن عدم السماع يحتمل أسبابًا منعت الشاهد من السماع، ولكن
العباس شهد بذلك قبل أن يُسَلِّمَ مع أن الصحيح من الأثر، قد أثبت لأبي طالب الوفاة على
الكفر والشرك وأثبت نزول هذه الآية فيه: ﴿ما كان لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا
لِلْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) [التوبة: ١١٣] وثبت في الصحيح أيضًا أن العباس قال لرسول الله ﷺ: إن
أبا طالب كان يَحُوطُك وينصرُك، ويغضب لك، فهل ينفعه ذلك؟ قال: «نعم وجدته في
عَمَرَاتٍ من النار، فأخرجته إلى ضَخْضَاح»^(٣) وفي الصحيح أيضًا من طريق أبي سعيد، أنه
- عليه السلام - قال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضَخْضَاح من النار يبلغ
كعبيه يغلي منه دماغه وفي رواية أخرى: كما يغلي المِرْجَلُ بِالْقُمُومِ، وهي مُشْكِلَةٌ، وقال
بعض أهل العلم: الْقُمُومُ: هو البُسْرُ الأخضر يُطْبَخُ في المِرْجَلِ استعجالاً لنضجه، يفعل
ذلك أهل الحاجة، وفي رواية يونس عن ابن إسحق زيادة، وهي أنه قال: يغلي منها دماغه
حتى يسيل على قدميه، ومن باب النظر في حكمة الله، ومشكلة الجزاء للعمل أن أبا طالب
كان مع رسول الله بجملته مُتَحَرِّيًا له، إلا أنه مثبت لقدميه على مِلَّة عبد المطلب، حتى قال
عند الموت: أنا على مِلَّة عبد المطلب، فسُلِّطَ العذابُ على قدميه خاصَّةً لتثبيته إياهما على
ملة آبائه، ثبتنا الله على الصراط المستقيم.

وذكر قول الله تعالى: ﴿ما كان لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾
[التوبة: ١٣] وقد استغفر عليه السلام يوم أُحُدٍ فقال: اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون،

(١) انظر البداية (١٢٣/٣).

(٢) انظر خبر وفاة أبي طالب على الكفر والشرك - والباذ بالله تعالى - في صحيح البخاري الحديث رقم
(٤٦٧٥). وفي الفتح (٣٤١/٨) وطبقات ابن سعد (١٢٢/١) المنتظم (٧/٣).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٩٥).

وذلك حين جَرَحَ المشركون وجهه وَقَتَلُوا عَمَّهُ. وكثيراً من أصحابه، ولا يصح أن تكون الآية نزلت في عمه ناسخة لاستغفاره يوم أُحُدٍ، لأنَّ وفاة عمه كانت قبل ذلك بمكة، ولا ينسخ المتقدم المتأخّر، وقد أُجيب عن هذا السؤال بأجوبة: أن قيل: استغفاره لقومه مشروط بتوبتهم من الشرك، كأنه أراد الدعاء لهم بالتوبة حتى يغفر لهم ويُقَوِّي هذا القول رواية من روى: «اللهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون»^(١)، وقد ذكرها ابن إسحاق، رواها عنه بعض رواة الكتاب بهذا اللفظ، وقيل. مغفرة تُصَرَّف عنهم عقوبة الدنيا في المَسْخِ والخَسْفِ، ونحو ذلك، ووجه ثالث، وهو أن تكون الآية تأخر نزولها، فنزلت بالمدينة ناسخة للاستغفار للمشرَكين، فيكون سبب نزولها متقدماً، ونزولها متأخراً لا سيما، وهي في سورة براءة وبراءة، من آخر ما نزل، فتكون على هذا ناسخة للاستغفارين جميعاً، وفي الصحيح أن رسول الله - ﷺ - دخل على أبي طالب عند موته، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: يا عَمُّ قُلْ: لا إلهَ إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال له أبو جهل وابن أبي أمية: أترغب عن مِلَّة عبد المطلب، فقال أنا على ملة عبد المطلب، وظاهر الحديث يقتضي أن عبد المطلب مات على الشرك، ووجدت في بعض كتب المسعودي اختلافاً في عبد المطلب، وأنه قد قال فيه: مات مسلماً لما رأى من الدلائل على نبوة محمد - ﷺ - وعلم أنه لا يبعث إلا بالوحيد^(٢)، فالله أعلم، غير أن في مسند البزار، وفي كتاب النسوي من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله - ﷺ - قال لفاطمة، وقد عَزَّت قومًا من الأنصار عن مِيتهم: لعلك بلغت معهم الكُذْيَ، ويروى الكرى بالراء، يعني: القبور، فقالت: لا، فقال: لو كنت معهم الكُذْيَ أو كما قال، ما رأيت الجنة، حتى يراها جدُّ أبيك^(٣)، وقد أخرج أبو داود، ولم يذكر فيه حتى يدخلها جد أبيك، وكذلك لم يذكر فيه: ما دخلت الجنة، وفي قوله: جد أبيك، ولم يقل: جدك يعني: أباه توطئة للحديث الضعيف الذي قدمنا ذكره أن الله أحيا أمه وأباه، وآمنا به، فالله أعلم، ويحتمل أن يكون أراد تخويفها بقوله: حتى يدخلها جد أبيك، فتوهم أنه الجد الكافر، ومن جدوده عليه السلام: إسماعيل وإبراهيم، لأن قوله عليه السلام حق، وبلوغها معهم الكُذْيَ لا يوجب خلوداً في النار، فهذا من لطيف الكناية فافهمه، وحكي عن هشام بن السائب أو ابنه أنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جمع إليه وجوه قريش، فأوصاهم، فقال: يا مَعْشَرَ قريش، أنتم صَفْوَةُ الله من

(١) انظر مناهل الصفا (١٦) والسيوطي في الدر (٢/٢٩٨) (٣/٩٤).

(٢) لا صحة لهذا وقد تقدم التنبيه عليه غير مرة.

(٣) أخرجه أبو داود (٣١٢٣) بتحقيقي دون الزيادة. وأخرجه كاملاً النسائي (٤/٢٧) وإسناده ضعيف.

ما نزل فيمن طلبوا العهد على الرسول عند أبي طالب

قال: وأنزل الله تعالى في الرُّهط الذين كانوا اجتمعوا إليه، وقال لهم ما قال، وردّوا عليه ما ردّوا: ﴿صَ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ١، ٢].. إلى قوله تعالى: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ وانطلقَ المَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي

خلقه، وقلْبُ العرب، فيكم السيد المطاع، وفيكم المقدم الشجاع، والواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيبًا إلا أحرزتموه، ولا شرفًا إلا أدركتموه، فلکم بذلکم على الناس الفضيلة ولهم به إليکم الوسيلة، والناس لکم حِزْب، وعلى حربکم أَلْب، وإني أوصيکم بتعظيم هذه النَّبِيَّة^(١)، فإن فيها مَرْضَاةٌ للرب، وقوامًا للمعاش، وَثَبَاتًا لِلْوَطَاءِ، صَلَوا أرحامکم ولا تقطعوها، فإن في صلة الرحم مَنَسَاةٌ في الأجل، وسِعةٌ في العدد، واطرکوا البَغْيَ والعُقُوقَ، ففيهما هَلَكَةٌ القرون قبلکم، أجبوا الداعي، وأعطوا السائل، فإن فيهما شرف الحياة والممات، عليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، فإن فيهما محبةٌ في الخاص، ومَكْرَمَةٌ في العام، وإني أوصيکم بمحمد خيرًا، فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتکم به، وقد جاء بأمرٍ قبله الجَنَانُ، وأنكره اللسان مخافةَ الشَّنَانِ، وأيم الله كأنني أنظر إلى صَعَالِيك العرب، وأهل البر في الأطراف والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته وعظموا أمره، فخاض بهم غَمَرَاتِ الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنانًا ودورها خرابًا، وضعفاؤها أربابًا^(٢)، وإذا أعظمهم عليه، أخوجهم إليه، وأبعدهم منه، أخطأهم عنده، قد مَحَضَّتْهُ العربُ وِدَادَهَا، وَأَصْفَتْ لَهُ فُؤَادَهَا، وأعطته قيادها، دونکم يا معشرَ قريش ابن أبيکم، كونوا له ولاةً ولحزبه حُمَاةً، والله لا يسلك أحد منکم سبيلَه إلا رَشَدَ، ولا يأخذ أحدٌ بهْذِهِ إلا سَعِدَ، ولو كان لنفسي مدة، ولأجلي تأخير، لَكَفَفْتُ عَنْهُ الْهَزَاهِزَ^(٣)، ولدافعْتُ عنه الدَّوَاهِي، ثم هلك.

تفسير المشي في سورة ص

فصل: وذكر ما أنزل الله تعالى في قولهم: ﴿أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ وذكر بعض أهل التفسير أن قولهم: امْشُوا من المَشَاءِ، لا من المَشْيِ والمَشَاءِ: ثَمَاءُ المال وزيادته،

(١) يعني الكعبة.

(٢) أربابًا: أي مُطاعين.

(٣) الهزاهز: الفتن.

المِلَّةُ الْآخِرَةُ﴾ يعنون النصارى، لقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ - ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: ٧] ثم هلك أبو طالب.

يقال مَشَى الرجلُ، وأَمْسَى: إذا نَمَا ماله قال الشاعر:

وَكُلُّ قَتَى وَإِنْ أَمْسَى وَأَثَرَى سَتَخْلِجُهُ عَنِ الدُّنْيَا مَنُونٌ

وقال الراجز:

وَالشَّاءُ لَا تَمْشِي عَلَى الْهَمَلِ

أي: لا تَكْثُرُ، وَالْهَمَلُ: الذئب، وقاله الخطابي في معنى الآية، كأنهم أرادوا أن الْمَشَاءَ والبركة في صبرهم على آلهتهم، وَحَمَلُهَا عَلَى الْمَشْيِ أظهر في اللغة، والله أعلم.

تتابع المصائب بموت خديجة:

وذكر تتابع المصائب على رسول الله - ﷺ - بموت خديجة ثم بموت عمه، وذكر الزبير في حديث أسنده أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة، وهي في الموت، فقال: تكرهين ما أرى منك يا خديجة، وقد يجعل الله في الكره خيرًا شعرت أن الله قد أعلمني أنه سَيُرْزَوْنِي معك في الجنة مريم ابنة عمران، وكُلْتُوم أخت موسى، وآسية امرأة فرعون، فقالت: الله أعلمك بهذا يا رسول الله؟ فقال: نعم، فقالت: بالرفاء والبنين، وذكر أيضًا في الحديث أن رسول الله - ﷺ - أطعم خديجة من عَنَبِ الجنة^(١).

(١) «ضعيف». أخرجه ابن الجوزي في المنتظم (١٩/٣).

الرسول يسعى إلى الطائف

قال ابن إسحاق: ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله - ﷺ - من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمّه أبي طالب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف، يلتمس النصرة من ثقيف، والمّنة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عزّ وجلّ، فخرج إليهم وحده.

موقف ثقيف من الرسول ﷺ:

قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، عمّد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشrafهم، وهم إخوة ثلاثة: عبّد يالئيل بن عمرو بن عُمير، ومسعود بن عمرو بن عُمير، وحبيب بن عمرو بن عُمير بن عوف بن عُقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جُمح، فجلس إليهم رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرتة على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه؛

خروج النبي ﷺ إلى الطائف^(١)

وسنذكر السبب في تسميتها بالطائف، وأن الدمون!! رجل من الصّدف من حَضْرَمَوْتَ نزلها، فقال لأهلها: ألا أبني لكم حائطًا يطيف ببلدكم فبناه، فسميت: الطائف، وقيل: غير ذلك مما سنذكره.

(١) الطائف: ناحية ذات نخل وأعناب ومزارع وأودية وهي على ظهر جبل غزوان. وانظر الخبر في الكامل (٦٠٧/١) زاد المعاد (٣١/٣) المنتظم (١٣/٣) طبقات ابن سعد (١/٢١٠/٢١١) تاريخ الطبري (١/٥٥٤).

فقال له أحدهم: هو يَمُرُّ ثيابَ الكعبة إن كان الله أرسلك؛ وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يُرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً. لئن كنتَ رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أرُدَّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك. فقام رسولُ الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم - فيما ذكر لي -: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني، وكره رسولُ الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه، فيؤذّرهم ذلك عليه. قال ابن هشام: قال عبيد بن الأبرص:

ولقد أتاني عن تميم أنهم ذُيروا لقتلى عامر وتعصّبوا

فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلى حائط لعُتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعَمِدَ إلى ظلِّ حَبَلَةٍ من عنب، فجلس فيه. وابنا ربيعة ينظران

وقوله: فيؤذّرهما عليه، قد فسرهُ ابن هشام، وأنشد:

ذُيروا لقتلى عامرٍ وتعصّبوا

وفي الحديث لما نهى رسولُ الله ﷺ عن ضرب النساء قال: ذئير النساء على أزواجهن^(١)، وفسره أبو عبيد بالشُّوز على الأزواج، وأنشد البيت الذي أنشده ابن هشام، ومعنى كلامهما واحد.

وذكر ما لقي من أشراف ثقيف، وذكر موسى بن عقبة زيادةً في الحديث حين أغرّوا به سفهاءهم، قال: وكان يمشي بين سَمَاطِينَ منهم، فكلّما نَقَلُوا قدماً، رَجَمُوا عَرَاقِيْبَهُ بالحجارة، حتى اختضب نعلاه بالدماء، وذكر التَّيْمِيُّ كما ذكر ابن عقبة، وزاد قال: كان إذا أذْلَقْتَهُ الحجارة، قعد إلى الأرض، فيأخذون بِعَضِيدِهِ، فيقيمونه فإذا مشى رَجَمَوْهُ، وهم يضحكون حتى انتهى إلى الموضع الذي ذكره ابن إسحق من حائط عُتْبَةَ وشَيْبَةَ.

قال ابن إسحق: فجلس إلى ظلِّ حَبَلَةٍ، والحَبَلَةُ الكرْزَةُ، اشتق اسمُها من الحَبَلِ، لأنها تحمل بالعنب، ولذلك فتح حَمَلَ الشجرة والنخلة، فقيل: حَمَلَ بفتح الحاء تشبيهاً بحَمَلِ المرأة، وقد يقال فيه: حَمَلَ بالكسر تشبيهاً بالحَمَلِ الذي على الظهر، ومن قال في الكرمة حَبَلَةٌ بسكون الباء، فليس بالمعروف، وقد قال أبو الحسن بن كيسان في «نَهْيِ النبي ﷺ عن بَيْعِ حَبَلِ الحَبَلَةِ»^(٢)، إنه بيع العنب قبل أن يَطْيَبَ، كما جاء في الحديث

(١) أخرجه ابن ماجه (١٩٨٥) وأبو داود (٢١٤٦) بتحقيقي.

(٢) أخرجه الترمذي (١٢٢٩) وابن ماجه (٢١٩٧) وأحمد (٥٦/١).

إليه، وَيَزَيَان ما لقي من سُفهاء أهل الطائف، وقد لقي رسولُ الله ﷺ - فيما ذُكر لي - المرأة التي من بني جُمَح، فقال لها: ماذا لَقِينَا من أحمائك؟^(١).

الآخر من نهيه عن بيع التمر قبل أن يبدو صلاحه، وهو قول غريب لم يذهب إليه أحد في تأويل الحديث، وقد قال عمر بن الخطاب في الأرضين التي افتتحت في زمانه - وقد قيل له: قسمها على الذين افتتحوها - فقال: والله لأدعيتها حتى يجاهد بها حَبَل الحَبَلَة، يريد: أولادها في البطون. ذكره أبو عبيد في كتاب الأموال، والقول الذي ذكره أبو الحسن في حَبَل الحَبَلَة وقع في كتاب الألفاظ ليعقوب وإنما أشكل عليه وعلى غيره دخول الهاء في الحَبَلَة، حتى قالوا فيه أقوالاً كلها هباء، فمنهم من قال: إنما قال الحَبَلَة لأنها بهيمة أو جَنينة، ومنهم من قال: دخلت للجماعة، ومنهم من قال: للمبالغة، وهذا كله ينعكس عليهم بقوله: حَبَل الحَبَلَة، فإنه لم تدخل التاء إلا في أحد اللفظين دون الثاني، وتبطل أيضاً على من قال أراد: معنى البهيمة بحديث عمر المتقدم، وإنما النكتة في ذلك أن الحَبَل ما دام حَبَلًا لا يدرى: أذكر هو أم أنثى، لم يُسمَّ حَبَلًا، فإذا كانت أنثى، وبلغت حد الحمل، فحبلت فذاك الحبل هو الذي نهى عن بيعه، والأول قد علمت أنوثته بعد الولادة، فعبر عنه بالحبل، وصار معنى الكلام أنه نهى عن بيع حَبَل الجَنينة الي كانت حَبَلًا لا يعرف ما هي، ثم عرف بعد الوضع، وكذلك في الآدميين، فإذا لا يقال لها: حبلَة إلا بعد المعرفة بأنها أنثى، وعند ذكر الحبل الثاني لأن هذه الأنثى قبل أن تحبل، وهي صغيرة: رِخْلَى، وتسمى أيضاً حائلاً وأشباه ذلك، وقد زال عنها اسم الحبل فإذا حبلت، وذكر حبلها وازدوج ذكره مع الحالة الأولى التي كانت فيها حَبَلًا فُرق بين اللفظين بقاء التأنيث، وخص اللفظ الذي هو عبارة عن الأنثى بالتاء دون اللفظ الذي لا يُدرى ما هو: أذكر أم أنثى، وقد كان المعنى قريباً والمأخذ سهلاً لا يحتاج إلى هذه الإطالة لولا ما قدمناه من تخليطهم في تأويل هذا الكلام الفصيح البليغ الذي لا يَقْدُر قَدْرَه في البلاغة إلا عالم بجوهر الكلام.

(١) تقدم ذكر ورود الخبر. وقد أخرجه المصنف هنا عن محمد بن كعب مرسلًا. والقصة صحيحة دون ذكر الدعاء الآتي، فقد ذكره المصنف رحمه الله تعالى بلا سند فقال كما سيأتي: «فيما ذكر لي». وقد أورد الحديث [الدعاء] الهيثمي في المجمع (٣٥/٦) من حديث عبد الله بن جعفر وقال: رواه الطبراني وفيه ابن إسحق وهو مدلس وبقية رجاله ثقات. وهو كما قال رحمه الله.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: فيما ذُكر لي: «اللهم إليك أشكو ضَعْف قُوَّتِي، وقِلَّة حِيلَتِي، وهَوَانِي على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت

نور الله ووجهه^(١)»:

فصل: وذكر دعاءه - عليه السلام - عند الشدة، وقوله: اللهم إني أشكو إليك ضَعْف قُوَّتِي وقِلَّة حِيلَتِي إلى آخر الدعاء، وفيه: أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أشرقت به الظلمات، وصَلَح عليه أمرُ الدنيا والآخرة، ويُسأل عن النور هنا، ومعنى الوجه، وإشراق الظلمات، أما الْوَجْه إذا جاء ذكره في الكتاب والسنة، فهو ينقسم في الذكر إلى موطنين: موطن تقرب واسترضاء بعمل، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وكقوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ فالمطلوب في هذا الموطن: رضاه وقبوله للعمل، وإقباله على العبد العامل، وأصله أن من رضي عنك، أقبل عليك، ومن غضب عليك أعرض عنك، ولم يُرِكَ وَجْهَهُ، فأفاد قوله: بوجهك ههنا معنى الرضى والقبول، والإقبال، وليس بصلة في الكلام كما قال أبو عبيدة لأن قوله ذلك هُراء من القول، ومعنى الصلة عنده: أنها كلمة لا تفيد إلا تأكيداً للكلام، وهذا قول من غَلِظَ طَبْعُهُ وَبَعُدَ بِالْعُجْمَةِ عن فهم البلاغة قلبه وكذلك قال هو ومن قَلَّدَهُ في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي يبقى رَبُّكَ، وكُلُّ شيء هالك إلا وجهه، أي: إلا إِيَّاه، فعلى هذا قد خلا ذكر، الوجه من حِكْمَةٍ، وكيف تخلو كلمة منه من الحكمة، وهو الكتاب الحكيم، ولكن هذا هو الموطن الثاني من مواطن ذكر الوجه، والمعنى به ما ظهر إلى القلوب والبصائر من أوصاف جلاله ومجده، والْوَجْه لغة ما ظهر من

(١) الوجه صفة من صفات ربنا الرحمن جلّ وعلا، نؤمن أن الله تعالى وجهها كما صرح القرآن الكريم، وأن له تعالى يد، والله تعالى قدم وساق وأصابع، نؤمن بكل ما صرح به القرآن وما جاءت به السُّنة «الصحيحة» مع إيماننا بأنه تعالى «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»، ومن فسر وتأول اليد وقال هي القدرة، فقد كذب القرآن واتهم ربه إما بالجهل بنفسه تعالى، أو بالجهل بلغة العرب فلم يعلم الفرق بين اليد والقدرة، أو أنه تعالى يريد أن يضلّ عباده فيقول لهم ويأمرهم أن يؤمنوا بما لا يريد منهم، فهو تعالى يريد أن يضلّهم حينما قال تعالى في كتابه أن اليهود قالوا: ﴿يد الله مغلولة﴾ ردّ تعالى عليهم قولهم فقال تعالى: ﴿بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾، وأمر عباده أن يؤمنوا أن له يد مبسوطة، ويسألهم يوم القيامة عن هذا ثم يقول لهم: كلام لم أرد منكم أن تؤمنوا أن لي «يد» بل هي «القدرة» - سبحانه وتعالى علواً كبيراً - أو أن التأول يتهم ربه والله ومعبوده بكل هذا. ثم تقول لمن يقول إن اليد معناه القدرة، وأن الوجه معناه كذا، وأن الضحك والغضب والفرح معناه: كذا وكذا، تقول لهم: «أنتم أعلم أم الله». إنه تعالى هو الذي قال عن نفسه هذا في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ. والنور: اسم من أسماء الله تعالى قاله ابن القيم وغيره. وقد جمعت أقوالهم في كتابي «القول الأسنى في تفسير أسماء الله الحسنى» فانظره لزماً.

رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكَلَّمَنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمَنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي، وَلَكِنْ عَافَيْتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ

الشيء معقولاً كان أو محسوساً، تقول: هذا وجهُ المسألة، ووجهُ الحديث، أي: الظاهر إلى رأيك منه، وكذلك الثوب ما ظهر إلى بصرِكَ منه، والبصائر لا تحيط بأوصاف جلاله، وما يظهر لها من ذلك أقل مما يغيب عنها، وهو الظاهر والباطن - تعالى وجل - وكذلك في الجنة نظر أهلها إلى وجهه سبحانه إنما هو نظر إلى ما يَرَوْنَ من ظاهر جلاله إليهم عند تجليه، ورفع الحجاب دونهم، وما لا يدركون من ذلك الجلال أكثر مما أدركوا.

وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنْ بَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] لما كانت السموات والأرض، قد أظهرت من قدرته وسلطانه، ما أظهرت أخير تعالى أن فناءها لا يُغيّر ما علم من سلطانه وظهر إلى البصائر من جلاله، فقد كان ذلك الجلال قبل أن يخلّقها، وهو باقٍ بعد فنائها كما كان في القِدَم، فهو ذو الجلال والإكرام، قال الحسن: معناه: تَجَلَّلَ بالبهاء وأكرم من شاء بالنظر إلى وجهه أما الأشعري^(١) فذهب في معنى الوجه إلى ما ذهب فيه من معنى العين واليد، وأنها صِفَاتُ اللَّهِ تعالى لم تُعلم من جهة العقول، ولا من جهة الشرع المنقول، وهذه عُجْمَةٌ أَيْضًا فإنه نزل بلسان عربي مبين، فقد فهمته العربُ لما نزل بلسانها، وليس في لغتها أن الوجهَ صِفَةٌ ولا إشكال على المؤمن منهم، ولا على الكافر في معنى هذه الآي التي احتجج آخر الزمان إلى الكلام فيه مع العجمان، لأن المؤمن لم يخش على عقيدته شكًا ولا تشبيهًا، فلم يستفسر أحدٌ منهم رسولَ الله عليه السلام، ولا سألَه عن هذه الآية التي هي اليوم مشكلة عند عوام الناس، ولا الكافر في ذلك الزمان لم يتعلق بها في معرض المناقضة والمجادلة، كما فعلوا في قوله تعالى: ﴿إِنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ولا قال أحدٌ منهم: يزعم محمد أن الله ما يشبهه شيء من خلقه، ثُمَّ يُثَبِّتْ له وجهًا ويدين إلى غير ذلك فدل على أنهم لم يَرَوْا في الآية إشكالاً، وتلقَّوا معانيها على غير التشبيه، وعرفوا من سَمَانَةِ الكلام، ومَلَاحة الاستعارة أنه مُعْجِزٌ، فلم يَتَعَاطَوْا له مُعَارَضَةً، ولا تَوَهَّمُوا فيه مُنَاقَضَةً، وقد أَمْلَيْنَا في معنى اليمين والعين مسألةً بديعةً جدًّا، فلتنظر هنالك.

وأما النورُ فعبرة عن الظهور وانكشاف الحقائق الإلهية، وبه أشرقت الظلمات، أي أشرقت محالها وهي القلوب التي كانت فيها ظلمات الجهالة والشكوك، فاستنارت القلوب

(١) أتباع أبا الحسن الأشعري.

الظلمات، وصَلَح عليه أمرُ الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العُتْبَى حتى تَرْضَى، ولا حول ولا قوّة إلا بك».

قال: فلما رآه ابنا ربيعة، عُتْبَةُ وشَيْبَةُ، وما لَقِي، تحرّكت له رَحْمُهُما فَدَعَوْا غلامًا لهما نَصْرانيًا، يقال له عَدَّاس فقالا له: خذ قِطْفًا من العنب، فضغفه في هذا الطُّبْق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه. ففعل عَدَّاسُ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله - ﷺ - ثم قال له: كُلْ، فلما وضع رسولُ الله ﷺ فيه يده، قال: «باسم الله»، ثم أكل، فنظر عَدَّاسُ في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلامَ ما يقوله أهلُ هذه البلاد، فقال له رسولُ الله ﷺ: «وَمِنْ أَهْلِ أَيْ الْبِلَادِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ، وما دينك؟» قال: نَصْراني، وأنا رجل من أهل نَيْنَوَى. فقال رسولُ الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟» فقال له عَدَّاسُ: وما يُدْرِك ما يونس بن متى؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «ذاك أخي، كان نبيا وأنا نبي»، فأكَبَّ عَدَّاسُ على رسولِ الله ﷺ يَقْبَلُ رَأْسَهُ وَيَدِيَهُ وَقَدَمِيهِ.

بنور الله، وقد قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي: مَثَلُ نُورِهِ فِي قَلْبِ فِي الْمُؤْمِنِ كَمَشْكَاةٍ، فهو إذا نور الإيمان والمعرفة: الْمُجَلِّي لكل ظلمةٍ وشك، قال كعب: الْمِشْكَاةُ مَثَلٌ لِفَهْمِهِ، والمصباحُ مَثَلٌ لِّلْسَانِهِ، والزجاجة: مَثَلٌ لِّصَدْرِهِ، أو لقلبه أي: قلب محمد ﷺ، وقال: أعوذ بنور وجهك، ولو قال: بنورك لحسن، ولكن توسل إليه بما أودع قلبه من نوره، فتوسّل إلى نعمته بنعمته وإلى فضله ورحمته بفضله ورحمته، وقد تكون الظلمات هاهنا أيضًا الظلمات المحسوسة وإشراقها جلالها على خالقها، وكذلك الأنوار المحسوسة، الكَلُّ دالٌّ عليه فهو نور النور، أي: مظهره مُنَوِّرُ الظلمات، أي جاعلها نورًا في حكم الدلالة عليه سبحانه وتعالى.

خبر عداس:

فصل: وذكر خبر عَدَّاسِ غلام عُتْبَةَ وشَيْبَةَ ابني ربيعة حين جاء بالْقِطْفِ من عندهما إلى آخر القصة، وفيه قبولُ هدية المشرك، وأن لا يَتَوَرَّعَ عن طعامه، وسيأتي استقصاء ذلك إن شاء الله تعالى، وزاد التَّيْمِيُّ فيها أن عَدَّاسًا حين سمعه يذكر يونس بن متى قال: والله لقد خَرَجْتُ منها يعني: نَيْنَوَى، وما فيها عَشْرَةُ يعرفون: ما مَتَّى، فمن أين عرفت أنت مَتَّى، وأنت أُمِّي، وفي أمة أُمِّيَّة؟ فقال رسولُ الله - ﷺ -: «هو أخي، كان نبيا، وأنا نبي»، وذكروا أيضًا أن عَدَّاسًا لما أراد سيده الخروج إلى بدر أمراه بالخروج معهما فقال لهما: أقتال ذلك الرجل الذي رأيته بحائطكما تريدان، والله ما تقوم له الجبال، فقالا له: وَيَحْكُ يَا عَدَّاسُ: قد

قال: يقول ابنا ربعة أحدهما لصاحبه: أَمَا غَلَامُكَ فَقَدْ أَفْسَدَهُ عَلَيْكَ. فلما جاءهما عَدَّاس، قالَا له: ويلك يا عَدَّاس! ما لك تَقْبُلُ رَأْسَ هَذَا الرَّجُلِ وَيَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يَعْلَمُهُ إِلَّا نَبِيٌّ، قالَا له: ويحك يا عَدَّاس، لَا يَضُرُّكَ عَنْ دِينِكَ، فَإِنَّ دِينَكَ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ.

أمر جن نصيبين

قال: ثم إن رسول الله - ﷺ - انصرف من الطائف راجعًا إلى مكة، حين يئس من خَيْرِ ثَقِيف، حتى إذا كان بَنَخْلَةَ قام من جَوْفِ اللَّيْلِ يَصْلِي، فمرَّ به النَّفَرُ مِنَ الْجَنِّ الَّذِينَ

سَخَّرَ بِلِسَانِهِ، وعندما لقي رسولُ الله - ﷺ - من أهل الطائف، ما لقي، ودعا بالدعاء المتقدم، نزل عليه جبريلُ ومعه مَلَكُ الْجِبَالِ كما رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُوسُفَ، عَنْ يُونُسَ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ - ﷺ - حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ عَلَيْكَ مِنْ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ، فَلَمْ يَجِبْنِي إِلَى مَا أُرِدْتُ، فَاَنْطَلَقْتُ عَلَى وَجْهِي، وَأَنَا مَهْمُومٌ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْيَةِ الثَّعَالِبِ»^(١)، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَمَتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا زِدُوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكُ الْجِبَالِ، لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ ذَلِكَ لَكَ، إِنْ شِئْتَ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يَخْرُجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^(٢). هَكَذَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ: ابْنُ عَبْدِ كَلَالٍ، وَهُوَ خِلَافُ مَا نَسَبَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ.

جن نصيبين^(٣)

فصل: وذكر حديث وفد جن نصيبين، وما أنزل الله فيهم، وقد أملينا أول المبعثين من هذا الكتاب طرفًا من أخبارهم وبيننا هنالك أسماءهم، ونصيبين مدينة بالشام أثنى عليها رسولُ

(١) قرن الثعالب: هي ميقات أهل نجد تلقاء مكة.

(٢) «صحيح». أخرجه البخاري (٢٢٥/٦) ومسلم في الجهاد. حديث رقم (١٧٩٥).

(٣) ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره (١٦٢/٤) أن جن نصيبين واستماعهم للقرآن كان من أول البعثة وليس بعد فقوله - ﷺ - من الطائف. وانظر فتح الباري (٥١٤/٨).

ذكرهم الله تبارك وتعالى، وهم - فيما ذكر لي - سبعة نفر من جنّ أهل نصيبين فاستمعوا له، فلما قرع من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا. فقض الله خبرهم عليه ﷺ، قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيُجِزُّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة.

الله ﷺ. روي أنه قال: «رفعت إلي نصيبين حتى رأيتهما فدعوت الله أن يغذّب نهرهما، وينضّر شجرهما، ويطيب ثمرهما» أو قال: «ويكثر ثمرهما»، وتقدم في أسمائهم ما ذكره، ابن دُرَيْد. قال: هم منشي وماشي وشاصر وماصر والأحقب، ولم يزد على تسمية هؤلاء، وقد ذكرنا تمام أسمائهم فيما تقدم، وفي الصحيح أن الذي أذن رسول الله - ﷺ - بالجن ليلة الجن شجرة، وأنهم سألوه الزاد، فقال: «كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عليه يقع في يد أحدهم. أوفر ما يكون لحمًا، وكل بغير علفٍ لدوابهم»^(١). زاد ابن سلام في تفسيره أن البعير يعود خضيرًا لدوابهم، ثم نهى رسول الله - ﷺ - أن يستنجى بالعظم والرؤث، وقال: «إنه زاد إخوانكم من الجن»، ولفظ الحديث في كتاب مسلم كما قدمناه: «كل عظم ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عليه»^(٢)، ولفظه في كتاب أبي داود: «كل عظم لم يُذكر اسم الله عليه»، وأكثر الأحاديث تدل على معنى رواية أبي داود، وقال بعض العلماء رواية مُسلم في الجن المؤمنين، والرواية الأخرى في حق الشياطين منهم، وهذا قول صحيح تعضده الأحاديث إلا أنا نكره الإطالة، وفي هذا ردٌّ على من زعم أن الجن لا يأكل ولا يشرب، وتأولوا قوله - عليه السلام - «إن الشيطان يأكل بِشِمَالِهِ، ويشرب بِشِمَالِهِ»^(٣) على غير ظاهره، وهم ثلاثة أصناف كما جاء في حديث آخر: صِنْفٌ على صُورِ الْحَيَّاتِ، وصِنْفٌ على صُورِ الْكِلَابِ سُودٌ وصِنْفٌ رِيحٌ طَيَّارَةٌ أو قال: هَفَافَةٌ ذَوُورٌ أَجْنَحَةٌ، وزاد بعض الرواة في الحديث: وصِنْفٌ يَخْلُونُ وَيَطْعَنُونَ^(٤)، وهم السَّعَالَى، ولعل هذا الصنف الطيّار هو الذي لا يأكل، ولا يشرب إن صح القول المتقدم والله أعلم. وروينا في حديث سمعته يقرأ على الشيخ الحافظ أبي بكر بن العربي بسنده إلى جابر بن عبد الله، قال: بينا أنا مع رسول الله ﷺ نمشي إذ جاءت حَيَّةٌ، فقامت إلى جنبه، وأدنت فاهًا من أذنه، وكانت تناجيه، أو نحو هذا، فقال النبي ﷺ: «نعم» فانصرفت، قال جابر: فسألته، فأخبرني أنه رجل من الجن، وأنه قال له: مُزْ أَمَتِكَ لا يستنجوا بالرؤث، ولا بالرُثْمَةِ، فإن الله جعل لنا في ذلك رزقًا.

(١) أخرجه البيهقي (١٠٩/١١/٢) وانظر البخاري في مناقب الأنصار (٣٢).

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١٥٠) والترمذي وأحمد (٣٩/١).

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٦/١٠٥). (٤) انظر أحمد (٢١٨/١).

عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل

قال ابن إسحاق: ثم قدم رسول الله ﷺ مكة، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه، إلا قليلاً مُستضعفين، ممن آمن به. فكان رسول الله ﷺ يَعرض نفسه في المَواسم، إذا كانت، على قبائل العرب يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مُرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به.

قال ابن إسحاق: فحدثني من أصحابنا، من لا أتهم، عن زيد بن أسلم عن ربيعة بن عباد الديلي أو من حدثه أبو الزناد عنه - قال ابن هشام: ربيعة بن عباد.

قال ابن إسحاق: وحدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس، قال: سمعت ربيعة بن عباد، يحدثه أبي، قال: إني لغلام شاب مع أبي يَمْنَى، ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول: «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن

ذكر عرض نفسه على القبائل (١)

فصل: وذكر عَرَضَهُ نَفْسَهُ - ﷺ - على القبائل، ليؤمنوا به، ولينصروه قبيلةً قبيلةً، فذكر بني حنيفة، واسم حنيفة: أثال بن لُجَيْم، ولجيم: تصغير اللُجَم، وهي دَوَيْبَةُ، قال قُطْرُب، وأنشد:

لها ذَنْبٌ مِثْلُ ذَنْبِ الْعَرُوسِ إِلَى سَبَّةٍ مِثْلِ جَحْرِ اللَّجَمِ

ابن صُغْب بن علي بن بكر بن وائل، وسمى حنيفة لَحَنَفٍ كان في رجليه، وقيل: بل حنيفة أمهم، وهي بنت كاهل بن أسد عُرِفُوا بها، وهم أهل اليمامة، وأصحاب مُسَيْلَمَةَ الكَذَّاب، وقد أَمَلِينَا في أول الكتاب سبب نزولهم اليمامة وأول من نزلها منهم.

وذكر بَيْحَرَةُ بن فراس العامري، وقوله لرسول الله ﷺ: أَفْتُهُدِفُ نُحَوِّرُنَا، للعرب دونك. نُهْدِفُ أَي: نجعلها هَدَفًا لسهامهم، والهُدَفُ: الغرض.

وذكر قول الشيخ (٢): هل لها من تَلَاَفٍ، أَي: تَدَارُكٍ، وهو تَفَاعُلٌ من: تَلَاَيْتُهُمْ، وهل لذنابها من مطلب: مَثَلٌ ضُرِبَ لما فاتته منها، وأصله: من دُنَابِي الطائر: إذا أفلت من الجِبَالَةِ، فطلبت الأخذ بِدُنَابَاهَا، وقال: ما تقولها إسماعيلي قط أَي: ما ادعى النبوة كاذباً أحد من بني إسماعيل.

(١) انظر تاريخ الطبري (٥٥٦/١) الكامل لابن الأثير (٦٠٨/١).

(٢) هذا القول هو عند ابن إسحاق في السيرة تحت عنوان «العرض على بني عامر».

تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَخْلَعُوا مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَتْدَادِ، وَأَنْ تَوَمَّنُوا بِي، وَتَصَدَّقُوا بِي، وَتَمْنَعُونِي، حَتَّى أُبَيِّنَ عَنْ اللَّهِ مَا بَعْثَنِي بِهِ». قَالَ: وَخَلَفَهُ رَجُلٌ أَحْوَلُ وَضِيءٌ، لَهُ غَدِيرَتَانِ عَلَيْهِ حُلَّةٌ عَدَنِيَّةٌ، فَمِذَا فَرَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ، وَمَا دَعَا إِلَيْهِ، قَالَ ذَلِكَ الرَّجُلُ: يَا بَنِي فُلَانٍ، إِنَّ هَذَا إِنَّمَا يَدْعُوكُمْ أَنْ تَسْلُخُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، وَحُلَفَاءَكُمْ مِنَ الْجَنِّ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ أَقْنِشٍ، إِلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ، فَلَا تُطِيعُوهُ، وَلَا تَسْمَعُوا مِنْهُ.

قال: فقلت لأبي: يا أبت، مَنْ هذا الذي يتبعه ويردّ عليه ما يقول؟ قال: هذا عمُّه عبد العزى بن عبد المطلب، أبو لهب^(١).

قال ابن هشام: قال النابغة:

كَأَنَّكَ مَنْ جَمَالَ بَنِي أَقْنِشٍ يُقَعِّعُ خَلْفَ رَجُلَيْهِ بِشَنِّ

قال ابن إسحق: حدثنا ابن شهاب الزهري: أنه أتى كِنْدَةَ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَفِيهِمْ سَيِّدٌ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ: مُلَيْحٌ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ.

العرض على بني كلب:

قال ابن إسحق: وحدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حصين: أنه أتى كَلْبًا فِي مَنَازِلِهِمْ، إِلَى بَطْنٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُمْ: بَنُو عَبْدِ اللَّهِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ لَهُمْ: يَا بَنِي عَبْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَحْسَنَ اسْمَ أَبِيكُمْ، فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ.

عرض نفسه على كِنْدَةَ:

فصل: وذكر عرضه نفسه على كِنْدَةَ، وهم بنو ثور بن مرة بن أد بن زَيْد بن مَيْسَع بن عمرو بن عَرِيب بن زَيْد بن كَهْلَان بن سبأ على أحد الأقوال بين النسابين في كِنْدَةَ، وسمي كِنْدَةَ لِأَنَّهُ كَنَدَ أَبَاهُ، أَيْ عَقَّه، وَاسْمُ ابْنِهِ مُزْتَعًا لِأَنَّهُ كَانَ يَجْعَلُ لِمَنْ أَتَاهُ مِنْ قَوْمِهِ مُزْتَعًا، فَهُمْ بَنُو مُزْتَعِ بْنِ ثَوْرٍ، وَقَدْ قِيلَ إِنَّ ثَوْرًا هُوَ مُزْتَعٌ، وَكِنْدَةُ أَبُوهُ^(٢).

في هذا الكتاب تمة لفائده:

فصل: وذكر غير ابن إسحق ما لم يذكر ابن إسحق مما رأيت إملاء بعضه في هذا الكتاب تمة لفائده. ذكر قاسم بن ثابت والخطابي عرضه نفسه على بني ذهل بن ثعلبة، ثم

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٥٥٥/١) من طريق المصنف به.

(٢) انظر جمهرة ابن حزم (٣٩٤).

العرض على بني حنيفة:

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أصحابنا عن عبد الله بن كعب بن مالك: أن رسول الله ﷺ أتى بني حنيفة في منازلهم، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردًا منهم.

العرض على بني عامر:

قال ابن إسحاق: وحدثني الزهري أنه أتى بني عامر بن صغصعة، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم - يقال له: بئحرة بن فراس. قال ابن هشام: فراس بن عبد الله بن سلمة بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صغصعة: والله، لو أني أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب، ثم قال: أرايت إن نحن تابعتك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، قال: فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه.

على بني شيبان بن ثعلبة، فذكر الخطابي وقاسم جميعًا ما كان من كلام أبي بكر مع دغفل بن حنظلة الدهلي زاد قاسم تكملة الحديث فرأينا أن نذكر زيادة قاسم، فإنها مما تليق بهذا الكتاب قال: ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر، فسلم قال علي: وكان أبو بكر مقدّمًا في كل خير، فقال ممن القوم، فقالوا: من شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ - فقال: بأبي أنت وأمي، هؤلاء غرر في قومهم، وفيهم مفروق بن عمرو وهانيء بن قبيصة، ومثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك؛ وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جمالاً ولساناً وكانت له غديرتان^(١) تسقطان على تربيته^(٢)، وكان أدنى القوم مجلسًا من أبي بكر، فقال أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ قال له مفروق إنا لنزيد على الألف، ولن تغلب ألف من قلة فقال أبو بكر: كيف المنعة فيكم؟ فقال مفروق: علينا الجهد، ولكل قوم جد، فقال أبو بكر: كيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضبًا لحين نلقى، وإنا لأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح^(٣)، والنصر من عند الله، يُدبِلنا مرّةً ويُدبِلُ عَلَيْنَا، لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر أوقد بلغكم أنه رسول الله، فما هو ذا، فقال مفروق: قد بلغنا أنه

(٢) تربيته: أي عظام صدره.

(١) غديرتان: ضفيران.

(٣) اللقاح: أي الإبل.

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم، قد كانت أدركته السن، حتى لا يقدر أن يوافي معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في مؤسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش، ثم أخذ بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا. قال: فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلاف، هل لذنابها من مطلب، والذي نفس فلان بيده، ما تقولها إسماعيلي قط، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم.

يذكر ذلك، فإلى م تدعو إليه يا أخا قريش؟ فتقدم رسول الله ﷺ، فقال: «أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله، وإلى أن تؤووني، وتنصروني، فإن قريشاً قد ظهرت على أمر الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد»، فقال مفروق: وإلى م تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرِبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا بَطْنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ [الأنعام: ١٥١] فقال مفروق: وإلى م تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] فقال مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، والله لقد أفك قوم كذبوك، وظهروا عليك، وكأنه أراد أن يشركه في الكلام هانيء بن قبيصة، فقال: وهذا هانيء بن قبيصة شيخنا، وصاحب ديننا، فقال هانيء: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر زلة في الرأي، وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً، ولكن ترجع ونرجع وتنظر وتنظر، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى، فقال: وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حزبنا، فقال المثنى: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب: هو جواب هانيء بن قبيصة في تركنا ديننا، واتباعنا إياك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، وإنا إنما نزلنا بين صريان اليمامة والسماوة، فقال رسول الله ﷺ: «ما هذان الصريان؟» فقال: أنهار كسرى، ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى، فذنوب صاحبيه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وأما ما كان من مياه العرب، فذنبه مغفور وعذره مقبول، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حديثاً ولا نؤوي محدثاً، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه هو مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن تؤويك وتنصرك مما يلي مياه العرب، فعلننا فقال رسول الله ﷺ: - «ما أسأتم في الرد، إذ أفصحتم بالصدق،

عرض على العرب في المواسم

قال ابن إسحاق: فكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره، كلما اجتمع له الناس بالمواسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويغرض عليهم نفسه، وما جاء به من الله من الهدى والرحمة، وهو لا يسمع بقدام يقدم مكة من العرب له اسم وشرف، إلا تصدى له، فدعاه إلى الله، وعرض عليه ما عنده.

حديث سويد بن صامت

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، ثم الظفري عن أشياخ من قومه^(١)، قالوا:

قدم سويد بن صامت، أخو بني عمرو بن عوف، مكة حاجاً أو مُعتمراً،

وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه أَرَأَيْتُمْ إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم، أَتَسْبَحُونَ الله وتُقدِّسونه»، فقال النعمان بن شريك: اللهم لك ذا، فتلا رسول الله - ﷺ: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومُبَشِّراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ [الأحزاب: ٤٦] ثم نهض النبي - ﷺ - فأخذ بيدي، فقال: «يا أبا بكر يا أبا حسن أية أخلاق في الجاهلية، ما أشرفها بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم» قال: ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج، فما نهضنا حتى بايعوا النبي ﷺ، وكانوا صُدفاء صُبراء، وروى في حديث مُسْنَدٍ إلى طارق، قال: رأيت رسول الله ﷺ مرتين: رأيتَه بسوق ذي المَجَازِ يعرض نفسه على القبائل، يقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تُفْلِحُوا»، وخلفه رجل له غديرتان يَرْجُمُهُ بالحجارة، حتى أذمى كعبيه، يقول: يا أيها الناس لا تسمعوا منه، فإنه كذاب، فسألت عنه، فقيل: هو غلام عبد المطلب، قلت: ومن الرجل يَرْجُمُهُ؟ فقيل لي: هو عمه عَبْدُ العُزَّى أبو لهب^(٢)، وذكر الحديث بطوله. خَرَّجَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ، ووقع أيضاً في السيرة من رواية يونس.

حديث سويد بن صامت

فصل: ذكر حديث سويد بن صامت وشعره.

(١) مجاهيل.

(٢) أخرجه أحمد (٤٩٢/٣) والدارقطني (٤٥/٣) بتحقيقي والبيهقي في الدلائل (٣٨٠/٥) والطبراني في الكبير (٥٦/٥) والبيهقي في الكبرى (٧٦/١).

وكان سُويِد إنما يسمّيه قومه فيهم: الكامل، لجلده وشعره وشرفه ونسبه، وهو الذي يقول:

ألا رُبَّ مَنْ تدعو صديقًا وَلَوْ تَرَى مقالته بالغَيْبِ ساءَكَ ما يُفْري
مقالته كالشَّهْد ما كان شاهداً وبالعَيْبِ ماثورٌ على ثُغرةِ النحر
يَسْرُكُ باديهِ وتحت أديمِهِ نَمِمةٌ غشٌّ تَبْثُرِي عَقَبَ الظَّهْرِ
تُبِينُ لك العَيْنان ما هو كاتمٌ من الغِلِّ والبَغْضاء بالنظرِ الشزرِ
فَرَشَنِي بخيرِ طالما قد بَرَيْتَنِي وخيرُ الموالِي من يَرشي ولا يَبْري

وهو الذي يقول: ونافر رجلاً من بني سُليم، ثم أحد بني رَغَب بن مالك مائة ناقة، إلى كاهنة من كُهان العرب، فقضت له. فانصرف عنها هو والسلمي ليس معهما غيرهما، فلما فرقت بينهما الطريق، قال: مالي، يا أخا بني سُليم قال: أبعث إليك به؛ قال: فمن لي بذلك إذا قُتني به؟ قال: أنا، قال: كلاً، والذي نفس سُويِد بيده، لا تفارقني حتى أوتى

وفي الشعر:

وبالعَيْبِ ماثورٌ على ثُغرةِ النُحْرِ

يعني السيف، وماثورٌ: من الأثر وهو فرند^(١) السيف، ويقال فيه: أثر وإثر. قال الشاعر^(٢):

جلاها الصَّيْعَلُونَ فَأَخْلَصُوهَا خِفَاقًا كُلُّها يَثْقِي بِأَثْرِ

أراد: يَثْقِي، وسُويِد: هو: الكامل، وهو ابن الصُّلَيْتِ بن حُوط بن حَبِيب بن عَوْف بن عمرو بن عَوْف بن مالك بن الأَوْسِ وأمه لَيْلَى بنت عمرو النجارية أخت سَلَمَى بنت عمرو [بن زيد بن لبيد بن خِداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار] تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج] أم عبد المطلب بن هاشم، فَسُويِد هذا ابن خالة عبد المطلب، وبنتُ سويد هي أم عاتِكةَ أخت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل امرأة عمر بن الخطاب، فهو جدُّها لأُمِّها واسم أمها: زينب، وقيل: جليسة بنت سُويِد، هكذا ذكره الزُّبَيْر بن أبي بكر.

(١) فرند السيف: جوهره.

(٢) هو: عيسى بن عمر الخفاف. كما في الأمالي للقالبي (٧٣/٣).

بمال، فأتخذوا فضرب به الأرض، ثم أوثقه رباطاً ثم انطلق به إلى دار بني عمرو بن عوف، فلم يزل عنده حتى بعثت إليه سُلَيْم بالذي له، فقال في ذلك:

لا تحسبني يابن زَغَبِ بن مالك كَمَنْ كُنْتَ تُزْدِي بِالْغُيُوبِ وَتُخْتَلِ
تحوّلت قِرْناً إذ صُرعت بعزة كذلك إن الحازم المتحوّل
ضربت به إبط الشمال فلم يزل على كلّ حال خذّه هو أسفل
في أشعار كثيرة كان يقولها:

فنصّدي له رسولُ الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سُوَيْد: فلعلّ الذي معك مثلُ الذي معي، فقال له رسولُ الله ﷺ: «وما الذي معك؟» قال مَجَلَّةُ لُقْمَان - يعني حكمة لقمان. فقال له رسولُ الله ﷺ: «اعرضها عليّ»، فعرضها عليه، فقال له: «إن هذا الكلامُ حسنٌ، والذي معي أفضلُ من هذا، قرآن أنزله الله تعالى عليّ، هو هُدى ونور.» فتلا عليه رسولُ الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يَبْعُد منه، وقال: إن هذا لقولُ حسن. ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتله الخَزْرَج، فإن كان رجالٌ من قومه ليقولون: إنّا لنراه قد قُتل وهو مُسلم. وكان قُتله قبل يوم بُعث^(١).

ذكر مجلة لقمان:

فصل: وذكر مجلة لُقْمَان، وهي الصحيفة، وكأنها مفعلة من الجَلال والجَلالة، أما الجَلالة فمن صفة المخلوق، والجلال من صفة الله تعالى، وقد أجاز بعضهم أن يقال في المخلوق جَلالٌ وجَلالةٌ وأنشد^(٢):

فَلَا ذَا جَلالٍ هَبْنَهُ لَجَلالَةٍ وَلَا ذَا ضَياعٍ هَنَّ يَثْرُكُنَ لِلْفَقْرِ
ولُقْمَانُ كان نوبيا من أهل أَيْلَةٍ وهو لقمان بن عَنقَاء بن سرور فيما ذكروا وابنه الذي ذُكِرَ في القرآن هو ثَاران فيما ذكر الزُّجَاج وغيره، وقد قيل في اسمه غير ذلك، وليس بلقمان بن عاد الجِمْيَرِيّ.

(١) انظر تاريخ الطبري (٥٥٧/١) الكامل (٦٠٩/١).

(٢) هو: هدية بن خشرم بن كرز. كما في أمالي القالي (٢٣/٢).

إسلام إياس بن معاذ وقصة أبي الحيسر

قال ابن إسحاق: وحدثني الحُصَيْن بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن مُعَاذ عن محمود بن لُبَيْد، قال: لما قَدِمَ أَبُو الْحَيْسَرِ، أَنَسُ بْنُ رَافِعٍ، مَكَّةَ وَمَعَهُ فِثْيَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، فِيهِمْ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاذٍ، يَلْتَمِسُونَ الْجَلْفَ مِنْ قَرِيشٍ عَلَى قَوْمِهِمْ مِنَ الْخَزْرَجِ، سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَأَتَاهُمْ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: «هَلْ لَكُمْ فِي خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ؟» فَقَالُوا لَهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: «أَنَا رَسُولُ اللَّهِ بِعَثْنِي إِلَى الْعِبَادِ، أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الْكِتَابَ.» قَالَ: ثُمَّ ذَكَرَ لَهُمُ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ. قَالَ: فَقَالَ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاذٍ، وَكَانَ غَلَامًا حَدَثًا: أَيُّ قَوْمٍ، هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ. قَالَ: فَيَأْخُذُ أَبُو الْحَيْسَرِ، أَنَسُ بْنُ رَافِعٍ، حَفْنَةً مِنْ تَرَابِ الْبَطْحَاءِ، فَضَرَبَ بِهَا وَجْهَ إِيَّاسِ بْنِ مُعَاذٍ، وَقَالَ: دَعْنَا مِنْكَ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ جِئْنَا لَغَيْرِ هَذَا. قَالَ: فَصَمَتَ إِيَّاسُ، وَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْهُمْ، وَانْصَرَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ وَقْعَةُ بُعَاثَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ.

قال: ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاذٍ أَنْ هَلَكَ. قَالَ محمود بن لُبَيْد: فَأَخْبَرَنِي مَنْ حَضَرَهُ مِنْ قَوْمِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ: أَنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا يَسْمَعُونَهُ يَهْلُلُ اللَّهَ تَعَالَى وَيُكَبِّرُهُ وَيُحَمِّدُهُ وَيُسَبِّحُهُ حَتَّى مَاتَ، فَمَا كَانُوا يَشْكُونَ أَنَّ قَدْ مَاتَ مُسْلِمًا، لَقَدْ كَانَ اسْتَشْعَرَ الْإِسْلَامَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلَسِ، حِينَ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا سَمِعَ.

ذكر قدوم أبي الحيسر^(١)

فصل: وذكر قدوم أبي الحيسر أنس بن رافع بن يطلب الجلف، وذلك بسبب الحرب التي كانت بين الأوس والخزرج، وهي حرب بُعَاثِ الْمَذْكُورَةِ، وَلَهُمْ فِيهَا أَيَّامٌ مَشْهُورَةٌ هَلَكَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ صَنَادِيدِهِمْ وَأَشْرَافِهِمْ، وَبُعَاثُ اسْمِ أَرْضٍ بِهَا عُرِفَتْ.

(١) انظر الكامل (١/٦١٠).

الرسول مع نفر من الخزرج عند العقبة

قال ابن إسحاق: فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز مواعده له، خرج رسول الله ﷺ، في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان صنع في كل موسم. فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً.

بدء إسلام الأنصار

ولم يكن الأنصار اسماً لهم في الجاهلية، حتى سمّاهم الله به في الإسلام، وهم: بنو الأوس والخزرج، والخزرج: الريح الباردة وقال بعضهم: وهي الجنوب خاصة، ودخول الألف واللام في الأوس على حد دخولها في التميم جمع: تميمي وهو من باب: رومي وروم، لأن الأوس هي العطية أو العوض، ومثل هذا إذا كان علماً لا يدخله الألف واللام، ألا ترى أن كل أوس في العرب غير هذا، فإنه بغير ألف ولام كأوس بن حارثة الطائي وغيره وكذلك، أوس وأويس: الذئب قال الراجز^(١):

يا لَيْتَ شِغْرِي عَنْهُ وَالْأَمْرُ عَمَّمَا
مَا فَعَلَ الْيَوْمَ أُوَيْسٌ بِالْعَنَمِ

وأبوهم حارثة بن ثعلبة [بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزدي]، وهو أيضاً: والد خُزَاعَةَ على أحد القولين، وأمه: قَيْلَةُ بنت كاهل بن عُدْرَةَ قُضَاعِيَّة ويقال: هي بنت جَفْتَةَ، واسمه عُلْبَةُ بن عمرو بن عامر، وقيل بنت سَيْع بن الهون بن خُزَيْمَةَ بن مدركة، قاله الزبير بن أبي بكر في كتاب أخبار المدينة.

(١) هو الهذلي كما في اللسان وانظر في بدء إسلام الأنصار: تاريخ الطبري (٣٥٣/٢) البداية والنهاية (١٤٥/٣) الدلائل للبيهقي (٤١٣/٢) المنتظم (٢٠/٣).

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن أشياخ من قومه، قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ، قال لهم: مَنْ أَنْتُمْ؟ قالوا: نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، قال: أَمِنْ مَوَالِي يَهُودٍ؟ قالوا: نعم، قال: أَفَلَا تَجْلِسُونَ أَكَلَمَكُمْ؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام، أن يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعِلْم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد عزَّوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إِنْ نَبِيًّا مَبْعُوثُ الْآنِ، قَدْ أَظْلَ زَمَانُهُ، نَتَّبِعُهُ فَنَقْتُلُكَم مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِزْمَ. فلما كَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تَعَلَّمُوا وَاللَّهِ إِنَّهُ لِلنَّبِيِّ الَّذِي تَوَعَّدُكُمْ بِهِ يَهُودٌ، فَلَا تَسْبِقُتْكُمْ إِلَيْهِ. فَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، بِأَنْ صَدَّقُوهُ وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وقالوا: إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا، وَلَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، فَدَبَّرِي أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللَّهُ بِكَ، فَسَنَقْدَمُ عَلَيْهِمْ، فَندَعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ، وتعرض عليهم الذي أَجَبْنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، فَإِنْ يَجْمَعُهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَلَا رَجُلَ أَعَزَّ مِنْكَ.

والأنصار: جمع ناصِرٍ على غير قياس في جمع فاعل، ولكن على تقدير حذف الألف من ناصر، لأنها زائدة، فالاسم على تقدير حذفها: ثَلَاثِي والثلاثي يجمع على أفعال، وقد قالوا في نحوه صاحب وأصحاب وشاهد وأشهد.

وذكر قول النبي - ﷺ - - لِلنَّفَرِ مِنَ الْأَنْصَارِ: «أَمِنْ مَوَالِي يَهُودٍ أَنْتُمْ؟» أي من حلفائهم، والمولى يجمع: الحليف وابن العم والمُعْتِقَ والمُعْتَقَ لِأَنَّهُ مَفْعَلٌ مِنَ الْوَلَايَةِ، وجاء على وزن مفعول، لأنه مَفْرَعٌ وَمُلْجَأٌ لَوْلِيهِ فجاء على وزن ما هو في معناه.

وذكر النفر القادمين في العام الثاني الذين بايعوه بَيْعَةَ النِّسَاءِ، وقد ذكر الله تعالى بَيْعَةَ النِّسَاءِ فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ: ﴿يَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ [الممتحنة: ١٢] الآية، فأراد ببيعة النساء أنهم لم يبايعوه على القتال، وكانت مبايعته للنساء أَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهِنَّ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ، فَإِذَا أَقْرَبْنَ بِالْإِسْتِئْثَانِ قَالَ: قَدْ بَايَعْتُكُمْ، وما مست يده يد امرأة في مبايعة كذلك قالت عائشة^(١)، وقد روى أنهم كن يأخذن بيده في البيعة من فوق ثَوْبٍ، وهو قول عامر الشعبي، ذكره عنه ابن سلام في تفسيره، والأول أصح وقد ذكر أبو بكر محمد بن الحسن المقرئ النقاش في صفة بيعة النساء وجهًا ثالثًا أورد فيه آثارًا، وهو أن رسول الله - ﷺ - كان يغمس يده في إناءٍ وتغمس المرأة يدها فيه عند المبايعة، فيكون ذلك عقدًا للبيعة، وليس هذا

(١) انظر البخاري (١٥٣/٧).

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا.

أسماء الخزرجيين الذين التقوا بالرسول عند العقبة:

قال ابن إسحاق: وهم - فيما ذكر لي: ستة نفر من الخزرج، منهم من بني النجار - وهو تيم الله - ثم من بني مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن عمرو بن عامر: أسعد بن زُرارة بن عُدس بن عُبَيْد بن ثعلبة بن عَنَم بن مالك بن النجار، وهو أبو أمامة، وعوف بن الحارث بن رفاعة بن سَواد بن مالك بن عَنَم بن مالك بن النجار، وهو ابن عَفراء.

قال ابن هشام: وعَفراء بنتُ عُبَيْد بن ثعلبة بن عُبَيْد بن ثعلبة بن عَنَم بن مالك بن النجار.

قال ابن إسحاق: ومن بني زُرَيْق بن عامر بن زُرَيْق بن عُبَيْد حارثة بن مالك بن عَضْب بن جُشَم بن الخزرج: رافع بن مالك بن العَجْلان بن عمرو بن عامر بن زُرَيْق.

قال ابن هشام: ويقال عامر بن الأزرق.

قال ابن إسحاق: ومن بني سَلَمَة بن سَعْد بن علي بن ساردة بن يزيد بن جُشَم بن الخزرج، ثم من بني سَواد بن عَنَم بن كَعْب بن سَلَمَة: قُطْبَة بن عامر بن حَلْدِيدة بن عمرو بن عَنَم بن سَواد.

قال ابن هشام: عمرو بن سَواد، وليس لسَواد ابنٌ يقال له: عَنَم.

قال ابن إسحاق: ومن بني حَرَام بن كَعْب بن عَنَم بن كَعْب بن سَلَمَة: عُقْبَة بن عامر بن نابي بن زَيْد بن حَرَام.

ومن بني عُبَيْد بن عَدِي بن عَنَم بن كَعْب بن سَلَمَة: جابر بن عبد الله بن رِثاب بن الثُعمان بن سِنان بن عُبَيْد.

فلما قَدِمُوا المدينةَ إلى قومهم ذَكَرُوا لهم رسولَ الله ﷺ ودَعَوْهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم يَبْقَ دَارٌ من دُور الأنصار إلا وفيها ذَكَرٌ من رسول الله ﷺ.

بالمشهور، ولا هو عند أهل الحديث بالثبوت، غير أن ابن إسحاق أيضًا قد ذكره في رواية عن يونس عن أبان بن أبي صالح، وذكر أنساب الذين بايعوه، وسنعيده في بيعة العقبة وعَرَاة بدر، وهناك يقع التنبيه على ما يحتاج إليه بعون الله.

بيعة العقبة الأولى^(١):

حتى إذا كان العامُ الْمُقْبِلُ وأقَى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة؛ وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله - ﷺ - على بيعة النساء، وذلك قبل أن تُفترض عليهم الحرب.

منهم من بني النجار، ثم بني مالك بن النجار: أسعدُ بن زرارة بن عُدَس بن عُبيد بن ثعلبة بن عَنَم بن مالك بن النجار، وهو أبو أُمَامَة؛ وَعَوْف، ومعاذ، ابنا الحارث بن رفاعَة بن سَواد بن مالك بن عَنَم بن مالك بن النجار، وهما ابنا عفراء.

وذكر في أنساب المبايعين له في العَقْبَة الأولى في بني سَلَمَة منهم: سَادِرَة بن تَزِيد بن جُشَم، وتَزِيد بنَاء منقوطة باثنتين من فوق، ولا يعرف في العرب تَزِيد إلا هذا، وتَزِيد بن الحاف بن قُضَاعَة، وهم الذين تنسب إليهم الثياب التزيدية، وأما سَلَمَة بكسر اللام، فهم من الأنصار سمي بالسَلَمَة واحدة السَّلام، وهي الحجارة، قال الشاعر:

ذَاكَ خَلِيلِي وَذُو يُعَاتِبِنِي يَزِمِي وَرَائِي بِالسَّهْمِ وَالسَّلِمَة

وفي جُفَيْي: سلمة بن عمرو بن دهل بن مروان بن جُفَيْي وفي جُهَيْنَة سَلَمَة بن نَضْر بن عَطْفَان قاله ابن حبيب النسابة في الصحابة عمرو بن سَلَمَة أبو بُرَيْدَة الجَزَمِي الذي أم قومه، وهو ابن ست سنين أو سبع، وفي الرِّوَاة عبد الله بن سَلَمَة وينسب إلى بني سَلَمَة هؤلاء سَلَمِي بالفتح، كما ينسب إلى بني سَلَمَة، وهم بطنان من بني عامر يقال لهم: السَّلَمَات، يقال لأحدهم سَلَمَة الخَيْر، وللآخر سَلَمَة الشَّرُّ ابنا قصير بن كعب بن ربيعة بن عامر، وأما بنو سَلَمَة بياء ففي دَوْس، وهم بنو سَلَمَة بن مالك بن فَهْم بن عَنَم بن دَوْس، وسَلَمَة هذا هو أخو جَلْدِيمة الأبرش، وهو الذي قتل أخاه مالكا بسهم قتل خَطْأً، ويقال في النسب إليه: سَلَمِي أيضًا وهو القياس، وقد قيل: سَلَمِي كما قيل في عُمَيْرَة عُمَيْرِي.

وذكر بني جِدَارَة من بني النجار، وجِدَارَة وَخْدَارَة: أخوان، وغيره يقول في جِدَارَة: خِدَارَة بالخاء المضمومة، وهكذا قيده أبو عمرو، كذلك ذكره ابن دريد في الاشتقاق، وهو أشبه بالصواب لأنه أخو خِدْرَة وكثيرًا ما يجعلون أسماء الإخوة مُشْتَقَّة بعضها من بعض.

(١) انظر خبر بيعة العقبة الأولى في تاريخ الطبري (٣٥٣/٢) البداية والنهاية (١٤٥/٣) المنتظم (٣٢/٣) طبقات ابن سعد (٢١٦/١) الدلائل (٣٤٠/٢) الكامل (٦١٠/١) تاريخ الإسلام للذهبي (١٩٢/٢).

ومن بني زُرَيْق بن عامر: رافع بن مالك بن العَجَلان بن عمرو بن عامر بن زُرَيْق،
وَذُكْوَان بن عبد قَيْس بن خَلْدَة بن مُخَلِّد بن عامر بن زُرَيْق.

قال ابن هشام: ذُكْوَان، مهاجري أنصاري.

ومن بني عَوْف بن الخزرج، ثم من بني غَنَم بن عوف بن عمرو بن عَوْف بن
الخزرج، وَهُمْ الْقَوَاقِلُ: عُبَادَة بن الصامت بن قَيْس بن أَضْرَم بن فِهْر بن ثعلبة بن غَنَم؛
وأبو عبد الرحمن، وهو يزيد بن ثعلبة بن خَزْمة بن أَضْرَم بن عمرو بن عَمَّارة، من بني
غُصَيْنَة، من بَلَيْ، حليف لهم.

وذكر القَوَاقِلُ وهم بنو عمرو بن غَنَم بن مالك، وذكر تسميتهم الْقَوَاقِلُ، وأن ذلك
لقولهم إذا أجاروا أحداً: قَوْلُ حَيْثُ شِئْتُ، وفي الأنصار: القَوَاقِلُ والجَعَادِرُ وهما بطنان من
الأوس، وسبب تسميتهما: واحد في المعنى، أما الجَعَادِرُ فكانوا إذا أجاروا أحداً أعطوه
سَهْمًا، وقالوا له: جَعْدِرْ حيث شِئْتُ، كما كانت القَوَاقِلُ تفعل، وهم بنو زيد بن
عمرو بن مالك بن ضُبَيْعَة [بن زيد] يقال لهم كسر الذهب، وهما جميعاً من الأوس. قال
الشاعر:

فإن لنا بين الجواري وليدة مُقَابِلَة بين الجَعَادِر والكسِرِ
متى تدع في الزيد بن مالك وزيد بن عمرو تأتيا عِزَّة الحَفَرِ

وذكر فيهم أبا الهيثم بن التَّيْهَان، ولم ينسبه، ولا نسبه في أهل العقبة الثانية، ولا في
غزوة بدر، وهو مالك بن التَّيْهَان، واسم التَّيْهَان أيضًا مالكُ بن عَتِيك بن عَمْرُو بن
عبد الأعلَم بن عامر بن رَعُون بن جُسَم بن الحارث بن الخَزْرَج بن عمرو بن مالك بن
الأوس الأنصاري حليف بني عبد الأشْهَل كان أحد الثُّقَبَاء ليلة العقبة، ثم شهد بدرًا،
واختلف في وقت وفاته، فأصح ما قيل فيه إنه شهد مع عليٍّ صَفِين، وقتل فيها رحمه الله،
وأحسب ابن إسحق وابن هشام تركا نسبه على جلالته في الأنصار وشهوده هذه المشاهد
كلها مع رسول الله - ﷺ - لاختلاف فيه، فقد وجدت في شعر عبد الله بن رَوَاحَة حين
أضاف أبو الهيثم رسولَ الله - ﷺ - في منزله ومعه أبو بكر وعمر، فذبح لهم عَنَاقًا^(١) وأتاهم
بِقَتْرِ من رُطَب الحديث بطوله، فقال ابن رَوَاحَة في ذلك:

فلم أر كالإسلام عِزًّا لأهله ولا مثل أضيافِ لأزاشي مَعَشَرَا

(١) العناق: هي أنثى ولد المعز.

قال ابن هشام: وإنما قيل لهم: القواقل، لأنهم كانوا إذا استجار بهم الرجل دفعوا له سهمًا، وقالوا له: قَوِّلْ به يَثْرَبَ حيث شئت.

قال ابن هشام: القَوْلَةُ: ضرب من المشي.

وقال ابن إسحاق: ومن بني سالم بن عَوْف بن عمرو بن الخزرج، ثم من بني العَجْلان بن زيد بن غَنَم بن سالم: العباس بن عُبادة بن نَضْلَة بن مالك بن العَجْلان.

ومن بني سَلَمَة بن سَعْد بن علي بن أسد بن ساردة بن تَزِيد بن جُشَم بن الخزرج، ثم من بني حَرَام بن كعب بن غَنَم بن سَلَمَة: عُقْبَة بن عامر بن نابي بن زَيْد بن حَرَام. ومن بني سواد بن غَنَم بن كَعْب بن سَلَمَة قُطْبَة بن عامر بن حَديدة بن عمرو بن غَنَم بن سَواد.

رجال العقبة من الأوس:

وشهدها من الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ثم من بني عَبد الأشهل بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس: أبو الهيثم بن التَّيْهَان، واسمه مالك.

فجعل إِرْشِيًّا كما ترى، والأَرَشِيُّ منسوب إلى إِرَاشَة في حُرَاعَة، أو إلى إِرَاش بن لِحْيَان بن العَوْثِ فالله أعلم: أهو أنصاري بالحِلْفِ أم بالنَّسَبِ المذكور، قبل هذا، ونقلته من قول أبي عُمَرَ في الاستيعاب^(١)، وقد قيل: إنه بلويٌّ من بني إِرَاشَة بن فاران بن عمرو بن بَلِيٍّ، والهيثم في اللغة: فَرْخُ [النَّسْرِ، أو] العُقَاب، والهيثم أيضًا صَرْبٌ من العشب فيما ذكر أبو حنيفة، وبه سمي الرجل هَيْثَمًا أو بالمعنى الأول وأنشد:

رَعَتْ بِقَرَانِ الْحَزَنِ رَوْضًا مَنُورًا عَمِيمًا مِنَ الظَّلَاعِ وَالْهَيْثَمِ الْجَعْدِ

ذكر يبعثهم لرسول الله - ﷺ - على بَيْعَةِ النِّسَاءِ أَلَا يَسْرِقُوا، وَلَا يَزْنُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وقيل في قوله عَزَّ وَجَلَّ خَبْرًا عن بَيْعَةِ النِّسَاءِ: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بُهْتَانًا﴾ أنه الولد تنسبه إلى بَغْلِيهَا، وليس منه، وقيل: هو الاستِمْتَاعُ بالمرأة فيما دُونَ الْوَطْءِ كَالْقُبْلَةِ وَالْجَسَّةِ ونحوها، والأول يشبه أن يبايع عليه الرجال، وكذلك قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْصِيَنَّكَ فِي مَغْرُوفٍ﴾ أنه

(١) الاستيعاب (٤/١٧٧٧).

قال ابن هشام: التَّيْهَان: يخفف ويثقل، كقوله: ميث وميَّت.

رجال العقبة الأولى من بني عمرو:

ومن بني عمرو بن عَوْف بن مالك بن الأوس: عُويم بن ساعدة.

بيعة العقبة:

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن أبي حبيب، عن (أبي) مَرْثَد بن عبد الله البزني، عن عبد الرحمن بن عُسَيْلَةَ الصَّنَابِجِي، عن عُبَادَةَ بن الصامت، قال: كنت فيمن حَضَرَ العقبة الأولى، وكُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بَيْعَةِ النساء، وذلك قبل أن تُفْتَرَضَ الحزب، على أن لا نُشْرِكَ بالله شيئاً، ولا نَسْرِق، ولا نَزْنِي، ولا نَقْتُلَ أولادنا، ولا نَأْتِيَ ببهتانٍ تُفْتَرِيهِ من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نَغْصِيهِ في معروف. فإن وَفَّيْتُمْ فلکم الجنة. وإن غَشَّيْتُمْ من ذلك شيئاً فأمرُكم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ إن شاء عَذَّب وإن شاء عَفَرَ.

قال ابن إسحاق وذكر ابنُ شهاب الزهري، عن عائذ الله بن عبد الله الحَوْلَانِي أبي إدريس أنَّ عُبَادَةَ بن الصامت حَدَّثَهُ أَنَّهُ قَالَ: بايعنا رسولَ الله ﷺ لَيْلَةَ الْعَقْبَةِ الأولى على أن لا نُشْرِكَ بالله شيئاً، ولا نَسْرِق، ولا نَزْنِي، ولا نَقْتُلَ أولادنا، ولا نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ تُفْتَرِيهِ من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نَغْصِيهِ في معروف، فإن وَفَّيْتُمْ فلکم الجنة، وإن غَشَّيْتُمْ من ذلك فأخذتم بحدِّه في الدنيا، فهو كَفَّارَةٌ له، وإن سَتَرْتُمْ عليه إلى يوم القيامة فأمرُكم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، إن شاء عَذَّب، وإن شاء عَفَرَ.

النُّوحُ، وهذا أيضاً وليس من شأن الرجال، فدل على ضعف قول من خصه بالنُّوح، وخص البُهْتَانُ بِالْحَاقِّ الولد بالرجل، وليس منه، وقيل: يفتريه بين أيديهم يعني: الكذب وعيب الناس بما ليس فيهم، وأرجلهم يعني: المشي في معصية، ولا يَغْصِينَك في معروف، أي: في خير تأمُرُهُنَّ به، والمعروف: اسم جامع لمكارم الأخلاق، وما عرف حُسْنُهُ ولم تنكره القلوب، وهذا معنى يعم الرجال والنساء، وذكر ابن إسحاق في رواية يونس فيما أخذه عليه السلام عليهن: أن قال: وَلَا تَغْشَيْنَ أزواجكن، قالت إحداهن: وما غَشُّ أزواجنا فقال: أن تأخُذِي من ماله فَتَحَابِي به غيره^(١).

(١) أخرجه أحمد.

مصعب بن عمير ووفد العقبة

قال ابن إسحاق: فلما انصرف عنه القوم، بعث رسول الله ﷺ معه مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يُقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يُسمى المُقرئ بالمدينة: مُضْعَبُ وكان مَنزَلُهُ على أسعد بن زُرارة بن عُدس، أبي أمانة.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عُمر بن قتادة: أنه كان يصلي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمّه بعض.

هجرة مصعب بن عمير (١)

فصل: وذكر هجرة مُضْعَب بن عُمَيْر وهو المُقْرِئ، وهو أول من سُمي بهذا، أعني المُقْرِئ يُكنى أبا عبد الله، كان قبل إسلامه من أنعم قريش غيشًا وأعطاهم، وكانت أمه شديدة الكلف به، وكان بيت وقْعُب^(٢) الحَنَس^(٣) عند رأسه، يستيقظ فيأكل، فلما أسلم أصابه من الشدة ما غير لونه وأذهب لحمه، ونَهَكَت جسمه حتى كان رسول الله - ﷺ - ينظر إليه، وعليه فروة قد رفعها، فيبكي لما كان يعرف من نعمته^(٤)، وحلفت أمه حين أسلم وهاجر ألا تأكل ولا تشرب ولا تستظل بظل حتى يرجع إليها، فكانت تقف للشمس حتى تسقط مغشياً عليها، وكان بنوها يخشون فاهَا بِشَجَارٍ، وهو عود فيصبون فيه الحساء لثلا تموت، وسنذكر اسمها ونسبها عند ذكره في البذريين إن شاء الله تعالى، وكان رسول الله - ﷺ - يذكره، فيقول: ما رأيت بمكة أحسن لِمَةً، ولا أرقَّ حُلَّةً ولا أنعمَ نَعْمَةً من مُضْعَب بن عُمَيْر ذكره الواقدي^(٥). وذكر أيضًا بإسناد له، قال: كان مُضْعَب بن عُمَيْر فتى مكة شَبَابًا وجمالاً وسِئًا وكان أبواه يحبان، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب، وكان أغطر أهل مكة يلبس الحضرمي من النعال^(٦).

وذكر أن مَنزَلَهُ كان على أسعد بن زُرارة، مَنزَلٌ بفتح الزاي، وكذلك كل ما وقع في هذا الباب من مَنزَل فلان على فلان، فهو بالفتح، لأنه أراد المصدر، ولم يُرد المكان، وكذا قيده الشيخ أبو بحر بفتح الزاي، وأما أم قيس بنت مُخَصِّن المذكورة في هجرة بني أسد،

(١) انظر الاستيعاب (٤/١٤٧٣).

(٢) القعب: القدح الضخم.

(٣) الحنس: التمر يُخلط بسمن وأقط [لبن مجفف] فيعجن عجناً شديداً.

(٤) أخرجه الترمذي.

(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/٨٢) والحاكم (٣/٢٠٠).

(٦) نعال حضرمية: نسبة إلى حضرموت.

أول جمعة أُقيمت بالمدينة

قال ابن إسحاق: وحَدَّثني محمد بن أبي أُمّامة بن سهل بن حنيف، عن أبيه أبي أُمّامة، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، قال: كنت قائد أبي، كعب بن مالك، حين ذهبَ بصره، فكنتُ إذا خرجتُ به إلى الجمعة، فسمع الأذان بها صلى على أبي أُمّامة، أسعد بن زُرارة. قال: فمكثَ حينًا على ذلك: لا يَسْمَعُ الأذان للجمعة إلا صلى عليه واستغفر له. قال: فقلت في نفسي: والله إن هذا بي لَعَجْز، ألا أسأله ما له إذا سَمِعَ الأذان للجمعة صلى على أبي أُمّامة أسعد بن زُرارة؟ قال: فخرجت به في يوم جمعة كما كنت أخرج، فلما سَمِعَ الأذان للجمعة صلى عليه واستغفر له. قال: فقلت له: يا أبتِ،

فاسمها آمنة وهي أخت عكاشة، وهي التي ذكرت في الموطأ وأنها أتت بآبن لها صغير لم يأكل الطعام إلى رسول الله ﷺ.

أول جمعة

فصل: وذكر أول من جُمِعَ بالمدينة، وهو أبو أُمّامة، وذكر غيره أن أول من جُمِعَ بهم مُضْعَبُ بن عُمَيْر، لأنه أول من قدم المدينة من المهاجرين، ثم قدم بعده ابنُ أُمِّ مَكْتُوم، وقد ذكرنا في أول الكتاب مَنْ جمع في الجاهلية بمكة فخطب وذكرَ وبَشَّرَ بمبعث النبي ﷺ، وحَضَّ على اتباعه، وهو كَعْبُ بن لُؤَيٍّ ويقال: إنه أول من سَمِيَ العُرُوبَةُ الجمعة، ومعنى العُرُوبَةُ الرحمة فيما بلغني عن بعض أهل العلم، وكانت قريش تجتمع إليه فيها فيما حكى الزبير بن بكار، فيخطبهم، فيقول: أما بعد فاعلموا وتعلموا إنما الأرضُ لله مهادٌ، والجبالُ أوتاد، والسماءُ بناءٌ، والنجوم سُمُلٌ، ثم يأمرهم بصلَةِ الرِّجَم، ويبشرهم بالنبي ﷺ^(١)، ويقول: حَرَمُكُمْ يا قوم عَظْمُوهُ، فسيكون له نَبَأٌ عظيم، ويخرج منه نبي كريم، ثم يقول في شعر ذكره:

على عَقْلَةٍ يَأْتِي النبي محمدٌ فيخبر أخبارًا صَدُوقٌ خَبِيرُهَا
ضُرُوفٌ رَأَيْنَاهَا تُقَلِّبُ أَهْلَهَا لها عُقْدٌ ما يستحيل مَرِيرُهَا
ثم يقول:

يا ليتني شاهدٌ فَخَوَاءَ دَعْوَتِهِ إذا قُرَيْشٌ تَبَغَّيَ الحقَّ خِذْلَانَا
وأما أول من جمع في الإسلام فهو مَنْ ذكرنا.

(١) تقدم التعليق على هذه البشارة.

ما لك إذا سمعت الأذان للجمعة صَلَّيت على أبي أُمَامَةَ؟ قال: أي بُنيّ، كان أوّل من جَمَعَ بنا بالمدينة في هَزَم النَّبِيت، من حَرّة بني بِيَاضَة، يقال له: نَقِيعُ الخَضِمَات، قال: قلت: وكم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلاً^(١).

نقيع الخضيمات:

وذكر ابن إسحاق أنه جمع بهم أبو أمامة عند هَزَم النَّبِيت في بَقِيعٍ يقال له بَقِيع الخَضِمَات. بَقِيع بالباء وجدته في نسخة الشيخ أبي بحر، وكذلك وجدته في رواية يونس عن ابن إسحاق، وذكره البكري في كتاب مُعْجَم ما اسْتَعْجَم من أسماء البُقَع أنه نَقِيع بالنون، ذكره في باب النون والقاف، وقال: هَزَم النَّبِيت: جَبَلَ على يريد من المدينة، وفي غريب الحديث: أنه عليه السلام حمى غرز النقيع. قال الخطابي: النقيع: القاع، والغَرَزُ شبه الثمام وسيأتي تفسيره فيما بعد إن شاء الله تعالى، ومعنى الخَضِمَات من الخَضَم، وهو الأكل بالفم كله، والقَضْمُ بأطراف الأسنان، ويقال: هو أكل اليابس، والخَضْمُ: أكل الرطب، فكأنه جمع خَضِمَة، وهي الماشية التي تَخْضَم، فكأنه سمي بذلك لخضب كان فيه، وأما البقيع بالباء فهو أقرب إلى المدينة منه بكثير، وأما بَقِيع الخَبِجَة بَخاء وجيم وباءين، فجاء ذكره في سُنَنِ أبي داود: والخَبِجَة: شَجَرَة عُرف بها.

الجمعة:

فصل: وتجميع أصحاب رسول الله - ﷺ - الجمعة وتسميتهم إياها بهذا الاسم وكانت تسمى العَرُوبَة - كان عن هداية من الله تعالى لهم قبل أن يُؤْمَرُوا بها، ثم نزلت سورة الجمعة بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، فاستقر فرضها واستمر حكمها، ولذلك قال - ﷺ - في يوم الجمعة: أَضَلَّتْهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وهداكم الله إليه^(٢).

ذكر الكشي، وهو عَبْدُ بن حميد قال: نا عبد الرزاق عن مَعْمَر عن أيوب عن ابن سيرين قال: جمع أهل المدينة قبل أن يَقْدَمَ النبي - ﷺ - المدينة، وقبل أن تنزل الجمعة، وهم الذين سَمَوْا الجُمُعَة، قال الأنصار: لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك، فَهَلُمَّ، فلنجعل يوماً نجتمع فيه، ونذكر الله، ونصلي ونشكر، أو كما قالوا، فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوا يوم العَرُوبَة، كانوا يسمون يوم الجمعة يوم العروبة، فاجتمعوا إلى أسعد بن زُرَّارة، فصلى بهم يَوْمئِذٍ ركعتين، فذكرهم،

(١) أخرجه أبو داود (١٠٦٩) بتحقيقي.

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (٢٣/٢٢) والنسائي (٨٧/٤) وغيرهما - بنحوه.

فسموا الجمعة حين اجتمعوا إليه، فذبح لهم شاةً فَتَغَدَّوْا وَتَعَشَوْا من شاةٍ، وذلك لقلتهم،
فأنزل الله - عزَّ وجلَّ - في ذلك: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾
[الجمعة: ٩].

قال المؤلف: ومع توفيق الله لهم إليه، فيبعد أن يكونَ فعلُهم ذلك عن غير إذن من
النبي - ﷺ - لهم، فقد روى الدارقطني عن عُثْمَانَ بن أحمد بن السَّمَاك، قال: نا أحمد بن
محمَّد بن غالب الباهلي، قال: نا محمَّد بن عبد الله أبو زيد المَدِيني، قال: نا المَغِيرَةُ بن
عبد الرحمن، قال: حدَّثني مالك عن الزُّهْرِيِّ عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله عن ابن عباس،
قال: أذن النبي ﷺ بالجمعة قبل أن يهاجر، ولم يستطع: رسولُ الله - ﷺ - أن يجمع
بمكة، ولا يُبدي لهم، فكتب إلى مُضْعَب بن عُمَيْر: أما بعد: فانظر اليوم الذي تَجْهَر فيه
اليهود بِالزُّبُورِ لِسَبْتِهِمْ، فأجمَعُوا نساءكم وأبناءكم، فإذا مال النهار عن شَطْرِهِ عند الزَّوال من
يوم الجمعة، فتقربوا إلى الله بركعتين قال: فأول من جَمَعَ: مُضْعَب بن عُمَيْر، حتى قدم
رسول الله ﷺ - المدينة، فجمع عند الزوال من الظهر^(١)، وأظهر ذلك، ومعنى قول
النبي - ﷺ - «أضلَّته اليهود والنصارى، وهذاكم الله إليه فيما ذكر أهل العلم أن اليهود أمِروا
بيوم من الأسبوع، يعظَّمون الله فيه، ويتفرغون لعبادته، فاخْتاروا من قِبَلِ أنفسهم السبت
فألزَّموه في شرعهم، كذلك النصارى أمِروا على لسان عيسى بيوم من الأسبوع، فاخْتاروا من
قِبَلِ أنفسهم الأحد، فألزَّموه شُرْعًا لهم.

قال المؤلف: وكان اليهود إنما اختاروا السبت، لأنهم اعتقدوه اليوم السابع، ثم زادوا
لكفرهم أن الله استراح فيه، تعالى الله عن قولهم، لأن بَدْءَ الخَلْق عندهم الأحد، وآخر الستة
الأيام التي خلق الله فيها الخلق الجمعة، وهو أيضًا مذهب النصارى، فاخْتاروا الأحد، لأنه
أول الأيام في زعمهم، وقد شهد الرسول - ﷺ - للفريقين بإضلال اليوم، وقال في صحيح
مُسْلِم: «إن الله خلق التربة يوم السبت»^(٢)، فبيِّن أن أول الأيام التي خلق الله فيها الخلق
السبت، وآخر الأيام الستة إذا الخميس، وكذلك قال ابن إسحق فيما ذكر عنه الطبري، وفي
الأثر أن يوم الجمعة سُمِّي الجمعة، لأنه جُمِع فيه خَلْق آدم، روي ذلك عن سَلْمَانَ وغيره،
وقد قدمنا في حديث الكَشْي أن الأنصار سَمَّوْهُ جُمُعَةً لاجتماعهم فيه، فهداهم الله إلى

(١) أخرجه الدارقطني.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٤٩) وأحمد (٣٢٧٢) والبيهقي في الصفات (٢٦) بتحقيقه. وانظر ما قاله شيخ
الإسلام حول هذا الحديث في الفتاوى (١٨/١٨).

التسمية، وهداهم إلى اختيار اليوم، وموافقة الحكمة أن الله تعالى لما بدأ فيه خَلْقَ آدَمَ، وجعل فيه بَدْءَ هذا الجنس، وهو البشر، وجعل فيه أيضًا فناءهم وانقضاءهم إذ فيه تقوم الساعة، وجب أن يكون يومَ ذِكْرِ وعبادة، لأنه تذكرة بالمبدأ، وتذكرة بالمعاد، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩] وخص البيع لأنه يومٌ يُذَكَّرُ باليوم الذي لَا بَيْعَ فيه ولا خُلَّةَ مع أنه وثرٌ للأيام التي قبله في الأصح من القول، والله يحب الوثر، لأنه من أسمائه فكان من هُدَى الله لهذه الأمة أن أَلْهِمُوا إليه ثم أَقْرُوا عليه لَمَّا وافقوا الحكمة فيه، فهم الآخرون السابقون يوم القيامة، كما قال عليه السلام، كما أن اليوم الذي اختاروه سابقٌ لما اختارته اليهود والنصارى، ومتقدم عليه، ولذلك كان يقرأ رسول الله ﷺ سورة السجدة في صبح يوم الجمعة رواه سَعِيدُ بْنُ إِبراهيم عن الأعرج عن أبي هريرة، ورواه مُسْلِمُ البَطِينُ عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عن ابن عباس كلاهما عن النبي - ﷺ - ورواه عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أيضًا عَزُورَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ذَكَرَهُ الْبَزَارُ، ورواه الترمذي في كتاب العلل له عن الأحوص، ورواه أيضًا عن أَبِي الْأَحْوَصِ، وعن عَلْقَمَةَ عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ لما فيه من ذكر الستة الأيام واتباعها بذكر خلق آدم من طين، وذلك في يوم الجمعة تنبيهًا منه عليه السلام على الحكمة، وتذكرة للقلوب بهذه الموعظة.

وأما قراءته: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ في الركعة الثانية، فلِمَا فيها من ذكر السَّعْيِ وشكر الله لهم عليه يقول: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ مع ما في أولها من ذكر بَدْءِ خلق الإنسان، وأنه لم يكن قبل شيئًا مذكورًا، وقد قال في يوم الجمعة: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فبه بقراءته إياها على التأهب للسعي المشكور عليه والله أعلم، ألا ترى أنه كان كثيرًا ما يقرأ في صلاة الجمعة أيضًا بِهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ، وذلك أن فيها: ﴿لَسَعْيُهَا رَاضِيَةٌ﴾ كما في سورة الجمعة، ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فَاسْتَحَبَّ عليه السلام أن يقرأ في الثانية ما فيه رضاهم بسعيهم المأمور به في السورة الأولى.

لفظ الجمعة:

ولفظ الجمعة مأخوذ من الاجتماع، كما قدمنا وكان على وزن فُعْلَةٌ وفُعْلَةٌ لأنه في معنى فُعْلَةٍ، وقُرْبَةٍ والعرب تأتي بلفظ الكلمة على وزن ما هو في معناها، وقالوا: عُمْرَةٌ، فاشتقوا اسمها من عِمَارَةِ المسجد الحرام، وبنوه على فُعْلَةٍ لأنها وَضْلَةٌ وقُرْبَةٌ إلى الله، ولهذا الأصل فروغٌ في كلام العرب، ونظائر لهذين الاسمين يُفِيئُنَا تَبَعَهُ عَمَّا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ، وفيما قَدَّمْنَاهُ ما هو أكثر من لَمَحَةٍ دالة، وقالوا في الجمعة جَمَعَ بتشديد الميم كما قالوا عَيْدٌ إذا شهد العيد،

وَعَرَفَ إِذَا شَهِدَ عَرَفَةَ، وَلَا يُقَالُ فِي غَيْرِ الْجُمُعَةِ إِلَّا جَمَعَ بِالْتَّخْفِيفِ، وَفِي الْبَخَارِيِّ: أَوَّلُ مَنْ عَرَفَ بِالْبَصْرَةِ: ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالتَّعْرِيفُ إِنَّمَا هُوَ بِعَرَفَاتٍ، فَكَيْفَ بِالْبَصْرَةِ، وَلَكِنْ مَعْنَاهُ أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا صَلَّى الْعَصْرَ يَوْمَ عَرَفَةَ أَخَذَ فِي الدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَالضَّرَاعَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ عَرَفَةَ.

أيام الأسبوع:

وليس في تسميته هذه الأيام والاثنتين إلى الخميس ما يشد قول من قال: إن أول الأسبوع: الأحد وسابغها السبت، كما قال أهل الكتاب لأنها تسمية طارئة، وإنما كانت أسماؤها في اللغة القديمة شِيَارَ وَأَوَّلُ وَأَهْوَنَ وَجَبَّارَ وَدُبَّارَ وَمُؤْنَسَ وَالْعَزَوِيَّةَ، وَأَسْمَاؤها بالسريانية قبل هذا أبو جاد هَوَزَ حُطِّي إلى آخرها، ولو كان الله تعالى ذكرها في القرآن بهذه الأسماء المشتقة من العدد، لقلنا: هي تسمية صادقة على المسمَّى بها، ولكنه لم يذكر منها إلا الجمعة والسَّبْتُ، وليس من المُشْتَقَّةِ مِنَ الْعَدَدِ، وَلَمْ يُسَمَّهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - بِالْأَحَدِ وَالْاثْنَيْنِ إِلَى سَائِرِهَا إِلَّا حَاكِيًا لِللُّغَةِ قَوْمَهُ لَا مُبْتَدِئًا لِتَسْمِيَّتِهَا، وَلَعَلَّ قَوْمَهُ أَنْ يَكُونُوا أَخَذُوا مَعَانِي هَذِهِ الْأَسْمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمَجَاوِرِينَ لَهُمْ، فَأَلْفَوْا عَلَيْهَا هَذِهِ الْأَسْمَاءَ اتِّبَاعًا لَهُمْ، وَإِلَّا فَقَدْ قَدَمْنَا مَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الثُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَالْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، الْحَدِيثُ، وَالْعَجَبُ مِنَ الطَّبْرِيِّ عَلَى تَبَحُّرِهِ فِي الْعِلْمِ كَيْفَ خَالَفَ مُقْتَضَى هَذَا الْحَدِيثِ، وَأَعْتَقَ فِي الرَّدِّ عَلَى ابْنِ إِسْحَاقَ وَغَيْرِهِ، وَمَالَ إِلَى قَوْلِ الْيَهُودِ فِي أَنَّ الْأَحَدَ هُوَ الْأَوَّلُ وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ سَادِسٌ لَا وَتَرٍ وَإِنَّمَا الْوَتَرُ فِي قَوْلِهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ مَعَ مَا ثَبَتَ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَضَلَّتْهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَهَذَا كَمِ اللَّهِ إِلَيْهِ، وَمَا احْتَجَّ بِهِ بِالطَّبْرِيِّ مِنْ حَدِيثٍ آخَرَ، فَلَيْسَ فِي الصَّحَّةِ كَالَّذِي قَدَمْنَاهُ، وَقَدْ يُمْكِنُ فِيهِ التَّأْوِيلُ أَيْضًا، فَقَفَّ بِقَلْبِكَ عَلَى حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي تَعْبُدِ الْخَلْقِ بِهِ لَمَّا فِيهِ مِنَ التَّذَكُّرَةِ بِإِنْشَاءِ هَذَا الْجِنْسِ وَمَبْدِئِهِ، كَمَا قَدَمْنَا، وَلَمَّا فِيهِ أَيْضًا مِنَ التَّذَكُّرَةِ بِأَحْدِيَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَانْفِرَادِهِ قَبْلَ الْخَلْقِ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّكَ إِذَا كُنْتَ فِي الْجُمُعَةِ، وَتَفَكَّرْتَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ قَبْلَهُ حَتَّى يَتَرَقَّى وَهْمُكَ إِلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي خَلَقَ فِيهَا أَبُوكَ آدَمَ ثُمَّ فَكَّرْتَ فِي الْأَيَّامِ السَّتَةِ الَّتِي قَبْلَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَجَدْتَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْهَا جِنْسًا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ مَوْجُودًا إِلَى السَّبْتِ، ثُمَّ انْقَطَعَ وَهْمُكَ فَلَمْ تَجِدْ فِي الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِي ذَلِكَ السَّبْتَ وَجُودًا إِلَّا لِلوَاحِدِ الصَّمَدِ الْوَتَرِ، فَقَدْ ذَكَرْتَ الْجُمُعَةَ مَنْ تَفَكَّرَ بِوَخْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَأَوَّلِيَّتِهِ، فَوَجِبَ أَنْ يُؤَكَّدَ فِي هَذَا الْيَوْمِ تَوْحِيدَ الْقَلْبِ لِلرَّبِّ بِالذِّكْرِ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ الْجُمُعَةِ. وَأَنْ يَتَأَكَّدَ ذَلِكَ الذِّكْرُ بِالْعَمَلِ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ مُشَاكِلًا لِمَعْنَى التَّوْحِيدِ، فَيَكُونُ الْاجْتِمَاعُ فِي مَسْجِدٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمَسَاجِدِ، وَإِلَى إِمَامٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ،

إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير

قال ابن إسحاق: وحدثني عبيد الله بن المغيرة بنُ مُعَيْقِب، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أسعد بن زُرارة خرج بمُضْعَب بن عُمَيْر يريد به دار بني عَبْدِ الْأَشْهَل، ودار بني ظَفَر، وكان سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زَيْد بن عبد الأشهل ابن خالة أسعد بن زُرارة، فدخل به حائطًا من حوائط بني ظَفَر.

قال ابن هشام: واسم ظَفَر: كَغَب بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس - قالوا: على يثر يقال لها: يثر مَرَق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ، وأُسَيْد بن حُضَيْر، يومئذ سيدًا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مُشْرِك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن مُعَاذ لِأُسَيْد بن حُضَيْر: لا أبالك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضُعفاءنا،

ويخطب ذلك الإمام، فيذكر بوحدانية الله تعالى وبلقائه، فيشاكل الفعل القول، والقول المعتقد، فتأمل هذه الأغراض بقلبك، فإنها تذكرة بالحق، وقد زدنا على ما شرطنا في أول الكتاب معاني لم تكن هنالك، وعدنا بها، ولكن الكلام يفتح بعضه باب بعض، ويحدو المتكلم قصد البيات إلى الإطالة، ولا بأس بالزيادة من الخير، والله المستعان.

إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير^(١)

وسمع أهل مكة هاتفاً يهتف، ويقول قبل إسلام سعد:

فإن يسلم السَّعْدَانِ يَصْبِحَ مُحَمَّدٌ بِمَكَّةَ لَا يَخْشَى خِلَافَ الْمُخَالِفِ
فَحَسِبُوا أَنَّهُ يَرِيدُ بِالسَّعْدَيْنِ: الْقَبِيلَتَيْنِ سَعْدَ هُذَيْمٍ مِنْ قُضَاعَةٍ، وَسَعْدَ بْنَ زَيْدٍ مَنَاءَ بْنِ تَمِيمٍ، حَتَّى سَمِعُوهُ يَقُولُ:

فِيَا سَعْدَ سَعْدِ الْأَوْسِ كُنْ أَنْتَ نَاصِرًا وَيَا سَعْدَ سَعْدِ الْخَزْرَجِيِّنَ الْغَطَارِفِ
أَجِيبَا إِلَى دَاعِي الْهَدْيِ وَتَمَنِّيَا عَلَى اللَّهِ فِي الْفِرْدَوْسِ مُنْيَةً عَارِفِ
فَعَلِمُوا حَيْثُذَ أَنَّهُ يَرِيدُ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ^(٢).

(١) له ترجمة في الإصابة (٣٩/١) تاريخ الصحابة (٣٠) الاستيعاب (٥٤/١) الطبقات (٦٠٣/٣) مشاهير علماء الأمصار لابن حبان (٣٦) بتحقيقي.

(٢) انظر الفتحة (٩٧/٧).

فأُجْزِئُهُمَا وَإِنَّهُمَا عَنْ أَنْ يَأْتِيَا دَارَيْنَا، فَإِنَّهُ لَوْلَا أَنْ أَسْعَدَ بْنَ زُرَّارَةَ مِنْنِي حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ كَفَيْتُكَ ذَلِكَ، هُوَ ابْنُ خَالَتِي، وَلَا أَجِدُ عَلَيْهِ مَقْدَمًا، قَالَ: فَأَخَذَ أَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ حَزْبَتَهُ ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِمَا، فَلَمَّا رَأَاهُ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، قَالَ لِمَصْعَبِ بْنِ عَمِيرٍ: هَذَا سَيِّدُ قَوْمِهِ قَدْ جَاءَكَ، فَاصْذُقْ اللَّهَ فِيهِ، قَالَ مَصْعَبٌ: إِنْ يَجْلِسُ أَكَلِمَهُ. قَالَ: فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا مُتَشَتِّمًا، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكُمَا إِلَيْنَا تَسْقُفُهُانِ ضَعْفَاءَانِ؟ اعْتَزَلَانَا إِنْ كَانَتْ لَكُمَا بِأَنْفُسِكُمَا حَاجَةٌ، فَقَالَ لَهُ مَصْعَبٌ: أَوْ تَجْلِسُ فَتَسْمَعُ، فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا قَبْلَتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ كُفَّ عَنْكَ مَا تَكْرَهُ؟ قَالَ: أَنْصَفْتُ، ثُمَّ رَكَزَ حَزْبَتَهُ وَجَلَسَ إِلَيْهِمَا، فَكَلَّمَهُ مُضْعَبٌ بِالْإِسْلَامِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ؛ فَقَالَا: فِيمَا يَذْكُرُ عَنْهُمَا: وَاللَّهِ لَعَرَفْنَا فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي إِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الْكَلَامَ وَأَجْمَلَهُ! كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا فِي هَذَا الدِّينِ؟ قَالَا لَهُ: تَغْتَسِلُ فَتُطَهَّرُ وَتُطَهَّرُ ثَوْبِيكَ، ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثُمَّ تَصَلِّي. فَقَامَ فَاغْتَسَلَ وَطَهَّرَ ثَوْبِيهِ، وَتَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثُمَّ قَامَ فَرَكِعَ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: إِنْ وَرَائِي رَجُلًا إِنْ اتَّبَعَكُمَا لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ، وَسَارِسَلَهُ إِلَيْكُمَا الْآنَ، سَعْدَ بْنَ مَعَاذٍ،

هل يغتسل الكافر إذا أسلم؟

وذكر فيه اغتسالهما حين أسلما بأمر مُضْعَبِ بْنِ عَمِيرٍ لهما بذلك، فذلك السُّنَّةُ فِي كُلِّ كَافِرٍ يَسْلَمُ، ثُمَّ اخْتَلَفَ فِي نِيَةِ الْكَافِرِ إِذَا أَسْلَمَ بِاغْتِسَالِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ يَنْوِي بِهِ رَفْعَ الْجَنَابَةِ عَنْ نَفْسِهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَنْوِي التَّعَبُّدَ، وَلَا حُكْمَ لِلْجَنَابَةِ فِي حَقِّهِ، لِأَنَّ مَعْنَى الْأَمْرِ بِهِ اسْتِبَاحَةَ الصَّلَاةِ، وَالْكَافِرُ لَا يَصَلِّي، وَإِنْ كَانَ مَخَاطَبًا فِي أَصْحَابِ الْقَوْلَيْنِ، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ مُشْرُوطٌ بِالْإِيمَانِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ - وَهُوَ الشَّرْطُ الْأَوَّلُ - فَأُجْدِزُ بِأَنْ يَكُونَ - الشَّرْطُ الثَّانِي - وَهُوَ الْغَسْلُ مِنَ الْجَنَابَةِ غَيْرَ مُقَيَّدٍ بِشَيْءٍ، فَإِذَا أَسْلَمَ هَدَمَ الْإِسْلَامُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، فَلَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ إِعَادَةُ صَلَاةٍ مَضَتْ، وَإِذَا سَقَطَتِ الصَّلَوَاتُ سَقَطَتْ عَنْهَا شُرُوطُهَا، وَاسْتَأْنَفَ الْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ، فَتَجِبَ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ مِنْ حِينَ يَسْلَمُ بِشُرُوطِ أَدَائِهَا مِنْ وَضوءٍ وَغَسْلٍ مِنْ جَنَابَةٍ، إِذَا أُجْنِبَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ شُرُوطِ صِحَّةِ الصَّلَاةِ، وَرَأَيْتُ لِبَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ أَنْ اغْتَسَلَهُ سِنَّةٌ لَا فَرِيضَةٌ وَلَيْسَ عِنْدِي بِالْبَيِّنِ لِأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] وَحُكْمُ النِّجَاسَةِ إِنَّمَا يُرْفَعُ بِالطَّهَارَةِ وَلَمْ يَحْكَمْ عَلَيْهِمُ بِالتَّجَنُّيسِ لِمَوْضِعِ الْجَنَابَةِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ عُلِقَ الْحُكْمُ بِصِفَةِ الشَّرِكِ. وَالْحُكْمُ الْمَعْلَلُ بِالصِّفَةِ مُرْتَبِطٌ بِهَا فَإِذَا ارْتَفَعَ حُكْمُ الشَّرِكِ بِالْإِيمَانِ لَمْ يَبْقَ لِلْجَنَابَةِ حُكْمٌ كَمَا إِذَا كَانَ الْمُسْلِمُ جُنُبًا، ثُمَّ بَالَ فَالطَّهْوَرُ مِنَ الْجَنَابَةِ، يَرْفَعُ عَنْهُ حُكْمُ الْحَدَثِ الْأَصْغَرِ، وَهُوَ حَدَثُ الْوُضُوءِ، لِأَنَّ الطَّهَارَةَ الصُّغْرَى دَاخِلَةٌ فِي الْكُبْرَى، وَتَطْهَرُهُ مِنْ تَجَنُّيسِ الشَّرِكِ بِإِيمَانِهِ هُوَ أَيْضًا بِالإِضَافَةِ إِلَى الطَّهْرِ مِنَ الْجَنَابَةِ، الطَّهَارَةُ الْكُبْرَى، فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مُغْنِيَةً عَنْهَا، كَمَا كَانَتْ الطَّهَارَةُ مِنَ الْجَنَابَةِ مُغْنِيَةً عَنِ الطَّهَارَةِ مِنَ الْحَدَثِ، إِذَا

ثم أخذ حَزْبَتَهُ وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديتهم، فلما نظر إليه سَعْدُ بن معاذ مُقْبِلًا، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسَيْدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وَقَفَ على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كَلَّمْتُ الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بَأْسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حَدَّثْتُ أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرَّارَةَ ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليُخْفِرُوكَ قال: فقام سعد مُغْضَبًا مبادرًا، تخوفًا للذي ذُكِرَ له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغيت شيئًا، ثم خرج إليهما؛ فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أن أُسَيْدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زُرَّارَةَ: يا أبا أمامة، لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتُ هذا مني، أَتَغْشَانَا في دارنا بما نكره - وقد قال أسعدُ بن زُرَّارَةَ لمصعب بن عُمير: أي مُضْعَب، جاءك والله سيّد مَنْ وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان - قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رُضِيتَ أمرًا ورَغِبْتَ فيه قَبْلْتُهُ، وإن كرهته عَزَلْنَا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفتُ ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم، لإشراقه وتسهّله؛ ثم قال لهما: كيف تَصْنَعُونَ إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالوا: تغتسل فتطهّر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامدًا إلى نادي قومه ومعه أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ.

قال: فلما رآه قومه مقبلًا، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيّة؛ قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، ورجع أسعد ومُضْعَبُ إلى منزل أسعد بن زُرَّارَةَ، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني

ليست واحدة من هذه الطهارات مزيلةً لِعَيْنِ نجاسة فيها، فينبغي بعد هذا أن أمره بالاغتسال تعبد، والحُكْمُ بأنه غير فرض تحكُّمٌ والله أعلم، غير أن الترمذي خرج حديث قيس بن عاصم حين أسلم فأمره رسولُ الله ﷺ أن يغتسل. قال الترمذي: وعلى هذا العمل عند أهل العلم يَسْتَجِبُونَ للكافر إذا أسلم أن يغتسل، ويغسل ثيابه، فقال: يستجِبُونَ، وجعلها مسألة استحباب.

أمية بن زيد، وخطمة ووائل وواقف، وتلك أوس الله، وهم من الأوس بن حارثة؛ وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت، وهو صيفي، وكان شاعرًا لهم قائدًا يستمعون منه ويطيعون، فوقف بهم عن الإسلام، فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدرًا وأحد والخندق، وقال فيما رأى من الإسلام، وما اختلف الناس فيه من أمره:

أَرْبُ النَّاسِ أَشْيَاءُ أَلَمْتُ	يُلَفُّ الصَّغْبُ مِنْهَا بِالذُّلُولِ
أَرْبُ النَّاسِ أَمَا إِذْ ضَلَلْنَا	فَيَسِّرْنَا لِمَغْرُوفِ السَّبِيلِ
فَلَوْلَا رَبُّنَا كُنَّا يَهُودًا	وَمَا دِينَ الْيَهُودِ بَذِي شُكُولِ
وَلَوْلَا رَبُّنَا كُنَّا نَصَارَى	مَعَ الرُّهْبَانِ فِي جَبَلِ الْجَلِيلِ
وَلَكِنَّا خَلَقْنَا إِذْ خُلِقْنَا	حَنِيفًا دِينُنَا عَنْ كُلِّ جِيلِ
نَسُوقُ الْهَذِي تَرْسُفُ مُدْعَنَاتِ	مَكْشَفَةِ الْمَنَاكِبِ فِي الْجُلُولِ

قال ابن هشام: أنشدني قوله: فلولا ربنا، وقوله: لولا ربنا، وقوله: مكشفة المناكب في الجلول، رجل من الأنصار، أو من خزاعة.

من شرح شعر ابن الأسلت:

فصل: وذكر شعر أبي قيس بن الأسلت، وفيه قوله:

وَلَوْلَا رَبُّنَا كُنَّا يَهُودًا وَمَا دِينَ الْيَهُودِ بَذِي شُكُولِ

إراد جمع: شُكُل، وشُكُلُ الشيء - بالفتح - هو مثله، والشُّكْل بالكسر الدُّلُّ والحُسْنُ، فكأنه أراد أن دين اليهود بذُّع، فليس له شُكُول أي: ليس له نظير في الحقائق، ولا مثيل يعضده من الأمر المعروف المقبول، وقد قال الطائي:

وقلت: أخي. قالوا: أخٌ من قَرَابَةٍ فقلت لهم: إن الشُّكُولَ أَقَارِبُ
قَرِيبِي فِي رَأْيِي وَدِينِي وَمَذْهَبِي وَإِنْ بَاعَدْتَنَا فِي الْخُطُوبِ الْمُنَاسِبِ
وقال فيه:

مع الرهبان في جَبَلِ الْجَلِيلِ

الجليلُ بالجيم الثَّمَام، وهذا الجبل من جبال الشام معروف بهذا الاسم.

أمر العقبة الثانية^(١):

قال ابن إسحاق: ثم إن مُضْعَب بن عُمَيْر رَجَعَ إلى مكة، وخرج من خرج من الأنصار المسلمين إلى الموسم مع حُجَّاج قومهم من أهل الشُّرك، حتى قَدَمُوا مكة، فواعدوا رسولَ الله ﷺ العقبة، من أوسط أيام التشريق، حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته، والنصر لِنَبِيِّهِ، وإعزاز للإسلام وأهله، وإذلال للشرك وأهله.

البراء بن معرور وصلاة الكعبة

قال ابن إسحاق: حَدَّثَنِي مَعْبُد بن كَعْب بن مالك بن أبي كعب بن القَيْن، أخو بني سلمة، إن أخاه عبد الله بن كعب، وكان من أعلم الأنصار، حَدَّثَهُ أن أباه كَعْبًا حَدَّثَهُ، وكان كَعْبٌ مِمَّنْ شَهِدَ الْعُقْبَةَ وبَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بها، قال: خرجنا في حُجَّاج قومنا من المُشْرِكِينَ، وقد صَلَّيْنَا وَفَقَّهْنَا، ومعنا البراء بن مَعْرُور، سَيِّدُنَا وكَبِيرُنَا، فلما وَجَّهْنَا لِسَفَرِنَا، وَخَرَجْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، قال البراء لنا: يا هؤلاء، إني قد رأيت رأياً، فوالله ما أذري، أتوافقونني عليه، أم لا؟ قال: قلنا: وما ذاك؟ قد رأيت أن لا أدع هذه البَيَّةَ مني بظَهْرٍ، يعني: الكعبة، وأن أَصَلِّيَ إليها. قال: فقلنا، والله ما بَلَّغْنَا أن نَبِيَّنَا ﷺ يصلي إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه. قال: فقال: إني لَمُصَلٍّ إليها قال: فقلنا له: لَكُنَّا لَا نَفْعَلُ. قال: فكنا إذا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ صَلَّيْنَا إلى الشام، وصلى إلى الكعبة، حتى قَدِمْنَا مكة. قال: وقد كنا عِيبًا عليه ما صنع، وأتى إلا الإقامة على ذلك فلما قَدِمْنَا مكة قال لي: يا ابن أخي، انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ، حتى نسأله عما صَنَعْتُ في سَفَرِي هذا، فإنه والله لقد وَقَعَ في نفسي منه شيء، لِمَا رَأَيْتُ من خِلَافِكُمْ إِيَّاي فيه. قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ، وكُنَّا لَا نَعْرِفُهُ، وَلَمْ نَرَهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَلَقِينَا رَجُلًا من أهل مكة، فسألناه عن رسول الله ﷺ، فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا؛ قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عَمَّهُ؟ قال: قلنا: نعم - قال: وقد كُنَّا نعرف العباس، كان لا يزال يقدِّم

ذكر البراء بن معرور، وصلاته إلى القبلة^(٢)

ذكر حديث كعب بن مالك حين حَجَّ في نَفَرٍ من قومه مع البراء بن مَعْرُور، فكانوا يُصَلُّونَ إلى بيت المَقْدَس، وكان البراء يصلي إلى الكعبة الحديث - إلى قول رسول

(١) انظر تاريخ الطبري (٣٦٠/٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٢٠٠/٢) البداية والنهاية (١٥٠/٣) طبقات ابن سعد (٢٢١/١) المنتظم (٣٤/٣) الدلائل للبيهقي (٤٤٢/٢).

(٢) انظر تاريخ الطبري (٣٦٠/٢) الدلائل للبيهقي (٤٤٤/٢) المنتظم (٣٤/٣) الاستيعاب (١٥١/١).

علينا تاجرًا - قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجلُ الجالسُ مع العباس. قال: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالسٌ، ورسولُ الله ﷺ جالسٌ معه، فسَلَّمنا ثم جلسنا إليه. فقال رسولُ الله ﷺ للعباس: «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟» قال: نعم، هذا البراء بن مَعْرُور، سيّد قومه، وهذا كعب بن مالك. قال: فوالله ما أنسى قولَ رسول الله ﷺ: الشاعر؟ قال: نعم. فقال البراء بن مَعْرُور: يا نبيَّ الله، إني خرجتُ في سفري هذا، وقد هداني الله للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البَيِّنة مني بظَهْر، فصَلَّيتُ إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «قد كنتَ على قِبلة لو صبرتَ عليها». قال: فرجع البراءُ إلى قِبلة رسول الله ﷺ، وصَلَّى معنا إلى الشام. قال: وأهلُه يزعمون أنه صَلَّى إلى الكعبة حتى مات، وليس ذلك كما قالوا، نحن أعلم به منهم.

قال ابن هشام: وقال عَوْن بن أيوب الأنصاري:
وَمِنَّا الْمُصَلِّي أَوَّلَ النَّاسِ مُقْبِلًا عَلَى كَعْبَةِ الرَّحْمَنِ بَيْنَ الْمَشَاعِرِ
يعني البراء بن مَعْرُور. وهذا البيت في قصيدة له.

الله - ﷺ -: «قد كنت على قِبلة لو صبرت عليها» فَقُهُ قَوْلُهُ: لو صبرت عليها: أنه لم يأمره بإعادة ما قد صَلَّى؛ لأنه كان مُتَأَوِّلًا.

قِبلة الرسول ﷺ:

وفي الحديث: دليلٌ على أنَّ رسول الله ﷺ، كان يصلي بمكة إلى بيت المقدس، وهو قول ابن عباس، وقالت طائفة: ما صَلَّى إلى بيت المقدس إلا مذ قَدِمَ المدينة سَبْعَةَ عَشْرَ شَهْرًا أو ستة عشر شهرًا^(١)، فعلى هذا يكون في القِبلة نسخان نَسْخُ سُنَّةٍ بِسُنَّةٍ، ونسخ سُنَّةٍ بقرآن، وقد بيّن حديثُ ابن عباس منشأ الخلاف في هذه المسألة، فروى عنه من طرق صحاح أن رسول الله ﷺ، كان إذا صَلَّى بمكة استقبل بيت المقدس، وجعل الكعبةَ بينه وبين بيت المقدس، فلمّا كان عليه السلام يتحرّى القبلتين جميعًا لم يَبَيّن توجُّهه إلى بيت المقدس للناس، حتى خرج من مكة والله أعلم. قال الله تعالى له في الآية الناسخة: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٥٠] أي: من أي جهة جئت إلى الصلاة، وخرجت إليها فاستقبل الكعبةَ كنت مُسْتَدْبِرًا لبيت المقدس، أو لم تكن، لأنه كان بمكة يتحرّى في استقباله بيت المقدس أن تكون الكعبةُ بين يديه، وتدبر قوله تعالى: ﴿وَمِنْ

(١) انظر البخاري (١/٣٣).

إسلام عبد الله بن عمرو بن حرام^(١):

قال ابن إسحاق: حَدَّثَنِي مَعْبُدُ بْنُ كَعْبٍ، أَنَّ أَخَاهُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ حَدَّثَهُ أَنَّ أَبَاهُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُ، قَالَ كَعْبٌ: ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى الْحَجِّ، وَوَاعَدَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْعَقْبَةِ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ. قَالَ: فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الْحَجِّ، وَكَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَاعَدَنَا رَسُولُ

حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلُ وَجْهِكَ ﴿﴾ وَقَالَ لِأَمْتِهِ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: حَيْثَمَا خَرَجْتُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِمَامَ الْمُسْلِمِينَ، فَكَانَ يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ إِلَى كُلِّ صَلَاةٍ لِيُصَلِّيَ بِهِمْ، وَكَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَيْهِ إِذْ كَانَ الْإِمَامُ الْمُقْتَدَى بِهِ فَأَفَادَ ذِكْرُ الْخُرُوجِ فِي خَاصَّتِهِ فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَلَمْ يَكُنْ حُكْمٌ غَيْرُهُ هَكَذَا، يَقْتَضِي الْخُرُوجَ، وَلَا سَيِّمًا النِّسَاءَ، وَمَنْ لَا جَمَاعَةَ عَلَيْهِ، وَكَرَّرَ الْبَارِي تَعَالَى الْأَمْرَ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ، لِأَنَّ الْمُتَكِّرِينَ لِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ، كَانُوا ثَلَاثَةً أَصْنَافٍ مِنَ النَّاسِ الْيَهُودَ، لِأَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِالنَّسْخِ فِي أَصْلِ مَذْهَبِهِمْ، وَأَهْلُ الرُّيْبِ وَالتُّفَاقِ اشْتَدَّ انْكَارُهُمْ لَهُ أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ نَسْخٍ نَزَلَ، وَكَفَارَ قُرَيْشٌ قَالُوا: نَذِمَ مُحَمَّدٌ عَلَى فِرَاقِ دِينِنَا فَسِيرَجِعْ إِلَيْهِ كَمَا رَجَعَ إِلَيْهِ قَبْلَتُنَا، وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَحْتَجُّونَ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ أَنَّهُ يَدْعُونَا إِلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، وَقَدْ فَارَقَ قِبْلَةَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، وَآثَرَ عَلَيْهَا قِبْلَةَ الْيَهُودِ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُ حِينَ أَمَرَهُ بِالصَّلَاةِ إِلَى الْكَعْبَةِ ﴿لَيْلًا﴾ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴿[البقرة: ١٥٠] عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ الْمُنْقَطِعِ، أَيْ: لَكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ لَا يَرْجِعُونَ وَلَا يَهْتَدُونَ وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] أَيْ: مِنَ الَّذِينَ شَكُّوا وَامْتَرَوْا، وَمَعْنَى: الْحَقُّ مِنَ رَبِّكَ فَلَا أَيْ الَّذِي أَمَرْتُكَ بِهِ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ، هُوَ الْحَقُّ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَكَ فَلَا تَمْتَرُ فِي ذَلِكَ وَقَالَ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٤٤] وَقَالَ: ﴿وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] أَيْ يَكْتُمُونَ مَا عَلِمُوا مِنْ أَنَّ الْكَعْبَةَ هِيَ قِبْلَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ السِّنْجَرِيُّ فِي كِتَابِ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ لَهُ وَهُوَ فِي رَوَايَتِنَا عَنْهُ بِسَنَدٍ رَفِيعٍ حَدَّثَنَا الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ قَالَ: أَنَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَيُّوبَ الْبَزَارِ، قَالَ: أَنَا أَبُو عَلِيٍّ بْنُ شَاذَانَ قَالَ: أَنَا أَبُو بَكْرٍ الْفَقِيهَ النَّجَّارَ أَحْمَدَ بْنَ سُلَيْمَانَ عَنْهُ، قَالَ: نَا أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ، قَالَ: نَا عَتَبَسَةُ بْنُ يُونُسَ عَنْ ابْنِ شَهَابٍ قَالَ: كَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لَا يَعْظُمُ إِلَّا بَنِيَّاءَ كَمَا يَعْظُمُهَا أَهْلُ بَيْتِهِ، قَالَ: فَسَرْتُ مَعَهُ، وَهُوَ وَلِيَّ عَهْدٍ، قَالَ: وَمَعَهُ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ، قَالَ سُلَيْمَانُ: وَهُوَ جَالِسٌ فِيهِ: وَاللَّهِ إِنَّ فِي هَذِهِ الْقِبْلَةِ الَّتِي صَلَّى إِلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ وَالنَّصَارَى لَعَجَبًا، قَالَ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ: أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي

(١) الخبر في تاريخ الطبري (٣٦٠/٢) الدلائل (٤٤٤/٢) المنتظم (٣٤/٣).

الله ﷺ لها، ومعنا عبدُ الله بن عمرو بن حَرَام أبو جابر، سيّد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكُنّا نكتُم مَن معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلّمناه وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيّد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنّا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حَظِيًّا للنارِ غدا، ثم دَعَوْنَاهُ إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة. قال: فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيًّا.

امرأتان في البيعة

قال: فَمِنَّمَا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مَضَى ثلثُ الليلِ خَرَجْنَا من رحالنا لمعاد رسول الله ﷺ، نَسْلُلُ نَسْلُلَ القَطَا مُسْتَخْفِينَ، حتى اجتمعنا في الشَّعْبِ عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نساءنا نُسَيِّية بنت كعب، أم عُمَارَةَ،

لأقرأ الكتابَ الذي أنزله الله على محمد - ﷺ - وأقرأ التوراة، فلم يجدها اليهود في الكتاب الذي أنزله الله عليهم، ولكن تابوت السَّكِينَةِ كان على الصخرة، فلما غضب الله تعالى على بني إسرائيل رفعه، فكانت صلاتهم إلى الصَّخْرَةِ عن مُبَاهَرَةٍ منهم^(١)، وروى أبو داود أيضًا أن يهوديًا خاصم أبا العالية في القِبلَةِ، فقال أبو العالية: إن موسى عليه السلام كان يصلي عند الصخرة، ويستقبل البيت الحرام، فكانت الكعبةُ قبلَةً، وكانت الصخرة بين يديه، وقال اليهودي: بيني وبينك مسجدُ صالح النبي ﷺ، فقال أبو العالية: إني صليت في مسجد صالح وقبلته الكعبة، وأخبر أبو العالية أنه رأى مسجدَ ذي القَرْنَيْنِ وقبلته الكعبة، وروي أيضًا أن النبي ﷺ، كان يقول لجبريل: وَدِدْتُ أَنْ اللهُ حَوَّلَنِي عَنْ قِبَلَةِ الْيَهُودِ، فيقول له جبريل: إنما أنا عبدٌ مأمور^(٢)، وروى غيره أنه كان يُتَّبِعُهُ بِصَرِّهِ إِذَا عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ جِرْصًا عَلَى أَنْ يَأْمُرَهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

أم عمارَة وأم منيع في بيعة العقبة الأخرى

وذكر بيعة العقبة، وذكر عِدَّةُ أصحابِ بَيْعَةِ العقبة، وأنهم كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، وهما: أم عُمَارَةَ وهي نُسَيِّية بنت كعب امرأة زيد بن عاصم شهدت بيعة العقبة وبيعة الرضوان، وشهدت يوم اليمامة، وباشرت القتال بنفسها، وشاركت ابنها عبد الله في قتل مُسَيِّلِمَةَ، فَقَطِعتْ يَدَهَا، وَجُرِحتْ اثنا عشر جُرْحًا، ثم عاشت بعد ذلك دَهْرًا، وكان

(١) أخرجه البزار (٢/٢٤٦).

(٢) انظر الدر المنثور (١/١٤٢).

إحدى نساء بني مازن بن النجَّار، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي، إحدى نساء بني سلمة، وهي أم مَنيع.

العباس والأنصار:

قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسولَ الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه العباسُ بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحبُّ أن يحضرَ أمرَ ابن أخيه ويتوثقَ له. فلما جلسَ كان أولَ متكلِّم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج - قال: وكانت العرب إنما يسمُّون هذا الحيَّ من الأنصار، الخزرج، خزرجها وأوسها -: إن محمَّدًا مثًا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا؛ ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحيازَ إليكم، واللُّحوقَ بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمَّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عزٍّ ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذْ لنفسك ولربِّك ما أحببت.

عهد الرسول عليه الصلاة والسلام على الأنصار:

قال: فتكلَّم رسولُ الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، قال: فأخذ البراء بن

الناس يأتونها بمرضاهم، لِتَشْفِي لَهُمْ، فَمَسَحَ بِيدها الشَّلَاءَ على العليل، وتدعو له، فَقُلَّ ما مَسَحَتْ بيدها ذا عاهةٍ إِلَّا بَرِيءٌ^(١).

والأخرى: أسماء بنت عمرو أم مَنيع، وقد رفع في نسبها ونسب الأخرى ابن إسحق، ويُرْوَى أن أم عُمارة قالت لرسول الله - ﷺ -: ما أرى كلَّ شيء إلا للرجال، وما أرى للنساء شيئاً، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآية.

قول البراء بن معرور:

وذكر قول البراء بن معرور، وهو أول من ضَرَبَ بيده على يد رسول الله ﷺ، بالبيعة على اختلافٍ في ذلك قد ذكره ابن إسحق، فقال: نبايعك على أن نمنعك مما نمنع منه

(١) انظر ترجمة لها في الاستيعاب (١٩٤٨/٤) الطبقات (٤١٢/٨) الإصابة (٤١٨/٤).

مغرور بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق، لنمنعك مما نمنع منه أُرْزْنَا فبإيعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحروب، وأهل الحَلَقَة، ورثناها كابراً [عن كابر]. قال: فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله ﷺ، أبو الهيثم بن التيهان فقال يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبلاً، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيّت إن نحن فَعَلْنَا

أُرْزْنَا، أراد: نساءنا، والعربُ تَكْنِي عن المرأة بالإزار، وتَكْنِي أيضاً بالإزار عن النفس، وتجعل الثوب عبارةً عن لابسِه كما قال:

رَمَوْهَا بِأَثْوَابِ خِفَافٍ فَلَا تَرَى لَهَا شَبَهًا إِلَّا التَّعَامَ الْمُنفَرَا

أي: بأبدانٍ خِفَافٍ، فقوله مما نمنع أُرْزْنَا يحتمل الوجهين جميعاً، وقد قال الفارسي في قول الرجل الذي كتب إلى عُمر من الغزو يذكره بأهله:

أَلَا أَبْلِغُ أَبَا حَفْصٍ رَسُولاً فِدَى لَكَ مِنْ أَخِي ثِقَّةً إِزَارِي

قال: الإزار: كناية عن الأهل، وهو في موضع نصب بالإغراء أي: اخفَظْ إِزَارِي، وقال ابن قتيبة: الإزار في هذا البيت كناية عن نفسه، ومعناه فداً لك نفسي، وهذا القول هو المَرَضِيُّ في العربية، والذي قاله الفارسي بعيد عن الصواب، لأنه أضمر المبتدأ، وأضمر الفعل الناصب للإزار، ولا دليل عليه لبعده، عنه، وبعد البيت ما يدل على صحة القول المختار وهو:

قَلَانَصْنَا هَذَاكَ اللَّهُ مَهْلاً شُغِلْنَا عَنْكُمْ زَمَنَ الْجِصَارِ

فنصب قَلَانَصْنَا بالإضمار الذي جعله الفارسي ناصباً للإزار.

ترجمة البراء^(١):

والبراء بن مغرور يُكْنَى أبا بشر بابنه بشر بن البراء، وهو الذي أكل مع رسول الله - ﷺ - من الشاة المسمومة، فمات ومغرور اسم أبيه، معناه: مَقْصُود يقال: عَرَّه وَاغْتَرَّه إذا قَصَدَ، والبراء هذا ممن صَلَّى رسولُ الله ﷺ - على قبره بعد موته وكَبُرَ أَرِيْعًا، وفي هذا الحديث الصلاة على القبر، وقد رُوِيَ من سِتِّ طُرُقٍ عن النبي - ﷺ - قاله أحمد بن حنبل، وذكرها كلها أبو عُمر في التمهيد، وزاد ثلاث طرق لم يذكرها ابنُ حنبل، فهي إذا تُرَوِي من - تسع طُرُقٍ أعني أن - تَسَعَةً من الصحابة رَوَوْا صلاته عليه السلام على القبر،

(١) انظر ترجمته في الإصابة (١٤٤/١) الطبقات (٦١٨/٣) تاريخ الصحابة لابن حبان (١٠٢) الاستيعاب (١٥١/١).

ذلك، ثم أظهرَكَ الله أن ترجعَ إلى قومك وتَدْعنا؟ قال: فتبسم رسولُ الله ﷺ، ثم قال: بل الدم الدم، والهَدم الهَدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب مَنْ حاربتهم، وأسالم مَنْ سالمتم^(١).

قال ابن هشام: ويقال: الهَدم الهَدم: أي ذممتي وخرمتي وخرمتكم.

قال كعب: وقد قال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبًا، ليكونوا على قومهم بما فيهم». فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبًا، تسعة من الخزرج، وثلاثة الأوس.

فمنهم ابن عباس، وأنس بن مالك وبُرَيْدَة، وأبو هريرة، وزيد بن ثابت، وعامر بن فُهَيْرَة وأبو قتادة الأنصاري، وسَهْل بن حُثَيْف، وعُبَادَة بن الصامت، وحديشه مُزْسَل، وأصحها إسنادًا حديثُ ابن عباس وأبي هريرة.

والهدم الهدم:

وذكر قولُ النبي - ﷺ - للمبايعين له: «بل الدُّم الدُّم والهَدم الهَدم»، وقال ابن هشام: الهَدم بفتح الدال. قال ابن قُتَيْبَة: كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار: دمي دُمك وهَدَمي هَدَمك، أي: ما هَدَمْتُ من الدماء، هَدَمْتُهُ أنا، ويقال أيضًا: بل اللُّدُم اللُّدُم والهَدم الهَدم، وأنشد:

ثم الحَقِي بِهَدَمِي وَلَدَمِي

فَاللُّدُم: جمع لادم، وهم أهلُه الذين يَلْتَدِمُون عليه إذا مات، وهو من لَدَمْتُ صدره: إذا ضَرَبْتَهُ. والهدم قال ابنُ هِشَام: الحُزْمَة، وإنما كُتِيَ عن حُزْمَة الرجل وأهلِه بالهَدم، لأنهم كانوا أهلَ نُجْعة وارتحال، ولهم بيوت يستخفونها يوم ظَغْنهم، فكلما ظَغَنُوا هَدَمُواها، والهَدم بمعنى المَهْدُوم كالقَبْض بمعنى المَقْبُوض، ثم جعلوا الهَدم وهو البيت المهدوم عبارة عما حَوَى، ثم قال: هَدَمِي هَدَمُك أي: رحلتي مع رحلتك أي لا أظعن وأدعك وأنشد يعقوب:

تَمْضِي إِذَا زُجِرَتْ عَنْ سَوَاةٍ قَدَمًا كَأَنهَا هَدَمَ فِي الْجَفْرِ مُنْقَاضُ

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٢٢/٣٢٩) والحاكم (٢/٦٢٤) وصححه وأقره الذهبي والبيهقي في الكبرى (٩/٩) وحسنه الحافظ في الفتح (٧/١٧٧).

أسماء النقباء الاثني عشر وتمام خبر العقبة النقباء من الخزرج

قال ابن هشام: من الخزرج - فيما حدثنا زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق المصلي -: أبو أمّامة أسعد بن زُرارة بن عُدس بن عُبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، وهو: تَيْمُّ الله بن ثعلبة عمرو بن الخزرج [بن حارثة]، وسعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج، وعبد الله بن رَوَاحَة بن ثعلبة امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس بن مالك [الأغر] بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج، ورافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زُرَيْق بن عَبد حارثة بن مالك بن غَضب بن جُشم بن الحَزْرَج؛ والبراء بن مغرور بن صخر بن حَنَساء بن سَيان بن عُبيد بن عَدِي بن غنم بن كعب بن سلمة بن سَعْد بن علي بن أسد بن سارِدة بن تَزِيد بن جُشم بن الخزرج، وعبد الله بن عمرو بن حَرَام بن ثعلبة بن حَرَام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة بن سَعْد بن علي بن أسد بن سارِدة بن تَزِيد بن جُشم بن الخزرج، وعُبادَة بن الصامت بن قَيْس بن أَصْرَم بن فُهر بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عَوْف بن عمرو بن عَوْف بن الخزرج.

قال ابن هشام: هو غنم بن عوف، أخو سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج.

قال ابن إسحاق: وسعد بن عبادة بن دُلَيْم بن حارثة بن أبي حَزَيْمَة بن ثعلبة بن طَرِيف بن الحَزْرَج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج، والمنذر بن عمرو بن حُنَيْس بن

مَنْ وَلِيَ النقباء

فصل: وذكر الاثني عشر نقيباً، وشعر كعب فيهم إلى آخره، وليس فيه ما يشكل، وإنما جعلهم عليه السلام اثني عشر نقيباً اقتداءً بقوله تعالى في قوم موسى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾^(١) [المائدة: ١٢] وقد سمينا أولئك النقباء بأسمائهم في كتاب التعريف والإعلام، فلينظر هنالك.

(١) في قوله أنه ﷺ جعلهم اثني عشر نقيباً اقتداءً بالقرآن - نظر - إنما الأمر كله يجري بقدر رب السموات والأرض - سبحانه وتعالى عز وجل -.

حارثة بن لؤذان بن عبد وُد بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج - قال ابن هشام: ويقال: ابن خنيش.

النقباء من الأوس:

ومن الأوس أُسَيْد بن حُضَيْر بن سِمَاكِ بن عَتِيكَ بن رَافِع بن امرئ القيس بن زَيْد بن عبد الأشهل [بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس بن حارثة، وسعد بن خَيْثَمَة بن الحارث بن مالك بن كَعْب بن التُّحَاط بن كَعْب بن حارثة بن عَنَم بن السَّلَم بن امرئ القيس [بن ثعلبة بن عمرو بن عوف] بن مالك بن الأوس [بن حارثة] ورِفاعَةُ بن عبد المُنْذِر بن زبیر بن زيد بن أُمَيَّة بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس.

شعر كعب بن مالك عن النقباء:

قال ابن هشام: وأهل العلم يعدّون فيهم أبا الهيثم بن التّيّهان، ولا يعدّون رفاعَةَ. وقال كعب بن مالك يذكرهم، فيما أنشدني أبو زيد الأنصاري:

أبلغ أُبَيّا أَنه قال رأيه	وحان غداة الشّعب والحين واقُع
أبى الله ما مَنّتك نفسك إئّه	بمزصاد أمرِ النَّاسِ راءِ وسامُع
وأبلغ أبا سُفَيان أن قد بدا لنا	بأحمدَ نورَ من هُدَى الله ساطِع
فلا تَزَعَبَنَّ في حَشْدِ أمرٍ تُريده	وألب وجمّع كُلّ ما أنت جامع
ودونك فاعلم أن نقضَ عهُودنا	أباه عليك الرّهطُ حين تبايعوا
أباه البراء وابنُ عمرو كلاهما	وأسعدُ ياباه عليك وزافع
وسغد أباه السّاعدي ومُنْذِر	لأنفِكَ إن حاولت ذلك جادِع
وما ابنُ رَبيع إن تناولت عهده	بمُسْلِمه لا يطمعن ثمّ طامع
وأيضًا فلا يُعطيكهُ ابنُ رَواحَة	وإخفاره من دونه السّمُّ ناقع
وفاء به والقوّليّ بنُ صامت	بمَنذُوحَة عما تحاول يافع
أبو هَيْثم أيضًا وفيّ بمثلها	وفاء بِما أعطى من العهد خانِع
وما ابن حُضَيْر إن أردت بمَطْمَع	فهل أنت عن أخموقَة الغي نازع

وروي عن الزُّهري أنه قال: قال النبي عليه السلام للأوس والخزرج حين قدم عليهم النقباء: «لا يغضبَنَّ أحدكم فلاني أفعل ما أومر»، وجبريلُ عليه السلام إلى جنبه

وَسَعَدَ أَخُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ فَإِنَّهُ ضَرَوْحٌ لَمَّا حَاوَلَتْ مِ الْأَمْرِ مَانِعٌ
أُولَاكَ نَجُومٌ لَا يُغْبِكُ مِنْهُمْ عَلَيْكَ بَنَخْسٍ فِي دُجَى اللَّيْلِ طَالِعٌ
فَذَكَرَ كَغَبٍ فِيهِمْ أَبَا الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ، وَلَمْ يَذْكُرْ رِفَاعَةَ.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ قال للنُّبَاء: أنتم على قومكم بما فيهم كُفَلَاء، كَكَفَالَةِ الْحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأَنَا كَفِيلٌ عَلَى قَوْمِي - يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ - قَالُوا: نَعَمْ.

مَا قَالَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبَادَةَ لِلْخَزْرَجِ قَبْلَ الْمَبَايَعَةِ:

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمرو بن قَتَادَةَ: أَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا اجْتَمَعُوا لِبَيْعَةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ الْأَنْصَارِيِّ، أَخُو بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، هَلْ تَذَرُونَ عَلَامَ تُبَايَعُونَ هَذَا الرَّجُلَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكُمْ تُبَايَعُونَهُ عَلَى حَزْبِ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ مِنَ النَّاسِ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنْكُمْ إِذَا نُهَكْتُمْ أَمْوَالُكُمْ مُصِيبَةً، وَأَشْرَافُكُمْ قَتْلًا أَسْلَمْتُمُوهُ، فَمَنْ الْآنَ، فَهُوَ وَاللَّهِ - إِنْ فَعَلْتُمْ خِزْيُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنْكُمْ وَأَفُونُ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ عَلَى نُهَكَةِ الْأَمْوَالِ، وَقَتْلِ الْأَشْرَافِ، فَخُذُوهُ، فَهُوَ وَاللَّهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالُوا: فَإِنَّا نَأْخُذُهُ عَلَى مُصِيبَةِ الْأَمْوَالِ، وَقَتْلِ الْأَشْرَافِ، فَمَا لَنَا بِذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ نَحْنُ وَقَيْنَا؟ قَالَ: «الْجَنَّةُ». قَالُوا: أَبْسُطْ يَدَكَ، فَبَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعُوهُ.

وَأَمَّا عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا قَالَ ذَلِكَ الْعَبَّاسُ إِلَّا لِيَشُدَّ الْعَقْدَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَعْنَاقِهِمْ.

وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: مَا قَالَ ذَلِكَ الْعَبَّاسُ إِلَّا لِيُؤَخِّرَ الْقَوْمَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، رَجَاءً أَنْ يَحْضُرَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، فَيَكُونُ أَقْوَى لِأَمْرِ الْقَوْمِ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ أَيْ ذَلِكَ كَانَ.

قال ابن هشام: سَلُولُ: امْرَأَةٌ مِنْ خُرَازْمِةَ، وَهِيَ أُمُّ أَبِي بَكْرٍ بْنِ مَالِكِ بْنِ الْحَارِثِ.

يشير إليهم واحدًا بعد واحد، وَرَوَى فِي الْمُعْطِيَّ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ أَنَّهُ رَوَى حَدِيثَ النَّبَاءِ عَنْ شَيْخٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ مَالِكٌ: وَكُنْتُ أَعْجَبُ كَيْفَ جَاءَ هَذَا رَجُلَانِ مِنْ قَبِيلَةٍ، وَرَجُلٍ مِنْ أُخْرَى حَتَّى حُدِّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ، وَأَنَّ جَبْرِيلَ هُوَ الَّذِي وَلَّاهُمْ، وَأَشَارَ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - بِهِمْ.

أول صحابي ضرب على يد الرسول في بيعة العقبة الثانية:

قال ابن إسحاق: فبئو النجار يزعمون أن أبا أمامة، أسعد بن زُرارة كان أول من ضرب على يده، وبنو عبد الأشهل يقولون: بل أبو الهيثم بن التيهان.

قال ابن إسحاق: قال الزهري: حدثني معبد بن كعب بن مالك، فحدثني في حديثه، عن أخيه عبد الله بن كعب، عن أبيه كعب بن مالك، قال: كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن مغرور، ثم بايع بعد القوم.

الشیطان وبيعة العقبة

فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: «يا أهل الجَبَاجِبِ» - والجَبَاجِبُ: المنازل - هل لكم في مُدَّمٍ والضُّبَاةِ معه، قد اجتمعوا على حَزْبِكُمْ. قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «هذا أَرَبُ العقبة، هذا ابن أَرَبٍ» - قال ابن هشام: ويقال ابن أَرَبٍ استمع أي عدو الله، أما والله لأفرغن لك^(١).

تفسير بعض ما وقع في وجدته

وذكر أن الشيطان صَرَخَ من رأس العقبة بأنفذ صوت. قال الشيخ أبو بحر: هكذا وقع في الأمهات، وأصلحنه عن القاضي أبي الوليد: بأبعد، قال المؤلف: ولا معنى لهذا الإصلاح، لأن وصف الصوت بالنفاذ صحيح هو أفصح من وصفه بالبعد، وقد مضى في حديث غمر مع الكاهن، قال: لقد سمعت من صوت العجل صوتاً ما سمعت أنفذ منه، وفي الصحيح: أن الله تعالى يَحْشُرُ الخلق يوم القيامة في صَرَدَجٍ^(٢) واحد، فَيَنْفُذُهم البصرُ ويسمعهم الداعي. وكذلك وجدته في رواية يونس بن بكير عن ابن إسحاق: بأنفذ صوت كما كان في الأصل.

وقوله: «يا أهل الجَبَاجِبِ»^(٣)، يعني: منازلٍ مِثْلِي، وأصله: أن الأوعية من الأدم

(١) أخرجه أحمد (٤٩٠/٣) وأبو داود الطيالسي (٩٣/٢) من طريق المصنف - به. وأورده الهيثمي في المجمع (٤٢/٦) ونسبه لأحمد والطبراني وقال: رجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع.

(٢) الصردح: الأرض المستوية. والصدرة: الصحراء التي لا تنبت، وهي غلظ في الأرض مستوية. اللسان (٥١٢/٢).

(٣) الجبابج: جمع جبج بالضم وهو المستوي من الأرض ليس بحزن وهي ههنا أسماء منازل بينى سُمِّيت به لأن كروش الأضاحي تُلقى فيها أيام الحج السابق (٢٥٣/١).

الرسول لا يستجيب لطلب الحرب من الأنصار:

قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «ارفضوا إلى رحالكم». قال: فقال له العباس بن عباد بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا فإنا؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «لم تؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم». قال: فرجعنا إلى مضاجعنا، فبنمنا عليها حتى أصبحنا.

كالزبيل ونحوه يسمى: جَنْجَبَةٌ، فجعل الخيام والمنازل لأهلها كالأوعية، وقوله عليه السلام حين صرخ إبليس: «يا أهل الجَبَاجِبِ»، هذا أَزْبُ الْعَقَبَةِ، هذا ابن أَزْبٍ. قال ابن هشام: ويقال: ابن أَزْبٍ كذا تقيد في هذا الموضع أَزْبُ الْعَقَبَةِ وقال ابن ماكولا: أم كُرْز بنت الأَزْبِ بن عمرو بن بَكِيل من هَمْدَانَ جدة العباس، أم أمه: سيلة، وقال: لا يعرف الأَزْبُ في الأسماء إلا هذا، وَأَزْبُ الْعَقَبَةِ، وهو اسم شيطان، ووقع في هذه النسخة في عَزْوَةِ أُحُدٍ إِزْبُ الْعَقَبَةِ بكسر الهمزة وسكون الزاي، وفي حديث ابن الزبير ما يشهد له حين رأى رجلاً طوله شَبْرَانِ على بَرْدَعَةٍ رَحْلِهِ [فأخذ السوط فأتاه]، فقال: «ما أنت؟» فقال: أَزْبُ، قال: «وما أَزْبُ؟» قال: رجل من الجن؛ فضربه على رأسه بعود السوط، حتى باص، أي هَرَبَ، وقال يعقوب في الألفاظ: الأَزْبُ: القصير. وحديث ابن الزبير ذكره العثبي في الغريب، فالله أعلم أي اللفظين أصح؟ وابن أزيب في رواية ابن هشام يجوز أن يكون فَعِيلًا من الإزْبِ^(١) أيضًا، والأَزْيَبُ: البخيل، وأَزْيَبُ: اسم ريح من الرياح الأربع، والأَزْيَبُ الفزع أيضًا، والأَزْيَبُ: الرجل المتقارب المشي، وهو على وزن أَفْعَل، قاله صاحب العين: ويحتمل أن يكون ابن أزيب من هذا أيضًا، وأما البخيل فأَزْيَبُ على وزن فَعِيل لأن يعقوب حكى في الألفاظ: امرأة أزيبة ولو كان عن وزن أَفْعَل في المذكر لقليل في المؤنث زَيْبًا إلا أن فَعِيلًا في أبنية الأسماء عزيز، وقد قالوا في ضَهْيَاء: وهي التي لا تحيض من النساء، فعلى جعلوا الهمزة زائدة وهي عندي فَعِيل لأن الهمزة في قراءة عاصم لام الفعل في قوله تعالى: ﴿يُضَاهُونَ﴾ والضَّهْيَاء من هذا لأنها تُضَاهِي الرجل أي: تُشَبِّهه ويقال فيه: ضَهْيَاءٌ بالمد، فلا إشكال فيها أنها للتأنيث على لغة من قال ضَاهَيْتُ بالياء، وقد يجوز أن يكون أَزْيَبُ وَأَزْيَبَةٌ مثل أَرْمَلٍ وَأَرْمَلَةٌ فلا يكون فَعِيلًا. وروى أبو الأشهب عن الحسن قال: لما بويع لرسول الله - ﷺ - يمتى صرخ الشيطان، فقال رسول الله - ﷺ -: «هذا أبو لُبَيْنَى^(٢) قد أُنْذِرَ بكم، فَتَفَرَّقُوا».

(١) أزب: اللثيم، الدقيق المفاصل، والإزب من الرجال: القصير الغليظ. والإزب: القصير الدميم. اللسان (١/ ٢١٢ - ٢١٣).

(٢) لُبَيْنَى: تصغير لبنى، أو كما هو «لُبَيْنَى» قيل: اسم ابنة إبليس عليه اللعنة.

مجادلة جُلَّة قريش للأنصار في شأن البيعة

فلما أصبحنا غدت علينا جُلَّة قُريش، حتى جاؤونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا، أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم. قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يخلفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه. قال: وقد صدقوا، لم يعلموه. قال: وبعضنا ينظر إلى بعض. قال: ثم قام القوم، وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وعليه نعلان له جديدان. قال: فقلت له كلمة - كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا - يا أبا جابر، أما تستطيع أن تتخذ، وأنت سيد من ساداتنا، مثل نعلني هذا الفتى من قُريش؟ قال: فسَمِعَها الحارث، فخلعهما من رجليه ثم رمى بهما إليّ، وقال: والله لتتعللنهما. قال: يقول: أبو جابر: مه، أخفظت والله الفتى، فاردد إليه نعليه. قال: قلت: لا والله لا أردّهما، فألّ والله صالح، لئن صدق الفأل لأسلبته.

قال ابن إسحق: وحدثنا عبد الله بن أبي بكر: أنهم أتوا عبد الله بن أبي ابن سلول، فقالوا له مثل ما قال كعب من القول، فقال لهم: إن هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا عليّ بمثل هذا، وما علمته كان. قال: فانصرفوا عنه.

تذكير فاعيل وتأنيتها

فصل: وذكر الحارث بن هشام حين رمى بنعليه إلى جابر: قال: وكان عليه نعلان جديدان، والنعل: مؤنثة، ولكن لا يقال: جديدة في الفصح من الكلام، وإنما يقال: ملحفة جديد لأنها في معنى مجدودة أي: مقطوعة، فهي من باب كفّ خضيب، وامرأة قتيل، قال سيبويه: ومن قال جديدة، فإنما أراد معنى حديثة، أراد سيبويه أن حديثة، بمعنى حادثة وكل فاعيل بمعنى فاعل يدخله التاء في المؤنث^(١).

(١) انظر إصلاح المنطق لأبي يوسف يعقوب بن السكيت (ص ٢٨٩).

قريش تطلب الأنصار وتأسر سعد بن عبادة

قال: وَنَفَرَ النَّاسُ مِنْ مِئَى، فَتَنَطَّسَ الْقَوْمُ الْخَبَرَ، فوجدوه قد كان، وخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة بأدأخر، والمُنْذِرَ بن عمرو، أخا بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وكلاهما كان نقيًا. فأما المُنْذِرُ فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسج رخله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه، ويجذبونه، بجُمُتِهِ، وكان ذا شعر كثير.

خلاص سعد بن عبادة

قال سعد: فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع عليّ نفر من قريش، فيهم رجل وضيء أبيض، شعثاع، حلو من الرجال قال ابن هشام: الطويل الحسن قال رؤبة: يَمْطُوهُ مِنْ شَعْشَاعٍ غَيْرِ مُودَّنٍ. يعني عنق البعير غير قصير يقول: مودن اليد أي: ناقص اليد يَمْطُوهُ من السير شعشاع: حلو من الرجال.

قال: قلت في نفسي: إن يك عند أحد من القوم خير، فعند هذا، قال: فلما دنا مني رفع يده فلكنني لكم شديدة. قال: قلت في نفسي: لا والله ما عندهم بعد هذا من خير. قال: فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أوى لي رجل ممن كان معهم، فقال: وَيَحْك! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قال: قلت: بلى، والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف تجارة، وأمنهم ممن أراد ظلمهم ببلادي، وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، قال: ويحك! فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما. قال: ففعلت، وخرج ذلك الرجل إليهما، فوجدتهما في المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ليَهْتِف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جوارًا، قال: مَنْ هو؟ قال: سعد بن عبادة. قال: صدق والله، إن كان ليُجير لنا تجارنا، ويمنعهم أن يظلموا ببلده: قال: فجاء فخلصا سعدًا من أيديهم، فانطلق. وكان الذي لكم سعدًا، سهيل بن عمرو، أخو بني عامر بن لؤي.

من ألقاب الطويل

وذكر قول سعد حين أسرته قريش: فأتاني رجل وضيء شعثاع. والشعثاع والشعثعاني والشعثعاعان: الطويل من الرجال، وكذلك السلهب والصعقب والشوقب و [الشزعب] والشزعب والخبئ والشوذب الطويل مع رقة في أسماء كثيرة.

قال ابن هشام: وكان الرجل الذي أوى إليه، أبا البَخْرِيّ بن هشام.

قال ابن إسحق: وكان أول شجر قيل في الهجرة بيّتين، قالهما ضِرَارُ بن الخطّاب بن مِزْدَاس، أخو بني محارب بن فهر:

تداركت سَعْدًا عَنُوءَ فَأَخَذْتَهُ وكان شِفَاءً لو تداركت مُنْذِرًا
ولو نِلْتُهُ طُلْتُ هناك جِرَاحَهُ وكانت حَرِيًّا أن يُهَانَ وَيُهْدَرَا
قال ابن هشام: ويروى:

وكان حَقِيقًا أن يُهَانَ وَيُهْدَرَا

قال ابن إسحق: فأجابه حَسَّان بن ثابت فيهما فقال:

لَسْتُ إِلَى سَعْدٍ وَلَا الْمَرْءِ مُنْذِرٍ إذا ما مَطَايَا الْقَوْمِ أَضْبَحْنَ ضُمْرًا

معاني الكلمات:

وقوله: أوى إليه رجل أي رَقَّ له، يقال: أوى إِيَّه [وَأَوِيَّة] مأْوِيَّة.

وقوله فَتَنْطُسُ الْقَوْمَ الْخَبْرَ أي: أكثرُوا الْبَحْثَ عنه، وَالتَّنَطُّسُ، تدقيق النظر. قال
الراجز: [رؤبة بن العجاج]

وقد أكون عندها نِقْرِيْسًا طِبًّا بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ نَطِيْسًا
وذكر قول ضِرَار بن الخطّاب:

وكان شِفَاءً وتداركت مُنْذِرًا

وضرار بن الخطّاب: وضِرَارُ كان شاعراً قُرَيْشٍ وفارسها، ولم يكن في قُرَيْشٍ أشعرُ
منه، [عبد الله] ثم ابن الزُبَيْرِ بن قيس بن عدي، وكان جدُّه مِزْدَاسُ رَئِيسَ بني مُحَارِبِ بن
فُهْرٍ في الجاهلية يسير فيهم بِالْمِزْبَاعِ، وهو رُبْعُ الْعَنِيْمَةِ، وكان أبوه أيام الفِجَارِ رَئِيسَ بني
مُحَارِبِ بن فُهْرٍ أسْلَمَ ضِرَارُ عام الفتح.

حول قصيدة حسان:

وذكر قول حسان يجيبه:

لَسْتُ إِلَى عَمْرٍو وَلَا الْمَرْءِ مُنْذِرٍ إِذَا مَا مَطَايَا الْقَوْمِ أَضْبَحْنَ ضُمْرًا

فلولا أبو وهبٍ لَمَرَّتْ قصائدُ
أَتَفَخَّرُ بالكُتَّانَ لَمَّا لَبِسَتْهُ
فَلَا تَكُ كالوسنانِ يَحْلُمُ أَنَّهُ
ولا تَكُ كالثُكْلَى وكانت بَمَعَزَلِ
وَلَا تَكُ كالشاةِ التي كان حَتَفُها
وَلَا تَكُ كالعاوي فأَقْبَلَ نَحْرَهُ
فإنَّا وَمَنْ يُهْدِي القَصائدَ نَحُونَا
على شَرَفِ البَرَقاءِ يَهْوِينَ حُسْرَا
وقد تَلَبَّسَ الأَنْبَاطُ رِيطًا مُقْصَرَا
بِقَرْزَةٍ كَسَزَى أو بِقَرْزَةٍ قِصَرِ
عن الثُّكُلِ لو كان الفُؤَادَ تَفَكَّرَا
بِحَفَرِ ذِرَاعَيْها فلم تَرْضَ مُحَفَرَا
ولم يَخْشَ سَهْمًا من الثُّبُلِ مُضْمَرَا
كُمُسْتَبْضَعٍ تَمَرًا إلى أهلِ خَيْبَرَا

يعني بعمرو عمرو بن حُثَيْسٍ والد المنذر. يقول: لست إليه ولا إلى ابنه المنذر أي: أنت أقل من ذلك، والمنذر بن عمرو هذا يقال له: أَعْتَقَ لَيَمُوتَ، هو أحد النقباء كما ذكر ابن إسحق، وذكر ابن إسحق في المواخاة أن رسول الله - ﷺ - آخى بينه، وبين أبي ذرٍّ الغفاري، وأنكر ذلك الواقدي محمد بن عمر، وقال: إنما آخى بينه وبين طَلَيْبِ بن عمرو. قال: وكيف يواخي بينه وبين أبي ذرٍّ، والمواخاة كانت قبل بدر، وأبو ذر كان إذ ذاك غائبًا عن المدينة، ولم يقدم إلا بعد بدر، وقد قطعت بدر المواخاة ونسخها قوله سبحانه: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥] وللمنذر بن عمرو حديث واحد عن رسول الله - ﷺ - ليس له غيره، يرويه عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده عن المنذر أن رسول الله ﷺ سجد عن السهو قبل التسليم، وعبد المهيمن ضعيف. وقول حسان:

ولا تَكُ كالشاةِ التي كان حَتَفُها
يَحْفَرُ ذِرَاعَيْها، لم تَرْضَ مُحَفَرَا
تقوله العرب في مثل قديم فيمن أثار على نفسه شرًا كالباحث عن المُذْيَةِ^(١) وأنشد أبو عثمان [الجاحظ] عمرو بن بحر. [لِلْفَرَزْدَقِ]:

وكان يُجِيرُ النَّاسَ من سَيْفِ مالِكِ
وكان كَعَنَزِ السُّوءِ قامت بِظُلْفِها
فأَصْبَحَ يَبْغِي نَفْسَهُ مَنْ يُجِيرُها
إلى مُذْيَةٍ تحت الترابِ تُشِيرُها

(١) انظر «الحيوان» للجاحظ (٣٤٥/١) والبيان والتبيين له أيضًا (١٥٩/٣).

قصة صنم عمرو بن الجموح

فلما قَدِمُوا المَدِينَةَ أَظْهَرُوا الإِسْلَامَ بِهَا، وَفِي قَوْمِهِمْ بَقَايَا مِنْ شُيُوخَ لَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ مِنَ الشَّرْكِ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ بْنِ زَيْدِ بْنِ حَرَامِ بْنِ كَعْبِ بْنِ عَنَمِ بْنِ كَعْبِ بْنِ سَلَمَةَ، وَكَانَ ابْنُهُ مُعَاذُ بْنُ عَمْرٍو شَهِدَ الْعُقْبَةَ، وَبَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِهَا، وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ بَنِي سَلَمَةَ، وَشَرِيفًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ، وَكَانَ قَدْ اتَّخَذَ فِي دَارِهِ صَنْمًا مِنْ خَشَبٍ، يُقَالُ لَهُ: مَنَاءٌ، كَمَا كَانَتْ الْأَشْرَافُ يَصْنَعُونَ، تَتَّخِذُهُ إِلَهًا تَعْظُمُهُ وَتُطَهَّرُهُ، فَلَمَّا أَسْلَمَ فُتِيَانُ بَنِي سَلَمَةَ: مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَابْنُهُ مُعَاذُ بْنُ عَمْرٍو، فِي فُتَيَانٍ مِنْهُمْ مِمَّنْ أَسْلَمَ وَشَهِدَ الْعُقْبَةَ، كَانُوا يُذَلِّجُونَ بِاللَّيْلِ عَلَى صَنْمِ عَمْرٍو ذَلِكَ، فَيَحْمِلُونَهُ فَيَطْرَحُونَهُ فِي بَعْضِ حُقْرِ بَنِي سَلَمَةَ، وَفِيهَا عَذَرُ النَّاسِ، مُتَّكِّسًا عَلَى رَأْسِهِ، فَإِذَا أَصْبَحَ عَمْرُو، قَالَ: وَيْلَكُمْ! مَنْ عَدَا عَلَى آلِهَتِنَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ؟ قَالَ: ثُمَّ يَغْدُو يَلْتَمِسُهُ، حَتَّى إِذَا وَجَدَهُ غَسَلَهُ وَطَهَّرَهُ وَطَيَّبَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَعْلِمَ مَنْ فَعَلَ هَذَا بِكَ لِأَخْزَيْتُهُ. فَإِذَا أَمْسَى وَنَامَ عَمْرُو، عَدَّوْا عَلَيْهِ، فَفَعَلُوا بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَغْدُو فَيَجِدُهُ فِي مِثْلِ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْأَذَى، فَيَغْسِلُهُ وَيُطَهِّرُهُ وَيُطَيِّبُهُ، ثُمَّ يَغْدُونَ عَلَيْهِ إِذَا أَمْسَى، فَيَفْعَلُونَ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ. فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ، اسْتَخْرَجُوهُ مِنْ حَيْثُ أَلْقَوْهُ يَوْمًا، فَغَسَلُوهُ وَطَهَّرُوهُ وَطَيَّبُوهُ، ثُمَّ جَاءَ بِسَيْفِهِ فَعَلَّقَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ مَنْ يَصْنَعُ بِكَ مَا تَرَى، فَإِنْ كَانَ فِيكَ خَيْرٌ فَاْمْتَنِعْ، فَهَذَا السَّيْفُ مَعَكَ. فَلَمَّا أَمْسَى وَنَامَ عَمْرُو، عَدَّوْا عَلَيْهِ، فَأَخَذُوا السَّيْفَ مِنْ عُنُقِهِ، ثُمَّ أَخَذُوا كُلُّهَا مِيتًا فَفَرَّقُوهُ بِهِ بِحَبْلِ، ثُمَّ أَلْقَوْهُ فِي بَثْرِ مِنْ آبَارِ سَلَمَةَ، فِيهَا عَذَرٌ مِنْ عَذَرِ النَّاسِ، ثُمَّ غَدَا عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ فَلَمْ يَجِدْهُ فِي مَكَانِهِ الَّذِي كَانَ بِهِ.

إسلام عمرو بن الجموح

فَخَرَجَ يَتَّبِعُهُ حَتَّى وَجَدَهُ فِي تِلْكَ الْبَثْرِ مُتَّكِّسًا مَقْرُونًا بِكَلْبٍ مَيِّتٍ، فَلَمَّا رَأَاهُ وَأَبْصَرَ شَأْنَهُ، وَكَلَّمَهُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَسْلَمَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ، وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ. فَقَالَ حِينَ أَسْلَمَ،

إسلام عمرو بن الجموح وصنمه^(١)

فَصَلَّ: فِي إِسْلَامِ عَمْرٍو بْنِ الْجَمُوحِ، وَذَكَرَ صَنْمَهُ الَّذِي كَانَ يَعْبُدُهُ، وَاسْمُهُ مَنَاءٌ، وَزَنَهُ فَعَلَّةٌ مِنْ مَنِيتِ الدَّمِ وَغَيْرِهِ: إِذَا صَبَّيْتَهُ، لِأَنَّ الدَّمَاءَ كَانَتْ تُمْنَى عِنْدَهُ تَقْرُبًا إِلَيْهِ، وَمِنْهُ سُمِّيَتْ

(١) انظر ترجمته في الثقات (٢٧٦/٣) تاريخ الإصابة (٩١٢) الإصابة (٥٢٩/٢) الاستيعاب (١١٦٨/٣).

وعَرَفَ من الله ما عَرَفَ، وهو يذكر صَنَمه ذلك وما أبصر من أمره، ويشكر الله تعالى الذي أنقذه ممَّا كان فيه من العمى والضلالة:

والله لو كُنْتَ إِلَهًا لَمْ تَكُنْ أَنْتَ وَكَلْبٌ وَسَطٌ بَثْرٌ فِي قَرْنٍ
أَفْ لَمَلَقَاكَ إِلَهًا مُسْتَدَنٌ الْآنَ فَتُشْنَاكَ عَنْ سُوءِ الْعَبْنِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ ذِي الْمِنَّةِ الْوَاهِبِ الرِّزَاقِ دَيَّانِ الدِّينِ
هو الذي أنقذني من قبل أن أَكُونَ فِي ظُلْمَةٍ قَبْرِ مُرْتَهَنٍ
بأحمد المهدي النبي المُرْتَهَنِ

الأصنامُ الدُّمَى، وفي الحديث: لا والدُمَى لا أرى بما تقول بأسًا، وكذلك مَنَاءُ الطاغية التي كانوا يُهلُّون إليها بِقُدَيْدٍ وَالْحَظُّ من هذا المطلع ما في قوله تعالى: ﴿وَمَنَاءُ الثَّالِثَةِ الْأُخْرَى﴾ النجم، من الفائدة جعلها ثلاثة للآثِ وَالْعُزَى، وأخرى بالإضافة إلى مناة التي كان يعبدها عَمْرُو بن الجُمُوح وغيره من قومه، فهما مَنَاتَانِ، وإحداهما عن الأخرى بالإضافة إلى صاحبها.

وقوله:

الآن فَتُشْنَاكَ عَنْ سُوءِ الْعَبْنِ

الغبين في الرأي يقال: غَبِنَ رَأْيُهُ كما يقال: سَفِهَ نَفْسَهُ، فنصبوا، لأن المعنى: خَسِرَ نَفْسَهُ، وَأَوْبَقَهَا وَأَفْسَدَ رَأْيَهُ ونحو هذا.

وقوله: إِلَهًا مُسْتَدَنٌ من السَّدَانَةِ، وهي خِدْمَةُ البيت وتعظيمه.

وقوله: دَيَّانِ الدِّينِ: الدَّيْنُ جمع دِينَةٍ، وهي العادة، ويقال لها دَيْنٌ أَيْضًا، وقال ابنُ الطَّحْرِيَّةِ، واسمه يزيد:

أرى سَبْعَةَ يَسْعَوْنَ لِلْوَصْلِ كُلِّهِمْ لَهُ عِنْدَ لَيْلَى دِينَةٌ يَسْتَدِينُهَا
فَأَلْقَيْتُ سَهْمِي بَيْنَهُمْ حِينَ أَوْخَشُوا فَمَا صَارَ لِي فِي الْقَسَمِ إِلَّا ثَنِينَهَا

ويجوز أن يكون أراد بالدَّيْنِ: الأديان أي هو دَيَّانُ أَهْلِ الأديان، ولكن جمعها عَلَى الدَّيْنِ، لأنها مِلَّةٌ وَنَحْلٌ، كما قالوا في جمع: الْحُرَّةُ: حرائر، لأنهن في معنى الْكَرَّامِ والعقائل، وكذلك مَرَاثِرُ الشَّجَرِ، وإن كانت الواحدة مُرَّةً، ولكنها في معنى فَعِيلَةٍ، لأنها عَسِيرَةٌ فِي الدُّوْقِ، وشديدة على الآكل، وكرهية إليه.

شروط البيعة في العقبة الأخيرة:

قال ابن إسحاق: وكان في بيعة الحزب، حين أذن الله لرسوله في القتال شروطًا سوى شَرْطِهِ عَلَيْهِمْ فِي الْعَقْبَةِ الْأُولَى، كانت الأولى على بَيْعَةِ النِّسَاءِ، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله ﷺ في الحرب، فلما أذن الله له فيها، وبايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربِّه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجَنَّةَ.

قال ابن إسحاق: فحدَّثني عُبَادَةُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنْ أَبِيهِ الْوَلِيدِ، عَنْ جَدِّهِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَكَانَ أَحَدَ النِّقَبَاءِ، قَالَ:

بَايَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْعَةَ الْحَرْبِ - وَكَانَ عُبَادَةُ مِنْ الْإِثْنِي عَشَرَ الَّذِينَ بَايَعُوهُ فِي الْعَقْبَةِ الْأُولَى عَلَى بَيْعَةِ النِّسَاءِ - عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي غُسْرِنَا وَنُسْرِنَا وَمُنْشِطِنَا وَمُكْرَهِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نَنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً.

أسماء من شهد العقبة

قال ابن إسحاق: وهذه تسمية من شهد العقبة، وبايع رسول الله ﷺ بها من الأوس والخزرج، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين.

شهدها من الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، ثم من بني عبد الأشهل بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس أُسَيْد بن حُضَيْر بن سِمَاك بن عَتِيكَ بن رافع بن امرئ القيس بن زَيْد بن عَبْدِ الْأَشْهَل، نقيب لم يشهد بدرًا. وأبو الهيثم بن التَّيْهَان، واسمه مالك، شهد بدرًا. وَسَلَمَةُ بْنُ سَلَامَةَ بْنُ وَقْش بن زُعْبَةَ بن زَعُورَاء بن عبد الأشهل، شهد بدرًا، ثلاثة نفر. قال ابن هشام: ويقال: ابن زَعُورَاء بفتح العين.

قال ابن إسحاق: ومن بني حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس: ظُهَيْر بن رافع بن عَدِي بن زَيْد بن جُشَم بن حارثة، وأبو بُرْدَة بن نِيَار، واسمه هَانِيء بن نِيَار بن عمرو بن عبيد بن كِلَاب بن دُهْمَان بن غَنَم بن ذُبْيَان بن هُمَيْم بن

تفسير بعض الأنساب

فصل: وذكر ابن إسحاق تسمية من حَضَرَ الْعَقْبَةَ، وذكر أنسابهم إلا أبا الهيثم بن التَّيْهَان، وقد ذكرنا اسمه واسم أبيه، وما قيل في نسبه في ذكر الْعَقْبَةِ الْأُولَى.

كَاهِلَ بْنِ دُهْلٍ بْنِ دَهْنِي بْنِ بَلِيٍّ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْحَافِ بْنِ قُضَاعَةَ، حَلِيفَ لَهُمْ، شَهِدَ بَدْرًا وَنَهْيزَ [أَبُو بَهِيرٍ] بْنِ الْهَيْثَمِ، مِنْ بَنِي نَابِي بْنِ مَجْدَعَةَ بْنِ حَارِثَةَ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ.

وَمِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ مَالِكُ بْنُ الْأَوْسِ: سَعْدُ بْنُ حَيْثَمَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكِ بْنِ كَعْبِ بْنِ النَّحَّاطِ بْنِ كَعْبِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ عَنَمِ بْنِ السَّلَمِ بْنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ مَالِكِ بْنِ الْأَوْسِ، نَقِيبٌ، شَهِدَ بَدْرًا، فَقُتِلَ بِهِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - شَهِيدًا.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَنَسَبُهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَنَمِ بْنِ السَّلَمِ، لِأَنَّهُ رُبَّمَا كَانَتْ دَعْوَةُ الرَّجُلِ فِي الْقَوْمِ، وَيَكُونُ فِيهِمْ فَيَنْسَبُ إِلَيْهِمْ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَرِفَاعَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُنْذِرِ بْنِ زَنْبِرِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ عَوْفِ بْنِ عَمْرِو، نَقِيبٌ، شَهِدَ بَدْرًا. وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ النُّعْمَانِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ الْبُرْكِ - وَاسِمُ الْبُرْكِ: أَمْرِئُ الْقَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَمْرِو شَهِدَ بَدْرًا، وَقُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ شَهِيدًا أَمِيرًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الرُّمَّةِ؛ وَيُقَالُ: أُمَيَّةُ بْنُ الْبُرْكِ، فِيمَا قَالَ ابْنُ هِشَامٍ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَمَعْنُ بْنُ عَدِيٍّ بْنِ الْجَدِّ بْنِ الْعَجْلَانِ بْنِ [حَارِثَةَ] بْنِ ضُبَيْعَةَ [بَنٍ حَرَامٍ] لَهُمْ مِنْ بَلِيٍّ، شَهِدَ بَدْرًا وَأُحُدًا وَالْخَنْدَقَ، وَمَشَاهِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلِّهَا، قُتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ شَهِيدًا فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَعُؤَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ، شَهِدَ بَدْرًا وَأُحُدًا وَالْخَنْدَقَ خَمْسَةَ نَفَرٍ.

فَجَمِيعٌ مِنْ شَهِدِ الْعُقْبَةَ مِنَ الْأَوْسِ أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا.

وَشَهِدَهَا مِنَ الْخَزْرَجِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ، ثُمَّ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، وَهُوَ تَيْمُ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْخَزْرَجِ: أَبُو أَيُّوبَ، وَهُوَ خَالِدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ كُلَيْبِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَبْدِ بْنِ عَوْفِ بْنِ عَنَمِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ شَهِدَ بَدْرًا وَأُحُدًا وَالْخَنْدَقَ، وَالْمَشَاهِدَ كُلِّهَا، مَاتَ بِأَرْضِ الرُّوحِ غَازِيًا فِي زَمَنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ. وَمُعَاذُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ سَوَادِ بْنِ مَالِكِ بْنِ عَنَمِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ، شَهِدَ بَدْرًا وَأُحُدًا وَالْخَنْدَقَ، وَالْمَشَاهِدَ كُلِّهَا، وَهُوَ ابْنُ عَفْرَاءَ، وَأَخُوهُ: عَوْفُ بْنُ الْحَارِثِ، شَهِدَ بَدْرًا وَقُتِلَ بِهِ شَهِيدًا، وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ أَبَا جَهْلٍ بْنُ هِشَامِ بْنِ الْمَغِيرَةِ، وَهُوَ لَعْفَرَاءَ - وَيُقَالُ: رِفَاعَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ سَوَادٍ، فِيمَا قَالَ ابْنُ هِشَامٍ - وَعُمَارَةُ بْنُ حَزَمِ بْنِ زَيْدِ بْنِ لَوْذَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ عَوْفِ بْنِ عَنَمِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ. شَهِدَ بَدْرًا وَأُحُدًا وَالْخَنْدَقَ، وَالْمَشَاهِدَ كُلِّهَا،

وَذَكَرَ قُطَيْبَةَ بْنَ عَامِرٍ، وَالْقُطَيْبَةَ فِيمَا ذَكَرَ أَبُو حَنِيفَةَ وَاحِدَةَ الْقُطَيْبِ، وَهِيَ شَوْكَةٌ مَدْحَرَجَةٌ فِيهَا ثَلَاثُ شَوِيكَاتٍ، وَهِيَ تَشْبَهُ حَسَكَ السَّغْدَانِ، وَقَدْ بَانَ يَنْغَتِ أَبِي حَنِيفَةَ لَهُ أَنَّهُ الَّذِي نَسَمِيَهُ بِلَادَنَا حِمَصَ الْأَمِيرِ. وَالْقُطَيْبَةُ: طَرَفُ النَّضْلِ.

قُتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ شَهِيدًا فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ بْنِ عُدْسَ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ غَنَمِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ، نَقِيبٌ، مَاتَ قَبْلَ بَدْرٍ وَمَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُبْنَى، وَهُوَ أَبُو أَمَامَةٍ. سِتَّةَ نَفَرٍ.

وَمِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ مَبْدُولٍ - وَمَبْدُولٌ: عَامِرُ بْنُ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ: سَهْلُ بْنُ عَتِيكَ بْنِ نُعْمَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَتِيكَ بْنِ عَمْرِو، شَهِدَ بَدْرًا. رَجُلٌ.

وَمِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ، وَهُمْ بَنُو حُدَيْلَةَ - قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: حُدَيْلَةُ: بِنْتُ مَالِكِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ حَبِيبِ بْنِ عَبْدِ حَارِثَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ غَضْبِ بْنِ جُشَمِ بْنِ الْخَزْرَجِ - أَوْسُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ الْمَنْذَرِ بْنِ حِرَامِ بْنِ عَمْرِو بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ عَدِيِّ بْنِ عَمْرِو بْنِ مَالِكِ، شَهِدَ بَدْرًا. وَأَبُو طَلْحَةَ، وَهُوَ زَيْدُ بْنُ سَهْلِ بْنِ الْأَسَدِ بْنِ حِرَامِ بْنِ عَمْرِو بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ عَدِيِّ بْنِ عَمْرِو بْنِ مَالِكِ، شَهِدَ بَدْرًا. رَجُلَانِ.

وَمِنْ بَنِي مَازَنِ بْنِ النَّجَّارِ: قَيْسُ بْنُ أَبِي صَغَصَعَةَ، وَاسْمُ أَبِي صَغَصَعَةَ: عَمْرُو بْنُ زَيْدِ بْنِ عَوْفِ بْنِ مَبْدُولِ بْنِ عَمْرِو بْنِ غَنَمِ بْنِ مَازَنِ، شَهِدَ بَدْرًا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَعَلَهُ عَلَى السَّاقَةِ يَوْمَئِذٍ. وَعَمْرُو بْنُ غَزِيَّةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ خَنْسَاءَ بْنِ مَبْدُولِ بْنِ عَمْرِو بْنِ غَنَمِ بْنِ مَازَنِ. رَجُلَانِ. فَجَمِيعٌ مِنْ شَهِدِ الْعَقْبَةَ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: عَمْرُو بْنُ غَزِيَّةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ خَنْسَاءَ، هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ، إِنَّمَا هُوَ غَزِيَّةُ بْنُ عَطِيَّةَ بْنِ خَنْسَاءَ.

مِنْ شَهِدَهَا مِنْ بِلْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَمِنْ بِلْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ: سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ عَمْرِو بْنِ أَبِي زُهَيْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ مَالِكِ [الْأَغْرَ] بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ الْخَزْرَجِ بْنِ الْحَارِثِ، نَقِيبٌ، شَهِدَ بَدْرًا وَقُتِلَ يَوْمَ أَحَدٍ شَهِيدًا. وَخَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَبِي زُهَيْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ مَالِكِ [الْأَغْرَ] بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ الْخَزْرَجِ بْنِ الْحَارِثِ، شَهِدَ بَدْرًا وَقُتِلَ يَوْمَ أَحَدٍ شَهِيدًا وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ [بْنِ ثَعْلَبَةَ] بْنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ عَمْرِو بْنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ مَالِكِ [الْأَغْرَ] بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ الْخَزْرَجِ بْنِ الْحَارِثِ،

وَذَكَرَ ذُكْوَانَ بْنَ عَبْدِ قَيْسٍ، وَنَسَبَهُ إِلَى عَامِرِ بْنِ زُرَيْقٍ بْنِ عَامِرِ بْنِ زُرَيْقٍ بْنِ رَوَاحَةَ بْنِ غَضْبِ بْنِ جُشَمِ، وَالْغَضْبُ فِي اللُّغَةِ: الشَّدِيدُ الْحَمْرَةِ، وَجُشَمٌ مَعْدُولٌ عَنْ جَاشِمٍ، وَهُوَ مِنْ جَشِمَتْ الْأَمْرَ [تَكَلَّفَتْهُ عَلَى مَشَقَّةٍ] كَمَا عَدَلُوا عُمَرَ عَنْ عَامِرٍ وَقَدْ أَمَلِينَا جُزْءًا فِي أَسْرَارِ مَا

نقيب، شهد بدرًا وأحدًا والخندق ومشاهد رسول الله ﷺ كلها، إلا الفتح وما بعده، وقتل يوم مؤتة شهيدًا أميرًا لرسول الله - ﷺ - وبشير بن سعد بن ثعلبة بن الجلّاس بن زيد بن مالك [الأغر] بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث، أبو النعمان بن بشير شهد بدرًا. وعبد الله بن زَيْد بن ثعلبة بن عبد ربه بن زيد [منة] بن الحارث بن الخزرج [بن حارثة] شهد بدرًا، وهو الذي أُرِيَ النداء للصلاة، فجاء به إلى رسول الله - ﷺ - فأمر به. وخلاد بن سيّيد بن ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن امرئ القيس بن مالك [الأغر] بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث [بن الخزرج] شهد بدرًا وأحدًا والخندق وقُتل يوم بني قُرَيْظَة شهيدًا، طُرِحت عليه رَحَى من أَطَمَ من أَطَامِهَا فَشَدَّخَتْهُ شَدَخًا شَدِيدًا، فقال رسول الله - ﷺ - فيما يذكرون - إِنَّ لَهُ لَأَجْرَ شَهِيدِينَ. وعقبه بن عمرو بن ثعلبة بن أُسَيْرة بن عُسَيْرة بن جَدَارَة بن عوف بن الحارث [بن الخزرج] وهو أبو مسعود وكان أحدث من شهد العقبة سئًا، مات في أيام معاوية، لم يشهد بدرًا سبعة نفر.

ومن بني بَيَاضَة بن عامر بن زُرَيْق بن عبد حارثة بن مالك بن غَضَب بن جُشَم بن الخزرج: زياد بن لبید بن ثعلبة بن سنان بن عامر بن عدي بن أمية بن بياضة، شهد بدرًا. وفروة بن عمرو بن وَدَقَة بن عبيد بن عامر بن بياضة، شهد بدرًا. قال ابن هشام: ويقال وَدَقَة.

ينصرف، وما لا ينصرف شَرَحْنَا فيه فائدة العدل عن فاعل إلى فَعَل، وما حقيقة العَدَلِ والمَقْصُود به، ولم لَمْ يُعَدَلْ عن أسماء الأجناس، ولم لَمْ يَكُنْ إِلَّا في الصفات ولم لَمْ يَكُنْ من الصفات إِلَّا في مثل عامر وزافر وقائم، ولم يَكُنْ في مالك وصالح وسالم، ولم خص فعل هذا البناء بالعَدَلِ إليه، وهل عُدِلَ إلى بناء غيره، أم لا ولم منع الحَفْض والتثوين إذا كان مَغْدُولًا إلى هذا البناء، فمن اشتاق إلى معرفة هذه الأسرار فَلْيَنْظُرْهَا هُنَاكَ، فإن ابن جني قد حام في كتاب الخصائص على بعضها، فما وَرَدَ، وصَاصًا فما فَتَحَ.

وذكر في بني بَيَاضَة عَمْرُو بن وَدَقَة بذال مُعْجَمَة، وقال ابن هشام: وَدَقَة بذال مهملة، وهو الأصح، والوَدَقَة: الرُّؤْضَة الناعمة سُمِّيَتْ بذلك، لأنها تقطر ماء من نعمتها، والأدافُ الذِّكْرُ، وأصله: وَدَافٌ، سُمِّيَ بذلك الموضع قطر الماء والمني منه، ويقال للروضة الناعمة: الدَّقْرَى، وعمرو بن وَدَقَة هذا هو البَيَاضِي الذي روى عنه مالك في كتاب الصلاة، ولم يُسَمَّه، وفي الأنصار [من قبائل الخزرج] بنو التَّجَار، وهم تَيْمُ الله بن ثُعْلَبَة، سمي التَّجَار فيما ذكروا لأنه نَجَر وجه رجل بَقْدُوم وقيل: كان نَجَّارًا، وثعلبة في العرب كثير في الرجال، وقُلْ ما يُسْمُون بَثْغَلَب، وإن كان ذلك هو القياس كما يَسْمُون بَثِيرٍ وَسَبْعٍ وَذِفْنٍ، ولكن

قال ابن إسحق: وخالد بن قيس بن مالك بن العجلان بن عامر بن بياضة، شهد بدرًا. ثلاثة نفر.

ومن بني زريق بن عامر بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج: رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق، نقيب. وذكوان بن عبد قيس بن خلدة بن مَخْلَد بن عامر بن زريق [بن عامر بن زريق بن عبد حارثة]، وكان خرج إلى رسول الله ﷺ، وكان معه بمكة وهاجر إلى رسول الله ﷺ من المدينة، فكان يقال له: مهاجري أنصاري؛ شهد بدرًا وقتل يوم أحد شهيدًا. وعباد بن قيس بن عامر بن خلدة بن مَخْلَد بن عامر بن زريق، شهد بدرًا. والحارث بن قيس بن خالد بن مَخْلَد بن عامر بن زريق، وهو أبو خالد شهد بدرًا. أربعة نفر.

ومن بني سَلَمَة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تَزِيد بن جُشَم بن الخزرج؛ ثم من بني عُبَيْد بن عَدِي بن غَنَم بن كَعْب بن سلمة: البراء بن مَعْرُور بن صخر بن خَنْسَاء بن سَيَّان بن عُبَيْد بن عَدِي بن غَنَم، نقيب، وهو الذي تزعم بنو سَلَمَة أنه كان

الثعلب اسمٌ مشترك، إذ يقال ثُعْلَبُ الرُّمَحِ، وَثُعْلَبُ الْخَوْضِ، وهو مخرج الماء منه، وفي الحديث حتى قام أبو لبابة يسد ثُعْلَبَ مِرْيَدِهِ بردائه^(١)، فكانهم عَدَلُوا عن التسمية بثعلب لهذا الاشتراك، مع أن الثُّعْلَبَةَ أحمى لأَدْرَاصِهَا^(٢) وأَغْيَرُ على أَجْرَائِهَا من الثُّعْلَبِ.

وذكر قول رسول الله - ﷺ - لبني سَلَمَة مَن سيدكم؟ فقالوا جَدُّ بن قَيْس على بُخْل فيه، فقال: وأَيُّ دَاءٍ أَكْبَرُ من الْبُخْلِ؟! بل سيدكم الأبيض الجَعْدُ: بَشْر بن الْبَرَاء^(٣)، وروى عن الزُّهْرِيِّ وعامر الشَّعْبِيِّ أنهما قالا في هذا الحديث عن النبي عليه السلام: بل سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بن الْجَمُوح وقال شاعر الأنصار في ذلك:

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، وَالْحَقُّ قَوْلُهُ	لَمَنْ قَالَ مَنَا مَنْ تَعُدُّونَ سَيِّدًا
فَقَالُوا لَهُ: جَدُّ بن قَيْسٍ عَلَى الْتِي	نُبَخِّلُهُ فِيهَا، وَمَا كَانَ أَسْوَدًا
فَسَوَّدَ عَمْرُو بن الْجَمُوح لَجُودِهِ	وَحَقُّ لِعَمْرُو وَعِنْدَنَا أَنْ يُسَوَّدَا

(١) انظر النسائي (١٥٩/٣) وأبو داود (١١٦٩) بتحقيقي. وابن ماجه (١٢٦٩ - ١٢٧٠) وأحمد (٢٣٦/٤) والبيهقي في الدلائل (١٦٠) وانظر الفتح (١٤٣/١١).

(٢) أدراصها: أولادها.

(٣) أخرجه الطبراني (١٨/١٩) وابن سعد في الطبقات (١١٢/٢/٣) والحاكم (٣١٩/٣) وانظر الفتح (١٧٩/١٧٨/٥).

أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ عَلَى يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَشَرَطَ لَهُ، واشترط عليه، ثُمَّ تَوَفَّى قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ. وابنه بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ، شَهِدَ بَدْرًا وَأَحَدًا وَالْخَنْدَقَ، وَمَاتَ بِخَيْبَرٍ مِنْ أَكْلَةٍ أَكَلَهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مِنَ الشَّاةِ الَّتِي سُمِّ فِيهَا - وَهُوَ الَّذِي قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حِينَ سَأَلَ بَنِي سَلَمَةَ: مَنْ سَيُدْكُمُ يَا بَنِي سَلَمَةَ؟ فَقَالُوا: الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ، عَلَى بُحْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَأَيُّ دَاءٍ أَكْبَرُ مِنَ الْبُحْلِ! سَيِّدُ بَنِي سَلَمَةَ الْأَبْيَضُ الْجَعْدُ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ. وَسِنَانُ بْنُ صَيْفِي بْنِ صَخْرٍ بْنُ خَنْسَاءِ بْنِ سِنَانِ بْنِ عُبَيْدٍ، شَهِدَ بَدْرًا، وَالطُّفَيْلُ بْنُ الثُّعْمَانَ خَنْسَاءِ بْنِ سِنَانِ بْنِ عُبَيْدٍ، شَهِدَ بَدْرًا، وَقُتِلَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ شَهِيدًا. وَمَعْقِلُ بْنُ الْمُنْذِرِ بْنِ سَرْحِ بْنِ خُنَّاسِ بْنِ سِنَانِ بْنِ عُبَيْدٍ، شَهِدَ بَدْرًا. وَيَزِيدُ بْنُ الْمُنْذِرِ بْنِ سَرْحِ بْنِ خُنَّاسِ بْنِ سِنَانِ بْنِ عُبَيْدٍ شَهِدَ بَدْرًا. وَمُسْعُودُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ سُبَيْعِ بْنِ خَنْسَاءِ بْنِ سِنَانِ بْنِ عُبَيْدٍ. وَالضُّحَّاكُ بْنُ حَارِثَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، شَهِدَ بَدْرًا، وَيَزِيدُ بْنُ خِدَامٍ أَوْ [ابن حرام أو خدارة] بْنِ سُبَيْعِ بْنِ خَنْسَاءِ بْنِ سِنَانِ بْنِ عُبَيْدٍ. وَجُبَّارُ بْنُ صَخْرٍ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ خَنْسَاءِ بْنِ سِنَانِ بْنِ عُبَيْدٍ [ابن عَدِيٍّ بْنِ غَنَمٍ بْنِ كَعْبِ بْنِ سَلَمَةَ]، شَهِدَ بَدْرًا.

قال ابن هشام: ويقال: جُبَّارُ بْنُ صَخْرٍ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ خُنَّاسِ.

قال ابن إسحاق: والطُّفَيْلُ بْنُ مَالِكِ بْنِ خَنْسَاءِ بْنِ سِنَانِ بْنِ عُبَيْدٍ [وهو ابن عم الطُّفَيْلِ بْنِ النُّعْمَانَ بْنِ خَنْسَاءِ بْنِ سِنَانِ]، شَهِدَ بَدْرًا. أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا.

ومن بني سَوَادِ بْنِ غَنَمٍ بْنِ كَعْبِ بْنِ سَلَمَةَ، ثُمَّ مِنْ بَنِي كَعْبِ بْنِ سَوَادٍ: كَعْبُ بْنُ مَالِكِ بْنِ أَبِي كَعْبِ بْنِ الْقَيْنِ بْنِ كَعْبٍ. رَجُلٌ.

ومن بني غَنَمٍ بْنِ سَوَادِ بْنِ غَنَمٍ بْنِ كَعْبِ بْنِ سَلَمَةَ: سُلَيْمٌ بْنُ عُمَرٍ بْنُ حَدِيدَةَ بْنِ عُمَرٍ بْنِ غَنَمٍ، شَهِدَ بَدْرًا. وَقُطَيْبَةُ بْنُ عَامِرٍ بْنُ حَدِيدَةَ بْنِ عُمَرٍ بْنِ غَنَمٍ، شَهِدَ بَدْرًا. وَيَزِيدُ بْنُ عَامِرٍ بْنُ حَدِيدَةَ بْنِ عُمَرٍ بْنِ غَنَمٍ، وَهُوَ أَبُو الْمُنْذِرِ، شَهِدَ بَدْرًا. وَأَبُو الْيَسْرِ، وَاسْمُهُ: كَعْبُ بْنُ عُمَرٍ بْنُ عَبَّادِ بْنِ عُمَرٍ بْنِ غَنَمٍ [ابن سَوَادِ بْنِ غَنَمٍ بْنِ كَعْبِ بْنِ

ذَكَرَ خَدِيجُ بْنُ سَلَامَةَ الْبَلَوِيُّ^(١):

فصل: وَذَكَرَ خَدِيجُ بْنُ سَلَامَةَ الْبَلَوِيُّ، وَهُوَ: خَدِيجُ بْنُ خَاءٍ مَنْقُوطَةٌ مَفْتُوحَةٌ وَدَالٌ مَكْسُورَةٌ، كَذَا ذَكَرَهُ الدَّارِقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُ، وَذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ، وَقَالَ: شَهِدَ الْعَقَبَةَ، وَلَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا، وَقَالَ: يُكْنَى أَبَا رَشِيدٍ:

(١) انظر الاستيعاب (١/٤٥٩).

سَلَمَة]، شهد بدرًا. وصَيْفِي بن سَوَاد بن عَبَاد بن عمرو بن عَثْم. خمسة نفر.

قال ابن هشام: صَيْفِي بن أسود بن عباد بن عمرو بن عَثْم بن سواد، وليس لسواد ابن يقال له: عَثْم.

قال ابن إسحاق: ومن بني نابي بن عمرو بن سَوَاد بن عَثْم بن كعب بن سَلَمَة: ثعلبة بن عَثْمَة بن عَدِي بن نابي، شهد بدرًا، وقُتِل بالخنق شهيدًا. وعمرو بن عَثْمَة بن عَدِي بن نابي، وَعَبْس بن عامر بن عَدِي بن نابي، شهد بدرًا. وعبدُ الله بن أُتَيْس، حليف لهم من قُضاعة. وخالد بن عمرو بن عَدِي بن نابي. خمسة نفر.

قال ابن إسحاق: ومن بني حَرَام بن كعب بن عَثْم بن كعب بن سَلَمَة: عبدُ الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام، نقيب، شهد بدرًا، وقُتِل يوم أحد شهيدًا، وابنه جابر بن عبد الله. ومعاذُ بن عمرو بن الجَمُوح بن زيد بن حرام، شهد بدرًا. وثابت بن الجَذْع - والجَذْع: ثَعْلَبَة بن زيد بن الحارث بن حرام - شهد بدرًا، وقُتِل بالطائف شهيدًا. وعمير بن الحارث بن ثعلبة بن زيد بن الحارث بن حرام، شهد بدرًا. قال ابن هشام: عمير بن الحارث بن لُبْدَة بن ثعلبة.

قال ابن إسحاق: وَخَذِيج بن سَلَمَة بن أَوْس بن عمرو بن الْفُرَافِر [أو القراقِر] حليف لهم من بَلِيٍّ وَمُعَاذُ بن جبل بن عمرو بن أَوْس بن عائذ بن عَدِي بن كعب بن عمرو بن أَدِي بن سَعْد بن عَلِي بن أَسَد، يقال: أَسَد بن ساردة بن تَزِيد بن جُشَم بن الْخَزْرَج، وكان في بني سَلَمَة، شهد بدرًا، والمشاهد كلها ومات بَعْمَوَاس، عام الطاعون بالشام، في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإنما ادعته بنو سَلَمَة أنه كان أخا سهل بن محمد بن الجَذْج بن قيس بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عَدِي بن عَثْم بن كعب بن سَلَمَة. لأمه. سبعة نفر.

قال ابن هشام: أَوْس: ابن عباد بن عَدِي بن كعب بن عمرو بن أَدِي بن سعد.

قال ابن إسحاق: ومن بني عوف بن الْخَزْرَج، ثم من بني سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الْخَزْرَج: عُبَادَة بن الصامت بن قيس بن أَصْرَم بن فِهْر بن ثعلبة بن عَثْم بن سالم بن عوف، نقيب، شهد بدرًا والمشاهد كلها.

وذكر مُعَاذُ بن جَبَلٍ ونسبه إلى أَدِي بن سعد بن علي أخي سَلَمَة، وقد انفرض عَقِبُ أَدِي، وآخر من مات منهم عبدُ الرَّحْمَنِ بن مُعَاذُ بن جَبَلٍ، وقد يقال في أَدِي أيضًا: أَدْنُ في غير رواية ابن إسحاق وابن هشام.

قال ابن هشام: هو غنم بن عوف، أخو سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج.

قال ابن إسحاق: والعباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان بن زيد بن غنم بن سالم بن عوف، وكان ممن خرج إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة فأقام معه بها فكان يقال له: مهاجري أنصاري وقُتل يوم أحد شهيداً. وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزيمة بن أضرم بن عمرو بن عمارة، حليف لهم من بني غصينة من بلي. وعمرو بن الحارث بن لبدة بن عمرو بن ثعلبة: أربعة نفر، وهم القوالم.

ومن بني سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج، وهم بنو الحُبلى - قال ابن هشام: الحُبلى: سالم بن غنم بن عوف، وإنما سمي: الحُبلى - لعظم بطنه: رفاعه بن عمرو بن زيد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن سالم بن غنم، شهد بدرًا، وهو أبو الوليد.

قال ابن هشام: ويقال: رفاعه: ابن مالك، ومالك: ابن الوليد بن عبد الله بن مالك بن ثعلبة بن جشم بن مالك بن سالم.

قال ابن إسحاق: وعقبة بن وهب بن كَلدة بن الجعد بن هلال بن الحارث بن عمرو بن عدي بن جشم بن عوف بن بُهثة بن عبد الله بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان، حليف لهم، شهد بدرًا، وكان ممن خرج إلى رسول الله ﷺ مهاجرًا من المدينة إلى مكة، فكان يقال له: مهاجري أنصاري.

قال ابن هشام: رجلمان.

قال ابن إسحاق: ومن بني ساعدة بن كعب بن الخزرج: سعد بن عبادة بن دُلَيم بن حارثة بن أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة، نقيب؛ والمنذر بن عمرو بن حُنَيْس بن حارثة بن لَوْذان بن عَبْد وَد بن زيد بن ثعلبة بن جشم بن الخزرج بن ساعدة، نقيب، شهد بدرًا وأحدًا، وقُتل يوم بئر معونة أميرًا لرسول الله ﷺ، وهو الذي كان يقال له: أعنق ليموت. رجلمان.

وذكر أن مُعَاذَ بن جَبَل مات في طاعون عَمَواس، هكذا تقييد في النسخة عِمَواس بسكون الميم، وقال فيه البكري في كتاب المعجم من أسماء البقع: عَمَواس بفتح الميم والعين، وهي قرية بالشام عَرِف الطاعون بها لأنه بدأ وقيل: إنما سمي: طاعون عِمَواس لأنه عَمَ وآسى أي جعل بعض الناس أسوة بعض.

قال ابن إسحاق: فجميع من شهد العقبة من الأوس والخزرج ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان منهم، يزعمون أنهما قد بايعتا، وكان رسول الله ﷺ لا يصفح النساء، إنما كان يأخذ عليهن، فإن أقررن، قال: اذهبن فقد بايعتكن.

ومن بني مازن بن النجّار: نُسَيْبَةُ بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مَبْدُول بن عمرو بن غنم بن مازن [بن النّجّار]، وهي أُمُّ عُمَارَةَ، كانت شهدت الحرب مع رسول الله - ﷺ - وشهدت معها أختها. وزوجها زيد بن عاصم بن كعب. وابناها: حبيب بن زيد، وعبد الله بن زيد، وابنها حبيب الذي أخذه مُسَيْلِمَةُ الكَذّاب الحنفيّ، صاحب اليمامة، فجعل يقول له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقول: أفتشهد أنني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فعجل يقطعه عضواً عضواً حتى مات في يده، لا يزيده على ذلك، إذا ذُكِرَ له رسول الله ﷺ آمن به وصلى عليه، وإذا ذُكِرَ له مُسَيْلِمَةُ قال لا أسمع - فخرجت إلى اليمامة مع المسلمين، فباشرت الحرب بنفسها، حتى قُتِلَ الله مُسَيْلِمَةُ، ورجعت وبها اثنا عشر جرحاً، من بين طعنة وضربة.

قال ابن إسحاق: حدّثني هذا الحديث عنها محمد بن يحيى بن حُبّان، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صَغُصعة.

ومن بني سلمة: أم مَنِيْع؛ واسمها: أسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي بن عمرو بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة.

نزول الأمر لرسول الله ﷺ في القتال:

بسم الله الرحمن الرحيم. قال: حدّثنا أبو محمد عبد الملك بن هشام، قال: حدّثنا زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق المُطَّلبيّ: وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تُحلل له الدماء، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر

وذكر يزيد بن ثعلبة بن خَزْمة بسكون الزاي كذا قال فيه ابن إسحاق وابن الكلبي، وقال الطبري فيه خَزْمة بتحريك الزاي، وهو بَلَوِيّ من بني عَمَارَةَ بفتح العين وتشديد الميم، ولا يعرف عَمَارَةَ في العرب إلا هذا، كما لا يُعرفُ عمارَة بكسر العين إلا أَبِي بن عِمَارَةَ الذي يروي حديثاً في المسح على الخفين، وقد قيل فيه عُمَارَة بضم العين، وأما سوى هذين فعَمَارَةَ بالضم، غير أن الدَّارَقُطْنِي ذكر عن مُحَمَّد بن حبيب عن ابن الكلبي في نسب قُضاعة: قال مُدْرِك بن عبد الله القَمَقَام بن عمارَة بن دُوَيْد بن مالك. وفي النساء عَمَارَةُ بنت نافع، وهي أم مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد الرزاق، وفي الأنصار خَزْمة سوى هذا المذكور بفتح الزاي كثير.

على الأذى، والصفح عن الجاهل وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفّوهم من بلادهم فهم من بين مَفْتُونٍ في دينه، ومن بين معذّب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فراراً منهم، منهم مَنْ بأرض الحبشة، ومنهم مَنْ بالمدينة، وفي كل وجه؛ فلما عَتَتْ قريش على الله عزّ وجلّ، وردّوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذبوا نبيّه ﷺ، وعذّبوا ونفّوا مَنْ عبّده ووحدّه وصدّق نبيه، واعتصم بدينه، أذن الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ في القتال والانتصار ممن ظلمهم ويغى عليهم، فكانت أوّل آية أنزلت في إذنه له في الحرب، وإحلاله له الدماء والقتال، لمن بغى عليهم، فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء، قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصُلُواتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي: أي، إنما أخللت لهم القتال لأنهم ظلموا، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس، إلا أن يعبدوا الله، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، يعني النبي - ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين، ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: حتى لا يُفْتَنَ مؤمن عن دينه ﴿وَيَكُونَ الدِّينَ لِلَّهِ﴾ أي: حتى يُعبد الله، لا يعبد معه غيره.

وذكر بني الحُبَلِي والنسب إليه حُبَلِيّ بضم الحاء والباء قاله سيبويه على غير قياس، التَّسْب، وتوهم بعض من ألف في العربية أن سيبويه قال فيه: حُبَلِيّ بفتح الباء لما ذكره مع جَذَمِيّ في النسب إلى جَذِيمة ولم يذكره سيبويه معه، لأنه على وزنه، ولكن لأنه شاذ مثله في القياس الذي ذكرناه عن سيبويه من تقييده بالضم، ذكره أبو عليّ القَالِي في البارِع، وقال هكّذا تقييد في النسخ الصحيحة من سيبويه، وحَسْبُكَ من هذا أن جميع المحدثين يقولون: أبو عبد الرحمن الحُبَلِيّ بضمّتين، لا يختلفون في ذلك، فدلّ هذا كله على غلط مَنْ نسب إلى سيبويه أنه فتح الباء.

الإذن لمسلمي مكة بالهجرة

قال ابن إسحاق: فلما أذن الله تعالى له ﷺ في الحرب، وبأيعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له وللمن اتبعه، وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، وللحق بإخوانهم من الأنصار، وقال: إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانًا ودارًا آمنون بها. فخرجوا أرسالاً، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة.

المهاجرون إلى المدينة هجرة أبي سلمة وزوجه، وحديثها عما لقيا

فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قریش، من بني مخزوم: أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، واسمه: عبد الله، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، وكان قديم

متى أسلم عثمان بن أبي طلحة^(١)

فصل: وذكر هجرة أم سلمة وصحبة عثمان بن طلحة لها، وهو يومئذ على كفره، وإنما أسلم عثمان في هذنة الحذيبية، وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد، وقتل يوم أحد إخوته مسافع، وكلاب والحارث، وأبوهم وعمه عثمان بن أبي طلحة قتل أيضًا يوم أحد

(١) له ترجمة في الطبقات (٤٤٨/٥) الإصابة (٤٦٠/٢) تاريخ الصحابة (٨٧٢) الثقات (٢٦٠/٣) الاستيعاب (١٠٣٤/٣).

على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة فلما أذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار، خرج إلى المدينة مهاجراً.

قال ابن إسحاق: فحدثني أبي إسحاق بن يسار، عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة، عن جدته أم سلمة، زوج النبي ﷺ، قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل إلى بعيـره ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجرى، ثم خرج بي يقود بي بعيـره، فلما رآته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا هذه نفسك غلبتنا عليها، رأيت صاحبك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذا نزعتوها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا بُني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة. قالت: ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي، حتى أمسى سنة أو قريباً منها حتى مرّ بي رجل من بني عمي، أخذ بني المغيرة، فرأى ما بي فرحماني فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقم بينها وبين زوجها وبين ولدها! قالت: فقالوا لي: الحقي بزواجك إن شئت. قالت: وردّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني. قالت: فارتحلّ ببعيري ثم أخذت ابني فوضعتة في حجرى، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خلق الله. قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتّنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أو ما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبنيّ هذا. قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قطّ، أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحطّ عنه، ثم قيّده في الشجرة، ثم تنحى إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرّواح، قام إلى ببعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي. فإذا ركبت واستويت على ببعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى

كافراً وبيده كانت مفاتيح الكعبة ودفعها رسول الله ﷺ - عام الفتح إلى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وإلى ابن عمه شيبه بن أبي عثمان بن أبي طلحة، وهو جد بني شيبه حجة الكعبة، واسم أبي طلحة جدهم: عبد الله بن عبد العزى، وقُتل عثمان رحمه الله شهيداً بأجنادين في أول خلافة عمر.

ينزل بي . فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بَقْبَاء، قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً - فادخلها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

هجرة عامر وزوجه وهجرة بني جحش

قال ابن إسحق: ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة: عامر بن ربيعة، حليف بني عدي بن كعب، معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة بن غانم بن عبد الله بن عوف بن عبيد بن عدي بن كعب . ثم عبد الله بن جحش بن رثاب بن يغمر بن صبرة بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، حليف بني

هجرة بني جحش

وذكر هجرة بني جَحْش، وهم: عبد الله وأبو أحمد واسمه: عبد، وقد كان أخوهم عُيَيْدُ الله أسلم ثم تنصر بأرض الحبشة، وزينب بنت جحش أم المؤمنين التي كانت عند زيد بن حارثة ونزلت فيها: ﴿فلما قَضَى زيد منها وطراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وأم حبيب بنت جَحْش التي كانت تُسْتَحَاض، وكانت تحت عبد الرحمن بن عوف، وَحَمَنَةُ بنت جحش التي كانت تحت مُضْعَبِ بن عُمَيْر، وكانت تُسْتَحَاضُ أيضاً، وقد روي أن زينب استحيضت أيضاً، ووقع في الموطأ أن زينب بنت جَحْش التي كانت تحت عبد الرحمن بن عوف، وكانت تُسْتَحَاضُ، ولم تك قط زينب عند عبد الرحمن بن عوف، ولا قاله أحد والغلط لا يسلم منه بشر، وإنما كانت تحت عبد الرحمن أختها أم حبيب، ويقال فيها أم حبيبة، غير أن شيخنا أبا عبد الله محمد بن نجاح، أخبرني أن أم حبيب كان اسمها: زينب فهما زَيْنَبَان غلبت على إحداهما الكنية، فعلى هذا لا يكون في حديث الموطأ وَهْمٌ ولا غلط والله أعلم . وكان اسم زينب بنت جحش: بَرَّة فَسَمَاهَا رسولُ الله - ﷺ - زينب، وكذلك زينب بنت أم سلمة رَبيته عليه السلام، كان اسمها بَرَّة، فسماها زينب كأنه كره أن تُزَكِّي المرأة نفسها بهذا الاسم، وكان اسم جَحْش بن رثاب: بُرَّة بضم الباء، فقالت زينب لرسول الله - ﷺ - يا رسول الله لو غيرت اسم أبي، فإن البرة صغيرة، فقيل: إن رسول الله - ﷺ - قال لها: «لو أبوك مُسْلِمًا لسميته باسم من أسمائنا أهل البيت، ولكنني قد سميتُه جَحْشًا والتجشش أكبر من البرة» . ذكر هذا الحديث مُسنِّدًا في كتاب المؤتلف والمختلف أبو الحسن الدارقطني .

أمية بن عبد شمس، احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جَحش، وهو أبو أحمد - وكان أبو أحمد رجلاً ضريب البصر، وكان يطوف مكة، أعلاها وأسفلها، بغير قائد، وكان شاعراً، وكانت عنده الفرعة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت أمه أُميمة بنت عبد المطلب بن هاشم - فغُلقت دارُ بني جحش هجرةً، فمرَّ بها عُتبة بن ربيعة. والعبَّاس بن عبد المطلب، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة، وهي دار أُنَّان بن عثمان اليوم التي بالردم، وهم مُضْعِدُونَ إلى أعلى مكة، فنظر إليها عُتْبَةُ بن ربيعة تَخْفُقُ أبوابها يَبَابًا ليس فيها ساكن، فلما رآها كذلك تنفَّس الصُّعْدَاءُ، ثم قال:

وكلّ دار وإن طالت سلامتُها يوماً ستدرُكها التُّكْبَاءُ والحُوبُ

قال ابن هشام: وهذا البيت لأبي دُوَادِ الإيادي في قصيدة له. والحبوب: التوجع.

قال ابن إسحق: ثم قال عُتْبَةُ: أصبحت: دارُ بني جحش خلاءً من أهلها! فقال أبو جعل: وما تبكي عليه من قُلِّ بنِ قُلِّ.

قال ابن هشام: القُلُّ: الواحد. قال لبيد بن ربيعة:

كلّ بني حرّةٍ مصيرُهم قُلٌّ وإن أكثرث من العَدَدِ

قال ابن إسحق: ثم قال: هذا عمل ابن أخي هذا، فَرَّقَ جماعتنا، وشَتَّتْ أمرنا وقطَعَ بيننا فكانَ منزلُ أبي سَلَمَةَ بنِ عبدِ الأسدِ، وعامر بن ربيعة، وعبد الله بن جحش، وأخيه أبي أحمد بن جحش، على مبشّر بن عبد المنذر بن نبر بقباء، في بني عمرو بن عوف، ثم قدم المهاجرون أرسالاً، وكان بنو غنم بن دودان أهل إسلام، قد

الشعر الذي تمثل به أبو سفيان:

فصل: ذكر البيت الذي تمثل به أبو سفيان حين مرَّ بدار بني جحش تَخْفُقُ أبوابها، وهو قوله:

وكلّ بَيتٍ وإن طالت سلامتُه يوماً ستدرُكه التُّكْبَاءُ والحُوبُ

كل امرئٍ بِلِقَاءِ الموت مرتَهَن كأنه غَرَضٌ للموت مَنصُوبُ

والشعر لأبي دُوَادِ الإيادي واسمه: حَنْظَلَةُ بن شرقي، وقيل: جارية بن الحجاج ذكر دار بني جحادة، وأنها عند دار أُنَّان بن عثمان بالردم، والرِّذْمُ حَفَرٌ بالقتلى في الجاهلية، فسمي: الرِّذْمُ، وذلك في حرب كانت بين بني جَمَح، وبين بني الحارث بن فهر، وكانت الدَّبرَةُ فيها على بني الحارث، ولذلك قُلُّ عددهم، فهم أقل قريش عددًا.

أُزْعِبُوا إِلَى الْمَدِينَةِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَجْرَةَ رَجَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ، وَأَخُوهُ أَبُو أَحْمَدَ بْنُ جَحْشٍ، وَعُكَّاشَةُ بْنُ مَخْصَنٍ، وَشُجَاعٌ، وَعَقْبَةُ، ابْنَا وَهَبٍ وَأَزْبَدُ بْنُ جُمَيْرَةَ.

قال ابن هشام: ويقال ابن حُمَيْرَةَ.

قال ابن إسحاق: وَمُنْقِذُ بْنُ ثُبَاتَةَ، وَسَعِيدُ بْنُ رُقَيْشٍ، وَمَخْرَزُ بْنُ نُضْلَةَ، وَيَزِيدُ بْنُ رُقَيْشٍ، وَقَيْسُ بْنُ جَابِرٍ، وَعَمْرُو بْنُ مَخْصَنٍ، وَمَالِكُ بْنُ عَمْرُو، وَصَفْوَانُ بْنُ عَمْرُو، وَثَقْفُ بْنُ عَمْرُو، وَرَبِيعَةُ بْنُ أَكْثَمٍ، وَالزَّبِيرُ بْنُ عُبَيْدٍ، وَتَمَّامُ بْنُ عُبَيْدَةَ، وَسَخْبَرَةُ بْنُ عُبَيْدَةَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ.

ومن نسائهم: زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ، وَأُمُّ حَبِيبِ بِنْتُ جَحْشٍ، وَجُدَامَةُ بِنْتُ جَنْدَلٍ، وَأُمُّ قَيْسِ بِنْتُ مَخْصَنٍ، وَأُمُّ حَبِيبِ بِنْتُ ثُمَامَةَ، وَأَمْنَةُ [أَوْ أُمَيْمَةُ] بِنْتُ رُقَيْشٍ، وَسَخْبَرَةُ بِنْتُ تَمِيمٍ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ.

وقال أبو أحمد بن جحش بن رثاب، وهو يذكر هجرة بني أسد بن خزيمة من قومه إلى الله تعالى وإلى رسول الله ﷺ، وإيعابهم في ذلك حين دُعُوا إِلَى الْهَجْرَةِ:

وَمَزَوْتَهَا بِاللَّهِ بَرَّتْ يَمِينُهَا	وَلَوْ حَلَفْتُ بَيْنَ الصُّفَا أُمُّ أَحْمَدَ
بِمَكَّةَ حَتَّى عَادَ غَتًّا سَمِينَهَا	لَنَحْنُ الْأَكْلَى كُنَّا بِهَا، ثُمَّ لَمْ نَزَلْ
وَمَا إِنْ عَدَّتْ غَنَمٌ وَخَفَّ قَطِينَهَا	بِهَا خِيَمَتُ غَنَمِ بْنِ دُودَانَ وَابْتَنَتْ
وَدِينُ رَسُولِ اللَّهِ بِالْحَقِّ دِينُهَا	إِلَى اللَّهِ تَغْدُو بَيْنَ مَثْنَى وَوَاحِدَ
	وَقَالَ أَبُو أَحْمَدَ بْنُ جَحْشٍ أَيْضًا:

بِذِمَّةٍ مَنْ أَخْشَى بَغْيِبٍ وَأَزْهَبَ	لَمَّا رَأَيْتَنِي أُمُّ أَحْمَدَ غَادِيَا
فَيَمُّمُ بَنَّا الْبِلْدَانَ وَلَتَنَّا يَثْرِبُ	تَقُولُ: فَإِنَّمَا كُنْتُ لَا بَدَّ فَاعِلًا
وَمَا يَشِلُّ الرَّحْمَنُ فَالْعَبْدُ يَرْكَبُ	فَقُلْتُ لَهَا: بَلْ يَثْرِبُ الْيَوْمَ وَجْهَنَا
إِلَى اللَّهِ يَوْمًا وَجْهَهُ لَا يُخَيِّبُ	إِلَى اللَّهِ وَجْهِي وَالرَّسُولَ وَمَنْ يُقِمُ
وَنَاصِحَةَ تَبْكِي بِدَمْعٍ وَتَنْدُبُ	فَكَمْ قَدْ تَرَكْنَا مِنْ حَمِيمٍ مُنَاصِحَ
وَنَحْنُ نَرَى أَنَّ الرُّغَائِبَ نَطْلُبُ	تَرَى أَنْ وَثَرًا نَأْتِيْنَا عَنْ بِلَادِنَا

وذكر ابن إسحاق شعر أبي أحمد بن جحش وفيه:

إِلَى اللَّهِ وَجْهِي وَالرَّسُولَ وَمَنْ يُقِمُ إِلَى اللَّهِ يَوْمًا وَجْهَهُ لَا يُخَيِّبُ

دَعَوْتُ بَنِي غَنَمٍ لِحَقْنِ دِمَائِهِمْ
أَجَابُوا بِحَمْدِ اللَّهِ لَمَّا دَعَاهُمْ
وَكُنَّا وَأَصْحَابَنَا لَنَا فَارَقُوا الْهُدَى
كَفَوَجَيْنِ: أَمَّا مِنْهُمَا فَمُوقِفٌ
طَعَنًا وَتَمَثُّوا كَذِبَةً وَأَزَلَّهُمْ
وَرُغْنَا إِلَى قَوْلِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
نَمُتْ بِأَرْحَامِ إِلَيْهِمْ قَرِيبَةً
فَأَيُّ ابْنِ أَخْتٍ بَعَدَنَا بِأَمْنَتِكُمْ
سَتَعْلَمُ يَوْمًا أَيُّنَا إِذَا تَزَايَلُوا

وَلِلْحَقِّ لَمَّا لَاحَ لِلنَّاسِ مَلْحَبٌ
إِلَى الْحَقِّ دَاعٍ وَالنَّجَاحُ فَأَوْعَبُوا
أَعَانُوا عَلَيْنَا بِالسَّلَاحِ وَأَجْلَبُوا
عَلَى الْحَقِّ مَهْدِيٍّ، وَفُوجٌ مَعَذِبٌ
عَنِ الْحَقِّ إِبْلِيسُ فَخَابُوا وَخُيَّبُوا
فَطَابَ وُلاَةُ الْحَقِّ مِنَّا وَطُيِّبُوا
وَلَا قَرَبَ بِالْأَرْحَامِ إِذَا لَا تُقَرَّبُ
وَأَيَّةُ صِهْرٍ بَعْدَ صَهْرِي تُرَقَّبُ
وَرُزِّلَ أَمْرُ النَّاسِ لِلْحَقِّ أَصُوبٌ

قال ابن هشام: قوله: «ولتثأ يثرب»، وقوله: «إذ لا تقرب»، عن غير ابن إسحق.
قال ابن هشام: يريد بقوله: «إذ»، كقول الله عز وجل: ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال أبو النجم العجلي:

ثم جزأه الله عُنَّا إِذْ جَزَى جَنَاتِ عَدْنٍ فِي الْعِلَالِي وَالْعَلَا

هكذا يروى بكسر الباء على الإفواء، ولو روي بالرفع لجاز على الضرورة ويكون تقديره: فلا يُخَيَّبُ بإضمار الفاء في مذهب أبي العباس، وفي مذهب سيبويه: يجوز أيضًا لا على إضمار الفاء، ولكن على نية التقديم للفعل على الشرط كما أنشدوا:

إِنَّكَ إِنْ يُضَرَّغَ أَخُوكَ تُضَرَّغُ

وهو مع إن أحسن، لأن التقدير إنك تُضَرَّغُ إِنْ يُضَرَّغَ أَخُوكَ، وأنشدوا أيضًا:

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرُهُ^(١)

على هذا التقدير: وفي الشعر أيضًا:

وَلَا قَرَبَ بِالْأَرْحَامِ إِذَا لَا تُقَرَّبُ

وتأول ابن هشام إذ هنا بمعنى: إذا وهو خطأ من وجهين، أحدهما: أن الفعل المضارع لا يحسن بعد إذا مع حرف النفي، وإنما يحسن بعد إذ كقوله سبحانه: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ [الأنفال: ٤٩] ولو قلت: سأتيك إذا تقول كذا، كان قبيحًا إذا أخرتها، أو قدمت

(١) انظر كتاب سيبويه (١/٤٣٥).

الفعل لما في إذا من معنى الشرط، وإنما يحسن هذا في حروف الشرط مع لفظ الماضي، تقول: سأتيك إن قام زيد وإذا قام زيد، ويصح: سأتيك إن يقيم زيد لأن حرف الشرط إذا آخر ألفي، وإذا ألفي لم يقع الفعل المعرب بعده، غير أنه حسن في كيف نحو قوله سبحانه: ﴿يُنْفِقْ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، و﴿يَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨] لِسِرِّ بديع لعلنا نذكره إن وجدنا لِشَفَرَتِنَا مَحْزَأً، ويحسن الفعل المستقبل مع إذا بعد الْقَسَمِ كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ٤] لانعدام معنى الشرط فيه، فهذا وجه، والوجه الثاني: أن إذ بمعنى إذا غير مغروف في الكلام، ولا حكاة بُنْتُ، وما استشهد به من قول رُوَيْبَةَ ليس على ما ظنُّ إنما معناه: ثم جزاه الله ربي إن جرى، أي من أجل أن نفعني وجرى عني، كما قال تعالى: ﴿يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨] جرى: مضمر عائد على الرجل الممدوح، وإذ بمعنى أن المفتوحة كذا قال سيبويه في سواد الكتاب، ويشهد له قوله سبحانه: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠] وعليه يحمل قوله سبحانه: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ [الزخرف: ٣٩] وغفل النسوي عما في الكتاب من هذا، وجعل الفعل المستقبل الذي بعد لن عاملاً في الظرف الماضي، فصار بمنزلة مَنْ يقول: سأتيك اليوم أمس، وهذا هراء من القول، وغفلة عما في كتاب سيبويه، وَلَيْتَ شِغْرِي ما يقول في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١] فَإِنْ جَوْزٌ وقوع المستقبل في الظرف الماضي على أصله الفاسد، فكيف يعمل ما بعد الفاء فيما قبلها لا سيما مع السين، وهو قبيح أن تقول: غداً سأتيك، بـ إن قلت: غداً فسأتيك، فكيف إن زدت على هذا وقلت: أمس فسأتيك، وإذ على أصله بمنزلة أمس، فهذه فضائح لا غطاء عليها.

فإن قال قائل: فكيف الوجه في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا﴾ [الأنعام: ٣٠] وكذلك: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الْمَجْرُمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] أليس هذا كما قال ابن هشام بمعنى إذا التي تعطى الاستقبال؟

قيل له: وكيف تكون بمعنى إذا، وإذا لا يقع بعدها الابتداء والخبر، وقد قال سبحانه: ﴿إِذْ الْمَجْرُمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ﴾ وإنما التقدير: ولو ترى نذمهم وحزنهم في ذلك اليوم بعد وقوفهم على النار، فإذا ظرف ماض على أصله، ولكن بالإضافة إلى حزنهم وندامتهم، فالحزن والندامة واقعان بعد المعاينة والتوقيف، فقد صار وقت التوقيف ماضياً بالإضافة إلى ما بعده، والذي بعده هو مفعول ترى، وهذا نحو مما يتوهم في قوله سبحانه: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الكهف: ٧١] فيتوهم أن إذا

هاهنا بمعنى إذ، لأنه حديث قد مضى، وليس كما يتوهم، بل هي على بابها، والفعل بعدها مستقبل بالإضافة إلى الانطلاق، لأنه بعده، والانطلاق قبله، ولولا حتى، ما جاز أن يقال إلا انطلقا إذ ركبا، ولكن معنى الغاية في حتى دل على أن الركوب كان بعد الانطلاق وإذا كان بعده، فهو مستقبل بالإضافة إليه، وكذلك مسألتنا الحزن، وسوء الحال الذي هو مفعول لثرى، وإن كان غير مذكور في اللفظ، فهو بعد وقت الوقوف، فوقف الوقوف ماضٍ بالإضافة إليه، وإذ لم يكن بد من حذف، فكذلك نقدر حذفًا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ [الأحقاف: ١١] ونحوه لأنها وإن كانت بمعنى أن، فلا بد لها من تعلق، كأنه قال: جُزِيتَ بهذا من أجل أن ظلمتم، أو من أجل أن لم يَهْتَدُوا به ضلُّوا.

وذكر في نساء بني جَحْش: جُدَامَةُ بنت جَنْدَل، وأحسبه أراد جُدَامَةَ بنت وَهْب بن مِخْصَن، وهي المذكورة في حديث الرضاع في الموطأ، وقال فيها خلف بن هشام البزار: جُدَامَةُ بالذال المنقوطة هكذا ذكر عنه مُسْلِم بن الحجاج، والمعروف: جُدَامَةُ بالذال، وقد يقال فيها جُدَامَةُ بالتشديد، والجُدَامَةُ قصب الزرع، وأملى علينا أبو بكر الحافظ، وكتبت عنه بخط يدي قال المبارك بن عبد الجبار عن أبي إسحق البَزْمَكِيِّ عن محمد بن زكريا بن حبويه عن أبي عمر الزاهد المطرزي قال: الجُدَامَةُ: بتشديد الدال طَرَف السَّعْفَةِ وبه سميت المرأة، وكانت جُدَامَةُ بنت وَهْب تحت أنيس بن قتادة الأنصاري وأما جُدَامَةُ بنت جَنْدَل، فلا تُعرف في آل جحش الأسديين، ولا في غيرهم، ولعله وَهْم وقع في الكتاب، وأنها بنت وهب بن مِخْصَن بنت أخي عُكَّاشَةَ بن مِخْصَن، كما قدمنا والله أعلم.

وذكر في بني أسد ثَقَف بن عمرو، ويقال فيه: ثِقَافٌ شهد هو وأخوه مِذْلَاج [أو مدلج] بدرًا وقتل يوم أحد شهيدًا وقال موسى بن عقبة قتل يوم خَيْبَر قتله أسير [بن رزام] اليهودي.

وذكر فيهم أم حَبِيب بنت ثُمَامَةَ، وهي مما أغفله أبو عُمَر في كتابه، وأغفل أيضًا ذكر ثُمَام بن عبيدة، وهو ممن ذكره ابن إسحق في هذه الجملة المذكورين من بني أسد.

وذكر ابن إسحق في هذه الجملة أَرْبَدَ بن جميرة الأسدي بالجيم، وقاله ابن هشام: حُمَيْرَة بالحاء، ورواه إبراهيم بن سعد عن ابن إسحق بخلاف ما رواه البُكَائِي وابن هشام، فقال فيه ابن حُمَيْر بتشديد الياء، كأنه تصغير حمار.

وذكر فيهم مخْرِز بن نُضَلَّة، ولم يرفع نسبه، وهو ابن نُضَلَّة بن عبد الله بن مُرَّة بن

هجرة عمر وقصة عياش معه

قال ابن إسحاق: ثم خرج عمر بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي حتى قدما المدينة. فحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب، قال: اتعدت، لما أردنا الهجرة إلى المدينة، أنا وعياش بن أبي

عَنَم بن دُودَانَ بن أَسَد [بن خزيمة] قتل في غزوة ذي قَرَد^(١) شهيدًا، وكان قد شهد بدرًا، وكان يعرف بالأخرم، ويلقب: فَهَيْرَة، وقال فيه موسى بن عقبة مُخْرِز بن وَهَب، ولم يقل ابن نُضْلَة.

وذكر ابن إسحاق أيضًا يزيد بن رُقَيْش، وبعضهم يقول فيه: أَرَبَد ولا يصح، وهو ابن رُقَيْش بن رِثَاب بن يَعمَر بن كَبِير بن عَنَم بن دُودَانَ: وذكر فيهم ربيعة بن أَكْثَم، ولم ينسبه وهو ابن أَكْثَم بن سَخْبَرَة بن عمرو بن نُفَيْر بن عامر بن عَنَم بن دُودَانَ بن أَسَد يكنى: أبا يزيد، وكان قصيرًا دَخْدَحًا قُتِل يوم خيبر بالثَّطَاة^(٢) قتله الحارث اليهودي.

هجرة عمر وعياش^(٣)

ذكر فيها تواعدهم التناضب بكسر الضاد، كأنه جمع تَنْضُب [واحدته تَنْضُبَة] وهو ضَرْب من الشجر، تألفه الجِرَاء. قال الشاعر:

إِنِّي أُبِيحُ لَهُ جِرَاءَ تَنْضُبَةٍ لَا يُزِيلُ السَّاقَ إِلَّا مُمَسِّكًا سَاقًا

ويقال لثمره الممتع وهو فُتْعَلِيل أدغمت النون في الميم وظاهر قول سيبويه: أنه فعلل وأنه مما لحقته الزيادة بالتضعيف، والقول الأول يقويه أن مثله الهُندَلِج، وهو نبت وتتخذ من هذا الشجر القيسي كما تتخذ من التَّيْع والشوط والشریان والسراء والأشکل، ودخان التَنْضُب، ذكره أبو حنيفة في النبات.

وقال الجَعْدِيُّ:

كَأَنَّ الْعُبَارَ الَّذِي غَادَرْتُ ضَحِيًّا دَوَاجِنُ مِنْ تَنْضُبٍ

شبه الغبار بدخان التَنْضُب لبياضه. وقال آخر [عُقَيْل بن عُلقَة المُرِّي]:

وَهَلْ أَشْهَدُنَّ حَيْنًا كَانَ عُبَارَهَا بِأَسْفَلِ عَلَكَدٍ دَوَاجِنُ تَنْضُبٍ

(١) موضع على بُعْدَ ليلتين من المدينة. وسيأتي ذكرها.

(٢) الثَّطَاة: أرض بخيبر.

(٣) انظر البداية (٣/ ١٧٠) ط. دار الكتب العلمية.

رَبِيعَة [واسمه: عمرو ويلقب ذا الرمحين]، وهشام بن العاصي بن وائل السهمي التَّنَاضِبُ من أَضَاءِ بني غِفَّارٍ، فوق سَرِفٍ، وقلنا: أَيْنَا لم يُضْبِحْ عندها فقد حُبِسَ فَلْيَمْنُصْ صاحباه. قال: فأصبحت أنا وعِيَّاش بن أبي ربيعة عند التَّنَاضِبِ، وحُبِسَ عنا هشام، وفُتِنَ فافتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بَقْبَاءَ، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عِيَّاش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قَدِمَا علينا المدينة، ورسولُ الله ﷺ بمكة، فكلَّمَاهُ وقالَا: إِنَّ أَمَكْ قد ندرت أن لا يمس رأسها مُشْطٌ حتى تراك، ولا تستظلَّ من شمس حتى تراك، فرقَّ لها، فقلت له: يا عِيَّاش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذَى أَمَكْ القملُ لامتشطت، ولو قد اشتدَّ عليها حرُّ مكة لاستظلت. قال: فقال: أَبُرُّ قَسَمَ أُمِّي، ولي هنالك مالٌ فأخذه. قال: فقلت: والله إنك لتعلم أنني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصفُ مالي ولا تذهب معهما. قال: فأبى عليّ إلا أن يخرج معهما؛ فلما أبى إلا ذلك؛ قال: قلت له: أَمَا إذ قد فعلتَ ما فعلت، فخذُ ناقتي هذه، فإنه ناقةٌ نجبية ذُلُولٌ فالزَمْ ظهرها، فإن رابك من القوم ريبٌ، فانجُ عليها: فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا ابن أخي، والله لقد استغلظتْ بعيري هذا، أفلا تُغَيِّبَنِي على ناقتك هذه؟ قال: بلى. قال: فأناخ، وأناخا ليتحوَّلَ عليها، فلما استَوَوْا بالأرض عدَوْا عليه، فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتن.

وَأَضَاءُ بني غِفَّارٍ على عشرة أميال من مَكَّةَ، والأضَاءُ العَدِيرُ، كأنها مقلوب من وَضَاءَ على وزن فَعَلَةٍ، واشتقاقه من الوَضَاءَةِ بالمد وهي النظافة، لأن الماء ينظف، وجمع الأضَاءِ إِضَاءَةٌ وقال النابغة [في صفة الدروع]:

عَلَيْنَ بِكَذِيُونٍ وَأَبْطُنْ كُرَّةً وَهُنَّ إِضَاءٌ صَافِيَاتُ الْغَلَائِلِ

[وَأَضَيَاتٍ، وَأَضَوَاتٍ وَأَضًا وَإِضُون]. وهذا الجمع يحتمل أن يكون غير مقلوب، فتكون الهمزة بدلاً من الواو المكسورة في وِضَاءٍ، وقياس الواو المكسورة تقتضي الهمز على أصل الاشتقاق، ويكون الواحد مقلوباً لأن الواو المفتوحة لا تهمز، مع أن لام الفعل غير همزة، وقد يجوز أن يكون الجمع محمولاً على الواحد فيكون مقلوباً مثله، ويقال أضَاءة بالمد، وقد يجمع أضَاءة على إضين، قاله أبو حنيفة وأنشد:

مَحَافِرُ كَأَسْرِيَةِ الْإِضِينَا

الْأَسْرِيَّةُ: جمع سَرِيٍّ، وهو الجَدُولُ، ويقال له أَيْضًا: السَّعِيدُ.

قال ابن إسحاق: فحدثني به بعض آل عيَّاش بن أبي ربيعة: أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهارًا موثقًا، ثم قالَا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسُفْهائكم، كما فعلنا بسفيهنَا هذا.

كتاب عمر إلى هشام بن العاصي

قال ابن إسحاق: وحدثني نافع، عن عبد الله بن عمر، عن عمر في حديثه، قال: فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صَرْفًا ولا عَدْلًا ولا توبة، قوم عَرَفُوا الله، ثم رجعوا إلى الكُفر لبلاءٍ أصابهم! قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم. فلما قدم رسولُ الله ﷺ المدينة، أنزل الله تعالى فيهم، وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأُنْيَبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣-٥٥].

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاصي قال: فقال هشام بن العاصي: فلما أتتني جعلت أقرأها بذِي طَوًى، صعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها، حتى قلت اللهم فَهْمْنِيهَا. قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيري، فجلست عليه، فلحقتُ برسول الله ﷺ - وهو بالمدينة.

قول هشام بن العاص

فصل: وذكر نزول الآية: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] الآية في المستضعفين بمكة، وقول هشام بن العاص: ففاجأتني وأنا بذِي طَوًى. طَوًى: مقصور موضع بأسفل مكة، ذكر أن آدم لما أهبط إلى الهند، ومشى إلى مكة، وجعل الملائكة، تنتظره بذِي طَوًى، وأنهم قالوا له: يا آدم ما زلنا ننتظرك هاهنا منذ ألفي سنة^(١)، وروي أن آدم كان إذا أتى البيت خلع نعليه بذِي طَوًى، وأما ذو طَوًاء بالمد، فموضع آخر بين مكة والطائف هكذا ذكره البكري، وأما طَوًى بضم الطاء والقصر المذكور في التنزيل، فهو بالشام اسم للوادي المقدس، وقد قيل: ليس باسم له، وإنما هو من صفة التقديس، أي: المقدس مرتين.

(١) لا صحة لهذا.

الوليد بن الوليد وعياش وهشام:

قال ابن هشام: فحدثني من أثق به: أنَّ رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينة: «مَنْ لِي بعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي؟ فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: أنا لك يا رسول الله بهما، فخرج إلى مكة، فقَدِمَها مستخفياً، فلقني امرأة تحمل طعاماً، فقال لها: أين تريدان يا أمة الله؟ قالت: أريد هذين المحبوسين - تَغْنِيهما - فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين في بيت لا سَقَفَ له؛ فلما أَمَسَى تَسَوَّرَ عليهما، ثم أخذ مَرَوْه. فوضعها تحت قَيْدَيْهِما، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما فكان يقال لسفيه: «ذو المَرَوْه». لذلك، ثم حملهما على بعيره، وساق بهما، فعثر فَدَمِيَتْ أَصْبَعُهُ، فقال:

هل أنتِ إلا أَصْبَعُ دَمِيَتْ وفي سبيلِ الله ما لَقِيَتْ
ثم قدم بهما على رسول الله - ﷺ المدينة.

منازل المهاجرين بالمدينة:

قال ابن إسحاق: ونزل عمر بن الخطاب حين قدم المدينة، وَمَنْ لحق به من أهله وقومه، وأخوه زيد بن الخطاب، وعمرو وعبد الله ابنا سُرَاقَة بن المعتمر وخُنَيْس بن خُذَافَة السَّهْمِيّ - وكان صهره على ابنته خَفْصَة بنت عمر، فخلف عليها رسول الله ﷺ بعده - وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل، وواقد بن عبد الله التَّمِيمِي، حليف لهم؛ وَخَوْلِي بن أبي خَوْلِيٍّ، ومالك بن أبي خَوْلِيٍّ حليفان لهم.

قال ابن هشام: أبو خَوْلِيٍّ: من بني عجل بن لُجَيْم بن صَعْب بن علي بن بكر بن وائل.

قال ابن إسحاق: وبنو البُكَير أربعتهم: إياس بن البُكَير، وعادل بن البُكَير، وعامر بن البُكَير، وخالد بن البُكَير، وحلفاؤهم من بني سعد بن ليث، على رفاة بن عبد المنذر بن زُبَيْر، في بني عمرو بن عوف بقاء، وقد كان منزل عياش بن أبي ربيعة معه عليه حين قدما المدينة.

ثم تتابع المهاجرون، فنزل طَلْحَة بن عبيد الله بن عثمان، وصُهَيْب بن سِنان على خُبَيْب بن إِسَاف أخي بَلْهَارِث بن الخَزْرَج بالسُّنَح. قال ابن هشام: ويقال: يساف فيما

نزول طلحة وصهيب على خبيب بن إساف:

فصل: وذكر نزول طلحة وصهيب على خُبَيْب بن إِسَاف ويقال فيه يَسَاف بياء مفتوحة في غير رواية الكتاب، وهو إِسَاف بن عِنَبَة، ولم يكن حين نزول المهاجرين عليه مُسْلِماً في

أخبرني عنه ابن إسحق. ويقال: بل نزل طلحة بن عبيد الله على أسعد بن زُرارة، أخي بني النُّجَّار.

قال ابن هشام: وذكر لي عن أبي عثمان التَّهْدِيّ، أنه قال: بلغني أن صُهَيْبًا حين أراد الهجرة قال له كَفَّار قريش: أتيتنا صُغُلُوكًا حَقِيرًا، فكثُرَ مالُك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صُهَيْب: أرايتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني جعلت لكم مالي. قال: فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: «رَبِّحْ صُهَيْبَ رِبْحٍ صُهَيْبٍ»^(١).

منزل حمزة وزيد وأبي مرثد وابنه وأنسة وأبي كبشة

قال ابن إسحق: ونزل حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وأبو مرثد كُتَّاز بن حصن.

قال ابن هشام: ويقال: ابن حُصَيْن - وابنه مرثد الغنويان، حليفا حمزة بن عبد المطلب، وأنسة، وأبو كبشة، موليا رسول الله ﷺ، على كُثُوم بن هِدم، أخي بني

قول الواقدي بل تأخر إسلامه، حتى خرج رسول الله ﷺ - إلى بدر، قال حُبَيْبٌ: فخرجت معه أنا ورجل من قومي، وقتلنا له: نكره أن يشهد قومنا مشهدًا لا نشهده معهم، فقال: أسلمتما؟ فقلنا: لا، فقال: ارجعا، فإننا لا نستعين بمشرك.

وحُبَيْبٌ هو الذي خلف على بنت خارجة بعد أبي بكر الصديق، واسمها: حَبِيبَةُ، وهي التي يقول فيها أبو بكر عند وفاته: ذو بطن بنت خارجة أراها جارية، وهي: بنت خارجة بن أبي زهير، والجارية: أم كُثُوم بنت أبي بكر، مات حُبَيْبٌ في خلافة عثمان، وهو جدُّ حُبَيْب بن عبد الرحمن، الذي يروى عنه مالك في موطئه.

أبو كبشة

وذكر أنسة وأبا كبشة في الذين نزلوا على كُثُوم بن الهِدم، فأما أنسة مولى رسول الله ﷺ، فهو من مَوْلِي السَّراة، ويُكنى: أبا مَسْرُوح، وقيل: أبا مِشْرَح شهد بدرًا، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ - ومات في خلافة أبي بكر، وأبو كبشة اسمه: سليم يقال إنه من فارس، ويقال: من مَوْلِي دَوْس، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ - ومات في خلافة عمر في اليوم الذي ولد فيه عُرْوَةُ بن الزُّبَيْر، وأما الذي كانت

(١) انظر الطبقات (١٦٢/١/٣) وابن عساكر في تهذيبه (٤٥٢/٦).

عمرو بن عوف بَقَاء: ويقال: بل نزلوا على سعد بن خَيْثَمَة؛ ويقال: بل نزل حمزة بن عبد المطلب على أسعد بن زُرارة، أخي بني النَجَّار. كل ذلك يقال:

ونزل عُبَيْدة بن الحارث بن المطلب، وأخوه الطُفَيْل بن الحارث، والحُصَيْن بن الحارث؛ وَمِسْطَح بن أَثَّاثَة بن عَبَّاد بن المطلب، وسُوَيْط بن سعد بن حُرَيْمَلَة، أخو بني عبد الدار، وطَلِيب بن عُمَيْر، أخو بني عبد بن قُصَيٍّ، وخَبَّاب مولى عُتْبَة بن عَزْوَان، على عبد الله بن سلمة، أخي بَلْعَجَلان بَقَاء.

ونزل عبد الرحمن بن عوف في رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع أخي بَلْحَارِث بن الخزرج، في دار بَلْحَارِث بن الخزرج.

كفار قريش تذكره وتنسب النبي عليه السلام إليه، وتقول: قال ابن أبي كَبْشَة وفعل ابن أبي كَبْشَة، فقيل فيه أقوال: قيل: إنها كُنْيَة أبيه لأُمّه وَهْب بن عبد مناف، وقيل: كُنْيَة أبيه من الرضاة الحارث بن عبد العزى، وقيل: إن سَلَمَى أخت عبد المطلب كان يكنى أبوها أبا كَبْشَة، وهو عمرو بن لَيْد، وأشهر من هذه الأقوال كلها عند الناس أنهم شبهوه برجل كان يعبد الشُعْرَى وحده دون العرب، فنسبوه إليه لخروجه عن دين قومه.

وذكر الدارقطني اسم أبي كَبْشَة هذا في المؤتلف والمختلف، فقال: اسمه وَجْز بن غالب، وهو خُزَاعِيٌّ، وهو من بني غُبْشَانَ.

وذكر نزولهم بَقَاء، وهو مسكن بني عمرو بن عوف وهو على فرسخ من المدينة، وهو يُمَدّ وَيُقَصَّر وَيُؤَنَّث وَيَذَكَّر، وَيُضَرَف ولا يُضَرَف، وأنشد أبو حاتم في صَرْفِه:

وَلَا بُغْيَئُكُمْ قُبَا [و] عَوَارِضَا وَلَا قَبِلَنَّ الْخَيْلَ لَابَةً ضَرْعَدِ

وكذلك أنشده قاسم بن ثابت في الدلائل قُبَا بضم القاف و [فتح] الباء وهو عند أهل العربية تصحيف منهما جميعاً، وإنما هو كما أنشده سيبويه: قَنَا وَعَوَارِضَا، لأن قَنَا جَبَلٌ عند عَوَارِض يقال له، ولجبل آخر معه قَنَوَان، وبينهما وبين قباء مسافات وبلاد، فلا يصح أن يقرن قُبَا الذي عند المدينة مع عَوَارِض وَقَنَوَيْن، وكذا قال البكري في مُعْجَم ما استعجم وأنشد: [لمعقل بن ضِرَار بن سنان الملقب بالشماخ].

كَأَنهَا لَمَّا بَدَا عَوَارِضُ وَاللَّيْلُ بَيْنَ قَنَوَيْنِ رَابِضُ

وَقُبَاء: مأخوذ من الْقَبْو، وهو الضُّمُّ والجمعُ قاله أبو حنيفة، وقال: القَوَابِي: هن اللواتي يجتمعن العصفور واحدهن: قَابِيَّة. قال: وأهل العربية يسمون الضمة من الحركات قَبَوَا، وأما قولهم: لا والذي أخرج قُبَوَا من قابية يعنون: الْفَرْخُ مِنَ الْبَيْضَةِ فمن قال فيه:

ونزل الزبير بن العوام، وأبو سبرة بن أبي رُهم بن عبد العزى، على مُنذر بن محمد بن عتبة بن أحيحة بن الجلاح بالعصبة، دار بني جَحْجَجِي.

ونزل مُضْعَب بن عُمَيْر بن هاشم، أخو بني عبد الدار على سعد بن مُعَاذ بن النعمان، أخي بني عبد الأشهل، في دار بني عبد الأشهل.

ونزل أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة، وسالم مولى أبي حذيفة.

قال ابن هشام: سالم مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ سَائِبَةً، لثُبَيْتَةَ [أَوْ نَيْبَتَةَ] بِنْتِ يَعَارِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عُيَيْدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ عَوْفِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَوْفِ بْنِ مَالِكِ بْنِ الْأَوْسِ، سَيِّئَتِهِ فَانْقَطَعَ إِلَى أَبِي حُذَيْفَةَ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ فَتَبَّأَهُ، فَقِيلَ: سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ وَيُقَالُ: كَانَتْ ثُبَيْتَةُ بِنْتُ يَعَارِ تَحْتَ أَبِي حُذَيْفَةَ بْنِ عُتْبَةَ فَأَعْتَقَتْ سَالِمًا سَائِبَةً. فَقِيلَ: سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ.

قَابِيَةٌ بِتَقْدِيمِ الْبَاءِ، فَهُوَ الْقَبْوُ الَّذِي يَقْدَمُ، وَمَنْ قَالَ فِيهِ: قَابِيَةٌ، فَهُوَ مِنْ لَفْظِ الْقَوْبِ لِأَنَّهَا تَقْوُبُ عَنْهُ، أَيْ تَنْقَشُرُ قَالَ الْكَمِيتُ يَصِفُ النِّسَاءَ:

لَهُنَّ وَلِلْمَشِيبِ وَمَنْ عِلَاءٌ مِنْ الْأَمْثَالِ قَابِيَةٌ وَقَوْبٌ

وفي حديث عمر: فكانت قَابِيَةٌ قَوْبٍ عَامِهَا، يعني: العُمُرَةُ فِي أَشْهُرِ الْحِجِّ، وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّ قَبَاءَ اسْمِ بَثْرِ عُرِفَتْ الْقَرْيَةُ بِهَا.

سالم مولى أبي حذيفة:

فصل: وذكر سالمًا مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ الَّذِي كَانَ أَبُو حُذَيْفَةَ قَدْ تَبَّأَهُ كَمَا تَبَّنَى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - زَيْدًا، وَكَانَ سَائِبَةً أَيْ: لَا وِلَاءَ عَلَيْهِ لِأَحَدٍ، وَذَكَرَ الْمَرْأَةَ الَّتِي أَعْتَقَتْهُ سَائِبَةً، وَهِيَ ثُبَيْتَةُ بِنْتُ يَعَارِ، وَقَدْ قِيلَ فِي اسْمِهَا بُنَيْتَةُ ذَكَرَهُ أَبُو عَمْرٍو، وَذَكَرَ عَنِ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِيهَا: بِنْتُ تَعَارِ، وَقَالَ ابْنُ شَيْبَةَ فِي الْمَعَارِفِ: اسْمُهَا سَلْمَى [وَقَالَ ابْنُ حِبَانَ: يُقَالُ لَهَا: لَيْلِمَةُ] وَيُقَالُ فِي اسْمِهَا أَيْضًا: عَمْرَةُ، وَقَدْ أَبْطَلَ التَّشْيِيبُ فِي الْعِتْقِ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَجَعَلُوا الْوِلَاءَ لِكُلِّ مَنْ أَعْتَقَ أَخْذًا بِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ وَحَمَلًا لَهُ عَلَى الْعُمُومِ، وَلَمَّا رَوَى أَيْضًا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: لَا سَائِبَةَ فِي الْإِسْلَامِ، وَرَأَى مَالِكٌ مِيرَاثَ السَّائِبَةِ لَجْمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَرِ وِلَاءَهُ لِمَنْ سَيَّيَهُ، فَكَانَ لِلتَّشْيِيبِ وَالْعِتْقِ عِنْدَهُ حَكْمَانِ مُخْتَلِفَانِ، وَسَالِمٌ هَذَا هُوَ الَّذِي أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَهْلَةَ بِنْتُ سُهَيْلٍ أَنْ تَرْضَعَهُ لِحُرْمِ عَلَيْهَا، فَأَرْضَعَتْهُ وَهُوَ ذُو لَحْيَةٍ.

قال ابن إسحاق: ونزل عُتْبَةُ بن غَزْوَان بن جَابِر على عَبَّاد بن بشر بن وَقْش أَخِي بني عبد الأشهل في دار عبد الأشهل.

ونزل عثمان بن عَقَّان على أَوْس بن ثابت بن الْمُنْدِر، أَخِي حَسَّان بن ثابت في دار بني النَجَّار، فلذلك كان حَسَّان يَحِبُّ عثمان ويُبْكِيه حين قُتِل.

وكان يقال: نزل الأعزَاب من المهاجرين على سعد بن خَيْثَمَة، وذلك أنه كان عَزَبًا، فالله أعلم أي ذلك كان.

فإن قيل: كيف جاز له أن ينظر إلى ثديها، فقد روي في ذلك أنها حلبت له في مِسْعَط وشرب اللبن^(١)، ذكر ذلك محمد بن حبيب.

(١) انظر الحديث في مسلم في الرضاع (٢٧/٢٨) وأبو داود والنسائي وابن ماجه وأحمد.

خبر الندوة وهجرة الرسول ﷺ

وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حُبس أو فُتن، إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق رضي الله عنهما، وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا»، فيطمع أبو بكر أن يكونه.

الملا من قريش يتشاورون في أمر الرسول ﷺ

قال ابن إسحاق: ولما رأت قريش أن رسول الله - ﷺ - قد صارت له شيعَةٌ وأصحاب من غيرهم بغير بلد، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا، وأصابوا منهم مَنعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنهم قد أجمع لحزبهم. فاجتمعوا له في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرًا إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ، حين خافوه.

قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم من أصحابنا، عن عبد الله بن أبي نَجِيح، عن مجاهد بن جبر أبي الحجاج، وغيره ممن لا أتهم، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما أجمعوا لذلك، واتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر

اجتماع قريش للتشاور في أمر النبي ﷺ^(١)

ذكر فيه تمثل إبليس - حين أتاها - في صورة شيخ جليل وانتسابه إلى أهل نجد.

(١) الخبر في تاريخ الطبري (٣٧٠/٢) البداية والنهاية (١٧٣/٣) الكامل (٣/٢) الدلائل (٤٦٥/٢) المنتظم (٤٥/٣) الاكتفاء (٤٣٨/١).

رسول الله - ﷺ - عَذُّوا في اليوم الذي اتَّعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى يومَ الرَّخْمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، عليه بتلة، فوقف على باب الدار، فلما رآوه واقفاً على بابها، قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سَمِعَ بالذي اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يُعْذِمَكُم منه رأياً ونُصْحاً، قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشرافُ قُرَيْشٍ، من بني عبد شمس: عُتْبَةُ بن ربيعة، وشَيْبَةُ بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب. ومن بني نُوْفَلٍ بن عبد مناف: طُعَيْمَةُ بن عدي، وجُبَيْر بن مُطْعِم، والحارث بن عارم بن نوفل: ومن بني عبد الدار بن قصي: النضر بن الحارث بن كَلْدَةَ. ومن بني أسد بن عبد العزى: أبو الْبَخْتَرِيِّ بن هشام، وزَمْغَةَ بن الأسود بن الْمُطَّلِب، وحكيم بن حزام. ومن بني مخزوم: أبو جهل بن هشام. ومن بني سَهْم: نبيه ومُتَبِّه ابنا الْحِجَّاج، ومن بني جُمَح: أُمَيَّة بن خَلْفٍ، ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يُعَدُّ من قُرَيْشٍ.

قوله في صورة شيخ جليل يقول: جَلَّ الرجل وجلت المرأة إذا أَسَنَّت، قال الشاعر:

وما حظها أن قيل عَبْرَتْ وَجَلَّتْ

ويقال منه: جَلَلْتُ يا رجل بفتح اللام، وقياسمه جَلَلْتُ لأن اسم الفاعل منه: جليل، ولكن تركوا الضَّمَّ في المضاعف كله استثقالاً له مع التضعيف إلا في لَبَّيْتُ، فانتَ لبيب، حكاه سيبويه بالضَّمَّ على الأصل.

وإنما قال لهم: إني من أهل نجد فيما ذكر بعض أهل السيرة، لأنهم قالوا: لا يدخلن معكم في المشاورة أحدٌ من أهل تَهَامَةَ لأن هواهم مع محمَّد، فلذلك تمثل لهم في صورة شيخ نَجْدِي، وقد ذكرنا في خبر بُنَيان الكعبة أنه تمثَّل في صورة شيخ نجدِي أيضاً، حين حَكَمُوا رسول الله - ﷺ - في أمر الركن: من يرفعه، فصاح الشيخ النجدي: يا مَغَشَّر قُرَيْش: أقد رَضِيتُم أن يليه هذا الغلام دون أشرافكم وذوي أسنانكم، فإن صح هذا الخبرُ فَلِمَ غَنَى آخر تمثَّل نَجْدِيّاً، وذلك أن نجداً منها يَطْلُع قَرْنُ الشَّيْطَانِ، كما قال رسول الله - ﷺ - حين قيل له: وفي نَجْدِنَا يا رسول الله؟ قال: «هنالك الزلازل والفِتن، ومنها يطلع قَرْنُ الشَّيْطَانِ»^(١)، فلم يُبارِك عليها، كما بَارَكَ على اليمن والشام وغيرها، وحديثه الآخر أنه نظر إلى المشرق، فقال: إن الْفِتْنَةَ هاهنا من حيث يَطْلُع قَرْنُ الشَّيْطَانِ، وفي حديث ابن عمر، أنه حين قال هذا الكلام، ووقف عند باب عائشة، ونظر إلى المشرق فقال، وفي

(١) أخرجه البخاري (٣٧/١).

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإننا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيا. قال: فتشاوروا ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه بابا، ثم تَرَبَّصُوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، زُهَيْرًا والنابعة، ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يُصِيبَهُ ما أصابهم، فقال الشيخ النَجْدِيُّ: لا والله، ما هذا لكم برأي. والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجنَّ أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فَلَاؤُشَكُوا أن يثبوا عليكم، فينزِعوه من أيديكم، ثم يُكاثروكم به، حتى يغلبوكم على أركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره، فتشاوروا، ثم قال قائل منهم: نُخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عثا فوالله ما نُبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، إذا غاب عثا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت. فقال الشيخ النَجْدِيُّ: لا والله، ما هذا لكم برأي، ألم تَرَوْا حُسْنَ حديثه، وحلاوة منطقته، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمتتم أن يحلَّ على حيٍّ من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم، حتى يطأكم بهم في بلادكم، فيأخذ أركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دَبَّرُوا فيه رأيا غير هذا. قال: فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فرضوا منا بالعقل، فَعَقَلْنَاهُ لهم. قال: فقال الشيخ النَجْدِيُّ: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له.

وقوفه عند باب عائشة ناظرا إلى المشرق يحذر من الفتن، وفكر في خروجها إلى المشرق عند وقوع الفتنة تفهم من الإشارة واطمأن إلى هذا قوله عليه السلام حين ذكر نزول الفتن: **أيقظوا صَوَاحِبَ الْحَجَرِ، والله أعلم.**

وذكر تشاورهم في أمر النبي ﷺ، وأن بعضهم أشار بأن يُحبس في بيت، وبعضهم بإخراجه عليه السلام من بين أظهرهم ونفيه، ولم يُسمَّ قائل هذا القول، وقال ابن سلام: الذي أشار بحبسه هو أبو البَخْتَرِيِّ بن هشام، والذي أشار بإخراجه ونفيه هو أبو الأسود ربيعة بن عمرو، أحد بني عامر بن لؤي، وقول أبي جهل: نسيبا وسيطا، هو من السطة في العشيرة، وقد تقدم في باب تزويجه خديجة معنى الوسيط، وأين يكون مدحا.

مما يقال عن ليلة الهجرة:

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ، فقال: لا تَبِثْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. قال: فلما كانت عَثَمَةُ من الليل اجتمعوا على بابه يَرْضُدُونَهُ متى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم، قال لعلتي بن أبي طالب: «نَمْ على فراشي وَتَسْجِ بِبُرْدِي هذا الحَضْرَمِي الأخضر، فَنَمْ فيه، فإنه لن يَخْلُصَ إليك شيء تكرهه منهم»، وكان رسول الله ﷺ ينام في بُرْدِهِ ذلك إذا نام.

قال ابن إسحاق: فحدَّثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القُرَظِي قال: لما اجتمعوا له، وفيهم أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره، كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بُعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بُعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تُحرقون فيها.

قال: وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حَفْنَةً من تراب في يده، ثم قال: «أنا أقول ذلك، أنت أحدهم»، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يَرَوْنَهُ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم، وهو يتلو هؤلاء الآيات من يَس: ﴿يَس وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.. إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ حتى فرغ رسول الله ﷺ - من هؤلاء الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آتٍ ممن لم

وأما قوله على بابه يتطلعون، فيرون عليا وعليه بُرْدُ رسول الله ﷺ فيظنون إياه، فلم يزلوا قياما حتى أصبحوا، فذكر بعض أهل التفسير السبب المانع لهم من التَّقَحُّمِ عليه في الدار مع قِصْرِ الجدار، وأنهم إنما جاؤوا لقتله، فذكر في الخبر أنهم هموا بالوُلُوجِ عليه، فصاحت امرأة من الدار، فقال بعضهم لبعض: والله إنها للسُّبَّةُ في العرب أن يُتحدَّثَ عنا أنا نَسَوْنَا الحِيطَانَ على بنات العم، وَهَتَكْنَا سِتْرَ حُرْمَتِنَا^(١)، فهذا هو الذي أقامهم بالباب حتى أصبحوا ينتظرون خروجه، ثم طَمَسَتْ أَبْصَارُهُمْ عنه حين خرج، وفي قراءة الآيات الأول من سورة: يَس من الفقه التَّذَكُّرُ بقراءة الخائفين لها اقتداء به عليه السلام، فقد روى الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن النبي ﷺ في ذكر فضل يَس أنها إن قرأها خائف أمين، أو جائع شبه أو عارٍ كُسي، أو عاطش سقي حتى ذكر خلافا كثيرة.

(١) كانت هذه هي أخلاق «أهل الجاهلية»: «إنها للسبة في العرب أن يتحدث عنا أنا نسونا الحيطان على بنات العم وهتكنا ستر حرمتنا». أين هي اليوم بين أتباع انبي ﷺ!!؟.

يكن معهم، فقال: مَا تَتَتَّظِرُونَ هَاهُنَا؟ قالوا: محمدًا، قال: خَيِّبَكُمُ اللَّهُ! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كُلُّ رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلَّعون، فَيَرَوْنَ عليًّا على الفراش مُتَسَجِّيًا بِبُرْدِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمدٌ نائمًا، عليه بُرْدُهُ. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام عليّ - رضي الله عنه - عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي حدَّثنا^(١).

الآيات التي نزلت في تربص المشركين بالنبي:

قال ابن إسحاق: وكان مما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك اليوم، وما كانوا أجمعوا له: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقول الله عز وجل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبِّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣٠].

قال ابن هشام: المتون: الموت. وريب المتون: ما يريب ويعرض منها.

قال أبو ذؤيب الهذلي:

أَمِنَ الْمَتُونُ وَرَيْبُهَا تَتَوَجَّعُ والدهر ليس بمُعْتِيبٍ من يجزع
وهذا البيت في قصيدة له.

وذكر ابن إسحاق ما أنزل الله في ذلك، وشرح ابن هشام رَبِّبَ الْمُتُونِ، وأنشد قول أبي ذؤيب:

أَمِنَ الْمَتُونُ وَرَيْبُهُ تَتَفَجَّعُ

والمَتُونُ يذُكَّرُ ويؤنَّثُ، فمن جعلها عبارةً عن المَيِّتَةِ أو حوادث الدهر أنثى، ومن جعلها عبارةً عن الدهر ذكراً، وَرَيْبُ المتون ما يريبك من تغير الأحوال فيه، سُمِّيتِ الْمَتُونُ لنزعها مَتْنِ الأشياء أي: قواها، وقيل: بل سميت مَتُونًا لقطعها دونَ الأمال من قولهم: جَبَلَ منين أي: مقطوع، وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦] أي غير مقطوع.

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢٢٧/١) من طريق الواقدي. وأخرجه عبد الرزاق (٣٨٩/٥) وأحمد (٣٤٨/١) من وجه آخر بنحوه.

قال ابن إسحق: وأذن الله تعالى لنبيه ﷺ عند ذلك في الهجرة.

قال ابن إسحق: وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً ذا مال، فكان حين استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تعجل، لعل الله يجد لك صاحباً»، قد طمع بأن يكون رسولُ الله ﷺ، إنما يعني نفسه، حين قال له ذلك، فابتاع راحلتين، فاحتبسهما في داره، يعلفهما إعداداً لذلك.

الهجرة إلى المدينة

قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: كان لا يخطيء رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله ﷺ بالهجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها.

إذن الله سبحانه لنبيه بالهجرة

ذكر فيه أن رسول الله - ﷺ: أتى بيت أبي بكر في الظهيرة: قالت عائشة: وفي البيت أنا وأختي أسماء فقال أخرج من معك، فقال أبو بكر: إنما هما بنتاي يا رسول الله.

وقال في جامع البخاري: إنما هم أهلك يا رسول الله^(١)، وذلك أن عائشة قد كان أبوها أنكحها من قبل ذلك، وكذلك روي عن أمها أم رومان بنت عامر بن عويمر، ويقال في اسم أبيها: رومان بفتح الراء أيضًا، فقال ابن إسحاق في غير رواية ابن هشام في حديث طويل ثابت اختصرته: إن أبا بكر حين هاجر مع رسول الله - ﷺ خلف بناته بمكة، فلما قدموا المدينة أرسل رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه، وأرسل أبو بكر عبد الله بن أريقط [الديلي]، وأرسل معهم خمسمائة درهم؛ فاشترى بها ظفرًا بقديد، ثم قدموا مكة فخرجوا بسودة بنت زمعة، وبفاطمة وبأم كلثوم. قالت عائشة: وخرجت أُمي معهم ومع طلحة بن عبيد الله مصطحبين، فلما كنا بقديد نفر البعير الذي كنت عليه أنا وأُمي: أم رومان في محفة، فجعلت أُمي تنادي: وَابْنَتَاهُ واعْرُوسَاهُ!! وفي رواية يونس عن ابن إسحاق، وفيه قالت عائشة: فسمعت قائلاً يقول - ولا أرى أحداً - ألقى خطامه، فآلقته

(١) أخرجه البخاري (١٨٣/٧).

قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث. قالت: فلما دخل، تأخَّر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «أخرج عني مَنْ عندك؟» فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك؟ فذاك أبي وأمي! فقال: «إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة». قالت: فقال أبو بكر، الصحبة يا رسول الله؛ قال: «الصحبة».

من يدي، فقام البعير يستدير به، كأن إنسانًا تحته يمسكه، حتى هبط البعير من الثنية، فسلم الله، فقدمنا على رسول الله ﷺ - وهو يبني المسجد وأبياتًا له، فنزلت مع أبي بكر، ونزلت سودة بنت زمعة في بيتها، فقال أبو بكر: ألا تبني بأهلك يا رسول الله، فقال: «لولا الصَّدَاق»، قالت: فدفع إليه ثنتي عشرة أوقية، ونشأ، والنَّش: عشرون دِرْهَمًا وذكرَت الحديث. ورواه ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.

لِمَ اشتريت الراحلة؟

وفي حديث ابن إسحاق أن أبا بكر قد أعد راحلتين، فقدم لرسول الله ﷺ واحدة، وهي أفضلهما، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أركب بعيرًا ليس لي»، فقال أبو بكر: هو لك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن»، فقال أبو بكر: بالثمن يا رسول الله فركبها^(١)، فسُئِل بعضُ أهل العلم، لِمَ لَمْ يقبلها إلا بالثمن، وقد أنفق أبو بكر عليه من ماله ما هو أكثر من هذا فقبل؟ وقد قال عليه السلام: «ليس من أحد آمنٌ عليَّ في أهلٍ ومالٍ من أبي بكر»، وقد دفع إليه حين بنى بعائشة ثنتي عشرة أوقية ونشأ، فلم يَأب من ذلك؟ فقال المسؤول: إنما ذلك لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبةً منه عليه السلام في استكمال فضل الهجرة والجهاد على أتم أحوالهما، وهو قولٌ حسنٌ حدَّثني بهذا بعضُ أصحابنا عن الفقيه الزاهد أبي الحسن بن اللوان رحمه الله.

ذكر ابن إسحاق في غير رواية ابن هشام:

وذكر ابن إسحاق في غير رواية ابن هشام: أن الناقة التي ابتاعها رسول الله ﷺ - من أبي بكر يومئذ هي: ناقته التي تسمى بالجَدعاء، وهي غير العَضْبَاء التي جاء فيها الحديث حين ذكر رسول الله ﷺ ناقةً صالح، وأنها تحشر معه يوم القيامة فقال له رجل: وأنت يومئذ على العَضْبَاء يا رسول الله، فقال: «لا. ابنتي فاطمة تُحشَر على العَضْبَاء، وأخشَر أنا على البَرَّاق، ويُحشَر هذا على ناقةٍ من نُوق الجنة» وأشار إلى بلال.

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (١/٥٧٠).

قالت: فوالله ما شَعَرْتُ قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال: يا نبي الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتكما لهذا، فاستأجراً عبد الله بن أرقط - رجلاً من بني الدَّيْل بن بكر [وهو من بني عبد بن عدي - هادياً خَريْتاً - والخريت: الماهر بالهداية قد غَمَس حلفاً في آل العاصي بن وائل السُّهْمِي - عن البخاري]، وكانت أمه امرأة من بني سَهْم بن عمرو، وكان مشركاً - يدلها على الطريق، فدفعاً إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

وذكر أذانه في الموقف في حديث طويل يرويه عبد الحميد بن كيسان عن سُوَيْد بن غَمَيْر، وعبد الحميد مجهول عندهم.

وفي مسند البزار عن أنس قال: خطبنا رسول الله ﷺ على العُضْبَاء، وليست بالجدعاء، فهذا من قول أنس: إنها غير الجدعاء، وهو الصحيح، لأنها غُنِمت، وأخذ صاحبها العقيلي بالمدينة، فقال: بِمَ أخذتني يا محمد، وأخذت سابقة الحاج، يعني: العُضْبَاء، فقال: أخذتك بجريرة حُلْفائك^(١).

بكاء الفرح من أبي بكر:

وذكر ابن إسحق في قول عائشة - رضي الله عنها - ما كنتُ أرى أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي من الفرح. قالت ذلك لصغير سنّها، وأنها لم تكن علمت بذلك قبل، وقد تطرقت الشعراء لهذا المعنى، فأخذته استحساناً له، فقال الطائي يصف السحاب:

دُهِمَ إِذَا وَكَفَّتْ فِي رَوْضِهِ طَفِيفَتْ عَيُونُ أَزْهَارِهَا تَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ

وقال أبو الطيب، وزاد على هذا المعنى:

فَلَا تُنْكِرَنَّ لَهَا صَرْعَةً فَمِنْ فَرَحِ النَّفْسِ مَا يَفْتُلُ

وقال بعض المُخَدِّثِينَ:

وَرَدَ الْكِتَابُ مِنَ الْحَبِيبِ بِأَنَّهُ سِيزُورُنِي فَاسْتَغْبَرْتُ أَجْفَانِي

غَلَبَ السَّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّهُ مِنْ قَرَطِ مَا قَدْ سَرَّنِي أَبْكَانِي

يَا عَيْنُ صَارَ الدَّمْعُ عِنْدَكَ عَادَةً تَبْكِينَ فِي فَرَحٍ وَفِي أَحْزَانٍ

(١) أخرجه البيهقي (١٢٠/٦) وأحمد (٤٣٣/٤) والبخاري في شرح السنة (٨٣/١١).

الذين كانوا يعلمون بالهجرة:

قال ابن إسحاق: ولم يعلم فيما بلغني، بخروج رسول الله ﷺ أحد، حين خرج، إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر. أما علي فإن رسول الله ﷺ - فيما بلغني - أخبره بخروجه، وأمره أن يتخلف بعده بمكة، حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع، التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته ﷺ.

الرسول ﷺ وأبو بكر في الغار

قال ابن إسحاق: فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج، أتى أبا بكر بن أبي قحافة، فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار ثور - جبل بأسفل مكة -

مكة والمدينة:

فصل: ومن قوله عليه السلام حين خرج من مكة، ووقف على الحزوة^(١)، ونظر إلى البيت، فقال: «والله إنك لأحب أرض الله إليّ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت»^(٢). يرويه الزهري عن أبي سلمة عن عبد الله بن عدي بن الحمراء يرفعه، وبعضهم يقول فيه: عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وهو من أصح ما يحتاج به في تفضيل مكة على المدينة، وكذلك حديث عبد الله بن الزبير مرفوعا: «إن صلاة في المسجد الحرام خير من مائة ألف صلاة فيما سواه»^(٣) فإذا كانت الأعمال تبعا للصلاة، فكل حسنة تعمل في الحرام، فهي بمائة ألف حسنة، وقد جاء هذا منصوبا من طريق ابن عباس عن رسول الله - ﷺ قال: «من حج ماشيا كتب له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم»، قيل: وما حسنات الحرم؟ قال: «الحسنة فيه بمائة ألف حسنة» [قال عطاء: ولا أحسب السيئة إلا مثلها]^(٤) أسنده البزار.

حديث الغار

وهو غار في جبل ثور، وهو الجبل الذي ذكره في تحريم المدينة، وأنها حرام ما بين

(١) الحزوة: سوق كانت بمكة.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٢٥) وابن ماجه (٣١٠٨) والحاكم (٤٣١/٧/٣) والدارمي (٢٣٩/٢) وابن عساكر (٩/٤) وأحمد في مسنده (٣٠٥/٤).

(٣) انظر تلخيص العبير (١٧٩/٤) بتحقيقي. وابن عساكر (٢٢٥/٧).

(٤) أخرجه البزار (٢٥/٢).

فدخلاه، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسّمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فهيرة مولاة أن يرعى غنمه نهاره، ثم يُريحها عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغار. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يُصلحهما.

قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم، أن الحسن بن أبي الحسن البصري قال: انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً، فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل رسول الله ﷺ، فتمسّس الغار، لينظر أفيه سبع أو حية، يقي رسول الله ﷺ بنفسه.

غير إلى ثور، وهو وهم في الحديث، لأن ثوراً من جبال مكة، وإنما لفظ الحديث عند أكثرهم ما بين غير إلى كذا، كأن المحدث قد نسي اسم المكان، فكنى عنه بكذا^(١).

وذكر قاسم بن ثابت في الدلائل فيما شرح من الحديث أن رسول الله ﷺ - لما دخله وأبو بكر معه أثبت الله على بابه الرّاءة: قال قاسم: وهي شجرة معروفة، فحجبت عن الغار أعين الكفار^(٢).

وقال أبو حنيفة: الرّاءة: من أغلاث الشجر، وتكون مثل قامة الإنسان، ولها خيطان، وزهر أبيض تُحشى به المَخَاد، فيكون كالريش لخفته ولينه، لأنه كالقطن أنشد:

ترى وَدَكَ الشَّريف على لَحَاهُم كمثل الرّاء لَبَدَه الصَّقِيعُ

وفي مُسنَد البزار: أن الله تعالى أمر العنكبوت فَنَسَجَتْ على وجه الغار، وأرسل حمامتين وخشيتين، فوقعتا على وجه الغار، وأن ذلك مما صدّ المشركين عنه، وأن حمّام الحرّم من نسل تينك الحمامتين، وروي أن أبا بكر - رضي الله عنه حين دخله وتقدم إلى دخوله - قبل رسول الله ﷺ - ليقية بنفسه، رأى فيه جُحْراً فَأَلْقَمَهُ عَقِبَهُ، لئلا يخرج منه ما يؤذي رسول الله ﷺ^(٣)، وفي الصحيح عن أنس: قال: قال أبو بكر - رضي الله عنه - لرسول الله ﷺ - وهما في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا، فقال له رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه البخاري وغيره.

(٢) في هذا نظر، وهو يفتقر إلى الحديث «الصحيح».

(٣) «ضعيف». أخرجه ابن الجوزي في المنتظم (٥٣/٣) وأورده في الوفا أيضاً (٣١٩) نحوه وفي الطبقات لابن سعد (٢٢٨/١) نحوه. وذكره الحافظ في الفتح (١٨٥/٧) وحسنه ابن كثير وابن حجر أيضاً، مع قوله في أحد رواه وهو عثمان بن عمرو بن ساج في التقريب: فيه ضعف. وقصة الحمامتين أخرجه ابن عساکر. وقال الحافظ ابن كثير في البداية (١٨٠/٣) وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه.

الذين قاموا بشؤون الرسول في الغار

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثًا ومعه أبو بكر، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة، لمن يرده عليهم. وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم، يسمع ما يأترون به، وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخير. وكان عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر رضي الله عنه، يرعى في رُعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر، فاحتلبا وذبحا، فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفي عليه، حتى إذا مضت الثلاث، وسكن عنهما الناس أتاها صاحبهما الذي استأجراه ببيعيريهما وبيعير له، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بسفرتيهما، ونسيت أن تجعل لها عصامًا فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة، فإذا ليس لها عصام، فتحل نطاقها فتجعله عصامًا، ثم علقتها به.

«ما ظنك باثنين، الله ثالثهما»^(١)، وروي أيضًا أنهم لما عمي عليهم الأثر جاؤوا بالقافة، فجعلوا يفتنون الأثر، حتى انتهوا إلى باب الغار، وقد أنبت الله عليه ما ذكرنا في الحديث قبل هذا، فعند ما رأى أبو بكر رضي الله عنه القافة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ - وقال: إن قتلتُ فإنما، أنا رجل واحد، وإن قُتلتُ أنتَ هلكت الأمة، فعندها قال له رسول الله ﷺ: «لا تحزن إن الله معنا»، ألا ترى كيف قال: لا تحزن، ولم يقل لا تخف؟! لأن حزنه على رسول الله ﷺ - شغله عن خوفه على نفسه، ولأنه أيضًا رأى ما نزل برسول الله ﷺ من التَّصَبُّب، وكونه في ضيقة الغار مع فرقة الأهل، ووخشة الغربة، وكان أرقُّ الناس على رسول الله ﷺ، وأشفقهم عليه، فحزن لذلك، وقد روي أنه قال: نظرت إلى قدمي رسول الله ﷺ في الغار، وقد تَفَطَّرتا دَمًا، فاستَبَكَيْتُ، وعلمت أنه عليه السلام لم يكن تعود الحَفَاءَ والجَفْوَةَ^(٢)، وأما الخوف فقد كان عنده من اليقين بوعد الله بالنصر لنبيه. ما يسكن خوفه، وقول الله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ قال أكثر أهل التفسير: يريد على أبي بكر، وأما الرسول فقد كانت السكينة عليه، وقوله: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ الهاء في أيده راجعة على النبي، والجنود: الملائكة أنزله عليه في الغار، فبشروه بالنصر على أعدائه، فأيده ذلك، وقواه على الصبر [و] قيل أيده بجنود لم تروها، يعني: يوم بدر وحنين وغيرهما من مشاهدته، وقد قيل: الهاء راجعة على النبي عليه السلام في الموضعين جميعًا وأبو بكر تبع

(١) أخرجه البخاري (٨/٧) ومسلم في فضائل الصحابة وأحمد (٤/١) والترمذي (٣٠٩٦).

(٢) لا صحة لحديث القدمين هذا.

لَمْ سُمِّتِ أَسْمَاءُ بِذَاتِ النِّطَاقِينَ :

فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر: ذات النطاق، لذلك .

قال ابن هشام: وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول: ذات النطاقين .

وتفسيره: أنها لما أرادت أن تعلق السفارة شقَّت نطاقها باثنين، فعُلِّقت السفارة بواحد، وانتطقت بالآخر^(١).

له، فدخل في حكم السكينة بالمعنى، وكان في مصحف حفصة: فأنزل الله سكينة عليهما^(٢)، وقيل: إن حزن أبي بكر كان عند ما رأى بعض الكفار يبول عند الغار، فأشفق أن يكونوا قد رأوهما، فقال له النبي ﷺ: «لا تحزن، فإنهم لو رأونا لم يَسْتَقِيلُونَا بفروجهم عند البول، ولا تشاغلوا بشيء عن أخذنا»، والله أعلم.

الرد على الرافضة فيما بهتوا به أبا بكر:

فصل: وزعمت الرافضة^(٣) أن في قوله عليه السلام لأبي بكر لا تحزن غَضًا من أبي بكر وذما له؛ فإن حزنه ذلك: إن كان طاعةً فالرسول عليه السلام لا ينهى عن الطاعة، فلم يبق إلا أنه معصية، فيقال لهم على جهة الجدَل: قد قال الله لمحمد عليه السلام: ﴿فَلَا يَخْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يس: ٧٦] وقال: ﴿وَلَا يَخْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [آل عمران: ١٧٦] وقال لموسى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: ٢١] وقالت الملائكة للوط: لا تخف، ولا تحزن، فإن زعمتم أن الأنبياء حين قيل لهم هذا كانوا في حال معصية، فقد كفرتم، ونقضتم أصلكم في وجوب العصمة للإمام المعصوم في زعمكم، فإن الأنبياء هم الأئمة المعصومون بإجماع، وإنما قوله: لا تحزن، وقول الله لمحمد: لَا يَخْزُنْكَ، وقوله لأنبيائه مثل هذا تسكينٌ لجأشهم^(٤) وتبشير لهم وتأنيس على جهة النهي الذي زعموا، ولكن كما قال سبحانه: ﴿تَنْتَزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠] وهذا القول إنما يقال لهم عند المعاينة، وليس إذ ذاك أمر بطاعة ولا نهى عن معصية.

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (١٨٣/٧) وابن سعد في الطبقات (٢٢٩/١).

(٢) لا يصح من السهيلي رحمه الله تعالى قوله أن قول «كليهما» ثابت في مصحف حفصة، فهو دليل على نقص ما في مصحفنا الذي بين أيدينا، ولا يقول هذا إلا رافض شيعي فانتبه.

(٣) الرافضة هم الذين رفضوا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه. انظر الجبل والينخل للشهرستاني وغيره.

(٤) الجأش: روع القلب.

راحلة النبي ﷺ:

قال ابن إسحاق: فلما قَرَّب أبو بكر، رضي الله عنه، الراحلتين إلى رسول الله ﷺ، قَدَّم له أفضلهما، ثم قال: اركب، فذاك أبي وأمي؛ فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أركب بغيراً ليس لي». قال: فهي لك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، قال: «لا، ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به؟» قال: كذا وكذا، قال: «قد أخذتها به»، قال: هي لك يا رسول الله. فركبا وانطلقا. وأزْدَف أبو بكر الصديق رضي الله عنه عامرَ بن فُهيرة مولاَه خلفه، ليخدمهما في الطريق.

ووجه آخر من التحقيق، وهو أن النهي عن الفعل لا يقضي كَوْن المنهيِّ فيه، فقد نهى الله نبيّه عن أشياء، ونهى عباده المؤمنين، فلم يقتض ذلك أنهم كانوا فاعلين لتلك الأشياء في حال النهي، لأن فعلَ النهي فعلٌ مستقبل، فكذلك قوله: لأبي بكر: لا تحزن، لو كان الحزن كما زعموا لم يكن فيه على أبي بكر - رضي الله عنه - ما ادَّعَوْا من العَصْ، وأما ما ذكرناه نحن من حزنه على النبي ﷺ، وإن كان طاعة، فلم ينهه عنه الرسولُ عليه السلام إلا رفقاً به وتبشيراً له لا كراهية لعمل، وإذا نظرت المعاني بعين الإنصاف لا بعين الشهوة والتعصب للمذاهب لاحت الحقائق، واتَّضحت الطرائق والله الموفق للصواب.

معية الله مع رسوله وصاحبه^(١):

وانتبه أيها العبد المأمور بتدبر كتاب الله تعالى لقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] كيف كان معهما بالمعنى، وباللفظ، أما المعنى فكان معهما بالنصر والإرفاد^(٢) والهداية والإرشاد، وأما اللفظ فإن اسمَ الله تعالى كان يذكر إذا ذُكر رسوله، وإذا

(١) وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. قالوا فيهما: «إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا». قال بعض أهل العلم في قوله ﷺ لأبي بكر: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ وقول موسى عليه السلام لما اتبعه فرعون وجنوده، فأروا البحر أمامهم وفرعون من خلفهم قالوا: ﴿إِنَّا لَمَدْرُكُونَ﴾ قال موسى عليهم السلام ردّاً عليهم: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾. فقَدَّم النبي ﷺ ذكر ربه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ وقال موسى لقومه: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾. والكلام إنما في المخاطب بهذا الكلام؛ فلما كان قوم موسى أهل مادية وفكر عَفِن قال لهم موسى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، فكان قوله: ﴿إِنَّ مَعِيَ﴾ لفت لنظر وانتباه أولئك النفر ثم قال: ﴿رَبِّي﴾ - ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، ومن الناحية الأخرى لما كان المخاطب هو الصديق أبا بكر رضي الله عنه - كان ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ فإذا سمع اسم الله تعالى سكنت نفسه واطمأنت ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ثم أَرْدَف النبي ﷺ بقوله: ﴿مَعَنَا﴾ وليس ﴿مَعِيَ﴾ بل معنا. فتأمل.

(٢) الإرفاد: الرء والفاء والذال [رفد] أصل واحد مطَّرد منقاس، وهو المعاونة والمظاهرة بالعتاء وغيره. مقاييس اللغة (٢/٤٢١).

أبو جهل يضرب أسماء بنت أبي بكر:

قال ابن إسحاق: فحدثت عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، أتانا نفر من قُرَيْش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم؛ فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي. قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشاً خبيثاً، فلطم خدي لطمة طرح منها قُرطبي.

خبر الجنّي الذي تغنى بمقدم الرسول ﷺ

قالت: ثم انصرفوا. فمكثنا ثلاث ليال، وما ندري أي وجه رسول الله ﷺ، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة، يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب، وإن الناس ليتبعونه، يسمعون صوته وما يرونه، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول:

جَزَى الله ربّ الناسِ خَيْرَ جَزَائِهِ رَفِيقَيْنِ حَلًّا خِيَمَتِي أَمْ مَعْبِدِ
هُمَا نَزَلَا بِالْبَرِّ ثُمَّ تَرَوُّحَا فَأُفْلِحَ مِنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ
لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَكَانُ فَتَاتِهِمْ وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصِدِ^(١)

نسب أم معبد^(٢)

قال ابن هشام: أم معبد بنت كعب، امرأة من بني كعب، من خُزاعة. وقوله: «حلا خيمتي» و «هما نزلا بالبر ثم تروحا» عن غير ابن إسحاق.

قال ابن إسحاق: قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله ﷺ، وأن وجهه إلى المدينة وكانوا أربعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وعبد الله بن أرقط دليلهما.

دُعي ف قيل: يا رسول الله، أو فعل رسول الله، ثم كان لصاحبه كذلك يقال: يا خليفة رسول الله، وفعل خليفة رسول الله، فكان يُذكر معهما، بالرسالة وبالخلافة، ثم ارتفع ذلك فلم يكن لأحد من الخلفاء ولا يكون.

(١) أخرجه الحاكم (٩/٣) وابن سعد (٢٣٠/١).

(٢) سيأتي كلام السهيلي رحمه الله تعالى بعد قليل، بعد خبر سراقه رضي الله عنه.

قال ابن هشام: ويقال: عبد الله بن أُرَيْقُط.

أَلْ أَبِي بَكْرٍ بَعْدَ هِجْرَتِهِ:

قال ابن إسحاق: فحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير أن أباه عبَّادًا حدَّثه عن جدته أسماء بنت أبي بكر، قالت: لما خرج رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر ماله كله، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلق بها معه. قالت: فدخل علينا جدِّي أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه. قالت: قلت: كلا يا أبت! إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا. قالت: فأخذت أحجارًا فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت، ضَعْ يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئًا ولكنني أردت أن أسكن الشيخ بذلك.

خبر سراقه بن مالك

قال ابن إسحاق: وحدثني الزهري أن عبد الرحمن بن مالك بن جُعشم حدَّثه عن أبيه، عن عمه سراقه بن مالك بن جُعشم، قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مُهاجرًا إلى المدينة، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم. قال: فبينما أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجلٌ منَّا، حتى وقف علينا، فقال: والله لقد رأيت رَكبة ثلاثة مرَّوا عليَّ آنفًا، إني لأراهم محمدًا وأصحابه، قال: فأومأت إليه بعيني: أن اسكت ثم قلت: قليلًا، إنما هم بنو فلان، يبتغون ضالة لهم، قال: لعله: ثم سكت. قال: ثم مكثت ثم قمت فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرسي، فقيدت لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي، فأخرج لي من دُبر حجرتي، ثم أخذت قِداحي التي أستقسم بها، ثم انطلقت، فلبست لأمتي ثم

حديث سراقه بن مالك بن جُعشم الكنانِي^(١)

ثم المُذَلِّجِي أحد بني مُذَلِّج بن مَرَّة بن تَمِيم بن عَبْدِ مَنَاة بن كِنانة. وقد ذكر ابن إسحاق حديثه حين بذلت قريش مائة ناقة لمن رد عليهم محمدًا عليه السلام، وأن سراقه استقسم بالأزلام، فخرج السهم الذي يكره، وهو الذي كان فيه مكتوبًا لا تشره إلى آخر

(١) له ترجمة في الإصابة (١٩/٢) تاريخ الصحابة (٦٠٥) الاستيعاب (٩١٦/٢) أسد الغابة (٢٣١/٢) الطبقات (٧٨/٩) شذرات الذهب (٣٥/١) الرياض المستطابة (١١٧/١) الكاشف (٣٤٩/١) مشاهير علماء الأمصار (١٧٠) بتحقيقي.

أخرجت قِداحي، فاستقسمت بها؛ فخرج السهم الذي أكره «لا يضره» قال: وكنت أرجو أن أُرْذِه على قريش، فأخذ المائة الناقة. قال: فركبت على أثره، فبينما فرسي يشتد بي عثر بي، فسقطت عنه. قال: فقلت: ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قِداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره «لا يضره». قال: فأبيت إلا أن أتبعه. قال: فركبت في أثره، فبينما فرسي يشتد بي، عثر بي، فسقطت عنه. قال: فقلت: ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قِداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره «لا يضره» قال: فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في أثره. فلما بدا لي القوم ورأيتهم، عثر بي فرسي، فذهبت يده في الأرض، وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعهما دخان كالإعصار. قال: فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد مُنِع مني، وأنه ظاهر. قال: فناديت القوم: فقلت: أنا سُرَاقَة بن جُعْشُم: انظروني أكلمكم، فوالله لا أريبكم، ولا يأتیکم مني شيء تکرهونه. قال: فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «قل له: وما تبتغي منا؟» قال: فقال ذلك أبو بكر، قال: قلت: تكتب لي كتابًا يكون آية بيني وبينك. قال: «اكتب له يا أبا بكر»^(١).

فكتب لي كتابًا في عَظْم، أو في رقعة، أو في خَزَفَة، ثم ألقاه إليّ، فأخذته، فجعلته في كنانتي، ثم رجعت، فسكت فلم أذكر شيئًا مما كان حتى إذا فتح مكة على رسول الله ﷺ، وفرغ من حُنين والطائف، خرجت ومعني الكتاب لألقاه، فلقيته بالجعرانة. قال: فدخلت في كَتِيبَة من خيل الأنصار. قال: فجعلوا يقرعونني بالرماح ويقولون: إليك إلیک، ماذا تريد؟ قال: فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته والله لكانني أنظر إلى ساقه في عَزْزه كأنها جُمارة. قال: فرفعت يدي بالكتاب، ثم قلت: يا

القصة، وأن قوائم فرسه حين قَرَبَ من رسول الله - ﷺ - سَاحت في الأرض، وتبعها عُثَان، وهو: الدخان وجمعه: عَوَائِن. وذكر غير ابن إسحق أن أبا جهل لأمه حين رجع بلا شيء، فقال وكان شاعرًا:

أبا حَكَم والله لو كنتَ شاهدًا	لأمر جوادِي إذ تَسُوخُ قوائمِه
علمتَ ولم تَشْكُكْ بأنَ محمدًا	رسولَ بيزهَانِ فمن ذا يَقَومُه؟!
عليك بِكَفِّ القومِ عنه، فإنني	أرى أمرَه يومًا سَتَبْدو معالِمُه
بأمرٍ يَوُدُّ الناسُ فيه بِأسرِهِم	بأنَ جميعَ الناسِ طُرًا يُسَالِمُه

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨/٧) فتح. وابن الجوزي في المنتظم (٥٥/٣) والحاكم (٦/٣) ومسلم (٢٠٠٩) بعضه. وأحمد (٢١٢/٣).

رسول الله، هذا كتابك لي، أنا سُرَاقَة بن جُعْشَم؛ قال: فقال رسول الله ﷺ: «يوم وفاء وبر، اذنه». قال: فدنوت منه، فأسلم. ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله ﷺ فما أذكره، إلا أنني قلت: يا رسول الله، الضالة من الإبل تَغْشَى حياضي، وقد ملأتها لإبلي، هل لي من أجر في أن أسقيها؟ قال: «نعم، في كل ذات كبد حَزِيٍّ أجر». قال: ثم رجعت إلى قومي، فسقت إلى رسول الله ﷺ صدقتي. قال ابن هشام: عبد الرحمن بن الحارث بن مالك بن جُعْشَم.

وقد قدمنا في هذا الكتاب عند ذكر كسرى ما فعله عمر بن الخطاب حين أتى بتاج كسرى، وسواريه ومنطقته، وأنه دعا بسُرَاقَة، وكان أَرْبُ الذراعين^(١)، فحلاه جلية كسرى، وقال له: ازقِ يدك، وقل: الحمد لله الذي سَلَبَ هذا كِسْرَى الملك الذي كان يزعم أنه رَبُّ الناس وكساها أعرابياً من بني مُذَلِج. فقال ذلك سُرَاقَة، وإنما فعلها عمر لأن رسول الله - ﷺ - كان قد بَشَّرَ بها سُرَاقَة حين أسلم، وأخبره أن الله سيفتح عليه بلاد فارس، ويُعَنِّمُه مُلْكٌ كِسْرَى، فاستبعد ذلك سُرَاقَة في نفسه، وقال: أَكِسْرَى ملك الملوك؟! فأخبره النبي - ﷺ - أن جَلِيَّتَه ستجعل عليه تحقيقاً للوعد، وإن كان أعرابياً بَوَّالاً على عقبه، ولكن الله يُعزِّز بالإسلام أهله، ويُسَبِّح على محمد وأُمته نعمته وفضله.

وفي السير من رواية يونس شعر لأبي بكر رضي الله عنه في قصة الغار:

قال النبي ولم يزل يُوقِّرُنِي	ونحن في سَدَفٍ ^(٢) من ظُلْمَةِ الغار
لا تَخْشَ شيئاً؛ فإن الله ثالثنا	وقد توَكَّلَ لي منه بإظهار
وإنما كَيْدٌ من تخشى بَوادِرَه	كَيْدُ الشياطينِ كَادَتْهُ لكفار
والله مُهْلِكُهُمْ طُرّاً بما كَسَبُوا	وجاعلُ الْمُنتَهَى منهم إلى النار
وأنت مُرْتَحِلٌ عنهم وتاركهم	إما عُدُّوا وإما مُذَلِّجٌ ساري
وهاجر أرضهم حتى يكون لنا	قومٌ عليهم دُؤُوٌ عِزٌّ وأنصار
حتى إذا الليل وارثنا جوانبه	وسدٌ من دونِ مَنْ تَخْشَى بأَسْتَار
سار الأَرْنَقُ يَهْدِينَا وَأَيْنُقُه	يَنْعَبُنِ بِالْقَرْمِ نَعْباً تحت أَكْوَار
يَغْسِفُنْ عرض الثنايا بعد أطولها	وكلُّ سَهْبٍ رَقَاقِ الثَّرَابِ مَوَّار
حتى إذا قُلْتُ: قد أَتَجَدَّنْ عارضها	من مَذَلِجِ فارسٍ في منصبٍ وار

(١) أي طويل الذراعين.

(٢) السدف: الظلمة من الليل.

يُزِيدِي بِهِ مُشْرِفِ الْأَقْطَارِ مُعْتَزِمٌ
فَقَالَ: كُرُّوا فَقُلْتُ: إِنْ كَرَّتْنَا
أَنْ يَخْصِفَ الْأَرْضَ بِالْأَحْوَى وَفَارِسَهُ
فَهَيْلَ لِمَا رَأَى أَرْسَاغَ مُقْرِبِهِ
فَقَالَ: هَلْ لَكُمْ أَنْ تُطْلِقُوا فَرَسِي
وَأَصْرِفُ الْحَيَّ عَنْكُمْ إِنْ لَقِيتَهُمْ
فَاذْعُوا الَّذِي هُوَ عَنْكُمْ كَفَّ عَوْرَتَنَا
فَقَالَ قَوْلًا رَسُولُ اللَّهِ مُبْتَهَلًا
فَنَجَّهَ سَالِمًا مِنْ شَرِّ دَعْوَتِنَا
فَأَظْهَرَ اللَّهَ إِذْ يَدْعُو حَوَافِرَهُ
كَالسَّيِّدِ ذِي اللَّبَدَةِ الْمُسْتَأْسِدِ الضَّارِي
مِنْ دُونِهَا لَكَ نَضْرُ الْخَالِقِ الْبَارِي
فَانْظُرْ إِلَى أَرْبُعٍ فِي الْأَرْضِ غَوَّارٍ
قَدْ سُخِّنَ فِي الْأَرْضِ لَمْ يُخَفَّرْ بِمُحْفَارٍ
وَتَأْخُذُوا مَوْثِقِي فِي نُضْحِ أَسْرَارٍ
وَأَنْ أَعَوَّرَ مِنْهُمْ عَيْنَ غَوَّارٍ
يُطْلِقُ جَوَادِي وَأَنْتُمْ خَيْرُ أَنْبَارٍ
يَا رَبِّ إِنْ كَانَ مِنْهُ غَيْرُ إِخْفَارٍ
وَمُهِرَهُ مُطْلَقًا مِنْ كُلِّ آثَارٍ
وَفَازَ فَارِسُهُ مِنْ هَوْلِ أَخْطَارٍ^(١)

حديث أم معبد^(٢)

وذكر عن أسماء بنت أبي بكر حين خفي عليها، وعلى من معها أمرُ رسول الله ﷺ، ولم يدروا أين توجه، حتى أتى رجل من الجن يسمعون صوته، ولا يرونه، فمر على مكة والناس يتبعونه وهو ينشد هذه الأبيات:

جَزَى اللَّهُ رَبَّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ
هِمَا نَزَلَا بِالْبِرِّ ثُمَّ تَرَحَّلَا
لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَقَامَ فَتَاتِهِمْ
فِي الْقِصَصِ مَا رَوَى اللَّهُ عَنْكُمْ
سَلُّوا أَخْتَكُمْ عَنْ شَاتِيهَا وَإِنَائِيهَا
دَعَاها بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ
فَغَادَرَهَا رَهْنًا لَدَيْهَا بِحَالِبٍ
رَفِيقَيْنِ خَلَا خَيْمَتِي أُمُّ مَعْبِدٍ
فَأَقْلَحَ مِنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدٍ
وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصِدٍ
بِهِ مَنْ فَعَالٍ لَا يُجَازِي وَسُودِدٍ
فَإِنَّكُمْ إِنْ تَسَأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدُ
لَهُ بِصَرِيحِ ضَرَّةِ الشَّاةِ مُزِيدٍ
يُرَدِّدُهَا فِي مَضَدٍ ثُمَّ مَوْرِدٍ

(١) القصيدة تحتاج إلى صحة نسب.

(٢) انظر الخبر في الطبقات (١/٢٣٠) تاريخ الطبري (٢/٣٨٠) البداية والنهاية (٣/١٩٠) المنتظم (٣/٥٧) الوفا (٣٢٨) والحاكم (٩/٣).

ويروى أن حَسَّانَ بن ثابت لما بلغه شعر الجني، وما هتف به في مكة قال يجيبه:

لقد خاب قومٌ عنهم نبيُّهم	وقد سرَّ مَنْ يسري إليهم ويغتدي
ترخل عن قومٍ فضلت عقولهم	وخلَّ على قومٍ بنورٍ مُجدِّد
هداهم به بعد الضلالة ربُّهم	وأرشدهم مَنْ يتَّبِع الحقَّ يزُشد
وهل يَسْتَوِي ضلالُ قومٍ تَسَفُّهوا	عما يتهم هاد بها كل مهتد
لقد نزلت منه إلى أهلٍ يثرب	ركابٌ هُدَى حلت عليهم بأنسُعد
نبيٍّ يرى ما لا يرى الناسُ حوله	ويتلو كتاب الله في كل مشهد
وإن قال في يومٍ مقالة غائب	فتصديقه في اليوم أو في ضحى الغد
ليهنَّ أبا بكر سعادة جده	بصحبه مَنْ يُسعد الله يسعد

وزاد يونس في روايته أن قريشًا لما سمعت الهاتف من الجن أرسلوا إلى أمِّ معبد، وهي بخيمتها، فقالوا: هل مرَّ بك محمد الذي من جليته كذا، فقالت: لا أدري ما تقولون، وإنما ضافني حالب الشاة الحائل، وكانوا أربعة رسول الله - ﷺ - وأبو بكر، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وقد تقدم التعريف به وطرف من ذكر فضائله في هجرة الحبشة، والرابع عبد الله بن أُرَيْقَط اللُّثي ولم يكن إذ ذاك مسلمًا، ولا وجدنا من طريق صحيح أنه أسلم بعد ذلك، وجاء في حديث أنهم استأجروه، وكان هاديًا خريثًا، والخريث: الماهر بالطريق الذي يَهْتَدِي بمثل خَزَتْ الإبرة، ويقال له: الخَوْنَعُ أيضًا قال الراجز:

يضل فيها الخَوْنَعُ المُشْهَرُّ

نسب أم معبد وزوجها

وأما أم معبد التي مرَّ بخيمتها، فاسمها: عاتكة بنت خالد إحدى بني كعب من خُرَاعَة، وهي أخت حُبَيْش بن خالد، وله صحبة ورواية، ويقال له الأشعر، وأخوها: حُبَيْش بن خالد سيأتي ذكره والخلاف في اسمه وخالد الأشعر أبوهما، هو: ابن حُنَيْف بن مُنْقِذ بن ربيعة بن أضرَم بن ضبيس بن حرام بن حُبَيْشَة بن كَعْب بن عمرو وهو أبو خُرَاعَة.

وزوجها أبو معبد يقال إن له رواية أيضًا عن رسول الله ﷺ - توفي في حياة رسول الله ﷺ، ولا يُعرف اسمه، وكان منزلُ أم معبد بَقْدِيد، وقد روي حديثها بألفاظ مختلفة متقاربة المعاني، وقد رواه ابن قُتَيْبَة في غريب الحديث، وتَقَصَّى شرح ألفاظه، وفيه أن

رسول الله ﷺ قال لأُم معبد: وكان القوم مُرْمِلِينَ^(١) مُسْنِتِينَ^(٢)، فطلبوا لَبَنًا أو لَحْمًا يشترونه، فلم يجدوا عندها شيئًا، فنظر إلى شاة في كِسْرِ الخِيَمَةِ^(٣) خلفها الجَهْدُ^(٤) عن الغنم، فسألها: هل بها من لبن؟ فقالت: هي أجهد من ذلك، فقال: أتأذنين لي أن أَخْلُبَهَا، فقالت: بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلبًا فاحلبها، فدعا بالشاة، فاعتقلها، وَمَسَحَ صُرْعَهَا، فتفاجت^(٥) ودَرتَ واجتَرتَ، ودعا بإناء يُرْبِضُ الرَّهْطَ^(٦) أي: يشبع الجماعة حتى يُرْبِضُوا، فحلب فيه حتى ملأه، وسقى القوم حتى رَووا ثم شرب آخرهم، ثم حَلَبَ فيه مرة أخرى عِلَلًا^(٧) بعد نَهْلٍ، ثم غادره عندها، وذهبوا، فجاء أبو معبد، وكان غائبًا فلما رأى اللبن قال: ما هذا يا أُم معبد أتئي لك هذا والشاء عازب^(٨) حِيَالٍ^(٩)، ولا حَلُوبَةٍ بالبيت، فقالت: لا والله، إلا أنه مرَّ بنا رجلٌ مُبارَكٌ، فقال: صفيه يا أُم معبد، فوصفته بما ذكر القَتْبِيُّ وغيره في الحديث، ومما ذكره القتبِي: فشربوا حتى أراضوا جعله القتبِي من استراض الوادي: إذا استنقع ومن الرُّوضَةِ وهي بقيَّة الماء في الحوض وأنشد:

وَرَوْضَةٌ سَقَيْنَتْ فِيهِ نَضْوِي

ورواه الهَرَوِيُّ حتى أَرْضُوا على وزن آمَنُوا، أي ضَرَبُوا بأنفسهم إلى الأرض من الري، وفي حديث آخر أن آل أبي مَعْبَد كانوا يؤرخون بذلك، اليوم، ويسمونهُ: يوم الرجل المبارك، يقولون: فعلنا كَيْتٌ وكَيْتٌ قبل أن يأتينا الرجل المبارك، أو بعد ما جاء الرجل المبارك، ثم إنها أتت المدينة بعد ذلك بما شاء الله، ومعها ابنٌ صغير قد بلغ السَّعْيِ فمر بالمدينة على مسجد رسول الله - ﷺ - وهو يكلم الناس على المِنْبَرِ فانطلق إلى أمه يَشْتَدُّ، فقال لها: يا أُمَّتَاهُ إني رأيت اليوم الرجل المبارك، فقالت له: يا بني وَحَكَ هو رسولُ الله - ﷺ .

ومما يُسأل عنه في هذا الحديث أن يقال: هل استمرت تلك البركة في شاة أُم معبد بعد ذلك اليوم، أم عادت إلى حالها؟ وفي الخبر عن هشام بن حُبَيْش الكعبي، قال: أنا رأيت تلك الشاة وإنها لتأدُم أُم معبد وجميع صرِمها، أي: أهل ذلك الماء، وفي الحديث

- | | |
|---|------------------------------------|
| (١) مرملين: أي نفذ زادهم. | (٢) مستين: من السنة، وهي الجذب. |
| (٣) كسر الخيمة: أي جانبها. | (٤) الجهد: المشقة. |
| (٥) تفاجت: أي فتحت ما بين رجليها للحلب. | (٦) يربض الرهط: ينقلهم حتى يربضوا. |
| (٧) عللاً: مرة بعد مرة. | (٨) عازب: بعيدة عن المرعى. |
| (٩) حيال: ليست بحامل. | |

طريق الهجرة

قال ابن إسحق: فلما خرج بهما دليهما عبدُ الله بن أرقط، سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل، حتى عارض الطريق أسفل من عُسْفَانَ، ثم سلك بهما على أسفل أَمَج، ثم استجاز بهما، حتى عارض بهما الطريق، بعد أن أجاز قُدَيْدًا، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك، فسلك بهما الحَرَّار، ثم سلك بهما ثِيَّةَ المَرَّة، ثم سلك بهما لِقْفًا.

قال ابن هشام: ويقال: لَقْتًا. قال مَعْقِل بن خُوَيْلِد الهذلي:

نَزِيعًا مُحَلِبًا مِنْ أَهْلِ لَقْتٍ لِحْيٍ بَيْنَ أَثْلَةٍ وَالنُّجَامِ

أيضًا من الغريب في وصف الشاة: قال ما كان فيها بُضْرَةٌ وهي النقطة من اللبن تبصر بالعين.

بلاد في طريق الهجرة

وذكر أن دليهما سلك بهما عُسْفَانَ. قال المؤلف رضي الله عنه: وقد روى عن كثير أنه قال: سُمِّي عُسْفَانَ لتعسف السيول فيه، وسئل عن الأبواء الذي فيه قبرُ أَمَّةِ أُمِّ النبي ﷺ: لم سُمِّي الأبواء؟ فقال: لأن السيول تَتَبَوَّءُ أي: تحل به، ويعسفان فيما رُوي كان مسكن الجذماء، ورأيت في بعض المسندات أن رسول الله ﷺ مرَّ بعُسْفَانَ وبه الجذماء فأسرع المشي ولم ينظر إليهم، وقال: «إن كان شيء من العِلل يعدى فهو هذا»، وهذا الحديث هو من روايتي، لأنه في مسند الحارث بن أبي أسامة، وقد تقدم اتصال سندي به، وكنت رأيته قبل في مسند وكيع بن الجراح، وليس فيه إسناد.

فصل: وذكر أن دليهما سلك بهم أَمَجًا ثم ثِيَّةَ المَرَّة، كذا وجدته مخفف الراء مقيدًا، كأنه مُسَهِّل الهمزة من المرأة.

وذكر لَقْفًا بفتح اللام مقيدًا في قول ابن إسحق، وفي رواية ابن هشام: لَقْتًا، واستشهد ابن هشام بقول مَعْقِل [بن خُوَيْلِد] الهذلي:

نَزِيعًا^(١) مُحَلِبًا^(٢) مِنْ أَهْلِ لَقْتٍ^(٣) لِحْيٍ بَيْنَ أَثْلَةٍ وَالنُّجَامِ

وألفيت في حاشية الشيخ على هذا الموضع قال: لَقْتُ بكسر اللام ألفيته في شعر مَعْقِل هذا في أشعار هُذَيْل في نسختي، وهي نسخة صحيحة جدًا، وكذلك ألفاه مَنْ وثقته وكلفته

(٢) المحلب: المعين من غير قومك.

(١) النزيع: الغريب، أو المسبية أمه.

(٣) لَقْتٍ: موضع [ثِيَّة] بين مكة والمدينة.

قال ابن إسحق: ثم أجاز بهما مَذْلَجَة لَفَفَ ثُمَّ استبطن بهما مَذْلَجَة مِجَاج - ويقال: مِجَاج، فيما قال ابن هشام - ثم سلك بهما مَرْجَح مِجَاج، ثم تبطن بهما مَرْجَح من ذي الْعَصْوِين - قال ابن هشام: ويقال: الْعَصْوِين - ثم بطن ذي كَشْر، ثم أخذ بهما على الْجَدَاجِد، ثم على الْأَجْرَد، ثم سلك بهما ذَا سَلَم، من بطن أَعْدَاء

أن ينظر فيه لي في شعر مَعْقِل هذا في أشعار هُذَيْل مكسور اللام في نسخة أبي علي القالي المقروءة على الزيايدي، ثم على الأحول، ثم قرأتها على ابن دُرَيْد رحمه الله، وفيها صَرِيحًا مُخْلِيًا، وكذلك كان الضَّبْط في هذا الكتاب قديمًا، حتى ضبطه بالفتح عن القاضي، وعلى ما وقع في غيرها. انتهى كلام أبي بحر. وقد ذكر أبو عُبَيْد الْبَكْرِي: لِفَتًا، فقيده بكسر اللام كما ذكر أبو بحر وأنشد قبله:

لَعَمْرُكَ مَا خَشِيت، وقد بلغنا جبالَ الْجَوَزِ من بَلَدٍ تَهَام
صَرِيحًا مُخْلِيًا الْبَيْت.

وذكر المواضع التي سلك عليها، وذكر فيها مِجَاج بكسر الميم وجيمين، وقال ابن هشام: ويقال فيها: مِجَاج بالفتح، وقد ألفيت شاهدًا لرواية ابن إسحق في لَفَفَ، وفيه ذكر مِجَاج بالحاء المهملة بعد الجيم، وهو قول محمد بن عَزْوَة بن الزُّبَيْر:

لَعَنَ اللَّهُ بَطْنَ لَفَفٍ مَسِيلًا وَجَاخًا وَمَا أَحْبُّ مَجَاخًا
لَقِيتُ نَاقَتِي بِهِ، وَبِلَفَفٍ بَلَدًا مُجْدِبًا وَأَرْضًا شَحَاخًا
هكذا ذكره الزبير بن أبي بكر، ولقف آخر غير لَفَفَ فيما قال البكري.

وذكر مَرْجَحَ الجيم على الحاء، وذكر مَذْلَجَة تَغِين بكسر التاء والهاء، والتاء فيه أصلية على قياس النحو فوزنه فِغْلِل إلا أن يقوم دليل من اشتقاق على زيادة التاء، أو تصح رواية من رواه تُغِين بضم التاء، فإن صَحَّتْ فالتاء زائدة، كسرت أو ضمت وَتَغِين صخرة، يقال لها: أُم عَفَى عُرِفَتْ بامرأة كانت تسكن هناك، فمر بها النبي ﷺ واستسقاها فلم تسقه، فدعا عليها فَمَسَخَتْ صخرة، فهي تلك الصخرة فيما يذكرون^(١).

وذكر الْجَدَاجِدَ بجيمين ودالين كأنها جمع جُذُجِد، وأحسبها آبارًا ففي الحديث: أَتَيْنَا عَلَى بئر جُذُجِد، قال أبو عبيد: الصواب: بئر جُذَ أَي قديمة، وقال الهَرَوِيُّ عن اليزيدي: وقد يقال: بئر جدجد قال: وهو كما يقال في الكم كمكم وفي الرِّف رَفَرَف.

(١) قصة دعاء النبي ﷺ على المرأة فمسخت صخرة، في حاجة إلى دليل «صحيح».

مَدْلَجَة تَغْنِ، ثم على العَبَايِد. قال ابن هشام: ويقال: العَبَايِب، ويقال: العِثْيَانَة. يريد العَبَايِب.

قال ابن إسحق: ثم أجاز بهما الفَاجَّة، ويقال: القَاحَة، فيما قال ابن هشام.

قال ابن هشام: ثم هبط بهما العَرْج، وقد أَبْطَأَ عليهما بعض ظهرهم، فحمل رسول الله ﷺ رجلٌ من أسلم، يقال له: أوس بن حُجْر، على جمل له - يقال له: ابن الرِّداء - إلى المدينة، وبعث معه غلامًا له، يقال له: مسعود بن هُنَيْدَة، ثم خرج بهما دليلهما من العَرْج، فسلك بهما ثَنِيَّة العائر، عن يمين رَكُوبَة - ويقال: ثنية الغائر، فيما قال ابن هشام -

وذكر العبايد أنه جمع عباد، وقال ابن هشام: هي العَبَايِب، كأنها جمع: عُبَاب من عَبَيْتَ الماء عُبًا، فكأنها - والله أعلم - مياه تَعُبُ عُبَابًا أو تُعَبُّ عُبًا.

وذكر الفَاجَّة بفاء وجيم، وقال ابن هشام: هي: القَاحَة بالقاف والحاء.

قصة أوس بن حجر:

وذكر قدومهم على أوس بن حجر، وهو أَوْسُ بن عبد الله بن حُجْر الأسلمي، وبعضهم يقول فيه: ابن حَجْر، وهو قول الدَّارَقُطْنِي، والمعروف، ابن حُجْر بضم الحاء، وقد تقدم في المبعث ذكر من اسمه حجر في أنساب قريش، ومن يسمى: حُجْرًا من غيرهم بسكون الجيم، ومن يسمَّى الحِجْر بكسر الحاء، فانظره هنالك عند ذكر خديجة وأمها، ولا يختلف في أوس بن حَجْر أنه بفتحيتين.

وذكر أن أوسًا حمل رسول الله ﷺ - على جَمَل له، يقال له: ابن الرِّداء، وفي رواية يونس بن بكير بن إسحق يقال له: الرِّدَّاح، وفي الخطابي أنه قال لغلامه مسعود، وهو مسعود بن هُنَيْدَة: أسْلُكْ بهم المخارق بالقاف، قال: والصحيح المخارم، يعني: مخارم الطريق، وفي النَّسَوِي أن مسعودًا هذا قال: فكنت آخذ بهم إخفاء الطريق. وفقه هذا أنهم كانوا خائفين، فلذلك كان يأخذ بهم إخفاء الطريق ومخارقه، وذكر النَّسَوِي في حديث مسعود هذا: أن أبا بكر قال له: انت أبا تميم، فقل له: يحملني على بعير ويبعث إلينا بزد، ودليل يدلنا، ففي هذا أن أوسًا كان يُكْنَى أبا تميم، وأن مسعودًا هذا قد روي عن رسول الله ﷺ - وحفظ عنه حديثًا في الخمس وحديثًا في صلاة الإمام بالواحد والاثنين ذكره النَّسَوِي في هذا الحديث، غير أنه قال في مسعود هذا: غلام قُرُوءَة الأسلمي. وقال أبو عُمر: قد قيل في أوس هذا إن اسمه تميم، ويكنى أبا أوس فالحق أعلم.

حتى هبط بهما بطن رثم، ثم قدم بهما قُباء، على بني عمرو بن عوف، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين، حين اشتدَّ الضَّحَاء، وكادت الشمس تعتدل.

النزول بقباء:

قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عُروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عُويم بن ساعدة، قال: حَدَّثَنِي رجال من قومي من أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: لما سمعنا بِمُخْرَج رسول الله ﷺ من مكة، وتوَكَّفنا قدومَه، كنا نخرج إذا صلينا الصبح، إلى ظاهر حَرَّتْنا ننتظر رسولَ الله ﷺ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمسُ على الظلال فإذا لم نجد ظلاً دخلنا، وذلك في أيام حارَّة. حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ، جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذا لم يبق ظلٌ دخلنا بيوتنا، وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت، فكان أوَّل من رآه رجلٌ من اليهود، وقد رأى ما كنا نصنع، وأنا ننتظر قدوم رسول الله - ﷺ - علينا، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قَيْلَةَ، هذا جدُّكم قد جاء. قال: فخرجنا إلى رسول الله ﷺ، وهو في ظلِّ نخلة، ومعه أبو بكر رضي الله عنه في مثل سِنِّه، وأكثرنا لم يكن رأى رسولَ الله - ﷺ - قبل ذلك، ورَكِبَه الناس وما يعرفونه من أبي بكر، حتى زال الظلُّ عن رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر فأظَلَّ بردائه، فعرفناه عند ذلك^(١).

وروي أن رسول الله - ﷺ - قال لمسعود حين انصرف إلى سيده: مُرْ سَيْدَكَ أَنْ يَسِمَ الْإِبِلَ فِي أَعْنَاقِهَا قَيْدَ الْفَرَسِ، فلم تَزَلْ تلك سِمَتَهُمْ في إبلهم، وقد ذكرنا في شرح قصيدة أبي طالب عند قوله: مُوسِمَةُ الْأَعْضَادِ أَسْمَاءُ السَّمَاتِ كَالْعِرَاضِ وَالْخِبَاطِ وَالْهَلَالِ، وذكرنا قَيْدَ الْفَرَسِ، وأنه سِمَةٌ فِي أَعْنَاقِهَا، وقول الراجز:

كُومٌ عَلَى أَعْنَاقِهَا قَيْدُ الْفَرَسِ تَنْجُو إِذَا اللَّيْلُ تَدَانَى وَالتَّبَسُّ

متى قدم الرسول ﷺ المدينة؟

كان قدومُ رسول الله ﷺ المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة من ربيع الأول، وفي شهر أيلول من شهور الْعَجَم، وقال غير ابن إسحاق قدمها لثمانٍ خَلَوْنَ من ربيع الأول، وقال ابن الكلبي: خرج من الغار يوم الاثنين أوَّل يوم من ربيع الأول، ودخل المدينة يوم الجمعة لِثِنْتِي عشرة سنة، وكانت بَيْعَةُ الْعَقَبَةِ أَوْسَطَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ.

(١) انظر البداية (٣/١٩٤) والطبقات لابن سعد (١/٢٣٣) والحاكم (٣/١١) والبخاري (٧/١٨٩) بنحوه.

المنازل التي نزلت بقباء

قال ابن إسحاق: فنزل رسول الله ﷺ - فيما يذكرون - على كلثوم بن هذم، أخي بني عمرو بن عوف، ثم أحد بني عُبَيْد: ويقال: بل نزل على سعد بن خَيْثَمَة. ويقول من يذكر أنه نزل على كلثوم بن هذم: إنما كان رسول الله ﷺ - إذا خرج من منزل كلثوم بن هذم جلس للناس في بيت سعد بن خَيْثَمَة. وذلك أنه كان عَزْبًا لا أهل له، وكان منزل العُزَابِ من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين، فمن هنالك يقال: نزل على سعد بن خَيْثَمَة، وكان يقال لبيت سعد بن خَيْثَمَة: بيت العُزَابِ. فإله أعلم أي ذلك كان، كلاً قد سمعنا.

ونزل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على خُثَيْب بن إِسَاف، أحد بني الحارث بن الخزرج بالسُّنْح. ويقول قائل: كان منزله على خارِجة بن زيد بن أبي زهير، أخي بني الحارث بن الخزرج.

وأقام علي بن أبي طالب عليه السلام بمكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أذى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ، فنزل معه على كلثوم بن هذم.

سهيل بن حنيف^(١) وامرأة مسلمة:

فكان علي بن أبي طالب، وإنما كانت إقامته بقباء ليلة أو ليلتين يقول: كانت بقباء امرأة لا زوج لها، مسلمة. قال: فرأيت إنساناً يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها

كلثوم بن الهذم

فصل: وذكر ابن إسحاق نزول رسول الله ﷺ - على كلثوم بن الهذم، وكلثوم هذا كُثَيْبَةُ أبو قيس، وهو كلثوم بن الهذم بن امرئ القيس بن الحارث بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، وكان شيخاً كبيراً مات بعد قدوم رسول الله ﷺ - المدينة بيسير، هو أول من مات من الأنصار بعد قدوم النبي ﷺ، ثم مات بعده أسعد بن زُرَّارَة بأيام، وسعد بن خَيْثَمَة، وأنه كان يقال لبيته: بيت العُزَابِ هكذا روي، وصوابه: الأعزب؛ لأنه جمع عَزَبٍ، يقال: رجل عَزَبٌ، وامرأة عَزَبٌ، وقد قيل: امرأة عَزَبَة بالناء.

(١) انظر ترجمته في الطبقات (٤٧١/٣) (١٥/٦) الإصابة (٨٧/٢) الاستيعاب (١/٦٦٢).

بابها، فتخرج إليه فيعطيه شيئاً معه فتأخذه. قال: فاستربتُ بشأنه، فقلتُ لها: يا أمة الله، من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كل ليلة، فتخرجين إليه فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو، وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف بن واهب، قد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا، فكان علي رضي الله عنه يَأْثُر ذلك من أمر سهل بن حنيف، حتى هلك عنده بالعراق.

قال ابن إسحاق: وحدثني هذا، من حديث علي رضي الله عنه، هند بن سهل بن حنيف، رضي الله عنه.

بناء مسجد قباء

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ بقباء، في بني عمرو بن عوف، يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجده.

ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة. وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك، فالله أعلم أي ذلك كان. فأدركت رسول الله ﷺ الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، وادي راثوناء، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة.

تأسيس مسجد قباء

فصل: وذكر تأسيس مسجد قباء، وأن رسول الله ﷺ أسسه لبني عمرو بن عوف، ثم انتقل إلى المدينة، وذكر ابن أبي حنيفة أن رسول الله ﷺ حين أسسه، كان هو أول من وضع حجرًا في قبلة، ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه إلى حجر أبي بكر، ثم أخذ الناس في البناء. في الخطابي عن الشُّمُوس بنت النعمان [بن عامر بن مجمع الأنصارية] قالت: كان النبي ﷺ حين بنى مسجد قباء يأتي بالحجر قد صهره إلى بطنه، فيضعه فيأتي الرجل يريد أن يقله فلا يستطيع حتى يأمره أن يدعه ويأخذ غيره. يقال: صهره وأصهره إذا ألصقه بالشئ، ومنه اشتقاق الصهر في القرابة، وهذا المسجد أول مسجد بني في الإسلام، وفي أهله نزلت ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة: ١٠٨] فهو على هذا المسجد الذي أسس على التقوى، وإن كان قد روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فقال: «هو مسجدي هذا»^(١)، وفي رواية

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٩) والنسائي (٣٦/٢) وأحمد (٩١/٨٩/٨/٣) (٣٣١/١١٦/٥) والخطيب =

أخرى قال: «وفي الآخر خير كثير»، وقد قال لبني عمرو عوف حين نزلت: «لَمَسَجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى»، «ما الطُّهُور الذي أثنى الله به عليكم؟ فذكروا له الاستنجاء بالماء بعد الاستنجار بالحجر، فقال: «هو ذاكم فَعَلَيْكُمْوه»^(١)، وليس بين الحديثين تعارض كلاهما أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، غير أن قوله سبحانه: من أول يوم يقتضي مسجد قباء لأن تأسيسه كان في أول يوم من حلول رسول الله - ﷺ - دار معجزته والبلد الذي هو مُهاجره.

التاريخ العربي:

وفي قوله سبحانه: ﴿من أول يوم﴾ وقد علم أنه ليس أول الأيام كلها، ولا أضافه إلى شيء في اللفظ الظاهر [فتعين أنه أضيف إلى شيء مضمّر] فيه من الفقه صحة ما اتفق عليه الصحابة مع عمر حين شاورهم في التاريخ، فاتفق رأيهم أن يكون التاريخ من عام الهجرة لأنه الوقت الذي عزّ فيه الإسلام، والذي أمر فيه النبي - ﷺ - وأُسِّسَ المساجد. وَعَبَدَ الله آمناً كما يحب^(٢)، فوافق رأيهم هذا ظاهر التنزيل، وفهمنا الآن بفعلهم أن قوله سبحانه من أول يوم أن ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذي يورّخ به الآن، فإن كان أصحاب رسول الله ﷺ أخذوا هذا من الآية، فهو الظن بأفهامهم، فهم أعلم الناس بكتاب الله وتأويله، وأفهمهم بما في القرآن من إشارات وإفصاح، وإن كان ذلك منهم عن رأي واجتهاد، فقد علم ذلك منهم قبل أن يكونوا وأشار إلى صحته قبل أن يفعل، إذ لا يعقل قول القائل: فعلته أول يوم إلا بإضافة إلى عام معلوم أو شهر معلوم، أو تاريخ معلوم، وليس هاهنا إضافة في المعنى إلا إلى هذا التاريخ المعلوم لعدم القرائن الدالة على غيره من قرينة لفظ أو قرينة حال فتدبره ففيه معتبر لمن أذكّر وعلم لمن رأى بعين فؤاده واستبصر والحمد لله.

من ودخلها على الزمان:

وليس يحتاج في قوله من أول يوم إلى إضمار كما قرره بعض النحاة: من تأسيس أول يوم، فرازا من دخول من على الزمان، ولو لفظ بالتأسيس لكان معناه من وقت تأسيس أول يوم، فإضماره للتأسيس لا يفيد شيئا، ومن تدخل على الزمان، وغيره، ففي التنزيل ﴿من

= (٧٩/٤) والحاكم (٤٨٧/١).

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٥٥) والبيهقي (١٠٥/١) والحاكم (١٥٥/١) والدارقطني (٦٢/١) بتحقيقي.

(٢) رد ابن المنير وغيره تفسير السهيلي لقوله تعالى: ﴿من أول يوم﴾ فانظر الفتوح (٢١٤/٧) شرح المواهب (٣٥٣/١).

القبائل تعترضه لينزل عندها:

فأتاه عِثبان بن مالك، وعبَّاس بن عبادة بن نُضلة في رجال من بني سالم بن عوف، فقالوا: يا رسول الله. أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة؛ قال: «خلُّوا سبيلها، فإنها مأمورة»، لناقته: فخلُّوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا وازنت دار بني بياضة، تلقَّاه زياد بن لبيد، وفزوة بن عمرو، في رجال من بني بياضة فقالوا: يا رسول الله: هلّم إلينا، إلى العدد والعدة والمنعة؛ قال: «خلُّوا سبيلها، فإنها مأمورة»، فخلُّوا سبيلها. فانطلقت، حتى إذا مرّت بدار بني ساعدة، اعترضه سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، في رجال من بني ساعدة، فقالوا: يا رسول الله، هلّم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة؛ قال: «خلُّوا سبيلها، فإنها مأمورة»، فخلُّوا سبيلها، فانطلقت، حتى إذا وازنت دار بني الحارث بن الخزرج، اعترضه سعد بن الربيع، وخارجة بن زيد، وعبد الله بن رَوَاحَة، في رجال من بني الحارث بن الخزرج فقالوا: يا رسول الله هلّم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة، قال: «خلُّوا سبيلها، فإنها مأمورة»، فخلُّوا سبيلها. فانطلقت، حتى إذا مرّت بدار بني عدي بن النجار، وهم أخواله ذُنْيا - أم عبد المطلب، سلّمي بنت عمرو، إحدى نسائهم - اعترضه سَلِيط بن قيس، وأبو سَلِيط أسيرة بن أبي خارجة، في رجال من بني

قبل ومن بعد ﴿والقَبْلُ والبَعْدُ زمان، وفي الحديث: «ما من دابة إلا وهي مُصَيَّحَةٌ»^(١) يوم الجمعة من حين تطلع الشمس إلى أن تغرب»^(٢)، وفي شعر النابغة [في وصف سيف]:

تُورِثُنِ مِنْ أَزْمَانٍ يَوْمَ حَلِيمَةٍ إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جُرْنُنِ كُلَّ التَّجَارِبِ
[تَقْدُ السُّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَيُوقِذُنَ بِالْصُّفَّاحِ نَارَ الْحُبَابِ]

وبين من الداخلة على الزمان، وبين منذ فرق بديع قد بيناه في شرح آية الوصية.

تحلحل وتلحلق^(٣):

فصل: وذكر لقاء كل قبيلة من الأنصار له يقولون: هلّم إلينا يا رسول الله إلى العدد والعدة، فيقول: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة» حتى بَرَكَتْ بموضع مسجده، وقال:

(١) مصيخة: أي مصغية.

(٢) أخرجه أبو داود وابن حبان (١٠٢٤/٥٥١ موارد) وأحمد (٤٨٦/٢) والشافعي في مسنده (٧٢).

(٣) تحلحل: التحلل: التحرك والذهاب، وحلّحلّهم: حرّكهم، وتحلّلت عن المكان كترحّلت، ويقال: تحلحل: إذا تحرك وذُهب، وتلحلق: إذا أقام ولم يتحرك. اللسان (١٧٣/١١).

عديّ بن النّجّار، فقالوا: يا رسول الله، هلّم إلى أخوالك، إلى العدد والعدّة والمنعة؛ قال: «خلوا سبيلها، فإنها مأمورة»، فخلوا سبيلها، فانطلقت.

ميرك الناقة بدار بني مالك بن النجار:

حتى إذا أتت داز بني مالك بن النّجّار، بركت على باب مسجده ﷺ، وهو يومئذ مزيّد لغلّامين يتيمين من بني النّجّار، ثم من بني مالك بن النّجّار، وهما في حجر مُعاذ ابن عَفْراء، سهّل وسهّل ابني عمرو. فلما برّكت - ورسولُ الله ﷺ عليها - لم ينزل، وثبت فسارت غير بعيد، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت إلى خلفها فرجعت إلى مبرّكها أول مرّة، فبركت فيه، ثم تحلّحت ورزمت ووضعت جِرائها، فنزل عنها رسول الله ﷺ، فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رَحْلَه، فوضعه في بيته، ونزل عليه رسولُ الله ﷺ، وسأل عن المزيّد «لمن هو؟» فقال له مُعاذ ابن عَفْراء:

تَحَلَّحْتُ وَرَزَمْتُ وألقت بِجِرائِها أي: بعنقها، وفسره ابن قتيبة على تَلَخَّلَحَ أي: لَزِمَ مكانه. ولم يبرح، وأنشد:

أناس إذا قيل أنفروا قد أتيتم أقاموا على أنفاليهم وتلخَّلَحُوا

قال: وأما تَحَلَّحَلْ بتقديم الحاء على اللام فمعناه: زال عن موضعه، وهذا الذي قاله قوي من جهة الاشتقاق، فإن التَّلَخُّلَحَ يشبه أن يكون من لَحَحَتْ عينُه: إذا التصقت، وهو ابن عَمِي لَحَا.

وأما التَّلَحُّلُ: فاشتقاقه من الحَلِّ والانحلال بيّن، لأنه انفكَّ شَيْءٌ من شيء، ولكن الرواية في سيرة ابن إسحق: تَحَلَّحْتُ بتقديم الحاء على اللام، وهو خلاف المعنى إلا أن يكون مقلوبًا من تَلَخَّلَحْتُ، فيكون معناه: لصقت بموضعها، وأقامت على المعنى الذي فسره ابن قتيبة في تَلَخَّلَحْتُ.

وأما قوله: وَرَزَمْتُ فيقال: رَزَمَتِ الناقة رُزُومًا إذا أقامت من الكلال ونوق رَزَمِي، وأما أَرَزَمْتُ بالألف، فمعناه: رَعَتْ، ورجعت في رُغائها، ويقال منه: أَرَزَمَ الرعدُ، وأَرَزَمَتِ الرياحُ قاله صاحب العين، وفي غير هذه السيرة: أنها لما ألقت بِجِرائِها في دار بني النجار جعل رجلٌ من بني سَلَمَة، وهو جَبَّار بن صَخْرٍ يَنْخُسُها رجاء أن تقوم فتَبْرُك في دار بني سَلَمَة، فلم تفعل.

المريد وصاحبه:

وقوله: كان المسجد مزيّدًا. المزيّد والجريّن [والجزن والمجرن] والمسطح وهو

هو يا رسول الله لَسَهْلٍ وَسَهْلٌ ابني عمرو، وهما يتيمان لي، وسأرضيهما منه، فاتخذهُ مسجداً^(١).

المسجد والمسكن

قال: فأمر به رسول الله ﷺ أن يُبنى مسجداً، ونزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومسكنه، فعمل فيه رسول الله ﷺ ليرغب المسلمين في العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار، ودأبوا فيه، فقال قائل من المسلمين:

لئن قعدنا والنبي يَعمَلُ لَذَاكَ مِنَّا العملُ المضلُّ

بالفارسية: مشطاح والجوخار واليَنْدَرُ والأَنْدَرُ لغاتٌ بمعنى واحد للموضع الذي يُجعل فيه الزرع والتمر للتَّيْسِ، وأشد أبو حنيفة في المِسطَح [التميم بن مُقْبِل]:

تري الأَمْعَزُ^(٢) المَحْزُؤُ فيه كأنه من الحَرِّ في نَحْرِ الظَّهيرةِ مِسطَحُ
قال: والمَحْزُؤُ من: حَزَوْتُ الشيء: إذا أظهرته. والمِسطَحُ هو بالفارسية: مشطح، وأما المِسطَحُ الذي، هو عود الخباءِ فَعَرِيَّةٌ.

وذكر أن ذلك المَزيد كان لِسَهْلٍ وَسَهْلٍ ابني عمرو يتيمين في جَنْجِرٍ مُعَاذِ ابنِ عَفْرَاءٍ ولم يعرفهما بأكثر من هذا، وقال موسى بن عُقبة: كانا يتيمين في جَنْجِرٍ أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارةٍ وهما ابنا رافع بن عمرو بن أبي عمرو بن عُبَيْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ غَنَمِ بْنِ مالِكِ بْنِ التَّجَّارِ شهد سُهَيْلٌ منهما بدرًا، والمشاهدُ كُلُّها، ومات في خلافة عمر يشهد سَهْلٌ بدرًا، وشهد غيرها ومات قبل أخيه سُهَيْلٍ.

حول بنيان المسجد

فصل: وذكر بُنْيَانَ المسجد إلى آخر القصة، وفي الصحيح أنه قال: يا بني النجار ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ^(٣) [هذا] حين أراد أن يتخذهُ مَسْجِدًا، [فقالوا: لا، والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، وفي رواية أخرى في الصحيح أيضًا: «ثم دعا رسول الله - ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذهُ مسجداً، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، ثم بناه مسجداً]، وقد ترجم البخاري على هذه المسألة لِفَقْهِهِ، وهو أن البائع أولى بتسمية الثمن الذي يطلبه، قال أنس:

(١) انظر مسلم (١٦٢٣/٣) البخاري (١٩٦/٧) الطبقات (٢٣٧/١).

(٢) الأَمْعَزُ: الأرض الغليظة كثيرة الصخر والحصى.

(٣) أخرجه البخاري (١١٧/١) (٢٦/٣) ومسلم في المساجد (٩) وأحمد في مسنده (١٢٣/٣) والطبري في تاريخه (٨/٢).

وارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون:

لا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ اللَّهُمَّ ارحم الأنصار والمُهَاجِرَةَ

قال ابن هشام: هذا كلام وليس برجز.

قال ابن إسحاق: فيقول رسول الله ﷺ: «لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار»^(١).

عمار والفئة الباغية

قال: فدخل عمار بن ياسر، وقد أثقلوه باللِّين، فقال: يا رسول الله، قتلوني،

وكان في موضع المسجد نخلٌ وخَرْبٌ ومقابر مشركين، فأمر بالقبور فُنِشَتْ^(٢) وبالخَرْبِ فُسُوِثٌ، وبالنَّخْلِ فُقْطِعَتْ.

ويُروى في هذا الحديث نخلٌ وخَرْبٌ مكان قوله: وخَرْبٌ، وروي عن الشفاء بنت عبد الرحمن الأنصارية قالت: كان النبي ﷺ - حين بنى المسجد يؤمُّه جبريلُ إلى الكعبة ويقيم له القبلة.

وذكر فيه قول الرجل لعمار: قد سمعتُ ما تقول يا ابن سُمَيَّة. قال ابن هشام: وقد سمى ابن إسحاق الرجل، وكره ابن هشام أن يسميه كي لا يُذكَرَ أحدٌ من أصحاب رسول الله ﷺ - بمكرهه، فلا ينبغي إذا بحثُ على اسمه.

سمية أم عمار^(٣)

وسُمَيَّة: أم عمار وقد تقدم التعريف بها في الهجرة الأولى ونبهنا على غلط ابن قتيبة^(٤) فيها فإنه جعلها وسُمَيَّة أم زياد واحدة وسُمَيَّة أم زياد كانت للحارث بن كَلْدَةَ المتطَّيب، والأولى: مَوْلَاةٌ لبني مَخْزُوم وهي سُمَيَّة بنت خباط، كما تقدم، وكان أهدى سُمَيَّة

(١) انظر البخاري (٤٢/٥) البداية والنهاية (٢١٦/٣) الفتح (١١٨/٧).

(٢) أمره ﷺ بنش القبور لبناء المسجد، دعوة إلى أصحاب المقابر والمشاهد من أصحاب الطرق الصوفية وغيرهم إلى الاقتداء برسول الله ﷺ، وقد نهى ﷺ عن الصلاة في المساجد المُقامة على القبور، بل ونهى عن فهل هذا، وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «لن - قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم - وفي رواية - وصالحهم مساجد». فهي من يجيب؟!.

(٣) له ترجمة في الطبقات (٢٦٤/٨) الإصابة (٣٣٤/٤) الاستيعاب (١٨٩٣/٤).

(٤) انظر المعارف لابن قتيبة (٧٦).

يَحْمِلُونَ عَلَيَّ مَا لَا يَحْمِلُونَ. قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ: فَرَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْقُضُ وَفْرَتَهُ بِيَدِهِ، كَانَ رَجُلًا جَعْدًا، وَهُوَ يَقُولُ: «وَيْحَ ابْنِ سُمَيَّةَ، لَيْسُوا بِالَّذِينَ يَتَقَلُّونَكَ، إِنَّمَا تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ»^(١).

ارتجاز علي:

وارتجز علي بن أبي طالب رضي الله عنه يومئذ:

لَا يَسْتَوِي مَنْ يَغْمُرُ الْمَسَاجِدَا يَدَأُبُ فِيهِ قَائِمًا وَقَاعِدَا
وَمَنْ يُرَى عَنِ الْغُبَارِ حَائِدَا

قال ابن هشام: سألت غير واحد من أهل العلم بالشعر، عن هذا الرجز، فقالوا: بلغنا أن علي بن أبي طالب ارتجز به، فلا يُدرى: أهو قائله أم غيره.

مشادة عمار:

قال ابن إسحق: فأخذها عمار بن ياسر، فجعل يرتجز بها.

قال ابن هشام: فلما أكثر، ظنَّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أنه إنما يُعرض به، فيما حدَّثنا زياد بن عبد الله البكائي، عن ابن إسحق، وقد سمى ابنُ إسحق الرجل.

الرسول ﷺ يوصي بعمار:

قال ابن إسحق: فقال: قد سمعتُ ما تقول منذ اليوم يا ابنِ سُمَيَّةَ، والله إني

إلى الحرث رَجُلٌ من مُلُوكِ الْيَمَنِ: يقال له أَبُو جَبْرٍ، وذلك أنه عالجه من داءٍ كان به فَبَرَىءَ، فَوَهَبَهَا لَهُ، وَكَانَتْ قَبْلَ أَبِي جَبْرٍ لِمَلِكٍ من مُلُوكِ الْفَرَسِ وَقَدْ عَلَيْهِ أَبُو جَبْرٍ، فَأَهْدَاهَا إِلَيْهِ الْمَلِكُ ذَكَرَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ، وَفِي جَامِعِ مَعْمَرِ بْنِ رَاشِدٍ أَنَّ عِمَارًا كَانَ يَنْقُلُ فِي بُنْيَانِ الْمَسْجِدِ لَبِنَتَيْنِ، لَبِنَةٌ عَنْهُ، وَلَبِنَةٌ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَالنَّاسُ يَنْقُلُونَ لَبِنَةً وَاحِدَةً، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ - لِلنَّاسِ أَجْرٌ وَلَكَ أَجْرَانِ، وَآخِرُ زَادِكَ مِنَ الدُّنْيَا شَرِبَةُ لَبْنٍ، وَتَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ فَلَمَّا قُتِلَ يَوْمَ صِفِّينَ دَخَلَ عَمْرُو عَلَى مُعَاوِيَةَ فَرَعَا، فَقَالَ: قَتَلَ عِمَارًا، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: فَمَاذَا؟ فَقَالَ عَمْرُو: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - يَقُولُ: «تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ»، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: دَحَضْتُ^(٢) فِي بَوْلِكَ، أَنَحْنُ قَتَلْنَاهُ؟ إِنَّمَا قَتَلَهُ مِنْ أَخْرَجَهُ^(٣)!

(١) أخرجه البخاري (١٢٢/١) (٢٥/٤) وأحمد (٩١/٣) والبيهقي في الدلائل (٥٤٦/٢).

(٢) أي زلقت.

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل (١٣٧/٣) والحاكم (٣٨٧/٣) وصححه على شرطهما.

لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك. قال: وفي يده عصا. قال: فغضب رسول الله ﷺ، ثم قال: «ما لهم ولعمَّار، يدعوه إلى الجنة، ويدعونه إلى النار، إن عمَّارًا جِلْدَةٌ ما بين عينيَّ وأنفي، فإذا بل ذلك من الرجل فلم يُستَبَقِ فاجتنبوه»^(١).

إضافة بناء أول مسجد إلى عمار

قال ابن هشام: وذكر سُفيان بن عُيينة عن زكريا، عن الشَّعْبِيِّ، قال: إن أوَّل من بنى مَسْجِدًا عَمَّارُ بن ياسر^(٢).

إضافة بناء المسجد إلى عمار

وذكر ابن إسحاق في هذا الموضع الحديث الوارد في عَمَّار، وهو: أوَّل من بنى لله مَسْجِدًا عَمَّارُ بن ياسر، فيقال: كيف أضاف إلى عمار بنيان المسجد، وقد بناه معه الناس؟ فيقول: إنما عني بهذا الحديث مسجد قُبَاء، لأنَّ عَمَّارًا هو الذي أشار على النبي - ﷺ - ببنيانه، وهو جمع الحجارة له، فلما أسَّسه رسول الله - ﷺ - اسْتَمَّ بنيانه عَمَّارًا.

أطوار بناء المسجد:

كذلك ذكر ابن إسحاق في رواية يونس بن بكير عنه: وبُني مسجد رسول الله - ﷺ - وسَقِفَ بالجريد وجعلت قبلته من اللَّبْنِ، ويقال: بل من حِجَارَةٍ مَنُضُودَةٍ بعضُها على بعض، وَجُعِلَتْ عُمْدُهُ من جُذُوعِ النَّخْلِ، فَخَرَّتْ في خلافة عُمَرُ فَجَرَّدَهَا، فلما كان عثمان بناه بالحجارة المنقوشة بالقَصَّةِ وَسَقَفَهُ بالسَّاجِ^(٣)، وجعل قبلته من الحجارة، فلما كانت أيام بني العباس بناه محمد بن أبي جعفر المتسمى بالمَهْدِيِّ، ووسعه وزاد فيه، وذلك في سنة ستين ومائة، ثم زاد فيه المأمون بن الرَّشِيد في سنة ثنتين ومائتين، وأتقن بنيانه، ونقش فيه: هذا ما أمر به عبد الله المأمون في كلام كثير كَرِهْتُ الإطالة بذكره. ثم لم يبلغنا أن أحدًا غيَّر منه شيئًا، ولا أحدث فيه عملاً.

بيوت النبي ﷺ:

وأما بيوته عليه السلام فكانت تسعة، بعضها من جريدٍ مُطَيَّنٍ بالطِّين وسقفها جريد،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١١٩/١٢) وتقدم نحوه عند البخاري (١٢٢/١).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/٣٨٥) عن الحكم بن عتيبة والقاسم بن عبد الرحمن.

(٣) الساج: ضرب من الشجر ضخيم.

الرسول ﷺ في بيت أبي أيوب

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب، حتى بُني له مسجده

وبعضها من حجارة مَرْصُومَةٍ، بعضها فوق بعض، مسقفة بالجريد أيضًا. وقال الحسن بن أبي الحسن: كنت أدخل بيوت النبي عليه السلام، وأنا غلام مراهق، فأنال السقف بيدي، وكانت حُجْرُهُ - عليه السلام - أَكْسِيَّةً من شعر مربوطة في خشب عَزْرَعٍ وفي تاريخ البخاري أن بابه - عليه السلام - كان يُفْرَعُ بالأطافر، أي لا حَلَقَ له، ولما تُوفِّيَ أزواجه عليه السلام خُلِطَت البيوت والحجر بالمسجد، وذلك في زمن عَبدِ الملك، فلما ورد كتابه بذلك ضَجَّ أهلُ المدينة بالبكاء، كيوم وفاته عليه السلام، وكان سريره خَشَبَاتٍ مشدودةً بالليف، بيعت زمن بني أُمَيَّةَ، فاشتراها رجل بأربعة آلاف درهم قاله ابن قتيبة. وهذا يدل على أن بيوته عليه السلام إذا أُضِيفَتْ إليه، فهي إضافة مِلْكٍ، كقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وإذا أُضِيفَتْ إلى أزواجه كقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] فليست بإضافة مِلْكٍ، وذلك أن ما كان مِلْكًا له عليه السلام، فليس بمَوْزُوتٍ عنه.

حب حباب:

فصل: وذكر حديث أم أيوب، وقولها: انكسر حُبُّ لنا. الحُبُّ جَرَّةٌ كبيرة، جَمْعُهُ [أحب وحَبَاب] حَبَّه مثل جُحْرٍ وَجَحْرَةٍ [وأجحار وجَحَر] وكأنه أخذ لفظه من حَبَابِ الماء أو من حَبَّةٍ، وَحَبَابُهُ بِالْأَلْفِ: ترافعه. قال الشاعر:

كَأَن صَلَاحَ جَهِيْزَةٍ حِينَ تَمْشِي حَبَابُ الْمَاءِ يَتَّبِعُ الْحَبَابَا
وَالْحَبَبُ بغير أَلِفٍ ثَفَاخَاتٌ يَبِضُّ صِغَارُ تَكُونُ عَلَى وَجْهِ الشَّرَابِ قَالَه ابن ثابت.

الثوم:

وذكر قوله عليه السلام لأُم أيوب - حين رَدَّ عليها الثريدَ من أجل الثوم: «أنا رجل أناجي»، وروى غيره حديث أم أيوب، وقال فيه: «إن الملائكة تتأذى بما يتأذى به الإنسان»^(١). وروي أن خَصِيفَ بن الحارث قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله: الحديث الذي ترويه عنك أم أيوب أن الملائكة تتأذى بما يتأذى به الإنسان أصحيح هو؟ قال: «نعم».

مصير منزل أبي أيوب

ومنزله أبي أيوب الذي نزل فيه النبي - ﷺ - تصير بعده إلى أَفْلَحَ مولى أبي أيوب،

(١) انظر مسلم في المساجد (٧٢) وابن ماجه (٣٣٦٥) وأحمد (٣/٣٧٤).

ومساكنه، ثم انتقل إلى مساكنه من بيت أبي أيوب، رحمة الله عليه ورضوانه.

قال ابن إسحق: وحَدَّثني يزيد بن أبي حبيب، عن مَرْثَد بن عبد الله اليزني، عن أبي رُهم السَّماعي، قال: حَدَّثني أبو أيوب، قال: لما نزل عليَّ رسولُ الله ﷺ في بيتي، نزل في السُّفْلِ، وأنا وأمُّ أيوب في العُلُو، فقلت له: يا نبيَّ الله، بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظهَر أنت فكن في العُلُو، وننزل نحن فنكون في السُّفْلِ، فقال: «يا أبا أيوب، إنَّ أرفق بنا وبمن يَغشانا، أن نكون في سُفْلِ البيت».

قال: فكان رسول الله ﷺ في سُفْلِهِ، وكنا فوقه في المسكن، فلقد انكسر حُبُّ لنا فيه ماء فَمُت أنا وأمُّ أيوبَ بِقُطَيْفَةٍ لنا، ما لنا لحاف غيرها، نَنشِفُ بها الماء، تخوفا أن يَقْطُرَ على رسولِ الله ﷺ - منه شيء فيؤذيه.

قال: وكنا نصنع له العشاء، ثم نبعث به إليه، فإذا رَدَّ علينا فضله تيمَّمت أنا وأمُّ أيوب موضعَ يده، فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعْشائه وقد جعلنا له بصلاً أو ثوماً، فردَّه رسولُ الله ﷺ، ولم أرَ ليده فيه أثرًا قال: فجئته فَرَعَا، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي رددتَ عشاءك ولم أر فيه موضع يدك، وكنتُ إذا رددته علينا، تيمَّمتُ أنا وأمُّ أيوب موضع يدك، نَبْتَغِي بذلك البركة؛ قال: «إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجي، فأما أنتم فكلوه». قال: فأكلناه، ولم نصنع له تلك الشجرة بعد^(١).

تلاحق المهاجرين

قال ابن إسحق: وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ، فلم يبق بمكة منهم أحد، إلا مفتون أو محبوس، ولم يُوعَبْ أهلُ هجرة من مكة بأهلِيهم وأموالهم إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسول الله ﷺ إلا أهلُ دور مُسْمُون: بنو مظعون من جُمَح؛ وبنو جَحْش بن

فاشتره منه بعد ما خَرِبَ، وتَثَلَّمَت حيطائُه المُغِيرَةُ بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار بعد حيلة احتالها عليه المغيرة ذكرها الزبير، ثم أصلح المغيرة ما وَهَى منه، وتصدق به على أهل بيتٍ من فقراء المدينة، فكان بعد ذلك ابنُ أَفْلَحَ يقول للمغيرة: خَدَعْتَنِي، فيقول له المغيرة: لا أَفْلَحَ مَنْ نَدِمَ. هذا معنى ما ذكره الزُّبَيْرُ بن أبي بكر.

(١) أخرجه الطبراني (٤/١٤١).

رثاب، حلفاء بني أمية؛ وبنو البكير، من بني سعد بن ليث، حلفاء بني عدي بن كعب، فإن دوزهم غُلقت بمكة هجرة، ليس فيها ساكن.

قصة أبي سفيان مع بني جحش

ولما خرج بنو جحش بن رثاب من دارهم، عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها من عمرو بن علقمة، أخي بني عامر بن لؤي؛ فلما بلغ بني جحش. ما صنع أبو سفيان بدارهم، ذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها داراً خيراً منها في الجنة»؟ قال: بلى؛ قال: «فذلك لك». فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة كلمه أبو أحمد في دارهم، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ؛ فقال الناس لأبي أحمد: يا أبا أحمد، إن رسول الله ﷺ يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب منكم في الله عز وجل، فأمسك عن كلام رسول الله ﷺ، وقال لأبي سفيان:

أبلغ أبا سفيان عن	أمر عواقبه ندامه
دار ابن عمك بعثها	تقضي بها عنك الغرامة
وحليفكم بالله رب	الناس مجتهد القسامة
أذهب بها، أذهب بها	طوقتها طوق الحمامة

من قصة أبي سفيان مع بني جحش

وذكر قول أبي أحمد بن جحش لأبي سفيان:

دار ابن عمك بعثها	تقضي بها عنك الغرامة
أذهب بها أذهب بها	طوقتها طوق الحمامة

أو أحمد هذا اسمه عند، وقيل: ثمامة، والأول أصح، وكانت عنده الفارعة بنت أبي سفيان، وبهذا السبب تطرق أبو سفيان إلى بيع دار بني جحش إذ كانت بنته فيهم. مات أبو أحمد بعد أخته زينب أم المؤمنين في خلافة عمر.

وقوله لأبي سفيان طوقها طوق الحمامة منتزع من قول النبي ﷺ - «مَنْ عَصَبَ شَيْبَرًا مِنْ أَرْضِ طُوقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سِنِّهِ أَرْضِينَ»^(١) وقال طوق الحمامة، لأن طوقها لا يفارقها،

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (١٣٧/٣) ومسلم (١٥٣٨).

انتشار الإسلام ومن بقي على شركه :

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة إذ قَدِمَهَا شهرَ ربيع الأول، إلى صفر من السنة الداخلة، حتى بُنيَ له فيها مسجدهُ ومساكنه واستجمع له إسلام هذا الحي من الأنصار، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها، إلا ما كان من خُطمة، وواقف، وواثل، وأمّية، وتلك أوس الله، وهم حي من الأوس، فإنهم أقاموا على شركهم.

الخطبة الأولى

وكانت أولُ خُطبة خطبها رسول الله ﷺ، فيما بلغني عن أبي سَلَمَة بن عبد الرحمن - نعوذ بالله أن نقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل - أنه قام فيهم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس، فقدموا لأنفسكم تَعْلَمُنَّ والله لِيُضَعِفَنَّ أحدكم، ثم لِيَدْعَنَّ عَنْهُ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ، ثم لِيَقُولَنَّ له ربه، وليس له تَرْجَمَان ولا حاجبٌ يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك، وأتيتك مالاً وأفضل عليك؟ فما قَدِمْتَ لنفسك؟ فليَنظُرَنَّ يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم فمن

ولا تلقيه عن نفسها أبداً، كما يفعل مَنْ لَيْسَ طَوْقاً من الآدميين، ففي هذا البيت من السَّمانَةِ وخَلَاوةِ الإشارةِ ومَلَاحةِ الاستعارة ما لا مزيدَ عليه، وفي قوله: طَوَّقَ الحمامة رَدُّ على من تأوَّلَ قوله عليه السلام: طَوَّقَهُ من سبع أرضين أنه من الطَّاقة، لا من الطُّوقِ في العنق، وقاله الخطابي في أحد قوليهِ، مع أن البخاري قد رواه، فقال في بعض روايته له: خُصِفَ به إلى سَبْعِ أرضين، وفي مسند ابن أبي شيبَةَ: «من غَصَبَ شَبْرًا من أرض جاء به إسْطَاطًا في عُثْقِهِ»^(١)، والإسْطَاطُ كَالْحَلَقِ من الحديد، وإسْطَاطُ السيف حُدُّه.

الخطبة^(٢)

فصل: وذكر خُطبة رسول الله - ﷺ - وفيها يقول الله عزَّ وجلَّ لعبيده: ألم أوتك مالاً وأفضل عليك، فماذا قَدِمْتَ. وفي غير هذا الكتاب زيادة، وهي: ألم أوتك مالاً، وجَعَلْتُكَ تَرْبِعَ وتَدَسَّعَ؟ وفسره ابن الأَثَرِيِّ، فقال: هو مثل، وأصله: أن الرئيس من العرب كان يَرْبِعُ قومه أي: يأخذ المِزْبَاعَ إذا غزا ويدَسَّع: أي يُعْطِي ويدفع من المال لمن شاء، ومنه قولهم: فلان ضَخَمَ الدَّيْبِيعةَ.

(١) أخرجه ابن أبي شيبَةَ (٣٥١/٧).

(٢) انظر تاريخ الطبري (٣٩٤/٢) البداية والنهاية (٢١٣/٣) المتظم (٦٥/٣) الدلائل (٥٢٤/٢).

استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بِشِقِّ من ثمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

الخطبة الثانية

قال ابن إسحاق: ثم خطب رسول الله ﷺ الناس مرة أخرى، فقال: «إِنَّ الحمدَ لله، أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. إِنَّ أَحسنَ الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلح من زَيَّنَه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أَحسنُ الحديث وأبلغه، أَحَبُّوا، ما أَحَبَّ الله، أَحَبُّوا الله من كُلِّ قلوبكم، ولا تَمَلُّوا كلامَ الله وذكره، ولا تَقْسُ عنه قلوبكم فإنه من كُلِّ ما يخلق الله يختار ويصطفى، قد سماه الله خَيْرته من الأعمال، ومُصطفاه من العباد، الصالح الحديث، ومن كُلِّ ما أوتي الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه حقَّ تقاته، واصدِّقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابُّوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن يُنكَثَ عهده، والسلام عليكم».

الحب

وذكر خطبة رسول الله ﷺ - الثانية، وفيها: «أَحِبُّوا الله من كل قلوبكم»، يريد أن يَسْتَفِرَّقَ حُبَّ الله جميعَ أجزاء القلب، فيكون ذكره وعمله خارجاً من قلبه خالصاً لله، وإضافة الحبِّ إلى الله تعالى من عبده مَجَازٌ حسنٌ لأن حقيقة المحبة: إرادة يقارنُها استِدعاءٌ للمحبوب إمَّا بالطبع، وإمَّا بالشرع، وقد كشفنا معناها بغاية البيان في شرح قوله عليه السلام: «إِنَّ الله [تعالى] جَمِيلٌ يحب الجمال»^(١) ونبهنا هنالك على تقصير أبي المعالي رحمه الله في شرح المحبة في كتاب الإرادة من كتاب الشامل فَلْتَنْظُرْ هنالك.

من شرح الخطبة:

وقوله عليه السلام: «لا تَمَلُّوا كلامَ الله وذكره، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى». الهاء في قوله: فإنه لا يجوز أن تكون عائدةً على كلام الله سبحانه، ولكنها

(١) «صحيح». أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) وأحمد (١٣٣/٤) والحاكم (٢٦/١). والله تعالى يُحب ويُحِبُّ فهو الودود سبحانه وتعالى وعَزَّ وجل. وانظر مزيد بيان «روضة المحبين» و«مدارج السالكين» للعلامة ابن القيم رحمه الله تعالى.

ضمير الأمر والحديث، فكأنه قال: إن الحديث من كل ما يخلق الله يختار، فالأعمال إذا كلها من خلق الله قد اختار منها ما شاء قال سبحانه: ﴿وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقوله: «قد سماه خيرته من الأعمال»، يعني: الذكر، وتلاوة القرآن؛ لقوله سبحانه: «ويختار»، فقد اختاره من الأعمال.

وقوله: «والمصطفى من عباده»، أي: وسمى المصطفى من عباده بقوله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] ويجوز أن يكون معناه المصطفى من عباده أي: العمل الذي اصطفاه منهم واختاره من أعمالهم، فلا تكون من على هذا للتبعض، إنما تكون لابتداء الغاية، لأنه عملٌ استخرجه منهم بتوقيفه إياهم. والتأويل الأول أقرب مأخذًا والله أعلم بما أراد رسوله.

وقوله في أول الخطبة: «إن الحمد لله أحمده» هكذا برفع الدال من قوله: الحمد لله وجدته مقيدًا مصححًا عليه، وإعرابه ليس على الحكاية^(١)، ولكن على إضمار الأمر كأنه قال: إن الأمر الذي أذكره، وحذف الهاء العائدة على الأمر كي لا يقدم شيئًا في اللفظ من الأسماء على قوله: «الحمد لله»، وليس تقديم إن في اللفظ من باب تقديم الأسماء، لأنها حرف مؤكد لما بعده مع ما في اللفظ من التحري للفظ القرآن والتمين به، والله أعلم.

وكانت خطبته في تلك الأيام على جذع، فلما ضُيع له المُنْبَر من طُرُقَاء الغابة، وصنعه له عبد لامرأة من الأنصار اسمه باقوم خار الجذع خُوارِ الناقة الخُلُوج، حتى نزل عليه السلام، فالتزمه، وقال: «لو لم ألتمزمه ما زال يَخُور إلى يوم القيامة»^(٢)، ثم دفنه، وإنما دفنه، لأنه قد صار حكمه حكم المؤمن لحبه وحنينه إلى النبي ﷺ، وهذا ينظر إلى قوله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] الآية، وإلى قوله عليه السلام في النخلة: «مثلها كمثل المؤمن»، وحديث خُوارِ الجذع وحنينه منقول نقل الواتر لكثرة من شاهد خُواره من الخلق وكلهم نقل ذلك، أو سمعوه من غيره فلم ينكره.

(١) أي على النقل من الكلام السابق، كما تقول: إن الله وصف المؤمنين فقال إنهم هم: الآمرون بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم تقول فكل من «الآمرون والنهون»، ولا تقل: فكل من «الآمرين والنهين» بالجهر رغم تقدم حرف الجر «من» على اللفظتين، ولكن تقول فكل من «الآمرون والنهون» نقلًا عن قولك الأول، ويكون إعرابها: الآمرون: اسم مجرور بمن وعلامة جرّه الكسرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٣/٧) وابن ماجه (١٤١٥) وأحمد (١/٢٤٩/٢٦٧/٣٦٣) والدارمي (١/١٩) والطبراني (١٢/١٨٧) وأبو نعيم في الدلائل (١٤٢).

كتاب المواعدة لليهود

قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة

كتاب رسول الله ﷺ فيما بينه وبين اليهود^(١)

شرط لهم فيه، وشرط عليهم، وأمنهم فيه على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وكانت أرض يثرب لهم قبل نزول الأنصار بها، فلما كان سئل العرم، وتفرقت سبًا نزلت الأوس والخزرج بأمر طريفة الكاهنة، وأمر عمران بن عامر، فإنه كان كاهنًا أيضًا وبما سجدت به لكل قبيلة من سبًا، فسجدت لبني حارثة بن ثعلبة. وهم الأوس والخزرج أن ينزلوا يثرب ذات النخل فتزلوها على يهود وحالفوهم وأقاموا معهم، فكانت الدار واحدة.

متى دخل اليهود يثرب؟

والسبب في كون اليهود بالمدينة، وهي وسط أرض العرب مع أن اليهود أصلهم من أرض كنعان أن بني إسرائيل كانت تغير عليهم العماليق من أرض الحجاز، وكانت منازلهم يثرب والجحفة إلى مكة، فشكت بنو إسرائيل ذلك إلى موسى، فوجه إليهم جيشًا، وأمرهم أن يقتلوهم، ولا يبقوا منهم أحدًا، ففعلوا وتركوا منهم ابن ملك لهم كان غلامًا حسنًا، فرقوا له، ويقال للملك: الأرقم بن أبي الأرقم فيما ذكر الزبير ثم رجعوا إلى الشام وموسى قد مات، فقالت بنو إسرائيل لهم: قد عصيتم وخالفتم، فلا تؤويكم، فقالوا: نرجع إلى البلاد التي غلبنا عليها فنكون بها، فرجعوا إلى يثرب، فاستوطنوها وتناسلوا بها إلى أن نزلت عليهم الأوس والخزرج بعد سيل العرم. هذا معنى ما ذكره أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الكبير المعروف: بكتاب الأغاني، وإن كان الزبير قد ذكره أيضًا في أخبار المدينة، ولا أحسب هذا صحيحًا لبعد عمر موسى عليه السلام، والذي قال غيره إن طائفة من بني إسرائيل لحقت بأرض الحجاز حين دوح بحث نصر البابلي في بلادهم، وجاس خلال ديارهم، فحيث لحق من لحق منهم بالحجاز كقرظة والنضير، وسكنوا خيبر والمدينة، وهذا معنى ما ذكر الطبري والله أعلم.

(١) انظر البداية والنهاية (٢٢٢/٣). والحديث أخرجه البخاري (١٩٥/٧) ومسلم (١٥٣٨).

من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعقلون، بينهم، وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين؛ وبنو عوف على ربعتهم يتعقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تُقدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعقلون

اسم يثرب:

وأما يثرب فاسم رجل نزل بها أول من العماليق فعُرفت باسمه، وهو يثرب بن قايين بن عييل بن مهلايل بن عوص بن عِملاق بن لَؤْذ بن إِزْم، وفي بعض هذه الأسماء اختلافٌ وبنو عييل هم الذين سكنوا الجُحفة فأجحفَت بهم السيول وبذلك سُميت الجُحفة، فلما احتلها رسول الله - ﷺ - كره لها هذا الاسم أعني: يثرب لما فيه من لفظ الثَّريب، وسماها طيبة والمدينة.

فإن قلت: وكيف كره اسمًا ذكرها الله في القرآن به، وهو المُقْتَدِي بكتاب الله، وأهل أن لا يُعْدِل عن تسمية الله؟ قلنا: إن الله - سبحانه - إنما ذكرها بهذا الاسم حاكيا عن المنافقين؛ إذ قالت طائفة منهم: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٣] فنبهه بما حكى عنهم أنهم قد رغبوا عن اسم سماها الله به ورسوله، وأبوا إلا ما كانوا عليه في جاهليتهم، والله سبحانه قد سماها: المدينة، فقال غير حالك عن أحد: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ [التوبة: ١٢٠]، وفي الخبر عن كعب الأحبار قال: إنا نجد في التوراة يقول الله للمدينة يَا طَابَةُ يَا طَبِيَّةُ يَا مَسْكِينَةَ لَا تَقْبَلِي الْكُنُوزَ أَرْزُقِ أَجَاجِيرَكَ عَلَى أَجَاجِيرٍ^(١) القرى، وقد روي هذا الحديث عن علي بن أبي طالب يرفعه، وروي أيضًا أن لها في التوراة أَحَدَ عَشَرَ اسْمًا: المدينة وطابة وطيبة والمسكينة والعجبرة والمحيّة والمخبوبة والقاصمة والمخبورة والعذراء والمزحومة، وروي في معنى قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] أنها المدينة، وأن ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ مَكَّة و ﴿سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ الأنصار.

تفسير على ربعاتهم:

وفي الكتاب: بنو فلان على ربعاتهم. هكذا رواه أبو عبيد عن ابن بكير عن عَقِيل بن خالد [من عقيل الأبلّي] عن الزهري ورواه عن عبد الله بن صالح بهذا الإسناد، فقال: ربَاعَتِهِم. الألف بعد الباء، ثم قال أبو عبيد: يقال: فلان على رباعه قومه إذا كان نقيبهم ووافدهم.

(١) أجاجير: جمع إجار، وهو السطح الذي ليس له سور.

معاقلهم الأولى، وكلّ طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقِلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وكلّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو جُشَم على رِبْعَتِهِمْ يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلّ طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على رِبْعَتِهِمْ يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلّ طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عَوْف على رِبْعَتِهِمْ يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النَّبِيت على رِبْعَتِهِمْ يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلّ طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على رِبْعَتِهِمْ يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلّ طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا بينهم أن يُعطوه بالمعروف في فِداء أو عَقْلٍ.

قال ابن هشام: المُفْرَح: المُثْقَل بالدين والكثير العيال. قال الشاعر:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَبْرَحْ تُؤْذِي أَمَانَةً وَتَحْمِلُ أُخْرَى أَفْرَحَتْكَ الْوَدَائِعُ

وأن لا يحالف مؤمنٌ مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونه؛ وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دَسِيعَةً ظُلْم، أو إثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين؛ وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو

قال المؤلف: وكسر الراء فيه القياس على هذا المعنى، لأنها ولاية، وإن جعل الرِّبَاعَة مصدرًا فالقياس فتح الراء، أي على شأنهم وعاداتهم من أحكام الدِّيَّات والدماء يتعاقلون معاقلهم الأولى: جمع: مَعْقَلَةٌ وَمَعْقَلَةٌ من العَقْل وهو الدِّية.

من كلمات الكتاب:

وقال في الكتاب: وَالْأَيُّ يَتْرَكَ مُفْرَحًا، وفسره ابنُ هِشَام كما فسرهُ أَبُو عُبَيْدٍ أَنَّهُ الَّذِي أَثْقَلَهُ الدِّينَ، وَأَنشَدَ الْبَيْتَ الَّذِي أَنشَدَهُ أَبُو عُبَيْدٍ:

إِذَا أَنْتَ لِمِ تَبْرَحْ تُؤْذِي أَمَانَةً وَتَحْمِلُ أُخْرَى أَفْرَحَتْكَ الْوَدَائِعُ

أي: أثقلتك يجوز أن يكون من أفعال السُّلْب، أي سَلَبْتَكَ الْفَرَحَ، كما قيل: أَقْسَطَ الرَّجُلُ إِذَا عَدَلَ، أي: أزال الْقِسْطَ، وهو الإِعْوَاجُ، ويجوز أن تكون الْفَاءُ مُبَدَّلَةً مِنْ بَاءٍ، فيكون من الْبَرَح وهو الشدة، تقول: لقيت من فلان بَرَحًا أي: شِدَّةً، وذكر أَبُو عُبَيْدٍ رَوَايَةً أُخْرَى مُفْرَجٍ بِالْجِيمِ، وذكر في معناه أَقْوَالَ، منها أَنَّهُ الَّذِي لَا دِيَّانَ لَهُ، ومنها: أَنَّهُ الْقَتِيلُ بَيْنَ الْقَرِيَّتَيْنِ لَا يُدْرَى مِنْ قَتَلَهُ، ومنها أَنَّهُ فِي مَعْنَى الْمُفْرَحِ بِالْهَاءِ أَي: الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ، وقد أَثْقَلَهُ الدِّينَ، أو نحو هذا فَيُقْضَى عَنْهُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ.

كان وَلَدَ أحدهم؛ ولا يَقْتُلُ مؤمنٌ مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يُجير عليهم أديانهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تَبِعْنَا من يَهُودَ فإن له النصرَ والأُسوةَ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم؛ وإن سَلِمَ المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال. سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كلَّ غازية غزت معنا يُعَقَّبُ بعضها بعضًا، وإن المؤمنين يُبَىء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه؛ وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش، ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط مؤمنًا قتلاً عن يَبِيَّةٍ فإنه قَوْدٌ به إلا أن يرضى وليُّ المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحلَّ لهم إلا قيامٌ عليه، وإنه لا يحلَّ لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر مُخْدِثًا، ولا يُؤويه؛ وأنه مَنْ نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صَرْفٌ ولا عَدْلٌ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله عزَّ وجلَّ، وإلى محمد ﷺ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عَوْف أُمّة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأهل بيته، وإن لِيَهُودَ بني النَّجَّارِ مثل ما ليهود بني عَوْف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عَوْف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عَوْف، وإن ليهود بني جُثَمِ مثل ما ليهود بني عَوْف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عَوْف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عَوْف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جَفْنَةَ بطن من ثعلبة كأنفسهم؛ وإن لبني الشُّطَيْبَةِ مثل ما ليهود بني عَوْف، وإن البِرَّ دون الإثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم؛ إن بَطَانَةَ يهود كأنفسهم؛ وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لا ينحجز على ثار جُزَح، وإنه من فُتِكَ فبنفسه فُتِكَ، وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبرِّ هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصرَ على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبِرَّ دون الإثم، وإنه لم يَأْثِم امرؤٌ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يَثْرِب حرام جَوْفُهَا لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مُضَارٍّ ولا آثم، وإنه لا يُجَار حُرْمَةٌ إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَثٍ أو اشتِجَارٍ يُخَافُ فسادُه، فإنَّ مردّه

وفيه: ولا يوتغ إلا نفسه، أي: لا يُوبِقُ، ويهلك إلا نفسه، يقال وَتَعَ الرجلُ، وأوتغهُ غيره، قاله أبو عبيد. ومعنى قوله: يُبَىء هو من البَوَاء، أي: المساواة، ومنه قول مُهَلِّهَل حين قَتَلَ ابْنًا للحارث بنَ عُبَاد: بُوَيْشِنِع نَعْلِ كُتَيْب.

إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دُعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه، فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا مَنْ حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس، مواليتهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض، من أهل هذه الصحيفة.

قال ابن هشام: ويقال: مع البرّ المحسن من أهل هذه الصحيفة.

قال ابن إسحاق: وإن البرّ دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وأثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن برّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

قال ابن إسحاق: وأخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال - فيما بلغنا، ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل، تأخّوا في الله أخوين أخوين، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال: هذا أخي فكان رسول الله - ﷺ سيّد المرسلين، وإمام

وقوله: «إن البرّ دون الإثم»، أي: إن البرّ والوفاء ينبغي أن يكون حاجزاً عن الإثم.

وقوله: «وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره»، أي: إن الله وحزبه المؤمنين على الرضى به، وقال أبو عبيد في كتاب الأموال: إنما كتب رسول الله - ﷺ - هذا الكتاب قبل أن تُفرض الجزية، وإذا كان الإسلام ضعيفاً. قال: وكان لليهود إذ ذاك نصيب في المَغَنَم إذا قاتلوا مع المسلمين، كما شرط عليهم في هذا الكتابِ النفقة معهم في الحروب.

المؤاخاة بين الصحابة^(١)

فصل: المؤاخاة بين الصحابة: أخى رسول الله - ﷺ - بين أصحابه حين نزلوا المدينة، ليذهب عنهم وخشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشدّ أزر بعضهم ببعض،

(١) انظر البداية (٢٢٢/٣) الطبقات لابن سعد (٢٣٨/١) الاكتفاء (٤٦٤/١) المنتظم (٧٠/٣) زاد المعاد (٦٣/٣).

المتقين، ورسول رب العالمين، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أخوين، وكان حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسدُ رسوله ﷺ، وعمُ رسول الله ﷺ، وزيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ، أخوين، وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت، وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين، الطيّار في الجنة، ومعاذ بن جبل، أخو بني سلمة، أخوين.

قال ابن هشام: وكان جعفر بن أبي طالب يومئذ غائبًا بأرض الحبشة.

قال ابن إسحاق: وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ابن أبي قحافة، وخارجة بن زهير، أخو بلحارث بن الخزرج، أخوين، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعثمان بن مالك، أخو بني سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج أخوين؛ وأبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح، واسمه عامر بن عبد الله، وسعد بن معاذ بن النعمان، أخو بني عبد الأشهل، أخوين. وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع، أخو بلحارث بن الخزرج، أخوين. والزيبر بن العوام، وسلامة بن سلامة بن وقش، أخو بني عبد الأشهل، أخوين. ويقال: بل الزيبر وعبد الله بن مسعود، حليف، بني زهرة، أخوين، وعثمان بن عفان، وأوس بن ثابت بن المنذر، أخو بني النجار، أخوين.

فلما عز الإسلام واجتمع الشمل، وذهبت الوحشة أنزل الله سبحانه: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ [الأنفال: ٧٥] أعني في الميراث^(١)، ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة فقال: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ يعني في التوادّ وشُمُول الدعوة. وذكر مؤاخاته بين أبي ذرّ والسّنذر بن عمرو، وقد ذكرنا إنكار الواقدي لذلك في آخر حديث بيعة العقبة.

نسب أبي الدرداء:

فصل: وذكر مؤاخاة سلمان وأبي الدرداء، وأبو الدرداء اسمه عويمر بن عامر، وقيل: عويمر بن زيد بن ثعلبة، وقيل: عويمر بن مالك بن ثعلبة بن عمرو بن قيس بن أمية من بلحارث بن الخزرج، أمه: تحبة بنت وقد بن عمرو بن الإطّانة، وامراته: أم الدرداء، اسمها: خيرة بنت أبي حذّر، وأم الدرداء الصغرى، اسمها: جمانة، مات أبو الدرداء بدمشق سنة اثنين وثلاثين، وقيل: سنة أربع وثلاثين.

(١) لعله يعني: أن الرسول ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار عليّ المواسة، والتوارث بعد الموت فلما أعز الله تعالى الإسلام بعد وقعة بدر، وأنزل الله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ نسخت هذه الآية ما قبلها وانقطعت المؤاخاة في التوارث. وهو الصحيح.

وطلحة بن عُبيد الله، وكعب بن مالك، أخو بني سلمة، أخوين. وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وأبي بن كعب، أخو بني النَجَّار: أخوين؛ ومُصعب بن عُمير بن هاشم، وأبو أيوب خالد بن زيد، أخو بني النَجَّار: أخوين، وأبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة وعَبَّاد بن بشر بن وَقْش، أخو بني عبد الأشهل: أخوين. وعَمَّار بن ياسر، حليف بني مَخْزوم، وحذيفة بن اليمان، أخو بني عبد عَبْس، حليف بني عبد الأشهل: أخوين ويقال: ثابت بن قيس بن الشَّماس، أخو بَلْحَارث بن الْخَزْرَج، خطيب رسول الله ﷺ، وعَمَّار بن ياسر: أخوين. وأبو ذَرٍّ، وهو بُرَيْر بن جُنَادَةَ الْغِفَارِيُّ والمُنْذِر بن عمرو، الْمُغْنِق ليموت، أخو بني ساعدة بن كعب بن الْخَزْرَج: أخوين.

قال ابن هشام: وسمعت غير واحد من العلماء يقول: أبو ذَرٍّ: جُنْدَب بن جُنَادَةَ.

قال ابن إسحاق: وكان حاطب بن أبي بَلْتَعَة، حليف بني أسد بن عبد العزى وعُويم بن ساعدة، أخو بني عمرو بن عوف، أخوين، وسَلْمَان الْفَارِسِي، وأبو الدُّرْدَاء، عُويم بن ثعلبة، أخو بَلْحَارث بن الْخَزْرَج، أخوين.

قال ابن هشام: عُويم بن عامر، ويقال: عُويم بنُ زيد.

قال ابن إسحاق: وبلال، مولى أبي بكر رضي الله عنهما، مؤذن رسول الله ﷺ، وأبو رُوَيْحَةَ عبد الله بن عبد الرحمن الْخَثْعَمِي، ثم أخذ الْفَزَع، أخوين. فهؤلاء من سُمِّي لنا، ممَّن كان رسل الله ﷺ آخَى بينهم من أصحابه.

بلال يوصي بديوانه لأبي رويحة:

فلما دَوَّن عمر بن الخطاب الدواوين بالشام، وكان بلال قد خرج إلى الشام، فأقام بها مُجَاهِدًا، فقال عمرُ لبلال: إلى من تجعل ديوانك يا بلال؟ قال: مع أبي رُوَيْحَةَ، لا أفارقه أبدًا، للأخوة التي كان رسول الله ﷺ عقد بينه وبينني، فضمَّ إليه، وضمَّ ديوان الحَبِشَة إلى خَثْعَم، لمكان بلال منهم، فهو في خَثْعَم إلى هذا اليوم بالشام.

أبو أمانة:

قال ابن إسحاق: وهلك في تلك الأشهر أبو أمانة، أسعدُ بن زرارَة، والمسجد يبنى، أخذته الذبْحَةُ أو الشَّهَقَة.

قال ابن إسحاق: وحَدَّثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زُرارة: أن رسول الله ﷺ، قال: «بئس الميثُ أو أمانة، ليُهود ومُنافقوا العرب يقولون: لو كان نبياً لم يمت صاحبه، ولا أملك لنفسي ولا لصاحبي من الله شيئاً»^(١).

قال ابن إسحاق: وحَدَّثني عاصم بن عمر بن قَتادة الأنصاري: أنه لما مات أبو أمانة، أسعدُ بن زُرارة، اجتمعت بنو النَجَّار إلى رسول الله ﷺ، وكان أبو أمانة نَقِيبَهُمْ، فقالوا له: يا رسول الله، إن هذا قد كان مَثاً حيثُ قد علمت، فاجعلْ مَثاً رجلاً مكانه يُقيم من أَمَرنا ما كان يُقيم، فقال رسول الله ﷺ لهم: «أنتم أخوالي، وأنا بما فيكم، وأنا نَقِيبُكُمْ»^(٢)، وكره رسولُ الله ﷺ أن يَخَصَّ بها بعضُهم دون بعض. فكان من فضل بني النَجَّار الذي يَعُدُّون على قومهم، أن كان رسولُ الله ﷺ نَقِيبَهُمْ.

نسب الفَزَع:

فصل: وذكر مؤاخاة أبي رُوَيْحَةَ وبلالٍ، وسماء: عَبْدُ اللَّهِ بن عبد الرحمن، وقال: هو أحدُ الفَزَعِ، لم يبينه بأكثر من هذا، والفَزَعُ عند أهل النسب، هو ابن شَهْرَانَ بن عَفْرَسَ بن حُلْفَ بن أَفْتَل، وأَفْتَلُ هو خَثْعَمُ. وقد تقدم في أول الكتاب: لِمَ سمي خَثْعَمَ وهو ابن أنمار، وقد تقدم خِلاف النسابين فيما بعد أنمار.

والفَزَعُ هذا بفتح الزاي، وأما الفَزَعُ بسكونها، فهو الفَزَعُ بن عبد الله بن ربيعة [بن جندل]، وكذلك الفَزَعُ في خُرَاعة، وفي كلب هما ساكنان أيضاً قاله ابن حبيب، وقال الدَّارِقُطْنِيُّ: الفَزَعُ بفتح الزاي: رَجُلٌ يَزُوي عن ابن عُمر.

وذكر آخر في الرواة أيضاً بفتح الزاي يَزُوي حديثاً في الكذب على رسول الله ﷺ، يروي أن رسول الله ﷺ عقد لأبي رُوَيْحَةَ الخثعمي لواء عام الفتح، وأمره أن ينادي: «مَنْ دخل تحت لواء أبي رُوَيْحَةَ، فهو آمن»^(٣).

مؤاخاة حاطب بن أبي بلتعة:

فصل: وذكر مؤاخاة حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ وَعُوَيْمَ بن ساعدة، وقال في حاطب: حليف

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٩/٢) وأحمد (١٣٨/٤) والحاكم (٢١٤/٣) والطبراني (١٠١/٦) وعبد الرزاق في مصنفه (١٩٥١٥) وابن سعد في الطبقات (١٤١/٧٣).

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (٩/٢) من طريق المصنف به.

(٣) انظر جامع المسانيد (٦٠٢/٢).

.....

بني أسد، وقال غيره: كان عَبْدًا لِعُبَيْدِ اللَّهِ بن حميد بن زُهَيْر بن أسد بن عبد العُزَّى، وقيل: كان من مِذْجِج، والأشهر: أنه من لَحْمِ بن عَدِيٍّ، واسم أبي بَلْتَعَةَ عَمْرُو بن أَشَدَّ بن مَعَاذٍ. وَالبَلْتَعَةُ من قولهم: تَبَلَّتْ الرجلُ إذا تَطَرَّفَ، قاله أبو عبيد في الغريب المصنف.

خبر الأذان

قال ابن إسحاق: فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، واجتمع أمر الأنصار، استحکم أمر الإسلام، فقامت الصلاة، وفُرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود، وفُرض الحلال والحرام، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم، وكان هذا الحي من الأنصار هم الذين تبوءوا الدار والإيمان. وقد كان رسول الله ﷺ حين قَدِمها إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مَوَاقِيتِها، بغير دَعْوَة فهِم رسول الله ﷺ حين قَدِمها أن يجعل بُوقًا كَبُوق يَهُودَ الذين يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس، فَنَحَتْ لِيُضْرَبَ به للمسلمين للصلاة.

بدء الأذان^(١)

ذكر حديث عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه، هكذا ذكره، وأكثر النسب يقولون: زيد بن عبد ربه، وثعلبة أخو زيد ذكر حديثه عندما شاور رسول الله ﷺ أصحابه في الأذان، فقال بعضهم: ناقوس كناقوس النصارى، وقال بعضهم: بُوق كَبُوق اليهود، وفي غير السيرة أنهم ذكروا الشُّبُورَ، وهو البوق. قال الأَصْمَعِيُّ للمُفَضَّل، وقد نازعه في معنى بيت من الشعر، فرفع المفضل صوته، فقال الأَصْمَعِيُّ لو نَفَخْتَ في الشُّبُور ما نفعك، تكلم كلام النمل وأصِيب!!.

(١) انظر خبر الأذان في الطبقات لابن سعد (٢٤٦/١) البداية والنهاية (٢٣١/٣) المنتظم (٧٧/٣) الاكتفاء (٤٦٥/١) وانظر حديث عبد الله بن زيد بن عبد ربه. في مسلم (٣٧٩) وأبو داود (٤٩٨ - ٤٩٩) بتحقيقي. وابن ماجه (٧٠٦) والترمذي (١٨٩). أخرجوه بعضهم مختصرًا وبعضهم مطوَّلًا.

رؤيا عبد الله بن زيد:

فبينما هم على ذلك، إذ رأى عبدُ الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه، أخو بلحارث بن الخزرج، النداء، فأتى رسولَ الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله، إنه طاف بي هذه الليلة طائف: مرّ بي رجلٌ عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوسًا في يده، فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعوا به إلى الصلاة،

وذكروا أيضًا القُنع وهو القَرْن، وقال بعضهم: هو تصحيف إنما هو القُبْع والقُنع أولى بالصواب، لأنه من أفتح صَوْتِه إذا رَفَعه، وقال بعضهم: بل نوقد نازًا، ونرفعها، فإذا رآها الناس أقبلوا إلى الصلاة، وقال بعضهم: بل نبعث رجلًا ينادي بالصلاة، فبينما هم في ذلك أُرِيَ عبدُ الله بن زيد الرؤيا التي ذكر ابن إسحاق، فلما أخبر بها رسولَ الله ﷺ - وأمره أن يُلقِيها على بلال، قال: يا رسول الله أنا رأيتها، وأنا كنت أحبها لنفسِي، فقال: «ليؤذَن بلال»، ولُنُقِم أنت، ففي هذا من الفقه جواز أن يؤذَن الرجل، ويقم غيره وهو معارض لحديث زياد بن عبد الله الصَّدِّي حين قال له النبي ﷺ: «مَنْ أذَّن فهو أحق أن يُقيم»^(١)، في حديث طويل إلا أنه يدور على عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي وهو ضعيف، والأول أصح منه. قال أبو داود: وتزعم الأنصار أن عبدَ الله بن زيد حين رأى النداء كان مريضًا، ولولا ذلك لأمره رسولُ الله ﷺ - بالأذان، وقد تكلمت العلماء في الحكمة التي خصت الأذان بأن رآه رجل من المسلمين في نومه، ولم يكن عن وَحْيٍ من الله لنبه كسائر العبادات والأحكام الشرعية، وفي قول النبي ﷺ - له: «إنها لرؤيا حَقٌّ»، ثم بنى حكم الأذان عليها، وهل كان ذلك عن وحي من الله له، أم لا؟ وليس في الحديث دليلٌ على أن قوله ذلك كان عن وَحْيٍ، وتكلموا: لِمَ لَمْ يُؤذَن رسولُ الله ﷺ؟ وهل أذن قط مرّةً من عُمره دهره أم لا؟.

فأما الحكمة في تخصيص الأذان برؤيا رجل من المسلمين ولم يكن عن وحي فلأن رسولَ الله ﷺ قد أُرِيَ ليلة الإسراء، وأُسمِعَهُ مَشَاهِدَةً فوق سَمَواتٍ^(٢)، وهذا أقوى من الوحي، فلما تأخر فرضُ الأذان إلى المدينة، وأرادوا إعلام الناس بوقت الصلاة تَلَبَّتِ الوحي

(١) «ضعيف». أخرجه أبو داود (٥١٤) والترمذي (١٩٩) وابن ماجه (٧١٧) والبيهقي (٣٨١/١) وأبو نعيم في الحلية (١١٤/٧). وفيه عبد الرحمن بن زياد الإفريقي: ضعيف.

(٢) خبر سماع الأذان أخرجه البزار (١٦٣/٣) بسند فيه كذاب، فارم به. وكثيرًا ما بيني السهيلي رحمه الله تعالى على الحديث، وقد يكون ضعيفًا أو موضوعًا كحديث الباب، وقد مرّ التنبيه على هذا غير مرة، فانتبه. وسيأتي الحديث مسندًا. وفيه زياد بن المنذر وكذبه غير واحد.

قال: أَقْلًا أدلك على خيرٍ من ذلك؟ قال: قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.

حتى رأى عبد الله الرؤيا، فوافقت ما رأى رسول الله ﷺ؛ فلذلك قال: إنها لرؤيا حق إن شاء الله، وعلم حينئذ أن مُراد الحق بما رآه في السماء، أن يكونَ سُنَّةً في الأرض، وقوى ذلك عنده موافقة رؤيا عمر للأَنْصَارِيِّ مع أن السكينة تنطق على لسان عُمَرُ واقترضت الحكمة الإلهية أن يكون الأذان على لسان غير النبي ﷺ من المؤمنين، لما فيه من التثوية من الله لعبده، والرفع لذكوره، فلأن يكون ذلك على غير لسانه أثَّره به وأفخم لسانه، وهذا معنى يبين فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] فَمِنْ رَفَعْ ذَكَرَهُ أَنْ أَشَادَ بِهِ عَلَى لِسَانٍ غَيْرِهِ. فَإِنْ قِيلَ: وَمَنْ رَوَى أَنَّهُ أَرَى النَّدَاءَ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، قُلْنَا: هُوَ فِي مَسْنَدِ أَبِي بَكْرٍ أَحْمَدَ بْنِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْخَالِقِ الْبَزَارِ.

حدثنا أبو بكر محمد بن طاهر الإشبيلي سماعًا وإجازةً عن أبي علي الغساني عن أبي عمر التَّمَرِيِّ بإسناده إلى البزار، قال البزار: نا محمد بن عثمان بن مَخْلَدٍ، نا أبي عن زياد بن المنذر، عن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: لما أراد الله أن يُعَلِّمَ رَسُوْلَهُ الْأَذَانَ أتاه جبريلُ ﷺ بدَايَةِ يَقَالُ لَهَا الْبُرَاقُ، فَذَهَبَ يَرْكَبُهَا، فَاسْتَصَعِبَتْ، فَقَالَ لَهَا جَبْرِيلُ: اسْكُنِي فَوَاحٍ مَا رَكِبَكَ عَبْدٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْ مُحَمَّدٍ - ﷺ - قال: فركبها حتى انتهى إلى الحجاب الذي يلي الرحمن - تبارك وتعالى - قال: فبينما هو كذلك، إذ خرج ملكٌ من الحجاب، فقال رسول الله - ﷺ -: «يا جبريل من هذا؟» فقال: والذي بعثك بالحق إني لأقرب الخلق مكانًا، وإن هذا الملك ما رأيته مُنْذُ خُلِقْتُ قَبْلَ سَاعَتِي هَذِهِ، فقال: «الملك: الله أكبر، الله أكبر»، قال: فقيل له من وراء الحجاب: صدق عبيدي أنا أكبر أنا أكبر، ثم قال الملك: أشهد أن لا إله إلا الله، قال: فقيل له من وراء الحجاب: صدق عبيدي أنا أكبر أنا أكبر، ثم قال: لا إله إلا الله، قال: فقيل من وراء الحجاب: صدق عبيدي أنا لا إله إلا أنا، قال: ثم أخذ الملك بيد محمد - ﷺ - فقدمه فأَمَّ أَهْلَ السَّمَاءِ، فِيهِمْ آدَمُ وَنُوحٌ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ: يَوْمَئِذٍ أَكْمَلَ اللَّهُ لِمُحَمَّدٍ - ﷺ - الشَّرَفَ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

فلما أَخْبَرَ بها رسولُ الله ﷺ، قال: إنها لَرُؤْيَا حَقٍّ، إن شاء الله، فقم مع بلال فآلِمْهَا عليه، فَلْيُؤْذَنْ بها، فإنه أُنْذِيَ صوتًا منك. فلما أَدْنَى بها بلالٌ سَمِعَهَا عَمْرُ بن الخطاب، وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ، وهو يجزّ رداءه، وهو يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأى، فقال رسولُ الله ﷺ: «فَلِلَّهِ الحمد على ذلك».

قال المؤلف: وأَخْلِقْ بهذا الحديث أن يكون صحيحًا لما يَغْفُضُهُ وَيُشَاكِلُهُ من أحاديث الإسراء فبمجموعها يحصل أن معاني الصلاة كلها وأكثرها، قد جمعها ذلك الحديث، أعني الإسراء، لأن الله - سبحانه - رفع الصلاة الي هي مُنَاجَاةٌ عن أن تُفَرَّضَ في الأرض، لكن بالحضرة المقدّسة المطهّرة^(١)، وعند الكعبة العليا، وهي البيت المغمور، وقد ذكرنا طَرَفًا من هذا الغرض، ونبدأ من هذا المقصد في شرح حديث الإسراء وينضاف إليها في هذا الحديث ذكر الأذان الذي تضمنه حديث البزار مع ما روي أيضًا أنه مَرَّ وهو على البراق بملائكة قيام، وملائكة ركوع، وملائكة سُجُودٍ وملائكة جُلُوسٍ، والكلُّ يُصَلُّونَ لله، فُجِّمَتْ له هذه الأحوال في صَلَاتِهِ، وحين مَثَلُ بالمقام الأعلى، ودنا فتدلى أَلَيْهِمْ أن يقول: التحيات لله إلى قوله: الصلوات لله، فقالت الملائكة: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فقال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فقالت الملائكة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسولُ الله، فجمع ذلك له في تَشَهُدِهِ^(٢).

وانظر بقلبك كيف شَرَعَ له عليه السلام ولأُمَّته أن يقولوا تسع مرات في اليوم واللييلة في تسع جلسات في الصلوات الخمس بعد ذكر التحيات: السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين، فيحيون ويحيون تحية من عند الله مباركة طيبة، ومن قوله: السلام علينا كما قيل لهم، فسلموا على أنفسكم تحيةً من عند الله، ومن ثم قال: الطيبات المباركات، كما في رواية ابن عباس في التشهد انظر إلى هذا كله كيف حيا وخيّي تسع مرات، حَيَّتَهُ ملائكةُ كُلِّ سماء، وخيَّاهم، ثم ملائكةُ الكرسي، ثم ملائكةُ العرش، فهذه تسع، فجعل التشهد في الصلوات على عدد تلك المرات التي سَلَّمَ فيها وسَلَّمَ عليه، وكلها تحيات لله، أي: من عند الله مباركة طيبة، هذا إلى نُكْتِ ذكرناها في شرح سُبْحَانَ الله وبحمده، فإذا جمعت بعض ما ذكرناه إلى بعض عَرَفْتَ جملة من أسرار الصلاة وفوائدها الجليلة دون الخفية، وأما بقية أسرارها وما تَضَمَّنَتْه أحاديث الإسراء من أنوارها، وما في الأذان من

(١) تقدم التنبيه غير مرة على هذه اللفظة ونسبتها إلى الله تعالى.

(٢) انظر التخريج قبل السابق.

رؤيا عمر في الأذان:

قال ابن إسحاق: حدثني بهذا الحديث محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن محمد بن عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربّه، عن أبيه.

لطائف المعاني والحكم، في افتتاحه بالتكبير وختمه بالتكبير مع التكرار، وقول: لا إله إلا الله في آخره، وأشهد أن لا إله إلا الله في أوله^(١)، وما تحت هذا كله من الحكم الإلهية التي تملأ الصدور هنية وتُنور القلوب بنور المحبة، وكذلك ما تضمنته الصلاة في شفعها ووترها والتكبير في أركانها، ورفع اليدين في افتتاحها، وتخصيص البقعة المكرمة بالتوجه إليها، مع فوائد الوضوء من الأحداث لها، فإن في ذلك كله من فوائد الحكمة، ولطائف المعرفة ما يزيد في ثلج الصدور، ويكحل عين البصيرة بالضياء والنور، ونعوذ بالله أن ننزع في ذلك بمنزوع فلسفي أو مقالة بدعي، أو رأي مجرّد من دليل شرعي، ولكن بتلويحات من الشريعة، وإشارات من الكتاب والسنة يغضد بعضها بعضاً، وينادي بعضها بتصديق بعض: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. لكن أضربنا في هذا الكتاب عن بث هذه الأسرار، فإن ذلك يخرج عن الغرض المقصود، ويشغل عما صمّدنا^(٢) إليه في أول الكتاب، ووعدنا به الناظر فيه من شرح لغات وأنساب وآداب، والله المستعان^(٣).

وقد عرفت رؤيا عبد الله بن زيد وكيفيتها برواية ابن إسحاق وغيره، ولم تُعرف كيفية رؤيا عمر حين أري النداء، وقد قال: قد رأيت مثل الذي رأى، لكن في مُسنَد الحارث بيان لها. روى الحارث [ابن أبي أسامة] في مُسنده أن رسول الله - ﷺ - قال: «أول من أذن بالصلاة جبريلُ أذن بها في سماء الدنيا فسمعه عمرُ وبلالُ فسبق عمرُ بلالاً إلى رسول الله - ﷺ - فأخبره بها، فقال عليه السلام لبلال: «سبقك بها

(١) قال بعضهم: الحكمة في قول المؤذن أولاً: «أشهد أن لا إله إلا الله» وفي نهايته «لا إله إلا الله» دون الشهادة؛ أنه قد يكون المؤذن كاذباً في شهادته الأولى وقوله: «أشهد أن لا إله إلا الله» قال تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك رسول الله﴾؛ فإنه إن كان كاذباً في شهادته الأولى وقوله: «أشهد أن لا إله إلا الله» إلا أنه صادق في قوله في نهاية الأذان: «لا إله إلا الله» ولهذا كانت خاتمة الأذان هذه الكلمة وليس الشهادة. فتأمل.

(٢) صمّدنا: أي توجّهنا إليه. انظر للمحقق «القول الأسنى في تفسير أسماء الله الحسنى».

(٣) انظر لابن القيم في أسرار الصلاة وفوائدها: «الوبل الصيب» (٣٤ - ٤٢) تارك الصلاة، شفاء العليل (٤٥٢) إغاثة اللفهان (١٠٧/١٠٨/١٤٦/١٥٦) حكم سماع الغناء (١١٣) وللمحقق كل ما تقدم وزيادة في كتاب «الصلاة وأسرارها».

قال ابن هشام: وذكر ابن جريج، قال: قال لي عطاء: سمعت عُبيد بن عُمَيْر اللَّيْثِي يَقُول: ائْتَمَر النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِالنَّاقُوسِ لِلْاجْتِمَاعِ لِلصَّلَاةِ، فَبَيْنَمَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُرِيدُ أَنْ يَشْتَرِيَ خَشَبَتَيْنِ لِلنَّاقُوسِ، إِذْ رَأَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي الْمَنَامِ: لَا تَجْعَلُوا النَّاقُوسَ، بَلْ أَدْنُوا لِلصَّلَاةِ. فَذَهَبَ عُمَرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيُخْبِرَهُ بِالَّذِي رَأَى، وَقَدْ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ الْوَحْيَ بِذَلِكَ، فَمَا رَاعَ عُمَرُ إِلَّا بِلَالًا يُؤَدِّنُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَخْبِرَهُ بِذَلِكَ: قَدْ سَبَقَكَ بِذَلِكَ الْوَحْيُ^(١).

ما كان يقوله بلال في الفجر:

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، عن امرأة من بني النجار، قالت: كان بيتي من أطول بيت حول المسجد، فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة، فيأتي بسحر، فيجلس على البيت ينتظر الفجر، فإذا رآه تمطى، ثم قال: اللهم إني أحمدك وأستعينك على قریش أن يُقيموا على دينك. قالت: والله ما علمته كان يتركها ليلة واحدة^(٢).

عمر^(٣)، وذكر باقي الحديث. وظاهر هذا الحديث أن عمرَ سمع ذلك في اليقظة، وكذلك رؤيا عبد الله بن زيد في الأذان رآها، وهو بين النائم واليقظان: قال: ولو شئت لقلت: كنت يَقْظَانًا.

فصل: وأما قولُ السائل: هل أذن رسول الله ﷺ بنفسه قط، فقد روى الترمذي من طريق يدور على عمر بن الرماح يرفعه إلى أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - أذن في سفر، وصلى بأصحابه، وهم على زواحلهم، السماء من فوقهم والبلدة من أسفلهم^(٤)، فتزع بعض الناس بهذا الحديث إلى أنه أذن بنفسه، وأسنده الدارقطني بإسناد الترمذي إلا أنه لم يذكر عمر بن الرماح، ووافقه فيما بعده من إسناده ومتن، لكنه قال فيه: فقام المؤذن، فأذن، ولم يقل: أذن رسول الله - ﷺ - والمتصل يقضي على المُجْمَلِ المُخْتَمَلِ، والله أعلم.

(١) انظر أيضًا مصنف عبد الرزاق (١٧٧٥) والبداية (٢٣٣/٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٩) بتحقيق. وفيه مجهول. وهي المرأة من بني النجار.

(٣) أخرجه الحارث بن أبي أسامة بسند ضعيف. انظر الطالب (٢٢٤) الفتح (٧٨/٢).

(٤) أخرجه الترمذي.

أبو قيس بن أبي أنس

قال ابن إسحاق: فلما اطمأنت برسول الله ﷺ داره، وأظهر الله بها دينه، وسره بما جمع إليه من المهاجرين والأنصار من أهل ولايته، قال أبو قيس صرمة بن أبي أنس، أخو بني عدي بن النجار.

قال ابن هشام: أبو قيس، صرمة بن أبي أنس بن صرمة بن مالك بن عدي بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار.

قال ابن إسحاق: وكان رجلاً قد ترهب في الجاهلية، ولبس المُسُوح، وفارق الأوثان، واغتسل من الجنابة وتطهر من الحائض من النساء، وهم بالنصرانية، ثم أمسك عنها، ودخل بيتاً له، فاتخذ مسجداً لا تدخله عليه فيه طاميت ولا جنب، وقال: أعبد رب إبراهيم، حين فارق الأوثان وكرهها، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فأسلم وحسن إسلامه، وهو شيخ كبير، وكان قوالاً لله عز وجل في جاهليته، يقول أشعاراً في ذلك

حديث صرمة بن أبي أنس^(١)

واسم أبي أنس: قيس بن صرمة بن مالك بن عدي بن عمرو بن غنم بن عدي بن النجار الأنصاري، وهو الذي أنزل الله فيه، وفي عمر رضي الله عنهما: ﴿أجل لكم ليلة الصيام الرفق إلى نسائكم﴾ [البقرة: ١٨٧] إلى قوله: ﴿وعفا عنكم﴾ فهذه في عمر، ثم قال: ﴿وكلوا واشربوا﴾ إلى آخر الآية، فهذه في صرمة بن أبي أنس، وذلك أن إتيان النساء ليلاً في رمضان كان محرماً عليهم في أول الإسلام بعد النوم، وكذلك الأكل والشرب كان محرماً عليهم بعد النوم فأما عمر، فأراد امرأته ذات ليلة، فقالت له: إني قد نمت، فقال: كذبت ثم وقع عليها، وأما صرمة فإنه عمل في حائطه وهو صائم، فجاء الليل وقد جهده الكلال فغلبته عينه قبل أن يفطر، فجاءته امرأته بطعام كانت قد صنعت له، فوجدته قد نام، فقالت له: الخبيثة لك حرم عليك الطعام والشراب فبات صائماً، وأصبح إلى حائطه يعمل فيه، فمر به رسول الله ﷺ، وهو طليح قد جهده العطش مع ما به من الجوع والنصب، فسأله رسول الله - ﷺ - فأخبره بقصته فرق عليه السلام، ودمعت عيناه، فأنزل الله تعالى الرخصة، وجاء بالفرج. بدأ بقصة عمر لفضله، فقال: ﴿فالآن باشرُوهم﴾ ثم بصرمة فقال: ﴿وكلوا واشربوا﴾ قال بعض أشياخ الصوفية: هذه العناية من الله أخطأ عمر خطيئة فرجمت الأمة بسببها.

(١) انظر الاستيعاب (١/٧٣٧).

جَسَانًا - وهو الذي يقول:

يَقُولُ أَبُو قَيْسٍ وَأَصْبَحَ غَادِيَا:	أَلَا مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ وَصَاتِي فافْعَلُوا
فَأَوْصِيَكُمْ بِاللَّهِ وَالْبِرِّ وَالتَّقَى	وَأَعْرَاضِكُمْ وَالْبِرِّ بِاللَّهِ أَوَّلُ
وَأَنْ قَوْمَكُمْ سَادُوا فَلَا تَخْسُدُونَهُمْ	وَأَنْ كُنْتُمْ أَهْلَ الرِّيَاسَةِ فاعْدِلُوا
وَأَنْ نَزَلَتْ إِحْدَى الدَّوَاهِي بِقَوْمِكُمْ	فَأَنْفُسَكُمْ دُونَ الْعَشِيرَةِ فاجعلوا
وَأَنْ تَابَ غُزْمٌ فَادِحٌ فَارْفُقُوهُمْ	وَمَا حَمَلُوكُمْ فِي الْمُلِمَاتِ فاحملوا
وَأَنْ أَنْتُمْ أَمْعَرْتُمْ فَتَعَفَّفُوا	وَأَنْ كَانَ فَضْلُ الْخَيْرِ فِيكُمْ فَأَفْضِلُوا

من شرح شعره:

وذكر من شعر صرمة:

فَأَوْصِيَكُمْ بِاللَّهِ وَالْبِرِّ وَالتَّقَى وَأَعْرَاضِكُمْ وَالْبِرِّ بِاللَّهِ أَوَّلُ

برفع البر على الابتداء، وأول خير له، وقد يحتمل في الظاهر أن يكون ظرفًا في موضع الخبر، ولكن لا يجوز ذلك في هذه الظروف المبينة على الضم أن تكون خير المبتدأ، لا تقول: الصلاة، قبل إلا أن تقول: قبل كذا، ولا الخروج بعد إلا أن تقول: بعد كذا، وذلك ليس دقيق قد حوّم عليهما ابن جني^(١) فلم يُصِبِ المَفْصِلَ، والذي منع من ذلك أن هذه الغايات إنما تعمل فيها الأفعال المَلْفُوظُ بها لأنها غايات لأفعال متقدمة، فإذا لم تأتِ بفعل يعمل فيها، لم تكن غايةً لشيء مذكور، وصار العامل فيها معنويًا، وهو: الاستقرار، وهي مضافة في المعنى إلى شيء، والشيء المضاف إليه معنوي، لا لفظي، فلا يدل العامل المعنوي على معنوي آخر، إنما يدل عليه الظاهر اللفظي، فتأملُه، فالضمة في أول على هذا حركة إعراب، لا حركة بناء، ولو قال: ابدأ بالبر أول لكنت حركة بناء، لكن من رواه: والبر بالله أول بخفض الراء من البر فأول حينئذ ظرف مبني على الضم يعمل فيه: أوصيكم.

وفيه:

وَأَنْ أَنْتُمْ أَمْعَرْتُمْ فَتَعَفَّفُوا

الإمعار: الفقر.

(١) انظر الخصائص لابن جني (٢/٣٦٢).

قال ابن هشام: ويروى:

وإن ناب أمر فادح فازفدوهم

قال ابن إسحق: وقال أبو قيس صرمة أيضًا:

سَبِّحُوا اللَّهَ شَرْقَ كُلِّ صَبَاحٍ	طلعت شمسُه وكُلَّ هِلَالٍ
عالم السَّرِّ والبَيَانِ لَدَيْنَا	ليس ما قال ربُّنا بضلال
وله الطَّيْرُ تَسْتَزِيدُ وتَأْوِي	في وكور من آمِنَاتِ الجبال
وله الوحشُ بالفلاة تراها	في حِفافٍ وفي ظلال الرِّمال
وله هَوْدَتُ يَهُودٍ ودانت	كُلَّ دينٍ إذا ذَكَرَتْ عُضَال
ولَه شَمْسُ النَّصَارَى وقاموا	كُلَّ عِيدٍ لربِّهم واختِفَال
وله الرَّاهِبُ الحَبِيسُ تراه	رَهْنَ بُؤْسٍ وكانَ ناعِمَ بال

ومن شعره:

سَبِّحُوا اللَّهَ شَرْقَ كُلِّ صَبَاحٍ طلعت شمسُه وكُلَّ هِلَالٍ

الشرق: طلوع الشمس، وهو من أسمائها أيضًا، وكذلك الشَّرْقُ بفتح الراء وكُلَّ هلال بالنصب على الظرف، أي: وقت كُلِّ هلال، ولو قلت في مثل هذا: وكُلَّ قمر على الظرف، لم يجز، لأن الهلال قد أُجْرِيَ مُجْرَى المصادر في قولهم: الليلة الهلال؛ فلذلك صح أن يكون ظرفًا لأن المصادر قد تكون ظروفًا لمعانٍ وأسرارٍ ليس هذا موضعًا لذكرها، ولو خفضت وكُلَّ هلال عطفًا على صباح، لم يجز لأن الشرق لا يضاف إلى الهلال كما يضاف إلى الصباح.

وفيه:

وله شَمْسُ النَّصَارَى

يعني دين الشَّمَاوِسَةِ^(١)، وهم الرُّهْبَانُ لأنهم يُشَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ، يريدون تعذيبَ النفوسِ بذلك في زعمهم.

(١) الشماسة: جمع شماس، خادم الكنيسة أقل رتبة من القسيس - ألا لعنة على الكافرين جميعًا.

يا بَنِي الْأَرْحَامِ لَا تَقْطَعُوهَا وَصَلُّوهَا قَصِيرَةً مِنْ طَوَالٍ
 وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي ضِعَافِ الْيَتَامَى رُبَّمَا يُسْتَحَلُّ غَيْرُ الْحَلَالِ
 وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلْيَتِيمِ وَلِيًّا عَالِمًا يَهْتَدِي بِغَيْرِ السَّوَالِ
 ثُمَّ مَالِ الْيَتِيمِ لَا تَأْكُلُوهُ إِنَّ مَالِ الْيَتِيمِ يَرْعَاهُ وَالِي

وفيه:

يا بَنِي الْأَرْحَامِ لَا تَقْطَعُوهَا

بنصب الأرحام، وهو أجود من الرفع في هذا الموضع للنهي.

وقوله:

وَصَلُّوهَا قَصِيرَةً مِنْ طَوَالٍ

وقد أملينا فيها في غير هذا الكتاب ما نعيده ههنا بحول الله، وأملينا أيضًا في معنى الرَّجْمِ واشتقاق الأم لإضافة الرَّحْمِ إليها، ووضعها فيه عند خلق آدم وحواء، وكون الأم أعظم حَقًّا في البرِّ من الأب، مع أنها في الميراث دونه أسرارًا بديعة، ومعاني لطيفة أودعناها كتاب الفرائض وشرح آيات الوصية، فلتنظر هنالك.

وأما قوله: قَصِيرَةً مِنْ طَوَالٍ، فيحتمل تأويلين أحدهما: أن يريد: صَلُّوا قَصْرَهَا مِنْ طَوِيلِكُمْ، أي: كونوا أنتم طوالاً بالصَّلَاةِ والبرِّ إن قصرت هي، وفي الحديث: أنه قال لأزواجه: «أَسْرَعُكُمْ لِحَوْقًا بِي: أَطَوَّلُكُمْ يَدًا فَاجْتَمَعْنَ يَتَطَاوَلْنَ، فطالتهن سَوْدَةٌ، فماتت زينب أولهن»^(١) أراد الطَّوْلُ بالصدقة والبر، فكانت تلك صفة زينب بنت جَحْشٍ. والتأويل الآخر: أن يريد مدحًا لقومه بأن أرحامهم قصيرة النسب، ولكنها من قوم طوال كما قال:

أَحَبُّ مِنَ النُّسْوَانِ كُلِّ طَوِيلَةٍ لَهَا نَسَبٌ فِي الصَّالِحِينَ قَصِيرُ

وقال الطائي:

أَنْتُمْ بَنُو النَّسَبِ الْقَصِيرِ وَطَوِيلِكُمْ بَادٍ عَلَى الْكِبَرِ وَالْأَشْرَافِ

وَالنَّسَبُ الْقَصِيرُ: أن يقول: أنا ابنُ فلانٍ فيُعرف، وتلك: صفة الأشراف، ومَنْ ليس بشريف لا يُعرف حتى يَأْتِيَ بِنَسَبٍ طَوِيلَةٍ يَبْلُغُ بِهَا رَأْسَ الْقَبِيلَةِ. وقد قال زُؤَيْبَةُ: قال لي

(١) «صحيح». أخرجه مسلم في الفضائل (١٠١) والحاكم (٢٥/٤) والطحاوي في المشكل (٨٢/١).

يا بَنِي، التَّخُومَ لَا تَخْزِلُوهَا إِنَّ خَزَلَ الثُّخُومَ ذُو عُقَالٍ
يا بَنِي الْأَيَّامِ لَا تَأْمَنُوهَا واحذروا مَكْرَهَا وَمِرَّ اللَّيَالِي
واعلموا أَنَّ مَرَّهَا لِنَفَادِ الْخَلْدِ لِقَى مَا كَانَ مِنْ جَدِيدٍ وَبَالِي
واجتمعوا أَمْرَكُمْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقَى سَوَى وَتَرَكَ الْحَنَّا وَأَخَذَ الْحَلَالَ

وقال أَبُو قَيْسٍ صِرْمَةً أَيْضًا، يَذْكُرُ مَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَمَا خَصَّهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ نُزُولِ رَسُولِهِ ﷺ عَلَيْهِمُ:

ثَوَى فِي قُرَيْشٍ بَضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَى صَدِيقًا مُوَاتِيَا
وَيَغْرِضُ فِي أَهْلِ الْمَوَاسِمِ نَفْسَهُ فَلَمْ يَرَ مِنْ يَوْوِيٍّ وَلَمْ يَرِ دَاعِيَا
فَلَمَّا أَتَانَا أَظْهَرَ اللَّهُ دِيْنَهُ فَأَصْبَحَ مَسْرُورًا بِطِيبَةِ رَاضِيَا
وَأَلْفَى صَدِيقًا وَاطْمَأْنَنَتْ بِهِ النَّوَى وَكَانَ لَهُ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ بِادِيَا
يَقْصُصُ لَنَا مَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ وَمَا قَالَ مُوسَى إِذْ أَجَابَ الْمَنَادِيَا
فَأَصْبَحَ لَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا قَرِيبًا وَلَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ نَائِيَا
بَذَلْنَا لَهُ الْأَمْوَالَ مِنْ حَلٍّ مَالِنَا وَأَنْفُسَنَا عِنْدَ الْوَعَى وَالتَّأْسِيَا
وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا شَيْءَ غَيْرِهِ وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَفْضَلُ هَادِيَا
نُعَادِي الَّذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبَ الْمُصَافِيَا
أَقُولُ إِذَا أَدْعُوكَ فِي كُلِّ بَيْعَةٍ: تَبَارَكَتْ قَدْ أَكْثَرْتُ لَأَسْمَكَ دَاعِيَا
أَقُولُ إِذَا جَاوَزْتُ أَرْضًا مَخُوفَةً حَنَانِيكَ لَا تُظْهِرُ عَلَيَّ الْأَعَادِيَا

النَّسَابَةُ: مَنْ أَنْتَ انْتَسَبَ، فَقُلْتُ: رُؤْيَةُ بِنِ الْعَجَّاجِ، فَقَالَ: قَصَّرْتَ وَعُرِفْتَ. وَقَوْلُهُ:

إِنْ خَزَلَ الثُّخُومَ ذُو عُقَالٍ

الثُّخُومُ: جَمْعُ: تَخُومَةٍ، وَمَنْ قَالَ: تَخَمْتُ فِي الْوَاحِدِ، قَالَ: فِي الْجَمْعِ تُخُومٌ بِضَمِّ
التَّاءِ، وَأَرَادَ بِهَا الْأَرْفَ [أَوِ الْأَرْضَ] وَهِيَ الْحُدُودُ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: الثُّخُومُ وَالتُّخُومُ:
حُدُودُ الْبِلَادِ وَالْقُرَى، وَلَمْ يَذْكُرْ فِي حُدُودِ الْأَخْقَالِ الْأَرْفَ. وَالْعُقَالُ: مَا يَمْنَعُ الرَّجُلَ مِنَ
الْمَشْيِ، وَيَغْلِقُهَا يَرِيدُ أَنَّ الظِّلْمَ يُخْلَفُ صَاحِبَهُ وَيَعْقِلُهُ عَنِ السَّبَاقِ، وَيَخْبِسُهُ فِي مَضَابِقِ
الْإِخْتِقَاقِ.

فَطَأُ مُغْرِضًا إِنْ الْحُتُوفَ كَثِيرَةٌ وَإِنَّكَ لَا تُبْقِي لِنَفْسِكَ بَاقِيَا
فَوَاللهِ مَا يَذْرِي الْفَتَى كَيْفَ يَتَّقِي إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللهُ وَاقِيَا
وَلَا تَحْفِلُ النَّخْلُ الْمُعِيْمَةَ رَبُّهَا إِذَا أَصْبَحَتْ رَبًّا وَأَصْبَحَ ثَاوِيَا
قال ابن هشام: البيت الذي أوله:

فَطَأُ مُغْرِضًا إِنْ الْحُتُوفَ كَثِيرَةٌ

والبيت الذي يليه:

فَوَاللهِ مَا يَذْرِي الْفَتَى كَيْفَ يَتَّقِي

وذكر قصيدته الياثية، وقال فيها: فَطَأُ مُغْرِضًا. البيت، قال ابن هشام: هو لأَفْتُونُ التَّغْلِييِّ، واسمه صُرَيْمُ بْنُ مَعْشَرٍ [بن دُحْلٍ بن تَيْم بن عمرو بن عمرو بن مالك بن حَبِيب بن عمرو بن عَنَم بن تغلب]. قال المؤلف وسمي أَفْتُونًا في قول ابن دُرَيْدٍ لبيت قاله فيه:

مَنْيَتَنَا الْوُدَّ يَا أَفْتُونُ مَظْنُونُ

أو نحو هذا اللفظ. والأَفْتُونُ: الغَضَنُ الناعم، والأَفْتُونُ أيضًا العجوز الفانية، وأفْتُونُ هو الذي يقول:

لَوْ أَنَّنِي كُنْتُ مِنْ عَادٍ وَمِنْ إِرَمٍ غَزِيٍّ بِهِمْ وَلُقْمَانٍ وَذِي جَدَنِ
لَمَّا وَقَّوْا بِأَخِيهِمْ مِنْ مُهَوَّلَةٍ أَخَا السَّكُونِ وَلَا جَارُوا عَنِ السَّنَنِ
أَتَى جَزَوْا عَامِرًا سَوْءٍ بِفِعْلِهِمْ أَمْ كَيْفَ يَجْزُونَنِي الشَّوْءَ مِنَ الْحَسَنِ
أَمْ كَيْفَ يَنْفَعُ مَا تُعْطِي الْعَلُوقُ بِهِ رِثْمَانُ أَتَفٍ إِذَا مَا ضَنَّ بِاللَّبَنِ^(١)

وقول ابن هشام في البيتين: فَطَأُ مُغْرِضًا والذي بعده أنهما لأَفْتُونِ التَّغْلِييِّ مذكور عند أهل الأخبار، ولها سبب ذكرها أن أَفْتُونًا خرج في ركب، فمروا بَرَبْوَةٍ تعرف: بالإلهة^(٢)، وكان الكاهن قبل ذلك قد حدثه أنه يموت بها، فمر بها في ذلك الركب، فلما أشرفوا عليها وأُغْلِمَ بِاسْمِهَا، كَرِهَ الْمُرُورَ بِهَا، وَأَبَا أَوْصَابَهَا إِلَّا أَنْ يَمُرُّوا بِهَا، وَقَالُوا لَهُ: لَا تَنْزِلْ عِنْدَهَا، وَلَكِنْ نَجُوزْهَا سَعْيًا، فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا بَرَكْتَ بِهِ نَاقَتُهُ عَلَى حَيَّةٍ، فَنَزَلَ لِيَنْظُرَ فَتَهَشَّتْهُ الْحَيَّةُ، فَمَاتَ، فَقَبِرَهُ هُنَالِكَ، وَقِيلَ فِي حَدِيثِهِ: إِنَّهُ مَرَّ بِهَا لَيْلًا، فَلَمْ يَعْرِفْ بِهَا حَتَّى رَبَضَ الْبَعِيرُ

(١) انظر الفضليات (٣٠/٢) والبيان والتبيين (٩/٢) وأمالى القالي (٥١/٢).

(٢) الإلهة: موضع بين ديار تغلب والشام.

لأَفْنُونِ التَّغْلِيْبِيِّ، وَهُوَ صُرَيْمُ بْنُ مَعْشَرٍ، فِي أَيْيَاتِ لَهُ.

الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ عِنْدَ الْإِلَهِةِ فَجَزَعَ، فَقِيلَ لَهُ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ، فَقَالَ: فَلِمَ رَبَضَ الْبَعِيرُ، فَأَرْسَلَهَا مَثَلًا. ذَكَرَهُ يَعْقُوبُ، وَعِنْدَمَا أَحْسَسَ بِالْمَوْتِ قَالَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَبَعْدَهُمَا:

كَفَى حَزَنًا أَنْ يَزْحَلَ الرُّكْبُ غُدُوَّةً وَأُتْرِكَ فِي جَنْبِ الْإِلَهِةِ ثَاوِيَا

الأعداء من يهود

قال ابن إسحاق: وَنَصَبَتْ عِنْدَ ذَلِكَ أَجْبَارُ يَهُودَ - لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَدَاوَةَ، بَغْيًا وَحَسَدًا وَضَغْنًا، لَمَّا خَصَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْعَرَبَ مِنْ أَخْذِهِ رَسُولَهُ مِنْهُمْ، وَإِنْضَافِ إِلَيْهِمْ رِجَالًا مِنَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، مِمَّنْ كَانَ عَلَى جَاهِلِيَّتِهِ فَكَانُوا أَهْلَ نِفَاقٍ عَلَى دِينِ آبَائِهِمْ مِنَ الشُّرْكِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْبَعْثِ، إِلَّا أَنَّ الْإِسْلَامَ قَهَرَهُمْ بِظُهُورِهِ وَاجْتِمَاعِ قَوْمِهِمْ عَلَيْهِ، فَظَهَرُوا بِالْإِسْلَامِ، وَاتَّخَذُوهُ جُنَّةً^(١) مِنَ الْقَتْلِ وَنَافَقُوا^(٢) فِي السَّرِّ، وَكَانَ هَوَاهُمْ مَعَ يَهُودَ لَتَكْذِيبِهِمُ النَّبِيَّ - ﷺ - وَجُحُودِهِمُ الْإِسْلَامَ. وَكَانَتْ أَجْبَارُ يَهُودَهُمُ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ - رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - وَيَتَعَتَّنُونَهُ، وَيَأْتُونَهُ بِاللُّبْسِ، لِيَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، فَكَانَ الْقُرْآنُ يَنْزِلُ فِيهِمْ فِيمَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ، إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْمَسَائِلِ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسْأَلُونَ عَنْهَا.

من يهود بني النضير:

منهم: حَيَّيْ بْنِ أَخْطَبَ، وَأَخُوهُ أَبُو يَاسِرَ بْنِ أَخْطَبَ، وَجُدَيْيَ بْنِ أَخْطَبَ،

تسمية اليهود الذين نزل فيهم القرآن

ذكر فيهم جُدَيْيَ بْنِ أَخْطَبَ، بِالْجِيمِ، وَهُوَ أَخُو حَيَّيِّ بْنِ أَخْطَبَ، وَأَمَّا حُدَيْيَ بِالْهَاءِ،

(١) جُنَّةٌ: أَي سَاتِرًا وَحِجَابًا وَوَقَايَةً مِنَ الْقَتْلِ.

(٢) النِّفَاقُ: لَفْظَةٌ قُرْآنِيَّةٌ، وَالْمُنَافِقُ هُوَ الَّذِي يُظْهِرُ الْإِسْلَامَ وَبُطْنُ الْكُفْرِ، أَخَذَتْ الْكَلِمَةَ مِنَ نَافِقَاءِ الْيَرْبُوعِ، وَهُوَ حَيَّوَانٌ لِدَاهُ بَابَانِ يَدْخُلُ مِنْ أَحَدِهِمَا عِنْدَ الْهَرَبِ مِنْ مَفْتَرِسِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ الْآخَرِ دُونَ أَنْ يَرَاهُ الْمَفْتَرِسُ، وَالنِّفَاقُ نِفَاقَانِ عَمَلِيٌّ وَاعْتِقَادِيٌّ، وَالْعَمَلِيُّ هُوَ الَّذِي جَاءَ الْحَدِيثُ بِالنِّهْيِ عَنْهُ «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ - خَمْسٌ». وَالْإِعْتِقَادِيُّ كَنِفَاقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلُولٍ، وَالْأَوَّلُ لَا يَخْرُجُ مِنَ الْمَلَةِ وَالثَّانِي يَخْرُجُ مِنَ الْمَلَةِ. وَكَانَ النِّفَاقُ مَعْرُوفًا بِمَكَّةَ، إِنَّمَا ظَهَرَ فِي الْمَدِينَةِ. وَالْعِيَاذُ مِنَ النِّفَاقِ وَالشَّقَاقِ.

وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وسلام بن أبي الحقيق، أبو رافع الأعور، وهو الذي قتله أصحاب رسول الله ﷺ بخيبر - والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وعمرو بن جحاش، وكعب بن الأشرف، وهو من طييء، ثم أحد بني نبهان، وأمه من بني النضير، والحجاج بن عمرو، حليف كعب بن الأشرف، وكزدم بن قيس، حليف كعب بن الأشرف، فهؤلاء من بني النضير.

من يهود بني ثعلبة:

ومن بني ثعلبة بن الفطيتون: عبد الله بن صوريا الأعور، ولم يكن بالحجاز في زمانه أحد أعلم بالتوراة منه؛ وابن صلوبا، ومخيريق، وكان خبرهم، أسلم.

من يهود بني قينقاع:

ومن بني قينقاع: زيد بن اللصيت - ويقال: ابن اللصيت - فيما قال ابن هشام - وسعد بن حنيف، ومحمود بن سنيحان، وعزير بن أبي عزير، وعبد الله بن صيف. قال ابن هشام: ويقال: ابن صيف.

قال ابن إسحق: وسويد بن الحارث، ورفاعة بن قيس، وفنحاص، وأشيع، ونعمان بن أضأ، وبخري بن عمرو، وشأس بن عدي، وشأس بن قيس، وزيد بن الحارث، ونعمان بن عمرو، وسكين بن أبي سكين، وعدي بن زيد، ونعمان بن أبي أوفى، أبو أنس، ومحمود بن دخية، ومالك بن صيف. قال ابن هشام: ويقال: ابن صيف.

فذكره الدارقطني في نسب عتيبة بن الحارث بن شهاب بن حدي التميمي فارس العرب.

وذكر عزير بن أبي عزير وألفت بخط الحافظ أبي بحر في هذا الموضع يقول عزيز بن أبي عزيز، بزائين قيدناه في الجزء قبل.

وذكر ثعلبة بن الفطيتون والفطيتون كلمة عبرانية، وهي عبارة عن كل من ولي أمر اليهود، وملكهم، كما أن التجاشي عبارة عن كل من ملك الحبشة، وخاقان ملك الترك، وقد تقدم من هذا الباب جملة.

وذكر فيهم عبد الله بن صوريا الأعور، وكان أعلمهم بالتوراة، ذكر النقاش أنه أسلم لما تحقق من صفات محمد - ﷺ - في التوراة، وأنه هو وليس في سيرة ابن إسحق ذكر إسلامه.

قال ابن إسحاق: وكعب بن راشد، وعازر، ورافع بن أبي رافع، وخالد وأزار بن أبي أزار. قال ابن هشام: ويقال: آزر بن آزر.

قال ابن إسحاق: ورافع بن حارثة، ورافع بن حُريملة، ورافع بن خارجة، ومالك بن عوف، ورفاعة بن زيد بن التابوت، وعبد الله بن سلام بن الحارث، وكان حَبَرَهُمْ وأَعْلَمَهُمْ، وكان اسمه الحُصَيْن، فلما أسلم سَمَّاه رسولُ الله ﷺ - عبدَ الله. فهؤلاء من بني قَيْنُقَاع.

من يهود بني قريظة:

ومن بني قُرَيْظَةَ: الزُّبَيْر بن بَاطا بن وَهَب، وَعَزَال بن شَمْوِيل، وكعب بن أسد، وهو صاحب عقد بني قُرَيْظَةَ الذي نُقِضَ عام الأحزاب، وشَمْوِيل بن زيد، وجَبَل بن عمرو بن سُكَيْنَةَ، والثَّحَام بن زيد، وقَزْدَم بن كعب، ووهب بن زيد، ونافع بن أبي نافع، وأبو نافع، وعدِي بن زَيْد، والحارث بن عَوْف، وكَزْدَم بن زيد، وأَسَامَةَ بن حَبِيب، ورافع بن رُمَيْلَةَ، وجَبَل بن أَبِي قُشَيْر، وَوَهْب بن يَهُوذَا، فهؤلاء من بني قُرَيْظَةَ.

من يهود بني زريق:

ومن يهود بني زُرَيْق: لَيْد بن أَعْصَم، وهو الذي أَخَذَ رسولُ الله ﷺ عن نسائه.

يهود المدينة:

فصل: وقوله: ومن يَهُودِ بني زُرَيْق، ومن يهود بني حارثة، وذكر قبائل من الأنصار، وإنما اليهودُ بنو إسرائيل، وجملة من كان منهم بالمدينة وخيبر إنما هم [بنو] قُرَيْظَةَ [وبنو] النُّضَيْرِ وَبَنُو قَيْنُقَاع، غير أن في الأوسِ والخَزَرَج من قد تَهَوَّد، وكان من نسائهم مَنْ تَنَذَرُ إذا ولدت إن عاش وَلَدُهَا أَنْ تَهَوِّدَهُ، لأن اليهودَ عندهم كانوا أهلَ علم وكتاب، وفي هؤلاء الأبناء الذين تَهَوَّدُوا نزلت ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] حين أراد آبائهم إكراههم على الإسلام في أحد الأقوال.

السحر المنسوب إلى النبي ﷺ^(١):

وأما لَيْدُ بن الأَعْصَم، الذي ذكره من يَهُودِ بني زُرَيْق، وقال: هو الذي أَخَذَ رسولُ الله ﷺ عن نسائه يعني من الأخْذَةِ، وهي ضَرْبٌ من السحر. في الخبر أن القاسم بن

(١) انظر الحديث في البخاري (١٩٩/١٠) ومسلم في السلام (٢١٨٩) وانظر مزيد بيان في علاج السحر وغيره (زاد المعاد) (١٢٤/٤).

محمد ابن الحنفية، كان مُؤَخِّدًا عن مسجد النبي - ﷺ - لا يستطيع أن يدخله، وكان لبيد هذا قد سَحَرَ رسول الله - ﷺ، وجعل سحره في مُسْطٍ ومُشَاطَةٍ. وروي: مُشَاقَّةٌ بالقاف، وهي مُشَاقَّةُ الكَثَانِ، وَجُفٌ طَلْعَةٌ^(١) ذكر، هي فُحَالُ النخل، وهو دُكَارُهُ. والجُفُّ: غلاف للطلْعَةِ، ويكون لغيرها، ويقال للجُفِّ القِيْقَاءُ وتُضَنَعُ منه آنيةٌ يقال لها: التَّلَاتِلُ [جمع: تَلْتَلَةٌ] قاله أبو حنيفة ودفنه في بئر ذي أَرْوَانَ، وأكثر أهل الحديث يقولون: دَزَوَانَ تحت رَاغُوفَةِ البئر [أو أَرْغُوفَتِهَا]، وهي صخرة في أسفلها يقف عليها المائِح^(٢)، وهذا الحديث مشهورٌ عند الناس، ثابت عند أهل الحديث، غير أنني لم أجِد في الكتب المشهورة: كم لَبِث - رسول الله ﷺ - بذلك السحر، حتى شَفِي منه، ثم وقعت على البيان في جامع مَعْمَرِ بْنِ رَاشِدٍ. رَوَى مَعْمَرٌ عن الزُّهْرِيِّ، قال: سَحَرَ رسولُ الله ﷺ سنةً يُخَيَّلُ إليه أنه يفعل الفعل، وهو لا يفعله، وقد طَعَنَتِ المعتزلةُ في هذا الحديث وطوائفٌ من أهل البدع، وقالوا: لا يجوز على الأنبياء أن يُسَحَرُوا، ولو جاز أن يُسَحَرُوا، لجاز أن يُجَنُّوا. ونَزَعَ بقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] والحديث ثابتٌ خَرَّجَهُ أَهْلُ الصَّحِيحِ، ولا مَطْعَنٌ فيه من جَهَةِ النُّقْلِ، ولا من جَهَةِ الْعَقْلِ، لأنَّ الْعِصْمَةَ إِنَّمَا وَجَبَتْ لَهُمْ فِي عَقُولِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ، وَأَمَّا أَبْدَانُهُمْ، فَإِنَّهُمْ يُتَنَلَّوْنَ فِيهَا، وَيَخْلَصُ إِلَيْهِمْ بِالْجِرَاحَةِ وَالضَّرْبِ وَالسَّمُومِ وَالْقَتْلِ، وَالْأَخْذَةُ الَّتِي أَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مِنْ هَذَا الْفَنِّ، إِنَّمَا كَانَتْ فِي بَعْضِ جَوَارِحِهِ دُونَ بَعْضٍ^(٣).

أما قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فإنه قد روي أنه كان يُخْرَسُ فِي الْغَزْوِ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَأَمَرَ خُرَّاسَهُ أَنْ يَنْصَرِفُوا عَنْهُ، وَقَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِكُمْ، فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ مِنَ النَّاسِ، أَوْ كَمَا قَالَ^(٤).

(١) الطلع: قطعة من النخلة.

(٢) المائِح: المستقي.

(٣) وفيه أيضًا الدليل على بشرية الرسول ﷺ بمعناها المعلوم عند كل ذي لب، لا كما قال كثير من أهل الطرق الصوفية: أن له بشرية ولكنها تخالف البشرية التي عليها بنو آدم، ومن ثم أنكر بعضهم حديث البخاري ومسلم السابق ذكره آنفًا في قصة السحر، هذا وكما استخدم اليهود أسس السحر في محاولة على القضاء على النبي ﷺ وعلى أتباعه عند هجرتهم من مكة إلى المدينة، عاد أعداء الله اليوم يهودًا ونصارى - على معاودة الكرة مرة أخرى في محاولة للقضاء على الإسلام والمسلمين، فكان من آثار هذا الاستخدام الشيطاني لتسخير الجن وإرساله لإيذاء المسلمين والمسلمات والأطفال ما انتشر في [مصر] من إغماء للفتيات، ومن مس الجن للإنس واعترافهم أنهم إنما أُرسِلوا من قِبَل الكنائس لإيذاء المسلمين، فانتبه.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٠٤٦).

من يهود بني حارثة:

ومن يهود بني حارثة: كنانة بن صُورِيا.

من يهود بني عمرو:

ومن يهود بني عمرو بن عَوْف: قُزْدَم بن عمرو.

من يهود بني النجار:

ومن يهود بني النجار: سِلْسِلَة بن بَرْهَام.

فقه حديث السحر:

وأما ما فيه من الفقه، فإن عائشة قالت له: هَلَا تَنْشُرُ^(١)، فقال: أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أُثِيرَ على الناسِ شَرًّا، وهو حديث مُشْكِل في ظاهره، وإنما جاء الإشكال فيه من قِبَلِ الرُّوَاةِ، فإنهم جعلوا جوابين لكلامين كلامًا واحدًا، وذلك أن عائشة قالت له أيضًا: هَلَا اسْتَخْرَجْتَهُ، أي: هلا استخرجت السحر من الجُفِّ والمُشَاطَةِ، حتى ينظر إليه، فلذلك قال: وأكره أن أُثِيرَ على الناسِ شَرًّا، قال ابن بطال: كَرِهَ أن يخرجَه. فيتعلَّم منه بعضُ الناس، فذلك هو الشر الذي كَرِهَه.

قال المؤلف: ويجوز أن يكون الشرُّ غيرَ هذا، وذلك أن الساحرَ كان من بني زُرَيْقٍ، فلو أظهر سحرَه للناس، وأراهم إياه لأَوْشَكَ أن يُريدَ طائفةً من المسلمين قتله، ويتعصبَ له آخرون من عَشِيرَتِهِ فَيُثَوِّرَ شَرًّا كما ثار في حديث الإِفْكِ من الشرِّ ما سيأتي بيانه.

وقول عائشة: هلا استخرجته هو في حديثين رواهما البخاري جميعًا، وأما جوابه لها في حديث: هَلَا تَنْشُرُ: بقوله: أما أنا فقد شفاني الله، وجوابه لها حين قالت: هلا استخرجته: بأن قال: أكره أن أُثِيرَ على الناسِ شَرًّا، فلما جمع الراوي بين الجوابين في حديث واحد اسْتَغْلَقَ الكلامَ، وإذا نُظِرَتِ الأحاديثُ متفرقة تُبَيِّنُ، وعلى هذا النحو سَرَحَ هذا الحديثُ ابنُ بطال.

وأما الفقه الذي أشرنا إليه فهو إباحة النُشْرَةِ من قول عائشة: هلا تَنْشُرُ، ولم ينكر عليها قولها.

(١) النشرة: ضرب من الرقى.

فهؤلاء أحبار اليهود، أهل الشرور والعداوة لرسول الله - ﷺ - وأصحابه، وأصحاب المسألة، والنضب لأمر الإسلام الشرور ليطفئوه، إلا ما كان من عبد الله بن سلام ومُخَيَّرِيق.

إسلام عبد الله بن سلام

قال ابن إسحق: وكان من حديث عبد الله بن سلام، كما حدثني بعض أهله عنه. وعن إسلامه حين أسلم، وكان حبراً عالماً، قال: لما سمعتُ برسول الله ﷺ عَرَفْتُ صفته واسمَه وزمَانَه الذي كُنَّا نَتَوَكَّفُ له، فكنت مُسِرّاً لذلك، صامتاً عليه، حتى قَدِمَ

وذكر البخاري عن سعيد بن المسيَّب أنه سئل عن النُّشْرَةِ للذي يُؤْخَذُ عن أهله، فقال: لا بأسَ لم يَنه عن الصلاح، إنما نهي عن الفساد، ومن استطاع أن يَنْفَع أخاه فَلْيَفْعَلْ. ومن الناس من كره النُّشْرَةَ على العموم، ونَزَعَ بحديث خرَّجه أبو داود مَرْفُوعاً: «أن النُّشْرَةَ من عَمَلِ الشَّيْطَانِ»^(١)، وهذا - والله أعلم - في النُّشْرَةِ التي فيها الخَوَاتِمُ والعَزَائِمُ، وما لَا يُفْهَمُ من الأسماء العَجْمِيَّة، ولولا الإطالة المخرجة لنا عن غَرَضِنَا لَقَدَرْنَا الرُّخْصَةَ بِالْآثَارِ، وهذا القدر كَافٍ، والله المستعان. وكانتْ عَقْدُ السُّحْرِ أَحَدَ عَشَرَ عَقْدَةً، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى المَعُودَتَيْنِ أَحَدَ عَشَرَ آيَةً، فَانْحَلَّتْ بِكُلِّ آيَةٍ عَقْدَةٌ^(٢)، قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ الثَّفَائِتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ولم يقل الثَّفَائِتَيْنِ، وإنما كان الذي سحره رجلاً والجواب: أن الحديث قد رواه إسماعيل القاضي، وزاد في روايته أن زينب اليهودية أعانتْ لَيْبَدَ بن الأعصم على ذلك السحر، مع أن الأخَذَةَ في الغالب من عمل النساء وكيدهن.

إسلام عبد الله بن سلام^(٣)

سَلَامٌ هو بتخفيف اللام، ولا يوجد من اسمه سَلَامٌ بالتخفيف في المسلمين لأن السَلَامَ من أسماء الله، فيقال عبد السَلَامِ، ويقال: سَلَامٌ بالتشديد، وهو كثير، وإنما سَلَامٌ بالتخفيف في اليهود، وهو والد عبد الله بن سَلَامٍ منهم.

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٦٨) والبيهقي (٣٥١/٩) والبخاري في شرح السنة (١٥٩/١٢).

(٢) رُوِيَ مثل هذا من أسباب النزول وإسناده ضعيف.

(٣) له ترجمة في الطبقات (٣٥٢/٢) الإصابة (٣٢٠/٢) أسد الغابة (٢٦٤/٣) العبر (٥١/١) النجوم

الزاهرة (١٢٥/١) الاستيعاب (١٥٦١/٣) تهذيب الكمال (٧٤/١٥) التهذيب (٢٤٩/٥) التقريب

(٤٢٢/١) الفتاوى (٢٢٨/٣) مشاهير علماء الأمصار (٥٢) بتحقيق.

رسول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقباء، في بني عمرو بن عوف، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة ابنة الحارث تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرت، فقالت لي عمتي، حين سمعت تكبيري: خبيك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمًا ما زدت، قال: فقلت لها: أي عمّة، هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بُعث بما بُعث به. قال: أي ابن أخي، أهو النبي الذي كُنا نخبر أنّه يبعث مع نفس الساعة؟ قال: فقلت لها: نعم. قال: فقالت: فذاك إذا. قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ، فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتي، فأمرتهم فأسلموا.

قال: وكنتم إسلامي من يهود، ثم جئت رسول الله ﷺ، فقلتُ له: يا رسول الله، إن يهود قومٌ بُهت وإنّي أحبّ أنْ تدخلني في بعض بيوتك، وتغيّبني عنهم، ثم تسألهم عني، حتى يُخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يَعلَموا بإسلامي، فإنهم إن عَلِموا به يَهْتُوني وعابوني. قال: فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته، ودخلوا عليه، فكلّموه.

ذكر فيه قول عمته خالدة أهو النبي الذي كُنا نخبر أنّه يُبعث مع نفس الساعة، وهذا الكلام في معنى قوله عليه السلام: إني لأجد نفس الساعة بين كتفي، وفي معنى قوله: «نذير لكم بين يدي عذاب شديد» [سأ: ٤٦] ومن كان بين يدي طالبه، فنفس الطالب بين كتفيه، وكان النفس في هذا الحديث عبارة عن الفتن المؤدّة بقيام الساعة، وكان بذؤها حين ولى أمته ظهره خارجًا من بين ظهرانيهم إلى الله تعالى، ألا تراه يقول في حديث آخر: وأنا أمانٌ لأمتي، فإذا ذهب أتى أمتي ما يُوعدون، فكانت بعده الفتنة ثم الهزج المتصل بيوم القيامة، ونحو من هذا قوله عليه السلام: «بُعِثت أنا والساعة كهاتين»^(١)، يعني السبابة والوسطى، وهو حديث يزويه أنس بن مالك، وابن بُريدة عن أبيه، وجُبَيْر بن مُطْعِم، وجابر بن سَمُرَة وأبو هُرَيْرَة وسَهْل بن سعد كلهم عن رسول الله - ﷺ - وفي حديث سهل سَبَقَتْها بما سَبَقَتْ هذه هذه، يعني: الوسطى والسبابة، وفي بعض ألفاظ الحديث: إن كادَتْ لَتَسْبِقَنِي. ورواه أيضًا: أبو جُبَيْرَة فقال: قال رسول الله ﷺ: «جئت أنا والساعة كهاتين سَبَقَتْها كما سَبَقَتْ هذه هذه في نفس من الساعة، أو في نفس الساعة»^(٢)، خرجها الطبري بجميع أسانيدها، وبعضها في الصحيحين، وفي بعضها زيادة على بعض.

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٦٨/٧) ومسلم في الفتن (١٣٢) وأحمد (٢٢٢/٣) والبيهقي في الصفات (١٨٨) بتحقيقي. والهرج: القتل.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (١٦/١).

وسألوه، ثم قال لهم: أي رجل الحُصين بن سلام فيكم؟ قالوا: سيّدنا وابن سيّدنا، وحَبْرنا وعالمنا. قال: فلما فَرَّغُوا من قولهم، خرجتُ عليهم، فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصِفته، فإني أشهدُ أنه رسولُ الله ﷺ، وأومن به وأصدقُه وأعرفه، فقالوا: كذبت ثم وقعوا بي، قال: فقلت لرسول الله ﷺ ألم أُخبرك يا رسول الله أنهم قوم بُهتٌ، أهل غَدْر وكَذِب وفُجور! قال: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عَمَّتِي خالدة بنت الحارث، فحَسُنَ إسلامها.

حديث مخيريق:

قال ابن إسحق: وكان من حديث مُخَيَّرِيق، وكان حَبْرًا عالمًا، وكان رجلًا غنيًا كثير الأموال من النخل، وكان يغرف رسول الله ﷺ بصِفته، وما يجد في علمه، وغلب عليه إلفُ دينه، فلم يزل على ذلك، حتى إذا كان يوم أحد، وكان يوم أحد يوم السبت، قال: يا معشر يَهُودَ، والله إنكم لتعلمون أن نَصَرَ محمد عليكم لَحَقَّ. قالوا: إن اليوم يوم السبت؛ قال: لا سبت لكم. ثم أخذ سيّاحه، فخرج حتى أتى رسولَ الله ﷺ بأحد، وعهد إلى مَنْ وراءه من قومه: إن قُتِلْتُ هذا اليوم، فأموالي لمحمد - ﷺ - يصنع فيها ما أراه الله. فلما

وخالدة بنت الحارث قد ذكر إسلامها، وهي مما أغفله أبو عَمَر في كتاب الصحابة، وقد استدركنها عليه في جملة الاستدراكات التي ألحقناها بكتابه.

وذكر حديث مُخَيَّرِيق، وقال فيه: مُخَيَّرِيقُ خيرُ يهودَ، ومُخَيَّرِيقُ مسلم، ولا يجوز أن يقال في مسلم: هو خير النصارى، ولا خير اليهود، لأن أفعال من كذا إذا أضيف فهو بعض ما أضيف إليه^(١). فإن قيل: وكيف جاز هذا؟ قلنا: لأنه قال خير يهود، ولم يقل خير اليهود، ويهود اسم علم كَكُفُود، يقال: إنهم نسبوا إلى يَهُودَ بن يَغُوب، ثم عُرِبَتِ الذال دالًا، فإذا قلت: اليهود بالآلف واللام، احتمل وجهين النسب والدين الذي هو اليهودية^(٢)، أما النسب فعلى حد قولهم التَّيْمُ في التَّيْمِيْنَ، وأما الدين فعلى حَدِّ قولك: النصارى والمجوسُ أعني: أنها صِفة، لا أنها نَسَبٌ إلى أب. وفي القرآن لفظُ ثالث، لا يتصور فيه

(١) الذي قال هذا إنما هو النبي ﷺ!!!.

(٢) هو بالطبع ليس دينًا من عند الله تعالى إنما «الدين عند الله الإسلام» وهو الذي أرسل به موسى وعيسى ومحمد ومن سبقهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولعله يعني ما اتخذته اليهود شرعًا ومنهاجًا. فهو من معاني كلمة «الدين». انظر للمحقق «اللباب في تفسير فاتحة الكتاب» عند تفسير قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾.

اقتتل الناس قاتل حتى قُتل. فكان رسول الله - ﷺ - فيما بلغني - يقول: «مخيريق خير يهود»^(١). وقَبَضَ رسول الله ﷺ أمواله، فعامة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها.

شهادة عن صفية

قال ابن إسحاق: وحَدَّثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: حَدَّثت عن صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب أنها قالت: كنت أحبُّ ولِدَ أبي إليهِ، وإلى عَمِّي أبي ياسر، لم ألقهما قطَّ مع ولِدِ لهما إلا أخذاني دونه. قالت: فلما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قُباء، في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي، حُيَيُّ بنُ أخطب، وعمِّي: أبو ياسر بن أخطب، مُعَلِّسَيْن. قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. قالت: فَأَتَيَا كَالْتَيْنِ كَسَلَانَيْنِ ساقطينِ يمشيانِ الهَوْنَيْنِ. قالت: فهششتُ إليهما كما كنتُ أصنع، فوالله ما التفت إليَّ واحدٌ منهما، مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عَمِّي أبا ياسر، وهو يقول لأبي: حُيَيُّ بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله؛ قال: أتعرفه: وثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت.

إلا معنى واحد، وهو الدِّين دون النسب، وهو قوله سبحانه: ﴿وقالوا كونوا هُودًا أو نَصَارَى﴾ [البقرة: ١٣٥]. بحذف الياء، ولم يقل: كونوا يهودَ لأنه أراد التَّهَوُّد، وهو التَّدِينُ بدينهم، ولو قال: كونوا يَهُودًا بالتدين، لجاز أيضًا على أحد الوجهين المتقدمين، ولو قيل لقوم من العرب: كونوا يَهُودَ بغير تنوين. لكان محالاً، لأنَّ تبدِيلَ النَّسَبِ حقيقة محال، وقد قيل في هود: جمع هائد، وهو في معنى ما قلناه، فلتعرف الفرقَ بين قولك هودًا بغير ياء، ويهودًا بالياء والتنوين، ويهودَ بغير تنوين، فإنها تفرقة حسنة صحيحة والله أعلم ولم يُسَلِّم من أخبار يهودَ على عهد رسول الله ﷺ إلا اثنان. وقد جاء في الحديث: «لو اتبعني عَشْرَةٌ من اليهود لم يبق في الأرض يهودي إلا اتبعني»^(٢). رواه أبو هريرة. وسمع كعبُ الأخبار أبا هريرة يحدث، فقال له: إنما الحديث: اثنا عَشَرَ من اليهود، ومُضْداقُ ذلك في القرآن (وبعثنا منهم اثني عشر نقيبًا) فسكت أبو هريرة. قال ابن سيرين: أبو هُرَيْرَةَ أصدقُ من كعب. قال يحيى بن سَلَامَ كلاهما: (صدق)؛ لأن رسول الله ﷺ إنما أراد: لو اتبعني عَشْرَةٌ من اليهود بعد هذين اللذين قد أسلما^(٣).

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٨٣/٢/١) والبيهقي في الدلائل (١٨/١) وابن عساكر في تهذيبه (٢٤٥/٣) (٨٧/١٠). وانظر البداية (٢٣٧/٣) (٣٦/٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣٤٩/٢).

(٣) تأويل واستشهاد بالآية - بعيد - والله أعلى وأعلم.

مَنْ اجتمع إلى يهود من منافقي الأنصار

منافقو بني عمرو:

قال ابن إسحاق: وكان مِمَّنْ انضاف إلى يهود، ممن سَمِيَ لنا من المنافقين من الأوس والخزرج، والله أعلم. من الأوس، ثم من بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس؛ ثم من بني لؤدَان بن عمرو بن عوف: زُوَيِّ بن الحارث.

منافقو حبيب:

ومن بني حبيب بن عمرو بن عوف: جُلاس بن سُويد بن الصامت، وأخوه الحارث بن سويد.

من نفاق جلاس:

وجُلاس الذي قال - وكان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك - لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شرٌّ من الحُمُر. فرفع ذلك من قوله إلى رسول الله ﷺ - عُمر بن سعد، أحدهم، وكان في حُجر جُلاس، خلف جُلاس على أمه بعد أبيه، فقال له عُمر بن سعد: والله يا جُلاس، إنك لأحب الناس إليّ، وأحسنهم عندي يداً، وأعزهم عليّ أن يصيبه شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحتك، ولئن صمت عليها ليهلكن ديني، ولإحدهما أيسرُ عليّ من الأخرى. ثم مشى إلى رسول الله ﷺ، فذكر له ما قال جُلاس، فحلف جلاس بالله لرسول الله ﷺ: لقد كذب عليّ عُمر، وما قلتُ ما قال عُمر بن سعد. فأنزل الله عزّ وجلّ فيه: ﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

قال ابن هشام: الأليم: الموجه. قال ذو الرمة يصف إبلاً:

وتَرَفَع من صدور شَمَز دَلَاتٍ يَصُكّ وجوهها وهجّ أليم
وهذا البيت في قصيدة له.

ذكر المنافقين

فصل: وذكر تبتلاً من المنافقين، قال: وكان أدلّم، والأذلّم الأسود الطويل من كل شيء. وقيل لجماعة النمل: ديلّم، لسوادهم من كتاب العين.

قال ابن إسحق: فزعموا أنه تاب فحسنت توبته، حتى عُرف منه الخير والإسلام.

ارتداد الحارث بن سويد وغدره:

وأخوه الحارث بن سويد، الذي قتل المجذّر بن زياد البلّوي، وقيس بن زيد، أحد بني ضبيعة، يوم أحد. خرج مع المسلمين، وكان منافقًا، فلما التقى الناس عدا عليهما، فقتلها ثم لحق بقريش.

قال ابن هشام: وكان المجذّر بن زياد قتل سويد بن صامت في بعض الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج فلما كان يوم أحد طلب الحارث بن سويد غرة المجذّر بن زياد، ليقتله بأبيه، فقتله وحده، وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول: والدليل على أنه لم يقتل قيس بن زيد، أن ابن إسحق لم يذكره في قتل أحد.

قال ابن إسحق: قتل سويد بن صامت معاذ ابن عفراء غيلة، في غير حرب، رماه بسهم فقتله قبل يوم بُعث.

قال ابن إسحق: وكان رسول الله ﷺ - فيما يذكرون - قد أمر عمر بن الخطاب بقتله إن هو ظفر به، ففاته، فكان بمكة، ثم بعث إلى أخيه جلاس يطلب التوبة، ليرجع إلى قومه. فأنزل الله تبارك وتعالى فيه - فيما بلغني عن ابن عباس -: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦] إلى آخر القصة.

وذكر الحارث بن سويد، وقتله للمجذّر بن زياد. واسم المجذّر: عبد الله، والمجذّر: الغليظ الخلق.

وذكر أن الله تعالى أنزل في الحارث بن سويد وارتداده: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦] فقل إن هذه الآية مقصورة على سببها مخصوصة بمن سبق في علم الله أنه لا يهديه من كفره، ولا يتوب عليه من ظلمه، وإلا فالتوبة مفروضة، وقد تاب قوم بعد ارتدادهم فقبلت توبتهم. وقيل: ليس فيها نفى لقبول التوبة، فإنه قال: كيف يهدي الله، ولم يقل لا يهدي الله، على أنه قد قال في آخرها: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾^(١) وذلك يرجع إلى الخصوص، كما قدمنا أو إلى معنى الهداية في الظلمة التي

(١) فائدة: لا يهدي الله تعالى القوم الظالمين، ولكنه يهدي الذين ظلموا، وفزق بين الذين ظلموا وهم الذين ظلموا أنفسهم أو غيرهم. قال تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم...﴾ الآيات. فهؤلاء ظلموا أنفسهم بمعصيتهم، أما من تلبس بالظلم حتى صار =

منافقو بني ضبيعة:

ومن بني ضبيعة بن زيد بن مالك بن عَوْف بن عمرو بن عوف: بجاد بن عثمان بن عامر.

منافقو بني لوزان^(١):

ومن بني لوزان بن عمرو بن عوف: نَبْتَل بن الحارث، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ - فيما بلغني: من أحب أن ينظر إلى الشيطان، فلينظر إلى نَبْتَل بن الحارث، وكان رجلاً جسيماً أذلم، نثر شعر الرأس أحمر العينين، أسفع الخدين، وكان يأتي رسول الله ﷺ يتحدث إليه فيسمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وهو الذي قال: إنما محمد أذن، من حدثه شيئاً صدقه. فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلْ أُوذِيَ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ بِاللَّهِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض رجال^(٢) بلعجلان أنه حدث^(٣): أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ فقال له إنه يجلس إليك رجل أذلم، نثر شعر الرأس، أسفع الخدين أحمر العينين، كأنهما قذران من صُفْر، كبده أغلظ من كبده الحمار، ينقل حديثك إلى المنافقين، فاحذره. وكانت تلك صفة نَبْتَل بن الحارث، فيما يذكرون.

منافقو بني ضبيعة:

ومن بني ضبيعة: أبو حبيبة بن الأزعر، وكان ممن بنى مسجد الضرار، وثعلبة بن حاطب، ومُعْتَب بن قُشير، وهما اللذان عاهدا الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن

عند الصراط بالنور التام يوم القيامة، فإن ذلك مُنتَفٍ عَمَّن مات غير تائب من كفره وظلمه. والله أعلم^(٣).

= صفة لازمة لهم، فهؤلاء لا يهديهم الله، فجاء وصفهم باسم الفاعل «الظالمين» كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ولم يأت وصفهم بالفعل «ظلموا وكفروا». كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فتأمل.

(١) انظر البداية (٢٣٧/٣). (٢) مجاهيل.

(٣) انظر قصة ارتداده والحديث في النسائي في الكبرى (تفسير سورة آل عمران: ٨٥). وفي المجتبى (٤٠٦٨) وأحمد (٢٤٧/١) والطبري في تفسيره (٢٤١/٣) وابن حبان (١٧٢٨ - موارد) والحاكم (١٤٢/٢) وصححه وأقره الذهبي - وهو كما قال - والواحد في أسباب النزول (٨٤).

من الصالحين، الخ القصة. ومعتب الذي قال يوم أحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا. فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَةِ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] إلى آخر القصة. وهو الذي قال يوم الأحزاب: كان محمد يعدنا أن نأكل كُنُوز كسرى وقِيَصْر، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط. فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(١) والحرث بن حاطب.

معتب وابنا حاطب بدريون وليسوا منافقين:

قال ابن هشام: مُعْتَبٌ بن قُشَيْر، وثعلبة والحرث ابنا حاطب، وهم من بني أمية بن زيد من أهل بدر وليسوا من المنافقين فيما ذكر لي من أثق به من أهل العلم، وقد نسب ابن إسحق ثعلبة والحرث في بني أمية بن زيد في أسماء أهل بدر.

قال ابن إسحق: وَعَبَّاد بن حُنَيْف، أخو سهل بن حُنَيْف؛ وَيُخْرِج، وهم ممن كان بني مسجد الضُّرَار، وعمر بن خِذَام، وعبد الله بن نَبْتَل.

من بني ثعلبة:

ومن بني ثعلبة بن عمرو بن عَوْف: جارية بن عامر بن العَطَاف، وابناه: زيد ومُجَمِّع، ابنا جارية، وهم ممن اتخذ مسجد الضُّرَار. وكان مجمّع غلامًا حَدَثًا قد جمع من القرآن أكثره، وكان يصلي بهم فيه، ثم إنه لما أُخرب المسجد، وذهب رجال من بني عمرو بن عوف، كانوا يصلون ببني عمرو بن عوف في مسجدهم، وكان زمانُ عمر بن الخطَّاب، كُلُّهم في مجمّع ليصلي بهم؛ فقال: لا، أوليس بإمام المنافقين في مسجد الضُّرَار؟ فقال لعمر: يا أمير المؤمنين، والله الذي لا إله إلا هو، ما علمت بشيء من أمرهم، ولكنني كنت غلامًا قارئًا للقرآن، وكانوا لا قرآن معهم، فقدموني أصلي بهم، وما أرى أمرهم، إلا على أحسن ما ذكروا. فزعموا أن عُمر تركه فصلّى بقومه.

من بني أمية:

ومن بني أمية بن زيد بن مالك: وَدِيعَة بن ثابت، وهو ممّن بنى مسجد الضُّرَار،

(١) سورة الأحزاب آية رقم (١٢). وانظر البداية (٣/٢٣٧).

وهو الذي قال: إنما كنّا نخوض ونلعب. فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تُسْتَهْزِءُونَ﴾ [المائدة: ٦٥]... إلى آخر القصة.

من بني عبيد:

ومن بني عبيد بن زيد بن مالك: خِذام بن خالد، وهو الذي أخرج مسجد الضرار من داره؛ وبشر ورافع، ابنا زيد.

من بني النبيت:

ومن بني النَّبَيْت - قال ابن هشام: النَّبَيْت: عمرو بن مالك بن الأوس - قال ابن إسحاق: ثم من بني حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس: مِزْبَع بن قَيْظِي، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ حين أجاز في حائطه ورسولُ الله ﷺ عامدٌ إلى أحد: لا أَجِلُّ لك يا محمد إن كنت نبيًّا، أن تمرَّ في حائِطِي، وأخذ في يده حَفْنَةً من تراب، ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بهذا التراب غَيْرَكَ لرميتُكَ به، فابتدره القومُ ليقْتُلُوهُ، فقال رسولُ الله ﷺ: دعوه، فهذا الأعمى، أعمى القلب، أعمى البصيرة. فضربه سَعْد بن زيد، أخو بني عبد الأشهل بالقوس فشجَّه؛ وأخوه أَوْس بن قَيْظِي، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ يوم الخندق: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة، فأذنْ لنا فلنرجع إليها. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾^(١).

قال ابن هشام: عورة، أي مُغَوْرَةٌ للعدوِّ وضائعة؛ وجمعها: عورات قال النَّابِغَةُ الذَّبْيَانِي:

مَتَى تَلْقَهُمْ لَا تَلْقُ لِلْبَيْتِ عَوْرَةً وَلَا الْجَارِ مَخْرُومًا وَلَا الْأَمْرَ ضَائِعًا
وهذا البيت في أبيات له. والعورة (أيضًا): عورة الرجل، وهي حرمة. والعورة (أيضًا) السَّوء.

(١) سورة الأحزاب آية رقم (١٣).

من بني ظفر:

قال ابن إسحاق: ومن بني ظَفَر، واسم ظَفَر: كعب بن الحارث بن الخزرج حاطب بن أمية بن رافع، وكان شيخًا جسيمًا قد عسا في جاهليته وكان له ابنٌ من خيار المسلمين يقال له يزيد بن حاطب أصيب يوم أحد حتى أثبتته الجراحات، فحُمِل إلى دار بني ظفر.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بنُ عمر بن قتادة أنه اجتمع إليه مَنْ بها من رجال المسلمين ونسائهم وهو بالموت فجعلوا يقولون أبشر يابن حاطب بالجنة. قال فتعجم نفاقه حيثُذ، فجعل يقول أبوه أجل جنة والله من حَزْل. غررْتُم والله هذا المسكين من نفسه.

قال ابن إسحاق: وبشير بن أبيرق، وهو أبو طُعْمة، سارق الدرعين، الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا﴾ وقُرْمان: حليف لهم.

ذكر حديث بشير بن أبيرق سارق الدرعين:

وذكر أن الله أنزل فيه: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٧] الآية: وكان من قصة الدرعين، وقصة بشير أن بني أبيرق، وهم ثلاثة بِشِيرٍ ومُبَشَّرٍ وبَشَرٍ نقبوا مشربةً أو نقبها بِشِيرٍ وحده على ما قال ابن إسحاق، وكانت المشربة لِرِفاعَةَ بن زَيْدٍ، وسرقوا أدراعًا له، وطعامًا فعثر على ذلك، فجاء ابن أخيه قَتَادَةُ بن النُعمان يشكو بهم إلى رسول الله - ﷺ - فجاء أسيد بن عُرْوَةَ بن أبيريق إلى رسول الله - ﷺ - فقال: يا رسول الله، إن هؤلاء عَمَدُوا إلى أهل بيتٍ هم أهل صلاح ودين، فأَبْنَوْهُم بالسرقَة، ورمَوْهُم بها من غير بَيِّنَةٍ، وجعل يجادل عنهم حتى غضب رسول الله - ﷺ - على قَتَادَةَ وِرْفَاعَةَ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٧] الآية، وأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزْمُ بِهِ بَرِيئًا﴾ [النساء: ١١٢] وكان البريء الذي رَمَوْهُ بالسرقَة لَيْدَ بن سَهْلٍ: قالوا: ما سرقناه، وإنما سرقه لَيْدُ بن سَهْلٍ، فبرأه الله، فلما أنزل الله تعالى فيهم ما أنزل، هَرَبَ ابنُ أبيريق السارقُ إلى مكة، ونزل على سُلَافَةَ بنت سعد بن شُهَيْدٍ، فقال فيها حَسَّان بن ثابت بيتًا، يعرُض فيه بها، فقالت: إنما أهديت لي شعرَ حَسَّان، وأخذت رَحْلَهُ، فطرحتَه خارج المنزل، وقالت: حَلَقْتُ وَسَلَقْتُ وَحَزَقْتُ إن بَثَّ في منزلي ليلة سَوْدَاءَ، فهَرَبَ إلى خَبِيرٍ، ثم إنه نَقَبَ بيتًا ذات ليلة، فسقط الحائط عليه فمات. ذكر هذا الحديث بكثير من ألفاظه التَّزْمِيذِي، وذكره الكَشْفِي والطبري بألفاظ مختلفة، وذكر قصة موته يحيى بن سلام في تفسيره ووقع اسمه في أكثر التفاسير: طُعْمَةُ بن أبيريق وفي

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أن رسول الله ﷺ كان يقول: إنه لمن أهل النار. فلما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً حتى قُتل بضعة نفر من المشركين، فأثبتته الجراحات، فحُمِلَ إلى دار بني ظُفر، فقال له رجال من المسلمين: أبشر يا قُزَمان، فقد أبليت اليوم، وقد أصابك ما ترى في الله: قال: بماذا أبشر، فوالله ما قاتلت إلا حمية عن قومي؛ فلما اشتدت به جراحاته وأذته أخذ سهماً من كِنانته، فقطع به رواهش يده، فقتل نفسه^(١).

من بني عبد الأشهل:

قال ابن إسحاق: ولم يكن في بني عبد الأشهل منافق ولا منافقة يعلم، إلا أن الضحَّاك بن ثابت، أحد بني كعب، رهط سعد بن زيد، قد كان يُتهم بالنفاق وحب اليهود.

قال حسان بن ثابت:

مَنْ مُلِغُ الضَّحَّاكِ أَنْ عُرِيقَهُ أَغِيثَ عَلَى الْإِسْلَامِ أَنْ تَتَمَجَّدَا
أَتَحَبُّ يُهْدَانِ الْحِجَازَ وَدِينَهُمْ كِبَدَ الْحِمَارِ، وَلَا تَحَبُّ مُحَمَّدَا
دِينًا لِعَمْرِي لَا يُوَافِقُ دِينَنَا مَا اسْتَنْ آلَ فِي الْقَضَاءِ وَخَوْدَا

وكان جُلاس بن سويد بن صامت قبل توبته - فيما بلغني - ومعتب بن قُشير، ورافع بن زيد، وبشر، وكانوا يُدْعَوْنَ بالإسلام، فدعاهم رجال من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الكُفَّان، حكَّام أهل الجاهلية، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].. إلى آخر القصة.

من الخزرج:

ومن الخزرج، ثم من بني النجَّار: رافع بن ودِيعَة، وزيد بن عمرو، وعمرو بن قيس، وقيس بن عمرو بن سهل.

كتب الحديث: بَشِير بن أَبِي بَرْقٍ، وقال ابن إسحاق في رواية يونس بن بكير عنه: بَشِير أبو طُعْمَة فليس طعمة إذا اسماً له، وإنما هو أبو طُعْمَة، كما ذكر ابن إسحاق في هذه الرواية

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٠٥) وأحمد (٤/١٣٥) والطبراني (٨٣/١٩).

من بني جشم:

ومن بني جُشَم بن الخزرج، ثم من بني سَلِمة: الجدّ بن قَيْس، وهو الذي يقول: يا محمد، ائذن لي، ولا تفتني. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]... إلى آخر القصة.

من بني عوف:

ومن بني عوف بن الخزرج: عبد الله بن أبي ابن سلول، وكان رأس المنافقين وإليه يجتمعون، وهو الذي قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل في غزوة بني المضطلق. وفي قوله ذلك، نزلت سورة المنافقين بأسرها. وفيه وفي ودیعة - رجل من بني عوف - ومالك بن أبي قوفل، وسويد، وداعس، وهم من رهط عبد الله بن أبي ابن سلول؛ وعبد الله بن أبي ابن سلول. فهؤلاء النفر من قومه الذين كانوا يدسّون إلى بني النضير حين حاصرهم رسول الله ﷺ: أن اثبتوا، فوالله لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبداً، وإن قوتلتم لننصرنكم. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ثم القصة من السورة حتى انتهى إلى قوله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

من أسلم من أحبار يهود نفاقاً:

قال ابن إسحاق: وكان ممن تعوذ بالإسلام، ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق، من أحبار يهود.

والله أعلم. وفي رواية يونس أيضاً أن الحائط الذي سقط عليه كان بالطائف لا بخيبر، كما قال ابن سلام، وأن أهل الطائف قالوا حينئذ: ما فارق محمداً من أصحابه من فيه خير. والأبيات التي رمى بها حسان المرأة، وهي من بني عمرو بن عوف، وقد تقدم اسمها:

وما سارق الدزعين إذ كنت ذاكرة	بذي كرم من الرجال أودعة
وقد أنزلته بنت سعد فأصبحت	ينازعها جاراتها وتنازعها
ظننتم بأن يخفى الذي قد صنعتم	وفيكم نبي عنده الوحي واضعه

من بني قينقاع:

من بني قَيْنَقَاع: سَعْدُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَزَيْدُ بْنُ اللَّصِيْتِ، وَتُعْمَانُ بْنُ أَوْفَى بْنِ عَمْرٍو، وَعُثْمَانُ بْنُ أَوْفَى، وَزَيْدُ بْنُ اللَّصِيْتِ، الَّذِي قَاتَلَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِسُوقِ بَنِي قَيْنَقَاعٍ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ، حِينَ ضَلَّتْ نَاقَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ أَنَّهُ يَأْتِيهِ خَيْرُ السَّمَاءِ وَهُوَ لَا يَدْرِي أَيْنَ نَاقَتُهُ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَجَاءَهُ الْخَبَرُ بِمَا قَالَ عَدُوُّ اللَّهِ فِي رَحْلِهِ، وَدَلَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ عَلَى نَاقَتِهِ: «إِنْ قَانَلَا قَالَ: يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ أَنَّهُ يَأْتِيهِ خَيْرُ السَّمَاءِ، وَلَا يَدْرِي أَيْنَ نَاقَتُهُ؟ وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ، وَقَدْ دَلَّنِي اللَّهُ عَلَيْهَا، فَهِيَ فِي هَذَا الشَّعْبِ، قَدْ حَبَسَتْهَا شَجَرَةٌ بِزَمَامِهَا، فَذَهَبَ رَجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَوَجَدُوهَا حَيْثُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَمَا وَصَفَ» وَرَافِعُ بْنُ خُرَيْمَةَ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ - فِيمَا بَلَّغْنَا - حِينَ مَاتَ: قَدْ مَاتَ الْيَوْمَ عَظِيمٌ مِنَ عِظَمَاءِ الْمُنَافِقِينَ؛ وَرِفَاعَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ التَّابُوتِ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ هَبَّتْ عَلَيْهِ الرِّيحُ، وَهُوَ قَافِلٌ مِنْ غَزْوَةِ بَنِي الْمُضْطَلِّقِ، فَاشْتَدَّتْ عَلَيْهِ حَتَّى أَشْفَقَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا؛ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَخَافُوا، فَإِنَّمَا هَبَّتْ لِمَوْتِ عَظِيمٍ مِنَ عِظَمَاءِ الْكُفَّارِ»^(١). فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَجَدَ رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ التَّابُوتِ مَاتَ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي هَبَّتْ فِيهِ الرِّيحُ وَسِلْسَلَةُ بْنُ بَرْهَامٍ. وَكَثَانَةُ بْنُ صُورِيَا.

طرد المنافقين من مسجد الرسول ﷺ

وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين، ويسخرون

وقع هذا البيئ في كتاب سيبويه^(٢). وذكر الشعر والخبر بطوله ابن إسحق في رواية يونس عنه.

فصل: وأنشد ابن هشام:

لَدَمَ الْوَلِيدَ وَرَاءَ الْغَيْبِ بِالْحَجَرِ

وَالْبَيْتَ لَتَمِيمِ بْنِ أَبِي بَنٍ مُقْبِلَ، وَاللَّدْمُ: الضَرْبُ، وَالْغَيْبُ: الْعَائِرُ مِنَ الْأَرْضِ.

باب إخراج المنافقين

وذكر ابن إسحق في باب إخراج المنافقين من المسجد أبا محمد، وقال: هو رجل من

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (١١٠/٢) والبيهقي في الدلائل (٦١/٤).

(٢) انظر كتاب سيبويه (٢٤٢/١).

وَيَسْتَهْزِئُونَ بِدِينِهِمْ، فَاجْتَمَعَ يَوْمًا فِي الْمَسْجِدِ مِنْهُمْ نَاسٌ فَرَأَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَحَدَّثُونَ بَيْنَهُمْ، خَافِضِي أَصْوَاتِهِمْ، قَدْ لَصِقَ بَعْضُهُمْ بَبَعْضٍ، فَأَمَرَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ إِخْرَاجًا عَنِيفًا، فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ، خَالِدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ كَلَيْبٍ، إِلَى عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ، أَحَدِ بَنِي عُثْمَ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ - كَانَ صَاحِبَ آلِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَخَذَ بِرِجْلِهِ فَسَحَبَهُ، حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَهُوَ يَقُولُ: أُنْخَرِجَنِي يَا أَبَا أَيُّوبَ مِنْ مَزِيدِ بَنِي ثُعْلَبَةَ، ثُمَّ أَقْبَلَ أَبُو أَيُّوبَ أَيْضًا إِلَى رَافِعِ بْنِ وَدِيعَةَ، أَحَدِ بَنِي النَّجَّارِ فَلَبَّيْهُ بِرِدَائِهِ ثُمَّ تَتَرَّهَ نَتْرًا شَدِيدًا، وَلَطَمَ وَجْهَهُ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَأَبُو أَيُّوبَ يَقُولُ لَهُ: أَفَ لَكَ مَنَافَقًا خَبِيثًا: أَدْرَا جَلَّكَ يَا مَنَافِقُ مِنَ مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قال ابن هشام: أي ارجع من الطريق التي جئت منها. قال الشاعر:

فَوَلَّى وَأَذْبَرَ أَذْرَاجَهُ وَقَدْ بَاءَ بِالظُّلْمِ مَنْ كَانَ ثَمَّ

وقام عمارة بن حَزْمٍ إِلَى زَيْدِ بْنِ عَمْرِو، وَكَانَ رَجُلًا طَوِيلَ اللَّحْيَةِ، فَأَخَذَ بِلَحْيَتِهِ فَقَادَهُ بِهَا قَوْدًا عَنِيفًا حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ جَمَعَ عَمَارَةَ يَدَيْهِ فَلَدَّمَهُ بِهِمَا فِي صَدْرِهِ لَدَمَةً خَرَّ مِنْهَا. قَالَ: يَقُولُ: خَدَشْتَنِي يَا عَمَارَةَ؛ قَالَ: أَبْعَدُكَ اللَّهُ يَا مَنَافِقُ، فَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ مِنَ الْعَذَابِ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ، فَلَا تَقْرُبَنَّ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قال ابن هشام: اللدم: الضرب بيطن الكف. قال تميم بن أَبِي بن مُقْبَل:

وَلِلْفُؤَادِ وَجِيبٌ تَحْتَ أَبْهَرِهِ لَدَمَ الْوَلِيدِ وَرَاءَ الْعَيْنِ بِالْحَجَرِ

قال ابن هشام: الغيب: ما انخفض من الأرض. والأبهر: عرق القلب.

قال ابن إسحاق: وقام أبو محمد، رجل من بني النَّجَّارِ، كَانَ بَدْرِيًّا، وَأَبُو مُحَمَّدٍ مَسْعُودُ بْنُ أَوْسَ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَضْرَمَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثُعْلَبَةَ بْنِ عُثْمَ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ إِلَى قَيْسِ بْنِ عَمْرِو بْنِ سَهْلٍ، وَكَانَ قَيْسٌ غَلَامًا شَابًّا، وَكَانَ لَا يَعْلَمُ فِي الْمُنَافِقِينَ شَابَّ غَيْرَهُ، فَجَعَلَ يَدْفَعُ فِي قَفَاهُ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ.

بني النجار، ولم يُعَرِّفْهُ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا، وَهُوَ: أَبُو مُحَمَّدٍ مَسْعُودُ بْنُ أَوْسَ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَضْرَمَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثُعْلَبَةَ بْنِ عُثْمَ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ، يَعُدُّ فِي الشَّامِيِّينَ، وَهُوَ الَّذِي زَعَمَ أَنَّ الْوَثَرَ وَاجِبٌ، فَقَالَ عُبَادَةُ: كَذِبٌ^(١) أَوْ مُحَمَّدٌ، وَهُوَ مَعْدُودُ فِي الْبَدْرِيِّينَ عِنْدَ الْوَاقِدِيِّ وَطَائِفَةٍ، وَلَمْ يَذْكُرْهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِيهِمْ.

(١) أي خطأ.

وقام رجل من بَلْخَدْرَةَ بنِ الْخَزْرَجِ، رهط أبي سعيد الْخَدْرِي، يقال له: عبد الله بن الْحَارِث، حين أَمَرَ رسول الله ﷺ بإخراج المنافقين من الْمَسْجِدِ إِلَى رجل يُقَالُ له: الْحَارِث بن عمرو، وكان ذا جُمَّة، فَأَخَذَ بِجُمَّتِهِ فَسَحَبَهُ بِهَا سَحَبًا عَنِيفًا، عَلَى مَا مَرَّ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ، حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ. قال: يقول المنافق: لَقَدْ أَغْلَظْتُ يَا بَنِي الْحَارِث؛ فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ أَهْلٌ لَذَلِكَ، أَيِ عَدُوِّ اللَّهِ لَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ، فَلَا تَقْرُبَنَّ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّكَ تَنْجَسُ.

وقام رجل من بني عَمْرُو بنِ عَوْفٍ إِلَى أَخِيهِ زُوَيْبِ بنِ الْحَارِث، فَأَخْرَجَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ إِخْرَاجًا عَنِيفًا، وَأُتِفَ مِنْهُ، وَقَالَ: غَلَبَ عَلَيْكَ الشَّيْطَانُ وَأَمْرُهُ. فهؤلاء مَنْ حَضَرَ الْمَسْجِدَ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِإِخْرَاجِهِمْ.

ما نزل من البقرة في المنافقين ويهود ما نزل في الْأَحْبَارِ

ففي هؤلاء من أخبار يهود، وَالْمُنَافِقِينَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، نَزَلَ صَدْرُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ إِلَى الْمِائَةِ مِنْهَا - فِيمَا بَلَّغْنِي - وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

يقول الله سبحانه ويحمده: ﴿أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(١)، أَيِ لَا شَكَّ فِيهِ^(٢).

قال ابن هشام: قال سَاعِدَةُ بنِ جُوَيْيَةَ الْهَذَلِي: فقالوا عَهْدَنَا الْقَوْمَ قَدْ حَصَرُوا بِهِ فَلَا رَيْبَ أَنْ قَدْ كَانَ ثُمَّ لَحِيمٌ

ذكر ما أنزل الله في المنافقين

فصل: وذكر ما أنزل الله في الْمُنَافِقِينَ وَالْأَحْبَارِ وَمَنْ يَهُودَ مِنْ صَدْرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ،

(١) وقيل: بدأ القرآن بهذه الحروف ﴿أَلَمْ﴾ دون غيرها من بقية الحروف التي بدأت بها بعض السور، لأنها أوسط وأسهل الحروف خروجًا من الفم، وفي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى البعيد، والبقرة هي أول سور القرآن بعد الفاتحة فكيف يأتي اسم الإشارة «ذلك» وهو للبعيد؟ قالوا: ذلك: أي ما سبق من القرآن التي نزلت قبل سورة البقرة، فهي ليست أول سور القرآن نزولًا، وقالوا: إشارة إلى الفاتحة.

(٢) فائدة: الفرق بين الريب والشك: أن الريب يكون مصحوبًا بسوء الظن بخلاف الشك.

وهذا البيت في قصيدة له، والرَّيب (أيضًا): الرِّية. قال خالد بن زهير الهذلي:

كَأَنِّي أَرِيبُهُ بِرَيْبِ

قال ابن هشام: ومنهم من يرويه:

كَأَنِّي أَرَبُّهُ بِرَيْبِ

وهذا البيت في أبيات له. وهو ابن أخي أبي ذؤيب الهذلي.

﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يغفرون من الهدى، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاءهم منه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي يقيمون الصلاة بقرضها، ويؤتون الزكاة احتسابًا لها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، أي يصدقونك بما جئت به من الله عز وجل، وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفترقون بينهم، ولا يجحدون ما جاءهم به من ربهم. ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان، أي هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان من قبلك، وبما جاءك من ربك ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾، أي على نور من ربهم واستقامة على ما جاءهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الذين أدركوا ما طلبوا ونَجَوْا من شر ما منه هربوا. ﴿إِنَّ

واستشهد ابن هشام على الرِّيب بمعنى الرِّية بقول خالد بن زهير ابن أخت أبي ذؤيب، واسم أبي ذؤيب: خُوَيْلِدُ بْنُ خَالِدٍ، والرجز الذي استشهد ببيت منه:

يَا قَوْمَ مَا لِي وَأَبَا ذُؤَيْبٍ كُنْتُ إِذَا أَتَيْتَهُ مِنْ غَيْبٍ
يَشُمُّ عَطْفِي وَيَمْسُ ثَوْبِي كَأَنِّي أَرَبُّهُ بِرَيْبِ

وكان أبو ذؤيب قد اتهمه بامرأته، فلذلك، قال هذا.

وذكر ابن إسحق: والذين يقيمون الصلاة، وأغفل التلاوة: وإنما هو: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾ [البقرة: ٣]. وكذلك وجدته مُنبِّهاً عليه في حاشية الشيخ: وفي الإيمان بالغيب أقوال، منها أن الغيب هاهنا ما بعد الموت من أمور الآخرة، ومنها: أن الغيب، القدر، ومنها قول من قال: إن الغيب القلب، أي يؤمنون بقلوبهم، وقيل: يؤمنون بالغيب، أي بالله عز وجل، وأحسن ما في هذه الأقوال قول الربيع بن أنس، أي: يؤمنون بظُهر الغيب، أي: ليسوا كالمنافقين الذين يؤمنون إذا لقوا الذين آمنوا ويكفرون إذا غابوا عنهم، ويُبدل على صحة هذا التأويل: بسياقة الكلام، مع قوله عز وجل: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ بالغيب فلا يحتمل قوله: يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب إلا تأويلاً واحداً، فإليه يرد ما اختلف فيه.

الَّذِينَ كَفَرُوا، أَي بما أنزل إليك، وإن قالوا إنا قد آمنا بما جاءنا قبلك ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَي أنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك، وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق لك، فقد كفروا بما جاءك وبما عندهم، ممّا جاءهم به غيرك، فكيف يستمعون منك إنذارًا أو تحذيرًا، وقد كفروا بما عندهم من علمك. ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾^(١) أَي عن الهدى أن يُصِيبوه أبدًا، يعني بما كذبوك به من الحق الذي جاءك من ربك حتى يؤمنوا به، وإن آمنوا بكل ما كان قبلك، ولهم بما هم عليه من خلافك عذاب عظيم.

فهذا في الأحبار من يهود، فيما كذبوا به من الحق بعد معرفته.

وقوله سبحانه: لا رَيْبَ فيه، وقد ارتاب فيه كثير من الناس، قيل: هو على الخصوص في المؤمنين، أي لا ريب فيه عند. قال المؤلف: رَضِيَ اللَّهُ عنه: وهذا ضعيف لأن التبرئة تعطي العموم، وأصح منه. أن الكلام ظاهره الخبر، ومعناه: النهي، أي: لا تَرْتَابُوا، وهذا النهي عام لا يُخَصَّص، وأدق من هذا أن يكون خبرًا مَحْضًا عن القرآن، أي: ليس فيه ما يُرِيب، تقول: رأيت ما تُنْكِر، وليس في القرآن ما تُنْكِرُه العقول. والرَّيْبُ، وإن كان مُضْدرًا فقد يُعْبَرُ به عن الشيء الذي يُرِيب، كما يُعْبَرُ بالضعيف عن الضائف، وبالطَّيْفِ عن الخيالِ الطائف، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿لَيَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فهذا خبر، لأن النهي لا يكون في موضع الصفة.

وقوله: لا رَيْبَ فيه في موضع الصفة ليوم، والحيأة بعد الموت ليس فيه ما يُرِيبك، لأن من قدر على البدء، فهو على الإعادة أقدر، وليس الربب بمعنى الشُّكُّ على الإطلاق،

(١) فائدة: كثيرًا ما نسمع من الخطباء والوعاظ: أن الله ختم الرسالات برسالة محمد ﷺ، وما أشبه، ولفظة «ختم» من لغة القرآن إنما تأتي في حالة الذم كهذه الآية في سورة البقرة وفي الجاثية، أما إذا جاءت صفة اسم مفعول «من رحيق مختوم» «ختامه مسك» فإنها تأتي في حالة المدح. فتأمل. قال الأزهرى: الختم: أصله التغطية، وختم البذر في الأرض إذا غطاه. قال أبو إسحق: معنى ختم وطبع في اللغة واحد، وهو التغطية عى الشيء والاستيثاق منه فلا يدخله شيء. ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى: الختم والطبع يشتركان فيما ذكر، ويفترقان في معنى آخر، وهو أن الطبع ختم يصير سجية وطبيعة فهو تأثير لازم لا يفارق. قلت: وفي اختصاص الختم على القلب وعلى السمع دون البصر فعليه غشاوة، ذلك أن السمع إذا خُتم عليه فلا يسمع وكذلك القلم إذا خُتم عليه - والعياذ بالله - فإنه لا ينفذ إليه شيء ويصير كما تقدم صفة لازمة له، بخلاف البصر فإنه يرى فالغشاوة أولى به من الختم، والغشاوة هي الغطاء، وهذا الغطاء أي الغشاوة إنما سَرَتْ إلى البصر عن طريق القلب الذي خُتم أولاً.

ما نزل في منافقي الأوس والخزرج :

﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(١) يعني المنافقين من الأوس والخزرج، ومن كان على أمرهم. ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، أي شك ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، أي شكاً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾^(٢) أي إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. يقول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ من يهود، الذين يأمرونهم بالتكذيب بالحق، وخلاف ما جاء به الرسول ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾، أي إنا على مثل ما أنتم عليه. ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾: أي إنما نستهزئ بالقوم، ونلعب بهم. يقول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب :

قال ابن هشام يَعْمَهُونَ: يحارون. تقول العرب: رجل عَمَهُ وعامه: أي حيران. قال رؤبة بن العجاج يصف بلذا:

أعمى الهدى بالجاهلين العُمه

وهذا البيت في أرجوزة له. فالعُمه: جمع عامه؛ وأما عَمِه، فجمعه: عَمِهون. والمرأة: عَمِهَة وعَمهاء.

لأنك تقول: رابني منك رائب، ولا تقول شَكْنِي، بل تقول: ارتبت كما تقول شككت، فالارتياب: قريب من الشك.

(١) قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ﴾ للتبويض. وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ إنما هو مجرد قول بلا اعتقاد قلبي يصدق هذا القول وبلا عمل يصدق هذا القول، بخلاف وصف المؤمنين في الآيات الأولى من نفس السورة ﴿هَدَى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾... الآيات. وليس فيه أنهم قالوا: آمنا بالغيب.

(٢) وهذا هو حال المفسدون في الأرض، فهم يرفعون دائماً شعار الإصلاح، فنقرأ في التاريخ: أن فلان هو صاحب حركة الإصلاح الزراعي، وفلان صاحب حركة الإصلاح التعليمي، وفلان صاحب حركة الإصلاح الديني، و... و... ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾^(١): أي الكفر بالإيمان ﴿فَمَا رَبَحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

قال ابن إسحاق: ثم ضرب لهم مثلاً، فقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٢) أي لا يبصرون الحق ويقولون به حتى إذا خرجوا به من ظلمة الكفر أطفأه بكفرهم به ونفاقهم فيه، فتركهم الله في ظلمات الكفر فهم لا يبصرون هدى، ولا يستقيمون على حق: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عَنْمِي فَهُمْ لَا يُرْجَعُونَ﴾^(٣): أي لا يرجعون إلى الهدى، صُمُّ بَكْمٌ عَنْمِي عن الخير، لا يرجعون إلى خير ولا يصيبون نجاة ما كانوا على ما هم عليه ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

قال ابن هشام: الصَّيْبُ: المطر، وهو من صاب يَصُوب، مثل قولهم: السيد، من ساد يسود، والميِّت: من مات يموت؛ وجمعه: صَيَاب. قال علقمة بن عبدة، أحد بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم:

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ صَوَاعِقُهَا لَطِيرُهُنَّ دَبِيبٌ
وفيهما:

فَلَا تَغْدِلِي بَيْنِي وَبَيْنَ مُعَمَّرٍ سَقَتَكَ زَوَايَا الْمُزْنِ حَيْثُ تَصُوبُ
وهذان البيتان في قصيدة له.

قال ابن إسحاق: أي هم من ظلمة ما هم فيه من الكفر والحذر من القتل، من الذي هم عليه من الخلاف والتخوف لكم، على مثل ما وُصف، من الذي هو (في) ظلمة الصَّيْب، يجعل أصابعه في أذنيه من الصواعق حَذَرَ الموت. يقول: والله منزل ذلك بهم

وذكر قول الله سبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وأصل المرض: الضعف وتُتور الأعضاء، وهو هاهنا ضَعْف اليقين، وتُتور القلب عن كَد النظر، وعطف: فزادهم الله، وإن

(١) قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ تخصيصهم بهذا الوصف، و﴿أُولَئِكَ﴾ للبعيد، أي فهم البعيدون عن رحمة الله، أو في القعر البعيد من جهنم والعياذ بالله تعالى.

(٢) انظر في تفسيرها «أعلام الموقنين» لابن القيم - الجزء الأول، والصواعق المرسلة له أيضاً. والوابل (٧٨) وشفاء العليل (٩٦) واجتماع الجيوش (١٩).

(٣) قوله تعالى: ﴿لَا يَرْجَعُونَ﴾ في حق المنافقين، أما الكافرين فيقول عنهم «فهم لا يعقلون» فتأمل.

من النعمة، أي هو محيط بالكافرين ﴿يَكَاذُ الْبَزْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾: أي لشدة ضوء الحق ﴿كَلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾؛ أي يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة، فإذا ارتكسوا منه في الكفر قاموا متحيرين. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي لما تركوا من الحق بعد معرفته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اغْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ للفريقين جميعاً، من الكفار والمنافقين، أي وُحِدُوا ربكم ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: الأنداد: الأمثال، واحدهم نذ. قال لعبيد بن ربيعة:
أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا نَذْلَهُ بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلَّ
وهذا البيت في قصيدة له.

قال ابن إسحق: أي لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي في شك مما جاءكم به، ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي من استطعتم من أعوانكم على ما أنتم عليه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ فقد تبين لكم

كان الفعل لا يُعْطَفُ على الاسم، ولا على مثل هذه الجملة، لو قلت: في الدار زيد، فأعطيته دِرْهَمًا لم يجز، ولكن لما كان في معنى قوله: في قلوبهم مرض كَمَعْنَى مَرَضَتْ، قلوبهم صح عطفُ الفعل عليه.

(١) قاعدة: من عادة القرآن أنه يتوصل بتقرير توحيد الربوبية إلى توحيد الألوهية، كما في الآية السابقة، فيعَدُّ التقرير بأن خالق السماء والأرض وخالق الناس جميعاً ومُنْزِلُ المطر إنما هو الرب، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. أي فلا تشركوا به شيئاً وهو الذي فعل لكم وبكم كذا وكذا. وانظر أيضاً ما جاء في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾... الآية وما وليها من آيات، وانظر سورة الناس ﴿رب الناس ملك الناس إِلَه الناس﴾، وانظر سورة طه في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ الآية.

الحَقَّ ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر.

ثم رَغِبْهم وحَذَرْهم نفَضَ الميثاق الذي أخذ عليهم لِنَبِيِّهِ ﷺ إذا جاءهم، وذكر لهم بَدْءَ خَلْقِهِمْ حين خلقهم، وشَأْنَ آبِيهِمْ آدَمَ عليه السلام وأَمْرَهُ، وكيف صُنِعَ به حين خالف عن طاعته، ثم قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(١) للأحبار من يهود ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي بلائي عندكم وعند آبائكم، لَمَّا كان نَجَاها به فرعون وقومه ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾^(٢) الذي أخذت في أعناقكم لِنَبِيِّي أحمد إذا جاءكم ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أنجز لكم ما وعدتكم على تَصْدِيقِهِ واتباعه بَوَضْعِ ما كان عليكم من الآصَارِ والأَغْلَالِ التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من أحداثكم ﴿وَأَيَّايَ فَازْهَبُونَ﴾ أي أن أنزل بكم ما أنزلت بِمَنْ كان قبلكم من آبائكم من النِّقَمَاتِ التي قد عرفتكم، من المَسْخِ وغيره ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ وعندكم من العلم فيه ما ليس عند غيركم ﴿وَأَيَّايَ فَاتَّقُونَ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لا تكتُموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به، وأنتم تَجِدُونَهُ عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أَتَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ الْكُفْرِ بما عندكم من النُّبُوَّةِ والعهد من التوراة وتتركون أنفسكم، أي وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تَصْدِيقِ رسولي وتَفْقُضُونَ ميثاقِي، وَتَجْحَدُونَ ما تَعْلَمُونَ من كتابي.

ثم عَدَّدَ عليهم أحداثهم، فذكر لهم العَجَلَ وما صَنَعُوا فيه، وتَوَبَّتْهُ عليهم، وإِقَالَته إياهم، ثم قولهم: ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهَنَّةَ﴾.

وذكر قوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ووهم في التلاوة، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، كما وهم في أول السورة. وبنو إسرائيل: هم بنو يَعْقُوبَ، وكان يسمى: إسرائيل، أي سَرِيٍّ

(١) قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعلمنا أدب الخطاب والدعوة إلى الله تعالى بالحسنى، فعلى الرغم من كل ما صدر عن اليهود من كفر وإلحاد و... وإلا أنه تعالى بدأ أول خطاب يوجه إليهم في القرآن كله بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. ثم بعدها بقول تعالى: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وبعد نهاية السياق الموجّه إليهم نجد القول الموجّه إلى أمة النبي محمد ﷺ. ﴿فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ فكونوا دائماً ذاكرين لي ولِنِعْمِي عَلَيْكُمْ فلا تشبهوا باليهود الذين نسوا نِعْمَ الله فاحتاجوا إلى تذكير الله تعالى لهم.

(٢) العجيب أن اليهود سَمَوْا كتابهم «العهد القديم»، والنصارى سَمَوْا كتابهم «العهد الجديد» ولم يوفَّ هؤلاء بالعهد القديم، ولا هؤلاء بالعهد الجديد!!!.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: جهرة، أي ظاهرًا لنا لا شيء يستره عَنَّا. قال أبو الأَخْزَرِ الجَمَّاني، واسمُه قُتَيْبَة:

يَجْهَرُ أَجْوَافَ الْمِيَاهِ السَّدْمِ

وهذا البيت في أرجوزة له.

يجهر: يقول: يُظْهَرُ الْمَاءُ وَيُكْشَفُ عَنْهُ مَا يَسْتَرُهُ مِنَ الرَّمْلِ وَغَيْرِهِ.

قال ابن إسحاق: وأخذ الصاعقة إياهم عند ذلك لغرتهم، ثم إحياء إياهم بعد موتهم، وتظليله عليهم الغمام، وإنزاله عليهم المنّ والسّلوى، وقوله لهم: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سَجْدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، أي قولوا ما أمركم به أحط به ذنوبكم عنكم؛ وتبديلهم ذلك من قوله استهزاء بأمره، وإقالتة إياهم ذلك بعد هزئهم^(١).

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: المنّ: شيء كان يسقط في السّحر على شجرهم، فيجتنبونه حُلُوا مثل العسل، فيشربونه ويأكلونه. قال أعشى بني قيس بن ثعلبة:

لو أَطْعِمُوا الْمَنَّ وَالسَّلْوَى مَكَائِهِمْ ما أبصر الناسُ طعما فيهمُ نجعا

وهذا البيت في قصيدة له. والسّلوى: طير؛ واحدها: سلّوة؛ ويقال: إنها السّماني، ويقال للعسل (أيضًا): السّلوى. وقال خالد بن زهير الهذلي:

وقاسمها بالله حقًا لأنتم ألذُّ من السّلوَى إذا ما نَشُورها

وهذا البيت في قصيدة له. وحِطَّة: أي حُطُّ عنا ذُنُوبنا.

قال ابن إسحاق: وكان من تبديلهم ذلك، كما حدّثني صالح بن كيسان عن صالح مولي التَّوْءَمَة بنت أميّة بن خلف، عن أبي هريرة ومن لا أتهم، عن ابن عباس، عن

الله لكن لم يُذكروا في القراءة إلاّ أُضِيفُوا إلى إسرائيل، ولم يُسمَوْا فيه: بنو يَعْقُوبَ، ومتى، ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب لم يُسمَّ إسرائيل، وذلك لحكمة فُرْقَانِيَّة، وهو أن القوم لما

(١) في بعض كتب التفسير أنهم قالوا بدلًا من «حطة» حنطة. وقالوا: هذا هو التبديل الذي صدر منهم. وهو بعيد، إذ إنهم ما كانوا يتحدثون العربية حتى يزدوا حرف النون هذا، بل لغتهم هي العبرية، والأرجح ما ذكره ابن إسحاق.

رسول الله ﷺ، قال: «دَخَلُوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا منه سُجَّدًا يزحفون، وهم يقولون حِنط في شعير»^(١).

قال ابن هشام: ويروى: حنطة في شعيرة:

قال ابن إسحاق: واستسقاء موسى لقومه، وأمره (إياه) أن يضرب بعصاه الحَجَرَ فانفجرت لهم منه اثنتا عشرة عيِّنا، لكلِّ سِبْطٍ عَيْنٌ يَشْرِبُونَ منها، فدَعَلَ كُلُّ سِبْطٍ عَيْنَهُ التي منها يشرب؛ وقولهم لموسى عليه السلام: «لَنْ نَضْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا».

قال ابن هشام: الفُوم: الحنطة. قال أمية بن الصلت الثَّقَفِي:

فَوْقَ شَيْزِي مِثْلِ الْجَوَابِي عَلَيْهَا قِطْعٌ كَالْوَذِيلِ فِي نَفْسِي فُومٍ

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: الوذيل: قطع الفضَّة والقوم: القمح؛ واحدته: قومة. وهذا البيت في قصيدة له.

«وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ».

قال ابن إسحاق: فلم يفعلوا. وَرَفَعَهُ الطُّورُ فوقهم ليأخذوا ما أوتوا؛ والمسح الذي كان فيهم، إذ جعلهم قِرْدَةً بأخذائهم، والبقرة التي أراهم الله عزَّ وجلَّ بها العِبرة في القَتْلِ الذي اختلفوا فيه، حتى بَيَّنَّ الله لهم أمره، بعد التردد على موسى عليه السَّلام في صِفة البقرة؛ وقسوة قلوبهم بعد ذلك حتى كانت كالحجارة أو أشدَّ قسوة. ثم قال تعالى: «وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا

خُوطَبُوا بعبادة الله، وَذُكِّرُوا بدين أسلافهم مَوْعِظَةً لهم، وَتَنبِيْهَا من غفلتهم سُمُّوا بالاسم الذي فيه تَذَكُّرَةٌ بالله، فَإِنَّ إِسْرَائِيلَ اسْمٌ مُضَافٌ إِلَى الله تعالى في التأويل. ألا تَرَى: كيف تَبَّهَ على هذا المعنى رسولُ الله ﷺ - حين دعا إلى الإسلام قَوْمًا، يقال لهم: بنو عبد الله، فقال لهم: يا بني عبد الله، إن الله قد حَسَّنَ اسمَ أبيكم يُحَرِّضُهُمْ بِذَلِكَ على ما يقتضيه اسمُهُم من العُبودِيَّةِ لله، فكَذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: يا بني إِسْرَائِيلَ إِنَّمَا وَرَدَ فِي مَعْرِضِ التَّذَكُّرَةِ لَهُمْ بدين

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤٠/١) والقرطبي (١٤١/١) والترمذي (٣٩٥٦) وابن الجوزي في زاد المسير (٨٦/١).

لَمَّا يَهَيِّطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ^(١) أَي وَإِنْ مِنْ الْحَجَارَةِ لِأَلَيْنُ مِنْ قُلُوبِكُمْ عَمَّا تَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ثم قال لمحمد عليه الصلاة والسلام ولمن معه من المؤمنين يُؤيسهم منهم: ﴿اقتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ وليس قوله يسمعون التوراة، أن كلهم قد سمعها، ولكنه فريق منهم، أي خاصة.

قال ابن إسحق، فيما بلغني عن بعض أهل العلم: قالوا لموسى: يا موسى، قد حيل بيننا وبين رؤية الله، فأسمعنا كلامه حين يكلمك، فطلب ذلك موسى عليه السلام من ربه، فقال له: نعم، مزمهم فليطهروا، أو ليطهروا ثيابهم، وليصوموا، ففعلوا. ثم خرج بهم حتى أتى بهم الطور؛ فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى فوقعوا سجداً، وكلمه ربه، فسمعوا كلامه تبارك وتعالى، يأمرهم وينهاهم، حتى عقلوا عنه ما سمعوا، ثم انصرف بهم إلى بني إسرائيل، فلما جاءهم حرف فريق منهم ما أمرهم به، وقالوا: حين قال موسى لبني إسرائيل: إن الله قد أمركم بكذا وكذا، قال ذلك الفريق الذي ذكر الله عز وجل: إنما قال كذا وكذا، خلافاً لما قال الله لهم، فهم الذين عنى الله عز وجل لرسوله ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾، أي بصاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة. ﴿وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا﴾: لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان فيهم. فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ^(٢)﴾، أي تقررون بأنه نبي، وقد عرفتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبركم أنه النبي الذي كنّا ننتظر ونجد في كتابنا؛ اجحدوه ولا تقرؤا لهم

أبيهم، وعبوديته لله، فكان ذكرهم بهذا الاسم أليق بمقام التذكرة والتخريض من أن يقول لهم: يا بني يعقوب، ولما ذكر موهبته لإبراهيم وتبشيريه بإسحق، ثم يعقوب كان لفظاً

(١) يشير تعالى إلى ما رآه اليهود من تفجر الماء من الحجر اثنتي عشرة عينا، وإلى الجبل الذي هبط ذلك من خشية الله تعالى.

(٢) غباء يهودي وفكر عفن، كأنهم إذا لم يتحدثوا فإن الله لا يقيم عليهم الحجة يوم القيامة!!!. ولذلك عقب تعالى بقوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. وتأمل قول بعضهم لبعض: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. هذا هو العقل اليهودي!!!.

به . يقول الله عز وجل: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام، عن أبي عبيدة: إلا أمانتي: إلا قراءة، لأن الأمي: الذي يقرأ ولا يكتب. يقول: لا يعلمون الكتاب إلا (أنهم) يقرؤونه.

قال ابن هشام: عن أبي عبيدة ويونس أنهما تأولا ذلك عن العرب في قول الله عز وجل، حدّثني أبو عبيدة بذلك.

قال ابن هشام: وحدّثني يونس بن حبيب النحوي وأبو عبيدة: أن العرب تقول: تمنى، في معنى قرأ. وفي كتاب الله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾. قال: وأنشدني أبو عبيدة النحوي:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرَهُ وَاقِيَ حِمَامِ الْمَقَادِرِ
وَأَنشَدَنِي أَيْضًا:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ فِي اللَّيْلِ خَالِيَا تَمَنَّى دَاوُدَ الزُّبُورَ عَلَى رِسْلِ
وواحدة الأمانى: أمنيّة. والأمانى (أيضًا): أن يتمنى الرجل المال أو غيره^(١).

قال ابن إسحق: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾: أي لا يعلمون الكتاب ولا يذكرون ما فيه، وهم يجحدون نبوتك بالظن. ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

دعوى اليهود قلة العذاب في الآخرة ورد الله عليهم:

قال ابن إسحق: وحدّثني مولى لزيد بن ثابت عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: قديم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تقول: إنما مدّة الدنيا سبعة

يعقوب أولى بذلك المقام، لأنها مؤهبة بعقب أخرى، وبُشرى عقب بها بُشرى وإن كان اسم يعقوب عبرانيًا، ولكن لفظه موافق للعربي في العقب والتعقيب، فانظر مُشَاكَلَةَ الاسمين

(١) وهذا هو حال كثير من المسلمين اليوم، لا يعلمون الكتاب إلا أمانى، مجرد أوهام وخيالات وتمنى على الله تعالى، والقلب فاسد والعقل خرب، والعمل كفر وشرك. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

آلاف سنة، وإنما يُعَذَّب الله الناس في النار بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوماً واحداً في النار من أيام الآخرة، وإنما هي سبعة أيام ثم ينقطع العذاب. فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أي من عمل بمثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، يحيط كفره بما له عند الله من حسنة ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي خلد أبداً. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: أي من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها، يُخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبداً، لا انقطاع له.

قال ابن إسحاق: ثم قال: (الله عز وجل) يؤنبهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي ميثاقكم ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي تركتم ذلك كله ليس بالتقصص. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: تسفكون: تصبّون. تقول العرب: سفك دمه، أي صبه، وسفك الزق، أي هراقه. قال الشاعر:

وكنّا إذا ما الضيفُ حلّ بأرضنا سفكنا دماء البُذُن في تُربة الحالِ

قال ابن هشام: يعني «بالحال»: الطين الذي يخالطه الرمل، وهو الذي تقول له العرب: السهلة. وقد جاء في الحديث: أن جبريل لما قال فرعون: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ أخذ من حال البحر ﴿وَحَمَاتِهِ﴾ فضرب به وجه فرعون. (والحال: مثل الحمأة).

قال ابن إسحاق: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَزْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ﴾ على أن هذا حق من ميثاقي عليكم ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي أهل الشرك، حتى يسفكوا دماءهم معهم، ويخرجوهم من ديارهم مع هم ﴿وَإِنْ يَأْتُواكُمُ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾ وقد عرفتم أن ذلك عليكم في دينكم ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾: في كتابكم ﴿إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوْمُونَ بِبَعْضِ

للمقامين، فإنه من باب النظر في إعجاز القرآن وبلاغة ألفاظه وتنزيل الكلام في منازل اللاتقة به.

الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ^(١)، (أي) أنفادونهم مؤمنين بذلك، وتخرجونهم كفارًا بذلك. ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ فأثبهم الله عز وجل بذلك من فعلهم، وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم.

فكانوا فريقين، منهم بنو قَيْنُقَاعَ ولُقُهم، حلفاء الخزرج، والنَّضِيرُ وقُرَيْظَةُ ولُقُهم، حلفاء الأوس. فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حربٌ خرجت بنو قَيْنُقَاعَ مع الخزرج وخرجت النضير وقُرَيْظَةُ مع الأوس يُظَاهِرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ حَلْفَاءَهُ عَلَى إِخْوَانِهِ، حَتَّى يَتَسَافَكُوا دِمَاءَهُمْ بَيْنَهُمْ وَبِأَيْدِيهِمُ التَّورَةُ يَعْرِفُونَ فِيهَا مَا عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ، وَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ أَهْلُ شِرْكٍ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ. لَا يَعْرِفُونَ جَنَّةً وَلَا نَارًا، وَلَا بَعَثًا وَلَا قِيَامَةً، وَلَا كِتَابًا، وَلَا حِلَالًا وَلَا حَرَامًا، فَإِذَا وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا افْتَدَوْا أَسْرَاهُمْ تَصَدِيقًا لِمَا فِي التَّورَةِ، وَأَخَذَ بِهِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، يَفْتَدِي بَنُو قَيْنُقَاعَ مَنْ كَانَ مِنْ أَسْرَاهُمْ فِي أَيْدِي الْأَوْسِ وَتَفْتَدِي النَّضِيرُ وَقُرَيْظَةُ مَا فِي أَيْدِي الْخَزْرَجِ مِنْهُمْ وَيُطْلُونَ مَا أَصَابُوا مِنَ الدَّمَاءِ، وَقَتْلَى مَنْ قُتِلُوا مِنْهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ، مُظَاهِرَةً لِأَهْلِ الشَّرْكِ عَلَيْهِمْ. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى حِينَ أَثْبَهُمْ بِذَلِكَ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، أَي تُفَادِيهِ بِحُكْمِ التَّورَةِ وَتَقْتُلُهُ، وَفِي حُكْمِ التَّورَةِ أَنْ لَا تَفْعَلَ، تَقْتُلُهُ وَتُخْرِجُهُ مِنْ دَارِهِ وَتُظَاهِرُ عَلَيْهِ مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ، وَيَعْبُدُ الْأَوْثَانَ مِنْ دُونِهِ، ابْتِغَاءَ عَرْضِ الدُّنْيَا. فَفِي ذَلِكَ مِنْ فَعْلِهِمْ مَعَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ. فِيمَا بَلَّغْنِي. نَزَلَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾، أَي الْآيَاتِ الَّتِي وَضَعَتْ عَلَى يَدَيْهِ، مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَخَلْقِهِ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ، ثُمَّ يَنْفَخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِبْرَاءَ الْأَسْقَامِ، وَالْخَبَرَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْغُيُوبِ مِمَّا يَدْخُرُونَ فِي بَيُوتِهِمْ، وَمَا رَدَّ عَلَيْهِمْ مِنَ التَّورَةِ مَعَ الْإِنْجِيلِ، الَّذِي أَحْدَثَ اللَّهُ إِلَيْهِ.

(١) وهذا هو حال كثير من المسلمين اليوم، آمنوا بآية الزكاة وكفروا بآية تحريم الربا، آمنوا بآية الصوم وكفروا بآية الصلاة، آمنوا بآية الحج وكفروا بآية تحريم الخمر، آمنوا ببعض الشعائر وكفروا بآية الشرائع، تجد اللافتان وقد علّق عليها ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم﴾... الآية ولا تجد لافنة عليها ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾. أظهروا بعض الكتاب وأخفوا البعض. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم ذكر كفرهم بذلك كله، فقال: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: في أكنة^(١): يقول الله عز وجل: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ^(٢) من قومه، قال: قالوا: فينا والله وفيهم نزلت هذه القصة، كنا قد علوناهم ظهراً في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب فكانوا يقولون لنا: إن نبياً يبعث الآن نتبعه قد أظلم زمانه، نقلكم معه قتل عاد وإرم. فلما بعث الله رسوله ﷺ من قريش فاتبعناه كفروا به. يقول الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، أي أن جعله في غيرهم: ﴿فَبَاؤُوا بَغْضِي عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: فباؤوا بغضب: أي اعترفوا به واحتملوه. قال أعشى بني قيس بن ثعلبة:

أصالحكم حتى تبوؤوا بمثلها كصرخة حُبلى يسرتها قبيلها

قال ابن هشام: يسرتها: أجلستها للولادة. وهذا البيت في قصيدة له.

قال ابن إسحاق: فالبغضب على الغضب لغضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة، وهي معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبي ﷺ الذي أحدث الله إليهم.

ثم أثبهم برفع الطور عليهم، واتخاذهم العجل إلهاً دون ربهم، يقول الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب عند الله، فأبوا ذلك

(١) غلف: أي على قلوبنا غشاوة فهي أوعية فلا تعي ولا تفقه ما تقول. انظر شفاء العليل لابن القيم

(٤٣) رحمه الله تعالى رحمة واسعة وجزاه الله عنا كل خير.

(٢) مجاهيل.

على رسول الله ﷺ. يقول الله جل ثناؤه لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَنْ يَتَمَوَّهَ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، أي بعلمهم بما عندهم من العلم بك، والكفر بذلك، فيقال: لو تمَّوه يوم قال ذلك لهم ما بقي على وجه الأرض يهودي إلا مات. ثم ذكر رغبتهم في الحياة الدنيا وطول العمر، فقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ اليهود ﴿وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَ أَحْدَهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾^(١)، أي ما هو بمنجيه من العذاب، وذلك أن المشرك لا يرجو بعثًا بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودي قد عرف ماله في الآخرة من الخزي بما ضيَّع مما عنده من العلم. ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

سؤال اليهود الرسول، وإجابته لهم عليه الصلاة والسلام:

قال ابن إسحاق: حدَّثني عبدُ الله بن (عبد) الرحمن بن أبي حسين المكي عن شهر بن حوشب الأشعري^(٢): أن نفرًا من أحوار يهود جاؤوا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن أربع نسائك عنهن، فإن فعلت ذلك اتبعناك وصدقناك وأمنا بك. قال: فقال لهم رسولُ الله ﷺ: عليكم بذلك عهدُ الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقنني؟ قالوا: نعم، قال: فاسألوا عما بدا لكم، قالوا: فأخبرنا كيف يشبه الولد أمه، وإنما النطفة من الرجل؟ قال: فقال لهم رسولُ الله ﷺ: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة، ونطفة المرأة صفراء رقيقة، فأيتهما علَّت صاحبتهما كان لها الشبه؟ قالوا: اللهم نعم. قالوا: فأخبرنا كيف نومك؟ فقال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أن نوم الذي تزعمون أنني لستُ به تنام عينه وقلبه يقظان؟ فقالوا: اللهم نعم، قال: فكذلك نومي، تنام عيني وقلبي يقظان. قالوا: فأخبرنا عما حرَّم إسرائيل على نفسه؟ قال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه كان أحبَّ الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها، وأنه اشتكى شكوى، فعافاه الله منها، فحرَّم على نفسه أحبَّ الطعام والشراب إليه شكرًا لله، فحرَّم على نفسه لحوم الإبل وألبانها؟ قالوا: اللهم نعم. قالوا: فأخبرنا عن الروح؟ قال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمونه جبريل، وهو الذي يأتيني؟ قالوا: اللهم نعم، ولكنه يا محمد لنا

(١) ويبدو أن الكلمة الرائدة على السنة كثير من الناس عند التهتة من بعض المناسبات قولهم: «عقبال ألف سنة» أصلها هذا التمني لدى اليهود. والله أعلى وأعلم.

(٢) شهر بن حوشب: ضعيف الحديث.

عدو، وهو ملك، إنما يأتي بالشدة ويسفك الدماء، ولولا ذلك لاتبعناك، قال: فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾... إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ﴾، أي السحر ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

إنكار اليهود نبوة سليمان بن داود عليه السلام ورد الله عليهم^(١):

قال ابن إسحاق: وذلك أن رسول الله ﷺ - فيما بلغني - لما ذكر سليمان بن داود في المرسلين، قال بعض أخبارهم: ألا تعجبون من محمد، يزعم أن سليمان بن داود كان نبياً، والله ما كان إلا ساحراً. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، أي باتباعهم السحر وعملهم به. ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾.

قال ابن إسحاق: وحديثي بعض من لا أتهم عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه كان يقول: الذي حرّم إسرائيل على نفسه زائدتا الكبد والكليتان والشحم، إلا ما كان على الظهر، فإن ذلك كان يُقَرَّبُ للقربان، فتأكله النار.

كتابه ﷺ إلى يهود خيبر:

قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله ﷺ إلى يهود خيبر، فيما حدثني مولى لآل زيد بن ثابت عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله ﷺ، صاحب موسى وأخيه، والمصدق لما جاء به موسى: ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة، وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى

(١) بالأصل: «إنكار اليهود نبوة داود عليه السلام...» وهو تصحيف والصواب ما أثبتناه.

سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾.

واني أنشدكم بالله، وأنشدكم بما أنزل عليكم، وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى، وأنشدكم بالذي أيس البحر لأبائكم حتى أنجاهم من فزعون وعمله، إلا أخبرتموني: هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كُزه عليكم. ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ - فادعوكم إلى الله وإلى نبيه.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: شطؤه: فراخه، وواحدته: شطأة. تقول العرب: قد أشطأ الزرع إذا أخرج فراخه. وآزره: عاونه، فصار الذي قبله مثل الأمهات. قال امرؤ القيس بن حُجر الكندي:

بِمَخْنِيَةٍ قَدْ آزَرَ الضَّالَّ نَبْتُهَا مَجَرَّ جُيُوشِ غَانِمِينَ وَخُيْبٍ
وهذا البيت في قصيدة له. وقال حميد بن مالك الأزقط، أحد بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة:

رَزَعَا وَقَضَبَا مُؤَزَّرَ النَّبَاتِ

وهذا البيت في أرجوزة له. وسوقه غير مهموز جمع ساق، لساق الشجرة.

ما نزل في أبي ياسر وأخيه

قال ابن إسحق: وكان ممن نزل فيه القرآن، بخاصة من الأحرار وكفار يهود، الذي كانوا يسألونه ويتعنثونه ليلبسوا الحق بالباطل - فيما ذكر لي عن عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله بن رثاب - أن أبا ياسر بن أخطب مر برسول الله ﷺ، وهو يتلو فاتحة البقرة: ﴿الْمَ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فأتى أخاه حُيَيَّ بن أخطب في رجال من

حديث أبي ياسر بن أخطب

فصل: وذكر ابن إسحق حديث أبي ياسر بن أخطب وأخيه حبيي بن أخطب حين سمعا «الْمَصَّ» ونحوها من الحروف، وأنهم أخذوا تأويلها من حروف أبجد إلى قوله: لعله قد جمع لمحمد وأمه هذا كله. قال المؤلف: وهذا القول من أحرار يهود، وما تأولوه من معاني هذه الحروف محتمل، حتى الآن أن يكون من بعض ما دلت عليه هذه الحروف

يهود، فقال: تعلّموا والله، لقد سمعت محمدًا يتلو فيما أنزل عليه: ﴿الَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، فقالوا: أنت سمعته؟ فقال: نعم، فمضى حُيَيُّ بن أخطب في أولئك الثّفر من يهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا له: يا محمد، ألم يُذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل إليك: ﴿الَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: بلى، قالوا: أجاءك بها جبريل من عند الله؟ فقال: نعم، قالوا: لقد بثّ الله قبلك أنبياء، ما نعلمه بيّن لنبيّ منهم ما مدّة ملكه، وما أكل أمته غيرك، فقال حُيَيُّ بن أخطب، وأقبل على من معه، فقال لهم: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، أفتمدخلون في دين إنما مدّة مُلكه وأكل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، هل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: ماذا؟ قال: ﴿الْمَصْرُ﴾. قال: هذه والله أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه إحدى وستون ومائة سنة، هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: نعم ﴿الرَّ﴾ قال: هذه والله أثقل وأطول، الألف

المقطّعة، فإن رسول الله - ﷺ - لم يكذبهم فيما قالوا من ذلك، ولا صدقهم^(١). وقال في حديث آخر: «لا تُصدّقوا أهل الكتاب، ولا تُكذّبوهم، وقولوا: آمنا بالله وبرسوله»^(٢). وإذا كان في حدّ الاحتمال وجب أن يُفحص عنه في الشريعة هل يُشير إلى صحته كتاب أو سنة، فوجدنا في التنزيل ﴿وإن يومًا عند ربك كآلف سنة مما تُعدّون﴾ ووجدنا في حديث زُمَيل الخزاعي حين قص على رسول الله - ﷺ - رؤيا، وقال فيها: رأيتك يا رسول الله على منبر له سبع درجات، وإلى جنبه ناقة عَجَفَاء، كأنك تبعثها، ففسر له النبي ﷺ الناقة بقيام الساعة التي أنذر بها، وقال في المنبر: ودرجاته الدنيا: سبعة آلاف سنة بعثت في آخرها ألفًا، والحديث وإن كان ضعيف الإسناد، فقد رُوِيَ موقوفًا على ابن عباس من طريق صحيح، أنه قال: «الدنيا سبعة أيام كل يوم ألف سنة، وبعث رسول الله - ﷺ - في آخر يوم منها. وقد مضت منه سنون، أو قال: مئوت^(٣)، وصحح أبو جعفر الطبري هذا الأصل، وعضده بآثار، وذكر قول رسول الله - ﷺ - «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين، وإنما سَبَقْتُها بما سبقت هذه»^(٤)، يعني: الوسطى والسبابة، وأورد هذا الحديث من طرق كثيرة صححها وأورد منها

(١) لا صحة لهذا التأويل اليهودي.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٧/٣) والبيهقي (١٦٣/١٠) ومن الصفات له (٢٧٠) بتحقيقي. والحديث فيما لا يخالف عقيدة المسلمين المتلقاة عن كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ «الصحيحة».

(٣) «موضوع». انظر ابن الجوزي من اللآلئ (٢٣٦/٢) وتذكرة الموضوعات للفتن (٢٢٤) وأخرجه أبو نعيم في تاريخ جرجان (١٤٠).

(٤) تقدم تخريجه.

واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتان، هل مع هذا غيره يا محمد؟ قال: نعم ﴿الْمَرَّ﴾. قال: هذه والله أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة، ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد، حتى ما نذري أقليلاً أعطيت أم كثيرًا؟ ثم قاموا عنه، فقال أبو ياسر لأخيه حبي بن أخطب ولمن معه من الأخبار: ما يُدريكم لعلّه قد جُمع هذا كله لمحمد، إحدى وسبعون، وإحدى وستون ومائة، وإحدى وثلاثون ومائتان، وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة، فقالوا: لقد تشابه علينا أمره. فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾^(١).

قال ابن إسحق: وقد سمعت من لا أتهم من أهل العلم يذكر: أن هؤلاء الآيات إنما أنزلن في أهل نجران، حين قَدِموا على رسول الله ﷺ يسألونه عن عيسى ابن مريم عليه السلام.

قوله عليه السلام: «لن يُعجزَ الله أن يؤخرَ هذه الأمة نصفَ يومٍ»^(٢)، يعني: خمسمائة عام، وقد خرّج، هذا الحديث الأخير أبو داود أيضًا. قال الطبري: وهذا في معنى ما قبله يشهد له ويبينه فإن الوسطى تزيد على السبابة بنصف شُبُع أضبع، كما أن نصف يوم من سبعة نصف سبع. قال المؤلف: وقد مضت الخمسمائة من وفاته إلى اليوم بَيَّنَّف عليها، وليس في قوله: لن يُعجزَ الله أن يؤخرَ هذه الأمة نصفَ يومٍ ما ينفي الزيادة على النصف، ولا في قوله: «بعثت أنا والساعة كهاتين» ما يقطع به على صحة تأويله، فقد قيل في تأويله غير هذا، وهو أن ليس بينه وبين الساعة نبي غيره، ولا شرع غير شرعه مع التقريب لحينها، كما قال سبحانه: ﴿اقتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾، «وَأَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ» ولكن إذا قلنا: إنه - عليه السلام - بُعث في الألف الآخر بعدما مضت منه سنون، ونظرنا بعدُ إلى الحروف المقطّعة في أوائل السور، وجدناها أربعة عشر حرفًا يجمعها: قولك:

ألم يسطع نص حق كره^(٣)

ثم نأخذ العدد على حساب أبي جاد، فنجد: ق مائة، و: ر مائتين، و: س ثلاثمائة، فهذه ستمائة، و: ع سبعين، و: ص ستين، فهذه سبعمائة وثلاثون، و: ن خمسين، و: ك

(١) انظر تفسير ابن كثير (٥٧/١) الطبري (٢٠٧/١).

(٢) «صحيح». أخرجه أبو داود (٤٣٤٩) بتحقيق. والحاكم (٤٢٤/٤) والطبري في تاريخه (١٨/١).

(٣) وجمعها قولك: «نص قاطع حكيم له سر».

قال ابن إسحاق: وقد حدثني محمد بن أبي أُمّامة بن سهل بن حنيف، أنه قد سمع: أن هؤلاء الآيات إنما أنزلن في نفر من يهود، ولم يُفسّر ذلك لي. فالله أعلم أي ذلك كان.

كفر اليهود به ﷺ بعد استفتاحهم به وما نزل في ذلك:

قال ابن إسحاق: وكان فيما بلغني عن عكرمة مولى ابن عباس، أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبّعه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن مغرور، أخو بني سلمة: يا مغشّر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتُخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلام بن مشكم، أحد بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنّا نذكره لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

ما نزل في نكران مالك بن الصيف العهد إليهم بالنبي:

قال ابن إسحاق: وقال مالك بن الصيف، حين بُعث رسول الله ﷺ، وذكر لهم ما أخذ عليهم له من الميثاق، وما عهد الله إليهم فيه: والله ما عهد إلينا في محمد عهد، وما أخذ له علينا من ميثاق. فأنزل الله فيه: ﴿أَوْ كُلُّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

عشرين، فهذه ثمانمائة، و: م أربعين، و: ل ثلاثين، فهذه ثمانمائة وسبعون، و: ي عشرة. و: ط تسعة، و: أ واحد، فهذه ثمانمائة وتسعون، و: ح ثمانية، و: ه خمسة، فهذه تسعمائة وثلاثة، ولم يُسم الله سبحانه في أوائل السور إلا هذه الحروف، فليس يبعد أن يكون من بعض مُقتَضياتها وبعض فوائدها الإشارة إلى هذا العدد من السنين لما قدمناه في حديث الألف السابع الذي بعث فيه عليه السلام، غير أن الحساب محتمل أن يكون من مبّعه، أو من وفاته، أو من هجرته، وكلُّ قريب بعضه من بعض، فقد جاء أشراطها، ولكن

(١) دعوة إلى حكام وملوك وساسة هذا الزمان أن يتعلموا من القرآن مع مَنْ يتعاملون، وإلى مَنْ يجلسون، ومع أي عقول يتحاورون، إلى الذين يعقدون مؤامرات أو مؤتمرات السلام مع اليهود: اقرؤوا هذه الآية جيّدا وضعوها نصب أعينكم.

ما نزل في قول أبي صلوبا: «ما جئتنا بشيء نعرفه»:

وقال أبو صلوبا الفطيووني لرسول الله ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية فتنبئك لها. فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾.

ما نزل في قول ابن حريملة ووهب:

وقال رافع بن حريملة، ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد، اثبتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجر لنا أنهارًا نتبعك ونصدقك. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: سواء السبيل: وسط السبيل. قال حسان بن ثابت:

يا وَنَحْ أَنْصَارَ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ بعد الْمُغَيَّبِ فِي سَوَاءِ الْمُلْحَدِ

وهذا البيت في قصيدة له سأذكرها في موضعها إن شاء الله تعالى.

ما نزل في صد حبي وأخيه الناس عن الإسلام:

قال ابن إسحق: وكان حبي بن أخطب وأخوه أبو ياسر بن أخطب، من أشد يهود للعرب حسداً، إذ خضهم الله تعالى برسوله ﷺ، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا. فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُودُنَكُمْ مِنْ

لا تأتیکم إلا بغتة^(١)، وقد روي أن المتوكل العباسي سأل جعفر بن عبد الواحد القاضي، وهو عباسي أيضاً: عما بقي من الدنيا، فحدثه بحديث يرفعه إلى رسول الله ﷺ - أنه قال: «إن أحسن أمتي، فبقاؤها يوم من أيام الآخرة، وذلك ألف سنة، وإن أساءت، فنصف يوم»^(٢)، ففي هذا الحديث تتميم للحديث المتقدم وبيان له؛ إذ قد انقضت الخمسمائة، والأمة باقية والحمد لله.

(١) لا صحة لهذا التأويل البعيد جداً عن الصحة من تفسير الآيات بالحروف، وأصل هذا عند اليهود كما تقدم. فانتبه.

(٢) «ضعيف». انظر الفتح (١١/٣٥١).

بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَرُوا وَاصْطَفُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

تنازع اليهود والنصارى عند الرسول ﷺ:

قال ابن إسحاق: ولَمَّا قَدِمَ أَهْلُ نَجْرَانِ مِنَ النَّصَارَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَتَتْهُمْ أَحْبَابُ يَهُودٍ، فَتَنَازَعُوا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَافِعُ بْنُ حُرَيْمَةَ: مَا أَنْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَكَفَّرَ بَعِيسَى وَبِالْإِنْجِيلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانِ مِنَ النَّصَارَى لِلْيَهُودِ: مَا أَنْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَجَحَدَ نَبْوَةَ مُوسَى وَكَفَرَ بِالتَّوْرَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أَيُّ كُلِّ يَتْلُو فِي كِتَابِهِ تَصَدِيقَ مَا كَفَرَ بِهِ، أَيُّ يَكْفِرُ الْيَهُودُ بِعِيسَى، وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالتَّصَدِيقِ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي الْإِنْجِيلِ مَا جَاءَ بِهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ تَصَدِيقِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ التَّوْرَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَكُلٌّ يَكْفِرُ بِمَا فِي يَدِ صَاحِبِهِ.

ما نزل في طلب ابن حريملة أن يكلمه الله:

قال ابن إسحاق: وقال رافع بن حريملة لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا مُحَمَّدُ، إِنْ كُنْتَ رَسُولًا مِنَ اللَّهِ كَمَا تَقُولُ، فَقُلْ لِلَّهِ فَلْيُكَلِّمْنَا حَتَّى نَسْمَعَ كَلَامَهُ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

معاني الحروف في أوائل السور:

فصل: ولهذه الحروف في أوائل السور معاني جَمَّةٌ وفوائد لطيفة، وما كان الله تعالى لِيُنْزَلَ فِي الْكِتَابِ مَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَلَا لِيُخَاطَبَ نَبِيُّهُ وَذَوِي الْأَبَابِ مِنْ صَحْبِهِ بِمَا لَا يَفْهَمُونَ، وَقَدْ أَنْزَلَهُ بَيَانًا لِلنَّاسِ، وَشَفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ، فَفِي تَخْصِيصِهِ هَذِهِ الْحُرُوفُ الْأَرْبَعَةُ عَشَرَ بِالذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهَا حِكْمَةٌ بَلْ حِكْمٌ، وَفِي أَنْزَالِهَا مُقْطَعَةٌ عَلَى هَيْئَةِ التَّهْجِي فَوَائِدُ عِلْمِيَّةٌ وَفَقْهِيَّةٌ، وَفِي تَخْصِيصِهَا بِأَوَائِلِ السُّورِ، وَفِي أَنَّ كَانَتْ فِي بَعْضِ السُّورِ، دُونَ بَعْضِ فَوَائِدُ أَيْضًا، وَفِي اقْتِرَانِ الْأَلْفِ بِاللَّامِ، وَتَقَدُّمِهَا عَلَيْهَا مَعَانٍ وَفَوَائِدُ، وَفِي إِرْدَافِ الْأَلْفِ وَاللَّامِ بِالْمِيمِ تَارَةً، وَبِالرَّاءِ أُخْرَى، وَلَا تَوْجِدُ الْأَلْفَ، وَاللَّامَ فِي أَوَائِلِ السُّورِ، إِلَّا هَكَذَا مَعَ تَكَرُّرِهَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَرَّةً فَوَائِدُ أَيْضًا، وَفِي أَنْزَالِ الْكَافِ قَبْلَ الْهَاءِ، وَالْهَاءِ قَبْلَ الْيَاءِ ثُمَّ الْعَيْنِ ثُمَّ الصَّادِ مِنْ «كَهَبَعَصَّ» مَعَانٍ أَكْثَرُهَا تَنْبَهُ عَلَيْهَا آيَاتٌ مِنَ الْكِتَابِ، وَتَبَيَّنَ الْمُرَادُ بِهَا لِمَنْ تَدَبَّرَهَا.

ما نزل في سؤال ابن صوريا للنبي عليه الصلاة والسلام بأن يتهود:

وقال عبد الله بن صوريا الأعور الفطيويني لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تُهد، وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله تعالى في ذلك من قول عبد الله بن صوريا وما قالت النصارى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١). ثم القصة إلى قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

مقالة اليهود عند صرف القبلة إلى الكعبة

قال ابن إسحاق: ولما صُرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة، وصُرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهرًا من مقدم رسول الله ﷺ المدينة؛ أتى رسول الله ﷺ رِفاعَةُ بْنُ قَيْسٍ، وَقَزْدَمُ بْنُ عَمْرٍو، وَكَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ، وَرَافِعُ بْنُ أَبِي رَافِعٍ، وَالْحَجَّاجُ بْنُ عَمْرٍو، حَلِيفُ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، وَالرَّبِيعُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ، وَكِثَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّد، مَا وَلَّاكَ عَنْ قِبْلَتِكَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا، وَأَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِهِ؟ ارْجِعْ إِلَى قِبْلَتِكَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا نَتَّبِعْكَ وَنُصَدِّقْكَ، وَإِنَّمَا يَرِيدُونَ

والتدبرُ والتذكر واجبٌ على أولي الألباب، والخوضُ في إيراد هذه المعاني، والقصدُ لإيضاح ما لاح لي عند الفكر والنظر فيها، مع إيراد الشواهد على ذلك من كتاب وأثرٍ وعربية ونظيرٍ يُخرجنا عن مقصود الكتاب وينأى بنا عن موضوعه والمراد به، ويقتضي إفراد جزء أشرح ما أمكن من ذلك، ولعله أن يكون، إن ساعد القدر؛ والله المستعان، وهو ولي التوفيق، لا شريك له^(٢).

ذكر تحويل القبلة

فصل: وذكر تحويل القبلة، وما قالته جماعة يهود حين قالوا: يا محمد ما وَلَّاكَ عَنْ قِبْلَتِكَ، وهم السفهاء من الناس، فيهم نزلت هذه الآية. وقال: سيقول بلفظ الاستقبال لتقدم العلم القديم بأنهم سيقولون ذلك، أي: لم أمركم بتحويلها إلا وقد علمت أن سيقولون ما

(١) أي قالت اليهود: كونوا هودًا تهتدوا، وقالت النصارى: كونوا نصارى تهتدوا. وليس المراد التخيير.

(٢) وقالوا في تفسيرها: إنها للإعجاز والتحدي، أي: إن هذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ إنما هو مكوّن من نفس هذه الحروف التي برعتم أنتم أيها العرب فيها. أي في العربية، وقالوا: معناها أن نقول: الله أعلم بما أراد بها.

بذلك فتنته عن دينه فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ أي ابتلاء واختباراً ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي من الفتن: أي الذين ثبت الله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي إيمانكم بالقبلة الأولى، وتصديقكم نبيكم، واتباعكم إياه إلى القبلة الآخرة، وطاعتكم نبيكم فيها: أي ليعطينكم أجرهما جميعاً ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: شطره: نحوه وقصده. قال عمرو بن أحمر الباهلي - وباهلة بن يعصر بن سعد بن قيس بن عيلان - يصف ناقة له.

تعدو بنا شَطْرَ جَمْعٍ وهي عاقدةٌ قد كَارَبَ الْعَقْدُ من إيفادها الْحَقْبَا
وهذا البيت في قصيدة له.

قالوه، وقد ذكرنا في حديث الهجرة، قصة الْبَرَاءِ بن مَعْرُور فوائده في معنى تحويل القبلة، فلتنظر هنالك وأنشد في تفسير الشطر بيت ابن أحمر:

تَعْدُو بنا شَطْرَ جَمْعٍ وهي عاقدةٌ قد قاربَ الْعَقْدُ من إيفادها الْحَقْبَا
وَأَلْفَيْتُ في حاشية الشيخ على هذا البيت ما هذا نصه، قال من إيفادها: من إشرافها، كذا قال محمد بن عبد الله الْبَرْقِيُّ، وقال: كَارَبَ موضعَ قَارَبَ، ووقع في شعر ابن أحمر:

تَعْدُو بنا عُزْضَ جَمْعٍ وهي مُوقِدةٌ قد قاربَ الْعُزْضُ من إيفادها الْحَقْبَا
تعدو: من الْعَدُو بنا وبرحلي: يعني غلامه. عُزْضَ جَمْعٍ: يعني مكة، وعُزْضَ أحب إلي، وعُزْضُ: كثرة الناس، عن الأصمعي، ومُوقِدةٌ، أي: مشرفة. أوفد: إذا أشرف، وروى غيره: وهي عاقدة، يريد عنقها لاويتها والعُزْضُ: الْبَطَانُ وهو حزام الرِّحْلِ. من إيفادها، أي إشرافها، وقد اقتادت: نصبت عُنْقَهَا وَعَصَرَتْ بِذَنْبِهَا وتخامصت ببطنها فقرب كل واحد من

وقال قيس بن خويلد الهذلي يصف ناقته:

إِنَّ التُّعُوسَ بِهَا دَاءٌ مُخَامِرُهَا فَشَطَرُهَا نَظَرُ الْعَيْنِينَ مَحْسُورٌ

وهذا البيت في أبيات له.

قال ابن هشام: والتُّعُوسُ: ناقته، وكان بها داء فنظر إليها نظر حسير، من قوله:

وهو حسير.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

قال ابن إسحاق: إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ﴾.

كتمانهم ما في التوراة من الحق:

وسأل معاذ بن جبل، أخو بني سلمة، وسعد بن معاذ، أخو بني عبد الأشهل وخارجة بن زيد، أخو بلحارث بن الخزرج، نفرًا من أحبار يهود عن بعض ما في التوراة، فكتموهم إياه، وأبوا أن يخبروهم عنه. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾.

جوابهم للنبي عليه الصلاة والسلام حين دعاهم إلى الإسلام:

قال: ودعا رسول الله ﷺ اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغبهم فيه، وحذَّره عذاب الله ونقمته؛ فقال له رافع بن خارجة، ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم وخيرًا منَّا. فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهما: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

الْعَرَضُ وَالْحَقُّ مِنْ صَاحِبِهِ بِذَلِكَ. هنا انتهى ما كتبه الشيخ على هذا البيت وأوردته وقبل البيت:

أنشأت أسأله عن حال رُفَقَتِهِ فقال: حَيٌّ فَإِنَّ الرِّكْبَ قَدْ نَصَبَا

جمعهم في سوق بني قينقاع

ولما أصاب الله عز وجل قريشاً يوم بدر جمع رسول الله ﷺ يهوداً في سوق بني قينقاع، حين قدم المدينة، فقال: يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشاً، فقالوا له: يا محمد، لا يغرتك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش، كانوا أعمارًا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣].

دخوله ﷺ بيت المدراس:

قال: ودخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود، فدعاهم إلى الله، فقال له الثعمان بن عمرو، والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ قال: على ملة إبراهيم ودينه، قالا: فإن إبراهيم كان يهوديًا؟ فقال لهما رسول الله ﷺ: فَهَلَمَّ إِلَى التَّوْرَةِ، فَهِيَ بَيْنَا وَبَيْنَكُمْ، فَأَبَا عَلَيْهِ. فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نُصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَخْكَمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

ما أنزل الله في بني قينقاع

فصل: وذكر ما أنزل الله سبحانه في بني قينقاع، وقولهم للنبي ﷺ: لو حاربتنا، علمت أننا نحن الناس: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿تَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ﴾ فمن قرأه: يَرَوْنَهُمْ بالياء، فمعناه أن الكفار يرون المؤمنين مثلهم، وإن كانوا أقل منهم لما كثرهم بالملائكة. فإن قيل: وكيف وهو يقول في آية أخرى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ قيل: كان هذا قبل القتال عندما خَزَرَ الكفار المؤمنين، فرأوهم قليلاً، فتجاسروا عليهم ثم أمدهم الله بالملائكة، فرأوهم، كثيراً فانهزموا، وقيل: إن الهاء في يَرَوْنَهُمْ عائدة على الكفار، وإن المؤمنين رَأَوْهُمْ مثلهم، وكانوا ثلاثة أمثالهم، فقللهم في عيون المؤمنين، وأما من قرأها بالياء، فيجوز أن يكون الخطاب لليهود، أي ترون المشركين يوم بدر مثلي المؤمنين، وذلك أنهم كانوا ألفاً، فانخذل عنهم الأخنس بن شريق بني زهرة، فصاروا سبعمائة أو نحوها، ويجوز أن يكون الخطاب للمشركين، أي: ترون أبها المشركون المؤمنين مثلهم، حين

اختلاف اليهود والنصارى في إبراهيم عليه السلام:

وقال أخبارُ يهودَ ونصارى نجران، حين اجتمعوا عند رسول الله ﷺ فتنازعوا، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيمُ إلا يهوديًا، وقالت النصارى من أهل نجران: ما كان إبراهيمُ إلا نصرانيًا. فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ما كان إبراهيمُ يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ.﴾

ما نزل فيما هم به بعضهم من الإيمان غدوة والكفر عشية:

وقال عبدُ الله بن صيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف، بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة، ونكفر به عشية، حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع، ويرجعون عن دينه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ الثَّهَارَ وَانْخَفُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.﴾

ما نزل في قول أبي رافع والنجراني «أتريد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى»؟

وقال أبو رافع القرظي، حين اجتمعت الأخبار من يهود، والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام: أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ وقال رجل من أهل نجران نصراني، يقال له: الرئيس، (ويروى: الرئيس، والرئيس): أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعوننا؟ أو كما قال. فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله أن أعبد غير الله أو أمر بعبادة غيره، فما بذلك بعثني الله، ولا أمرني؛ أو كما قال. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ

أمدهم الله بالملائكة فيعود الكلام إلى المعنى الأول الذي قدمناه في قراءة من قرأ بالياء. وفي الآية تخليط عن الفراء أضربنا عن ذكره، وجُل ما ذكرناه آنفاً مذكور في التفاسير بالفاظ مختلفة.

بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿١﴾ ... إلى قوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١).

قال ابن هشام: الربانيون: العلماء الفقهاء السادة، واحدهم: رباني.

قال الشاعر:

لو كنت مُرْتَهَنًا فِي الْقَوْسِ أَفْتَنَنِي مِنْهَا الْكَلَامُ وَرَبَّانِي أَخْبَارِ

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: القوس: صومعة الراهب. وأفتنني، لغة تميم. وفتنني، لغة قيس.

قال جرير:

لا وَضِلْ إِذْ صَرَمْتَ هِنْدٌ وَلَوْ وَقَفْتَ لاسْتَزَلَّتْنِي وَذَا الْمُسْحَيْنِ فِي الْقَوْسِ

أي صومعة الراهب. والرباني: مشتق من الرب، وهو اليد. وفي كتاب الله: ﴿فَيَسْئَلُ رَبُّهُ خَمْرًا﴾، أي سيده.

وذكر ابن هشام في الربانيين أنهم العلماء الفقهاء السادة وفي البخاري عن بعض أهل العلم قال: الربانيون الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره، وقيل: نسبوا إلى علم الرب والفقهاء فيما أنزل وزيدت فيه الألف والنون لتفخيم الاسم، وأنشد ابن هشام:

لو كنت مُرْتَهَنًا فِي الْقَوْسِ أَفْتَنَنِي مِنْهَا الْكَلَامُ وَرَبَّانِي أَخْبَارِ

وقال: القوس: الصومعة، ومن كلام العرب: أنا بالقوس وأنت بالقرقوس، فكيف نجتمع؟ وقال في أفتنني: هي لغة تميم، وفرق سيبويه بين فتنته وأفتنته، وجعله من قول الخليل، قال أفتنته: صيرته مُفْتَنًّا أو نحو هذا، وفتنته، جعلت فيه فتنه، كما تقول: كحلته جعلت في عينه كحلاً، ومال هذا الفرق إلى أن فتنته صرفته، فجاء على وزنه، لأن المفتون مَصْرُوفٌ عن حَقٍّ، وأفتنته بمعنى أضللتُه وأغويتُه، فجاء على وزن ما هو في معناه، وأما فتنن الحديد في النار، فعلى وزن فعلت، لا غير؛ لأنها في معنى: خَبَرْتَهَا، وبلَوْتُهَا ونحو ذلك.

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٣٨٤/٥) وأورده ابن كثير في الدر (٤٠/٢) وابن كثير في تفسيره (٥٤/٢).

قال ابن إسحاق: ﴿وَلَا يَأْمُرْكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرْكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

ما نزل في أخذ الميثاق عليهم:

قال ابن إسحاق: ثم ذكر ما أخذ الله عليهم، وعلى أنبيائهم من الميثاق بتصديقه إذ هو جاءهم، وإقرارهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِضْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ إلى آخر القصة.

سعيهم في الوقيعة بين الأنصار:

قال ابن إسحاق: ومَرَّ شَأْسُ بْنُ قَيْسٍ، وكان شيخاً قد عسا، عظيم الكُفر شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نَفَرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج. في مجلس قد جَمَعَهُم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من أَلْفَتِهِم وجماعتهم، وصَلاح ذات بَيْنِهِم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة. في الجاهلية فقال: قد اجتمع مَلَأُ بني قَيْلَةَ بهذه البلاد، لا والله ما لنا مَعَهُمْ إذا اجتمع مَلَأُهم بها من قَرَار. فأمر فَنَى شَابًا من يَهُودَ كان معهم، فقال: اعْمِدْ إِلَيْهِمْ، فاجلس معهم، ثم اذْكُرْ يَوْمَ بُعَاث وما كان قَبْلَهُ وأنشدَهُم بعض ما كانوا تَقُولُوا فيه مِنَ الْأَشْعَارِ.

شيء عن يوم بعث:

وكان يوم بُعَاث يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس عن الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حُضَيْرُ بْنُ سِمَاكٍ الأشْهَلِي، أَبُو أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ؛ وعلى الخزرج عمرو بن النُعمان البَيَاضِي، فَقُتِلَا جَمِيعًا.

قال ابن هشام: قال أبو قيس بن الأسلت:

على أن قد فُجِعْتُ بِذِي جِفاظٍ فَعَاوَدَنِي لَهُ حُزْنٌ رَصِينٌ
فإِذَا تَقَتَّلُوهُ فَإِنَّ عَمْرًا أَعْضُ بِرَأْسِهِ عَضْبَ سَنِينِ

وهذان البيتان في قصيدة له. وحديث يوم بُعَاث أطول مما ذكرْتُ، وإنما منعني من استقصائه ما ذكرت من القُطْعِ.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب :

قال ابن هشام : سنين : مسنون ، من سئه ، إذا شحذه .

قال ابن إسحق : ففعل . فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تَوَاتَب رجالان من الحَيِّين على الرُّكْب ، أوس بن قَيْظي ، أحد بني حارثة بن الحارث ، من الأوس ، وجَبَّار بن صخر ، أحد بني سلمة من الخزرج ، فتَقَاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رَدَدْنَاهَا الْآنَ جَذْعَةً ، فغضب الفريقان جميعاً ، وقالوا : قد فَعَلْنَا ، موعدكم الظَّاهِرَة - والظَّاهِرَة : الحَزَّة - السِّلَاح السِّلَاح . فخرجوا إليها ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم ، فقال : «يا معشر المسلمين ، الله الله ، أيدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بين قلوبكم»^(١) ، فعرف القوم أنها نَزْغَةٌ من الشيطان ، وكَبِدٌ من عدوهم ، فَبَكَوا وعَانَقَ الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مُطِيعِينَ ، قد أطفأ الله عنهم كَيْدَ عَدُوِّ الله شَأْسَ بن قيس . فَأَنْزَلَ الله تعالى في شَأْسَ بن قَيْسٍ وما صَنَعَ : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

وَأَنْزَلَ الله في أَوْسِ بْنِ قَيْظِي وَجَبَّارِ بْنِ صَخْرٍ وَمَن كَانَ مَعَهُمَا مِنْ قَوْمِهِمَا الَّذِينَ صَنَعُوا مَا صَنَعُوا عَمَّا أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ شَأْسُ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ . . . إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

ما نزل في قولهم : «ما آمن إلا شرارنا» :

قال ابن إسحق : ولما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سَعِيَّة ، وأَسِيدُ بْنُ سَعِيَّة ، وأَسَدُ بْنُ عُيَيْدٍ ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودٍ مَعَهُمْ ، فَأَمَنُوا وَصَدَّقُوا وَرَغَبُوا فِي الْإِسْلَامِ ، وَرَسَخُوا

(١) انظر البخاري (٤/٢٢٣) .

فيه، قالت أحبارُ يهود، أهل الكُفر منهم: ما آمن بمحمّد ولا اتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من أختيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: آناء الليل: ساعات الليل، وواحدها: إنّي. قال المُنْتَحَلُ الهذلي، واسمه مالك بن عُويم، يرثي أئيلة ابنه:

حُلُو وَمَرَّ كَعَطَفِ الْقِدْحِ شِمْمُهُ فِي كُلِّ إِنِّي قَضَاهُ اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ

وهذا البيت في قصيدة له. وقال ليبد بن ربيعة يصف حمار وخش:

يُطَرَّبُ آنَاءَ النَّهَارِ كَأَنَّهُ عَوِي سَقَاهُ فِي التُّجَارِ نَدِيمُ

وهذا البيت في قصيدة له، ويقال: إنني مقصور فيما أخبرني يونس.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

ما نزل في نهى المسلمين عن مباطنة اليهود:

قال ابن إسحق: وكان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود، لما كان بينهم من الجوار والحلف، فأنزل الله تعالى فيهم ينهاهم عن مُباططهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَشْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ هَآئِثُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ، أَي تومنون بكتابكم، وبما مضى من الكتب قبل ذلك وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم كنتم أحقّ بالبغضاء لهم منهم لكم ﴿وَإِذَا لَقَوُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ إلى آخر القصة.

تفسير آناء الليل:

فصل: وذكر ابن هشام في تفسير آناء الليل، قال: واحد الآناء إنّي، واستشهد عليه بقول الهذلي، ثم أغرب بما حدّثه به يونس، فقال: ويقال إنني فيما حدّثني يونس بن حبيب، وهذا الذي قاله آخرًا هو لغة القرآن، قال الله تعالى: ﴿غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَّاهُ﴾.

ما كان بين أبي بكر وفنحاص :

ودخل أبو بكر الصديق بيت المدراس على يهود، فوجد منهم ناسًا كثيرًا قد اجتمعوا إلى رجل منهم، يقال له فنحاص، وكان من علمائهم وأخبارهم، ومعه خبر من أخبارهم، يقال له: أشيع، فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك يا فنحاص! اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا لرسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص لأبي بكر: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنّا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني، ولو كان عنا غنيًا ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم أصحابكم، ينهاكم عن الرّبا ويُعطينا، ولو كان عنا غنيًا ما أعطانا الرّبا. قال: فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضربًا شديدًا، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم، لضربت رأسك، أي عدوّ الله. قال: فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن عدوّ الله قال قولاً عظيماً، إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء، فلما قال ذلك غضبتُ لله ممّا قال، وضربت وجهه. فجدد ذلك فنحاص، وقال: ما قلت ذلك. فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص ردًا عليه، وتضديقًا لأبي بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

ونزل في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وما بلغه في ذلك من الغضب: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَضَيَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

ذكر جمل من الآيات المنزلة في قصص الأخبار:

فصل: وذكر ابن إسحاق جملًا من الآيات المنزلة في قصص الأخبار ومساثلهم كلها واضحة، والتكلم عليها يخرج عن غرض الكتاب إلى تفسير القرآن، وفي جملتها قوله تعالى: ﴿أَيَّانَ مَرْسَاهَا﴾ وقال الفراء في أيّان: هي كلمتان، جعلت واحدة، والأصل: أي آن، والآن والأوان بمعنى واحد، كما يقال: راح ورياح، وأنشد:

نَسَاوَى تَسَافَوْا بِالرِّيَّاحِ الْمُقْلَلِ

وقد ذكر الهروي في أيّان وجهًا آخر، قال: يجوز أن يكون أصله: أيّوان فاندغمت الياء في الواو مثل قِيَام.

ثم قال فيما قال فنحاص والأخبار معه من يهود: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني فنحاص، وأشيع وأشباههما من الأخبار، الذين يفرحون بما يصيبون من الدنيا على ما زينوا للناس من الضلالة، ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا، أن يقول الناس: علماء، وليسوا بأهل علم، لم يخملوهم على هدى ولا حق، ويحبون أن يقول الناس قد فعلوا.

أمرهم المؤمنين بالبخل:

قال ابن إسحاق: وكان كرزيم بن قيس، حليف كعب بن الأشرف، وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبخري بن عمرو، وخي بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التابوت، يأتون رجالاً من الأنصار كانوا يخالطونهم، ينتصحون لهم من أصحاب رسول الله ﷺ، فيقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم فإننا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في الثقة فإنكم لا تدرن علام يكون. فأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي من التوراة، التي فيها تضديق ما جاء به محمد ﷺ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾... إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

جحدهم الحق:

قال ابن إسحاق: وكان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء يهود، إذا كلم رسول الله ﷺ لوى لسانه، وقال: أرعنا سمعك يا محمد، حتى نفهمك، ثم طعن في الإسلام وعابه. فأنزل الله فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا﴾، (أي راعنا سمعك) ﴿لَيَّا بِالنِّسْتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وكلم رسول الله ﷺ رؤساء من أخبار يهود، منهم: عبد الله بن صوريا الأعور، وكعب بن أسد، فقال لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن

الذي جثتكم به لحق، قالوا: ما تعرف ذلك يا محمد: فجحدوا ما عرفوا، وأصرُّوا على الكفر، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلُ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ فَرَدَّهَا عَلَى أَذْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: نطمس: نمسحها فنسوينا، فلا يرى فيها عين ولا أنف ولا قم، ولا شيء مما يرى في الوجه، وكذلك ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾. المطموس العين: الذي ليس بين جفنيه شق. ويقال طمست الكتاب والأثر، فلا يرى منه شيء. قال الأخطل، واسمه العوث بن هبيرة بن الصلت التغلبي، يصف إبلاً كلَّفها ما ذكر:

وَتَكْلِيفُهَا كُلَّ طَامِئَةِ الصُّوَى شَطُونٍ تَرَى جِزْبَاءَهَا يَتَمَلَّمُلُ

وهذا البيت في قصيدة له.

قال ابن هشام: واحدة الصوى: صوة. والصوى: الأعلام التي يستدل بها على الطرق والمياه.

قال ابن هشام: يقول: مُسِحت فاستوت بالأرض، فليس فيها شيء ناتئ..

النفر الذين حزبوا الأحزاب:

قال ابن إسحاق: وكان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة حَيَّي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، أبو رافع، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وأبو عمار، ووخوح بن عامر، وهوذة بن قيس. فأما وخوح، وأبو عمار، وهوذة، فمن بني وائل، وكان سائرهم من بني النضير. فلما قدموا على قريش قالوا: هؤلاء أحبار يهود، وأهل العلم بالكتاب الأول، فسلوهم: دينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم، فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّاعُوتِ﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: الجنت (عند العرب): ما عُبد من دون الله تبارك وتعالى.

والطاغوت: كل ما أضلَّ عن الحق. وجمع الجبت: جُبوت؛ وجمع الطاغوت: طاغيت^(١).

قال ابن هشام: وبلغنا عن ابن أبي نجيح أنه قال: الجِبْتُ: السحر؛ والطاغوت: الشيطان.

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾.

قال ابن إسحاق: إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾.

إنكارهم التنزيل:

قال ابن إسحاق: وقال سُكَيْن وَعَدِي بن زيد: يا محمَّد، ما نعلم أنَّ الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالتَّيِّبِينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

ودخلت على رسول الله ﷺ جماعة منهم، فقال لهم: أما والله إنكم لتعلمون أنَّي رسول من الله إليكم؛ قالوا: ما نعلمه، وما نَشْهَدُ عليه. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

اجتماعهم على طرح الصخرة على رسول الله ﷺ:

وخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ الْعَامِرِيِّينَ الَّذِينَ قَتَلَ عَمْرُو بْنُ أُمِيَّةِ الضُّفْرِي. فلما خلا بعضهم ببعض قالوا: لَنْ تَجِدُوا مُحَمَّدًا أَقْرَبَ مِنْهُ الْآنَ، فَمَنْ رَجُلٌ يَظْهَرُ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ، فَيَطْرَحُ عَلَيْهِ صَخْرَةً فَيُرِيحُنَا مِنْهُ؟ فقال عَمْرُو بْنُ جَحَاشِ بْنِ كَعْبٍ: أَنَا، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْخَبْرُ، فَاَنْصَرَفَ عَنْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ،

(١) وقالوا: الجبت: هو الأوهام والخيالات الفاسدة التي عشت في عقول أهل الكفر والشرك. والعباذ بالله تعالى.

وفيما أراد هو وقومه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

ادعائهم أنهم أحبباء الله:

وأنى رسول الله ﷺ نعمان بن أضاء، وبخري بن عمرو، وشأس بن عدي، فكلّموه وكلّمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله، وحذّرههم نِعْمَتَهُ؛ فقالوا: ما تُخوفنا يا محمّد، نحن والله أبناء الله وأحبّاءه، كقول النصرارى. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

إنكارهم نزول كتاب بعد موسى عليه السلام:

قال ابن إسحق: ودعا رسول الله ﷺ يهود إلى الإسلام ورغبهم فيه، وحذّرههم غير الله وعقوبته، فأبوا عليه، وكفّروا بما جاءهم به، فقال لهم معاذ بن جبل، وسعد بن عباد وعقبة بن وهب: يا معشر يهود، اتّقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن خريملة، وهب بن يهودا: ما قلنا لكم هذا قط، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى، ولا أرسل بشيرًا ولا نذيرًا بعده. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم قصّ عليهم خبر موسى وما لقي منهم، وانتقاضهم عليه، وما ردّوا عليه من أمر الله حتى تاهوا في الأرض أربعين سنة عقوبة.

وذكر آية الثّيه وحبس بني إسرائيل فيه أربعين سنة عقوبة من الله تعالى لمخالفتهم أمره حين فرّغوا من الجبارين لعظم أجسامهم، وقال لهم رجلاَن وهما يوشع بن نون من سبط يوسف، وكالب بن يوفيا من سبط يامين ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ إِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ فلما غصّوهما دعا عليهم موسى، فتاهوا، أي تحيروا، وكانوا ستمائة ألف مقاتل، فتاهوا في سبّة فراسخ من الأرض، يمشون النهار كلّهُ، ثم يُمسون حيث أصبحوا، ويَضْبَحون حيث أَمْسَوْا. وفي ذلك السنين أنزل عليهم المنّ والسّلوى، لأنهم شغلوا عن المعاش بالثّيه في الأرض، وأبقيت عليهم ثيابهم لا تَخْلُق، ولا تَتَسَخ، وتطول مع الصغير، إذا طال، وفيها استسقى لهم موسى، فأمر أن يأخذ حجرا من الطور، فيضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا

رجوعهم إلى النبي ﷺ في حكم الرجم

قال ابن إسحاق: وحدثني ابنُ شهاب الزهري أنه سمع رجلاً من مُزينة من أهل العلم، يحدث سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة حدثهم: أن أحبارَ يهودَ اجتمعوا في بيت المِدرّاس حين قَدِم رسولُ الله ﷺ المدينة، وقد زنى رجلٌ منهم بعد إحصانه بامرأة من يهودَ قد أُخْصِنَتْ، فقالوا: ابعثوا بهذا الرجل وهذه المرأة إلى محمد، فسلّوه كيف الحكم

عَشْرَةَ عَيْنًا، وفيها ظَلَّل عليهم العَمَامُ لأنهم كانوا في البرِّيَّة، فظَلَّلُوا من الشمس، وذلك أن موسى كان نَدِم حين دعا عليهم لما رأى من جهدهم وحيرتهم في التيه، فكان يدعو الله لهم في هذه الأمور؛ لئلا يهلكوا في التيه جوعًا أو غُرْيًا أو غَطْشًا، فلما آسَى عليهم قال له: ﴿لَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الذين فَسَقُوا أي: خرجوا عن أمرِك. ومات في أيام التيه جميعُ كبارهم إلا يوشع وكالب فما دَخَلَ الأرضَ على الجبارين إلا خُلُوفُهُم وأبناؤُهُم، وقيل: إن موسى مات في تلك السنين أيضًا ولم يشهد الفتحَ مع يوشع، وقيل: بل كان مع يوشع حين افتتحها^(١).

ذكر المرجومة من اليهود^(٢)

فصل: وذكر المرجومة من اليهود، وأن صاحبها الذي رُجم معها حَتًا عليها بنفسه ليقِيها الحجارة. حَتًا بالحاء تقيد في إحدى الروایتين عن أبي الوليد، وكذلك في الموطأ من رواية يحيى، فجعل يحنى عليها، وفي الرواية الأخرى عن أبي الوليد: جَنًّا بالجيـم والهمز، وعلى هذه الرواية فسره أبو عبيد، والجَنَاء: الانحناء، قال الشاعر عَوْفُ بن مُحَلَّم:

وَبَدَلْتَنِي بِالشُّطَاطِ الْجَنَّا وَكُنْتُ كَالصُّغْدَةِ تَحْتَ السُّنَانِ

وفي حُثُوِّه عليها من الفقه: أنهما لم يكونا في حُفْرَتَيْنِ، كما ذهب إليه كثير من الفقهاء في سُنَّة الرِّجْم، وكذلك زُوي عن علي رحمه الله، أنه حفر لَشْرَاحَةَ بِنْتِ مَالِكِ الهمْدَانِيَّة حين رَجَمَهَا. وأما الأحاديث فأكثرُها على ترك الحُفْرِ للمرجوم، واسم هذه المرجومة: بُسْرَةُ فيما ذكر بعض أهل العلم، وفي قصتهما أنزل الله: ﴿وَكَيْفَ يُحْكَمُونَكَ

(١) ذكر القرآن قصة التيه في سورة البقرة، وما أورده السهيلي رحمه الله تعالى هنا إنما هو متلقى عن أهل الكتاب.

(٢) انظر حكم الرحيم عند اليهود. سفر اللاويين. الصحاح (٢٠/٢٢). وحديث احتكام اليهود إلى النبي ﷺ في الرجم أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

فيهما، وولّوه الحكم عليهما، فإن عمل فيهما بعملكم من التَّجْبِيَةِ - والتَّجْبِيَةِ: الجلدُ بحبل من ليف مَطْلِيٍّ بقر، ثم تَسْوَدُ وجوههما، ثم يُحْمَلَانِ عَلَى حمارين، وتُجْعَلُ وجوههما من قَبْلِ أَدْبَارِ الحمارين - فَاتَّبِعُوهُ، فَإِنَّمَا هُوَ مَلِكٌ، وَصَدَقُوهُ، وَإِنْ هُوَ حَكَمَ فِيهِمَا بِالرَّجْمِ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، فَاحْذَرُوهُ عَلَى مَا فِي أَيْدِيكُمْ أَنْ يَسْلَبَكُمْوهُ. فَاتَّوُّهُ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، هَذَا رَجُلٌ قَدْ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانِهِ بَامْرَأَةٍ قَدْ أَحْصَنْتِ، فَاحْكُمِي فِيهِمَا، فَقَدْ وَلَّيْنَاكَ الْحُكْمَ فِيهِمَا. فَمَشَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى أَحْبَارَهُمْ فِي بَيْتِ الْمَدْرَاسِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ يَهُودٍ أَخْرِجُوا إِلَيَّ عُلَمَاءَكُمْ فَأَخْرِجْ لَهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ صُورِيَا.

قال ابن إسحاق: وقد حدثني بعضُ بني قُرَيْظَةَ: أَنَّهُمْ قَدْ أَخْرَجُوا إِلَيْهِ يَوْمَئِذٍ مَعَ ابْنِ صُورِيَا، أَبَا يَاسِرَ بْنَ أَخْطَبٍ، وَوَهْبَ بْنَ يَهُوذَا، فَقَالُوا: هَؤُلَاءِ عُلَمَاؤُنَا. فَسَأَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ حَصَلَ أَمْرُهُمْ، إِلَى أَنْ قَالُوا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ صُورِيَا: هَذَا مِنْ أَعْلَمَ مَنْ بَقِيَ بِالتَّوْرَةِ.

قال ابن هشام: من قوله: «وحدثني بعض بني قريظة - إلى أعلم من بقي بالتوراة» من قول ابن إسحاق، وما بعده من الحديث الذي قبله.

فخلا به رسولُ الله ﷺ، وَكَانَ غَلَامًا شَابًّا مِنْ أَخْدَثِهِمْ سَنًا فَأَلْظَمَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْأَلَةَ، يَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ صُورِيَا، أَتَشُدُّكَ اللَّهُ وَأَذْكُرُكَ بِأَيَّامِهِ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ حَكَمَ فِيمَنْ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانِهِ بِالرَّجْمِ فِي التَّوْرَةِ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، أَمَا وَاللَّهِ يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّهُمْ لَيَعْرِفُونَ أَنَّكَ لَنَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَكِنَّهُمْ يَحْسُدُونَكَ. قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَأَمَرَ بِهِمَا فَرَجَمَا عِنْدَ بَابِ مَسْجِدِهِ فِي بَنِي غَثَمَ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ. ثُمَّ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ابْنُ صُورِيَا، وَجَحَدَ نَبَوَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ ﴿الآيَةُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾، يَعْنِي مُحَمَّدًا، وَمَنْ حَكَمَ بِالرَّجْمِ قَبْلَهُ، لِأَنَّهُ حَكَمَ بِالرَّجْمِ لِأَوَّلِكَ الْيَهُودِ الَّذِينَ تَحَاكَمُوا إِلَيْهِ، وَالرَّبَّانِيُّونَ. يَعْنِي: عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ وَابْنَ صُورِيٍّ مِنَ الْأَحْبَارِ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، لِأَنَّهُمْ حَفِظُوا أَنَّ الرَّجْمَ فِي التَّوْرَةِ، لَكِنَّهُمْ بَدَّلُوا وَغَيَّرُوا، وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ؛ لِأَنَّهُمْ شَهِدُوا بِذَلِكَ عَلَى الْيَهُودِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَخُكْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ فَحَكَمَ بِالرَّجْمِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهَذَا يَبِينُ لَكَ أَنَّ الرَّجْمَ فِي الْقُرْآنِ، وَعَلَى هَذَا فَسَرَهُ مَالِكٌ فِيمَا بَلَغَنِي، وَلِذَلِكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلرَّجُلَيْنِ: لِأَحْكَمَ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ، فَحَكَمَ بِالرَّجْمِ، كَمَا فِي الْكِتَابِ الْمَنْزُولِ عَلَى مُوسَى، وَعَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا، وَقَدْ قِيلَ فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ أَقْوَالٌ غَيْرُ هَذَا، وَالصَّحِيحُ مَا ذَكَرْنَا.

قال ابن إسحاق: فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: الذين بعثوا منهم من بعثوا وتخلّفوا، وأمروهم بما أمروهم به من تحريف الحُكم عن مواضعه. ثم قال: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾، أي الرجم ﴿فَاخْذَرُوا﴾ إلى آخر القصة.

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن يزيد بن زُكَّان عن إسماعيل بن طلحة بن إبراهيم، عن ابن عباس، قال: أمر رسول الله ﷺ برَجْمَهما، فرجما بباب مسجده، فلما وجد اليهودي مسَّ الحجارة قام إلى صاحبه، فجأ عليها، يقبها مسَّ الحجارة، حتى قُتِلَا جميعًا.

قال: وكان ذلك مما صنع الله لرسوله ﷺ في تحقيق الزنا منهما.

قال ابن إسحاق: وحدثني صالح بن كيسان، عن نافع مولى عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمر، لما حَكُّوا رسول الله ﷺ فيهما، دعاهم بالتوراة، وجلس خبر منهم يتلوها، وقد وضع يده على آية الرجم، قال: فضرب عبد الله بن سلام يد الحبر، ثم قال: هذه يا نبي الله آية الرجم، يَأْبَى أَنْ يَتْلُوها عليك، فقال لهم رسول الله ﷺ: ويحكم يا معشر يهود! ما دعاكم إلى ترك حُكم الله وهو بأيديكم؟ قال: فقالوا: أما والله إنه قد كان فينا يُعْمَلُ به، حتى رَنَى رجل مئاً بعد إخصانه، من بُيُوت الملوك وأهل الشرف، فَمَنَعَهُ الملك من الرجم، ثم رَنَى رجلٌ بَعْدَهُ، فأراد أن يَرْجُمَهُ، فقالوا: لا والله، حتى تَرْجُمَ فَلَئِنَّا، فَلَمَّا قَالُوا لَهُ ذَلِكَ اجتمعوا فأصلحوا أمرهم على التَّجْبِيَةِ، وأماتوا ذَكَرَ الرِّجْمِ والعمل به. قال: فقال رسول الله ﷺ: فإنا أول من أخبى أمر الله وكتابه وعَمِلَ به، ثم أمر بهما فرجما عند باب مسجده. قال عبد الله بن عمر: فكننت فيمن رَجَمَهُمَا.

ظلمهم في الدية:

قال ابن إسحاق: وحدثني داود بن الحصين عن عكرمة، عن ابن عباس: أن الآيات من المائدة التي قال الله فيها: ﴿فَاخْذَرُوا بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ

واستشهد ابن هشام في تفسير الجهرة بقول أبي الأخرز الجُمَانِي، واسمه: قتيبة، وجُمَانٌ هو ابنُ كَعْبٍ بن سَعْدٍ بن زَيْدٍ مَنَاقِبِ تَمِيمٍ، فقال:

بجهر أفواه المياہ السُّنْمِ

فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَخْكُم بِبَيِّنَاتٍ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا أَنْزَلْتُ فِي الدِّينِ بَيْنَ بَنِي النَّضِيرِ وَبَيْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَذَلِكَ أَنْ قَتَلَى بَنِي النَّضِيرِ، وَكَانَ لَهُمْ شَرَفٌ، يُؤَدُّونَ الدِّينَ كَامِلَةً، وَأَنْ بَنِي قُرَيْظَةَ كَانُوا يُؤَدُّونَ نِصْفَ الدِّينِ، فَتَحَاكَمُوا فِي ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِيهِمْ، فَحَمَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْحَقِّ فِي ذَلِكَ، فَجَعَلَ الدِّينَ سَوَاءً.

قال ابن إسحاق: فالله أعلم أي ذلك كان.

قصدهم الفتنة برسول الله ﷺ:

قال ابن إسحاق: وقال كعب بن أسد، وابن صُلُوبَا، وعبد الله بن صُورِيَا، وشَّاسُ بن قيس، بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد، لعلنا نَفْتِنَهُ عَنْ دِينِهِ، فَإِنَّمَا هُوَ بَشَرٌ، فَأَتَوْهُ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّد، إِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّ أَحْبَارَ يَهُودٍ وَأَشْرَافَهُمْ وَسَادَتَهُمْ، وَأَنَا إِنْ اتَّبَعْنَاكَ اتَّبَعْتُكَ يَهُودٌ، وَلَمْ يَخَالَفُونَا، وَأَنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَعْضِ قَوْمِنَا خُصُومَةٌ، أَفَنَحَاكُمُ إِلَيْكَ فَتَقْضِيَ لَنَا عَلَيْهِمْ، وَنُؤْمِنُ بِكَ وَنُصَدِّقُكَ، فَأَبَى ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِمْ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَأِنْ أَخْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاتَّخِذْهُمْ أَنْ يَقْتُنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاغْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُورِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْغَوْنَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

جحودهم نبوة عيسى عليه السلام:

قال ابن إسحاق: وأتى رسول الله ﷺ نفرٌ منهم: أَبُو يَاسِرِ بْنِ أَخْطَبَ، وَنَافِعُ بْنُ أَبِي نَافِعٍ، وَعَازِرُ بْنُ أَبِي عَازِرٍ، وَخَالِدٌ، وَزَيْدٌ، وَإِزَارُ بْنُ أَبِي إِزَارٍ، وَأَشْبَعٌ، فَسَأَلُوهُ عَمَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ مِنَ الرُّسُلِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. فَلَمَّا ذَكَرَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ جَحَدُوا نُبُوَّتَهُ، وَقَالُوا: لَا نُؤْمِنُ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَلَا بِمَنْ آمَنَ بِهِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿قُلْ

يَقَال: مَاءٌ سِدَامٌ إِذَا غَطَاهُ الرَّمْلُ، وَجَمْعُهُ: سُدَمٌ، وَجَمْعُهُ عَلَى سَدَمٍ غَرِيبٌ، وَيَقَالُ أَيْضًا سِدَامٌ وَأَسْدَامٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ يَجْهَرُ قَوْلُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي أَبِيهَا. وَاجْتَهَرَ لَهُمْ عَيْنُ الرُّوَاءِ، وَأَنْشَدَ فِي تَفْسِيرِ الْقَوْمِ وَأَنَّهُ الْبُرُّ:

فَوْقَ شَيْزَى مِثْلَ الْجَوَابِي عَلَيْهَا قَطَعَ كَالْوَذِيلِ فِي نَفْثِي قُرِمِ

يَ أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْفَعُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿١﴾

ادعائهم أنهم على الحق :

وَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَافِعُ بْنُ حَارِثَةَ، وَسَلَامُ بْنُ مِشْكَمٍ، وَمَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ، وَرَافِعُ بْنُ خُرَيْمَةَ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِهِ، وَتُؤْمِنُ بِمَا عِنْدَنَا مِنَ التَّوْرَةِ، وَتَشْهَدُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ حَقٌّ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّكُمْ أَحَدُتُمْ وَجَّحَدْتُمْ مَا فِيهَا مِمَّا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمِيثَاقِ فِيهَا، وَكُتِمَتْ مِنْهَا مَا أُمِرْتُمْ أَنْ تُبَيِّنُوهُ لِلنَّاسِ، فَبَرِثْتُمْ مِنْ إِحْدَائِكُمْ؛ قَالُوا: فَإِنَّا نَأْخُذُ بِمَا فِي أَيْدِينَا، فَإِنَّا عَلَى الْهُدَى وَالْحَقِّ، وَلَا نُؤْمِنُ بِكَ، وَلَا نَتَّبِعُكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

إشراكهم بالله :

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ التُّحَامُ بْنُ زَيْدٍ، وَقَزْدَمُ بْنُ كَعْبٍ، وَبَخْرِيُّ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، أَمَا تَعْلَمُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا غَيْرَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، بِذَلِكَ بُعِثْتُ، وَإِلَى ذَلِكَ أَذْعُو. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ وَفِي قَوْلِهِمْ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلِ أَشْهَدُ قُلِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

نهيه تعالى للمؤمنين عن موادتهم :

وَكَانَ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ مِنَ التَّابُوتِ، وَسُوَيْدُ بْنُ الْحَارِثِ قَدْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَنَافَقًا فَكَانَ رِجَالًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُوَادُّونَهُمَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا

الشَّيْزَى: خشب أسود تُصنع منه الجفء [مفردها: جَفَنَةٌ، وهي القصعة، والجوابي: جمع جابية: الحوض يُجبي فيه الماء للإبل]، والوذيل: جمع وذيلة وهي السبيكة من الفضة. قال الشاعر:

وَتُرِيكَ وَجْهًا كَالْوَذِي — لَمَّةَ لَا رِيَّانَ مَمْتَلَى وَلَا جَهْمَ

اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ... إلى قوله: ﴿وَإِذَا جَاؤُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾.

سؤالهم عن قيام الساعة:

وقال جَبَل بن أَبِي قُشَيْر، وَشُمُويل بن زَيْد، لرسول الله ﷺ يا مُحَمَّد، أَخْبِرْنَا، متى تقوم الساعة إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا كَمَا تَقُول؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمَا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: أَيَّانَ مُرْسَاهَا: متى مُرْسَاهَا. قال قَيْس بن الْحَدَّادِيَّة الْخَزَاعِي: فَجِئْتُ وَمُحَفِّي السَّرَّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا لِأَسْأَلَهَا أَيَّانَ مَنْ سَارَ رَاجِعٌ؟ وهذا البيت في قصيدة له. ومرساها: منتهاها، وجمعه: مَراس. قال الْكُمَيْت بن زَيْد الْأَسَدِي:

والمُصِيبِينَ بَابَ مَا أَخْطَأ النَّاسُ وَوُورَسَى قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ

وهذا البيت في قصيدة له وَوُورَسَى السَّفِينَةِ: حَتَّى تَنْتَهِيَ. وَحَفَّى عَنْهَا - عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ - يَقُول: يَسْأَلُونَكَ عَنْهَا كَأَنَّكَ حَفِيٌّ بِهِمْ، فَتُخْبِرُهُمْ بِمَا لَا تُخْبِرُ بِهِ غَيْرَهُمْ. وَالْحَفِيّ: الْبَرّ الْمُتَعَهِّد. وَفِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]. وَجَمْعُهُ: أَحْفِيَاء. وَقَالَ أَعْشَى بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ:

فَإِنْ تَسْأَلَنِي عَنِّي فَيَا رَبُّ سَائِلٍ حَفِيٍّ عَنِ الْأَعْشَى بِهِ حَيْثُ أَضْعَدَا

وهذا البيت في قصيدة له. وَالْحَفِيّ أَيْضًا: الْمُسْتَحْفِي عَنْ عِلْمِ الشَّيْءِ، الْمَبَالِغُ فِي طَلَبِهِ.

ومنه قول عمرو بن العاص لمعاوية: أما والله لقد أَلْفَيْتُ أَمْرَكَ، وَهُوَ أَشَدُّ انْفِصَاحًا مِنْ حَقِّ الْكَهُولِ. كَذَلِكَ رَوَاهُ الْهَرَوِيُّ، وَقَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ: الْكَهْدَلُ، فَمَا زِلْتُ أَرْمُهُ بِوَدَائِلِهِ، وَأَصِلُهُ، بِوَصَائِلِهِ، حَتَّى تَرَكْتُهُ عَلَى مِثْلِ فَلَكَةِ الْمَذْرُ. حَقُّ الْكَهُولِ: بَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ، وَكَمَا قَالَ الْهَرَوِيُّ، قَالَ أَبُو عُمَرَ الزَّاهِدُ فِي كِتَابِ الْيَاقُوتِ، كَمَا وَقَعَ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ لِلْقُتَيْبِيِّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْقَزَازِ فِي الْكِتَابِ الْكَبِيرِ، قَالَ: الْكَهْدَلُ: الْعَنْكَبُوتُ، وَقِيلَ: فِي الْكَهُولِ إِنَّهُ تُذَيِّ

ادعاهم أن عزيزاً ابن الله :

قال ابن إسحاق: وأتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى أبو أنس، ومحمود بن دحية، وشأس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا له: كيف نتبعك وقد تركت قبيلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيزاً ابن الله؟ فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠] إلى آخر القصة.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: يضاھون: أي يشاكل قولهم قول الذين كفروا، نحو أن تحدث بحديث، فيحدث آخر بمثله، فهو يضاھيك.

طلبهم كتاباً من السماء :

قال ابن إسحاق: وأنى رسول الله ﷺ محمود بن سنيحان، ونعمان بن أضاء، وبخري بن عمرو، وعزير بن أبي عزيز، وسلام بن مشكم، فقالوا: أحق يا محمد أن هذا الذي جئت به لحق من عند الله، فإننا لا نراه متسقاً كما تتسق التوراة؟ فقال: لهم رسول الله ﷺ: أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله. تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاؤوا به؛ فقالوا عند ذلك، وهم جميع: فتخاص، وعبد الله بن صوريا، وابن صلوبا، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وأشيع، وكعب بن أسد، وشمويل بن زيد، وجبل بن عمرو بن سكينه: يا محمد، أما يعلمك هذا إنس ولا وجن؟ قال: فقال لهم رسول الله ﷺ: أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله، وإنني لرسول الله، تجدون ذلك مكتوباً عندكم في التوراة؛ فقالوا: يا محمد، فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء ويقدر منه على ما أراد، فأنزل علينا كتاباً من السماء نقرؤه ونعرفه، وإلا جئناك بمثل ما تأتي به. فأنزل الله تعالى فيهم

العجوز، وفي العين الوديلة: المرأة، وقيل في الفوم: إنه الثوم، واختاره ابن قتيبة، واحتج بأنه في مضعف عبد الله بن مسعود: وثومها، ولا حجة في هذا لما ذكره أبو حنيفة في النبات: أن الثوم، هو البر، وأنه يقال بالفاء وبالثاء، ومن الشاهد على الفوم وأنه البر قول أبي أحيحة بن الجلاح، وقيل هو لأبي مخجن الثقفي:

قد كنت أغنى الناس شخصاً واحداً سكن المدينة عن زراعة فوم

وفيما قالوا: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: الظهير: العون. ومنه قول العرب: تظاهروا عليه، أي تعاونوا عليه. قال الشاعر:

يا سَمِيَّ النَّبِيِّ أَصْبَحْتَ لِلذَّيْ
نِ قَوَامًا وَلِلْإِمَامِ ظَهِيرًا
أي عونًا؛ وجمعه: ظهراء.

سؤالهم له ﷺ عن ذي القرنين:

قال ابن إسحاق: وقال حُيَيُّ بن أخطب، وكعبُ بن أسد، وأبو رافع وأشيع، وشُمُويل بن زيد، لعبدِ الله بن سلام حين أسلم: ما تكون النبوة في العرب ولكن صاحبك مَلِك. ثم جاؤوا رسولَ الله ﷺ فسألوه عن ذي القرنين فَقَضَ عليهم ما جاءه من الله تعالى فيه، ممَّا كان قصَّ على قُريش، وهم كانوا ممن أَمَرَ قُريشًا أن يسألوا رسولَ الله ﷺ عنه، حين بَعَثُوا إليهم النَّضْر بن الحارث، وعُقبة بن أبي مُعَيْط.

تهجمهم على ذات الله وغضب الرسول ﷺ لذلك:

قال ابن إسحاق: وُحِدْتُ عن سعيد بن جبير أنه قال: أتى رهطٌ من يهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا مُحَمَّد، هذا الله خَلَقَ، الخَلْقَ، فمن خلق الله؟ قال: فغضب رسولُ الله ﷺ حتى انتقع لونه، ثم ساوَرَهُم غَضَبًا لرَبِّه. قال: فجاء جبريلُ عليه السلام فسكَّنه، فقال: خَفَضَ عليك يا مُحَمَّد، وجاءه من الله بِجَوَاب ما سألوه عنه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

قال: فلما تلاها عليهم، قالوا: فصِفْ لنا يا مُحَمَّد كيف خَلَقَه؟ كيف ذراعه؟ كيف عَضده؟ فَعَضِب رسولُ الله ﷺ أَشَدَّ من غَضبه الأوَّل، وساورهم. فاتاه جبريلُ عليه السلام، فقال له مثل ما قال له أوَّل مرَّة، وجاءه من الله تعالى بِجَوَاب ما سألوه. يقول

وأنشد في بعض ما قَسَر بيت الأخطل، قال: وهو العَوْتُ بن هُبَيْرَةَ بن الصَّلْت، يُكنى أبا مالِك، والمعروف: غِيَاثُ بن العَوْتُ بن هُبَيْرَةَ بن الصَّلْت، وسُمِّي: الأخطل لقوله:

لَعَمْرُكَ إِنَّنِي وابْنِي جُعَيْل
وَأَمَّهُمَا لَأَسْتَأْزِلُ لِيَمِ

الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

قال ابن إسحاق: وحدثني عتبة بن مسلم، مولى بني تميم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُوشِكُ النَّاسُ أَنْ يَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ حَتَّى يَقُولَ قَائِلُهُمْ: هَذَا اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ فَقُولُوا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]. ثم ليتقل الرجل عن يساره ثلاثًا، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم».

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: الصمد: الذي يُصَمَدُ إليه، ويُفزع إليه، قالت هند بنت مَعْبِد بن نَضْلَةَ تَبْكِي عمرو بن مَسْعُود، وخالد بن نَضْلَةَ، عَمَّيْهَا الْأَسَدِيَّيْنِ، وهما اللَّذَان قَتَلَ الثُّعْمَانُ بن المُنْذِرِ اللَّخْمِيَّ، وَبَنِي الْعَرِثِيْنَ اللَّذِينَ بالكوفة عليهما:

أَلَا بَكَرَ النَّاعِي بِخَيْرَى بَنِي أَسَدٍ بَعَمْرُو بن مَسْعُود وبالسَّيِّدِ الصَّمَدِ

كل أربعة إِسْتَارَ قِيلَ: إِنْ كَعْبُ بنِ جُعَيْلٍ قَالَ لَهُ فِي خَبَرٍ جَرَى بَيْنَهُمَا، وَالْأَخْطَلُ يَوْمئِذٍ غُلَامٌ يَقْرَزُ، أَي: كَمَا يَنْتَدِي^(١) يَقُولُ:

قُبَحَ ذَاكَ الْوَجْهَ غِبَّ الْحُمَّه فَقَالَ الْأَخْطَلُ، وَلَمْ يَكُنْ
وَفَعَلَ كَعْبُ بن جُعَيْلٍ أُمَّهُ فَقَالَ جُعَيْلٌ: إِنَّكَ لَأَخْطَلُ^(٢)

(٢) انظر الأغاني (٨/٢٨).

(١) أي بداية قوله شعراً.

فهرس محتويات الجزء الثاني
من
الروض الأنف

الفهرس

٣	مبادأة رسول الله ﷺ قومه
٣	أصل الصلاة لغة
٤	صلاة الرسول وأصحابه في الشُعاب
٤	عداوة الشرك للرسول ومساومته لعمه
٧	مناصرة أبي طالب للرسول ﷺ
٧	لو وضعوا الشمس في يميني
٨	عرض قريش على أبي طالب
٩	شعر أبي طالب
١٢	موقف الوليد بن المغيرة من القرآن
١٤	ما نزل في حق الوليد من القرآن
١٤	ذرني ومن خلقت وحيداً
١٦	أبو طالب يفخر بنسبه وابن أخيه
١٦	شرح لامية أبي طالب
٢٩	الاستسقاء
٣١	ذكر الرسول ﷺ ينتشر
٣٢	أبو قيس بن الأسلت ونسبه وشعره في الرسول «ﷺ»
٣٦	حرب داحس
٣٩	حرب حاطب
٤٠	حكيم بن أمية ينهى قومه عن عداوة الرسول
٤٠	ذكرى ما لقيه رسول الله ﷺ من قومه
٤٠	مفتريات قريش وإيذاؤهم للرسول ﷺ

٤١	السبب في تلقيبه بالمدثر والنذير العريان
٤٢	تقديم المفعول على الفعل
٤٣	عتبة بن ربيعة والرثي
٤٤	إسلام حمزة رضي الله عنه
٤٥	عتبة بن ربيعة يذهب إلى الرسول (ﷺ)
٤٧	بين النبي (ﷺ) وبين قريش
٤٧	طلب الآيات
٤٩	عبد الله بن أبي أمية
٥٠	هم أبي جهل بإلقاء الحجر
٥١	تفسير أرايت
٥٢	الأساطير وشيء عن الفرس
٥٧	حول سورة الكهف
٥٧	لِمَ قَدَّمَ الحمد على الكتاب
٥٨	شرح شواهد شعرية
٥٨	الرقيم وأهل الكهف
٥٩	إعراب أحصى
٥٩	عن الضرب وتزاور الشمس وفائدة القصة
٦٢	المتنازعون في أمرهم
٦٢	عن واو الثمانية
٦٣	آية الاستثناء
٦٤	ولبثوا في كهفهم
٦٥	السنة والعام
٦٦	ذكر قصة الرجل الطواف ذي القرنين
٦٨	حكم التسمي بأسماء النبيين
٧٠	أسباب نزول بعض الآيات وعن الروح
٧٢	الفرق بين الروح والنفس
٧٣	الروح سبب الحياة
٧٤	الإنسان روح وجسد
٧٥	عن تسيير الجبال وبعث الموتى
٧٥	النفس
٧٦	ابن هرمة

٧٦ من شرح الآيات
٧٩ خزنة جهنم وأبو الأشدين
٨٠ أول صحابي جهر بالقرآن
٨٠ بهت الرسول (ﷺ) أن بشرًا يَعْلَمُهُ
٨١ الذين استمعوا إلى قراءة النبي (ﷺ)
٨١ حول آيات من القرآن
٨٣ ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ممّن أسلم بالأذى والفتنة
٨٣ المكروه على الكفر والمعصية
٨٤ تعذيب بلال وعنته
٨٥ من عتقاء أبي بكر
٨٦ بين أبي بكر وأبيه
٨٧ تعذيب عمار بن ياسر
٨٧ فتنة المعذبين
٨٨ رفض تسليم الوليد لتقتله قريش
٨٨ زينة وغيرها
٨٨ أم عميس
٨٩ عن بلال
٩٠ ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة
٩٠ أصحاب الهجرة الأولى إلى الحبشة
٩٢ المهاجرون من بني هاشم وبني أمية
٩٢ رؤيا سعد وخالد ولدي العاص
٩٣ المهاجرون من بني أسد وبني عبد شمس
٩٣ المهاجرون من بني نوفل وبني أسد
٩٣ أبو أحيحة
٩٤ المهاجرون من بني عبد بن قصي وعبد الدار ولدي قصي
٩٤ المهاجرون من بني زهرة وبني هذيل وبهراء
٩٥ المهاجرون من بني تميم وبني مخزوم
٩٥ من سيرة الشماس
٩٦ المهاجرون من حلفاء بني مخزوم ومن بني جمح
٩٦ المهاجرون من بني سهم وبني عدي وبني عامر
٩٦ أمة بنت خالد وأبوها

٩٨	المهاجرون من بني الحارث
٩٨	عبد شمس
٩٩	عدد الذين هاجروا إلى الحبشة
٩٩	من شعر الهجرة الحبشية
١٠١	لا يضاف اسم إلى أن المصدرية
١٠٤	حول لام التعجب
١٠٥	من معاني شعر ابن مظعون
١٠٦	أم سلمة
١٠٧	النور الذي كان على قبر النجاشي
١٠٨	إرسال قریش إلى الحبشة في طلب المهاجرين إليها
١٠٩	عمارة بن الوليد بن المغيرة
١١١	حوار بين النجاشي وبين المهاجرين
١١٣	إضافة العين إلى الله
١١٣	معنى أن عيسى كلمة الله وروحه
١١٥	المهاجرون وانتصار النجاشي
١١٥	قصة تملك النجاشي على الحبشة
١١٥	النجاشي أصحابه
١١٧	إسلام النجاشي والصلاة عليه
١١٧	من فقه حديث الهجرة إلى الحبشة
١٢٠	ذكر إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه
١٢٢	تطهير عمر ليمس القرآن
١٢٥	زيادة في إسلام عمر
١٢٦	من تفسير حديث إسلام عمر
١٢٧	حول النهيم وهكذا
١٢٧	جميل بن معمر
١٢٩	خبر الصحيفة
١٢٩	موقف أبي لهب من رسول الله ﷺ
١٣١	شعر أبي طالب
١٣٢	لا التي للتبرئة
١٣٢	عود إلى شرح شعر أبي طالب
١٣٤	من جهالة أبي جهل

١٣٤ ما لقي رسول الله ﷺ من قومه
١٣٥ أبو لهب وامراته
١٣٥ ذكر أم جميل والمسد وعذابها
١٣٧ عن الجيد والعنق
١٣٨ غلو في الوصف بالحُسن
١٤٠ حول قولهم: مذمم وحديث خباب
١٤١ إيذاء أمية بن خلف للرسول ﷺ
١٤١ إيذاء العاص للرسول ﷺ
١٤٢ إيذاء أبي جهل لرسول الله ﷺ
١٤٢ إيذاء النضر لرسول الله ﷺ
١٤٤ ابن الزبير والأخنس وما قيل فيهما
١٤٦ حصب جهنم
١٤٦ ما نزل في الأخنس
١٤٧ ما قيل في الوليد بن المغيرة وأبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط
١٤٧ ما قيل في حق الذين اعترضوا الرسول في الطواف
١٤٩ ما قيل في حق أبي جهل
١٥١ قصة ابن أم مكتوم
١٥٣ العائدون من أرض الحبشة
١٥٣ قصة الغرانيق وإسلام مكة
١٥٦ قصة ابن مظعون مع الوليد
١٥٨ أبو سلمة في جوار أبي طالب
١٥٨ أبو بكر يرد جوار ابن الدغنة
١٦٠ حديث نقض الصحيفة
١٦٣ شرح دالية أبي طالب
١٦٦ قول حسان في مطعم وهشام بن عمرو
١٦٨ إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي
١٧٠ إسلام والد الطفيل وزوجته
١٧١ من قصة أعشى بن قيس بن ثعلبة
١٧٦ مصير الأعشى
١٧٦ ذلة أبي جهل
١٧٦ أبو جهل والإراشي

١٧٨	ركانة ومصارعته
١٧٩	قدوم وفد النصارى من الحبشة
١٨٠	عن غلام المبيعة وصهيب وأبي فكيهة
١٨١	سبب نزول سورة الكوثر
١٨٤	الكوثر في الشعر
١٨٤	استشهاد ابن هشام على معنى الكوثر
١٨٦	نزول ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك﴾
١٨٧	ذكر الإسراء والمعراج
١٨٧	شرح ما في حديث الإسراء من المشكل
١٨٨	رواية ابن مسعود
١٨٩	حديث الحسن
١٨٩	حديث قتادة
١٩١	الإسراء رؤيا
١٩٤	شماس البراق
١٩٥	معنى قول الملائكة: مَنْ معك
١٩٦	باب الحَفَظَة
١٩٦	آدم في سماء الدنيا والأسودة التي رآها
١٩٧	الصفات التي وصف بها النبي بعض الرسل
١٩٩	صفة النبي ﷺ
٢٠٠	حديث أم هانئ عن الإسراء
٢٠١	رؤية النبي ربه
٢٠٣	لقاؤه للنبيين
٢٠٦	البيت المعمور
٢٠٦	فرض الصلاة
٢٠٧	فرض الصلوات خمسين
٢٠٨	أوصاف من الملائكة
٢٠٩	أكلّة الربا في رؤية المعراج
٢١٠	الولد لغير رشدة
٢١١	حكم الحاكم لا يحلّ الحرام
٢١٢	مكان إدريس
٢١٢	قول الأنبياء في كل سماء

٢١٢	خرافة طلب موسى أن يكون من أمة أحمد
٢١٤	كفاية الله أمر المستهزين
٢١٦	حديث الوليد بن المغيرة
٢١٦	عن مقتل أبي أزيهر وموقف دوس
٢١٩	شعر الجون
٢٢٠	ثورة لمقتل أبي أزيهر
٢٢٠	من أسواق العرب
٢٢١	آية الربا من البقرة
٢٢٢	الهم بأخذ ثار أبي أزيهر
٢٢٢	عمل أم غيلان
٢٢٣	من المؤذين لرسول الله
٢٢٣	ما عاناه الرسول ﷺ بعد وفاة أبي طالب وخديجة
٢٢٤	ما حدث بين النبي ﷺ وبين أبي طالب والمشركين
٢٢٤	الرسول يرجو أن يسلم أبو طالب
٢٢٤	وفاة أبي طالب ووصيته
٢٢٧	ما نزل فيمن طلبوا العهد على الرسول عند أبي طالب
٢٢٧	تفسير المشي في سورة ص
٢٢٨	تتابع المصائب بموت خديجة
٢٢٩	الرسول يسعى إلى الطائف
٢٢٩	موقف ثقيف من الرسول ﷺ
٢٣٢	نور الله ووجهه
٢٣٤	خبر عداس
٢٣٥	أمر جن نصيبين
٢٣٧	عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل
٢٣٨	العرض على بني كلب
٢٣٩	العرض على بني حنيفة
٢٣٩	العرض على بني عامر
٢٤١	عرض على العرب في المواسم
٢٤١	حديث سويد بن صامت
٢٤٣	ذكر مجلة لقمان
٢٤٤	إسلام إياس بن معاذ وقصة أبي الحيسر

٢٤٥	الرسول مع نفر من الخزرج عند العقبة
٢٤٥	بدء إسلام الأنصار
٢٤٧	أسماء الخزرجيين الذين التقوا بالرسول عند العقبة
٢٤٨	بيعة العقبة الأولى
٢٥٠	رجال العقبة من الأوس
٢٥١	رجال العقبة الأولى من بني عمرو
٢٥٢	مصعب بن عمير ووفد العقبة
٢٥٣	أول جمعة أُقيمت بالمدينة
٢٥٤	نقيع الخضعات
٢٥٦	لفظ الجمعة
٢٥٧	أيام الأسبوع
٢٥٨	إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير
٢٥٩	هل يغتسل الكافر إذا أسلم
٢٦١	من شرح شعر ابن الأسلت
٢٦٢	أمر العقبة الثانية
٢٦٢	البراء بن معرور وصلاة الكعبة
٢٦٣	قبلة الرسول
٢٦٤	إسلام عبد الله بن عمرو بن حرام
٢٦٥	أم عمار وأُم منيع في بيعة العقبة الأخرى
٢٦٦	العباس والأنصار
٢٦٦	عهد الرسول عليه الصلاة والسلام على الأنصار
٢٦٧	ترجمة البراء
٢٦٨	والهدم الهدم
٢٦٩	أسماء النقباء الاثني عشر وتمام خبر العقبة
٢٦٩	مَنْ وَلِيَ النقباء
٢٧٠	النقباء من الأوس
٢٧٠	شعر كعب بن مالك عن النقباء
٢٧١	ما قاله العباس بن عباد للخزرج قبل المبايعة
٢٧٢	أول صحابي ضرب على يد الرسول في بيعة العقبة الثانية
٢٧٢	الشیطان وبيعة العقبة
٢٧٣	الرسول لا يستجيب لطلب الحرب من الأنصار

٢٧٤	مجادلة جلّة قريش للأنصار في شأن البيعة
٢٧٥	قريش تطلب الأنصار وتأسر سعد بن عباد
٢٧٥	خلاص سعد بن عباد
٢٧٨	قصة صنم عمرو بن الجموح
٢٧٨	إسلام عمرو بن الجموح
٢٨٠	شروط البيعة في العقبة الأخيرة
٢٨٠	أسماء من شهد العقبة
٢٨٢	من شهدها من بلحارث بن الخزرج
٢٨٥	ذكر خديج بن سلامة البلوي
٢٨٨	نزول الأمر لرسول الله ﷺ في القتال
٢٩٠	الإذن لمسلمي مكة بالهجرة
٢٩٠	متى أسلم عثمان بن أبي طلحة
٢٩٢	هجرة عامر وزوجه وهجرة بني جحش
٢٩٣	الشعر الذي تمثل به أبو سفيان
٢٩٨	هجرة عمر وقصة عياش معه
٣٠٠	كتاب عمر إلى هشام بن العاصي
٣٠١	الوليد بن الوليد وعياش وهشام
٣٠١	منازل المهاجرين بالمدينة
٣٠٢	منزل حمزة وزيد وأبي مرثد وابنه وأنسة وأبي كبشة
٣٠٤	سالم مولى أبي حذيفة
٣٠٦	خبر الندوة وهجرة الرسول ﷺ
٣٠٦	الملا من قريش يتشاورون في أمر الرسول ﷺ
٣٠٩	ما يقال عن ليلة الهجرة
٣١٠	الآيات التي نزلت في تربص المشركين بالنبي
٣١٢	الهجرة إلى المدينة
٣١٢	إذن الله سبحانه لنبيه ﷺ بالهجرة
٣١٣	لم اشترت الراحلة
٣١٣	ذكر ابن إسحق في غير رواية ابن هشام
٣١٤	بكاء الفرخ من أبي بكر
٣١٥	الذين كانوا يعلمون بالهجرة
٣١٥	الرسول ﷺ وأبو بكر في الغار

٣١٧	الذين قاموا بشؤون الرسول في الغار
٣١٨	لَمْ سُمِّيَتْ بذات النطاقين
٣١٨	الردّ على الرافضة فيما بهتوا به أبا بكر
٣١٩	راحلة النبي ﷺ
٣١٩	معية الله مع رسوله وصاحبه
٣٢٠	أبو جهل يضرب أسماء بنت أبي بكر
٣٢٠	خبر الجنّي الذي تغنى بمقدم الرسول ﷺ
٣٢١	آل أبي بكر بعد هجرته
٣٢١	خبر سراقه بن مالك
٣٢٤	حديث أم معبد
٣٢٥	نسب أم معبد وزوجها
٣٢٧	طريق الهجرة
٣٢٩	قصة أوس بن حجر
٣٣٠	الزول بقاء
٣٣٠	متى قَدِمَ الرسول ﷺ المدينة
٣٣١	المنازل التي نزلت بقاء
٣٣١	كلثوم بن الهمد
٣٣٢	بناء مسجد بقاء
٣٣٣	التاريخ العربي
٣٣٣	من ودخلها على الزمان
٣٣٤	القبائل تعترضه لينزل عندها
٣٣٥	مبرك الناقة بدار بني مالك بن النجار
٣٣٥	المربد وصاحبه
٣٣٦	المسجد والمسكن
٣٣٦	حول بنيان المسجد
٣٣٧	عمّار والفئة الباغية
٣٣٧	سُمِّيَ أم عمّار
٣٣٨	ارتجاز عليّ
٣٣٨	مشادة عمّار
٣٣٨	الرسول ﷺ يوصي بعّمار
٣٣٩	إضافة بناء أول مسجد إلى عمّار

٣٣٩	أطوار بناء المسجد
٣٣٩	بيوت النبي ﷺ
٣٤٠	الرسول ﷺ في بيت أبي أيوب
٣٤٠	مصير منزل أبي أيوب
٣٤١	تلاحق المهاجرين
٣٤٢	قصة أبي سفيان مع بني جحش
٣٤٣	انتشار الإسلام ومَن بقي على شركه
٣٤٣	الخطبة الأولى
٣٤٤	الخطبة الثانية
٣٤٤	من شرح الخطبة
٣٤٦	كتاب المواعدة لليهود
٣٤٦	متى دخل اليهود يثرب
٣٤٧	اسم يثرب
٣٤٧	تفسير على ربعاتهم
٣٤٨	من كلمات الكتاب
٣٥٠	المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
٣٥١	نسب أبي الدرداء
٣٥٢	بلال يوصي بديوانه لأبي رويحة
٣٥٣	نسب الفرع
٣٥٣	مؤاخاة حاطب بن أبي بلتعة
٣٥٥	بدء الأذان
٣٥٦	رؤيا عبد الله بن زيد
٣٥٩	رؤيا عمر في الأذان
٣٦٠	ما كان يقوله بلال في الفجر
٣٦١	أبو قيس بن أبي أنس
٣٦٢	من شرح شعره
٣٦٨	تسمية اليهود الذين نزل فيهم القرآن
٣٧٠	السحر المنسوب إلى النبي ﷺ
٣٧٢	فقه حديث السحر
٣٧٣	إسلام عبد الله بن سلام
٣٧٥	حديث مخيريق

٣٧٦	شهادة عن صفية
٣٧٧	من اجتمع إلى يهود من منافقي الأنصار
٣٧٨	ارتداد الحارث بن سويد وغدره
٣٨٥	طرد المنافقين من مسجد الرسول ﷺ
٣٨٧	ذكر ما أنزل الله في المنافقين
٣٩٠	ما نزل في منافقي الأوس والخزرج
٣٩٠	تفسير ابن هشام لبعض الغريب
٣٩٧	دعوى اليهود قلة العذاب في الآخرة ورد الله عليهم
٤٠١	سؤال اليهود الرسول، وإجابته لهم عليه الصلاة والسلام
٤٠٢	إنكار اليهود نبوة سليمان بن داود عليه السلام ورد الله عليهم
٤٠٢	كتابه إلى يهود خيبر
٤٠٣	ما نزل في أبي ياسر وأخيه
٤٠٦	كفر اليهود به ﷺ بعد استفتاحهم به وما نزل في ذلك
٤٠٦	ما نزل في نكران مالك بن الصيف العهد إليهم بالنبي
٤٠٨	معاني الحروف في أوائل السور
٤٠٩	مقالة اليهود عند صرف القبلة إلى الكعبة
٤١١	كتمانهم ما في التوراة من الحق
٤١٢	جمعهم في سوق بني قينقاع
٤١٤	تفسير آناء الليل
٤١٨	ذكر جمل من الآيات المنزلة في قصص الأخبار
٤٢٣	رجوعهم إلى النبي ﷺ في حكم الرجم
٤٢٦	قصدهم الفتنة برسول الله ﷺ
٤٢٦	جحدتهم نبوة عيسى عليه السلام
٤٢٧	ادعائهم أنهم على الحق
٤٢٧	إشراكهم بالله
٤٢٧	نهيهم تعالى للمؤمنين عن موادتهم
٤٢٨	سؤالهم عن قيام الساعة
٤٢٩	ادعائهم أن عزيزاً ابن الله
٤٢٩	طلبهم كتاباً من السماء
٤٣٠	سؤالهم له ﷺ عن ذي القرنين
٤٣٠	تهجمهم على ذات الله وغضب الرسول ﷺ لذلك